

الإحاطة
في

اختصار شرح ناطق

تأليف

أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد السلافي

المشهور بلسان الدين ابن الخطيب

المتوفى سنة ٧٧٦ هـ

بترجمة وضبطه وتقديم له

الأستاذ الدكتور يوسف عاي طویل

أستاذ الأدب الأندلسي والدراسات العليا
بجامعة اللبنانية

تنبيه:

وضعنا الفهارس العامة للمكتاب في آخر الجزء الرابع

المجلد الثاني

ملاحظات

محرر في بيروت

لقد طبع هذا الكتاب

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الإحاطة
في

إخبار شيخنا طاهر

تأليف

أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد السلطاني
الشهير بلسان الدين ابن الخطيب
المتوفى سنة ٧٧٦ هـ

بترجمة وتهيئة وتقديم

الأستاذ الدكتور يوسف عاي طويل
أستاذ الأدب في الأندلس والاندلسيات العليا
بالمعاصرة اللبنانية

تنبيه:

وضعنا الفهارس العامة للكتاب في آخر الجزء الرابع

الجزء الثاني

منشورات

محمد عيسى بيضون

لشركته النشر والثقافة والمطبعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

مستشارات محمد رشدي بيروت



دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright

All rights reserved

Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو
مجزأً أو تسجيله على أي وسيلة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على أي أسطوانة ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated,
reproduced, distributed in any form or by any means,
or stored in a data base or retrieval system, without the
prior written permission of the publisher.

Droits exclusifs à

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale
d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur
cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production
écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée
de l'éditeur.

الطبعة الأولى

٢٠٠٢ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

رمل الطريف - شارع البحتري - نهاية ملكارت

الإدارة العامة: صرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية

هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠ / ١١ / ١٢ / ١٣ (+٩٦١ ٥)

صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beirut - Lebanon

Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. - 1st Floor

Head office

Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah

Beyrouth - Liban

Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage

Administration général

Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3319-5



9 782745 133199

<http://www.al-ilmiyah.com/>

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

beydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم

محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن فرج
ابن يوسف بن نصر الخزرجي^(١)

أمير المسلمين لهذا العهد بالأندلس، صدر الصدور، وعلم الأعلام، وخليفة
الله، وعماد الإسلام، وقدوة هذا البيت الأصيل، ونير هذا البيت الكريم، ولباب هذا
المجد العظيم، ومعنى الكمال، وصورة الفضل، وعنوان السّعد، وطائر اليمن،
ومحول الصّنع، الذي لا تبلغ الأوصاف مداه، ولا تُوفي العبارة حقه، ولا يُجري
النظم والنثر في ميدان ثنائه، ولا تنتهي المدائح إلى غلبائه.

أولّيته: أشهر من إمتاع الضّحى، مستولية على المدى، بالغة بالسّعة بالانتساب
إلى سّعد بن عبادة عنان السماء، مُبتجّحة في جهاد العدا، بحالة من ملك جزيرة
الأندلس، وحسبك بها، وهي بها في أسنى المزاين والخلّي، وقُدّما فيه بحسب لمن
سمع ورأى.

حاله: هذا السلطان أيمن أهل بيته نقيبة، وأسعدهم ميلاذا وولاية، قد جمع الله
له بين حُسن الصورة، واستقامة البنية، واعتدال الخلق، وصحة الفكر، وثقوب
الذهن، ونفوذ الإدراك، ولطافة المسائل، وحسن التأني، وجمع له من الظرف ما لم
يُجمع لغيره، إلى الجلم والأناة اللذين يُحبهما الله، وسلامة الصدر، التي هي من
علامة الإيمان، ورقّة الحاشية، وسُرعة العبّرة، والتبريز في ميدان الطهارة والعفة، إلى
ضخامة التّنجّد، واستجادة الآلات، والكلف بالجهاد، وثبات القدم، وقوة الجأش،
ومشهور البسالة، وإيثار الرّفق، وتوخي السّداد، ونجح المحاولة. زاده الله من فضله،

(١) ترجمة الغني بالله محمد بن يوسف بن نصر في اللّحة البدرية (ص ١١٣، ١٢٩) وأزهار

وأبقى أمره في ولده، وأمتع المسلمين بعمره. ساق الله إليه الملك طواعية واختياراً، إثر صلاة عيد الفطر على بَغْتَةِ وفاة المُقَدَّس أبيه، من عام خمسة وخمسين وسبعمائة، لمخايل الخير، ومزية السن، ومَظَنَّة^(١) البركة، وهو يافع، قريب العهد^(٢) بالمُراهقة، فأثبته الله الثبات الحسن، وسَدَّلَ به السُّرَّ، وسَوَّغَ العافية، وهنأ العيش؛ فلم تُشْخ في مدته السماء، ولا كَلِب الأعداء، ولا تبدلت الألقاب، ولا عُوييت الشدائد، ولا عُرف الخوف، ولا فُورق الخُصْب، إلى أن كانت عليه الحادثة، ونابة التُمحيص الذي أكسبه الحُنْكة، وأفاده العبرة، فشهد بعناية الله في كَفِّ الأيدي العادية، وأخطأ أَلَم السُّهام الرأشقة، وتَخَيَّب الآمال المكايده، وأنسَدَّال أَرْوَقَة السُّر والعِصْمة، ثم العودة، الذي عَرَف الإسلام بدار الإسلام قَدَرَهَا، وتملاً عِزَّهَا وَرَجَحَ وزْنُهَا، كما اختبر ضِدَّهَا فرصة المُلْك، وشاع العدل، وبَعَدَ الصيِّت، وانتشر الذِّكْر، وفاض الخير؛ وعَزَزَ القَطْر، فظهرت البركات، وتوالت الفتوح، وتخلدت الآثار. وسيرد من بيان هذه الجمل، ما يسعه الترتيب بحول الله.

ترتيب دولته الأولى: إذ هو ذو دَوْلَتَيْن، ومُسَوَّغ ولايَتَيْن، عزَّزهما الله، بملك الآخرة، بعد العُمَر الذي يملأ صحايف البر، ويخلد حُسن الذِّكْر، ويُعرف إلى الوسيلة، ويرفع في الرفيق الأعلى الدرجة، عند الله خير وأبقى للذين آمنوا، وعلى ربهم يتوكلون.

وزراؤه وحجابه: انتدب إلى النيابة عنه، والتَّشْمِير إلى الحجابة ببابه، الشيخ القائد المعتمد بالتَّجَلَّة، المُتَحَوِّل من الخُدَّام الثُّبهاء، المتسود الأبوة؛ المخصوص بالِقَذْح المُعَلَّى من المزية، المُسَلَّم في خُصُوصِيَّة الملك والتربية، ظهير العلم والأدب، وأمين الجِدِّ، ومولى السُّلَف، ومُفَرِّغ الرأي إلى هذا العهد، وعَقْد سُفْرَة^(٣) السلطان، وبقية رجال الكمال من مشيخة^(٤) الممالك، وخيار الموالي، أبا النعيم رضوان، رحمه الله، فحمد الكل، وخلف السلطان، وأبقى الرُّتَب، وحَفِظ الألقاب، وبذل الإنصاف، وأوسع الكَنَف، واستدعى النصيحة، ولم يأل جَهْدًا في حُسن السيرة، وتَظَاهَر المَحْض، وأفردني بالمزية وعاملني بما يرتدُّ عنه جسرُ أطْرَف الموالاة والصُّحبة، ووفَّى لي الكَيْل الذي لا يقتضيه السُّن، والقُرْبَة من الاشتراك في الرتبة، والتَّزْحُج عن الهُضبة، والاختصاص باسم الوزارة على المُشْهَر والغَيْبة، والمحافظة على التَّشْييع والقدمة، بلغ في ذلك أقصى الغايات، مدارج التخلق الماثور عن الجَلَّة،

١) في اللوحة البدرية (ص ١١٣): «ومظنة الحصافة». ٢) في اللوحة البدرية (ص ١١٣): «ومظنة الحصافة».

(٢) في اللوحة: «قريب عهد بحال المراهقة». (٣) في اللوحة البدرية: «وعقدة السلطان...».

(٤) في اللوحة البدرية: «مشيخة ولأء بيتهم أبو النعيم رضوان».

والتودد إلى المرأة بعد المرأة، واختصصت بقوت المدة بالسلطان، فكنت المنفرد بسرّه
دونه، ومقضي همّه، وشفاء نفسه، فيما يُنكره من فتنة تقع في سيرته، أو تُصير توجيه
السّذاجة في معاملاته، وصلاح ما يتغير عليه من قلبه، إلى أن لحق بربه.

شيخ الغزاة ورئيس الجند الغربي لأول أمره:

أقر على الغزاة شيخهم على عهد أبيه، أبا زكريا يحيى بن عمر بن رحو بن
عبد الله بن عبد الحق، مَطْمَح الطّواف^(١)، ومَوْفَى الاختيار، ولُبَاب القوم، وبقية
السلف، جَزْمًا ودهاء، وتجربةً وحُكْمًا وإدراكًا، ناهيك من رجل قَدْ المَنازع،
غريبها، مستحقّ التقدير، شجاعةً وأصالةً، ورأيًا ومباحثةً، نسيابةً قبيلةً، وأضحى
قَسَمًا، وكسرى ساستهم، إلى لُطْف السّجية، وحُسن التّائي، لغرض السلطان، وطرق
التّنزل للحاجات، ورقّة غزل الشّفاعات، وإمتاع المجلس، وثقوب الذّهن والفهم،
وحُسن الهيئة. وزادة خصوصيّة ملازمته^(٢) مجلس الرّقاع^(٣) المعروضة، والرّسل
الواردة. وسيأتي ذكره في موضعه بحول الله تعالى.

كاتب سرّه: قمت لأول الأمر بين يديه بالوظيفة التي أسندها إليّ أبوه المولى
المقدّس، رحمه الله، من الوقوف على رأسه، والإمساك في التّهاني والمباينة بيده،
والكتابة والإنشاء والعرض والجواب، والخِلة والمُجالسة، جامعًا بين خدمة القلم،
ولقب الوزارة، معزّز الخطّ برسم القيادة، مخصصًا بالنيابة عنه في الغيبة، على كل
ما اشتمل عليه سور القلعة والحضرة، مطلق أمور الإيالة، محكمًا في أشتاته تحكيم
الأمانة، مُطلق الراية، ظاهر الجاه والنعمة. ثم تضاعف العزّ، وتأكد الرّعي، وتمخض
القرب، فنقلني من جلسة المواجهة، إلى صفّ الوزارة؛ وعاملني بما لا مزيد عليه من
العناية، وأحلني المحل الذي لا فوقه في الخصوصيّة، كافأ الله فضله، وشكر رعيه،
وأعلى محله عنده.

وأضدّر لي هذا الظّهير لثاني يوم ولايته: هذا ظهير كريم، صفي شربه. وسفرني
في الرسالة عنه، إلى السلطان، الخليفة الإمام، ملك المغرب، وما إليه من البلاد
الإفريقية، أبي عنان، حسبما يأتي ذكره. ثم أغفاني في هذه المدة الأولى، عن كثير
من الخدمة، ونوّه بي عن مباشرة العرض بين يديه بالجملة، فاخترت للكلّ والبذلة،
وما صان عنه في سبيل التجلّة، وإن كان منتهى أطوار الرّفعة، الفقيه أبا محمد بن

(١) في اللّوحة البدرية (ص ١١٦): «الطرف ومرمى الاختيار».

(٢) في اللّوحة البدرية (ص ١١٧): «بملازمة».

(٣) في اللّوحة البدرية (ص ١١٧): «مجلس العرض وملقى الرسل الواردة وإجالة قداح المشورة».

عطية^(١)، مُسْتَنْزَلًا عن قضاءه وادي آش وخطابتها، فكان يتولى ما يُكْتَب بنظري، وراجعًا لحكمي، ومرتدًا لبالي، مُكْفَى المؤنة في سبيل الحمل الكلي، إلى وقوع الحادثة، ونفوذ المشيئة بتحويل الدولة.

قضائه: جدد أحكام القضاء والخطابة لقاضي أبيه الشيخ الأستاذ الشريف^(٢)، نسيب وخدي، وفريد دهره، إغرابًا في الوفار، وحسن السميت، وأصالة البيت^(٣)، وتبحرًا في علوم اللسان، وإجهازًا في فضل القضايا، وانفرادًا ببلاغة الخطبة، وسبقًا في ميدان الدهاء والرجاحة، أبي القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسني، الجانح إلى الإيالة النصرية من مدينة سبته^(٤). وسيأتي التعريف به في مكانه، إن شاء الله. وتوفي، رحمه الله، بين يدي حدوث الحادثة، فأزجى الأمر بمكانه، إلى قدوم مُتَلَقِّف الكُرة، ومتعاور تلك الخطبة، الشيخ الفقيه القاضي، أبي البركات قاضي أبيه، ووليها الأحق بها بعده، إذ كان غايًا في السفارة عنه، فوقع التمهيص قبل إبرام الأمر على حال الاستنابة.

الملوك على عهده: وأولهم بالمغرب، السلطان، الإمام^(٥)، أمير المسلمين، أبو عنان^(٦) ابن أمير المسلمين أبي الحسن^(٧) ابن أمير المسلمين أبي سعيد ابن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، البعيد الشاؤ^(٨) في ميدان السعادة، والمُضْمِي أغراض السداد، ومُعْظَم^(٩) الظفر، ومُخَوِّل المؤهبة، المستولي على آماذ الكمال^(١٠)، عقلاً وفضلاً وأبهة ورؤاء، وخطاً وبلاغة، وحفظاً وذكاء^(١١) وفهماً وإقداماً^(١٢)، تغمده الله برحمته، بعثني إلى بابه رسولاً على إثر نيعة، وتمام أمره،

(١) في اللوحة البدرية (ص ١١٦): «الفقيه الكاتب أبا محمد عبد الحق بن أبي القاسم بن عطية...».

(٢) كلمة «الشريف» ساقطة في اللوحة البدرية (ص ١١٦).

(٣) قوله: «أصالة البيت» ساقط في اللوحة البدرية (ص ١١٦).

(٤) في اللوحة البدرية (ص ١١٦): «سبته إلى أخريات شعبان من عام ستين وسبعمائة، وتوفي رحمه الله».

(٥) في اللوحة البدرية (ص ١١٧): «الشهير».

(٦) في اللوحة البدرية: «المسلمين فارس ابن...».

(٧) في اللوحة البدرية: «أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب...».

(٨) في اللوحة البدرية: «شاؤ السعادة، المعنى...».

(٩) في اللوحة البدرية: «مُعْظَم».

(١٠) في اللوحة البدرية: «الآماذ البعيدة الكمالية أبهة...».

(١١) في اللوحة البدرية (ص ١١٧): «وإدراكاً...» (١٢) في اللوحة البدرية: «وإقداماً وشجاعة».

وخاطباً إثره ووّده، مُستَرَفِداً من مِنحة قبوله، فالفيتُ بشراً مَبذولاً، ورفداً ممنوحاً، وعزاً باذخاً، يضيق الزمان عن جلالته، وتقصر الألسنة عن كُنه وصفه، فكان دخولي عليه في الثامن والعشرين من شهر ذي قعدة عام خمسة وخمسين المذكور، وأنشدته بين يدي المُخاطبة، ومُضمن الرسالة: [المنسرح]

خليفةُ الله ساعِدُ القَدَرِ علاك ما لاح في الدُجى قمرُ

فأخسب وكفى، واحتفل واحتفى، وأفضتُ بين يديه كرمته، إلى الحضور معه في بعض المواضع المطلة على مورد رحب. هاج به الخُدام أسداً، أزود، شثن الكفّين، مُشعر اللبدة، حتى مَرَق عن تابوت خشبي كان مسجوناً به، من بعد إقلاعه، من بعض كواه، وأثارته من خلفه، واستشاط وتوقد بأساً. وجلب ثورَ عَبلُ الشوى، منتصبُ المروى، يقدمه صوارٌ من الجواميس، فقربت الخطى، وحميت الوغى، وبلغ الزئير والجوار ما شاء، في موقف من ميلاد الشيم العلى يخشى الجبان مقارعة العدا، ويوطن نفسه الشجاع على ملاقة الردى، وخار الأسد عن المبارزة، لما بلغ منه ثقافاً عن رد المناوشة، وبضطلعاً بأعباء المُحاملة، فتخطاه إلى طائفة من الرّجاله، أولي عُدّة، وذوي دُربة، حمل نفسه متطارحاً كشهاب الرّجم، وسرك الدُجى، وأخذته رماحهم بإبادته، بعد أن أزدى بعضهم، وجُدل بين يدي السلطان، متخبطاً في دمه. وعرض بعض الحاضرين، وأغرى بالنظم في ذلك، فأنشدته: [الكامل]

أنعامُ أرضك تَقْهَرُ الآسادا	طبعاً كسا الأرواح والأجسادا
وخصائصُ الله بِتّ ضروبها	في الخلق ساد لأجلها من سادا
إن الفضائل في حماك بضائع	لم تخش من بعد النُفاق كسادا
كان الهزيرُ محارياً فجزيته	بجزاء مَن في الأرض رام فسادا
فابغ المزيّد من آلائه بشكره	وارغم بما حوّلته الحُسادا

فاستحسن تأثي الفريحة، وإمكان البديهة، مع قَيْد الصُفة، وهيبة المجلس. وكان الانصراف بأفضل ما عاد به سفيرٌ، من واد أصيل، وإمدادٍ مَوْهوبٍ، ومهاداة أثيرة، وقطار مَجْنوب، وصامت مَحْمول، وطُعمية مَسُوعة. وكان الوصول في وسط محرم من عام ستة وخمسين وسبع مائة، وقد نجح السُغي، وأثمر الجُهد، وصَدَقَتِ المخيلة، وقد تضمّن رَخلي الوُجهة، والأخرى قبلها جزء. والحمد لله الذي له الحمد في الأولى والآخرة. وتوفي، زعموا، بحيلة، وقيل: خُف أنفه، لما نهكه المرض، وشاع عنه الإرجاف، وتنازع ببابه الوزراء، وتسابق إلى بابه الأبناء. وخاف مُدبّر أمره، عايذة ملامته، على توقع بُزئه، وكان سيفه يسبق على سوطه، والقبر أقرب إلى مَن

تعرض لعقبة من سجنه، فقضى موضع هذا السبيل خاتمة الملوك الجلة، من أهل بيته. جدّد الملك، وحفظ الرسوم، وأجرى الألقاب، وأغلظ العقاب، وصير إيالاته أضيّق من الخدّ. وأمدّ الأندلس، وهزم الأضداد، وخلد الآثار، وبنى المدارس والزوايا، واستجلب الأعلام. وتحرك إلى تلمسان فاستضافها إلى إيالاته، ثم ألحق بها قسنطينة وبجاية، وجهز أسطوله إلى تونس، فدخلها وتملكها بثقائه في رمضان عام ثمانية وخمسين وسبعمائة، واستمرت بها دعوته إلى ذي قعدة من العام، رحمة الله عليه. وكانت وفاته في الرابع عشر^(١) لذي حجة من عام تسعة^(٢) وخمسين وسبعمائة. وصار الأمر إلى ولده المسمى بالسعيد، المكنى بأبي بكر، مختار وزيره ابن عمر الفدودي. ورام ضبط الإيالة المشرقية فأعياه ذلك، وبايع الجيش الموجه إليها منصور بن سليمان^(٣)، ولجأ الوزير وسلطانه إلى البلد الجديد، مشى الخلافة المرينية، فكان أملك بها. ونازله منصور بن سليمان، ثم استقضى إليه أمر البلد لحزم الوزير وقوة شكيمة. وغادر السلطان أبو سالم إبراهيم بن السلطان أبي الحسن^(٤)، أخو الهالك السلطان أبي عنان، الأندلس، وقد كان استقرّ بها بإزعاج أخيه إياه عن المغرب، كما تقدم في اسمه، فطلع على الوطن الغربي بإعانة من ملك النصارى، عانى فيها هولا كثيرا، واستقرّ بآخرة بعد إخفاق شيعته المراكشية، بساحل طنجة، مستدعى ممن بجبال غمارة، ودخلت سبنة وطنجة في طاعته. وفرّ الناس عن منصور بن سليمان، ضربة لازب، وتقبّض عليه وعلى ابنه، فقتلا صبرا، نفعهما الله. وتملك السلطان أبو سالم المدينة البيضاء يوم الخميس عشر لشعبان عام ستين وسبعمائة، بنزول الوزير وسلطانه عنها إليه. ثم دالت الدولة. وكان من لحاق السلطان برنّدة، واستعانت به على ردّ ملكه ما يأتي في محله، والبقاء لله سبحانه.

وبتلمسان السلطان أبو حمّو موسى بن يوسف بن يحيى بن عبد الرحمن بن يغمّرس^(٥) بن زيان، قريب العهد باسترجاعها، لأول أيام السعيد.

وبتونس^(٦) الأمير إبراهيم ابن الأمير أبي بكر ابن الأمير أبي حفص ابن الأمير أبي بكر بن أبي حفص بن إبراهيم بن أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد، لنظر الشيخ

(١) في اللوحة البدرية (ص ١١٧): «الرابع والعشرين من ذي حجة عام تسعة...».

(٢) في الأصل: «تسع» وهو خطأ نحوي.

(٣) في اللوحة البدرية: «منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق».

(٤) في اللوحة البدرية: «أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب».

(٥) في الأصل: «يغمّراس» والتصويب من اللوحة البدرية (ص ١١٩).

(٦) في اللوحة البدرية: «وبإفريقية إبراهيم ابن الأمير أبي يحيى بن أبي بكر بن أبي حفص...».

رأس الدولة، وبقية الفضلاء، الشهير الذكر، الشائع الفضل، المعروف السياسة، أبي محمد عبد الله بن أحمد بن تافرايين، تحت مضايقة من عرب الوطن.

ومن ملوك النصارى بقشتالة^(١)، بطرؤه بن ألهنشه بن هراندة بن شانجه بن ألفنش^(٢) بن هرانده، إلى الأربعين^(٣)، وهو كما اجتمع وجهه، تولى^(٤) الملك على أخريات أيام أبيه في محرم عام أحد وخمسين وسبعمائة. وعقد معه سلم^(٥) على بلاد المسلمين. ثم استمر ذلك بعد وفاته في دولة ولده المترجم به، وغمرت الروم فتنة^(٦) وألقت العصا، وأغضت القضاء، وأجالت على الكثير من الكبار الردى، بما كان من إخافته سائر إخوانه لأبيه، من خاصته، العجلة الغالبة على هواه، فنبذوه على سوء بعد قتلهم أمهم، وانتزوا عليه بأقطار غرسهم فيها أبوهم قبل موته بمرعية أمهم. وسلك لأول أمره سيرة أبيه في عدوله عن عهوده بمكايبه لمنصبه، إلى اختصاص عجلة، أنف بحرّاه كبار قومه، من أجل ضياع بذره وانقراض عقبه، فمال الخوارج عليه، ودبروا القبض عليه، وتحصل في أنشودة، يقضي أمره بها إلى مطاولة عقله أو عاجل خلع، لولا أنه أفلت وتخلص من شرارها. فاضطره ذلك إلى صيلة السلم، وهو الآن بالحالة الموصوفة.

الأحداث في أيامه:

لم يحدث في أيامه حدث إلا العافية المصلحة والهذنة المتصلة، والأفراح المتجددة، والأمنة المستحكمة، والسلم المنعقدة. وفي آخر جمادى عام ستة^(٧) وخمسين وسبعمائة لحق بجبل الفتح^(٨)، فشتم شعبته، وأبر مَبْتوتَه^(٩)، كان على ثغره العزيز على المسلمين، من لدن افتتاحه، المؤسوم الخطة، المخصوص بمزية تشييده، عيسى بن الحسن بن أبي منديل^(١٠)، بقبية الشيوخ أولى الأصالة والذهاء، والتزيي بزي الخير، والمثل السائر في الانسلاخ من آية السعادة، والإغراق في سوء العقبي، والله غالب على أمره، فكان أملك بمصامه، وقر عينه بلقاء ولده، والتمتع منه بجواد عتيق. ملّي من خلال السياسة، أزداه سوء الحظ، وشؤم النُصبة، واطلم ما بينه وبين

(١) في اللوحة البدرية: «ويقشتالة». م

(٢) في اللوحة البدرية: «أربعين».

(٣) في اللوحة البدرية: «السلم».

(٤) كلمة «فتنة» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من اللوحة.

(٥) في الأصل: «ست» وهو خطأ نحوي. (٨) هو جبل طارق.

(٩) أي قام بتعليق أسواره وإصلاح أجزائه الخربة الهالكة. الإحاطة (ج ٢ ص ٢٣) حاشية رقم ٣.

(١٠) في اللوحة البدرية (ص ١٢٠): «منديل العسكري».

سلطانه، مسوغه برداء العافية على ثفه صغر، وملبسه رداء العقّة على قذح الأمور، أبدى منها الخوف على ولده، وعرض ديسم عزمه، على ذوبان الجبل، فانحطوا في هواه، وغرّوه بكاذب غصبة، فأظهر الامتناع سادس ذي قعدة من العام المذكور، واتصلت الأخبار، وساءت الظنون، وضاعت الصدور، ونكست الرؤوس لتوقع الفاقة، بانسداد باب الصريخ، وأثبتت سبب^(١) النصرة، وانبعث طمع العدو، وانحطت الأطماع في استرجاعه واستقالته، لمكان حصانته، وسمو الذروة، ووفور العدة، ووجود الطعمة، وأخذ بتلاشي الفرصة. ثم رذفت الأخبار بخروج جيشه صعبة ولده إلى منازلة أشتبونة^(٢)، وإخفاق أمله فيها، وامتناسك أهلها بالدعوة، وانتصافهم من الطائفة العادية؛ فبورر إليها من مألقة بالعدد. وخوطف السلطان من ملك المغرب، أيده الله، بالجلية، فتحققت المنابذة؛ واستقرت الظنون. وفي الخامس والعشرين من شهر ذي قعدة، ثار به أهل الجبل، وتبرأ منه أشياعه، وخذلوه بالفرار، فأخذت شعابته ونقابته، فكرّ راجعاً أذراجه إلى القاعدة الكبيرة، وقد أعجله الأمر، وحملته الطمأنينة على إغفال الاستعداد بها، وكوثر^(٣) فألقى به، وقد لحق به بعض الأساطيل بسبئية، لداعي تسور توطى على إمارته، فقيّد هو وابنه، وخيض بهما البحر للحين، ولم ينتطح فيها عثران، رحمه الله؛ سنام فئة ألفت بركها، وأناخت بكلكلها، وقد قدر أنها واقعة، ليس لها من دون الله كاشفة، فقد كان من بالجبل برموا على إيالة دينك المرتسمين، وألقوا أجوارها، وأعطوها الصفقة، بما أطمعهما في الثورة، ولكل أجل كتاب. واحتمل إلى الباب السلطاني بمدينة فاس، ويرز الناس إلى مباشرة إيصالهما مجلوين في منصة الشهرة، مرفوعين في هضبة المثلة. ثم أمضى السلطان فيهما حكم الفساد، بعد أيام الحراية، فقتل الشيخ بخارج باب السمارين من البلد الجديد، بأيدي قرابته، فكان كما قال الأول: [الكامل]

أضحت رماح بني أبيه تنوشه لله أرحام هنالك تُشقق

وقطعت رجل الولد ويده، بعد طول عمل وسوء تناول، ولم ينشب أن استنقذه جمائه فأضحى عبرة في سرعة انقلاب حالهما من الأمور الحميدة، حسن طلعة، وذياح حمد، وفضل شهرة، واستفاضة خيرية، ونباهة بيت، وأصالة عز، إلى ضد هذه المخلال، وقانا الله مصارع السوء، ولا سلب عنا جلباب السر والعافية.

(١) كلمة «سبب» ساقطة في اللمحة البدرية.

(٢) أشتبونة بالإسبانية Estepona: وهي بلدة تقع على البحر المتوسط، وشمال جبل طارق.

الإحاطة (ج ٢ ص ٢٤) حاشية رقم ٣.

(٣) أي كثر خصومه.

وسد السلطان ثغر الجبل بآخر من ولده اسمه السعيد، وكنيته أبو بكر، فلهق به في العشر الأول من المحرم من عام سبعة وخمسين وسبعمائة، ورتب له بطانته، وقدر له أمره، وسوغه رزقاً رغداً، وعيشاً خفصاً. وبادر السلطان المترجم له، إلى توجيه رسوله؛ قاضياً حقه، مقرر الشُرور بجواره، وأتبع ذلك ما يليق من الحال من برٍّ ومهاداة ونزل، وتعقبت بعد أيام المكافآت، فاستحكم الوُدُّ، وتحسنت الألفة إلى هذا العهد، والله وليُّ توفيقهم ومُسني الخير والخيرة على أيديهم.

الحادثة التي جرت عليه:

واستمرت أيامه كأحسن أيام الدول، خفصُ عيش، وتوالي خصب، وشياعُ أمن، إلا أن شيخ الدولة القائد أبا النعيم، رحمه الله، أضاع الحزم. وإذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره، سلب ذوي العقول عقولهم، بما كان من أمنه جانب القصر الملزم دار سكناه، من علية فيها أخو السلطان، بتهاونه، يحيل أمه المداخلة في تحويل الأمر إليه، جُملة من الأشرار، دار أمرهم على زوج ابنتها الرئيس محمد بن إسماعيل بن فرج من القرابة الأخلاف، وإبراهيم بن أبي الفتح، والدليل الموروري، وأمدته بالمال، فداخل القومُ جُملةً من فرسان القيود، وعمرة الشُجون، وقلاميد الأسوار. وكانت تتردد إليه في سبيل زيارة بنتها الساكنة في عصمة هذا الخبيث، المنزوع العصمة، خارج القلعة حتى تم يوم الأربعاء الثامن والعشرين لرمضان من العام، اجتمعوا وقد خفي أمرهم، وقد تألفوا عددًا يناهز المائة بالقوس الداخل من وادي هذاره إلى البلد، لصق الجناح الصاعد منه إلى الحمراء، وكان بسورها ثلم، لم يتم ما شرعوا فيه من إصلاحه؛ فنصبوا سلماً أعده لذلك، وصعدوا منه. ولما استوفوا، قصدوا الباب المضاع المسلحة، للثقة بما قبله؛ فلما تجاوزوه أعلنوا بالصياح، واستغلظوا بالتهويل، وراعوا الناس بالاستكثار من مشاعل الخلفاء، فقصدت طائفة منهم دار الشيخ القائد أبي النعيم؛ فاقتحمته غلاباً وكسرت أبوابه؛ وقتلته في مضجعه؛ وبين أهله وولده، وانتهبت ما وجدت به. وقصدت الأخرى دار الأمير، الذي قامت بدعوته، فاستنجزته واستولت على الأمر. وكان السلطان متحوّلاً بأهله إلى سكنى «جئة العريف» خارج القلعة، فلما طرقه النبا؛ وقرعت سمعه الطبول سده الله؛ وساند أمره في حال الحيرة، إلى امتطاء جواد كان مُرتبطاً عنده في ثياب تبذله ومصاحباً لأفراد من ناسه؛ وطار على وجهه، فلهق بوادي آش قبل شُبوق نكبتة، وطرق مكانه بأثر ذلك، فلم يُلَف فيه، وأُتبع فأغيا المُشيع. ومن الغد، استقام الأمرُ لأولي الثورة، واستكملوا لصاحبهم أمر البيعة، وخاطبوا البلاد فألقت إلى صاحبهم بالأزمة، وأرسلوا إلى ملك النصارى في عقد الصلح. وشرعوا في منازل وادي آش، بعد أن ثبت أهلها مع

المُعْتَصِمُ بِهَا، فَلَا زِمَتَهُ الْمَحَلَّاتُ وَوَلِيَّ عَلَيْهِ التَّضْيِيقُ، وَخِيفَ فَوَاتِ الْبَدْرِ وَنَفَادِ الْقُوَّةِ، فَشَرَعَ السُّلْطَانُ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِهِ، وَخَاطَبَ السُّلْطَانُ أَبَا سَالِمٍ مَلِكَ الْمَغْرِبِ فِي شَأْنِ الْقُدُومِ عَلَيْهِ، فَتَلَقَّاهُ بِالْقَبُولِ وَبَعَثَ مَنْ يَمْهَدُ الْحَدِيثَ فِي شَأْنِهِ، فَتَمَّ ذَلِكَ ثَانِي يَوْمٍ عِيدِ النَّحْرِ مِنَ الْعَامِ. وَكُنْتُ عِنْدَ الْحَادِثَةِ عَلَى السُّلْطَانِ، سَاكِنًا بِجَنَّتِي الْمُنَسُوبَةِ إِلَيَّ مِنَ الْحَضْرَةِ، مُنْتَقِلًا إِلَيْهَا بِجَمَلَتِي، عَادَةُ الْمُتَرْفِينَ، إِذْ ذَاكَ مِنْ مِثْلِي، فَتَخَطَّانِي الْحَتْفُ، وَنَالَتْنِي النَكْبَةُ، فَاسْتَأْصَلْتُ النِّعْمَةَ الْعَرِيضَةَ، وَالْجِدَّةَ الشَّهِيرَةَ، فَمَا ابْتَقَتْ طَارِقًا وَلَا تَلِيدًا، وَلَا ذَرَّتْ قَدِيمًا وَلَا حَدِيثًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مُخَفِّفِ الْحَسَابِ، وَمَوْقِظِ أُولِي الْأَلْبَابِ، وَلَطَفِ اللَّهِ بِأَنْ تَغَطَّفَ السُّلْطَانُ بِالْمَغْرِبِ إِلَى شَفَاعَةِ بِي بَخْطِهِ، وَجَعَلَ أَمْرِي مِنْ فُصُولِ قُضْدِهِ. فَفُكْتُ عَنِّي أَصَابِعُ الْأَعْدَاءِ، وَاسْتُخْلَصْتُ مِنْ أَنْيَابِهِمْ، وَلِجِئْتُ بِالسُّلْطَانِ بِوَادِي آشٍ، فَذَهَبَ الْبَاسُ، وَاجْتَمَعَ الشُّمْلُ. وَكَانَ رَحِيلُ الْجَمِيعِ ثَانِي عِيدِ النَّحْرِ الْمَذْكُورِ، فَكَانَ النَّزُولُ بِفَحْصِ الْفَنْتِ، ثُمَّ الْإِنْتِقَالُ إِلَى لَوْشَةٍ، ثُمَّ إِلَى أَنْتَقِيرِهِ، ثُمَّ إِلَى ذَكْوَانَ، ثُمَّ إِلَى مَزْبَلَةٍ، يَضُمُّ أَهْلُ كُلِّ مَحَلٍّ مِنْ هَذِهِ مَاتَمًا لِلْحَسْرَةِ، وَمَنَاحَةً لِلْفُرْقَةِ. وَكَانَ رُكُوبُ الْبَحْرِ صَخُوعَ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ، وَالِاسْتِقْرَارُ بِمَدِينَةِ سَبْتَةٍ، وَكَفَى بِالسَّلَامَةِ غُنْمًا، وَالْأَرْضُ لِلَّهِ يَوْزُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ.

وَكَانَ الرَّحِيلُ إِلَى بَابِ السُّلْطَانِ، تَحْتَ بَرْ لا تَسْعُهُ الْعِبَارَةُ، وَلِقَاؤُنَا إِيَّاهُ بِظَاهِرِ الْبَلَدِ الْجَدِيدِ لِلْإِمَامِ أَلَمْ عَاقَةً عَنِ الْإِصْحَارِ وَالتَّغْيِي عَلَى الْبَعْدِ، يَوْمَ الْخَمِيسِ السَّادِسِ لِمَحْرَمٍ مِنْ عَامٍ أَحَدٍ وَسْتَيْنَ بَعْدَهُ، فِي مَرْكَبٍ هَائِلٍ، وَاحْتِفَالٍ رَائِعٍ رَائِقٍ، فَعُورِضٌ فِيهِ النَّزُولُ عَنِ الصُّهُوَاتِ، وَالْبَرْ اللَّائِقُ بِمَنَاصِبِ الْمُلُوكِ، وَالْوُصُولُ إِلَى الدَّارِ السُّلْطَانِيَّةِ، وَالطَّعَامُ الْجَامِعُ لِلطَّبَقَاتِ وَشِبُوحِ الْقَبِيلِ. وَقَمْتُ يَوْمَئِذٍ فَوْقَ رَأْسِ السُّلْطَانِ وَبَيْنَ يَدَيْ مَوْمَلِهِ، فَأَنْشَدْتُهُ مُغْرِيًا بِنَصْرِهِ، كَالْوَسِيلَةِ بِقَوْلِي^(١): [الطَّوِيلُ]

سَلَا هَلْ لَدَيْهَا مِنْ مُخْبِرَةٍ ذَكَرُ؟ وَهَلْ أَغْشَبَ الْوَادِي وَثَمَّ بِهِ الزُّهْرُ؟

فَهَاجَ الْإِمْتِعَاضُ، وَسَالَتِ الْعَبْرَاتُ، وَكَانَ يَوْمًا مَشْهُودًا، وَمَوْقِفًا مَشْهُورًا، طَالَ بِهِ الْحَدِيثُ، وَعَمَرَتْ بِهِ النُّوَادِي، وَتَوَزَّعَتْنَا النَّزَائِلُ عَلَى الْأَمَلِ، شَكَرَ اللَّهُ ذَلِكَ وَكَتَبَهُ لِأَهْلِهِ، يَوْمَ الْإِفْتِقَارِ إِلَى رَحْمَتِهِ. وَاسْتَمَرَّتِ الْأَيَّامُ، وَدَالَتِ الدَّوْلَةُ لِلرَّئِيسِ بِالْأَنْدَلُسِ، وَالسُّلْطَانُ تَغْلِبُهُ الْمَوَاعِيدُ، وَتَوَنَّسَهُ الْأَمَالُ، وَالْأَسْبَابُ تَتَوَقَّرُ، وَالْبِوَاعِثُ تَتَأَكَّدُ. وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا هَيَأَ أَسْبَابَهُ، وَاسْتَقَرَّتْ بِي الدَّارُ بِمَدِينَةِ سَلَا، مُرَابِطًا، مُسْتَمْتَعًا بِالْغَيْبَةِ، تَحْتَ نِعْمَةٍ كَبِيرَةٍ، وَإِعْفَاءٍ مِنَ التَّكْلِيفِ.

(١) البيت مطلع قصيدة من ٧٥ بيتًا وردت في الكتيبة الكامنة (ص ١٢٢ - ١٢٥) وكتاب العبر (م ٧ ص ٦٣٨ - ٦٤٢) ونفح الطيب (ج ٧ ص ٨٠ - ٨٤) وأزهار الرياض (ج ١ ص ١٩٦ - ٢٠٠).

وفي اليوم السابع لشوال من عام التاريخ، قَعَدَ السلطان بقبة العرض بظاهر جنة المصارة لتشيعه^(١)، بعد اتخاذ ما يصلح لذلك؛ من آلة وجلية، وقد برز الخلق، لمشاهدة ذلك الموقف المسيل للدموع، الباعث للرقّة، المثبّع بالدعوات، لما قَدَفَ الله في القلوب من الرحمة، وصَحِبَه به في التغرّب من العناية، فلم تَنَبُّ عنه عين، ولا خَمَل له مَوَكِب، ولا تقلّصت عنه هيبة، ولا فارقت حشمة، كان الله له في الدنيا والآخرة. وأجاز، واضطربت الأحوال، بما كان من هلاك مُعِينه السلطان أبي سالم، وعَذر الخبيث المؤتمن على قَلْعته به، عمر بن عبد الله بن علي، صَعَّرَ الله جِزْبَه، وخَلَدَ جِزْبَه، وسَقِطَ في يده، إلا أنه ثَبَّتَ في رُندة من إيالة الأندلس، الراجعة إلى إيالة المغرب، قدمه، فتعلّل بها، وارتأش بسببها، إلى أن فتح الله عليه، وسدّد عَزْمَه، وأراه لما ضَعُفَت الحيل صُنْعَه، فتحرّك إلى برّ مالقة، وقد فَعَّرَ عليها العدو فَمَه، ثم أقبل على مالقة، مستميتاً دونها، فسَهّلَ الله الصُّعب، وأنجح القصد، واستولى عليها، واثّالت عليه لحينها البلاد، وبدا الرّيس الموثّب على الحضرة، بعد أن استَوْعَبَ الذّخيرة والعُدّة، في جُملة ضخمة ممن خاف على نفسه، لو وفّى بذمّة الغادر وعهده، واستقرّ بنادي صاحب قُشالة، فأخذه بجريّته^(٢)، وحكّم الحيلة في جُنائته وعُذره، وألحق به من شاركه في التّسور من شيعته، ووجّه إلى السلطان برؤوسهم تَبَع رأسه. وحثّ السلطان أسعده الله خطاه إلى الحضرة، يتلقاه الناس، مُستبشرين، وتتزاحم عليه أفواجهم مُستقبلين مُستغفرين، وأحقّ الله الحقّ بكلماته، وقطع دابر الكافرين.

وكان دخول السلطان دار مُلكه، وعَوْدَه إلى أريكة سلطانه، وحلوله بمجلس أبيه وجَدّه، زوال يوم السبت المُوفي عشرين لجمادى الثانية من عام ثلاثة وستين وسبعمائة، جعلنا الله من همّ الدنيا على حَذَر، وألهمنا لما يَخْلُصُ عنده من قول وعمل. وتخلّف الأميرُ وولده بكره، أسعده الله، بمدينة فاس فيمن معه من جملة، وخلفه من حاشية ولد المُستولي على مُلك المغرب في إمساكه إلى أن يسترجع رُندة في مُعارضة هدفه. ثم إن الله جمع لأبيه بجمع شمله، وتَمّم المقاصد بما عَمّه من سعده. وكان وُصُولي إليه معه، في مَحْمِل اليُمن والعافية، وعلى كِشَر التّيسير من الله والعناية يوم السبت المُوفي عشرين شعبان عام ثلاثة وستين وسبعمائة.

(١) أي لتشيع سلطان غرناطة المخلوع.

(٢) الجريرة: الذنب والجناية. لسان العرب (جر).

ترتيب الدولة الثانية السعيدة الدور إلى بيعة الكور:

هنا المسلمين ببركتها الوافرة، ومزاياها المتكاثرة، السلطان، أيده الله، قد مر ذكره، ويسر الله من ذلك ما تيسر.

وزراؤه: اقتضى حزمه إغفال هذا الرسم جملة، مع ضرورته في السياسة، وعظم الدخول، حذرًا من انبعاث المكروه له من قبله، وإن كان قدّم بهذا اللقب في طريق منصرفه إلى الأندلس، وأيامًا من مقامه برئدة، فتخله عن كرهه، علي بن يوسف بن كماشة، من عتاق خدامه وخدام أبيه، مستصحبًا إياه، مسدول التَّجْمُل على باطن نفرة، مختوم الجُزم، على شوكة، في خطبه في حبل المتغلب، وإقراضه السيئة من الحسنه، والمنزل الحُشين، إلى الإنفاق منه على الخلال الذميمة، ترأسها خاصة الشوم، علاوة على حمل الشيخ الغريب الأخبار، والطمع في أرزاق الدور، والاستراية بمودة الأب، وضيق العطن، وقصر الباب، وعي اللسان، ومشهور الجبن. ولما وقع القبض، وساء الظن، بعثه من رُندة إلى الباب المريني ليخلي منه جُنْدَه، ويجسُ مرض الأيام، بعد أن نقل من الخطة كعبه، فتيسر بعد منصرفه الأمر، وتسنى الفتح. وحمله الجشع الفاضح، والهوى المتبع، على التشطُّط لنفسه، والكذب لخويصته بما أقطعه الجفوة، وعسر عليه العودة على السلطان بولده، إلى أن بلغ الخبر برجوع أمره، ودخول البلاد في طاعته، فالقى ما تعين إليه، وأهوى به الطمع البالغ في عرش الدولة، ويرتاش في ريق انتقامها. وتحرك وراية الإخفاق خافقة على رأسه، قُطِب مخلصه، وجؤجوة عوده، من شيخ تدور بين فتكه رخي جعجعة، وتثور بين أضلاعه حية مكيدة، ويتعق فوق مساعيه غراب شوم وطيرة. وحدث حرفاؤه صرًا من مداخلة سلطان قشتالة، أيام هذه المجاورة، فبلغ أمنيته من ضرب وعد؛ واقتناء عهد، واتخاذ مدد، وترصيد دار قرار، موهما نفسه البقاء والتعمير والتعلي، وانفساح المدة والأمر، وقيادة الدَّجَن^(١) عند تحوُّل الموطن لجملة الكُفَر، يسمح لذلك، لنقصان عقله، وقلة حيائه وضعف غيرته. وطوى المراحل، وقبض حُمى تزلزل لها فكاه، أضلها الحسرة، وانتزأ الخبائث. وتلقاه بمالقة، إيعاز السلطان بالإقامة بها، لما يتصل به من سوء تصريفه، ثم أطلع شافع الحياء في استقامة وطنه طوق عثبه، وصرفه إلى منزله، ناظرًا في علاج مرضه. ثم لما أفاق وقفه دون حده، ولم يسند إليه شيئًا من أموره، فشرع في ديدنه من الفساد عليه، وتمرس سلطان قشتالة، شاكيا إليه بثه، وأضجر لسكنى باديته بالثغر، فراب السلطان أمره، وأهمه شأنه، فتقبض عليه وعلى ولده، وصرفا في

(١) يقصد بهم المدجنين وهم المسلمون الأندلسيون الذين بقوا في أرضهم التي افتتحها النصارى.

جُمْلَةً من دائرة السوء ممن ثقلت وطأته، ففُزُّوا إلى تونس، أوائل شهر رمضان من عام ثلاثة وستين. ثم لما قفل من الحج، واستقرَّ بِبِجَاية يُريد المغرب، حَنَّ إلى جوار النُصْرانية، التي ريمَ سلفه العبودية إليها، فعبر البحر إلى بَرْجِلونة^(١)، ينقُضُ عنه طريق الحج على الصُّلبان، ويقفُّ على آثار تقييل الحجر الأسود، تقييل أيدي الكُفَّار. ثم قصد باب المَغْرِب رسولاً عن طاغية بَرْجِلونة في سبيل فسادٍ على المسلمين، فلم ينجح فيه قصده، فتقاعد لَمَّا خسر فيه ضمانه، وصَرَفَ وكَّره إلى الاتصال بصاحب قشتالة، وعَنَّ على كُتُبٍ إليه بخطه، يتفقُّ عنده ويُغريه بالمسلمين، فتقبَّض عليه، وسُجن بفاس مع أرباب العجرائم. وعلى ذلك استقرَّ حاله إلى اليوم، وأبرأ إلى الله من التَّجاوز في أمره. ومن يُضِلُّ الله فما له من هاد.

ولَمَّا وَقَدْتُ على السلطان بولده، وقَرَّت عيني بلفائه، تحت سدَّاده وعِزِّه، وفوق أريكة مُلكه، وأذيتُ ما يجب من حقِّه؛ عرضتُ عليه غرضي، ونفَّضتُ له خزانة سِرِّي، وكاشفته ضميري بما عقدتُ مع الله عهدي، وصرفتُ إلى التَّشريق^(٢) وجهي، فعليقت بي لركومه علوق الكرامة، ولاطفني بما عاملت البرَّ بين الدَّعر والضَّئانة، ويضربُ الآماد، وخرج لي عن الضرورة، وأراني أن مُؤازرته أبرُّ القُرب، وراكني إلى عهدٍ بخطه، فسَح فيه لعامين أمدَ الثَّواء، واقتدى بشُعيب، صلوات الله عليه، في طلب الزَّيادة على تلك النُّسبة، وأشهد من حضر من العلية، ثم رمى إلي بعد ذلك بمقاليد رأيه، وحكَّم عقلي في اختيار عَقْلِهِ، وغطَّى من جَفائي بحلِّيه، وحنَّ في وجوه شهواته ترابَّ زَجْري، ووقَّف القبولَ على وُعْظي، وصَرَفَ هواه في التحول ثانياً وقصدي، واعترف بقبول نصحي، فاستعشتُ بالله، وعاملتُ وجهه فيه. وصادقتي مُقارضة الحقِّ بالجهاد، ورمى إليَّ بدُنياه، وحكَّمني فيما مَلَكَته يده، وغَلَبني على أمره لهذا العهد، والله غالبٌ على أمره. فأكمل المقام ببابه إلى هذا التاريخ مُدَّة أجري الله فيها، من يُمن النُّقية، وأطراد السُّداد، وطُرد الهوى، ورَفُض الزُّور، واستِشعار الجَدِّ، وتُضح الدين، وسَدُّ الثُّغور، وصون الجِباية، وإنصاف المُرتزقة، ومُحاولة العدو، وقَرع الأسماع بلسان الصُّدق، وإيقاظ العُيون من نوم الغفلة، وقَذح زِناد الرُّجولة، ما هو معلوم، يُعَصَّد دعواه، والله المنة، سجية السُّداجة، ورفع التَّسْمُت، وتكُور المِئساة، وتَفويت العقار في سبيل القُربة، والزُّهد في الزُّبرج^(٣)، وبثَّ جِبال الآمال، والتَّعزير بالله عن الغُيِّمة، وجعل الثوب غطاء الليل، ومقعد المطالعة فراش

(٢) يريد أنه قصد مكة لقضاء فريضة الحج.

(١) هي برشلونة.

(٣) الزُّبرج: الزينة من وشي أو جوهر ونحو ذلك، والذهب. محيط المحيط (زبرج).

الثوم، والشغل لمصلحة الإسلام، لرَيم الأنفاس، فائمر هذا الكرخ، وأثبج هذا المسعى مناقب الدولة، بلغت أعنان السماء^(١)، وآثارًا خالدة ما بقيت الخضراء على الغبراء، وأخبارًا تُنقل وتُروى، إن عاندها الحاسدُ، فُضِّحه الصُّباح المنيرُ، وكأثره القَطَر المُنثال، وأغياه السَّيل المُتدافع.

فما يختص من ذلك بالسلطان، فخامة الرتبة، ونباهة الألقاب، وتجميلُ الرياش، وتربيع الشريعة، وارتفاعُ الشَّاجِر ببابه، والمنافسةُ والاعتباطُ منه، بمجالس التنبيه والمذاكرة، ویدارُ الدموع في حال الرِّقة، والإشادةُ باحتقار الدنيا بين الخاصة، وتعيينُ الصدقات في الأوقات العديدة، والقعودُ لمباشرة المظالم ستة عشر يومًا في كل شهر من شهور الأهلة، يصلُ إليه فيها اليتيمُ والأزمنة، فيفرحُ الضعيف، ويتنظر حضورَ الزمن، ويتغمدُ هفوة الجاهل، ويتأثر لشكوى المصاب، ويعاقب الوزعة على الأغلاط، إلى إحسان الملكة في الأسرى، والإغراب في باب الجلم، والإعفاء في ترك الحظ، والتبري من سجيّة الانتقام، والكلف بارتباط الخيل، واقتناء أنواع السلاح، ومباشرة الجهاد، والوقار في الهيئات^(٢)، وإرسال سجيّة الإيمان، وكساد سوقِ المكيدة، والتصائم عن السعاية؛ هذا مع الشباب الغض، والفاحم الجغد، وتعدّد حبائل الشيطان في مسالك الغمر، ومطاردة قانص اللذات في ظلّ السّلم، ومغازلة عيون الشهوات من ثنايا الملوك. وأيمُ الله الذي به تُستخلص الحقوق، وتُستور السُّتور، وتُستوثق العهود، ولا تطمئن القلوب إلّا به؛ ما كاذبته، ولا راضيتُ في الهوادة طوّله، ولا سامحته في نقيض هذه الخلال. ولقد كنتُ أعجبُ من نفاق أسواق الذكري لديه، وانتظام أقيسة النصح عنده، وإيقاع نبات الرُّشد فيه نصيحة، وأقول: بارك الله فيها من سجيّة، وهنّا المسلمين بها من نفس زكيّة. وسيأتي بيان هذه النتائج، وتفسيرُ مُجملِ هذه الفضائل بحول من لا حول إلّا به سبحانه. والحال متصلة على عهده الوثير من إعانته بالوسوع والخروج له عن هذه العُقدة، والتسليم له في البقيّة، إرهافًا لسيف جهاده، وجلاءً لمرآة نُصحه، وتسوية لميزان عدله، وإهابة لمُحمد رُشده، شدُّ العقدة، عقدةٌ وغيره على حُرمة ماله وعِرْضه، ورعاية للسان العِلْم المُنبئ عن شأنه، ونيابةً عنه في مَعْقِل مُلكه، ومُستودع ماله وذخيرته، ومحافظة على سيره وعلانيته لحُرمة وولده، وعُمرانًا للجوانح بتفضيله وحبّه، معاملةً أخلص الله قصدها لوجهه، وأُمَحِّضها من أجله، ترفعه عن جِراية

(١) كلمة «السما» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليكتمل المعنى والسجعة معًا.

(٢) الهيئات: جمع هيعة وهي كل ما أفرعك من صوت أو فاحشة تُشاع. محيط المحيط (هـ).

رَحَلَ هَلَالُهَا، وإِقْطَاعُ تَنْجَعِ قَدْرَتُهُ، أَوْ فِصْلَةُ تَعَبْتُ الْبَنَانَ بِنَشِيرِهَا، وَخُطَّةٌ تَشَدُّ إِلَيْهِ عَلَى مَنْشُورِهَا. وَاللَّهُ يُزْجِعُ مِيزَانِي عِنْدَهُ، وَيَحْظِي وَسِيلَتِي لَدَيْهِ، وَيَحْرُكُ مِكَافَاةَ سَعْيِي فِي خَوَاطِرِ حُجَّتِهِ، وَيُنَبِّهُ لَتَبْلِيغِ أَمَلِي مِنْ حَجِّ بَيْتِ اللَّهِ، وَزِيَارَةِ رَسُولِ اللَّهِ، بِمَنْهَ وَكْرَمِهِ، فَمَا عَلَى اسْتِخْثَاتِ الْأَجَلِ مِنْ قَرَارٍ، وَلَا بَعْدِ الشُّيْبِ مِنْ إِعْذَارٍ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

أولاده^(١): كَمُلَ لَهُ فِي هَذَا الْوَقْتِ مِنَ الْوَلَدِ أَرْبَعَةٌ؛ ثَلَاثَتُهُمْ ذُكُورٌ، يَوْسُفُ بَكْرُهُ، وَأَرَاهُ يَتْلُوهُ سَعْدٌ، ثُمَّ نَصْرٌ، غِلْمَةٌ رُوقَةٌ، قَدْ أَفْرَغَهُمُ اللَّهُ فِي قَالِبِ الْكَمَالِ، إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسَبْتَهُمْ لَوْلَا مَنْشُورًا، فَسَخَّ اللَّهُ لَهُمْ أَمَدَ السَّعَادَةِ، وَجَعَلَ مَسَاعِيَهُمْ جَانِحَةً إِلَى حُسْنِ الْعُقْبَى، سَالِكًا بِهِمْ سَبِيلَ الْإِهْتِدَاءِ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ.

قضاياه^(٢): قَدَّمَ لِأَوَّلِ قَدُومِهِ، الْفَقِيهَ الْقَاضِيَّ، الْحَسِيبَ، الْخَيْرَ، أَبَا جَعْفَرِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ جُزَيٍّ، شَاكِرًا بِلَاءِهِ بِمَالَقَةٍ، إِذْ كَانَ قَدْ أَلْقَاهُ قَاضِيًا بِهَا لِلْمُتَغَلَّبِ، فَلَمْ يَأَلُ جَهْدًا فِي الْإِجْلَابِ عَلَى مَنْ اعْتَصَمَ بِقَضَبَتِهَا، وَالتَّحْرِيزِ عَلَى اسْتِثْنَائِهِمْ، فَاتَّخَذَ زُلْفَةً لَدَيْهِ، فَأَجْرَى الْأَحْكَامَ، وَتَوَخَّى السُّدَادَ. ثُمَّ قَدَّمَ^(٣) إِلَيْهَا الْفَقِيهَ الْقَاضِيَّ الْحَسِيبَ، أَبَا الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ، عَيْنَ الْأَعْيَانِ بِبَلَدِهِ مَالَقَةٍ، وَالْمَخْصُوصَ بِرَسْمِ التَّجْلَةِ، وَالْقِيَامَ بِوِظَافَةِ^(٤) الْعَقْدِ وَالْحَلِّ بِهَا^(٥) فِي الدَّوْلَةِ الْأُولَى، وَأَصَالَةَ الْبَيْتِ، وَالْإِنْقِطَاعَ إِلَيْهِ، وَمَصَاحِبَةَ رِكَابِهِ فِي طَلَبِ الْمُلْكِ، وَمُتَسَوِّرَ الْمَشَاقِ مِنْ أَجَلِهِ، وَأُولَى النَّاسِ بِاسْتِدْرَارِ خَلْفِ دَوْلَتِهِ، فَسَدَّدَ وَقَارِبَ، وَحَمَلَ الْكُلَّ^(٦)، وَاحْسَنَ فَصَاحَةً^(٧) الْخُطْبَةِ وَالْخُطَّةِ، وَأَكْرَمَ الْمَشِيخَةَ وَأَرْضَى، وَاسْتَشْعَرَ التَّزَاهَةَ، وَلَمْ يَقِفْ فِي حُسْنِ التَّائِي عِنْدَ^(٨) غَايَةٍ، وَاشْتَمَلَ مَعَهَا لِفَقِّ الْخُطَابَةِ، فَأَبْرَزَ وَأَعْلَمَ، تَسْمِيًا وَجَفْظًا وَجَهْورِيَّةً، فَاتَّفَقَ فِي ذَلِكَ عَلَى رِجَاحَتِهِ، وَاسْتَصْحَبَ نَظْرَهُ عَلَى الْأَحْبَاسِ، فَلَمْ يَقِفْ فِي النَّصْحِ عِنْدَ غَايَةٍ، أَعَانَهُ اللَّهُ.

(١) في اللوحة البدرية (ص ١١٥): «ولده: وُلِدَ لَهُ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ وَلَدٌ ذَكَرَ اسْمُهُ يَوْسُفُ عَلَى اسْمِ أَبِيهِ».

(٢) تحت عنوان «قضاياه» ذكر ابن الخطيب في اللوحة البدرية (ص ١١٦) قاضيًا واحدًا هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسيني، وقال: «إن الغني بالله جدد له أحكام القضاء والخطابة إلى أخريات شعبان من عام ٧٦٠ هـ».

(٣) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ١١٦). (٤) في النفح: «والقيام بالعقد والحل».

(٥) من هنا حتى قوله: «باستدرار خلف دولته» غير وارد في النفح.

(٦) الكل، بفتح الكاف وتشديد اللام: الضعيف. لأن العرب (كلل).

(٧) في النفح: «مصاحبة». (٨) في النفح: «على».

كُتَابُهُ^(١): أسند الكتابة إلى الفقيه المذكر، المبرز في كثير من الخلال، ملازمه أيضًا في طلب الملك، ومطاردة قنص الحظ، أبي عبد الله بن زمر، ويأتي التعريف بجمعهم.

شيخ غزاته: متولي ذلك في الدولة الأولى، الشيخ أبو زكريا يحيى بن عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق^(٢)، قدمه إليها مُغْتَبَاً إياه، طاوياً بساط العدو بالجملة، قدموها بابنه عثمان على الخاصة يومئذ، لمظاهرتة في الوجهة، وسعيه في عودة الدولة، واستمرت الحال إلى اليوم الثالث عشر لشهر رمضان من عام أربعة وستين وسبعمائة، وكان القبض على جملتهم، وأجلى هذا البيت من سفرة السياسة مدة، مجتزئاً فيه بنظره على رسمه في الوزارة من قبيله. ثم قدم إليها موعوده بها القديم الخدمة، وسالف الأذمة، لما لجأ إلى وادي آش مفلتاً من وثقة الحادثة، الشيخ أبا الحسن علي بن بدر الدين بن موسى بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق، حلف السداد أيامه، والمقاربة والفضل والذمائم، المخصوص على اختصار بيمن النقيبة، واستمرت أيامه إلى نوبة القفول عن غزوة جتيان أخريات محرم من عام تسعة وستين، وتوفي، رحمه الله، حثف أنفه، فاحتفل لمواراته، وإقرا به من تأبيه، واستغفاره، والاعتراف بصدق موالاته، وتفجيعه لفقيهه، وما أعرب به من وفاء نجده، وقدم لها عهداً طرف اختياره، الأمين، الشهم، البهمة، جذن الشهرة، والمشار إليه بالبسالة، وفرع الملك والأصالة، عبد الرحمن ابن الأمير أبي الحسن علي بن السلطان أبي علي عمر ابن أمير المسلمين أبي سعيد عثمان ابن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، إذ كان قد لحق به، بعد ظهور أتيح له بوطنه من المغرب، استقر مبايعاً بعمالة سبجلماسة وما إليها، وطن جده، وميراث سلفه، ففسح له جانب قبوله، وأحلّه من قربه محل مثله، وأنزله بين ثغر الاغتباط ونخره، ثم استظهر به على هذا الأمر، فأحسن الاختيار، وأعز الخطة، وهو القائم عليها لهذا العهد، وإلى الله أسباب توفيقه.

ظرف السلطان وخسن توقيعه:

بذ في هذا الباب من تقدمه، وكثرة وقوعه، بحيث لا يُعد نادراً، وقليل الشيء يدل على كثيره. مَرَّ بي يوماً ومعى ولده، يروم اتخاذ حذق القرآن، فقلت له: أيتك

(١) في عنوان: «كتابه» ذكر ابن الخطيب في اللوحة البدرية (ص ١١٦) أنه هو الذي أجرى للغني بالله رسم العرض والإنشاء، ثم هو نفسه قد استخدم في أخريات أيام الغني بالله كاتب الدولة التونسية الفقيه الكاتب أبا محمد عبد الحق بن أبي القاسم بن عطية.

(٢) كذا ذكره ابن الخطيب في اللوحة البدرية (ص ١١٦) وقال إن الغني بالله أقره على الغزاة على عهد أبيه.

الله، الأمير يريد كذا، ولا بدّ له من ذلك، وأنا وكيله عليك في هذا، فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل. ولا خفاء ببراعة هذا التوقيع، وغرابة مقاصده، ومجالسه على الأيام معمورة بهذا ومثله.

الملوك على عهده: بالمغرب^(١) السلطان الجليل إبراهيم ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان أبي سعيد ابن السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق. تولى ملك المغرب حسبما تقدم في اسمه^(٢)، وألقى إليه بالمقاليد، واستوسقت له الطاعة، وبحسب ما بتّ الله من إشراب^(٣) الخلق إليه، وتعطشهم إلى لقائه، ورغبتهم في إنهاضه إلى ملك أبيه، كان انقلابهم إلى ضد هذه الخلال، شرقاً بأيامه وإحصاء لسقطاته، وولعاً باغتيابه وتربصاً لمكروه به، إذ أخفقت فيه الآمال، واستولت الأيدي من خدامه على ملكه. وقبض الله لإبادة أمره، وتغيّر حاله وهذا ركنه، الخائن الغادر نسمة السوء وقذار ناقة الملك، وصاعقة الوطن وخزء السيد عمر بن عبد الله بن علي^(٤) مؤتمنة على البلد الجديد، دار ملكه ومستودع ماله وذخيرته، فسدّ الباب دونه، وجهّز بخلعائه. وفض في أثباع الناعق المشؤوم سور ماله، وأقام الدعوة باسم أخيه أبي عمر، ذي اللوثة، الميؤوس من إفاقته، وذلك ضحوة اليوم الثامن عشر لشوال من عام اثنين وستين وسبعمئة. ويادر السلطان أبو سالم البيعة من متحول سكناه بقصر البلد القديم^(٥)، وصابر الأمر عامة اليوم. ولما جنّ الليل، فرّ لوجهة، وأسلم وزراءه وخاصته، وقيدت خطاه الخيرية، فأوى إلى بعض البيوت، وبه تلاحق متبوعه، فقيّد إلى مصرعه السوء بظاهر بلده، وحُز رأسه، وأوتي به إلى الغادر. وكان ما بين انفصال السلطان عنه مؤدّعاً إلى الأندلس بإعانتة، ومطوّق فضل تلقيه وقفوله وحسن كفالته، ثمانية أشهر ويوم واحد. واستمرت دعوة أخيه الممّوّه به إلى الرابع والعشرين من صفر من عام ثلاثة وستين وسبعمئة،

(١) ضمن العنوان نفسه جاء في اللوحة البدرية (ص ١١٧): أن سلطان المغرب في عهد الغني بالله هو أبو عنان فارس بن أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، وولي بعده ولده السعيد أبو بكر.

(٢) المراد إبراهيم بن أبي الحسن بن أبي سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، وقد تقدمت ترجمته في الجزء الأول من الإحاطة.

(٣) الإشراب: المحبة؛ يقال: أشرب فلان حبّ فلانة، أي خالط قلبه. وأشرب قلبه محبة هذا: أي حلّ محلّ الشراب. لسان العرب (شرب).

(٤) في اللوحة البدرية (ص ١١٨ - ١١٩): «عمر ابن الوزير عبد الله بن علي البياني».

(٥) البلد القديم هو مدينة فاس القديمة، والبلد الجديد هو ضاحية أنشأها بنو مرين بجوار مدينة فاس.

واستدعي من باب قُشتالة الأمير محمد أبو زيان ابن الأمير أبي زيد بن عبد الرحمن ابن السلطان المعظم أبي الحسن. وقد استقرّ نازعًا إليه أيام عمه السلطان أبي سالم، وقع عليه اختيارُ هذا الوزير الغادر، إذ وافق شئ تغلبه طبقُ ضعفه^(١)، وأعمل الحيلة في استجلابه، فوصل حسب غرضه، وأجريت الأمور باسمه، وأعيد أخوه المعتوه إلى مكانه، واستمرت أيام هذا الأمير مغلوبًا عليه، مغرَى بالشراب على فيه وبين الضحَب إلى أن ساءت حاله، وامتلات بالموجدة على الوزير نفسه، فعاجله بحتفه، وبأشر اغتياله، وأوعز إلى خدامه بخنقه، وطَرَحَه بحاله في بعض سواقي قصره، مُتَّبِعًا ببعض أواني خمره، يوهَمُ بذلك قاتله، ترذيه سكرًا، وهويه طفوحًا. ووقف عليه بالعدول عند استخراجِه، ونَدَبَ الناس إلى مواراته، وبائع يومه ذلك أبا فارس عبد العزيز وارث ملك أبيه السلطان أبي الحسن، المنفرد به، وخاطب الجهات بدعوته، وهو صبيٌّ ظاهرُ النبل والإدراك، مشهورُ الصُّون، وأعمل الحيلة لأول أمره، على هذا الوزير مخيف أريكة مُلكه، ومظنة البِدا في أمره، فطرقه الحمام واستأصل ما زَرَاه من مال وذخيرة، شكر الله على الدولة صنيعة، وفي ذلك يقول: [الطويل]

لقد كان كالحجاج في فتكاته تحاذره البراء دوماً وتخشاه
تغذى به عبد العزيز مبادراً وعاجله من قبل أن يتعشاه

وكان بعده وليه الحق ونصيره لا إله إلا هو. وهو اليوم ملك المغرب، مزاحمًا بابن أخيه، السلطان أبي سالم، المعقود البيعة بمراكش وما إليها، جمع الله شتات الإسلام، ورفع عن البلاد والعباد مضرة الفِئنة.

وبتلمسان السلطان أبو حمو موسى ابن الأمير أبي يعقوب يوسف^(٢) بن عبد الرحمن بن يحيى بن يَغْمَراسن بن زيان. حسبما كان في الدولة الأولى، متفقها منه على خلال الكرم والحزم، مضطلعًا بأمره والقيام على ما بيده.

وبتونس^(٣)، الأمير أبو سالم إبراهيم ابن الأمير أبي يحيى بن أبي حفص، حسبما تقدم ذكره.

(١) أخذه من المثل: «وَأَفَّقَ شَيْءٌ طَبَقَةً». وشئ هو رجل من ذُهاء العرب، وطبقة بنته، يضرب للمتوافقين. مجمع الأمثال (ج ٢ ص ٣٥٩).

(٢) في اللوحة البدرية (ص ١١٩): «يوسف بن يحيى بن عبد الرحمن بن يغمراسن».

(٣) في اللوحة البدرية (ص ١١٩): «وبلافريقية إبراهيم ابن الأمير أبي يحيى بن أبي بكر بن أبي حفص بن إسحاق ابن الأمير أبي زكرياء».

ومن ملوك النصارى:

فبَقِشْتَالَة سلطانها المتقدم الذكر في الدولة الأولى، بِطَرُهُ ابن السلطان الْهَنْشَة^(١) بن هراندة بن شانجَه بن الْهَنْشَة^(٢) بن هراندة، متأكدة بينهما السلم الجمة، والهدنة الثبوتية، بما سَلَفَ من مظاهرتة إياه، والحرص على ما اسْتَحَانه من المغرب في أسطوله، وبعثه إليه برأسِ عدوّه المتوثب على ملكه، ورؤوس أشياعه، الظالمين الغدرة، وأتباعه الفَجْرة، مستمرة أيامه إلى وسط شعبان عام سبعة وستين، صارفاً وجهه إلى محاربة صاحب برجلونة^(٣)، مستولياً على كثير من قواعده الشهيرة، وقلاعہ المنيعه، لما أسلفه به من إجازته، أخيه أنذريق المدعو بالقند، ومظاهرتة حتى ساءت أحواله وأحوال عدوّه، وأوهنت الحركات قوى جيشه، وأضعف الاحتشاد عَمْرَة أرضه، واشترأبت القلوب إلى الانحراف عن دعوته، ومالت النفوس إلى أخيه، وقامت البلاد بدعوته، وتلاحقت الوجوه بجهته، ورام التمسك بإشبيلية دار ملكه، فثار أهلها به في عام سبعة وستين. فخرج فاراً عنها...^(٤) به والسلاح يهش إليه، وبعد أن استظهر بخويصته، وأخمل ما قَدَر عليه من ذخيرة، ورفع من له من ولدٍ وحُرمة، رأى سُخنة العين من انتهاب قصوره، وتَشْعِيت منازل، وعباث الأيدي في خزائنه، وأسمعه الناس من مَحْض التأنيب وأعراض الشَّمات، ما لا مزيد عليه، ولاذ بصاحب بُرْتغال، فنأى عنه جانبَه لما يجنيه أبواه من مخالفة رأي الأمة فيه، فقصد بلاد غَلِيسِيَة، وتلاحق أخوه أنذريق بحضرة إشبيلية، فاستوى على المُلْك وطاعت لأمره البلاد، وعاجله المسلمون لأول أمره، فاستولوا على كثير من الثغور، والحمد لله.

ولما توسد له الأمر تحوّل لاستئصال شأفة المخلوع، فأجلى عن غَلِيسِيَة في البحر، واستقر ببلد بَيُونَة، ممّا وراء دُرُوب قَشْتَالَة، وانتبذ عن الخِطَة القشتالية وأمر نفسه، ولجأ إلى ابن صاحب الأَنْتَكِيرَة^(٥)، وهو المعروف بِبِرْقَسِين أبي الأمير، وبين أول أرضه وبين قَشْتَالَة؛ ثمانية أيام، فقَبِلَه ولدُ السلطان المذكور، الساكن بأول ما تلقاه من تلك الأرض، وسَفَر بينه وبين أبيه فأنكر الأب استئذانه إياه، والمراجعة في نَصْرِهِ، حَمِيَّة له، وامتناعاً للواقع. وحال هذه الأمة غريبة في الحماية الممزوجة بالوفاء والرقّة، والاستهانة بالنفوس في سبيل الحمد، وبين يدي العَشَائِق، عادة العرب الأول. وأخبارهم في القتال غريبة، من الاسترجال والزحف على الأقدام، أميرهم ومأمورهم، والجُؤ في الأرض، أو دفن ببعض الأرض في التراب، والاستظهار في

(١) في اللوحة البدرية: «ألهونش».

(٢) هي مدينة برشلونة.

(٣) الأنتكيرة: هي إنكلترا.

(٤) بياض في الأصل.

حال المُحاربة ببعض الألحان المُهَيَّجَة، ورماتهم قِسيَّهم غريبة جافيةً، وكلُّهم في دُرُوع، والإحجامُ عندهم، والتقهُرُّ مقدار الشُّبر ذنبٌ عظيم، وعارٌ شنيع، ورماتهم يثبُتون للخيال في الطُّراد، وحالُّهم في باب التَّحليّ بالجواهر، وكثرة آلات الفضة، غريبٌ. وبعد انقضاء سبعة عَشْرَ يوماً كان رجُوعه ورجُوع البرنس المذكور معه مُصاحِبًا بأمراء كثيرين من خُثرانه^(١) وقرابته، وبعد أن أسلفوه مالًا كثيرًا، واختصَّ منه صاحب الأنتكيرة، بمائتي ألف دينار من الذهب إلى ما اختصَّ به غيره، وارثَهنوا فيه ولَدَه وذخيرته. وكان ينفق على نفسه وجيشه بحسب دينارٍ واحد من الذهب للفراس في ثلاثة أيام. وكان تأليفُ الجيوش في بَنيلوثة في أزيد من ثلاثين ألفًا، وعَسَرُ عليهم المجازُ على فحوص أحدونيه، لبلاد تُمسك لطاعة القُنْدِ أخيه؛ فصالح القومُ صاحب نَبازَه^(٢) على الإفراج لهم، ونزلت المحلاتُ في فَنحص نَبازَة، ما بين حدود أرض نَبازَة وقشتالة، ونزل المُتَصَيِّرُ إليه أمرُ قُشتاله، القُنْد بِإِزائها في جموع لم تنتظم لمثله، إلا أنه لشهامته واغتراره، أجاز خندقًا كان بين يديه، وعبر جسرًا نَشِب فيه عند الجَوْلَة. وكان اللقاء بين الفريقين يوم السبت سادس إبريل العجمي، وبموافقة شعبان من عام ثمانية وستين. وكان هذا الجَمْعُ الإفرنجي الآتي من الأرض الكبيرة^(٣) في صفوف ثلاثة، مرتبة بعضها خلف بعض، ليس فيهم فارسٌ واحد، إنما هم رجالة، سواء أميرُهم ومأمورهم، في أيديهم عصي جافية في غِلظ المعاصم؛ يَشْرَعُونها أمامهم، بعد إثبات زجاجِها^(٤) فيما خلفهم من الأرض، يستقبلون منها وجوه عدوهم، ونحورَ خَيْله، ويجعلونها دعائم وتُكَّات لبناء مصافهم، فلم تُفْلِقهم المحلات، وبين أيديهم من الرُّماه النَّاشِبة الدَّارعة، ما لا يُحصيهم إلا الله عزَّ وجلَّ. وسائرهم السلطان، مُستدعى نُضرهم راجلاً أميالاً برأيهم؛ إلى أن أعيأ بعد ميلين منها فأزكبه بغلة حَمَلوه بينهم عليها، إلى موقف اللقاء والقُنْد، وكان على مقدمة القوم الدك أخو البرنس، والبرنس مع السلطان مُستَجيره في القلب، والقُنْد المعروف بِقُنْدَار ماثيان، وكثيرٌ من الأمراء؛ ردى وسيفه دونهم، ومن خَلْف الجميع الخيلُ بِجَنبِها ساستهم وغلمانهم وخُدامهم، ووراءها دوابُّ الظَّهر وأبغالهم، وفي أثناء هذه العَبيَّة من البنود وآلات الحرب والطرب والأبواق ما يطول ذكره. وكان في مقدمة القُنْد المُستأثر بِمُلْك قُشتالة؛ أخوه شائجه في رَجَل قُشتالة، قد ملأ السَّهل والجَبَل، ومن خلفهم أولو

(١) الخُثران: جمع خاتر أو ختار، وهو المخادع، لسان العرب (ختر).

(٢) نَبازَه: بالإسبانية Navarra وهي بلاد البشكنس، وعاصمتها بنيلوثة.

(٣) المراد بالأرض الكبيرة فرنسا.

(٤) الزَّجاج: جمع زُج وهو الحديد التي في أسفل الرمح. محيط المحيط (زجاج).

الخييل الجافية القبيلية، المُسَبَّغَةُ الدُّرُوع، من رأس إلى حافر، في نحو ألف وخمسمائة، وفي القلب أخوه الآخر دَنْطِيَّة في جمهور الزُّعماء والفرسان والدُّرُق، وهو الأكثر من رجال الجيش اليوم، ومن ورائهم السلطان أُنْدَرِيْق في لفيف من الناس. ولما حمل بعضهم على بعض أقدم رماة الفِرَنْج، ثقةً بدرُوعهم، فعظَّم أثرهم فيمن بإزائهم من رماة عدوهم ورجالهم، لكونهم كَشْفَاء، فكشفوا إياهم. وحملت خيل قشتالة الدَّارعة، فزحزحت كُرَّ المَصَافِّ الإفرنجي، واتصل الحرب بالبرنس، وهو مَطْلٌ عليهم في رَبْوَة، فصاح بهم بحيث أسمع، وتناول شيئاً من التراب فاستَفَه، وكسر ثلاث عَصِيي، وفعل مَن معه بِثَل فعله، وهي عادتهم عند الغضب، وعلامة الإقدام الذي لا نكوص بعده. ووجه إلى أخيه في المقدمة، يقول له: إن وجدت في نفسك ضعفاً، فاذكر أنك ولدٌ صاحب الأتْكيرة. وحمل الكلُّ حملة رَجُل واحد، فلم تجد الخيل الدَّارعة سبيلاً، وقامت في نحورها تلك الأسيَّة، فولوا منهزمين.

ولما رأى القُنْد هزيمة أخيه، تقدَّم بنفسه بمن معه من مدد الأمة الرِّغُونِيَّة^(١)، وهو ينادي: يا أهل قشتالة، يا مَوَالِي، إياكم والعار، هاأنذا، فلم يثبت أمره، وتراجع قُلُه. فعند ذلك فر في أربعة من أولي ثقته، واستولى القتل والأسر على خاصته، وتردَّى المنهزمون في الوادي خلفهم، فكان ذلك أعوَن الأسباب على هلكهم، فأناف عددٌ مَن هلك في هذه الواقعة، حسبما اشتهر، خمسين ألفاً. وامتلات أيدي هذه الأمة من الأسلحة والأموال والأمتعة والأسرى الذين يُفادونهم بمال عظيم، واتصل القُنْد المنهزم بأرض رَغُون، ثم نَجَم من البلاد الفرنسية، ودخل أخوه بهذه الأمة أوائل البلاد معترفاً بحميد سغيهم، وعزيز نضرهم، وقد رابه استيلاؤهم، وأوجسَه تغلبهم، وساءه في الأرض الرُّعادة عيائهم فاستأذنهم في اللُّحوق بقواعد أرضه، وقَبْض الأموال التي تجبي منها نفقاتهم، وقَبْض منها ديونهم قَبْلَه. وحثَّ السَّير، فوصل طُلَيْطَلَة، لا يُصدَّق بالنجاة، وخاطب السلطان المُترجم به، وقدر وده، وحذَّره سَوْرَة هذه الأمة التي فاض بخرها وأعيا أمرها، وأنهى إليه شرها، وشره إلى استيصال المسلمين، وحذَّ له مواعدها التي جعلت لذلك. ووصل إشبيلية؛ وانثالت البلاد عليه، وعادت الإيالة إلى حُكْمه، ثم شرع في جعل الضرائب، وفرض الأموال، وأخاف الناس بالطلب والتُّبعات، فعاد نفورهم عنه جَزَعاً، وامتنعوا من العَرَم، وطرَدوا العُمال، وأحسن

(١) نسبة إلى رَغُون، وهي مملكة أراجون Aragon في الشطر الأعلى - إلى الجنوب الشرقي من سرقسطة.

بالشَّرِّ، فتحصَّن بإشيبيلية وجهاتها على نفسه، وطال على الأمة الواصلة في سبيل نُضْرِهِ الأمرُ. فرجعت إلى بلادها، ووقيت نُفْرَةُ الفرسان، وأولي الأتباع، وأظهروا الخلاف، وكشفت جَيَّان وجهها في خلعانه، والرُّجوع إلى دعوة أخيه المُتَصَرِّف، فتحرَّك إليها السلطان المترجمُ به، بعد أن احتشد المسلمين، فكان من دخولها عَنُوةً، واستباحة المسلمين إياها وتخريبها، ما هو مذكور في موضعه. ثم ألحقت بها مدينة أُبْدَة، الذاهبة في مخالفة مذهبها والحمد لله. وخالفت عليه قرطبة، واستقرَّ بها من الكبار جُمْلَة، كاتبوا أخاه، واستعجلوا، فتعرَّف في هذه الأيام، أنه قد بلغ أرض بُرْغُش، ونارُ الفتنة بينهم، ويدُ الإسلام لهذا العهد، والمُنية لله، وحده غالبية.

وإنما مددنا القول في ذكر هذه الأحوال الرُّومية، لغرابة تاريخها، وليُستشعر الحذرُ، ويُؤخذ من الأمة المذكورة وغيرها، والله وليَّ نصر المؤمنين بفضله. وبأرض رَغُون سلطانها الكائن على الدولة الأولى.

بعض مناقب الدولة لهذا العهد:

وأولا ما يَرْجِع إلى مناقب الجِلم والكُظْم من مآزق الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس.

فمن ذلك أن السلطان لما جَرَّت الحادثة، وَعَظَه التمهيص، وألجا إلى وادي آش، لا يملك إلا نفسه في خبر طويل، يادر إلى مخاطبة ثقته بقصبة المرية، قلعة المُلْك، ومَظَنَّة الامتناع، ومِهاد السَّلامة، ومَخْزَن الجباية والعُدَّة، وقد أصبح محلُّ استِقراره، بينها، وبين المُتَنَزِّي سَدًّا، وبيعة أهلها لم ينسخ الشرعُ منها حُكْمًا يناشده الله في رَمَقِه، ويتملِّقه في رَغِي ذِمَّتِه، والوفاء له، وإبراء غُرْبَتِه، وتمسُّكِه من أمانته، فردَّ عليه أسوأ الردِّ، وسجن رسوله في المُطْبَق، وخرج منها لعدُوّه، وناصح بعد في البَغْي عليه. فلما رَدَّ الله الأمر، وَجَبَرَ الحق، أَغْتَب وأجرى عليه الرُّزْق. ولما ثار في الدولة الثانية الدليلُ البرُكي^(١)، هاتفا بالدعوة لبعض القرابة، وأكذبه الله، وعَقَه الشيطان بعد نُشر راية الخلاف، وجَعَلَ للدولة، علوُّ اليد، وحسنُ العاقبة، وتمكُّن من المذكور، أبقي عليه، وغلب حكم المصلحة العامة في استحيائه، وهو من مُغْرِبَات الجِلم المبني على أساس الدين، وابتغاء وجه الله.

ولما أجلى عن الترتييح من القرابة، بعد تَقَرُّب التهمة، وعَمَس الأيدي في المعصية، صُرفوا إلى المغرب صَرَف العافية، وأجرى على مَنْ تخلفوه عوائد

(١) الدليل البرُكي: هو أحد وزراء سلطان غرناطة الغني بالله.

الأرزاق، ومرافق المواسم، ووعد ضعفاءهم بالإزفاد، وتجوفا عما يزجج للجميع من عَقَار ورباع، وأسعفت آمالهم في لحاق ذويهم من أهل وولد.

ومما يرجع إلى عوائد الرفق، ومرافق العدل من مازق في جهاد النفس، وقوف وكيل الدولة، مع من يجاور مُستخلص^(١) السلطان من العامرين^(٢) ومما ولي الفلاحة، وقد ادعوا أضرارا، يجره الجوار بين يدي القاضي بالحضرة، حتى بعد مُنقطع الحق، على ما يخص السلطان من الأصول التي جرّها الميراث عن كريم السلف. ولا كفضية التاجر المعروف بالحاج اللباس، من أهل مدينة وادي آش، وقد تحصّلت في داره، من قبل التاجر المذكور جارية من بنات الروم، في سبيل تفوت الذمم، ومُسْتَهْلِك المثلوات، وترقت إلى تربية ولده، وأصبحت بعض الأظآر^(٣) لأمرائه، واتصل بها كلفه، وزاد هيمائه، وغشي مدافن الصالحين من أجلها، وأنهيت إليه خبره ويث، وقررت عنده شجوه، وألمعت بما يُنقل في هذا الباب عن الملوك قبله، فبادر إلى إخراجها من القصر بنفسه، وانتزاعها من أيدي الغبطة، انتزاع القهر، بحاله في جميل الزي، فمكنت منها يد عاشقها الذاهل، وقد خفت نفسه، وسكن جسده، وكاد لقاءه إياها أن يقضي عليه. ونظائر هذا الباب متعددة.

ومن مواقف الصدق والإحسان من خارق جهاد النفس، بناء المارستان الأعظم، حسنة هذه التخوم القصوى، ومزية المدينة الفضلى. لم يهتد إليه غيره من الفتح الأول، مع توفر الضرورة، وظهور الحاجة، فأغرى به همّة الدين، ونفس التقوى، فأبرزه موقف الأخدان^(٤)، ورحلة الأندلس، وفذلكة الحسنات، فخامة بيت، وتعدد مساكن، ورخب ساحة، ودزور مياه، وصحة هواء، وتعدد خزائن ومتوضآت، وانطلاق جراية، وحسن ترتيب، أبر على مارستان مصر^(٥)، بالساحة العريضة، والأهوية الطيبة، وتدفق المياه من فورات المرمل، وأسود الصخر، وتموج البحر، وانسدال الأشجار، إلى موافقة إياي، وتسويغه ما اخترعته بإذنه، وأجزئته بطيب نفسه، من اتخاذ المدرسة والزاوية، وتعيين الثربة، مُغيرا في ذلك كله على مقاصد

(١) المراد بمستخلص السلطان: الأملاك السلطانية الخاصة.

(٢) العامريون: هم الذين يفلحون الأرض ويعمرونها. لسان العرب (عمر).

(٣) الأظآر: جمع ظئر، والظئر: المرضعة غير ولدها، وظئر الرجل: ابنه من الرضاع. لسان العرب (ظار).

(٤) الأخدان: جمع خذن وهو صاحب والرفيق والصديق. محيط المحيط (خدن).

(٥) أغلب الظن أنه المارستان المنصوري الكبير الذي أنشأه السلطان المنصور بن قلاوون سنة

الملوك، نقشًا عليه، بطيب اسمه في المزيد، وتخليد في الجُدُرات للذكر، وصونًا للمدافن غير المعتادة، في قلب بلده بالمقاصر والأصونة، وترتيل التلاوة، آناء الليل^(١)، وأطراف النهار. وكل ذلك إنما يُنسب إلى صدقاته، وعلو همته. ويشهد بما ينه الحس إلى المنقبة العظمى، في هذا الباب، من إمداد جبل الفتح، مع كونه في إيالة غيره، وخارج عن مُلكة حُكمه، وما كان من إعانتته، وسد ثغره، فانهار إليه على خطر السرى، والظهر البعيد المسمى، ما ملأ الأهواء، وقطع طمع العُدّة، أنفقت عليه الأموال، ما إن مفاتحه لتتوء بالعضبة أولي القوة، بُودر بذلك، بين يدي التفاؤل، بنزول العدو إياه، فكان الكرى^(٢) على إيصال الطعام إليه، بحساب درهم واحد وربع درهم للرطل من الطعام، منفعة فذة، وحسنة كبرى، وبدعًا من بدع الفتوى.

وفي موقف الاستعداد لعدو الإسلام، من خارق جهاد النفس، إطلاق البنى^(٣)، للمدة القريبة، والزمان الضيق، باثنين وعشرين ثغرًا من البلاد المجاورة للعدو، والمشاركة الحدود، مع أراضي، المترامية النيران لقرب جوابه، منها ثغر أرجدونة^(٤)، المستولي عليه الخراب، أنفق في تجديد قصبته؛ واتخاذ جبّه، ما يناهز عشرين ألفًا من الذهب، فهو اليوم شجى العدو، ومغتصم المسلمين، وحصن أشير، وما كان من تحصين جبله بالأسوار والأبراج، على بعد أقطاره، واتخاذ جباب الماء به، واحتفار السانية^(٥) الهايلة برَبضه، ترك بها من الآثار ما يشهد بالقوة لله، والعناية بالإسلام. ثم ختم ذلك بنديد حصن الحمراء، رأس الحضرة، ومغقل الإسلام، ومفرع الملك، ومغقل الأيدي، وصوان المال والذخيرة، بعد أن صار قاعًا صفصفاً، وخرابًا بلقعا، فهو اليوم عروسُ بجلي المهضوب، ويغازل الشهب، سكن لمكانه الإزجاف، وذوت نجوم الأطماع، ونقل إليه مال الجباية، المتفضل لهذا العهد، بحسب التدبير، ونقد الخراج، وصون الألقاب، وقمع الخزّانة بما لم يتقدم به عهد، من ثمانين سنة، والحمد لله، وتجديد أساطيل الإسلام، وإزاحة علل جيوش المَرَج، وعساكر البحر، فهي لهذا العهد، مَلَس الأديم، شارعة الشبا، مُنقضة جفاتها إلى مساواة الأعداء، راكبة ظهور المحاسن، قلقة الموافق، قُدّما إلى الجهاد، قد تعدد إغزاؤها، وجاست

(١) آناء الليل: ساعاته.

(٢) الكرى: الأجر.

(٣) البنى: جمع بناء.

(٤) أرجدونة وأرشدونة، بالإسبانية Archidona: قاعدة كورة ريه، وهي بقلي قرطبة، ومن مدنها

مالقة، وتبعد عنها ثمانية وعشرين ميلاً. الروض الممطار (ص ٢٥).

(٥) السانية: الساقية.

البحر سوابحها، وتُعرفت بركتها، والحمد لله، وأنصاب جيش الجهاد، استغرق الشهور المستقبلة، لرود الصفراء والبيضاء الأهلة إلى أكف أهلها، على الدوام، بعد أن كانت يتحيفها المَطل، وينقصها المطال، والحمد لله.

وفي مواقف الجهاد الحسي، وبيع النفوس من الله، وهو ثمرة الجهاد الأول، ما لا يحتاج عليه إلى دليل، من الجوف^(١) إلى حصن أشر، قُبَل الثغر، والجارجُ المَطلُ على الإسلام، والعزم على افتتاحه، وقد غاب الناس من مساورته، وأغيا عليهم فتحه، فلزمه السلطان بنفسه، بياض يوم القَيْظ، مُحْرَضًا للمقاتلة، مُوَسِّيًا لهم، خالطًا نفسه بالمُسْتَنْقَرَة، يصابر لهيب النار، ووقع السلاح، وتعميم الدُخان، مُقْدِيًا للكلمات، مُحْرَضًا لذوي الجراح، مباشرًا الصلاة على الشهداء، إلى أن فتحه الله على يده، بعزمه وصبره، فبأشر رَمِّ سوره بيده، وتحصين عَوْرته بنفسه، ينقل إليه الصُخر، وينال الطين، ويخالط القَعْلَة، لقرب محلّ الطاغية، وتوقع المفاجأة. ثم كان هذا العمل قانونًا مُطْرَدًا في غيره، وَدَيْدَنًا في سواه، حسبما نذكر في باب الجهاد.

وفي باب النصيحة للمسلمين من مآزق الجهاد الأكبر، ما صدر في هذه الدولة، من مخاطبة الكافة، بلسان الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، صَدَعَتْ بذلك الخطباء من فوق أعواد المنابر، وَأَسْمَعَتْ آذان المحافل، ما لم يتقدم به عهد في الزمان الغابر.

نص الكتاب: ولَمَّا صَحَّت الأخبار بخروج الأمة الإفريقية إلى استئصال هذه البَقِيعة، والله متم نوره، ولو كره الكافرون، صدر من مخاطبة الجمهور في باب التحريض بما نصّه:

«من أمير المسلمين عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد نصر، أيده الله ونصره، وأوى أمره، وخَلَدَ مآثره، إلى أوليائنا الذين نُوقِظ من الغفلة أحلامهم، وندعوهم لما يظهر من الارتباب إيمانهم، ويُخلص لله أسرارهم وإعلانهم، يرثي لعدم إحسانهم، وخيبة قياسهم، ويغار من استيلاء الغفلات على أنوعهم وأجناسهم، ونسأل الله لهم ولنا إقالة العَثَرَات، وتخفيض الشدائد المُعْتَوَرَات، وَكَفُّ أَكْفُ العوادي المُبْتَدِرَات. إلى أهل فلانة، دافع الله عن فئتهم الغربية، وعرفهم في الذراري والحُرَم عوارف اللطائف القريبة، وتداركهم بالصنائع العجيبة، سلام عليكم أجمعين، ورحمة الله وبركاته.

(١) الجوف في اصطلاح المغاربة الجهة المقابلة للقبلة، أي الشمال. اللوحة البصرية (ص ٢٢،

حاشية ٣).

أما بعد حمد الله الذي لا نشرك به أحداً، ولا نجد من دونه مُلتحداً، مبتلي قلوب المؤمنين أيها أقوى جلداً، وأبعَدُ في الصبر مدى، ليزيد الذين اهتدوا هدى، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أنقذ من الردى، وتكفل الشفاعة لمن غدا، ضارباً هام العدا، ومجاهداً من اتخذ مع الله ولداً، والرضى عن آله الذين كانوا لسماء ملته عمداً، فلم ترعهم الكتائب الوافرة وكانوا لهم أقل عدداً، ولا هالتهم أمم الكفر وإن كانت أظهر جمعاً وأكثر عدداً، صلاة لا تنقطع أبداً، ورضى لا يبلغ مدى. فلما كتبنا إليكم، كتبكم الله فيمن امتلأ قلبه غضباً لأعدائه وخمياً، ورمى بفكره غرض السداد، فلم يخط منه هدفاً ولا رمية. وقد^(١) اتصل بنا الخبر الذي يوجب نصح الإسلام، ورغى الجوار والذمام، وما جعل الله تعالى^(٢) للمأموم على الإمام، فوجب علينا^(٣) إيقاظكم من مراقدكم المستغرقة، وجمع أهوائكم الممتزقة^(٤)، وتهيئكم إلى مصادمة الشدائد المزعجة المبرقة، وهو أن كبير^(٥) النصرانية، الذي إليه يتقادون، وفي مروضاته يُصادقون ويُعادون، وعند رؤية صليبه يكون^(٦) ويسجدون، لما رأى الفتن قد أكلتهم خضماً وقضماً^(٧)، وأوسعتهم هضماً فلم تبق لهم^(٨) عصباً ولا عظماً، ونثرت ما كان نظماً، أعمل نظره فيما يجمع منهم ما افترق، ويرفع ما طرق، ويرفو^(٩) ما مرق الشتات وخرق، فرمى الإسلام بأمة عددها كالقطر^(١٠) المئثال، والجراد الذي تضرب به الأمثال، وعاهدتهم وقد حضر التمثال، وأمرهم وشأنهم الامتثال، أن يدمنوا^(١١) لمن ارتضاه^(١٢) الطاعة، ويجمعوا من^(١٣) ملته الجماعة، ويطلع الكل على هذه الفئة القليلة الغربية بغتة كقيام الساعة، وأقطعهم، قطع الله بهم، العباد والبلاد، والطارف والتلاد^(١٤)، وسوغهم الحريم المستضعف^(١٥) والأولاد، وبالله نستدفع ما لا نطيعه، ومنه نسأل عادة الفرج، فما سُدث لديه طريقة، إلا أنا رأينا غفلة الناس مع

(١) من هنا حتى الآية الكريمة (إحدى الخسيتين) ورد في نفع الطيب (ج ٦ ص ٢٠٤ - ٢٠٥).

(٢) كلمة «تعالى» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من النفع.

(٣) قوله: «فوجب علينا» ساقط في النفع. (٤) في النفع: «المتفرقة».

(٥) في المصدر نفسه: «كبير دين النصرانية». (٦) في المصدر نفسه: «يكبرون».

(٧) خضم الطعام: قطعه وأكله. والقضم: التقطيع بأطراف الأسنان. لسان العرب (خضم) و(قضم).

(٨) كلمة «لهم» ساقطة في النفع.

(٩) في الأصل: «يرفو» والتصويب من النفع. ويرفو: يرقع. لسان العرب (رفا).

(١٠) في النفع: «القطر». (١١) في النفع: «يدموا».

(١٢) في النفع: «ارتضاه من أمته الطاعة». (١٣) في النفع: «في».

(١٤) الطارف: الجديد المستحدث. التلاد: القديم الموروث. لسان العرب (طرف) و(تلد).

(١٥) كلمة «المستضعف» ساقطة في النفع.

تصميمهم مؤذنة بالبوار^(١)، وأشفقنا للذين^(٢) من وراء البحار، وقد أصبح معظمهم^(٣) في لهوات الكفار، وأردنا أن نهزم^(٤) بالموعظة التي تكحل البصائر بميل الاستبصار، وتلهمكم الانتصار بالله عند عدم الانتصار، فإن جبر الله الخواطر بالضراعة إليه، والانكسار، ونسخ الإغسار بالإيسار، وأنجد اليمين بانتهاء اليسار، وإلا فقد تعين في الدنيا والآخرة حظ الخسار، فإن من ظهر عليه عدو دينه^(٥)، وهو عن^(٦) الله مضرور، وبالباطل مشغور، وبغير العرف معروف، وعلى الخطام المسلوب ملهوف^(٧)، فقد تله^(٨) الشيطان للجبين، وخير^(٩) الدنيا والآخرة، وذلك^(١٠) هو الخسران المبين. ومن نفذ فيه قدر الله عن أداء الواجب وبذل المجهود، وآجر^(١١) بالعبودية وجة الواحد الأخذ المعبود، ووطن النفس عن^(١٢) الشهوات الموبقة في دار الخلود، العائدة بالحياة الدائمة والوجود، أو الظهور على عدوه المحشور إليه المحشود^(١٣)، صبرا على المقام المحمود، وبيعا^(١٤) تكون الملائكة فيه من^(١٥) الشهود، حتى تعيث^(١٦) يد الله في ذلك البناء المهدوم، بقوة الله المحمود، والسواد الأعظم الممدود، كان على أمر ربه^(١٧) بالحياء المردود: ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّا لَا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَتَحْنُ نَرْتَضِ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرِضُونَ﴾^(١٨). فالله^(١٩) الله في الهمم، فقد خبت^(٢٠) ريحها. والله الله في العقائد، فقد خفت^(٢١) مصابيحها. والله الله في الرجولة^(٢٢)، فقد قل حدها. والله الله في الغيرة، فقد نعر^(٢٣) جدوها، والله الله في الدين، فقد طمع

-
- (١) في النفع: «البوار». والبوار: الهلاك. لسان العرب (بور).
 (٢) في النفع: «للذين المنقطع من...». (٣) في النفع: «مضغة».
 (٤) في النفع: «نهزكم». (٥) في النفع: «عدو دين الله تعالى».
 (٦) في النفع: «من». (٧) في النفع: «عنه ملهوف».
 (٨) تله: صرعه، وتله للجبين: صرعه، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَتَلَّهُمْ يَجِبِينَ﴾ سورة الصافات ٢٧، الآية ١٠٣. وانظر محيط المحيط (تلل).
 (٩) في النفع: «وقد خسر». (١٠) في النفع: «ذلك».
 (١١) في النفع: «وأفرد». (١٢) في النفع: «على الشهادة المبوثة دار...».
 (١٣) في الأصل: «عدوه المحشود إليه...»، والتصويب من النفع.
 (١٤) في النفع: «وبيعا من الله تكون». (١٥) كلمة «من» ساقطة في النفع.
 (١٦) في النفع: «تعين». (١٧) في النفع: «أمره».
 (١٨) سورة التوبة ٩، الآية ٥٢. وهنا ينتهي النص في نفع الطيب.
 (١٩) النص في نفع الطيب (ج ١٠ ص ٢٣٢). (٢٠) في النفع: «خمدت».
 (٢١) في النفع: «خبت». (٢٢) في النفع: «الرجولية».
 (٢٣) في النفع: «نعر».

العدو في تحويله . والله الله في الحريم ، فقد مَدَّ إلى استرقاقه يَدُ تأميله . والله الله في المساكن التي زَخَفَ لُسُكْنَاهَا ، والله الله في الجَلَّة التي يريد إطفاء نورها وَسَنَاهَا^(١) ، وقد كَمَّلَ فضلها وتناهى ، والله الله في القرآن العظيم^(٢) . والله الله في الجيران . والله الله في الطَّارِف والثَّالِد ، والله الله في الوطن الذي توارثه الولدُ عن الوالد . اليوم تُسْتَأْسَد النفوسُ المَهِينَة ، اليوم يُسْتَنْزَل الصَّبْرُ والسَّكِينَة . اليوم^(٣) تحتاج الهممُ أن ترعى هذه النفوس الكريمة الذَّمم ، اليوم يُسَلِّك سبيل العزم والحزم والشدة والشَّمم ، اليوم يَرْجِع إلى الله تعالى المَصْرُوء ، اليوم يُفَيِّق من نومه الغافلون^(٤) والمغتربون ، قبل أن يتفاقم الهول ، ويحقِّ القول ، وَيُسَدَّ الباب ، وَيَحِيق العذاب ، وَيُسْتَرْق بالكفر^(٥) والرقاب ، فالنساء تقي بأنفسهنَّ أولادهنَّ الصغار ، والطُّيُور ترفرف لتحمي الأوكار^(٦) ، إذا أحست العياث^(٧) بأفراخها والإضرار . تمرَّ الأيام عليكم مرَّ السحاب ، وذهابُ الليالي لكم ذهاب ، فلا خبر يفضي إلى العين ، ولا حديث في الله تعالى يُسمع بين اثنين ، ولا كَدَّ إِلَّا لَزِينَة يُحَلَّى بها نُخْرٌ وجيد ، ولا سَعْي إِلَّا في^(٨) متاع لا يغني في الشدائد ولا يفيد . وبالأمس تُدْبِيتُم إلى التماس رُحْمَى أو رضى^(٩) مُسَخَّر السحاب ، واستقالة كاشف العذاب ، وسؤال مرسل الدِّيمَة ، ومُحْيِي البَشَر والبهيمة ، وقد أَمَسَّت عنكم رحمة السماء ؛ واغْبِرْثْ جوانبكم المخضرة احتياجاً إلى بلالة الماء ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾^(١٠) وإليها الأكفُ تمدون ، وأبوابها بالدعاء تقصدون ، فلم يُضَجِرْ^(١١) منكم عددٌ معتبر ، ولا ظهر للإنابة ولا للصدقة^(١٢) خَبْر ، وتَتَوَقَّون عن^(١٣) إعادة الرغبة إلى الغني^(١٤) الحميد ، والولي الذي ﴿إِنْ يَشَأْ^(١٥) يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(١٦) . وأَيْمُ الله لو كان لَهْوَا لَارْتُقِبَت الساعات ، وضائق المُتَسَعَات ، وتزاحمت على جماله وُعُصَّت الجماعات^(١٧) . أَعَزُّزَا على الله وهو القوي العزيز؟ وتَلَبَّسَا^(١٨) على الله وهو

(١) في النفع : «إطفاء سناها» . (٢) كلمة «العظيم» ساقطة في النفع .

(٣) في النفع : «اليوم ترعى لهذه المساجد الكرام الذَّمم» .

(٤) في المصدر نفسه : «الغفلة المغتربون» . (٥) في المصدر نفسه : «الكفر الرقاب» .

(٦) الأوكار : جمع وكُر وهو عش الطائر . لسان العرب (وكر) .

(٧) في النفع : «العَيْث» . (٨) كلمة «في» ساقطة في النفع .

(٩) قوله : «أو رضى» ساقط في النفع . (١٠) سورة الذاريات ٥١ ، الآية ٢٢ .

(١١) يُضَجِر : يسير في الصحراء . لسان العرب (صحِر) .

(١٢) في النفع : «ولا الصدقة» . (١٣) في النفع : «من» .

(١٤) في النفع : «الولي الحميد والغني الدني . . .» .

(١٥) في الأصل : «إشَاء» . (١٦) سورة إبراهيم ١٤ ، الآية ١٩ .

(١٧) في الأصل : «وتزاحمت على أُنْدِينِه الجماعات» .

(١٨) في الأصل : «أنلبسَا» .

الذي يُمَيِّز الخبيث من الطيب والشبه من الإبريز؟ أمنا بذه النواصي بيده^(١)؟ أغرورًا في الشدائد^(٢) بالأمل والرجوع بَعْدُ إليه؟ مَنْ يَبْدَأُ الخلق ثم يعيده؟ ثم^(٣) يُنْزِلُ الرزق ويفيده؟ مَنْ يُرْجِعُ إليه في المُلَمَّات؟ مَنْ يُرْجَى في الشدائد والأزمات؟ من يوجد في المَحْيَا والمَمَات؟ أفي الله شكٌ يَخْتَلِجُ القلوب؟ أم^(٤) غيرُ الله يدفعُ المكروه، وَيُسِّرُ المطلوب؟ تفضلون على اللجأ إليه في الشدائد، بواسمِ الجهل^(٥)، وثرّة الأهل^(٦) وطائفة منكم قد برزت إلى استسقاء رحمته، تمدُّ إليه الأيدي والرقاب، وتستكشف بالخضوع لعزته^(٧) العقاب، وتستعجل إلى مواعيد^(٨) إجابته الارتقاب، وكأنكم أنتم^(٩) عن كَرَمِهِ قد استغنيتُم، أو على الامتناع من الرجوع إليه بَنَيْتُم. أما تعلمون كيف كان نبيكم صلوات الله وسلامه عليه من التبليغ باليسير، والاستعداد إلى دار الرحيل^(١٠) الحقِّ والمسير، ومداومة الجوع، وهَجْر الهجوع، والعمل على الإياب إلى الله والرجوع؟ دَخَلَتْ عليه^(١١) فاطمة، رضي الله عنها، ويدها كسرة شعير، فقال: ما هذه^(١٢) يا فاطمة؟ فقالت: يا رسول الله، خَبَزْتُ قرصةً، وأحببت أن تأكل منها. فقال: يا فاطمة، أما أنه أول طعام دخل جوف أهلك منذ ثلاث؟ وكان ﷺ يستغفر في اليوم سبعين مرة، يلتمسُ رَحْمَةً، ويقوم وهو المغفور له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، حتى تورَّمت^(١٣) قدماه، وكان شأنه الجهاد، ودأبه الجِدُّ والاجتهاد، ومواقف صبره تعرفها الرُّبَى والوهاد. فإذا لم تقتدوا به فبمن تقتدون؟ وإذا لم تهتدوا بهديه^(١٤) فبمن تهتدون؟ وإذا لم تُرضوه باتِّباعكم فكيف تَعْتَرُونَ^(١٥) إليه وتُتْسَبُونَ؟ وإذا لم ترغبوا في الاتِّصاف بصفاته غضبًا لله تعالى وجهادًا، وتقللاً من العَرَضِ الأدنى وسُهادًا، ففيم ترغبون؟ فابثروا حبال الآمال، فكلَّ آت قريب، واعتبروا بِمَثَلاتِ ما دَهَمَ^(١٦) من تقدم من أهل البلاد والقواعد، فذهولكم عنها غريب، وتفكروا في منابرها التي كان^(١٧) يعلوها واعظٌ أو خطيب، ومطيلٌ ومطيب، ومساجدها المتعددة الصفوف، والجماعات

(٢) قوله: «في الشدائد» ساقط في النسخ.

(١) في النسخ: «في يديه».

(٤) في النسخ: «أنتم».

(٣) في النسخ: «من».

(٥) في النسخ: «إليه موائد الفضل، ونزه الجهل». (٦) قوله: «ثرّة الأهل» ساقطة في النسخ.

(٨) في النسخ: «مواعيد».

(٧) في النسخ: «لعظمته».

(٩) كلمة «أنتم» ساقطة في النسخ.

(١٠) في النسخ: «والاستعداد للرحيل إلى دار الحق...».

(١٢) في النسخ: «هذا».

(١١) كلمة «عليه» ساقطة في النسخ.

(١٤) في النسخ: «به».

(١٣) في النسخ: «ورمت».

(١٥) تعتزون: تتسبون إليه. لسان العرب (عزا). (١٦) قوله: «ما دهم» ساقط في النسخ.

(١٧) في النسخ: «التي يعلو عليها واعظ وخطيب».

المعمورة بأنواع الطاعات^(١)، وكيف أخذ الله فيها بذنب المترفين من دونهم، وعاقب الجمهور بما أغمضوا^(٢) عيونهم، وساءت بالغفلة عن الله عُقبى جميعهم، وذهبت النقمات بعاصيهم، ومن داهن في أمره من مطيعهم، وأصبحت مساجدهم مناصب للصلبان، واستبدلت مآذنتهم بالنواقيس من الأذان. هذا والناس ناس، والزمان زمان. فما هذه الغفلة عن من إليه الرجعى وإليه المصير؟ وإلى متى التساهل في حقوقه وهو السميع البصير؟ وحتى متى مَدَّ الأمل في الزمن القصير؟ وإلى متى نسيان اللجا إلى الولي النصير؟ قد تداعت الصلبان مُجلبة^(٣) عليكم، وتحركت الطواغيت من كل جهة إليكم. أفيخذلكم الشيطان وكتاب الله قائم فيكم؟ وألسنة الآيات تنادىكم؟ لم تُنح سطورها، ولا احتجب نورها، وأنتم بقايا من افتتحها^(٤) من عدد قليل، وصابر فيها كل خطب جليل، فوالله لو تمخض الإيمان، ورضي الرحمن، ما ظهر التلث في هذه الجزيرة على التوحيد، ولا عديم الإسلام فيها عزم^(٥) التأيد. ولكن شمل الداء، وصم النداء، وعميت الأبصار، فكيف الاهتداء والباب مفتوح، والفضل ممنوح؟ فتعالوا نستغفر الله جميعاً، فهو الغفور الرحيم، ونستقبل مُقبل العثرات^(٦)، فهو الرؤوف الحليم، ونصرف الوجوه إلى الاعتراف بما قدمت أيدينا، فقبول المعاذير من شأن الكريم. سُدت الأبواب، وضعفت الأسباب، وانقطعت الآمال إلا منك يا كريم^(٧)، يا فتاح، يا وهاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتُورُوا اللَّهَ يَتُورَكُم وَتُتَيَّاتُكُمْ﴾ (٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قِيلُوا الَّذِينَ يَكُونُكُم مِنَ الْكُفَّارِ لَيْجِدُوا فِيكُمْ غِلَظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٨) ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠) ﴿أَعِدُّوا الْخَيْلَ وَارْتَبِطُوهَا، وَرَوْضُوا النُّفُوسَ عَلَى الشَّهَادَةِ وَاغْبِطُوهَا﴾ (١١)، فمن خاف الموت رضي بالدين، ولا بد على كل حال من المنيّة، والحياة مع الذل ليست من شيم^(١٢) أهل العقول والنفوس السنيّة، واقتنوا السلاح والغدّة، وتعرّفوا إلى الله في الرّخاء يعرفكم في الشدّة، واستشعروا القوة بالله تعالى على أعدائه وأعدائكم، واستميتوا من دون أبنائكم، وكونوا كالبنّيان^(١٣) المرصوص

(١) في النفع: «الطاعة».

(٢) في النفع: «متركمة».

(٣) في النفع: «عادة».

(٤) قوله: «يا كريم» ساقط في النفع.

(٥) سورة التوبة ٩، الآية ١٢٣.

(٦) سورة آل عمران ٣، الآية ٢٠٠.

(٧) في النفع: «شيم النفوس السنيّة».

(٨) في النفع: «أغضوا عنه عيونهم».

(٩) في النفع: «فتحها».

(١٠) في النفع: «العثرات».

(١١) سورة محمد ٤٧، الآية ٧.

(١٢) سورة آل عمران ٣، الآية ١٣٩.

(١٣) في النفع: «وغبطوها».

(١٤) في النفع: «كالبنّاء».

لحملات العدو^(١) النازل بفنائكم، وخطوا^(٢) بالتعويل على الله وخدة بلادكم، واشتروا من الله جلّ جلاله أبناءكم^(٣).

ذكروا أنّ امرأة احتَمَلَ السبع ولدها، وشكّت إلى بعض الصالحين، فأشار عليها بالصدقة فتصدّقت برغيف، فأطلق السبع ولدها. وسمعت النداء: يا هذه، لقمة بلقمة، وإنا لما استودعناه لحافظون. هجروا^(٤) الشهوات، واستدركوا الباقيات^(٥) من قبل الفوات، وأفضّلوا^(٦) لمساكينكم من الأقوات، واخشعوا لما أنزل الله تعالى من الآيات، وخذوا نفوسكم بالصبر على الأزمات، والمواساة في المهمّات، وأيقظوا جفونكم من السّنات. واعلموا أنكم رَضِع^(٧) تذي كلمة التوحيد، وجيران البلد الغريب، والذين الوحيد، وحزب التمحيص، ونفّر المرام العويص^(٨)، فتفقّدوا معاملتكم^(٩) مع الله تعالى، فمهما رأيتم^(١٠) الصّدق غالبًا، والقلب للمولى الكريم مراقبًا، وشهاب اليقين^(١١) ثاقبًا، فثقوا بعناية الله التي لا يغلبكم معها غالب، ولا ينالكم من أجلها^(١٢) عدوّ مُطالب، وأنكم^(١٣) في السّتر الكثيف، وعصمة^(١٤) الخير اللّطيف. ومهما رأيتم الخواطر متبدّدة، والظنون بالله متردّدة، والجهات التي تخاف وتُرجى متعدّدة، والغفلة عن الله ملابسها^(١٥) متجدّدة، وعادة دواعي الخذلان دائمة، وأسواق الشهوات قائمة، واعلموا^(١٦) أنّ الله منقذ فيكم وعدّه ووعيدّه في الأمم الغافلين، وأنكم قد ظلمتم أنفسكم ولا عدوان إلّا على الظالمين. والتوبة تُردّ الشارد والله يحبّ التّوابين، ويحبّ المتطهّرين، وهو القائل: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِفَاتِ ذَلِكَ ذَكَرْنِي لِلذّٰكِرِينَ﴾^(١٧). وما أقرب صلاح الأحوال، إذا صلّحت العزائم، وتوالى على حزب الشيطان الهزائم، وخُملت الدُّنيا الدّنية في العيون، وصدقت فيها عند الله الظنون: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تُغْرِكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللّٰهِ الْفُرُودُ﴾^(١٨).

(١) في النفع: «هذا العدو».

(٢) في النفع: «أولادكم».

(٣) في النفع: «البقية من بعد الفوات».

(٤) أفضل من الشيء: ترك منه بقية. محيط المحيط (فضل).

(٥) في النفع: «رضعوا».

(٦) في النفع: «معاملاتكم».

(٧) في النفع: «البنين».

(٨) في النفع: «فإنكم».

(٩) في النفع: «ملايسها».

(١٠) في النفع: «فاعلموا».

(١١) في النفع: «فإنكم».

(١٢) في النفع: «فإنكم».

(١٣) في النفع: «فإنكم».

(١٤) في النفع: «فإنكم».

(١٥) في النفع: «فإنكم».

(١٦) في النفع: «فإنكم».

(١٧) في النفع: «فإنكم».

(١٨) في النفع: «فإنكم».

وثوبوا^(١) سراعاً إلى طهارة القلوب، وإزالة الشوب^(٢)، واقصدوا أبواب غافر الذنوب^(٣) وقابل الشوب، واعلموا أنّ سوء الأدب مع الله يفتح أبواب الشدائد، ويسدّ طريق^(٤) العوائد، فلا تَمْطُلُوا بالتوبة أزمانكم، ولا تأمنوا مكر الله فتَغشوا إيمانكم، ولا تُعَلِّقُوا متابكم بالضرائر^(٥)، فهو عَلام السرائر، وإنما علينا معاشر الأولياء^(٦) أن نُنصَحكم وإن كُنّا أولى بالنصيحة، ونعتمدكم بالموعظة الصريحة، الصادرة - عَليم الله - عن صدق القريحة، وإن شاركناكم في الغفلة، فقد ناديناكم^(٧) إلى الاستِزْجاع والاستغفار، وإنما لكم لدنيا^(٨) نفسٌ مبدولة في جهاد الكفار، وتقدّم^(٩) إلى ربكم العزيز الغفار، وتقدّم لديكم إلى مواقف الصبر التي لا تُرْتَضَى^(١٠) بتوفيق الله الفَرار، واجتهاد فيما يعود بالحُسنى وعُقبى الدار، والاختيار لله ولبي الاختيار، ومُصرف الأقدار. وما نحن نسرع في الخروج إلى مدافعة هذا العدو، ونقدي بنفوسنا البلاد والعباد، والحريم المُستضعف والأولاد، ونُضَلَى^(١١) من دونهم نَارَ الجِلال، ونُسْتَوْهَب منكم الدُّعاء إلى^(١٢) مَنْ وَعَدَ بإجابته، وتَقَبَّلَ^(١٣) مَنْ صَرَفَ إليه وَجْهَ إنباته. اللَّهُمَّ كُنْ لَنَا فِي هَذَا الانْقِطَاعِ^(١٤) نصيراً، وعلى أعدائك ظهيراً، ومن انتقام عبدة الأصنام مُجيراً^(١٥). اللَّهُمَّ قُوْ مَنْ ضَعُفَتْ حِيلُهُ، فأنت القوي المعين، وانصر مَنْ لا نصير له إِلَّا أَنْتَ، إِيَّاكَ^(١٦) نَعْبُدُ، وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. اللَّهُمَّ ثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عِنْدَ تَزَلُّزِ الْأَقْدَامِ، وَلَا تُسَلِّمْنَا عِنْدَ لِقَاءِ عَدُوِّ الْإِسْلَامِ، فَقَدْ أَلْقَيْنَا إِلَيْكَ يَدَ الْاِسْتِسْلَامِ. اللَّهُمَّ دَافِعْ بِمَلَائِكَتِكَ الْمُسَوِّمِينَ، [عَمَّنْ ضَيِّقَتْ أَرْجَاؤُهُ، وانقطع إِلَّا مِنْكَ رَجَاؤُهُ. اللَّهُمَّ هَيِّئْ لضعفائنا، وكلنا ضعيف فقير، إليك، ذليل بين يديك حقير، رحمة تُروى بِالْأَزْمَةِ وتُشَبَّعُ، وقوة تطرد وتُسْتَشَبَّعُ. يَا غَلَابَ الْغُلَابِ، يَا هَازِمَ الْأَحْزَابِ، يَا كَرِيمَ الْعَوَائِدِ، يَا مُفْرَجَ الشَّدَائِدِ، رَبُّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ^(١٧)]. اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا^(١٨) مِمَّنْ تَبْقُظُ فِتْيَقُظْ، وَذَكَرَ

(١) تاب: رَجَعَ. لسان العرب (ثوب).

(٢) الشوب: المخالط من الأدران - لسان العرب (شوب).

(٣) في النفع: «الذنب». (٤) في النفع: «طرق».

(٥) في النفع: «بالضرائر». (٦) قوله: «معاشر الأولياء» ساقط في النفع.

(٧) في النفع: «سبقناكم». (٨) في الأصل: «الدنيا» والتصويب من النفع.

(٩) في النفع: «وتقدم قبلكم إلى مواقف الصبر...».

(١٠) في النفع: «ترضى بالفرار».

(١١) نُضَلَى النَّارَ: نَحْتَرِقُ بِهَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَلِمُهَا إِلَّا الْآسَفَى﴾ سورة الليل ٩٢، الآية ١٥.

(١٢) في النفع: «المن». (١٣) في النفع: «فإنه يقبل».

(١٤) في النفع: «كفيلاً». (١٥) في النفع: «كفيلاً».

(١٦) في النفع: «فإياك». (١٧) ما بين قوسين ساقط في نفع الطيب.

(١٨) في النفع: «اللهم اجعلنا على تيقظ وتذكر من قال...».

فَتَذَكَّرْ، وَمَنْ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٢﴾ فَأَنقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٣﴾^(١). وقد وَرَدَتْ علينا المخاطبات من قِبَلِ^(٢) إخواننا المسلمين الذين عَرَفْنَا في القديم والحديث اجتهداهم، وشكرنا في ذات الله تعالى جهادهم، بني مَرِين، أولي الامتِعاَض لله والْحَمِيَّة، والمخصوصين بين القبائل الكريمة بهذه المزية، بعَزْمهم على الامتِعاَض لحقِّ الجوار، والمُصَارخة التي تليق بالأحرار، والنَّفْرة لانتهاك ذِمار نبيِّهم^(٣) المختار، وحركة سلطانهم^(٤) محلُّ أخينا بمن له من الأولياء والأنصار، إلى الإعانة على هؤلاء الكُفَّار، ومدافعة أحزاب الشيطان وأهل النار، فاسألوا الله تعالى إعانتهم على هذا المقصد الكريم الآثار، والسعي الضمين للعزِّ والأجر والفَخار، والسلام الكريم يخصُّكم أيها الأولياء، ورحمة الله وبركاته^(٥). في الثاني عشر من شهر رمضان المعظم من عام سبع وستين وسبعمائة. عَرَفْنَا الله خيره، صَحَّ هذا، فكان دفاعُ الله أقوى، وعصمته أَكْفَى. والحمد لله على عوائده الحُسنى.

ومن الغيرة على الدين، وتغيُّر أحوال الملحدِّين، من مآزق جهاد النفس، ما وقع به العمل من إخماد البِدْع، وإذهاب الآراء المضلة، والاشتداد على أهل الزُيغ والزُنْدقة. وقد أضافت أرباب هذه الأضاليل الشريعة، وسُدَّتْ مضرُّهم في الكافة، فَيَسْلُطَ عليهم الحُكَّام، واستدعيت الشهادات، وأخذهم التُّشريد، فهل تُجسُّ منهم أحدًا، أو تسمع لهم رِكْزًا؟

وقُيِّد في ذلك عني مقالات أخرى. منها رسالة «الغيرة على أهل الخير»، ورسالة «حَمْلُ الجمهور على السنن المشهور». ورسالة «أُنشِدْتُ على أهل الرَّد». فارتفع الخوض، وكسَدَتْ تلك الأسواق الخبيثة، وضُمَّ منها الصُّدى، ووضع نار الهدى، والحمد لله، ولو تتبععت مناقب الهدى، لأخرج ذلك عن الغرض.

الأحداث: وفي غرة ذي الحجة كانت الثورة الشُّنْعاء المُجحفة بالدولة، وقد كان السلطان أنذر بطائفة، تُداخل بعض القرابة، فعاجَلَه بالقبض عليه، وهو في محل ولايته، فصُقِّد وأُحْمِلَ إلى قَصْبة المَريَّة، وخاف أرباب المكيدة افتضاح الأمر، فتعجَّلوا إبراز الكامن، وإظهار الخَبِث، وتولَّى ذلك جُملة من بني غرون ذُنابى بيت

(١) سورة آل عمران ٣، الآيتان ١٧٣، ١٧٤. (٢) في النفع: «من إخواننا».

(٣) في الأصل: «بيتهم» والتصويب من النفع.

(٤) في النفع: «سلطانهم بذلك الأقطار والأمصار، ومدافعة...».

(٥) هنا ينتهي النص في نفع الطيب.

الإدبار، وقد عابهم من بني مطرون، يدور أمرهم على الدليل البركي^(١)، فأكذب الله دَعْوَتَهُمْ، بعد أن أركبوا الشيخ علياً بن نصر، ونصبوه ثلقاء القلعة بباب البُود^(٢)، ودَعُوا الناس إلى بيعته. وأخذ السلطان جذره، وناصبهم القتال، وأشاع العطاء، واستركب الجيش. وعمّر الأسوار، فأخفق القصد، وفرّ الدليل البركي، وتقبّض على الرئيس المذكور، وجعل الله العاقبة الحسنة للسلطان.

وكان ممّا أُمليته يومئذ بين يدي السلطان، من الكلام المُرسَل، ما هو نصه، بعد الصُّدر: وإلى هذا فَمِمّا أفادته الفِطْر السليمة، والجَلَم والقضاء بالشرعية، والثقل الشرعي والسّنن المَرعي، أنّ مُغالِب الحق مغلوب، ومزاحم الله مهزوم، ومكابر البُزْهان بالجهل موسوم، ومرتع الغي مهجور، وسيف العُدوان مفلول، وحظّ الشيطان موكوس، وحزب السلطان منصور. ولا خفاء بنعمة الله علينا، التي أطردّها في المواطن العديدة؛ والهَضَبات البعيدة، والشُّبُهات غير المُبينة، والظُّلُمات الكثيفة، معلنٌ بوفور الحظّ من رحمته، وإبراز القِداح في مجال كرامته، والاختصاص بسيما اختياره، فجعلَ العصمة ليلة الحادث علينا من دون مضجع أماننا، ونهَج لنا سبيل النجاة بين يدي كسبه علينا، وسخّر لنا ظَهري الطُريف والطريق، بعد أن فرّق لنا بحر الليل، وأوضح لنا خفيّ المسلك، وعبّد لنا عاصي الحَزْم، ودُمّت غمر الشُّغراء^(٣)، وأوطأنا صهوة المنعة، وضرب وجوه الشُرذمة المُتَبعة، بعد أن ركضوا قنيب البراذن البادية، من خزائن إهدائنا، المتجَمِّلة بحلي رَكبنا؛ وتحمّلوا السلاح والرياش المُختار من أثير صلاتنا، وأبهروا الأنفاس التي طال ما رفعها إيناسنا وأبلغها الريق تأميننا، وصبّوا العرق الذي أفضله طعامنا، شريهين إلى دِمنا، المَحْظُور بالكتاب والسنة، المحوِّط بِسِيَّاح البَيعة، المحصّن عنهم بتقديم النعمة، وحُرمة الأب ومُتَعَدِّد الأذمة، فجعل الله بيننا وبينهم حاجزاً، وسدّاً ليأجوجهم من المَرَدّة مانعاً، وانقلبوا يعضون الأنامل الغضة من سُريّط جفاننا، ويقلبون الأكف التي أجذبها الدهر، ترفيعاً من المهن المُترتبة في خدمتنا، قد حالهم صغار القَدَر، وذلّ الخيبة، وكَبَحَ الله جماعتهم عن التَّنَقُّق بتلك الوسيلة. واحتلّلنا قُصبة وادي آش، لا نملك إلا أنفُسنا، لم يُشْبِها غش المِلة، ولا كِيادُ الأمة، ولا دَنَسها والحمد لله عارُ الفاحشة، ولا وَسَمها الشُّوم في الولاية، ولا

(١) الدليل البركي: هو أحد وزراء سلطان غرناطة، الغني بالله.

(٢) باب البود: من أبواب غرناطة، يفصله عن قصبة الحمراء نهر خذره، وما يزال هذا الباب قائماً حتى اليوم. راجع نهاية الأندلس للأستاذ محمد عبد الله عنان (ص ٢١) ومملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر للدكتورة مريم قاسم طويل (ص ٢٩٤).

(٣) الشُّغراء: الأرض الكثيرة الشجر. محيط المحيط (شعر).

أحبط عمل نجابتها دَخَلَ العقيدة، ولا مرضُ السَّريرة، مذ سَلَمْنَا المَقَادَةَ لِمَنْ عَطَفَ علينا القلوب، وَصَيَّرَ إلَيْنَا مُلْكَ آبِنَا مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ وَلَا حِيلَةٍ، نَرَى أَنَّهَا أَمْلَكَ لِحَرَمَتِنَا، وَأَعْلَمَ بِمَا كُنَّا، وَأَرْحَمَ بِنَا، فَتَشَبَّثَتْ بِهَا الْقَدَمُ، وَخَمِيتْ لَنَا مِنْ أَهْلِهَا، رَعَاهُمُ اللَّهُ الْهِمَمُ، وَصَدَقَتْ فِي الذَّبِّ عَنَّا الْعِزَائِمُ، وَحَاصَرْنَا جَيْشُ الْعَدُوِّ، وَأَوْلِيَاءُ الشَّيَاطِينِ، وَظَهَرَ الْبَاطِلُ، فَبَانَ الظُّفَرُ وَالْإِسْتِقْبَالُ، وَظَهَرَتِ الْفِتْنَةُ الْقَلِيلَةُ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ، فَعَلَّيُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ. وَمَعَ مَا لَنَا مِنَ الضُّيُوقِ، وَأَهْمُنَا مِنَ الْأَمْرِ، فَلَمْ نُطْلُقْ بِهِ غَارَةً، وَلَا شَرَّهْنَا إِلَى تَغْيِيرِ نَعْمَةٍ، وَلَا سَرَّخْنَا عَنَّا اكْتِسَاحَ عَلَى هَجْمَةٍ، وَلَا شِعْنَا لِنَسَا فِي بَيْتٍ وَلَا حُلَّةٍ، وَأَمْسَكْنَا الْأَزْمَاقَ بِسِيرِ الْحَلَالِ الَّذِي اشْتَمَلَتْهُ خَزَائِنُنَا مِنْ أَغْشَارِ وَزَكَّوَاتٍ، وَحُظُوظٍ مِنْ زِرَاعَاتٍ، وَارْتَقَبْنَا الْفَرْجَ مِنْ مَحْصٍ بِالشَّدَةِ، وَالْإِقَالَةَ مِنْ مَنْ تَبَّهَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَاللَّهْمُ الْإِقْلَاعُ وَالتَّوْبَةُ. ثُمَّ وَقَفْنَا سَبْحَانَهُ، وَاللَّهْمُنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشْدًا، وَسَلِّكْ بِنَا طَرِيقًا فِي بَخْرِ الْفِتْنَةِ يَبْسَا، فِدْنَاهُ بِحَقْنِ الدَّمَاءِ، وَتَأْمِينِ الْأَرْجَاءِ، وَشَكَرْنَا عَلَى الْبَلَاءِ؛ كَشُكْرِنَا إِيَّاهُ عَلَى الْآلَاءِ. وَخَرَجْنَا عَلَى الْأَنْدَلُسِ، وَلَقَدْ كَادَ، لَوْلَا عِصْمَتُهُ، بِأَنْ نَذْهَبَ مَذَاهِبَ الزُّورَاءِ، وَنَسْتَأْصِلَ الشَّافَةَ^(١)، وَنَسْتَأْصِلَ الْقَرْصَةَ^(٢)، سَبْحَانَهُ مَا أَكْمَلَ صُنْعَهُ، وَأَجْمَلَ عَلَيْنَا سِرَّهُ، إِلَى أَنْ جُزْنَا الْبَحْرَ، وَلَحِقْنَا بِجَوَارِ سُلْطَانِ الْمَغْرِبِ. لَمْ تَنْبُ عَنَّا عَيْنٌ، وَلَا شَمَخَ عَلَيْنَا أَنْفٌ، وَلَا حَمَلَ عَلَيْنَا بَرَكَبٌ^(٣)، وَلَا هَتَفَتْ حَوْلَنَا غَاشِيَةٌ، وَلَا تُزِعَ عَنَّا لِلتَّقْوَى وَالْعَفَافِ سِتْرٌ، بَلْ كَانَ النَّاسُ يُوجِبُونَ لَنَا الْحَقَّ الَّذِي أَغْفَلَهُ الْأَوْغَادُ مِنْ أَبْنَاءِ دَوْلَتِنَا، وَالضُّفَادِ بِبِرْكَةِ نَعْمَتِنَا، حَتَّى إِذَا النَّاسُ عَافُوا الصُّبْحَةَ، وَتَمَلَّوْا الْحُسْرَةَ، وَبَيَّمُوا الْخُسَارَ وَالْخَبِيَّةَ، وَسَامَهُمُ الطُّغَامُ^(٤) الَّذِينَ يَرْجُونَ اللَّهَ وَقَارًا، وَلَا يَأْلُونَ لَشَعَائِرِهِ الْمَعْظَمَةَ احْتِقَارًا، كِلَابُ الْأَطْمَاعِ، وَعَبْدَةُ الطَّاغُوتِ^(٥)، وَمَدْبُرُو حُجُوجِ الْجَهْلِ، وَمِيَايِسُ أَسْوَاقِ الْبُعْدِ عَنِ الرَّبِّ، وَعِرَائِسُ مَحْرَمِ الزَّيْنَةِ، وَدُودُ الْقَرْزِ، وَثَغَارُ النَّهْمِ الْأَعْزَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْبَاطِلِ، الْأَذَلَّةُ فِي أَنْفُسِهِمْ بِالْحَقِّ، مِمَّنْ لَا يُحْسِنُ الْمَحَاوَلَةَ، وَلَا يَلْزِمُ الصُّهُوَّةَ، وَلَا يَحْمِلُ السَّلَاحَ، وَلَا يُنْزِعُ مَجْتَمَعَ الْجِشْمَةِ عَنِ الْفَحْشَاءِ، وَلَا يُطْعِمُ الْمَسْكِينَ، وَلَا يَشْعُرُ بِوُجُودِ اللَّهِ، جَارُوا مِنْ شَقِيَّتِهِمُ الْمَحْرُومِ، عَلَى مُضْعُوفٍ مُلْتَفٍّ فِي الْحَرَمِ الْمَحْصُورِ، مُحْتَفٍ بِلُطْفِ الْمَهْدِ، مُعَلَّلٌ بِالْخِدَاعِ، مَسْلُوبٌ الْجَرَاءَ بِأَيْدِي انْتِهَازِهِمْ، شَوْمٌ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَعْرَةٌ فِي وَجْهِ الدِّينِ، أَخَذَ اللَّهُ

(١) الشَّافَةُ: قَرْحَةٌ تَخْرُجُ فِي أَسْفَلِ الْقَدَمِ، وَإِذَا قُطِعَتْ مَاتَ صَاحِبُهَا، وَقَوْلُهُ: اسْتَأْصِلَ شَافَتَهُ: أَيِ أَذْهَبَهُ كَمَا تَذْهَبُ تِلْكَ الْقَرْحَةُ، أَوْ أزاله من أصله. محيط المحيط (شاف).

(٢) الْقَرْصَةُ: سَاحَةُ الدَّارِ. محيط المحيط (عرص).

(٣) الرِّكَبُ: الْجَمَاعَةُ مِنْ عَشْرَةِ فِصَاعِدًا. محيط المحيط (ركب).

(٤) الطُّغَامُ: أَوْغَادُ النَّاسِ، الْوَاحِدُ وَالْجَمْعُ فِيهِ سَوَاءٌ. محيط المحيط (طغم).

(٥) الطَّاغُوتُ: اللَّاتُ وَالْعُزَّى، وَالشَّيْطَانُ، وَالْأَصْنَامُ. محيط المحيط (طغا).

منهم حق الشريعة، وأنصف أئمة الملة، فلم ينشبوا أن تهارشوا، فعُضَّ بعضهم، واستأصلهم البغي، وألحم للسيف، وتفنن القتل، فمن بين مُجدل يُوارى بأحلاس الدواب الوبرة، وغريق يُزفُّ به إلى سوء الميته، واستُبينت حرمة الله، واستُضيم الدين، واستُبيحت المحرّمات، واستُضيّعت الفروج في غير الرّشدة، وساءت في عدوّ الدين الحيلة، فتحركنا عن اتفاق من أرباب الفُتيا، وعزم من أولي الحرية، وتحريض من أولي الحفيظة والهمة، وتداخِر من الشوكة، وتحريك من وراء البحر من الأمة، فكان ما قد علمتم من تشكين النّائرة وإشكا العديم، وإضمار الصارخ، وشغب الثّأى^(١)، ومعالجة البلوى، وتدارك القطر، وقد أشقى، وكشف الضرّ والبأساء، أما الخبوة فالتمسها، وجلّ الربّ، واستشاط عليها جو السماء. وأما مرافق البحر ومرافقه، فسدت طرقها أساطيل الأعداء. وأما الحمية، فبددها فساد السيرة، وغمط الحق، وتفضيل الأذى. وأما المال، فاضطلم السّفه بيضاءه وصفراءه، وكبس خزائنه حتى وقع الإدقاع والإعدام، وأقوى العامر، وافتقرت المجابي والمغابن، واغتربت جفون السيوف من حلاها، وجردتموا الآلة إلى أعلاها، والدغل المُستبطن الفاضح، ويمحض الحين، وأسلمت للدواء العرصة، وتخربت الثغور من غير مدافعة، واكتشحت الجهات فلم يترك بها نافخ، ووقع القول، وحقّ البهت، وخذل الناصر، وتبرأت الأواصر، فحاكنا العدو إلى النّصفه، ولم نقره على الدّنية، وبايناه أحوج ما كنا إلى كذحه، وأطمع ما أصبحنا في مظاهرته على الكفار مثله، اعتزازاً بالله، وثقة به، ولجأ إليه، وتوكلاً عليه، سبحانه ما أنهر قدرته، وأسرع نُصرته، وأزجى أمره، وأشدّ قهره. ورَكبنا بحر الخطر، بجيش من التجربة، ونهَذَا قُدماً، لا نهَاب الهول ولا نراقبه، وأطللنا على أحواز رِيّه^(٢) في الجمع القليل، إلا من مدد الصبر المفرد، إلا من مظاهره الله الغفل، إلا من زينة الحق المظلل جناح عقابه يجتاح الروح، تُسدّ جياذه بصهيل العزّ، المطالعة غرره بطليعة النصر. فلما أحسن بنا المؤمنون المُطهّرون بساحتهم انتزوا من عقال الإيالة الظالمة، والدعوة الفاجرة، وتبرأوا من الشّرذمة الغاوية، والطائفة المناصبه لله المحاربة، وأقبلوا ثنيات وأفراداً، ورُرافات ووحداثاً، ينظرون بعيون لم تُرو من غيبتنا، من مُحيا رحمة، ولا اكتحلت بمنظر رافية، ووجوه عليها قسوة الخسف، وإبشار عليها بوسّ الجهد، يتعلّقون بأذيالنا تعلّق الغريق، يثنون من الجوع والخوف أنين المرضى، ويجهشون بالبكاء، ويُعلنون لله ولنا بالشكوى، فعرفناهم الأمان من الأعداء، وأول عارفة جعلونا

(١) الثّأى والثّأى: الضعف والركاكة، وآثار الجرح.

(٢) رِيّه: كورة من كور الأندلس كثيرة الخيرات. الروض المعطار (ص ٢٧٩).

عليهم، وصرفنا وجه التأمين والتأنيس، وجميل الوَدِّ إليهم، وخارَطناهم^(١) الإجهاش والرُقعة، ووَثَبنا^(٢) لهم من الذلة، واستولينا على دار الملك ببلدهم، فأنزلنا منها أخابيث كان الأشقياء مُخْلَفُوهم بها، من أخلاف لا يزال تطاً إشارهم الحدود، وتأنف من استكفائهم اليهود، واثالت علينا البلاد، وشَمَّر الطاغية ذيله عن الجهات، وراجع الإسلام رَمَق الحياة، وحثثنا السير إلى دار الملك، وقد فرَّ عنها الشقي الغاصب، بشوكة بَغِيه، التي أمدته في الغي، وأجرته على حُرمة الله. وقصد دار قُشْئالة، بكل ما صائت الحِقاق من ذخيرة، وحجبت الأمهاء من خرزة ثمينة، يتوعدون المسلمين بإدالة الكفر من الإيمان، واقتياد جيوش الصُلبان، وشَد الحيازِم إلى تبديل الأرض غير الأرض، وسَوم الدين، وطمس معالم الحق، كياناً لرسول الله في أمته، ومناصبه له في حنيفيته، وتبديلاً لنعمة الله كُفْراً، ولمعروف الحق نُكْراً، أصبح له الناس على مثل الرُضف، يرتقبون إطلال الكريهة، وسقوط الظلة، وعودة الكَرَّة، وعُقبى المَعْرَّة، والله من ورائهم مُحيط، وبما يعملون محيط، ولدعاء المستضعفين من المؤمنين مُجيب، ومنهم وإن قعدوا في أقصى الأرض قريب. ولم نُقدم مذ حللنا بدار الملك شيئاً على مراسلة صاحب قُشْئالة في أمره، تناشده العهد، ونُطري له الوفاء، ونُناجزه إلى الحق، ونقوده إلى حُسن التلطف، إلى الذي نشاء من الأمن، فحسم الداء، واجتث الأعداء، وناصح الإسلام وهو أعدا عدوه، وحَزَم الدين، وهو المعطل من أذوائه، وصارت صُغرى عناية الله بناء، التي كانت العُظمى، واندرجت أولاهها في الأخرى، وأنت ركائبُ اليُمن واليَمين تترى، ورأى المؤمنون أن الله لم يخلق هذا الصُّفح سدى ولا هباء عبثاً، وأن له فينا خبيثة غيب، وسرُّ عناية، يبلُغنا إياها، ويَطوِّقنا طوقها، لا مانع لعطائه، ولا مُعدَّد لآلائه، له الحمد مَلء أرضه وسمائه.

فمن اضطردت له هذه المعائب، فحملته عوائق الاستقامة مزية جيوب التقوى، كيف لا يتمنى، ويدين الله بمناصبته، ويحذر عناد الله بمخالفته، ويخشى عاقبة أمره، إنها لا تُغمي الأبصار، ولكن تُغمي القلوب التي في الصدور. فقللنا أظفار المطالبة وأغضينا عن البقية وسوَّغنا من كشف وجهه في حَزْبنا نعمة الإبقاء، وأقَطعنا رَجَم مَنْ قطع طاعتنا جانب الصُّفح، وأدَرزنا لكثير ممن شَحَّ عَنَّا ولو بالكلمة الطيبة جورية الرزق، ووهنا ما وجب لنا من الحق، ودنا له بكظم الغيظ؛ وعَمَرنا الرُتب بأربابها،

(١) لم تُرد هذه الصيغة في معاجم اللغة، والمراد أنهم بكوا بكاء شديداً.

(٢) وَثَبه: أقعده على وسادة، والمراد هنا أنه أكرمهم وأقالهم من الذلة. محيط المحيط (وثب).

وجردنا الألقاب بعد خرابها، وقَبَضْنَا الجبابة مُحَمَّلَةً كَتَدَ العادة، مقودة بزمام الرِّفق، ممسوخًا عطفها بكف الطراعية، فبللنا صدا الجيش المَمَطُول بالأمانى، المُعَلَّل بالكذب، المُسْتخدم في الذب عن مجاثم الفحشاء، ومراقد العُهر، ودارينا الأعداء، وحسنا الداء، وظَهَرَ أمر الله وهم كارهون، إِلَّا أن تلك الشُرذمة الخبيثة أَبَقَتْ جرائيم يفاق، رَكِبَها انحجار القَدْر، وَيَذَرُ بها حصيدُ الشرِّ، وأخلطوا الحقائق اللَّعِنَة ممن ساء ظنه، وخبث فكره، وظنَّ أن العقاب لا يفلته، والحق لا يذره، والسياسة لا تخفزه، قدبَت عقاربُهم، وتدارت طوافاتهم، وتآبَت فسادهم، فدَبُّروا أمرًا تَبَرَه الله تَثْبِيرًا، وأوسعه خزيًا وبيلاً، وجفلوا يرتادون من أذيال القرابة، مَنْ استخلَّصه الشيطان وأصبحه الخذلان، مَنْ لا يصلح لِشيءٍ من الوظائف، ولا يستقلُّ ببعض الكُلف، فحركوا منهم زاهق زمانه، من شرِّ الدَّواب الذين لا يسمعون، فأجرهم رُسْنه، وتوقف وقفة العين بين الورد والصُّدر، بخلال ما أطلعنا الله طلع نيته، فعاجلناه بالقبض، واستودعناه مَصْفِيْدًا ببعض الأطباق البعيدة، والأجباب العميقة، فخرج أمرهم، وخافوا أن نحترش السعايات، صباب مكرهم، وتتبع نفاقهم، فأقدموا إقدام العير على الأسد، استعجالاً للحين، ورجعاً لحكم الخيار، وإقداماً على التي هي أشدُّ، تولَّى كبرها، وكشف وجهه في معصيتها الخبيث البركي^(١) جلف التهور والخرق، المموه بالبسالة وهو الكَذُوب النُّكُوث القُلُول، تحملنا هفوته، وتغمَّدنا بالعفو قديمًا وحديثًا زلته، وأعرضنا فيه عن النصيحة، وأبقينا له حكم الولاية، وأنسنا من نُفْرته، وتعاففنا عن غِرَّته، وسوَّغنا الجرائم التي سبقت، والجرائر التي سلفت، من إفساد العهد وأسر المسلمين، والافتيات على الشرع، والصُّدُوع بدعوى الجاهلية، فلم يفده إِلَّا بَطْرًا، ولم يزدَه إِلَّا مَكْرًا، والخير في غير أهله يستحيل شراً، والنفع ينقلب ضراً. والتفت عليه طائفة من الخلائق، بنو غُرُون قُرْعاء الجبل والمَشَامَة، وأذنان بيت الإدبار، ونفاية الشُّرَار، عَرَكَ جراتهم مكان صهرهم النَّائِس، ابن بطرون، الضعيف المُنَّة السقيط الهِمَّة، الخامل التفصيل والجُملة، وغيرهم ممن يأذن الله بضلال كيدهم وتخيب سغيهم، فاقتحموا البلد صبيحةً يهتفون بالناس أن قد طرق جِمامهم، وأن العدو قد دَهَمَهم، مُلْتَفْتين يرون أنهم في أذيالهم، وأن رماحهم تنهشهم وتنوشهم، وسُرْعانهم تَرَهَقهم، كأنهم سقطوا من السماء، أو ثاروا من بين الحَضْبَاء، ثم جالوا في أزقة البلد يقذفون في الصَّفاح ناز الحُبَّاحِب^(٢) ركضاً فوق الصَّخر المرصوف،

(١) الخبيث البركي: هو أحد وزراء سلطان غرناطة، الغني بالله.

(٢) الحُبَّاحِب: ذباب يطير بالليل له شعاع في ذنبه كالسراج، وبنار الحُبَّاحِب يضرب المثل في الضعف. محيط المحيط (حب).

وخوضاً في الماء غير المرهوف. ثم قصدوا دار الشيخ البائس علي بن أحمد بن نصر، نفاية البيت، ودردى القوم، ممسوخ الشكل، قبيح اللغ، ظاهر الكدر، لإدمان المعاقرة، مزنون بالمعاقرة والرئت على الكبرة، ساقط الهمة، عديم الدين والجشمة، مُثَمَّت في البخل والهلع، إلى أقصى درجات الخسة، مثل في الكذب والنميمة، معيب المثانة، لا يُرق بؤله، ولا يجف سلسه، فاستخرجوه مُبايعاً في الخلافة، منصوباً بأعلى كرسي الإمامة، مدعوماً بالأيدي لكونه قلقاً لا يثبت على الصهوة، مختاراً لحماية البيضة، والعدل في الأمة، مُغْتَمّاً للذب عن الحنفية السَّمْحَة، وصعدوا به إلى ربوة بإزاء قلعتنا، مُنتَتِراً باب البنود^(١)، مستنداً إلى الربض، مطلقاً على دار الملك، قد أقام له رسم الوزارة ابن مطرون الكاري، الكسبح الدروب برسم المسومة، الحزْدُ، المهينُ الحجة، فحل طاحونة الغدر، وقذر السُّوق والخيانة، واليهودي الشكل والنحل، وقرعت حوله طبول الأعراس، إشادة بخمول أمره، واستهجان آله، ونُشرت عليه رايةً فال رأيها، وخاب سعيها، ودارت به زغيفة من طعام من لا يُملي ولا يزيد المكا والصغير من حيله، وانبتت في سكك البلد مُناديه، وهتف أولياء باطله باسمه وكُتِبته، وانتجروا مواعيد الشيطان فأخلفت، ودعوا مَسَاسير الغرور فضمت، وقدحوا زناد الفتنة فصلدت وما أوارت. ولحين شعرنا بالحادثة، ونظرنا إلى مَرَج الناس، واتصل بنا ريح الخلاف، وجهير الخلعان، استعنا بالله وتوكلنا عليه، وقوضنا أمرنا إلى خير الناصرين، وقلنا: ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق، وأنت خير الفاتحين، واستركبنا الجند، وأذعنا خَبَرَ العطاء، وأطلقنا بريح الجهاد، ونفِير الجِلاد. وملأنا الأكف بالسلاح، وعمرنا الأبراج بالرجال، وقرعنا طبول الملك، ونشرنا ألوية الحق؛ واستظهرنا بخالصة الأمراء أولياء الدعوة، وخاطبنا فقيه الربض، نخبر مخبره؛ ونُسبر عَورَه، فالفينا متوارياً في وكره، مُرعياً على دينه، مُشفقاً من الإخطار برمه، مشيراً بكُمه. وتفقدنا البلد، فلم نرتب بأحد من أهله. فلما كملت البيعة، وقُحمت الجملة، أنهدنا الجيش، ولي أمرنا، الذي اتخذناه ظهيراً؛ واستنبطنا مشيراً، والتزمناه جليساً وصهيراً، ولم ندخر عنه محلاً أثيراً، الشيخ الأجل، أبا سعيد عثمان ابن الشيخ أبي زكريا يحيى بن عمر بن زُخو، مُمَهَّد الرعب بقدمه، والسَّعْد في خدمتنا بخدمه، في جيش كثيف الجملة، سابغ العُدَّة، مُزاح العِلة، وافر النَّاشِية، أخذ بباب الربض وشعابه، ولف عليه أطنابه، وشرع إليه أمله. ولم يكن إلا كلاً ولا، حتى داسه

(١) باب البنود: أحد أبواب مدينة غرناطة، وما يزال قائماً حتى اليوم. راجع نهاية الأندلس للأستاذ محمد عبد الله عنان (ص ٢٩٤) ومملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر للدكتورة مريم قاسم طويل (ص ٢٩٤).

بالتسناكب، وتخلّفه مجرّ العوالي، ومجرى السوابق، وهو الجمى الذي لا يتوعد، والمجدّ الذي لا يغرب، فلولا تظاهر مشيخته بشعار السلم؛ واستظلاله بظلال العافية، لحثّ الفاقرة، ووقعت به الرزية. وفرّ الأعداء لأول وهلة، وأسلموا شقيهم أذلّ من وتد في قاع، وسلخفة في أعلى يفاع، فتقبّض عليه، وأخذت الخيل أعقاب العُدرة أشياعه، وقيد إلينا يرُسف في قيد المهزم، ثعلبان مكيدة، وشكّية ضلال ومظنة فضيحة، وأضحوكة سمر. فتضرع بين أيدينا، وأخذته الملامة، وعلاه الخزي، وثُلّ إلى المُطبق، حتى نستدعي حكم الله في جرمه، ونقتضي الفتيا في جريرته، ونختار في أقسام ما عرضه الوحي من قتله. وهذأت الثائرة، والحمد لله من يومها، واجتثت شجرة الخلاف من أصلها، فالحمد لله الذي أتمّ نوره ولو كره الكافرون ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرُّوْنَ مَا هُمْ فِيهِ وَنَظِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١). وماذا رابهم منّا، أصغر الله مُنقلبهم، وأخزى مرّدهم، واستأصل فلّكهم؟ أولا يتبنى أمر وارثه، ثم عوده إلينا طواعية، ثم رفعنا وطأة العدو وحربه، ومددنا ظلال الأمن دفعة، وأنفأنا رَمَق الثغور، حين لم يجدوا حيلة إلا ما عرفوا من أمنه، وبلوا من خيطة وتسوُّعاً من هذنة، وانسحبت فوق آمالهم وحريمهم من عِقة، وأظهر الله علينا من نعمة. ربنا أنك تعلم ما نخفي وما نعلن، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء. اللهمّ ألبسنا سريرتنا، وعاملنا بدخلتنا فيهم، وإن كنا أردنا لجماعتهم شراً، وفي دينهم إغماضاً، وعن العدل فيهم عدولاً، فعاملنا بحسب ما تبلوه من عقيدتنا، وتستكشفه من خبيثتنا، وإن كنت تعلم صحة مناصحتنا لسوادهم؛ واستنفادنا الجهد في إتاحة عافيتهم، ورعي صلاحهم، وتكيف آمالهم، فصل لنا عادة صنّعتك فيهم، ومسلنا طاعتهم، وافد بنا جماعتهم، وارفع بنظرنا إطاعتهم، يا أرحم الراحمين.

ولما أسفر صبح هذا الصنع عن حُسن العفو، واستقرّ على التي هي أزكى، وظهر لنا، لا تخاف بالله دركاً ولا تخشى، وأن سبيل الحق أنجى ومحجّته أُنجى، خاطبنا كم نجلو نعم الله قبلنا عليكم، ونُشيد بتقوى الله بناديكُم، وعنايته لدينا ولديكم، ونهدي طرف صنّعه الجميل قبلنا إليكم ليكسبكم اعتباراً، فزجوا الله وقاراً، وتزيدوا يقيناً واستبصاراً، وتصفّوا العين من اختار لكم اختيلاً. وهو حسبنا ونعم الوكيل، والله يصل سعدكم، ويحرس مجدكم. كتب في كذا. والسلام عليكم، ورحمة الله وبركاته.

(١) سورة الأعراف ٧، الآية ١٣٩. ومُتَّبَرُّوْ: هالك.

الجهاد في شعبان من عام سبعة وستين وسبعمائة:

اقتضى نظر الحزم، ورأى الاجتهاد للإسلام إطلاق الغارات على بلد الكفرة من جميع جهات المسلمين، فعظم الأثر، وشهر الذكر، واكتسحت الماشية، وألحم السيف. وكان ثغر برغة، الفائزة به يد الكفرة، لهذه السنين القريبة، قد أهم القلوب، وشغل النفوس، وأضاق الصدور، لانبئات^(١) مدينة رندة، بحيث لا يخلص الطيف، ولا تبلغ الرسالة من الطير وغيرها إلى ناحية العدو، فوقع العمل على قصده واستعانة الله عليه، واستنفر لِمنازلته أهل الجهات الغربية من مالقة ورندة، وما بينهما، ويشر الله في فتحه، بعد قتال شديد، وحرب عظيمة، وجهاد شهير، واستولى المسلمون عليه، فامتلات أيديهم أثاثاً وسلاحاً ورياشاً وآلة، وطهرت للحين مساجده، وزينت بكلمة الله مشاهده، وأنست بالمؤمنين معاهده، ورُتبت فيه الحماة والرماء، والفرسان الكماة، واتصلت بفتح الأيدي، وارتفعت العوائق، وأوضحت بين المسلمين وأخوانهم السبل، والحمد لله. وتوجهت بفتح الرسائل، وعظمت المنن الجلائل، وفر العدو لهذا العهد عن حصن السهلة، من حصون الحفرة اللونشية، وسد الطريق المائلة، وذلك كله في العشر الأوسط لشعبان من هذا العام. ثم أجلب المسلمون في رندة في أخرياته وقصدوا باغة وجيرة فاستنزلوا أهلها، وافتتحوها، فعظمت النعمة، واطرد الفتح، واتسعت الجهة.

وكانت مما خطبت به الجهة المرينية^(٢) من إملائي:

المقام الذي نبشره بالفتح ونحييه، ونعيد له خبر المسرة بعد أن نبديه؛ ونسأل الله أن يضع لنا البركة فيه، ونشرك مساهمته فيما نهضه من أغصان الزهور ونجنيه، ونعلم أن عزة الإسلام وأهله أسنى أمانيه، وإعانتهم أهم ما يعنيه. مقام محل أخينا الذي نعظم قدره، ونلتزم برّه، ونعلم سرّه في مساهمة المسلمين وجهزه؛ السلطان الكذا، الذي أبقاه الله في عمل الجهاد ونيتّه؛ متكفلة بنشر كلمة الله طويته، متممة من ظهور الدين الحنيف أمنيته، معظّم جلاله، ومُجزّل ثنائه، ومؤمل عادة احتفاله بهذا الوطن الجهادي واعتنائه، أيد الله أمره، وأعز نصره. سلام كريم عليكم، ورحمة الله وبركاته. أما بعد حمد الله، وأصل سبب الفتوح، ومُجزّل مواهب النصر الممنوح، ومؤيد الفئة القليلة بالملائكة والروح، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبيه، الآتي بنور الهدى بين الوضوح، الداعي من قبوله ورضوانه إلى المنهل المورود والباب المفتوح، والرضا عن آله وأصحابه، أسود السروج وحماة السروج، والمقتفين

(١) الانبئات: الانقطاع. لسان العرب (بث). (٢) المراد بالجهة المرينية بلاط بني مرين بفاس.

نهجه في جهاد عدو الله بالعين القارئة والصدر المشروح، والدعاء لمقامكم العلي بالعز الرفيع الصُّروح، فإننا كتبناه إليكم، كتب الله لكم سُبُوغ المواهب، ووضوح المذاهب، وعزة الجانِب، وظفرة الكتائب. من حمراء غرناطة حرسها الله، ونعم الله واكفة السحائب، كفيلة بنيل الرغائب، والله يصل لنا ولكم عوارف اللطائف، ويجعل الشَّهيد دليلاً على الغائب. وإلى هذا وصل الله إعزازكم، وحرس أخوازكم، وعَمَر بالحقيقة من أُمراء مجازنا ومجازكم. فإنا بادرنا تعريفكم بما فتح الله علينا من الثغر العزيز على الإسلام، العائد رزؤه الفادح على عبادة الأصنام، ركاب الغارات، وممكن حياة المضمرات، ومخيف الطريق السابلة؛ والمسارح الآهلة، حصن برغبة. ويُسِّر الله في استرجاعه، مع شهرة امتناعه، وتطهر من دنس الكفار، وأثيرت مثذنته بكلمة الشهادة الساطعة الأنوار، وعجلنا ذلك على حين وضعت الحرب فيه أوزارها، ووفت الأوتار أوبارها، فسار الكتاب إليكم، وأجير الأجر لم يَجُفَّ عرقه، وعذر الاستعجال لاحتية طرقه. ولما عُذْنَا إلى حضرتنا، بعد ما حصَّناه وعمَّرنَاه، وأجزلنا نظر الحزم له وفرقناه، لم تكد البنود لمُسْرَة فتحه أن تعاد إلى أماكن صونها، مرتقبة عادة الله في عونها، حتى طرقت الأنبياء السارة بتوالي الصنع وانفراده، بتَشْفِيع أفراده، وذلك أن أهل رُنْدَة، حرسها الله، نافسوا جيرانهم من أهل مالقة، كان الله لجميعهم، وتولى شكر صنيعهم، فيما كان من امتيازهم بحصن برغبة، الجار المُصَاقِب لها، فحميت همهم السنيّة، وهانت في الله موارد المنيّة، وتضافر العمل والنيّة، وظهر نُجَح المقاصد الدينية في إتاحة الفتوح الهنيّة، فوجهوا نحو حصن وحبر، وهو الداين صحر المدينة ونحرها، والعدو الذي لا يفتر عن ضرّها، والحيّة الذكر التي هي مروان أمرها؛ ففتحوه بعون الله وقوته، وتهنؤا بعده سلوك الطريق، وإشاعة الريق، ومراصد الحرس، ومجلؤ الجرس، وأنصفوا، وانصرفوا إلى حصن باغة، من مشاهد تلك الحفرة، فناشبهوه القتال، وأذاقوه الوبال، وفوقوا إليه النبال، ففتح الله فتحاً هيناً، لم تُفَتَّ فيه للمسلمين نفس، ولا تطرَّق لنصر التيسير لئس، فقابلنا بها لشكر هذه النعم المتواليّة، والمِنَن المتقدّمة والتالية، وأعدنا الأعلام إلى مراكزها المشرفة المراقب، والطبول إلى قرعها عملاً من الإشارة بالواجب، وشكرنا الله على اتصال المواهب، ووضوح المذاهب، وخاطبنا مقامكم الذي نرى الصُّنائع متواترة بنيته الصالحة وقصده، ويُعْتَد في الحرب والسلم بمجده، علماً بأن هذه المسرّات، نصيبكم منها النصيب الأوفى؛ وارتياحكم إلى مثلها لا يخفى. ونحن نرقب ما تنجلي عنه هذه النكايات التي تُفَتَّت كبد العدو تتاليها، وتروع أحوازه وما يليها، ولا بدّ له من امتعاض يروم به صرع المعرّة، ويأبى الله أن ذلك يأتي بالكرّة، والله يجعلها محركات لحتفه المرقوب، وجينه المجلوب، ويحقق حق القلوب، في نُصرة المطلوب، عرفناكم بما تريدون

عملاً بواجب بركم، ومعرفةً بقدركم، وما يتزايد نعرفكم به، ويتصل سبب التأكيد والتعجيل بسببه، والسلام.

الغزاة إلى حصن أشر^(١):

وفي أوائل شهر رمضان بعده، أعمل السلطان الحركة السعيدة إلى حصن أشر، وهو قفل الثغر الذي فضّه الطاغية، وسورها الذي فرغه الكفر، وجارحه المحلّق على البلاد، والمتحكم لولا فضل الله في الأموال والأولاد، فتأذن الله برد مُغْتَصِبِهِ، والشّفا من وَصْبِهِ، وأحاط به وناصبه الحرب، ففتح الله على يده عَنُوةً، على سمو ذروته، وبُعد صيته وشهرته، واختيار الطاغية في حاميته بعد حرب لم يسمع بمثله، فاز بمزية الحمد فيها السلطان، لمباشرته إياها بنفسه، وحمل كلّها فوق كاهله، واتّقاد ما حَمَد من الحِمِيّة بتحريضه. ثم لما كان بعد الفتح من استخلاص القُصبة وسدّ ثَلَمِها بيده، ومصابرة جو القيظ عامة يومه، فحاز ذكراً جميلاً وحلّ من القلوب محلاً أثيراً، ورحل منها، بعد أن أسكن بها من الفرسان رابطة مُتَخَيِّرة، ومن الرُماة جُملة، وتخلّف سلاحاً وعُدّة، فكان الفتح على المسلمين، في هذا المَعْقِل العزيز عليهم جليلاً، والمنّ من الله جزيلاً، والصنع كثيراً، وصدرت المخاطبة للمغرب بذلك، على الأسلوب المرسل الخلي من السجع الغني.

الغزاة المُعمّلة إلى أطريرة^(٢):

في شهر شعبان من عام ثمانية وستين وسبعمائة، كانت الحركة إلى مدينة أطريرة بنت إشبيلية، وبلدة تلك الناحية الآمنة، مهاد الهدنة البعيدة عن الصُرمة، حرك إليها بعد المدى، وآثرها بمحض الرّدى، من بين بلاد العدا، ما أسلف به أهلها المسلمين، من قتل أسراهم في العام قبله. فنازلها السلطان أول رمضان، وناشبا الحرب واستباح المدينة ورَبَضَها عَنُوةً، ولجأ أهلها إلى قصبتها المنبعة، ذات الأبراج المشيدة، وأخذ القتال بِمُخْتَفِهِم، وأعان الزحام على استنزالهم، فاستنزلوا على حكم المسلمين، فيما يناهز خمسة، بما لم يتقدمه عهد؛ ولا اكتشّلت به في هذه المدة عين، ولا تلقته عنها أذن، وامتلات أيدي المسلمين، بما لم يعلمه إلا الله، من شتى الغنائم، وأنواع الفوائد، واقتسم الناس السّبي رُبْعاً على الأكفال والظهور، وتقديرًا بقدر الرجال، وحملًا فوق الظهور للفرسان، وعُمرانًا للسروج

(١) أشر: بالإسبانية Iznajor، وهو حصن يقع على ضفة نهر شنيل.

(٢) أطريرة: بالإسبانية Utrera وهي مدينة تقع جنوب شرقي إشبيلية. راجع: أزهار الرياض (ج ٤

والأعضاء بالصُّبِيَّة، وبرز الناس إلى ملاقة السلطان، في هول من العزَّ شهير من الفُخْر، وبعيد من الصَّيْت، قُرَّتْ له أعينهم، وقعد لبيعتهم أياماً تباغاً، وملاً بهم البلاد هدايا وتحفاً والحمد لله، وصدرت المخاطبة بذلك إلى السلطان بالمغرب بما نصه من الكلام المرسل من إنشائي.

الغزاة إلى فتح جيان:

وفي آخر محرم من عام تسعة وستين وسبعمائة، كانت الحركة الكبرى إلى مدينة جيان، إحدى دور الملك، ومدن المغمود، وكرسيّة الإمارة، ولو أن المدن الشهيرة افتتحها الله عثوة، ونقل المسلمون ما اشتملت عليه من النعم والأقوات والأموال والأنعام والأثواب والدواب والسلاح، ومكّنهم من قتل المُقاتلة، وسبى الذرية، وتخريب الديار، ومحو الآثار، واستئساد النعم، وقطع الأشجار. وهذا الفتح خارق، تعالى أن يحيط به النظم والنشر. فذكره أطير، وفخره أشهر. وصدرت في ذلك المخاطبة من إملاني إلى ملك المغرب. وأصاب الخلق عقب القُفول في هذه الغزاة، مرضٌ وافد، فشا في الناس كافة، وكانت عاقبته السَّلامة؛ وتدارك الله بلطفه، فلم يتسع المجال لإنشاد الشعراء، ومواقف الإطراء، إلى شغل عن ذلك.

الغزاة إلى مدينة أبدة:

وفي أول ربيع الأول من هذا العام، كان الغزو إلى مدينة أبدة، واحتل بظاھرھا جيش المسلمين، وأبلى السلطان في قتالها، وقد أخذت بعد جارتها جيان أقصى أهبة، واستعدت بما في الوُسْع والقوة، وكانت الحرب بها مشهورة. وافتتحها المسلمون فانتهبوها، وأغفوا مساكنها العظيمة البناء، وكنائسها العجيبة المراءى، والصقوا أسوارها بالثرى، ورأوا من سعة ساحتها، وبُعد أقطارها، وضخامة بنائها، ما يكذب الخبر فيه المراءى، ويُبَلِّد الأفكار، ويُخَيِّرُ التَّهْي. والله الحمد على آلائه التي لا تحصى. وقفل المسلمون عنها، وقد أخربوها، بحيث لا تُعْمَر رباّعها، ولا تأتلف حجورها وجموعها. وصدرت المخاطبة بذلك إلى صاحب المغرب من إنشائي بما نصّه:

وإلى هذا العهد جرت الحادثة على ملك قشتالة، بطرّه بن أذفونش بن هِراندة بن شائعجه، وهو الذي تهيأ به الكثير من الصُّنْع للمسلمين، بمزاحمة أخيه أندريق في الملك وتضييقه عليه، وجياز سبعة من كبار أصحابه، وأهل ملته إليه، وافتقار بطره المذكور إلى إعانة المسلمين، وإجلالهم على من أثر طاعته ضده، فانهزم بظاهر حصن مُثِيل، ومعه عدد من فرسان المسلمين، ولجأ إلى الحصن على غير أهبة

ولا استعداد، فأخذ أخوه الذي هزمه بمُخَنَّقِهِ، وأدار على الحصن البناء، وفرّ جيشُ المحصور، فاجتمع فُلُهُ بأحواز أبدة، وراسلوا المسلمين في مظاهرتهم على استنقاذهم، فتوجهت الفُتُيا بوجوب ذلك. ووقع الاستنفار والاحتشاد حرصاً على تخليصه، ليسبب بقاءه بقاء الفتنة تستأصل الكفر، وتشغل بعض العدو ببعضه.

وفي أثناء هذه المحاولة تباطأ الحايضُ المحصور بمن معه، ويعد عليه الخلاص من ورطته، ومساهمة المسلمين إياه في محنته؛ وانقطعت عنه الأنباء بفرج من كربته، فداخل بعض أمراء أخيه وظُهرائه، ممن يباشر حصاره، وكان قومًا شهيرًا من المدد الذي ظاهره، من أهل إفرنسية، ووعده بكل ما يطمع من مال ومَهْد، وتَوْفِيّة عهد، فأظهر له القبول، وأضمر الخديعة. ولما نزل إليه، سَجَنه ومن لحق به من الأدلاء وأولي الحرّة بالأرض وأمسكه، وقد طير الخبر إلى أخيه، فأقبل في شِرْذِمَةٍ من خواصه وخُدامه، فهجم عليه وقتله، وأوسع العفو مَنْ كان محصورًا معه، وطير إلى البلاد برأسه، وأوغر الثّبن في جُثَّتِهِ، ولبس ثياب الحزن من أجله، وإن كان معترفًا بالصواب في قتله، وخاطب البلاد التي كانت على مثل الجمر من طاعة الجاهر بمظاهرة المسلمين، وما جَرَّ ذلك من افتتاح بلادهم، وتخريب كنائسهم، والإتيان على نَعْمهم، فأجابته ضربة، واتفقت على طاعته، فلم يختلف عليه منها اثنان، إلا ما كان من مدينة قَرْمُونَة. واجتمعت كلمة النصارى، ووقع ارتفاع شتاتهم، وصرفوا وجوههم إلى المسلمين، وشاع استدعاؤهم جميع مَنْ بأرض الشرق من العدو الثقيل ببرجلونة^(١)، وعدو الأُسبُونَة، والعدو الثقيل الوطأة بإفرانسيّة. وقد كان الله، جلّ جلاله، ألهم أهل البصائر النظر في العواقب، والفكر فيما بعد اليوم أَعْمَل. ووقع لي إذن السلطان، المُخَلِّي بيني وبين النصائح، في مخاطبة سلطان النصارى المَنكُوب لهذا العهد، فأشرت عليه بالاحتراز من قومه، والتَّقَطُّن لمكايد مَنْ يَخْطُب في حَبْل أخيه، وأريته اتخاذ مَعْقِل يحرز ولده وذخيرته، ويكون له به الخيار على دهره، واستظهرت له على ذلك بالحكايات المتداولة، والتواريخ المعروفة، لتتصل الفتنة بأرضهم، فقبل الإشارة وشكر النصيحة، واختار لذلك مدينة قَرْمُونَة المختصّة بالجوار المُكْتَب، من دار مُلْكهم إشبيلية، فشيّد مضابها، وحصّن أسوارها، وملاها بالمخازن طعامًا وعُدّة، واستكثر من الآلات، واستظهر عليها بالثّقات، ونقل إليها المال والذخيرة، وسجن بها رِهان أكابر إشبيلية، وأسرى المسلمين، وبالحق في ذلك، فيما لا غاية وراءه ولا مَطْمَع، ولا ينصرف إلى مصرعه الذي دعاه القَدَر إليه، حتى تركها عُدّة خلفه، وأودع

(١) هي مدينة برشلونة، عاصمة مملكة أراغون في أيام ابن الخطيب.

بها ولده وأهله، ولجأ إليها بعض من خُذَّاه ممن لا يقبل مَهْدَنَة ضده، ولا يَقَرَّ أمان عدوه، والتفوا على صغير من ولده كالنخل على شَهْدِه، ولجأوا إلى المسلمين، فَبَغَضَ عليهم الكُرَّة والفتح بقاء هذا الشَّجَى الْمُعْتَرِض في خَلْقِه، وأهمُّه تغيير أمره، وَجَفَّجَ به المسلمون لأجله، وأظهروا لمن انحاز بقرمونة الامتساک بعهدِه، فعَظُم الخَرْق، وأظهر الله نُجَح الحيلة، وصدَّق بها المُخَيَّلَة، وتفشَّر الأمر، وخَمَدَت نار ذلك الإرجاف، واشتغل الطاغية بقَرْمُونَة، بِخِلال ما خطب به صاحب الأرض الكبيرة^(١)، فطَمَعه في المظاهرة، وتَحَطَّب له مُلْك قَشْتَالَة، وعقد السُّلَم مع صاحب بُزْطَغَال^(٢) والأشبونة، ونشأت الفتن بأرضهم، وخرجت عليهم الخوارج، فأوجب إزعاجه إلى تلك الجهة، وإقرار ما بالبلاد المجاورة للمسلمين من الفرسان والحماة تقاتل وتدافع عن أخوازها، وجعل الخصص مُوَجَّهَة قَرْمُونَة، وانصرف إلى سَدِّ الفتوق التي عليه بِلُطْف الحيلة، ببواطن أرضه، وأحشأ عِمَالَتِه، وصار في مُلْكِه أشْغَل من ذات النُحَيْن، فساغ الرُّيُوء، وأمكن العُذْر، وانتَهز العُرَّة، واستؤنفت الحركة، فكانت إلى حصن مُثِيل والحويز، ففتحهما الله في رمضان من عام سبعين وسبعمائة، ثم إلى ثغر رُوْطَة، ففتحها الله عن جَهْد كبير، واتصل به حصن زَمَرَة، فأَمَّن الإسلام عادية العدو بتلك الناحية، وكَبَس أهل رُنْدَة بإيعاز من السلطان إليها وإلى مَنْ بِالْجَبَل، جبل الفتح، حصن برج الحكيم والقُشْتور، فيسر الله فتحهما في رمضان أيضًا.

ثم كانت الحركة إلى الجزيرة الخضراء^(٣)، باب الأندلس، وبكرُ الفتح الأول، فكانت الحركة إليها شهر ذي الحجة من العام المذكور. ووقع تحريض الناس بين يدي قصدها في المساجد بما نصه:

معاشر المسلمين المجاهدين، وأولي الكفاية عن ذوي الأعذار من القاعدين، أعلى الله بعلو أيديكم كلمة الدين، وجعلكم في سِوَى الأجر والفخر من الزاهدين، اعلموا، رحمكم الله، أن الإسلام بالأندلس ساكن دار، والجزيرة الخضراء بأبه، ومُبعد مغار، والجزيرة الخضراء رِكا به، فمن جهتها اتصلت في القديم والحديث أسبابه، ونَصَرْتِه على أعدائه وأعداء الله أحبابه، ولم يشك العدو الكافر الذي استباحها، وطَمَس بظُلْمَة الكفر صباحها، على أثر اغتصابها، واشوداد الوجوه المؤمنة لمصابها، وتبديل محاربها، وعلوق أصله الخبيث في طيِّب ثرائها، أن صريع الدين الحنيف بهذا الوطن الشريف لا ينتعش ولا يقوم، بعد أن قُري الحُلُقوم، وأن الباقي

(٢) برطغال: هي البرتغال Portugal.

(١) الأرض الكبيرة هي فرنسا.

(٣) راجع: أزهار الرياض (ج ٤ ص ٧٢).

رَمَقَ يَذْهَبُ، وَقَدْ سُدَّ إِلَى التُّدَارِكِ الْمَذْهَبِ، لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ دَفَعَ الْفَاقِرَةَ^(١) وَوَقَّاهَا، وَحَفِظَ الْمَسْكَنَةَ وَاسْتَبَقَاهَا، وَإِنْ كَانَ الْجَبَلُ^(٢) عَصِمَةَ اللَّهِ نِعْمَ الْبَقِيَّةُ، وَبِمَكَانِهِ حَفَّتِ التَّقِيَّةُ، فَحَسْبُكَ مِنْ مَصْرَاعٍ بَابٍ فُجِعَ بِثَانِيهِ، وَمُضَايِقٍ جَوَارٍ حِيلَ بَيْنَهُ وَأَمَانِيهِ. وَالْآنَ، يَا عِبَادَ اللَّهِ، قَدْ أَمَكْنَكُمْ الْإِنْتِهَازَ، فَلَا تُضَيِّعُوا الْفُرْصَةَ، وَفَتَرَ الْمُخْتَلِقُ فَلَا تُسَوِّغْهُ غُصَّةً، وَاعْمُرُوا الْبُؤَاطِنَ بِحِمِيَّةِ الْأَحْرَارِ، وَتَعَاهَدُوا مَعَ اللَّهِ مَعَاهِدَ الْأَوْلِيَاءِ الْأَبْرَارِ، وَانْظُرُوا لِلْعَوْنِ مِنَ الذَّرَارِيِّ وَالْأَبْكَارِ، وَالنَّشْأَةِ الصُّغَارِ، زُغْبِ الْحَوَاصِلِ فِي الْأَكْوَارِ، وَالْدِينِ الْمُنْتَشِرِ بِهَذِهِ الْأَقْطَارِ، وَاعْمَلُوا لِلْعَوَاقِبِ تَحْمَدُوا عَمَلَكُمْ، وَأَخْلَصُوا لِلَّهِ الضَّمَائِرَ يُبَلِّغَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ أَمَلَكُمْ، فَمَا عُذْرُ مَنْ سَلِمَ فِي بَابٍ وَكُتِرَ، وَمَاذَا يَنْتَظِرُ مَنْ أَدْعَى لِكَيْدِ عَدُوِّهِ وَمَكْرِهِ. مِنْ هَذِهِ الْفُرْصَةِ، دَخَلَ الْإِسْلَامَ تَرْوُجُ أَسْوَدِهِ، وَمِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ طَلَعَ الْفَتْحُ الْأَوَّلُ تَخْفِقُ بُنُودُهُ، وَمِنْهَا تَقْتَحِمُ الطَّيْرُ الْغَرِيبَ، إِذَا رَامَتْ الْجَوَازَ وَقُودَهُ، فَيَبْصُرُ بِهَا صَافَاتٍ وَالِدَلِيلِ يَقُودُهُ. الْبَابُ الْمَسْدُودُ، يَا عِبَادَ اللَّهِ، فَافْتَحُوهُ، وَجْهَ النَّصْرِ تَجَلَّى يَا عِبَادَ اللَّهِ فَالْمَحْوُ، الدَّاءُ الْعُضَالُ يَا عِبَادَ اللَّهِ فَاسْتَأْصِلُوهُ، خَبَلُ اللَّهِ يَا رِجَالَ اللَّهِ قَدْ انْقَطَعَ فَصِلُوهُ. فِي مِثْلِهَا تَزْخُصُ النُّفُوسُ الْغَالِيَةَ، فِي مِثْلِهَا تُخْتَبِرُ الْهِمَمُ الْعَالِيَةَ، فِي مِثْلِهَا تُشْهَرُ الْعَقَائِدُ الْوَثِيقَةُ، وَتُدَسُّ الْأَحْبَاسُ الْعَرِيقَةُ، فَتَضُرُّ اللَّهُ وَجْهَ مَنْ نَظَرَ إِلَى قَلْبِهِ، وَقَدْ امْتَلَأَتْهُ حَبِيَّةُ الدِّينِ، وَأَصْبَحَ لَأَن تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا مُتَهَلِّلُ الْجَبِينِ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِأَسْرَارِ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ، وَعِنَايَةِ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الَّذِي أَوْفَدْتَ مِنْ خُصُوصِ الرُّحَمَاتِ وَأَجَزَلْتِ، وَبِكُلِّ نَبِيٍّ رَكِعَ لَوَجْهِكَ الْكَرِيمِ وَسَجَدَ، وَبِكُلِّ وَلِيٍّ سَدَّهَ مِنْ إِمْدَادِكَ كَمَا وَجَدَ، أَلَا مَا رَدَّدْتَ عَلَيْنَا ضَالَّتَنَا الشَّارِدَةَ، وَهَنَاتَنَا بِفَتْحِهَا مِنْ نِعْمِكَ الْوَارِدَةِ، يَا مُسْهَلَ الْمَآرِبِ الْعَسْرَةِ، يَا جَابِرَ الْقُلُوبِ الْمُنْكَسِرَةِ، يَا وَلِيَّ الْأُمَّةِ الْغَرِيبَةِ، يَا مُنْزِلَ اللَّطَائِفِ الْقَرِيبَةِ، اجْعَلْ لَنَا مِنْ مَلَائِكَةِ نَصْرِكَ مَدَدًا، وَانْجِزْ لَنَا مِنْ تَمَامِ نُورِكَ الْحَقِّ مَوْعِدًا. رَبُّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا.

فَوْقَ الْإِنْفِعَالِ، وَانْتَشَرَتِ الْحِمِيَّةُ، وَجُهِزَتِ الْأَسَاطِيلُ. وَكَانَتْ مُنَازَلَتُهَا يَوْمَ السَّبْتِ الثَّالِثِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ الْمَذْكُورِ، وَعَاطَاهَا الْمُسْلِمُونَ الْحَرْبَ، فَدَخَلَتْ الْبِثْنِيَّةَ وَهِيَ الْمَدِينَةُ الْمَلَاصِقَةُ لَهَا غَنَوَةٌ، قَتَلَ بِهَا مِنَ الْفَرَسَانِ الدَّارِعَةِ عِدَّةً، وَصُرِفَتِ الْغَنَائِمُ إِلَى الْمَدِينَةِ الْكُبْرَى، فَرَأَوْا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، مَا لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهِ، وَخَذَلَهُمُ اللَّهُ جَلَّ

(١) الْفَاقِرَةُ: الدَّاهِيَةُ الَّتِي تَكْسِرُ الْفَقَارَ، وَالْجَمْعُ فَوَاقِرُ. مُحِيطُ الْمَحِيطِ (فَقْر).

(٢) الْمَقْصُودُ هُنَا جَبَلُ الْفَتْحِ، أَيُّ جَبَلِ طَارِقِ.

جلاله، على مَنعة الأسوار وُبعد مهاوي الأغوار، وكثرة العدِّ والعُدَد، وطلبوا الأمان لأنفسهم، وكان خروجهم عنها يوم الاثنين الخامس والعشرين من الشهر المذكور، السعيد على المسلمين، في العيد والسرور، برد الدين، والله الحمد على آلائه، وتوالي نعمه وإرغام أعدائه.

وفي وسط ربيع الأول من عام أحد وسبعين وسبعمائة، أَعْمَلَ الحركة إلى أخواز إشبيلية دار الملك، ومحل الشوكة الحادة، وبها نائب سلطان النصارى، في الجمع الخشن من أنجاد فرسانهم، وقد عَظُم التضييق ببلدة قَرمونة، المنفرد بالانْتِزَاء على مَلِك النصارى، والانحياز إلى خدمة المسلمين، فنازل المسلمون مدينة أشونة^(١)، ودخلوا جفنها غنوة، واعتصم أهلها بالقُصبة، فتعاصت، واستعجل الإقلاع منها لعدم الماء المَزوي والمحلات، فكان الانتقال قُدماً إلى مدينة مُرشانة وقد أحرقوا بها، وبها العُدَّة والعديد من الفرسان الصناديد، ففتحها الله سبحانه، إلَّا القُصبة، واستولى المسلمون فيها، وفي جارتها، من الدواب والآلات على ما لا يأخذه الحضر، وقُتِل الكثير من مُقاتلتها، وعمَّ جميعها القَدَم والإحراق، ورَفَعَتْ ظهور دواب المسلمين من طعامها ما ثَقُلَهُ أَظْهَرُ مراكب البحار، ما أوجب في بلاد المسلمين التَّوْبِيعَة، وانحطاط الأسعار، وأوجب الغلاء في أرض الكُفَّار، وقفل، والحمد لله، في عزٍّ وظهور، وفرح وسرور.

مولده السعيد النُشِيبَةُ^(٢)، الميمون الطلوع والجيئة:

المقترن بالعافية، منقولاً من تهليل نشأته المباركة، وجرَّز طفولته السعيدة، في نحو ثلث ليلة الاثنين والعشرين من جمادى الآخرة عام تسعة وثلاثين وسبعمائة. قُلْتُ: ووافقه من التاريخ الأعجمي رابع ينير من عام ألف وثلثمائة وسبعة وسبعين^(٣) لتاريخ الصُفَر. واقتضت صناعة التعديل بحسب قيمودا وبطليموس، أن يكون الطالع ببرج القَمَر؛ لاستيلانه على مواضع الاستقبال المتقدم للولادة، ويكون التخمين على ربع ساعة وعشر ساعة، وثلث عشر الساعة السادسة من ليلة الاثنين المذكورة، والطالع من بُرج السُّنبلة، خمس عشرة درجة، وثمان وأربعون دقيقة من درجة. كان الله له في الدنيا والآخرة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(١) أشونة، بالإسبانية: Osuna، وهي مدينة من كور إستمجة الأندلس. الروض المعطار (ص ٦٠).

(٢) النُشِيبَةُ: النشأة.

(٣) الصواب: ٢١ كانون الثاني من عام ١٣٣٨ م.

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر ابن قيس الخزرجي الأنصاري^(١)

من ولد سعد بن عبادة، صاحب رسول الله ﷺ، ابن سليمان بن حارثة بن خليفة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمر بن يعزب بن يشجب بن قحطان بن هَمَيْسَع بن يُمَن بن ثَبِت بن إسماعيل بن إبراهيم صلى الله عليه وعلى محمد الكريم. أمير المسلمين بالأندلس ودايلها خدمة النصريين بها. يكنى أبا عبد الله، ويلقب بالغالب بالله.

أوليته: وقد اشتهر عند كثير ممن عني بالأخبار أن هذا البيت النصري من ذرية سَعْد بن عبادة سيد الخزرج، وصاحب رسول الله ﷺ. وصنف الناس في اتصال نسبهم بقيس بن سعد بن عبادة غير ما تصنيف. وأقوى ما ذكر قول الرازي: دخل الأندلس من ذرية سعد بن عبادة رجلاً، نزل أحدهما أرض تَاكْرُونَا، ونزل الآخر قرية من قرى سقرسطونة، تعرف بقرية الخزرج، ونشأ بأحواز أَرْجُونَة من كَنْبَانِيَّة^(٢) قرطبة، أطيب البلاد مَدْرَة، وأوفرها غلة، وهو بلد، وبلد جدّه، في ظل نعمة، وعلاج فلاحية، وبين يدي نجدة وشهرة، بحيث اقتضى ذلك، أن يفيض شيزيان الرياسة، وانطوت أفكاره على نيل الإمارة، ورآه مرتادو أكفاء الدول أهلاً، فقدحوا رغبته، وأثاروا طمعه.

حدّث شيخنا الكاتب الشاعر، محمد بن محمد بن عبد الله اللّوشى الّيخصّبي، وقد أخبرني أنه كان يوجد بمدينة جِيَّان رجل من أهل المالية، وكان له فرس أنثى من عِتَاق الخيل، على عادة أولي المالية، وكان له من أهل الثغور، من ارتباط الخيل، والتنافس في إعداد القوة. وشهّرت هذه الفرس في تلك الناحية، وبعث الطاغية ملك الروم في ابتياعها، فعَلِقَتْ بها كفّ هذا الرجل، وآثر بها نفسه، وازداد غبطة بها لديه، ورأى في النوم قائلاً يقول له: سِرْ إِلَى أَرْجُونَة، بفرسك، وابحث عن رجل اسمه كذا، وصفته كذا، فأعطه إياها، فإنه سيملك جِيَّانًا وسواها، يستفح بها عَقَبُكَ. وأزجىء الأمر، فعرض عليه ثانية، وحُثَّ في ذلك في الثالثة، فسأل ثقة له خبيراً بتلك الناحية وأهلها، فقال له المُخْبِر، وكان يُعرف بابن يَعِيش، فوصفه له، فتوجه الفقيه إلى

(١) ترجمة أبي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر في المغرب (ج ٢ ص ١٠٩) والبيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٢٩٦، ٣٤١) واللمحة البدرية (ص ٣٦).

(٢) كَنْبَانِيَّة: كلمة إسبانية Campaña، وتعني الأرض الجرداء. راجع نفح الطيب (ج ٤ ص ١٩١) حاشية المحقق.

أرجونة، ونزل بها، وتُسومع به، وأقبل السلطان وأظهاره، وتكلموا في شأنه، فذكر غرضه فيه، وأظهر العجز عن الثمن، وسأل منه تأخير بعضه، فأسغفه، واشترى منه الفرس بمال له خطر. فلما كُمل له القصد، طلب منه الخلوة به في المسجد من الحصن، وخرج له عن الأمر، وأعطاه يئته، وصرف عليه الثمن، واستكتمه السلطان خيفة على نفسه، وانصرف إلى بلده.

قال: وفي العام بعده، دعا إلى نفسه بأرجونة، وتملك مدينة جيان، واختلف في السبب الذي دعاه إلى ذلك، ف قيل: إن بعض العمال أساء معاملته في حق مخزني، وقيل غير ذلك.

حاله: هذا الرجل كان آية من آيات الله في السداجة والسلامة والجمهوريّة، جندياً، ثغرياً شهماً، أيّداً، عظيم التجلّد، رافضاً للدعة والراحة، مؤثراً للتقشف، والاختيار باليسير، مثبلاً بالقليل، بعيداً عن التّصنع، جافي السلاح، شديد العزم، مزهوب الإقدام، عظيم التّشمير، مقرّباً لضيّفه، مضطنّاً لأهل بيته، فظاً في طلب حظّه، مُحِمياً لقرباته وأقرانه وجيرانه، مباشراً للحروب بنفسه، تتغالى الحكاة في سلاحه، وزينة دُبوره. يَخْصِف النعل، ويلبس الخشن، ويؤثر البداوة، ويستشعر الجذّ في أموره. سَعَدَ بيوم الجمعة، وكان فيه تملكه جيان؛ ثم حضرة المُلْك غرناطة، وقيل: يوم قيامه شرع فيه الصّدقة الجارية على ضِعْفاء الحضرة، ومنائهم إلى اليوم. وتملك مدينة إشبيلية^(١) في أخريات ربيع الأول من عام ظهوره، وهو عام تسعة وعشرين وستمائة نحواً من ثلاثين يوماً. وملك قرطبة في العشر الأول لرجب من العام المذكور، وكلاهما عاد إلى مُلْك ابن هود.

ولما تمّ له القصد من تملك البيضة، والحصول على العُمال، مباشراً للحسابات بنفسه، فتوفّر ماله، وغُصّت بالصامات خزائنه، وعقد السّلم الكبير، وتهنأ أمره، وأمكنه الاستعداد، فأنعم الأهواء، وملاً بطن الجبل المتصل بالقلعة حُبُوباً مختلفة، وخزائن دَرّة، ومالاً وسلاحاً واريةً ظهراً، وكُرَاعاً، فوجد فائدة استعدادّه، ولجأ إلى ما أدخره من عتاده.

سيرته: تظاهر لأول أمره بطاعة الملوك بالعدوة وإفريقية، يَخْطُب لهم زماناً يسيراً، وتوصل بسبب ذلك إلى إمدادٍ منهم وإعانة، ولقبل ما افتتح أمره بالدعاء للمستنصر العباسي ببغداد، حاذياً حذو سميّه ابن هود، لِلهَج العامة في وقته، بتقلد تلك الدعوة، إلى أن نزع عن ذلك كله.

(١) في المغرب: «وقد ملك إشبيلية وقتل ملكها المعتضد الباجي».

وكان يعقد للناس مجلسًا عامًا، يومين في كل أسبوع، فترتفع إليه الظلمات، ويُشافه طالب الحاجات، وتنشده الشعراء، وتدخل إليه الوفود، ويُشافه أرباب النصائح في مجلس اختص به أهل الحضرة، وقضاة الجماعة، وأولي الرتب النبيلة في الخدمة، بقراءة أحاديث من الصحيحين، ويختتم بأغشار من القرآن. ثم يتقل إلى مجلس خاص، ينظر فيه في أموره، فيصرف كل قصد إلى مَنْ يليق به ذلك، ويؤاكل بالعشيات خاصته من القرابة؛ ومن يليهم من ثبهاء القواد.

أولاده: أعقب ثلاثة من الذكور، محمدًا وليَّ عهده وأمير المسلمين على أثره؛ والأميرين أبا سعيد فرج، وأبا الحجاج يوسف؛ تُوفيا على حياته؛ حسبما يتقرر بعد إن شاء الله.

وزراء دولته: وزر له جماعة؛ الوزير أبو مروان عبد الملك بن يوسف بن صناديد، زعيم قاعدة جيان؛ وهو الذي مكّنه من ناصية جيان المذكورة. واستوزر علي بن إبراهيم الشيباني من وجوه حضرته، وذوي النسب من الفضلاء أولي الدماء والوقار. واستوزر الرئيس أبا عبد الله ابن الرئيس أبي عبد الله الرميمي. واستوزر الوزير أبا يحيى ابن الكاتب من أهل حضرته، وغيرهم ممن تبلغ به الشهرة مبلغًا فيهم.

كُتّابه: كتب له من الجلة جماعة، كالكاتب المحدث الشهير أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن سعيد اليحصبي اللوشي، ولما توفي كتب عنه ولده أبو بكر بن محمد. هؤلاء مشاهير كُتّابه، ومن المرؤوسين أعلام، كأبي بكر بن خطاب وغيره.

قضاته: ولي له قضاء الجماعة، القاضي العالم الشهير، أبو عامر يحيى بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري، من جلة أهل الأندلس في كبر البيت، وجلالة المنصب، ووزارة العلم. ثم ولي بعده الفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الجليل بن غالب الأنصاري الخزرجي. ثم ولي بعده الفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد السلام التميمي، وهذا الرجل من أهل الدين والأصالة، وآخر قضاة العدل. ثم ولي بعده الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن عياض بن موسى اليحصبي. ثم ولي بعده الفقيه القاضي الحسين أبو عبد الله بن أضحى، وبيته شهير، ولم تطل مدته. وولي بعده آخر قضاته أبو بكر محمد بن فتح بن علي الإشبيلي، الملقب بالأشبرون.

الملوك على عهده:

بمراكش المأمون إدريس، مأمون الموحدين، مُزاحمًا بأبي زكريا يحيى بن الناصر بن المنصور بن عبد المؤمن بالجبل. ولما توفي المأمون ولي الرشيد أبو محمد عبد الواحد في سنة ثلاثين وستمائة، وولي بعده أبو حفص عمر بن إسحاق المرتضى، إلى أن قتله إدريس الواثق أبو دُبُوس في عام خمسة وستين. وولي بعده يسيرًا بنو عامر بن علي بمراكش، وتعاقب منهم على عهده جلة؛ كالأمير عثمان وابنه حمو، وأخيه أبي يحيى بن عبد الحق. واستمر الملك في أسن أملاكهم، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق بن مَخْيُو إلى آخر أيامه.

وبتلمسان، شبيهه يَغْمَراسن بن زيان، أول ملوكهم، وتقدمه أخوه أكبر منه برهة. ويَغْمَراسن أول من أثل الملك، وحاز الذكر، واستحق الشهرة.

وبتونس، الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص. وخاطبه السلطان المترجم به، والتمس رِفْدَه، وقد حصل على إعانتة، وولي بعد موته ولده المستنصر أبو عبد الله، ودامت أيامه إلى أول أيام ولد السلطان المترجم له عام أربعة وسبعين.

وبقشتالة هِراندة بن ألهنشة بن شائجه الإنبرطور. وهِراندة هذا هو الذي ملك قرطبة وإشبيلية، ولما هلك ولي بعده أَلْفُنش ولده ثلاثًا وثلاثين سنة، واستمر ملكه مدة ولايته، وصدّرًا من دولة ولده بعده.

وبَرَعُون جايماش ابن بَطْرَه ابن أَلْفُونش قُمَط بَزَجْلُونَه. وجايماش هذا هو الذي ملك بَلَنْسِيَة وصيرها دار ملكه من يد أبي جميل زيان بن مَرْدَنِيش.

لمع من أخباره: قام ابن أبي خالد بدعوته بغرناطة، كما ذكر في اسمه، ودعاه وهو بجيان، فبادر إليها في أخريات رمضان من عام خمسة وثلاثين وستمائة، بعد أن بعث إليه المَلَأ من أهلها ببيعتهم مع رجلين من مشيختهم؛ أبي بكر^(١) الكاتب، وأبي جعفر التيزولي.

قال ابن عذاري في تاريخه^(٢): أَقْبَل وما زِيَه بفاخر، ونزل^(٣) عَشِي اليوم الذي

(١) في البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٣٤٢): «أبي بكر ابن الكاتب، وأبي جعفر التيزولي».

(٢) البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٣٤٢).

(٣) في البيان المغرب: «ونزل بخارج غرناطة على أن يدخلها من الغد غدًا ثم بدا له غير ذلك فدخلها مع غروب الشمس يوم نزوله».

وصل بخارج غُرناطة، على أن يدخلها من الغد، ثم بدا له فدخلها عند غروب الشمس، نظرًا للحزم.

وحدث أبو محمد البُسْطِي قال^(١): عاينته^(٢) يوم دخوله وعليه شاشية^(٣) ملفّ مضلعة أكتافها مُخَرَّقة^(٤). وعندما نزل بباب جامع القصبة، كان مؤذن المغرب في الحَيْعَلَة، وإمامه يومئذ أبو المجد المرادي قد غاب، فدفع الشيخ السلطان إلى المحراب، وصلى^(٥) بهم، على هيئته تلك، بفاتحة الكتاب. ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^(٦). والثانية بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٧). ثم وصل قصر باديس، والشمع بين يديه^(٨).

وفي سنة ثلاث وأربعين وستمئة، صالح طاغية الروم، وعقد معه السُّلم الذي طاحت في شروطه جَيَّان. وكان واقع بالعدو الراتب تجاه حَضْرته، المختص بحصن بليش على بريد من الحضرة، وكان الفتح عظيمًا، ثم حالفه الصُّنع بما يضيق المجال عن استيعابه. وفي حدود اثنين وستين وستمئة صالح طاغية الروم، وعقد معه السلم، وعقد البيعة لولي عهده، واستدعى القبائل للجهاد.

مولده: في عام خمسة وتسعين وخمسمئة بأزجونة، عام الأرك^(٩).

وفاته: في منتصف جمادى الثانية من عام واحد وسبعين وستمئة، وَرَدَ عليه وقد أَسَنَ، جملة من كُتَّاب الرُّعائِم، يقودون جيشًا من أتباعهم، فبرز إلى لقائهم بظاهر حَضْرته، ولما كَرَّ آيًّا إلى قصره، سقط ببعض طريقه، وخامره خَصْر، وهو راكب، وأردفه بعض مماليكه، واسمه صابر الكبير، وكانت وفاته ليلة الجمعة التاسع

(١) النص في البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٣٤٢ - ٣٤٣).

(٢) في البيان المغرب: «عاينته».

(٣) في المصدر نفسه: «دخوله بشاية». والشاية والشاشية: لباس حربي محشو بالقطن لوقاية المحارب.

(٤) في المصدر نفسه: «مقطعة».

(٥) في المصدر نفسه: «فصلى بهم على هيئة سفره بفاتحة...».

(٦) سورة النصر ١١٠، الآية ١. (٧) سورة الإخلاص ١١٢، الآية ١.

(٨) في البيان المغرب: «ثم خرج إلى قصر باديس ابن حبوس والشمع بين الأبواب يتقد...».

(٩) كانت وقعة الأرك سنة ٥٩١ هـ وليس سنة ٥٩٥ هـ، وذلك بين المنصور يعقوب بن يوسف الموحدى وجيوش قشتالة بقيادة ألفونسو الثامن، وكان النصر فيها للموحدين، وكان عدد قتلى النصارى ثلاثين ألفًا، واستشهد من المسلمين نحو الخمسمئة. البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٢١٨).

والعشرين لجمادى الثانية المذكورة، ودفن بالمقبرة الجامعة العتيقة بسنام السبيكة، وعلى قبره اليوم منقوش:

«هذا قبر السلطان الأعلى، عز الإسلام، جمال الأنام، فخر الليالي والأيام، غياث الأمة، غيث الرحمة، قطب الملة، نور الشريعة، حامي السنة، سيف الحق، كافل الخلق، أسد الهيجاء، حِمام الأعداء، قوام الأمور، ضابط الثغور، كاسر الجيوش، قامع الطغاة، قاهر الكفرة والبغاة، أمير المؤمنين، علم المهتدين، قدوة المتقين، عصمة الدين، شرف الملوك والسلاطين، الغالب بالله، المجاهد في سبيل الله، أمير المسلمين، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر الأنصاري، رفعه الله إلى أعلى عليين، وألحقه بالذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين. ولد، رضي الله عنه، وأتاه رحمة من لدنه، عام أحد وتسعين وخمسائة، وبويع له يوم الجمعة السادس والعشرين من رمضان عام خمسة وثلاثين وستمائة، وكانت وفاته يوم الجمعة بعد صلاة العصر التاسع والعشرين لجمادى الآخرة عام أحد وسبعين وستمائة، فسبحان من لا يفنى سلطانه، ولا يبيد ملكه، ولا ينقضي زمانه، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم».

ومن جهة أخرى: [البسيط]

قبر الإمام الهمام الطاهر العلم
ومن شيم علوية الشيم
لا بأس عثرة ولا ندى هرم
فخر الملوك الكريم الذات والشيم
كالغيث في مجد وكالليث في أجم
تقر بالحق فيها جملة الأمم
تضيق عنه بلاد الغرب والعجم
يفتر منها الهدى عن ثغر مبتسم
لا تشرب الماء إلا من قليب دم
تأوي رعيته منه إلى حرم
وما حواه لدين لله من حرم
أبدى وأوضح من نار على علم
سحائب الرحمة الوكافة الديم

هذا محلّ العلى والمجد والكرم
لله ما ضمّ هذا اللحد من شرف
بالجود والباس ما تحوي صفائه
مُغني الكرامة والرضوان يعهده
مقامه في كلا يومي ندى ووغى
مآثر ثليت آثارها سورا
كأنه لم يسر في محفل لجب
ولم يباد العدا منه ببادرة
ولم يجهز لهم خيلا مضمرة
ولم يقم حكم عدل في سياسته
من كان يجهل ما أولاه من نعم
فتلك آثاره في كل مكرمة
لا زال تهيم على قبر تضمّنه

محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عامر
ابن محمد بن أبي الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري،
المنصور بن أبي عامر^(١)

مُعَظَّم الظَّفَر، وَخِذْن السَّعْد، وَمَلَقَى عُصَيَّ الْجَدِّ، وَجَوَّ رِيَّاح الشَّهْرَةِ، وَدِيَّوَانِ
فَنُونِ السِّيَاسَةِ، وَحِجَاجِ الدَّوْلَةِ الْعَبْشِمِيَّةِ^(٢)، فِي الثُّخُومِ الْمَغْرِبِيَّةِ، الْمَزْيُ^(٣) بِالظَّرْفِ
وَكَمَالِ السَّجِيَّةِ، وَالْجِهَادِ الْعَظِيمِ، الْعَرِيقُ فِي بَخْبُوحَةِ بِلَادِ الْكُفَّارِ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

أَوَّلَيْتَهُ: دَخَلَ جَدُّهُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْأَنْدَلُسِ مَعَ طَارِقِ مَوْلَى مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ فِي أَوَّلِ
الِدَاخِلِينَ مِنَ الْمَغْرِبِ، وَكَانَ لَهُ فِي فَتْحِهَا أَثَرًا جَمِيلًا، وَإِلَى ذَلِكَ أَشَارَ مَا دَحَهُ
مُحَمَّدُ بْنُ حَسَّانَ^(٤): [الطويل]

وَكُلُّ عَدُوٍّ أَنْتَ تَهْزِمُ^(٥) عَرْشُهُ وَكُلُّ قُتُوحٍ عَنْكَ يُفْتَحُ بِأَبْهَا
وَإِنَّكَ^(٦) مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ الَّذِي لَهُ خُلِيَ فَتَحُ قَرْطَاجِنَّةً^(٧) وَانْتَهَابَهَا

وَنَزَلَ عَبْدِ الْمَلِكِ الْجَزِيرَةَ الْخَضِرَاءَ لِأَوَّلِ الْفَتْحِ، فَسَادَ أَهْلُهَا، وَكَثُرَ عَقِبُهُ بِهَاءٍ
وَتَكَرَّرَتْ فِيهِمُ الثَّبَاهَةُ، وَجَاوَرُوا الْخُلَفَاءَ بِقَرْطَبَةٍ. وَكَانَ وَالِدُ مُحَمَّدٍ هَذَا، مِنْ أَهْلِ
الدِّينِ وَالْعِفَافِ وَالزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَالْقُعُودِ عَنِ السُّلْطَانِ. سَمِعَ الْحَدِيثَ، وَأَدَّى
الْفَرِيضَةَ، وَمَاتَ مُنْصَرَفًا عَنِ الْحَجِّ بِإِطْرَابِلَسَ.

حَالُهُ: كَانَ هَذَا الرَّجُلُ يَكْرَهُ الدَّهْرَ، وَفَائِدَةُ الْأَيَّامِ، وَيَبْغِي الْعُمُرَ، وَفَرَدَ الْخَلْقَ
فِي اضْطِرَادِ السَّعْدِ، وَتَمَلَّدَ الْعَاجِلُ مِنَ الْحِظِّ، حَازِمًا، دَاهِيَةً، مُشْتَمَلًا عَلَى أَقْطَارِ
السَّوْدَدِ، هَوِيًّا إِلَى الْأَقَاصِي، وَطُمُوحًا، سَوْسًا حَمِيًّا، مُضْطَنَعًا لِلرَّجَالِ، جَالِبًا

(١) ترجمة المنصور العامري في البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٥٦) والذخيرة (ق ٤ ص ٥٦) وأعمال
الأعلام (القسم الثاني ص ٥٩) والحلة السيرة (ج ١ ص ٢٦٨) ومطمع الأنفس (ص ٣٨٨)
وجذوة المقتبس (ص ١٧، ٧٨) وبغية الملتبس (ص ٢١، ١١٥) والمعجب (ص ٧٢) وكتاب
العبر (م ٤ ص ٣١٨) والمغرب (ج ١ ص ١٩٥) والمختصر في أخبار البشر (ج ٢ ص ١١٧،
١٣٦) وتمة المختصر في أخبار البشر (ج ١ ص ٤٧٧) ونفع الطيب (ج ١ ص ٣٨٢).

(٢) العبشمية: نسبة إلى عبد شمس، وهي من أوصاف الدولة الأموية. محيط المحيط (شمس).

(٣) المزّي: الظريف. محيط المحيط (مزي).

(٤) البيتان في البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٥٦) وجاء فيه أن المادح هو محمد بن حسين الشاعر
العالم بأخبار الأندلس.

(٥) في البيان المغرب: «تَهْدِمُ».

(٦) في الأصل: «برأيك» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من البيان المغرب.

(٧) في الأصل: «قرطبة» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من البيان المغرب.

للأشراف، مستمياً للقلوب، مُطبّقاً المفاصل، مُزيّحاً للعلل، مستبصراً في الاستبداد،
خاطباً جميل الذكر، عظيم الصبر، رحيب الذراع، طموح الطرف، جشيع السيف،
مُهادي جياذ العقاب والمثوبة، مَهيباً، جَزْلاً، مُنكسف اللون، مُضفر الكف، آية الله،
جلّ جلاله، في النضر على الأعداء ومصاحبة الظفر، وتوالي الصنع.

نباهته: قال المؤرخ^(١): سلك سبيل القضاء^(٢) في أوليته، مقتفياً آثار عُثومته
وخُزولته، يطلب^(٣) الحديث في حدائته. وكتب منه كثيراً، ولقي الجلة من رجاله، ثم
صحب الخليفة الحكم^(٤) مُتَحَرِّباً في زُمرته، وولي له الأعمال من القضاء والإمامة، ثم
استكفاه، فعدل عن سبيله، وصار في أهل الخدمة. ثم اختصه بخدمة أم ولده هشام،
فزاد بمخاصته لولي العهد، عزاً ومكانة من الدولة، فاحتاج الناس إليه، وغشوا بابه،
ويلغ الغاية من أصحاب السلطان معه، إسعاف، وكَرَم لقاء، وسهولة حجاب، وحُسن
أخلاق، فاستطار ذكره، وعُمِر بابه، وساعده الجَدّ. ولَمّا صار أمر المسلمين إليه،
بلغ^(٥) التي لا فوقها عزاً وشهرة.

الثناء عليه: قال: وفي الدولة العامرية، وأعين محمد على أمره، مع قوة
سعده، بخصال مؤلفة لم تجتمع لمن قبله، منها الجود، والوقار، والجَدُّ والهيبة،
والعدل والأمن، وحبّ العمارة، وتأمير المال، والضبط للرعية، وأخذهم بترك الجدل
والخلاف والتشغيب، من غير وَهْن في دينه، وصحة الباطن، وشرح كل فضل،
وجلب كل ما يوجب عن المنصور فيه.

غزواته وظهوره على أعدائه:

واصل، رحمه الله، الغزو بنفسه، فيما يناهز خمسين غزوة، وفتح فيها البلاد،
وحَصَد شوكة الكفر، وأذل الطواغيت وفضّ مصاف الكفار، وبلغ الأعماق، وضرب
على العدو الضرائب، إلى أن تلقاه عظيم الروم بنفسه وأتحفه بابنته في سبيل الرغبة
في صهره، فكانت أحظى عقائله، وأبرت في الدين والفضل على سائر أزواجه، وعقد
اثني عشر بروزا إلى تلقي ملوك الروم القادمين عليه مُضطهرين بالحاح سيفه، مُنكبين
على لثم سريره.

(١) النص في البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٥٧ - ٢٥٨) بتصرف.

(٢) في البيان المغرب: «القضاء». (٣) في البيان المغرب: «يطلب».

(٤) هو خليفة الأندلس الحكم بن عبد الرحمن الناصر، المعروف بالحكم المستنصر، وقد حكم
الأندلس من سنة ٣٥٠ هـ إلى سنة ٣٦٦ هـ.

(٥) في الأصل: «بلغ».

شعره: ومما يؤثر من شعره^(١): [الطويل]

رَمَيْتُ بِنَفْسِي هَوْلَ كُلِّ عَظِيمَةٍ^(٢) وَخَاطَرْتُ وَالْحُرَّ الْكَرِيمَ يُخَاطِرُ^(٣)
وَمَا صَاحِبِي إِلَّا جَنَانٌ مُشَيِّعٌ وَأَسْمَرُ خَطِيٍّ وَأَبْيَضُ بَاتِرُ^(٤)
وَمَنْ شِيمَتِي^(٥) أَنِي عَلَى كُلِّ^(٦) طَالِبٍ أَجُودُ بِمَالٍ لَا تَقِيهِ الْمَعَادِرُ
وَأَنِي لَزَجَاءُ الْجِيُوشِ إِلَى الْوَعْيِ أَسُودُ تَلَاقِيهَا أَسُودُ خَوَادِرُ
فَسَدْتُ^(٧) بِنَفْسِي أَهْلَ كُلِّ سِيَادَةٍ وَكَانَزْتُ^(٨) حَتَّى لَمْ أَجِدْ مَنْ أَكَاثِرُ
وَمَا شِدْتُ بَنِيَانًا^(٩) وَلَكِنْ زِيَادَةً عَلَى مَا بَنَى عَبْدُ الْمَلِكِ وَعَامِرُ
رَفَعْنَا الْعَوَالِي^(١٠) بِالْعَوَالِي سِيَاةً^(١١) وَأَوْرَثْنَاهَا فِي الْقَدِيمِ مَعَاْفِرُ^(١٢)

وبلغ في ملكه أقطار المغرب، إلى حدود القبلة^(١٣)، وبمدينة فاس، إثر ولده المقلد فتح تلك الأقطار، ونهد أولئك الملوك الكبار.

دخوله غرناطة: قال صاحب الديوان في الدولة العامرية، وقد مر ذكر المنصور، قُومِسَ الْفِرَنْجَةُ بِمَدِينَةِ بَرَشْلُونَةِ: وهذه الأمة أكثر النصرانية جمعًا، وأوسعها، وأوفرها من الاستعداد، وما أوطىء من الممالك والبلاد، وفتح من القواعد، وهُزِمَ مِنَ الْجِيُوشِ. وقفل المنصور عنها، وهو أطمع الناس في استئصالها؛ ثم خَصَّهِمْ بِصَائِفَةِ سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ، وَهِيَ الثَّلَاثَةُ عَشْرَةَ^(١٤) لَغَزَوَاتِهِ؛

(١) الأبيات في البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٧٤) والحلة السيرة (ج ١ ص ٢٧٤) ونفح الطيب (ج ١ ص ٣٨٣). وورد منها ثلاثة أبيات في المغرب (ج ١ ص ٢١٣).

(٢) في البيان المغرب: «كريمة».

(٣) في البيان المغرب والحلة السيرة: «مخاطر».

(٤) الجنان: القلب. المشيع: الجريء. الأسمر: الرمح. الخطي: المنسوب إلى الخط وهو موضع باليمامة كانت تصنع منه الرماح. الأبيض: السيف. لسان العرب (جنن) و(شيع) و(سمر) و(خطط) و(بيض).

(٥) في الحلة السيرة: «شيمي».

(٦) كلمة «كل» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من الحلة السيرة.

(٧) في الحلة والبيان: «لَسَدْتُ». (٨) في النفح: «وفاخرت... من أفاخر».

(٩) في المغرب: «بيتا لي».

(١٠) في الأصل: «العلی» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصادر الأربعة.

(١١) في المغرب: «بسالَة». وفي الحلة: «حديثَة». وفي البيان المغرب والنفح: «حديثَة».

(١٢) رفعا العوالي: رفعا المجد. والعوالي: الرماح. معافر: قبيلة المنصور العامري.

(١٣) تقع بلاد القبلة في جنوب المغرب. (١٤) في الأصل: «عشر» وهو خطأ نحوي.

وقد احتفل لذلك، واستبلغ في التَّفير، واستوفى أتم الأبهة، وأكمل العُدَّة، فجعل طريقه على شرقي الأندلس؛ لاستكمال ما هنالك من الأطعمة، فسلك طريق إلبيرة، إلى بَسطة، إلى تَدْمِير؛ وعزم في هذه الغزوات بُرَيْل ملك فَرَنْجَة ونازل مدينة برجلونة؛ فدخلها عَثْوَة يوم الاثنين النصف من صفر، سنة أربع وسبعين أو خمس بعدها.

قلت: وفي دخول المنصور بجيشه بلد إلبيرة؛ ما يحقق دعوى مَنْ ادَّعى دخول المعتمدين من أهل الأندلس لذلك العهد؛ إذ كان يصحب المنصور في هذه الغزوة، من الشعراء المرتزقين بديوانه من يذكر؛ فضلاً عن سائر الأصناف على ندابة هذا الصنف من الخدام؛ بالنسبة للبحر الزاخر من غيرهم.

والذي صَحَّ أنه حضر ذلك، أبو عبد الله محمد بن حسين الطُّبْنِي، أبو القاسم حسين بن الوليد، المعروف بابن العريف، أبو الوضاح بن شُهَيْد، عبد الرحمن بن أحمد، أبو العلا صاعد بن الحسن اللغوي، أبو بكر زيادة الله بن علي بن حسن اليمني، عمر بن المنجم البغدادي، أبو الحسن علي بن محمد القرشي العباسي، عبد العزيز بن الخطيب المحرود، أبو عمر يوسف بن هارون الزيادي، موسى بن أبي طالب، مروان بن عبد الحكم بن عبد الرحمن، يحيى بن هُذَيْل بن عبد الملك بن هذيل المكفوف، سعد بن محمد القاضي، ابن عمرو القرشي المرواني، علي النقاش البغدادي، أبو بكر يحيى بن أمية بن وَهَب، محمد بن إسماعيل الزبيدي، صاحب المختصر في اللغة، أحمد بن دَرَّاح القَسْطَلِي، مُتَنَبِّي الأندلس، أبو الفرج مُنِيل بن مُنِيل الأشجعي، محمد بن عبد البصير، الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد، محمد بن عبد الملك بن جَهْوَر، محمد بن الحسن القرشي، من أهل المشرق، أبو عبيدة حسان بن مالك بن هاني، طاهر بن محمد المعروف بالمُهَيْد، محمد بن مُطَرُف بن شَخِيس، سعيد بن عبد الله الشُّنْتَرِينِي، وليد بن مُسَلِّمَة المرادي، أغلب بن سعيد، أبو الفضل أحمد بن عبد الوهاب، أحمد بن أبي غالب الرُّصَافِي، محمد بن مسعود البَلْخِي، عُبَادَة بن محمد بن ماء السماء، عبد الرحمن بن أبي الفهد الإلبيري، أبو الحسن بن المضيء البَجَلِي الكاتب، عبد الملك بن سهل، الوزير عبد الملك بن إدريس الجزيري، قاسم بن محمد الجيتاني.

قال المؤرخ: هؤلاء مَنْ حفظته منهم، وهم أكثر من أن يحصوا، فعلى هذا يتبنى القياس في ضخامة هذا الملك، وانفساح هذا العِز.

وفاته: توفي، رحمه الله، منصرفاً من غزاته المسماة بقتال الش والرّيد، وقد دُوخ
أقطار قشتالة، ليلة الاثنين سبع وعشرين لرمضان عام اثنين وتسعين وثلاثمائة^(١)، وقد
عهد أن يُدفن ببلد وفاته، بعد وصية شهيرة صدرت عنه، إلى المُظفر ولده، فدفن
بمدينة سالم، التي بناها في نحر العدو من وادي الحجارة، وبقصرها، وقبره معروف
إلى اليوم. وكان قد اتخذ له من غبار ثيابه الذي علاها في الجهاد، وعاء كبيراً
بحديه، رحمه الله. وكُتب على قبره هذا الشعر^(٢): [الكامل]

أثارة تُنبئك عن أخباره^(٣) حتى كأنك بالعيان^(٤) ثراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبداً ولا يخمي الثغور سواه^(٥)

محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل
ابن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطف
ابن نعيم، لخمى النسب^(٦)

أوليته: دخل الأندلس جدّه عطف مع بلج بن بشر القشيري، من أشراف
الطالعة البلجية، وهم من عرب حمص من أرض الشام، وموضعه بها يعرف
بالعريش في آخر الجفار بين مصر والشام. ونزل عطف بقرية تعرف بيومين من
إقليم طشانة على ضفة النهر الأعظم من أرض إشبيلية. ولما هلك قريش، ورث
السيادة إسماعيل بن قريش، وهو القاضي المشهور بالفضل والدهاء، يكنى أبا
الوليد. وليّ الشرطة الوسطى لهشام بن الحكم، وخُطّة الإمامة إلى صلاة الجمعة.
ثم خلفه أبو القاسم المنفرد برئاسة إشبيلية، المُتحف فيها بخُطط الوزارتين والقضاء

(١) في كتاب العبر لابن خلدون: هلك المنصور سنة ٣٧٤ هـ بعد ٢٧ سنة من ملكه. وفي جذوة
المقتبس وبغية الملتبس والمعجب والمختصر في أخبار البشر، وتمة المختصر في أخبار البشر:
توفي المنصور سنة ٣٩٣ هـ.

(٢) البيان المغرب (ج ٢ ص ٣٠١) والحلة السراء (ج ١ ص ٢٧٣) والمغرب (ج ١ ص
٢٠٢ - ٢٠٣).

(٣) في المغرب: «عن أوصافه».

(٤) في البيان المغرب: «بالعيون».

(٥) رواية البيت في البيان المغرب هي:

تالله ما ملّك الجزيرة مثله خفاً ولا قاد الجيوش سواه

(٦) ترجمة المعتمد بن عباد في فلائد العقيان (ص ٤) والذخيرة (ق ٢ ص ٤١) والمعجب (ص
١٥٨) والحلة السراء (ج ٢ ص ٥٢) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٥٧) والبيان المغرب
(ج ٣ ص ٢٤٤، ٢٥٧) والوافي بالوفيات (ج ٣ ص ١٨٣) ووفيات الأعيان (ج ٤ ص ٢٧٤)
والصلة (ص ٤٩٩، في ترجمة القاضي عبد الرحمن بن سوار).

والمظالم. وعزَّ جاهه، وكثرت حاشيته، وتعددت غلمانته، وأذعنت له عُداته. ثم خلفه الأمير المعتضد ولده، وكان خَيْرًا حازمًا، شديد الرأي، مَصْنُوعًا له في الأعداء، فلَمَّا توفي، تَصَيَّر الأمر إلى ولده المترجم به، المكنى أبا القاسم إلى حين خلعه.

حاله: قالوا كلُّهم: كان المعتمد، رحمه الله، فارسًا شجاعًا، بطلًا مقدامًا، شاعرًا ماضيًا، مشكور السيرة في رعيته. وقال أبو نصر في قلائده^(١): «وكان المعتمد على الله ملكًا قمع العدا، وجمع^(٢) بين البأس والتدأ، وطلع على الدنيا بذر هدى، لم يتعطل يومًا كفه ولا بنانه، آونة يراعه وآونة سنائه، وكانت أيامه مواسم، وثغور^(٣) برّه بواسم». لقبه أولًا الظافر، ثم تلقب^(٤) بالمعتمد، كَلَفًا بجاريته اعتماد، لما ملكها، لتتفق حروف لقبه بحروف اسمها، لشدة ولوعه بها.

وزرائه: ابن زَيْدون. وابن عَمَّار، وغيرهما.

أولاده المملكون: عبيد الله، يكنى أبا الحسن، وهو الرُّشيد، وهو الذي لم يوافق أباه على استئصاخ المرابطين، وعَرَضَ بزوال الملك عنهم، فقال: أحبُّ إليَّ أن أكون راعي إبل بالعدوة من أن ألقى الله، وقد حُوِّلَت الأندلس دار كفر، وكان قد ولّاه عهده، وبويع له بإشبيلية، وهو المحمول معه إلى العدة. ثم الفتح، وهو الملقب بالمأمون، كان قد بويع له بقرطبة، وهو المقتول بها، المُخْمَلُ رأسه إلى محلة العدو المرابطين، المحاصرة لأبيه بإشبيلية. ثم يزيد الراضي، وكان قد ولّاه رُنْدَةَ، فقتل لما مَلَكها اللُمْتُونِيُون. ثم عبد الله، ويكنى أبا بكر. هؤلاء الأربعة من جاريته اعتماد، السيدة الكبرى، والمدعوة بالرُمَيْكِيَّة منسوبة إلى مولاها رُمَيْك بن حجاج، الذي ابتاعها منه المعتمد.

ملكته: لما تكالب أذفونش بن فردلاندا على الأندلس بعد أخذه مدين طَلَيْطَلَة ضيق بالمعتمد، وأجحف في الجزية التي كان يَتَّقِي بها على المسلمين عاديته، وعلى ذلك أقسم أخذها وتجنّى عليه، وطمع في البلاد، فحكى بعض الإخباريين أنه وجّه إليه رسله في آخر أمره لقبض تلك الضريبة، مع قوم من رؤساء النصاري، ونزلوا خارج باب إشبيلية، فوجّه إليهم المال، مع بعض الوزراء، فدخلوا على اليهودي

(١) قلائد العقيان (ص ٤).

(٢) كلمة «بين» غير واردة في القلائد.

(٣) في الأصل: «وثغوره برّة»، والتصويب من القلائد.

(٤) عن لقبه بالمعتمد لتتفق حروف لقبه بحروف اسم زوجته اعتماد ورد في الحلة السيرة (ج ٢ ص

المذكور في خبائه، وأخرجوا المال، فقال لهم: لا أخذتُ منه هذا العيار ولا أخذتُ منه إلا ذهبًا مشجرًا، ولا يؤخذ منه في هذا العام إلا أجفان البلاد، ونُقل كلامه إلى المعتمد، فبادر بالقبض عليه وعلى النصارى، ونكّل بهم، وقتل اليهودي بعد أن بذل في نفسه زنة جسمه ذهبًا، فلم يُقبل منه، واحتبس النصارى، وراسله الطاغية في إطلاقهم، فأبى إلا أن يُخلي منه حصن الحدود، فكان ذلك. واستصرخ اللُمثونيّين، وأجاز البحر بنفسه، وأقسم الطاغية بإيمانه المغلطة ألا يرفع عنه يده. وهاجت حفيظة المعتمد، واجتهد في جواز المرابطين، وكان مما هو معلوم من الإيقاع بالطاغية في وقعة الزلاقة^(١)، فإنه الذي أصلى نارها بنفسه، فعظم بلاؤه، وشهر صبره، وأصابته الجراح في وجهه ويده، رحمه الله. وفي ذلك يقول أبو بكر بن عبادة المرّي^(٢):
[الوافر]

وقالوا كُفُّهُ جُرِحَتْ فقلنا	أعاديهِ تُواقِعها ^(٣) الجراح
وما أُنزِرُ ^(٤) الجراحة ما رأيتُم	فُشوهِئها المَنَاصِلُ والرُمَاحُ
ولكن فاض سَيْلُ البأس ^(٥) منها	ففيها من مجاريهِ انسيّاح ^(٦)
وقد صَحَّتْ وَصَحَّتْ بالأمانِي	وقاض الجودُ منها والسُّمَاحُ
رأى منه أبو يعقوب فيها	عُقَابًا لا يُهاض له جناح ^(٧)
فقال له لك القِدْحُ المُعَلَّى	إذا ضُرِبَتْ بمشهدك القِدَاحُ

ولما اتصلت به الضيحة؛ بين يدي دخول المدينة، ركب في أفراد من عبيده؛ وعليه قميص يَشْفُ عن بدنه، والسيف مُنتَضِي بيده، ويتم باب الفرج، فقدم الداخلين، فردّهم على أعقابهم؛ وقتل فارسًا منهم؛ فانزعجوا أمامه؛ وخلفوا الباب؛ فأمر بإغلاقه؛ وسكنت الحال؛ وعاد إلى قصره. وفي ذلك

(١) كانت وقعة الزلاقة في سنة ٤٧٩ هـ بين المرابطين وملوك الطوائف من جهة والإسبان من جهة ثانية. وكان النصر فيها للمسلمين. وهناك دراسة مستفيضة عنها في كتاب: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ١٨٣ - ٢٠٤) فلتنظر.

(٢) هو أبو بكر بن عبادة، المعروف بابن القزاز، والأبيات في قلائد العقيان (ص ١٣) والمغرب (ج ٢ ص ١٣٥) وأعمال الأعلام (القسم الثالث ص ١٤٩).

(٣) في المغرب: «تواقفها».

(٤) في الأصل: «وما لمرتد» والتصويب من القلائد والمغرب.

(٥) في المغرب «الجود».

(٦) رواية صجر البيت في المغرب هي: فأمسى في جوانبها انسيّاح.

(٧) هذا البيت والذي يليه غير وارد في المغرب.

يقول^(١): [مجزوء الكامل]

إن يَسْلُبِ القَوْمُ العِدا^(٢) مُلْكِي وتُسَلِّمَنِي الجُمُوعُ
فَالْقَلْبُ بَيْنَ ضُلُوعِهِ لَمْ تُسَلِّمِ الْقَلْبَ الضُّلُوعُ
قَدْ رُمْتُ يَوْمَ نِزَالِهِمْ أَلَا تُحْصِنُنِي الدُّرُوعُ
وَبَرَزْتُ لَيْسَ سِوَى الْقَمِيهِ ص عَنْ الْحِشْيَا شَيْءٌ دَفُوعُ
أَجَلِي تَأْخِرَ لَمْ يَكُنْ بِهِوَائِي ذُلِّي وَالْخُضْرُوعُ
مَا سَرْتُ قَطُّ إِلَى الْقِتَا لِي^(٣) وَكَانَ مِنْ أَمَلِي الرَّجُوعُ
شَيْمُ الْأُولَى^(٤) أَنَا مِنْهُمْ وَالْأَضْلُ تَتْبَعُهُ الْفُرُوعُ

جوده: وأخبار^(٥) جوده شهيرة، ومما يؤثر من ذلك، على استصحاب حال العز، ووفور ذات اليد، وأدوات الملك، غريب. والشاهد المقبول بقاء السجينة ومصاحبة الخلق الملكية، مع الإقتار والإيسار، وتقلب الأطوار. وتعرض له الحضري القرموني الضرير بخارج طنجة؛ وهو يجتاز عليها في السواحل من قهر واعتقال، بأشعار ظاهرة المقت، غير لائقة بالوقت، ولم يكن بيده، زعموا، غير ثلاثين ديناراً^(٦) كانت بخفه، معدة لضرورة ضرر وأزمة، وأطبع عليها دمه، وأدرج قطعة شعر طيها اعتذار عن نزرها، راغباً في قبول أمرها، فلم يراجعه الحضري بشيء عن ذلك، فكتب إليه^(٧): [مجزوء الرمل]

قُلْ لِمَنْ جَمَعَ الْعِدْ مَ وَمَا^(٨) أَخْصَى صَوَابَهُ
كَانَ فِي الضَّرَةِ شِعْرُ فَتَنْظُرُنَا^(٩) جَوَابَهُ
قَدْ أَثْبَنَّاكَ^(١٠) فَهَلَا جَلَبَ الشُّعْرُ جَوَابَهُ^(١١)؟

(١) الأبيات في ديوان المعتمد بن عباد (ص ٨٨ - ٨٩) وقلائد العقيان (ص ٢١ - ٢٢) والحلة السيرة (ج ٢ ص ٦٥ - ٦٦).

(٢) رواية صدر البيت في الحلة السيرة هي: إن تسلب عني الدنيا.

(٣) في الحلة السيرة: «إلى الكماة». (٤) في الديوان: «الألى».

(٥) قارن بالذخيرة (ص ٢ ص ٦٦ - ٦٧). (٦) في الذخيرة (ق ٢ ص ٦٧): «مثقالاً».

(٧) الأبيات في ديوان المعتمد بن عباد (ص ٩١) والذخيرة (ق ٢ ص ٦٧) والمعجب (ص ٢٠٦).

(٨) في الذخيرة: «ومن».

(٩) في الأصل: «فانتظرنا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان والمصدرين الآخرين.

(١٠) في الأصل: «أثيناك» وهو تحريف، والتصويب من الديوان والمصدرين الآخرين.

(١١) في الديوان والمصدرين الآخرين: «ثوابه».

حلمه: رُفِعَ إليه صَدْرُ دولته شعر، أغري فيه بأبي الوليد بن زيدون، وهو شهير، وتُخَيَّرَ له موقع وتَرَصَّدَ حين، وانتظر به مُؤَجَّرَه، وهو^(١): [الكامل]

يا أيها الملك الأعز^(٢) الأعظم
واحسم بسيفك داء^(٤) كل منافق
لا تتركُن للناس موضع شُبْهة^(٥)
قد قال شاعر كِنْدَة فيما مضى
«لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَفِيعُ من الأذى
فوقَّع على الرقعة^(٨): [الكامل]

الدين أمَّنُ والسجئة^(٩) أكرم
حاولتُم أن يَسْتَخَفَّ يَلْمَلَمُ^(١٠)
والسُمُرُ في صدر^(١١) الثُحُور تُحَطَّمُ
ما زال يَثْبُتُ لِلْمُحَالِ^(١٢) فَيَهْزِمُ
منه الوفاء وظلم^(١٣) مَنْ لا يَظْلِمُ
عندي ولا مَبْنَى الصُّنِيعَةِ يَهْدَمُ^(١٦)
يَبْقَى^(١٧) السَّفِيَةُ بِمِثْلِهَا يَتَحَلَّمُ^(١٨)

- (١) الأبيات في الذخيرة (ق ٢ ص ٥١) وفلاذد العقيان (ص ١٤ - ١٥).
(٢) في المصدرين: «العلي». (٣) في الذخيرة: «يتم». وفي القلائد: «يتم». (٤) كلمة «داء» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من المصدرين.
(٥) في القلائد: «تهمة». (٦) في المصدرين: «بيتًا». (٧) البيت للمتنبي وهو في ديوانه (ص ٦٣٠).
(٨) الأبيات في ديوان المعتمد بن عباد (ص ٦٧) والذخيرة (ص ٢ ص ٥١ - ٥٢) وفلاذد العقيان (ص ١٥ - ١٦).
(٩) في الديوان والذخيرة: «والمروءة». (١٠) يَلْمَلَمُ: موضع على ليلتين من مكة، وهو ميقات أهل اليمن. معجم البلدان (ج ٥ ص ٤٤١).
(١١) في الديوان والقلائد: «في ثغر». وفي الذخيرة: «ما في ثغر الصدور». (١٢) في الديوان: «في المجال». وفي الذخيرة: «في المحال». (١٣) في الديوان والذخيرة: «وجور». (١٤) في القلائد: «أنا ذلكم». (١٥) في الديوان والمصدرين: «لا البغي». (١٦) في الذخيرة: «يُثْلَمُ». (١٧) في الديوان والمصدرين: «يُلْفَى». (١٨) في الديوان والمصدرين: «يَحْلَمُ».

توقيعه ونثره في البديهة:

كتب مع الحمائم إلى ولده الرشيد عقيب الفراغ من وقعة الزلّاقة:

يا بني، ومن أبقاه الله وسلمه، ووقاه الأسواء وعصمه، وأسبغ عليه آلاءه وأنعمه، كتبته، وقد أعز الله الدين، وأظهر المسلمين، وفتح لهم على يدي مستدعات الفتح المبين، بما يسره الله في أمسه وسناه، وقدره سبحانه وقضاه، من هزيمة أذفونش ابن فزدلند لعنه الله وأصلاه، وإن كان طاح للجحيم، ولا أعدمه وإن كان أهل العيش الذميم، كما قنعه الخزي العظيم. وأتى القتل على أكثر رجاله وخماته، واتصل النّهب سائر اليوم، والليلة المتصلة به، جميع محلاته، وجمع من رؤوسهم بين يدي، من مشهورى رجالهم، ومذكورى أبطالهم، ولم يختار منهم إلا من شهر وقرب، وامتلات الأيدي مما سلب ونهب. والذي لا مرية فيه، أن الناجي منهم قليل، والمقتل من سيوف الجزع والبعد قتيل، ولم يُصنني بفضل الله إلا جرح أشوى، وحسن الحال عندنا والله وزكى، ولا يُشغل بذلك بال، ولا يُتروهم غير الحال التي أشرت إليها حال، والأذفونش بن فزدلند، إن لم يصبح تحت السيوف فسيموت لا محالة كمدًا، وإن كان لم تعلقه أسراد الحمام فغداً، فإن برأسه طمرة ولحام. فإذا ورد كتابي هذا، فمر بجمع الخاص والعام، من أهل إشبيلية، وجيرانها الأقربين، وأصفيائنا المحبين، في المسجد الجامع، أعزهم الله، وليقرأ عليهم فيه، ليأخذوا من المسرة بأنصباتهم، ويضيفوا شكرًا لله إلى صالح دعائهم، والحمد لله على ما صنع حقّ حمده، جلّ المزيد لأمر حين، إلا من عنده والسلام.

تلطفه وظرفه: قال أبو بكر الداني: سألني في بعض الأيام عند قدومي عليه بأغमत، قاضيًا حقّ نعمته، مُستكثرًا من زيارته، مُستمتعًا برائق أدبه، على حال محنته، عن كُتبي، فأعلمته بذهابها في نهب حضرته. وكنت قد جَلَبْتُ في سفرتي تلك، الأشعار الستة، بشرح الأستاذ أبي الحجاج الشّثري الأعلم، وكانت مستعارة، فكتمتها عنه. ووشى إليه أحد الأصحاب، فخجل بكرمه وحسن شيمته، من الأخذ معي في ذكر ما كتّمته، فاستطرد إلى ذلك بغرض نبيل، ونحا فيه نحوًا، يغرب عن الشرف الأصيل، وأملى عليّ، في جملة ما كان يُمليه: [الكامل]

وكواكب لم أذر قبل وجوهها	أنّ البدور تدور في الأزار
نادمتها في جَنَح ليل دامس	فأعزّته مثلاً من الأنوار
في وَسْطِ رَوْضَة نرجس كعيونها	ما أشبه الثّوار بالثّوار
فلإذا تَوَاصَفْنَا الحديث حَسِبْتَنِي	ألهو بمُلْتَقِطِ لدرٍ يشار

فإذا اكتحلْتُ برقُ ثغرٍ باسم سَكَبْتُ جُفُونِي أغزر الأمطار
حَذَرَ الملام وخيفةً من جفوة تذر الصدور على شفير هار
ترك الجواري الآنسات مذهبى وسؤلها ظَفَرٌ بريشة الأشعار

فلم أتمالك عند ذلك ضحكًا، وعلمت أن الأمر قد سُرِّي إليه، فأعلمته قصَّتها، فبسط العُذر بفضلِه، وتناول الأمر، وقسم الأشعار، على ثلاثة من بنيهِ؛ ذوي خطٍ رائع، ونقل حَسَن، وأدب بارع، أخذوا في نسخها، وصرفوا الأصل لأجل قريب.

محتته: ولم يلبث أمير اللمتونيين بعد جوازه إلى الأندلس، وظهوره على طائفة الروم، أن فسَد ما بينه وبين رؤساء الطوائف بالأندلس، وعزم على خلعهم، فأجاز من سَبَّته العساكر، وبرزب الأمداد. وأخذ المعتمد بالعزم يحصِّن حصونه، وأودع المعازل عُدَّته، وقَسَم على مظان الامتناع ولده، وصمَدت الجموع صُمدة بنيهِ، ونازل الأمير سِينُرُ إشبيلية، دار المعتمد، وحَضرة ملكه، ونازل الأمير محمد ابن الحاج قرطبة، وبها المأمون، ونزل جُرُور من قواده رُئدة، وبها الرّاضي ابن المعتمد. واستمرَّ الأمر، واتصلت المحاصرة، ووقعت أمور يضيق الكتاب على استقصائها. فدُخِلت قرطبة في جمادى الآخرة عام أربعة وثمانين وأربعمائة، وقُتل الرّاضي، وجُلب رأسه فطيف به بمرأى من أبيه. وكان دخول إشبيلية على المعتمد، دخول القُهر والغلبة، يوم الأحد لعشر بقين من رجب، وشملت الغارة، واقتحمت الدُور، وخرج ابن عباد في شِكْنَه^(١)، وابنه مالك في أُمته معهما، فقتل مالك الملقب بفخر الدولة ورَهقت الخيل، وكَثُر، فدخل القصر مُلقياً بيده. ولما جَنَّ الليل، وجّه ابنه الأكبر الرشيد إلى الأمير، فحُجب عنه، ووَكِّل بعض خدمه به، وعاد إلى المعتمد فأخبره بالإعراض عنه، فأيقن بالهَلَكَة، وودَّع أهله، وعلا البكاء، وكَثُر الصُّراخ، وخرج هو وابنه، فأنزلا في خِباء حصين، ورُقبا بالحرس، وأخرج الحُرَم من قصره، وضَمَّ ما اشتمل عليه، وأمر بالكُتُب إلى ولده برُئدة ففعل. ولما نزل، واستوصلت ذخيرته، سلا، وأجيز المعتمد البحر، ومَن معه إلى طنجة، فاستقرَّ بها في شعبان من العام، وفي هول البحر عليه في هذا الحال، يقول رحمه الله: [البسيط]

لم أنس والموت يُذنيني ويُقصيني والموت كأنَّ المنى يأتيني
أبصرتُ هولاً لو أنَّ الدهرَ أبصره لما خُوفاً لأمرٍ ليس بالدون

(١) الشُّكَّة: السلاح وعدة الحرب. لسان العرب (شكك).

قد كنت ضائاً بنفس لا أجود بها فبغثها باضطرارٍ بيع مغبون
كم ليلة بث مطوياً على حرق في عسرٍ من عيون الدبر في العين
فتلك أحسن أم ظلمت به في ظل عزة سلطان وتمكين؟
ولم يكن والذي تغنو الوجوه له عرّضي مهائناً ولا مالي بمخزون
وكم خلوت من الهيجا بمعترك والحرب ترفل في أثوابها الجون
يا رب إن لم تدع حالاً أسر به فهب لعبدك أجراً غير ممنون

وجرى على بناته شيء يوم خروجهن، واضطرتهن الضيقة إلى معيشتهن من غزل أيديهن، وجرت عليه محن طال لها شجنه وأقعه قئذه، إلى أن نقل إلى أغمات وريكة، وحل عنه الاعتقال، وأجرى عليه رزقه، تبلى به لمدة من أعوام أربعة، واستنقذه حمامه، رحمة الله عليه.

وصوله إلى غرناطة: قال ابن الصيرفي: وقد أجرى ذكر تملك يوسف بن تاشفين غرناطة، وخلع أميرها عبد الله بن بلقين حفيد باديس، يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من رجب عام ثلاثة وثمانين^(١)، ولحق ابن عباد^(٢) وحليفه ابن مسلمة^(٣) بخيل ورجل ورماة وغدد، وحل ذلك من ابن عباد تضمناً لمسرة أمير المسلمين، وتحققاً بموالاته، فدخل عليه، وهنأه، وقد تحكمت في نفس ابن عباد الطماعية في إسلام غرناطة إلى ابنه^(٤)، بعد استئصال نعمة صاحبها، عوضاً عن الجزيرة الخضراء، وكان قد أشخصه معه، فعرض بغرضه، فأعرض أمير المسلمين عن الجميع إعراضاً، كانت منية كل منهما التخلص من يده، والرجوع إلى بلده، فأعمل ابن عباد الحيلة، فكتب، يزعم أنه وردت عليه تحته من إشبيلية في اللحاق أنباء مهمة طرقت بتحريك العدو، واستأذن بها في الصدور، فأخذ له ولحليفه ابن مسلمة، فانتهزا الفرصة، وابتدرا الرجعة، ولحق كل بموضعه يظن أنه ملك رئاسة أمره.

مولده: ولد المعتمد على الله بمدينة باجة سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة. ووُلِّي سنة إحدى وستين. وخلع سنة أربع وثمانين.

(١) كذا ورد في الإعلام بمن حلّ مراكز وأغمات من الأعلام (ص ٣٢٠).

(٢) هو المعتمد بن عباد، صاحب إشبيلية. وقصته والمتوكل بن الأفطس مع ابن تاشفين الواردة هنا، انظرها في وفيات الأعيان (ج ٥ ص ٤٨٥) والحلل الموشية (ص ٥١ - ٥٢) والبيان المغرب (ج ٤ ص ١٢٧، ١٤٣ - ١٤٤).

(٣) هو المتوكل بن الأفطس، صاحب بطليوس. (٤) هو الراضي يزيد ابن المعتمد بن عباد.

وفاته: كانت وفاة المعتمد على الله بأغصات في ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، بعد أن تقدمت وفاته وفاة الحرة اعتماد، وجزع عليها جزعاً أقرب سرعة لحاقه بها. ولما أحس بالمنية رثى نفسه بهذه الأبيات وأمر أن تُكتب على قبره^(١):
[البسيط]

قَبْرَ الْغَرِيبِ سَقَاكَ الرَّائِحُ الْغَادِي	حَقًّا ظَفِرْتَ بِأَسْلَاءِ ابْنِ عَبَادٍ
بِالْجَلْمِ بِالْعِلْمِ بِالتَّعْمَى إِذَا اتَّصَلَتْ	بِالْخَضْبِ إِنْ أَجْدَبُوا بِالرِّيِّ لِلصَّادِي
بِالطَّاعَنِ الضَّارِبِ الرَّامِي إِذَا اقْتَلُوا	بِالْمَوْتِ أَحْمَرَ بِالضَّرْغَامَةِ الْعَادِي
بِالدَّهْرِ فِي نَقْمٍ بِالْبَحْرِ فِي نَعَمٍ	بِالْبَذْرِ فِي ظُلْمٍ بِالضُّدْرِ فِي النَّادِي
نَعَمْ هُوَ الْحَقُّ فَاجَانِي ^(٢) عَلَى قَدْرِ	مَنْ السَّمَاءِ وَوَفَانِي ^(٣) لِمِيعَادِ
وَلَمْ أَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ التُّغْشِ أَعْلَمُهُ	أَنَّ الْجِبَالَ تَهَادِي فَوْقَ أَغْوَادِ
كَفَاكَ فَارُقٌ بِمَا اسْتَوْدَعْتَ مِنْ كَرَمٍ	رَوَاكَ كُلُّ قَطُوبٍ الْبَرْقِ رَعَادِ
يَبْكِي أَخَاهُ الَّذِي غَيَّبَتْ وَابِلَهُ	تَحْتَ الصُّفْيَحِ بِدَمْعٍ رَائِحِ غَادِي
حَتَّى يَجُودَكَ دَمْعُ الطَّلِّ مِنْهُمْ رَا	مَنْ أَغَيْنَ الزُّهْرَ لَمْ تَبْخُلْ بِإِسْعَادِ
فَلَا ^(٤) تَزَلْ صَلَوَاتُ اللَّهِ نَازِلَةً ^(٥)	عَلَى دَفِينِكَ لَا تُخْصِي بِشَعْدَادِ

بعض ما رثى به: قال ابن الصيرفي: وخالف في وفاة المعتمد، فقال: كانت في ذي حجة. فلما انفصل الناس من صلاة العيد، حفَّ بقبره ملاً، يتوجعون ويترحمون عليه، وأقبل ابن عبد الصمد، فوقف على قبره وأنشد^(٦):
[الكامل]

مَلِكُ الْمَلُوكِ، أَسَامِعُ فَأَنَادِي	أَمْ قَدْ عَدَّتْكَ عَنِ السَّمَاعِ عَوَادِي؟
لَمَّا خَلَّتْ ^(٧) مِنْكَ الْقُصُورُ فَلَمْ ^(٨) تَكُنْ	فِيهَا كَمَا قَدْ كُنْتَ فِي الْأَغْيَادِ
أَقْبَلْتُ فِي هَذَا الثَّرَى لَكَ خَاضِعَا	وَتَخَذْتُ ^(٩) قَبْرَكَ مَوْضِعَ الْإِنْشَادِ

(١) الأبيات في المعجب (ص ٢٢٢)، وهي غير واردة في ديوانه.

(٢) في الأصل: «فاجاني» وهكذا ينكسر الوزن. وفي المعجب: «نعم هو الحق حاباني به قدر».

(٣) في المعجب: «ووفاني». (٤) في المعجب: «ولا».

(٥) في المعجب: «دائمة».

(٦) الأبيات في قلاند العقيان (ص ٣٠) ووفيات الأعيان (ج ٤ ص ٢٨٩) وجاء في الأخير أن الشاعر هو: أبو بحر عبد الصمد.

(٧) في وفيات الأعيان: «نقلت عن».

(٨) في المصدر: «ولم».

(٩) في وفيات الأعيان: «وجعلت».

ثم خرَّ يبكي، ويُقْبَل القبر ويعفَّر وجهه في الثراب، فبكى ذلك الملاء حتى أخضَلوا ملابسهم، وارتفع نسيجهم، فلله درُّ ابن عبد الصمد، وملاذ ذلك البلد.

محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مَرْدَنِيَش الجُدَامِي^(١)

قال بعضهم: ينتمي في تُجِيب، الأمير أبو عبد الله.

أُولَيْتِه: معروفة. وعلى يد أبيه جَرَّت الوقعة الكبرى بظاهر إفراغة^(٢)، على ابن رُذْمِير الطاغية، فجَلَّت الشهرة، وعظُمت الأثرة. قال بعضهم: تولى أبوه سعد قيادة إفراغه وما إليها، وضبطها. ونازلها ابن رُذْمِير، فشهر غناؤه بها في دفاعه، وصبره على حصاره، إلى أن هزمه الله عزَّ وجلَّ، على يدي ابن غانية. وظهر بعد ذلك فحسُن بلاؤه، وبَعُدَ صيته. ورأس ابنه محمد، ونَقَّق في أُلْفَتِه. وكان بينه وبين ابن عياض المتأمر بمُرْسِيَةِ صِهْر، ولأه لأجله بِلَنَسِيَةِ. فلما توفي ابن عياض، بادرها ابن سعد، وبَلَغَه أثناء طريقه غدر العدوِّ بحصن جلال، فكَرَّ وقاد له وفتحته. وعاد فملك بِلَنَسِيَةِ، وقد ارتفع له صيْتُ شهير، ثم دخلت مُرْسِيَةِ في أمره، واستقام له الشُّرْق، وعظُمت حاله.

حاله: قال ابن حمامة: ساد من صغره بشجاعته ونجابته، وصيت أبيه، فمال بذلك إلى القيادة، وسنَّه إحدى وعشرون سنة. ثم ارتقى إلى المُلْك الراسخ، والسلطان الشامخ، بياهر شجاعته وشهامته، فسَمَا قُدْرُهُ، وعظم أمره، وفَشَى في كل أمة ذكره.

وقال غيره: كان بعيد الغور، قويَّ السَّاعد، أصيل الرأي، شديد العزم، بعيد العفو، مؤثراً للانتقام، مرهوب العقوبة.

وقال في مختصر «ثورة المُريدِين»^(٣): كان عظيم القوة في جسْمه، ذا أيدٍ في عظمتِه، جَزَارَةٌ في لحمه، وكان له فروسيَّة، وشجاعة، وشهامة، وورثاسة.

(١) ترجمة ابن مردنیش في المعجب (ص ٢٧٨) والمغرب (ج ٢ ص ٢٥١) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٥٩) وكتاب العبر (م ٤ ص ٣٥٧) واسمه فيه: محمد بن أحمد بن سعيد بن مردنیش، ونفح الطيب (ج ٤ ص ١٨٥، ٢٨٩) و(ج ٥ ص ٤١، ٤٥) و(ج ٦ ص ١٤٧، ٢٣٥، ٢١٥).

(٢) إفراغه بالإسبانية Fraga، وهي مدينة بغربي لاردة، لها حصن منيع وبساتين كثيرة. حاصرها ابن رُذْمِير سنة ٥٢٨ هـ، فتصدَّى له يحيى بن علي بن غانية فهزمه بعد أن قُتل أكثر رجاله بالجملة، وفرَّ ابن رُذْمِير. الررض المعطار (ص ٤٨).

(٣) هذا الكتاب لابن صاحب الصلاة، صاحب كتاب: «تاريخ المن بالإمامة». ولسوء الحظ، فقد =

بطالته وجوده: قال: وكان له يومان في كل جمعة؛ الاثنين والخميس، يشرب مع ندمائه فيهما، ويجود على قواده، وخاصته وأجناده، ويذبح البقر فيهما، ويفرق لحومها على الأجناد، ويحضر القيان بمزاميرهن وأغوادهن، ويتخلل ذلك لهو كثير، حتى مَلَكَ القلوب من الجند، وعاملوه بغاية النصح، وربما وَهَبَ المال في مجالس أنسه.

ذكر أنه استدعى يوماً ابن الأزرق أحد قواده، فشرب معه ومع القرابة، في مجلس قد كساه بأحمر الوشي والوطيء والآنية من الفضة وغيرها، وتمادى في لهو وشراب عامة اليوم، فلما كُمِّلَ نهاره معهم، وهبهم الآنية، وكل ما كان في المجلس من الوشي وغير ذلك.

ما نقم عليه ووصم به:

قالوا: كان عظيم الانهماك في ميدان البطالة، واتخذ جُمْلَةً من الجواري، فصار يُراقِدُ منهن جملة تحت لحاف واحد^(١). وانهمك في حُب القيان، والزُمِر والرقص. قالوا: وكان له فتى اسمه حسن، ذو رقبة سمينة، وقفاً عريض، فإذا شرب، كان يرزّه، ويعطيه بعد ذلك عطاء جزيلاً. وفي ذلك يقول كاتبه المعروف بالسالمي، وكان يحضر شرابه ويخمر: [المنسرح]

أَذِرْ كُؤُوسَ الْمُدَامِ وَالرُّزْ	فَقَدْ ظَفِرْنَا بِدَوْلَةِ الْعِزِّ
وَنِعِمَّ الْكَفُّ مِنْ قَفَا حَسَنِ	فَإِنَّهَا فِي لِيَانَةِ الْخَزِّ
وَصَاحِبُ إِنْ طَلَبْتُ أَخْدَعَهُ	فَلَمْ يَكْ ^(٢) فِي بَذْلِهِ بِمَعْتَرِّ
أَنْحَنَى عَلَى أَخْدَاعِي فَأَطْرَبَنِي	وَهَزَّ عَطْفِي أَيْمَانَهُزْ

وأجزل صلة السالمي حين أنشدتها إياه، واشتهرت هذه الأبيات بالشرق، واستظرفها الناس. فردّ مُرسية دار مجونه، وبلغ في زمانه ألفاً وأربعين. وأثر زِيّ النصارى من الملابس، والسلاح، واللجم، والسروج. وكَلَّفَ بلسانهم يتكلم مُباهة، والجأه الخروج عن الجماعة، والانفراد بنفسه إلى الاحتماء بالنصارى، ومُصانعتهم، والاستعانة بطواغيتهم، فصالح صاحب بَرِثِلونة لأول أمره على ضريبة، وصالح ملك

= هذا الكتاب، وهو يتناول تاريخ طائفة دينية دعت إلى الزهد والتقشف بزعامة أبي العباس أحمد بن قسي. راجع تاريخ المن بالإمامة (مقدمة المحقق).

(١) قال ابن الخطيب في أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٦١): «فكان يُراقِدُ أزيدَ من مائتي جارية تحت لحاف واحد».

(٢) في الأصل: «فلم يكن» وهكذا ينكسر الوزن.

قُتِلَتْ عَلَى أُخْرَى؛ فَكَانَ يَبْذُلُ لَهُمْ فِي السَّنَةِ خَمْسِينَ أَلْفَ مِثْقَالٍ. وَابْتَنَى لَجِيْشَهُ مِنَ النَّصَارَى مَنَازِلَ مَعْلُومَاتٍ وَحَانَاتٍ لِلخُمُورِ، وَأَجْهَفَ بِرَعِيَّتِهِ لِأَرْزَاقٍ مَّنْ اسْتَعَانَ بِهِ مِنْهُمْ، فَعَظُمَتْ فِي بِلَادِهِ الْمَنَارِمُ وَثَقُلَتْ، وَاتَّخَذَ حَوَانِيتَ بَيْعِ الْأَذْمِ وَالْمُرَافِقِ، تَخْتَنُقُ بِجَانِبِهِ، وَجَعَلَ عَلَى الْأَغْنَامِ وَعُرُوضِ الْبَقَرِ، مُؤَنَّا غَرِيبَةً. وَأَمَّا رُسُومُ الْأَعْرَاسِ وَالْمَلَاهِي، فَكَانَتْ قِبَالَاتِهَا غَرِيبَةً. حَدَّثَ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ عَنِ الثَّقَةِ، قَالَ: كُنْتُ بِجَيَّانَ مَعَ الْوَزِيرِ أَبِي جَعْفَرِ الْوَقْشِيِّ، فَوَصَلَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مَرْسِيَّةَ، كَانَ يَعْرِفُهُ، فَسَأَلَهُ الْوَزِيرُ عَنْ أَحْوَالِ ابْنِ مَرْدَنِيْشٍ وَعَنْ سِيرِهِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: أَخْبِرْكَ بِمَا رَأَيْتُهُ مِنْ جَوْرِ عَمَّالِهِ وَظَلَمِهِمْ؛ وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَ الرِّعِيَّةِ بِشَاطِبَةِ وَاسْمِهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، كَانَ لَهُ بِنَظَرِ شَاطِبَةٍ، ضُويْعَةٌ يَعِيشُ بِهَا، وَكَانَ لَازِمُهَا أَكْثَرَ مِنْ فَائِدِهَا، فَأَعْطَى لَازِمَهَا حَتَّى افْتَقَرَ، وَفَرَّ إِلَى مَرْسِيَّةَ. وَكَانَ أَمْرُ ابْنِ مَرْدَنِيْشٍ، أَنَّهُ مَنَ فَرَّ مِنَ الرِّعِيَّةِ أَمَامَ الْغَزْوِ، أَخَذَ مَالَهُ لِلْمَخْزَنِ. قَالَ الرَّجُلُ الشَّاطِبِيُّ: فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَى مَرْسِيَّةَ فَارًّا عَنْ وَطَنِي، خَدَمْتُ النَّاسَ فِي الْبُيَّانِ، فَاجْتَمَعَ لِي مِثْقَالَانِ سَعْدِيَّانِ، فَبَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي فِي السُّوقِ، وَإِذَا بِقَوْمٍ مِنْ أَهْلِ بَلَدِي شَاطِبَةٍ، وَمِنْ قَرَابَتِي، فَسَأَلْتُهُمْ عَنْ أَوْلَادِي وَزَوْجَتِي، فَقَالُوا: إِنَّهُمْ فِي عَافِيَةٍ، فَفَرَحْتُ فَرَحًا عَظِيمًا، وَسَأَلْتُهُمْ عَنِ الضُّويْعَةِ، فَقَالُوا: إِنَّهَا بَاقِيَةٌ بِيَدِ أَوْلَادِكَ، فَقُلْتُ لَهُمْ: عَسَى تَبْتَئُوا عِنْدِي اللَّيْلَةَ، فَاشْتَرَيْتُ لَحْمًا وَشَرَابًا، وَضَرَبْنَا دَفًّا. فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الصَّبَاحِ، وَإِذَا بِنَقَرٍ عَنيفٍ بِالْبَابِ. فَقُلْتُ: مَنَ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا الطَّرْقُونُ الَّذِي بِيَدِهِ قَبَالَةُ اللَّهْوِ، وَهِيَ مُتَّفِقَةٌ بِيَدِي، وَأَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ الْبَارِحَةَ الدَّفَّ فَأَعْطَانَا حَقَّ الْعُرْسِ الَّذِي عَمِلْتُ. فَقُلْتُ لَهُ: وَاللَّهِ مَا كَانَتْ لِي عُرْسٌ، فَأَخَذْتُ وَسُجِّجْتُ، حَتَّى افْتَدَيْتُ بِمِثْقَالِ وَاحِدٍ مِنَ الَّذِي خَدَمْتُ بِهِ، وَجِئْتُ إِلَى الدَّارِ، فَقِيلَ لِي إِنَّ فَلَانًا وَصَلَ مِنْ شَاطِبَةِ السَّاعَةِ، فَمَشَيْتُ لِأَسْأَلَهُ عَنْ أَوْلَادِي، فَقَالَ: تَرَكْتُهُمْ فِي السَّجَنِ، وَأَخَذْتُ الضُّويْعَةَ مِنْ أَيْدِيهِمْ فِي رَسْمِ الْجَبَالِيِّ، فَرَجَعْتُ إِلَى الدَّارِ، إِلَى قَرَابَتِي، وَعَرَفْتُهُمْ بِالَّذِي طَرَأَ عَلَيَّ، وَبَكَيْتُ طَوْلَ لَيْلَتِي، وَبَكَوْا مَعِي، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ، وَإِذَا بِنَاقِرٍ بِالْبَابِ، فَخَرَجْتُ، فَقَالَ: أَنَا رَجُلٌ صَاحِبُ الْمَوَارِيثِ، أَعْلَمْنَا أَنَّكُمْ بِكَيْتُمْ الْبَارِحَةَ، وَأَنَّهُ قَدْ مَاتَ لَكُمْ مَيِّتٌ مِنْ قَرَابَتِكُمْ غَنِيٌّ، وَأَخَذْتُمْ كُلُّ مَا تَرَكَ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ مَا بِكَيْتُ إِلَّا نَفْسِي، فَكَذَّبْنِي وَحَمَلَنِي إِلَى السَّجَنِ، فَدَفَعْتَ الْمِثْقَالَ الثَّانِي، وَرَجَعْتُ إِلَى الدَّارِ وَقُلْتُ: أَخْرِجْ إِلَى الْوَادِي، إِلَى بَابِ الْقَنْطَرَةِ، اغْسِلْ ثِيَابِي مِنْ دَرَنِ السَّجَنِ، وَأَفِرُّ إِلَى الْعُدُوَّةِ، فَقُلْتُ لَامْرَأَةٍ تَغْسِلُ الثِّيَابَ: اغْسِلِي مِمَّا عَلَيَّ، وَجَرِّدْتَهَا، وَدَفَعْتُ لِي زَنَارًا أَلْبَسَهُ. فَبَيْنَا أَنَا كَذَلِكَ، وَإِذَا بِالْخَصِيِّ قَائِدِ ابْنِ مَرْدَنِيْشٍ، يَسُوقُ سَتِينَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَبَلِ، لَا بَسِي الزَّنَانِيرِ، فَرَأَنِي عَلَى شَكْلِهِمْ، فَأَمَرَ بِحَمْلِي إِلَى السُّخْرَةِ وَالْخِدْمَةِ بِحَصْنِ مَسْقُوطِ عَشْرَةِ أَيَّامٍ، فَلَبِثْتُ أَخْدَمُ وَأَحْضُرُ مَدَّةَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ، وَأَنَا أَبْكِي وَأَشْتَكِي لِلْقَائِدِ الْمَذْكُورِ، حَتَّى أَشْفَقَ عَلَيَّ وَسَرَّحَنِي. فَرَجَعْتُ أُرِيدُ مَرْسِيَّةَ، فَقِيلَ لِي عِنْدَ بَابِ الْبَلَدِ: كَيْفَ اسْمُكَ؟

فقلت: محمد بن عبد الرحمن، فأخذني الشرطي، وحملت إلى القابض بباب القنطرة، فقالوا: هذا من كتبتّه من أرباب الحالي بكذا وكذا دينار، فقلت: والله ما أنا إلا من شاطبة، وإنما اسمي وافق ذلك الاسم، ووصفت له ما جرى عليّ، فأشفق وضحك مني؛ وأمر بتسريحني، فسرت على وجهي إلى هنا.

بعض الأحداث في أيامه، ونبد من أخباره:

استولى على بلاد الشرق، مُرسية وبَلَنسية وشاطبة ودانية، ثم اتسع نطاق ملكه، فولّى جَيّان، وأبدة، وبَيّاسة، وبَسْطَة، ووادي آش. وملك قُرمونة، ونازل قرطبة وإشبيلية، وكاد يستولي على جميع بلاد الأندلس، فولّى صهره ابن هَمْشك، وقد مرّ في باب إبراهيم، مدينة جَيّان وأبدة وبَيّاسة، وضيّق منها على قرطبة، واستولى على إستجة، ودخل غرناطة سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وثار عليه يوسف بن هلال من أصهاره بحصن مطرنيش وما إليه. ثم تفسد ما بينه وبين صهره الآخر ابن هَمْشك، فكان سبب إذبار أمره، واستولى العدو في مدة ابن سعد على مدينة طُرطُوشة عام ثلاثة وأربعين وخمسمائة، وعلى حصن إقليج، وحصن شرانية.

دخوله غرناطة: ولما دخل ابن هَمْشك^(١) مدينة غرناطة، وامتنعت عليه قصبتهَا، وهزم الجيش المُضَرَّخ لمن حُصر بها من الموحدين بمرج الرقاد^(٢) وثاب أثناء ذلك أمرُ الموحدين، فتجهز لتصرهم السيد أبو يعقوب، وأجاز البحر، واجتمعوا بالسيد أبي سعيد بمالقة، استمذ ابن هَمْشك صهره الأسعد، أبا عبد الله محمد بن سعد، فخرج بنفسه في العسكر الكبير من أهل الشرق والنصارى، فوصل إلى غرناطة، واضطربت محلته بالريوة السامية المتصلة بربض البَيّازين، وتُعرف إلى اليوم بكُدية مردنیش، وتلاحق جيش الموحدين بأحواز غرناطة، فأبينوا جيش عدوهم، فكانت عليه الدَّبرَة، وفر ابن مردنیش، فلاحق بجيان، واتصلت عليه الغلبة من لدن منتصف عام ستين، فلم يكن له بعده ظهور.

وفاته: وظهر عليه أمر الموحدين، فاستخلصوا معظم ما بيده، وأوقعوا بجنده الوقائع العظيمة، وحُصر بمدينة مرسية، واتصل حصاره، فمات أثناء الحصار في عاشر

(١) هو القائد أبو الحسن بن هَمْشك، صهر محمد بن مردنیش، كما ورد في أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٦١).

(٢) مرج الرقاد: موضع بظاهر غرناطة، انهزم فيه الموحدون أقبح هزيمة سنة ٥٥٧ هـ على يد أبي الحسن بن هَمْشك، صهر محمد بن مردنیش. راجع أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٦١).

رجب من عام سبعة وستين وخمسمائة^(١) وله ثمانية وأربعون عامًا، ووصل أمره أبو القمر هلال^(٢)، وألقى باليدين إلى الموحدين، فنزل على عهد ورسوم حسبما يأتي في موضعه.

محمد بن يوسف بن هود الجذامي

أمير المسلمين بالأندلس، يكنى أبا عبد الله، ويلقب من الألقاب السلطانية بالمتوكل على الله^(٣).

أوليته: من ولد المستعين بن هود. وأوليتهم معروفة، ودولتهم مشهورة، وأماؤهم مذكورون. خرج من مرسية تاسع رجب عام خمسة وعشرين وستمائة إلى «الضخور» من جهاتها، في نفر يسير من الجنود معه، وكان الناس يستشعرون ذلك، ويرتقبون ظهور مسمى باسمه واسم أبيه، وينددون بإمرته وسلطانه. وجرى عليه بسبب ذلك امتحان في زمن الموحدين مرات، إذ كان بعض الهاتفين بالأمور الكائنة، والقضايا المستقبلية، يقول لهم: يقوم عليكم قائم من صنف الجند، اسمه محمد بن يوسف، فقتلوا بسبب ذلك شخصًا من أهل جيان. ويقال إن شخصًا ممن ينتحل ذلك، لقي ابن هود، فأمعن النظر إليه، ثم قال له: أنت سلطان الأندلس، فانظر لنفسك، وأنا أدلك على من يقيم ملكك، فاذهب إلى المُقَدِّم العُشْتِي فهو القائم بأمرك. وكان العُشْتِي^(٤) رجلًا ضَعْلوكًا^(٥) يقطع الطريق، وتحت يده جماعة من أنجاد^(٦) الرجال، وسباع الشَّار، قد اشتهر أمرهم، فنهض إلى المقدم، وعرض عليه الأمر، وقال: نستفتح بمُغَاوَرَة إلى أرض العدو، على اسمك وعلى سعدك، ففعلوا، فجلبوا كثيرًا من الغنائم والأسرى، وانضاف إلى ابن هود طوائف مثل هؤلاء، وبايعوه

(١) كذا في أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٦٢)، وفي المعجب (ص ٢٧٩) أنه مات في شهر سن ٥٦٨ هـ. وفي نفع الطيب (ج ٦ ص ١٤٧، ٢٣٥) أن وفاته كانت سنة ٥٦٦ هـ.

(٢) هو هلال بن محمد بن سعد بن مردنيش، تولى الأمر بعد موت أبيه سنة ٥٦٧ هـ، ولكنه خالف أباه في العداء للموحدين، فتنحى عن مرسية، وأذن للخليفة الموحد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٧١).

(٣) ترجمة المتوكل محمد بن يوسف بن هود في البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٢٧٦) والمعجب (ص ٤١٧) والمغرب (ج ٢ ص ٢٥١) وكتاب العبر (م ٤ ص ٣٦١) والحلة السيرة (ج ١٢٨ ص ٢٩٦، ٣٠٣، ٣٠٨) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٧٧) والأعلام للزركلي (ج ٧ ص ١٤٩).

(٤) قارن بالبيان المغرب (قسم الموحدين ص ٢٧٦).

(٥) في البيان المغرب: «حواش».

(٦) في البيان المغرب (ص ٢٧٧): «من أراذل الناس».

بـ«الصُّخَيْرَات»^(١) كما ذكر، من ظاهر مرسية، وتحرك إليه السيد أبو العباس بعسكر مرسية، فأوقع به وشرّده، ثم تاب إليه ناسه، وعدل إلى الدُّعاء للعباسيين، فتبعه اللّيف، ووصل تقليد الخليفة المستنصر بالله ببغداد، فاستنصر الناس في دعوته، وشاع ذكره، وملك القواعد، وجيش الجيوش، وقهر الأعداء، ووقى للغشتي بوعده، فولاه أسطول إشبيلية، ثم أسطول سبتة، مضافاً إلى أمرها، وما يرجع إليه، فثار به أهلها بعد وخلعوه، وفرّ أمامهم في البحر، وخفي أثره إلى أن تحقق استقراره أسيراً في البحر بغرب الأندلس، ودام زماناً، ثم تخلص في سنّ الشيخوخة، ومات برباط آسفي.

حاله: كان شجاعاً، ثبّناً، كريماً حيّاً، فاضلاً، وفيّاً، متوكّلاً عليه، سليم الصدر، قليل المبالاة، فاستعلى لذلك عليه ولأته بالقواعد، كأبي عبد الله بن الرُّممي بالمرية، وأبي عبد الله بن زنون بمالقة، وأبي يحيى عبّبة بن يحيى الجزولي بغرناطة. وكان مجذوداً، لم ينهض له جيش، ولا وُقّق لرأي؛ لغلّة الخفّة عليه، واستعجاله الحركات، ونشاطه إلى اللقاء، من غير كمال استعداد.

بعض الأحداث في أيامه^(٢):

جرت عليه هزائم، منها هزيمة السلطان الغالب بالله إياه مرّتين، إحداهما بظاهر إشبيلية، وركب البحر فنجا بنفسه، ثم هزمه بالبيرة من أحواز غرناطة، زعموا كل ذلك في سنة أربع وثلاثين وستمئة أو نحوها.

وفي سنة خمس وثلاثين، كان اللقاء بينه وبين المأمون إدريس أمير الموحدين بإشبيلية، فهزمه المأمون أقبح هزيمة، واستولى على محلّته، ولاذ منه بمدينة مرسية.

ثم شغل المأمون الأمر، وأهمّته الفِئنة الواقعة بمراكش، فصرف وجهه إليها، وثاب الأمر للمتوكل، فدخلت في طاعته المرية، ثم غرناطة، ثم مالقة. وفي سبع وعشرين وستمئة، تحرك بفضل شهامته بجيوش عظيمة، لإضراخ مدينة ماردة، وقد نازلها العدو وحاصر، ولقي الطاغية بظاهرها، فلم يتأنّ، زعموا، حتى دفع بنفسه العدو، ودخل في مصافّه، ثم لما كزّ إلى ساقّته، وجد الناس منهزمين لما غاب عنهم، فاستولت عليه هزيمة شنيعة، واستولى العدو على ماردة بعد ذلك.

(١) في البيان المغرب (ص ٢٧٧) أن الصخيرات موضع بمقرية من مرسية.

(٢) قارن بالبيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٢٨٨ - ٢٨٩، ٢٩٤).

وفُتِحَ عليه في أمور، منها تملكه إشبيلية سنة تسع وعشرين وستمائة، وولى عليها أخاه الأمير أبا النجاة سالماً الملقب بعماد الدولة. وفي سنة إحدى وثلاثين، رَجَعَت قرطبة إلى طاعته، واستَوْسَقَ أمره. وتملك غرناطة ومالقة عام خمسة وعشرين وستمائة، ودانت له البلاد. وفي العشر الأول من شوال، دخل في طاعته الرئيس أبو زكريا، وأبو عبد الله، ابنا الرئيس أبي سلطان عزيز بن أبي الحجاج بن سعد، وخرجوا عن طاعة الأمير أبي جميل، وأخذوا البيعة لابن هود على ما في أيديهما. وفي سنة ست وعشرين وستمائة، تملك الجزيرة الخضراء عثوة، يوم الجمعة التاسع لشعبان من العام، وفي العشر الوسط من شوال ورد عليه الخبر ليلاً بقصد العدو وجهة مدينة وادي آش، فأسرى ليله مسرجاً بقية يومه، ولحق بالعدو على ثمانين ميلاً، فأتى على آخرهم، ولم ينج منه أحد.

إخوته: الرئيس أبو النجاة سالم، وعلامته: «وثقت بالله»، ولقبه «عماد الدولة»، والأمير أبو الحسن عضد الدولة، وأسره العدو في غارة، وافتككه بمال كثير، والأمير أبو إسحق شرف الدولة. وكلهم يكتب عنه، من الأمير فلان.

ولده: أبو بكر الملقب بالواثق بالله، أخذ له البيعة على أهل الأندلس، في كذا، وولى بعده ولي عهده، واستقل بملك مرسية، ثم لم يثيب أن هلك.

دخوله غرناطة: دخل غرناطة مرّات عديدة، إحداها في سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وقد وردت عليه الرّاية والتقليد من الخليفة العباسي ببغداد. وبمصلّى غرناطة، قرىء على الناس كتابه، وهو قائم، وزيه السّواد، ورايته السوداء بين يديه، وكان يوم استشقاء، فلم يستمّ على الناس قراءة الكتاب يومئذ، إلا وقد جادت السماء بالمطر، وكان يوماً مشهوداً، وصنعاً غريباً، وأمر بعد انصرافه، أن يكتب عنه بتلك الألقاب التي تضمّنّها الكتاب المذكور إلى البلاد.

وفاته: اختلف الناس في سبب وفاته، فذكر أنه قد عاهد زوجته ألا يتخذ عليها امرأة طول عمره، فلما تصيّر إليه الأمر، أعجبه رومية حصلت له بسبب السّبي من أبناء زعمائهم، من أجمل الناس، فسّرها عند ابن الرّميمي خليفته، فزعموا أن ابن الرّميمي غلق بها، ولما ظهر حملها، خاف افتضاح القصة، فدبر عليه الحيلة، فلما حلّ بظاهر المرأة، عرض عليه الدخول إليها، فاعتاله ليلاً، بأن أقعد له أربعة رجال، قضوا عليه خنقاً بالوسائد. ومن الغد ادّعى أنه مات فجأة، ووقف عليه العدول، والله أعلم بحقيقة الأمر سبحانه، وكانت وفاته ليلة الرابع والعشرين من جمادى الآخرة عام خمسة وثلاثين وستمائة. وفي إرجاف الناس بولاية ابن هود، والأمر قبل وقوعه،

يقول الشاعر: [الطويل]

هُمَامٌ بِهِ زَادَ الزَّمَانُ طَلَاقَةً وَلَذْتُ لَنَا فِيهِ الْأَمَانِي مَوْرَدًا
فَقُلْ لِبَنِي الْعَبَّاسِ هَا هِيَ دَوْلَةٌ أَغَارَ بِهَا الْحَقُّ الْمُبِينُ وَأَنْجَدًا
فَإِنَّ الَّذِي قَدْ جَاءَ فِي الْكُتُبِ وَضْفُهُ بَتْمَهِيدِ هَذِي الْأَرْضِ قَدْ جَاءَ فَاهْتَدَا
فَإِنَّ بَشَرَتَنَا بِابْنِ هُودٍ مُحَمَّدٍ فَقَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ ابْنَ هُودٍ مُحَمَّدًا

محمد بن أحمد بن زيد بن أحمد بن زيد بن الحسن
ابن أيوب بن حامد بن زيد بن منخل الغافقي

يكنى أبا بكر، من أهل غرناطة. وسكن وادي آش.

أَوَّلِيَّتُهُ: أصل هذا البيت من إشبيلية، وذكره الرازي في الاستيعاب، فقال: وبإشبيلية بيت زيد الغافقي، وهم هناك جماعة كبيرة، فرسان ولهم شرف قديم، وقد تصرفوا في الخدمة. بلديون^(١)، ثم انتقلوا إلى طليطلة، ثم قرطبة، ثم غرناطة. وذكر الملاحى في كتابه الحسن بن أيوب بن حامد بن أيوب بن زيد، وعده من أهل الشورى، وقضاة الجماعة بغرناطة. وأحمد بن زيد بن الحسن هو المقتول يوم قيام بني خالد، بدعوة السلطان أبي عبد الله الغالب بالله بن نصر^(٢)، وكان عامل المتوكل على الله بن هود بها، وعمن جمع له بين الدين والفضل والمال.

حاله ونباهته ومحتة ووفاته:

كان هذا الرجل عيّنًا من أعيان الأندلس، وصدرا من صدورها، نشأ عفا متصاونا عزوفا، وطلاوة، نزيها، أيّا، كريم الخؤولة، طيب الطعمة، حرّ الأصالة، نبيه الصّهر. ثم استعمل في الوزارة ببلده، ثم قُدّم على من به من الفرسان، فأوردهم الموارد الصفيّة بإقدامه، واستباح من العدو الفرصة، وأكسبهم الذكر والشهرة، وأنفق في سبيل الله، إلى غضاضة الإيمان، وصيحة العقد، وحسن الشّيمة، والاسترسال في ذكر التواريخ، والأشعار الجاهليّة، والأمثال، والتمسك بأسباب الدين، وسحب أذيال الطّهارة، وهجر الخبايث، وإيثار الجدّ، والانحطاط في هوى الجماعة.

(١) البلديون: هم العرب الذين دخلوا الأندلس على يد موسى بن نصير، والشاميون هم العرب الذين دخلوا الأندلس مع بلج بن بشر القشيري سنة ١٢٣ هـ. راجع الجزء الأول من الإحاطة في «فصل في فتح هذه المدينة».

(٢) هو أبو عبد الله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن نصر الخزرجي الأنصاري، حكم غرناطة من سنة ٦٣٥ هـ إلى سنة ٦٧١ هـ. راجع اللوحة البدرية (ص ٤٢).

مشيخته: قرأ بغرناطة على شيخ الجماعة أبي عبد الله بن الفخار، وببلده على الأستاذ أبي عبد الله الطرسوني، وبه انتفاعه. وكان جهوري الصوت، متفاضلاً، قليل التهيب في الحفل. ولما حدث بالسلطان أبي عبد الله من كيد دولته، وتلاحق بوادي آش مقلتا، قام بأمره، وضبط البلد على دعوته، ولم المداهنة في أمره، وجعل جيل عدوه دبر أذنه، إلى أن خرج عنها إلى العذوة، فكان زمان طريقه مفدياً له بنفسه، حتى لحق بمأمنه، فتركها مغربة.

خبر في وفاته ومفرجه:

وكانت الحمد لله على مخرجه، واستأثر به الداخل، فشذ عليه يد اغتباطه، وأغرى به عقد ضنائه، وخلطه بنفسه، ثم أغرى به لمكانته من الشهامة والرياسة، فتقبض عليه، وعلى ولده، لأب باب بني وقته، وغرة أبناء جنسه، فأودعهما مطبق أرباب الجرايم، وهما باغتيالهما، ثم نقلهما إلى مدينة المنكب ليلة المنتصف لمحرّم من عام اثنين وستين وسبعمائة في جملة من النباه مأخوذتين بمثل تلك الجريمة. ثم صرف الجميع في البحر إلى بجاية، في العشر الأول لربيع الأول مصفدين. ولما حلوا بها، أقاموا تحت برّ وتجلّة. ثم ركبوا البحر إلى تونس، فقطع بهم أسطول العدو بأحواز تكزنت، ووقعت بينه وبين المسلمين حرب، فكرم مقام المترجم يومئذ، وحسن بلاؤه. قال المخبر: عهدي به، وقد سلّ سيفاً، وهو يضرب العدو ويقول: اللهم اكْتُبْها لي شهادة. واستولى العدو على من كان معه من المسلمين، ومنهم ولده، وكُتب: افْتُكُ الجميع ببلد العُتاب، وانصرف ابنه إلى الحج، وآب لهذا العهد بخلال حميدة كريمة، من سُكون وفضل ودين وحياء، وتلاوة، إلى ما كان يجده من الرّكض، ويعانيه من فروسية، فمضى على هذا السبيل من الشهادة، نفعه الله، في ليلة الجمعة الثامن لرجب من عام اثنين وستين وسبعمائة.

شعره: أنشدني قاضي الجماعة أبو الحسن بن الحسن له: [البسيط]

يا أيها المرتجي للطف ^(١) خالقه	وقضيه في صلاح الحال والمال
لو كنت توقن حقاً لطف قدرته	فاشمخ بأنفك عن قيل وعن ^(٢) قال
فإنّ لله لطفاً عزّ خالقنا	عن أن يُقاس بتشبيه وتمثال
وكل أمر وإن أغياك ظاهره	فالصنع في ذاك لا يجري على بال

(١) في الأصل: «الطف» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) كلمة «عن» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن.

محمد بن أحمد بن محمد الأشعري

من أهل غرناطة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن المحروق، الوكيل بالدار السلطانية، القهرمان بها، المستنور آخر عمره، سداد من عون.

حاله وأوليته وظهوره: كان، رحمه الله، من أهل العفاف والتصاؤن، جانحاً إلى الخير، مُحِبّاً في أهل الإصلاح، مَغْضُوض الطَّرْف عن الحُرْم، عَفِيفاً عن الدماء، مستمسكاً بالعدالة، من أهل الخصوصية، كتب الشروط، وبرز في عُدُول الحضرة. وكان له خط حسن، ومشاركة في الطلب، وخصوصاً في الفرائض، وحظّه تافه من الأدب. امتدح الأمراء، فترقى إلى الكتابة مرؤوساً مع الجملة. وعند الإيقاع بالوزير ابن الحكيم، تَعَيَّن لحصر ما استرفع من مُنْتَهَب ماله، وتحصل بالدار السلطانية من أثاثه وخُزَيْنَتِهِ^(١)، فحزم واضطلع بما كان داعية ترقيه إلى الوكالة، فساعده الوقت، وطلع له جاه كبير، وتملك أموالاً عريضة، وأرضاً واسعة، فجمع الدنيا بحزمه ومثابرته على تسمية داخله. وترقى إلى سماء الوزارة في الدولة السادسة من الدول النُصْرِيَّة^(٢)، بتدبير شيخ الغزاة، وزعيم الطائفة عثمان بن أبي العلي^(٣)، فوصله إلى أذوار دنياه، والله قد خبأ له المكروه في المحبوب، وتأذن الله سبحانه بنفاد أجله على يده، فاستولى وحجب السلطان. ثم وقعت بينه وبين مُرَشَّحه الوَخْشَة الشهيرة عام سبعة^(٤) وعشرين وسبعمائة، مارساً لمكان الفتنة، صِلَة فارط في حجب السلطان، وأجلى جُمهور ما كان ببابه، ومنع من الدخول إليه، فاضطربت حاله، وأعمل التدبير عليه، فهجم عليه بدار الحُرَّة الكبيرة جَدَّة السلطان، وكان يعارضها في الأمور، ويجعلها تكأة لغرضه، فَيَّان من أحداث الممالك المُستَبِقين مع محجوبه، تناولاه سَطّاً بالخناجر، ورمى نفسه في صهريج الدار، وما زالا يتعاورانه من كل جانب حتى فارق الحياة، رحمه الله تعالى.

مُشِيخَتَه: قرأ على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، وكانت له فيه فِرَاسَة صادقة.

(١) الأثاث: ما جدّ من متاع البيت، ولا واحد له. والخُزَيْنَة: أردأ متاع البيت. محيط المحيط (أث) و(خرث).

(٢) المراد بالدولة السادسة سلاطين بني نصر، وهو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر. وترجمته في اللوحة البدرية (ص ٩٠). وترجم له ابن الخطيب في الجزء الأول من الإحاطة ترجمة ضافية.

(٣) في الأصل: «العلاء» والتصويب من اللوحة البدرية (ص ٩٣).

(٤) في الأصل: «سبع» وهو خطأ نحوي.

محمد بن فتح بن علي الأنصاري

يكنى أبا بكر، ويشهر بالأشبرون، قاضي الجماعة.

حاله: كان طرّفاً في الذكاء والتخلق والمعرفة بمقاطع الحقوق، ومغامز الرّيب، وعِلل الشهادات، فذاً في الجزالة، والضّرامة، مقدّاماً، بصيراً بالأمور، حسن السيرة، عذب الفكاهة، ظاهر الحظوة، عليّ الرتبة. خرج من إشبيلية عند تغلب العدو عليها، ووَلّى القضاء بمالقة وبسطة. ثم وُلّي الحسبة بغرناطة، ثم جُمعت له إليها الشرطة. ثم قدّم قاضياً، واستمرت ولايته نحواً من ثلاثين سنة.

وفاته: توفي ليلة الحادي عشر من شهر ربيع الأول عام ثمانية وتسعين وستمائة.

محمد بن أحمد بن علي بن حسن بن علي ابن الزيات الكلاعي^(١)

ولد الشيخ الخطيب أبي جعفر بن الزيات، من أهل بَلَش، يكنى أبا بكر.

حاله: من «عائد الصلة» من تأليفنا: كان، رحمه الله، شبيهاً بأبيه، في هذيه، وحسن سَمته ووقاره، إلا أنه كان حافظاً للرتبة، مقيماً للأبهة، مُستدعيّاً بأبيه ونفسه للتجلة، بقية من أبناء المشايخ، ظرفاً وأدباً ومروءة وحشمة، إلى خطّ بديع قيد البصر، ورواية عالية، ومشاركة في فنون، وقراءة، وفقه، وعربية، وأدب وفريضة، ومعرفة بالوثائق والأحكام. تولّى القضاء ببلده، وخلف أباه على الخطابة والإمامة، فأقام الرّسم، واستعمل في السّفارة، فسدّ مسدّاً مثله، وأقرأ ببلده، فانتفع به.

مشيخته: قرأ على الأستاذ الخطيب أبي محمد بن أبي السّداد الباهلي، وبغرناطة على شيخ الجماعة الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، ومن أعلام مشيخته جدّه للأّم، خال أبيه، الحكمي العارف أبو جعفر ابن الخطيب أبي الحسن بن الحسن المذّججي الحمي، والخطيب الربّاني أبو الحسن فضل بن فضيلة، والوزير أبو عبد الله بن رُشيد.

(١) ترجمة محمد بن أحمد بن الزيات الكلاعي في الكتيبة الكامنة (ص ١١٥) ونيل الابتهاج (ص

محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج^(١)

يكنى أبا عبد الله، ويُعرف بابن الحاج.

أوليته وحاله: كان أبوه نجارًا من مَدَجْنِي مدينة إشبيلية، من العارفين بالحِيل الهندسية، بصيرًا باتخاذ الآلات الحربية الجافية، والعمل بها. وانتقل إلى مدينة فاس على عهد أبي يوسف المنصور بن عبد الحق، واتخذ له الدُولاب المنفّسح القطر، البعيد المدى، مُلَتِن المركز والمحيط، المتعدّد الأكواب، الخفيّ الحركة، حسبما هو اليوم ماثل بالبلد الجديد، دار الملك بمدينة فاس، أحد الآثار التي تحدد إلى مشاهدتها الرُّكّاب، وبناء دار الصُّنعة بسلا. وانتقل بعد مهلك أبيه إلى باب السلطان ثاني الملوك من بني نصر^(٢)، ومث إليه بوسيلة أذنت محله، وأسست جراياته، إلى أن تولّى وزارة ولده أمير المسلمين، أبي الجيوش نصر^(٣)، واضطلع بتدبيره، ونقم الناس عليه إشاره لمقالات الرُّوم، وانحطاطه في مَهْوَى لهم، والتشبه بهم في الأكل والحديث، وكثير من الأحوال والهيئات والاستحسان، وتطريز المجالس بأمثالهم وجكمهم، سمةً وسمت منه عقلاً، لنشأته بين ظهرائهم، وسبقت إلى قوى عقله المكتسب في بيوتهم، فلم تفارقه بحال، وإن كان آية في الدهاء، والنظر في رَجُلٍ بعيد الغور، عميق الفكر، قائم على الدُّمْنَة، مُنْطَوٍ على الرُّضْف، لَتِن الجانب، مبدول البشر، وحيد زمانه في المعرفة بلسان الرُّوم وسيرهم، مُحْكَم الأَرْضاع في أدب الخدمة، ذَرِب بالتصرف في أبواب الملوك.

وكان من ثورة العامة بسلطانه ما تقدم، وجهروا بإسلامه إليهم، وقد ولّوه بسبب الثورة، وطوّقوه كِيَاد الأزمة، فضنُّ به السلطان ضنّانة أغرّبت عن وفائه، وصان مُهْجَتَه، واستمرّ الأمر إلى أن خُلع الملك عن الملك. وكان نزول الوزير المذكور تحت خفارة شيخ الغزاة، وكبير الطائفة، عثمان بن أبي العلى، فانتقل محفوظ

(١) ذكره ابن الخطيب في اللوحة البدرية (ص ٧١)، وقال: إنه تولّى وزارة سلطان غرناطة أبا الجيوش نصر بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر.

(٢) الصواب أنه ثالث سلاطين بني نصر، وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، الملقب بالمخلوع، ووالد أبي الجيوش نصر. وقد حكم غرناطة من سنة ٧٠١ هـ إلى سنة ٧٠٨ هـ. ترجمته في اللوحة البدرية (ص ٦٠). وقد تقدمت ترجمته في الجزء الأول من الإحاطة.

(٣) هو أبو الجيوش نصر بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، رابع سلاطين بني نصر بغرناطة، حكم من سنة ٧٠٨ هـ إلى سنة ٧٢٢ هـ. ترجمته في اللوحة البدرية (ص ٧٠). وسيترجم له ابن الخطيب في الجزء الثالث من الإحاطة.

الجملة، مخطوط الوفر، ولم يَنْشِبْ إلى أن لجأ إلى العُدوة، واتصل بالأمير أبي علي عمر بن السلطان الكبير أبي سعيد، فحرّكه، زعموا، على مُحَاذَة أبيه، وحمله على الانتِزاء، فكان ما هو معلوم من دُعائه إلى نفسه، ومنازعة أبيه، ولقائه إياه بالمُقَرَّمَة^(١)، وَقُلْ جيشه، وفي أثناءه هلك المترجم به.

وفاته: توفي بفاس الجديد في العشر الأول من شعبان عام أربعة عشر^(٢) وسبعمائة.

محمد بن رضوان بن محمد بن أحمد بن إبراهيم ابن أرقم التُّميري

من أهل وادي آش، يكنى أبا يحيى.

حاله: كان صَدْرًا شهيرًا، عالِمًا عَلمًا، حَسِيْبًا، أَصِيْلًا، جَمُّ التحصيل، قوي الإدراك، مضطلعًا بالعربية واللغة، إمامًا في ذلك، مشاركًا في علوم من حساب وهينة وهندسة. قال الشيخ: كان في هذا كله أبرغ من لقيته، إلى سَرَاوة وفضل وتواضع ودين، جاريًا في ذلك على سُنن سلفه، وعلو مَحَيِّدَه، جالسته، رحمه الله، كثيرًا عند عِلْيَة من أدركته بغرناطة؛ لإقامته بها، وتكرر لقائي إياه بها وبغيرها، فرأيت أَصِيْلًا جَلِيْلًا قد جمع علمًا وفضلًا، وحُسن خلق، وكان حَسِن التَّقْيِيد، لخطه رونق يمتاز به، ويبعد عن غيره. وَلِي القضاء ببلده، ثم وَلِي بعد مدة بَبْرشانة^(٣)، فحُمِدَت سيرته.

مشيخته: أخذ القراءات السبع عن أبي كرم جودي بن عبد الرحمن، وقرأ عليه الغريب واللغة، ولازمه في ذلك، وأجاز له إجازة عامة، وأخذ من غيره ببلده، وصحب بَغْرناطة جُملة من العلماء بها، أيام اختلافه إليها، وإقامته بها.

توالياقه: أَلَف كتابًا سماه «الاحتفال في استيفاء ما للخيل من الأحوال»، وهو كتاب ضخم وَقُفْتُ عليه من قبله وأَقْدَثُهُ. واختصر الغريب المُصَنَّف، وله تقايد منشور ومنظوم في علم النجوم، ورسالة في الإسْطَرلاب الخطي والعمل به، وشجرة في أنساب العرب.

وفاته: توفي ليلة السبت السابع عشر لشهر ربيع الآخر عام سبعة وخمسين وسبعمائة.

(١) المُقَرَّمَة: بلدة تقع جنوب شرقي مدينة فاس. (٢) في الأصل: «أربع عشرة» وهو خطأ نحوي.

(٣) بَرشانة: بالإسبانية Purchena، وهي حصن على مجتمع نهريْن. الروض المعطار (ص ٨٨). وذكرها باقوت في معجم البلدان (ج ١ ص ٣٨٤) وقال: إنها من قرى إشبيلية بالأندلس.

محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم
ابن محمد بن خلف بن محمد بن سليمان بن سوار
ابن أحمد بن حزب الله بن عامر بن سعد الخير بن عتياش^(١)

المكنى بأبي عيشون بن حمود، الداخلى إلى الأندلس صحبة موسى بن نصير،
ابن عتبسة بن حارثة بن العباس بن المرداس، يكنى أبا البركات، بلنفيقي^(٢) الأصل،
مروى^(٣) النشأة والولادة والسلف، يعرف بابن الحاج، وشهر الآن في غير بلده
بالنفيقي، وفي بلده بالمعرفة القديمة.

أوليته: قد تقدم اتصال نسبه بحارثة بن العباس بن مزداس، صاحب رسول
الله ﷺ، وأحد خطبائه وشعرائه، رئيس في الإسلام، ورئيس في الجاهلية. وكان
لسلفه، وخصوصاً لإبراهيم، من الشهرة بولاية الله، وإيجاب الحق من خلقه ما هو
مشهور، حسبما تنطق به الفهارس، يعضد هذا المجد من جهة الأمومة، كأبي بكر بن
صهيب، وابن عمه أبي إسحق، وغيرهم، الكثير ممن صنف في رجال الأندلس،
كأبي عبد المجيد المالقي، وابن الأبار، وابن طلحة، وابن فرثون، وابن صاحب
الصلاة، وابن الزبير، وابن عبد الملك، فليُنظر هناك.

حاله: نشأ ببلده ألمرية عمود العفة، فضفاض جلباب الصيانة، غضيض طرف
الحياء، نائي جنب السلام، حليف الانقباض والازورار، آوياً إلى خالص النشب
وبتخت الطعمة، لا يرى إلّا في منزل من سألّه، وفي خلق الأسانيد، أو في مسجد من
المساجد خارج المدينة المعدة للتعبّد، لا يجيء سرقاً، ولا مجمعاً، ولا وليمة، ولا
مجلس حاكم أو وال، ولا يلبس أمراً من الأمور التي جرت عادته أن يلبسها بوجه
من الوجوه. ثم ترامى إلى رحلة، فجاس خلال القطر الغربي إلى بجاية، نافضاً إياه
من العلماء والصلحاء والأدباء والآثار بتقييده، وأخذ قيام ذكر، وإغفال شهرة. ثم
صرف عنانه إلى الأندلس، فتصرف في الإقراء، والقضاء، والخطابة. وهو الآن نسيج

(١) ترجمة أبي البركات محمد بن محمد بن الحاج النفيقي في الكتبية الكامنة (ص ١٢٧) وتاريخ
قضاة الأندلس (ص ٢٠٢) ونفح الطيب (ج ٨ ص ١٦) وأزهار الرياض (ج ٤ ص ١٠٧)
والديباج المذهب (ص ١٦٤) والتعريف بابن خلدون (ص ٦١) وجدوة الاقتباس (ص ١٨٣)
والدرر الكامنة (ج ٤ ص ١٥٥)، وغاية النهاية (ج ٢ ص ٢٣٥).

(٢) نسبة إلى بلنفيق Vellefique وهي بلدة تابعة لمدينة ألمرية. الإحاطة (ج ٢ ص ١٤٣) حاشية رقم
١ بتحقيق عنان.

(٣) نسبة إلى مدينة ألمرية.

وَحْدِهِ فِي أَصَالَةِ عَرِيقَةٍ، وَسَجِيَّةٍ عَلَى السَّلَامَةِ مَفْطُورَةٍ، فَمَا شَتَّتْ مِنْ صَدْرِ سَلِيمٍ، وَعَقْدٍ وَثِيقٍ، وَغُورٍ قَرِيبٍ، وَنُصْحٍ مَبْذُولٍ، وَتَضُّعٍ مَرْفُوضٍ، وَنَفْسٍ سَادِجَةٍ، وَبَاطِنٍ مَسَاوٍ لِلظَّاهِرِ، وَدَمْعَةٍ سَرِيعَةٍ، وَهَزَلٍ يُثْمَرُ تَجَلَّةً، وَانْبِسَاطٍ يَفِيدُ حُسْنَ نِيَّةٍ، إِلَى حُسْنِ الْعَهْدِ، وَفَضْلِ الْمَشَارَكَةِ، وَرُقَّةِ الْحَاشِيَةِ، وَصِلَابَةِ الْعُودِ، وَصَدَقِ الْعَزِيمَةِ، وَقُوَّةِ الْحَامِيَةِ، وَبِلَاغَةِ الْمَوْعِظَةِ، وَجَلَّةِ الْوَقْتِ، وَفَائِدَةِ الْعَصْرِ، تَفَنُّنًا وَإِمْتِنَاعًا، فَارَسَ الْمَنَابِرَ غَيْرَ الْهَيَابَةِ، وَلَا الْجَزُوعِ، طُيَّبَ الثُّغْمَةُ بِالْقُرْآنِ، مُجَهَّشًا فِي مَجَالِ الرُّقَّةِ، كَثِيرَ الشَّفَقَةِ لِمَصَالِحِ الْعَامَةِ، مُتَأَسِّفًا لَضِياعِ الْأَوْقَاتِ، مُذْمَعًا عَلَى الْفَيْئَةِ، مُجَمِّمًا، مُخَوِّلًا فِي رِثَاسَةِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا. هَذَا مَا يُسَامِحُ فِيهِ الْإِيجَازُ، وَيَتَجَافَى عَنْهُ الْإِخْتِصَارُ، وَيَكْفِي فِيهِ الْإِلْمَاعُ وَالْإِشَارَةُ، أَبْقَى اللَّهُ شَيْخَنَا أَبَا الْبَرَكَاتِ.

مَشِيخَتُهُ وَوَلَايَتُهُ: تَقَدَّمَ قَاضِيًا بِقُنَالِش^(١)، فِي جُمَادَى الثَّانِيَةِ عَامَ خَمْسَةِ عَشَرَ وَسَبْعَ مِائَةٍ ثُمَّ وَلِّيَ مَرْبَلَةَ، وَإِسْتَبُونَةَ^(٢) ثُمَّ كَانَتْ رَحْلَتُهُ إِلَى بَجَايَةِ. ثُمَّ عَادَ فَقَعَدَ بِمَجْلِسِ الْإِقْرَاءِ مِنْ مَالِقَةِ لِلْكَلامِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ، مُتَّفَقًا عَلَى اضْطِلَاعِهِ بِذَلِكَ. ثُمَّ رَحَلَ إِلَى فَاسٍ. ثُمَّ آبَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، وَاسْتَقَرَّ بِبَلَدِهِ الْمَرِيَةِ، فَقَعَدَ بِمَسْجِدِهَا الْجَامِعِ لِلْإِقْرَاءِ، ثُمَّ قُدِّمَ قَاضِيًا بِبَرْجَةِ وَدَلَايَةِ، وَالْبِيْثُولِ^(٣) وَفَنِيَانَةَ^(٤)، ثُمَّ نَقَلَ عَنْهَا إِلَى بَيْرَةٍ، ثُمَّ غَرِبِي الْمَرِيَةِ. ثُمَّ قُدِّمَ قَاضِيًا بِمَالِقَةِ، ثُمَّ قُدِّمَ بِغَرِبِهَا مُضَافًا إِلَى الْخُطَابَةِ، ثُمَّ أُعِيدَ إِلَى قِضَاءِ الْمَرِيَةِ، بَعْدَ وَفَاةِ الْقَاضِي أَبِي مُحَمَّدٍ بْنِ الصَّائِغِ. وَمِنْ كِتَابِ «طُرْفَةِ الْعَصْرِ» مِنْ تَأْلِيفِنَا فِي خَبَرِ وَلَايَتِهِ مَا نَصَهُ:

فَتَقَلَّدَ الْحُكْمَ فِي الثَّالِثِ وَالْعِشْرِينَ لَشُعْبَانَ مِنْ عَامٍ سَبْعَةٍ^(٥) وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ، ثَالِثَ يَوْمٍ وَصَوْلَهُ مُسْتَدْعَى، وَانْتَابَهُ الطَّلِبَةُ وَوَجُوهُ الْحَضَرَةِ وَالْدَوْلَةِ، مَهْنَتَيْنِ بِمِثْوَاهِ مِنْ دَارِ الصِّيَانَةِ، وَمَحَلِ التَّجَلَّةِ، إِحْدَى دُورِ الْمُلُوكِ بِالْحَمْرَاءِ، فَطَفِقُوا يَغْشُونَهُ بِهَا زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانًا، فِي إِتَاحَةِ الْخَيْرِ، وَالْهَامِ السُّدَادِ، وَتَشْوِيعِ الْمَوْهَبَةِ. وَكَانَ وَصُولُهُ، وَالْأَفْقُ قَدْ اغْبَرَّ، وَالْأَرْضُ قَدْ اقْشَعَرَّتْ لَانْصِرَامِ حَظٍّ مِنْ أَيَّامِ الشِّتَاءِ الْمَوْافِقِ لَشَهْرِ وَلَايَتِهِ، لَمْ

(١) قُنَالِش: بَلَدَةٌ تَابِعَةٌ لِمَقَاطِعَةِ الْمَرِيَةِ، عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْ بَلْفِيقِ بَلَدِ الْمَتْرَجَمِ لَهُ أَبِي الْبَرَكَاتِ الْبَلْفِيقِي. الْإِحَاطَةُ (ج ٢ ص ١٤٥) حَاشِيَةٌ رَقْم ٢.

(٢) إِسْتَبُونَةُ أَوْ أَشْتَبُونَةُ: بِالْإِسْبَانِيَةِ Estepona، وَهِيَ بَلَدَةٌ تَقَعُ عَلَى الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ شِمَالِ جَبَلِ طَارِقِ. الْإِحَاطَةُ (ج ٢ ص ٢٤) حَاشِيَةٌ رَقْم ٣.

(٣) الْبِيْثُولُ: بِالْإِسْبَانِيَةِ Albinol، وَهِيَ بَلَدَةٌ تَابِعَةٌ لِمَقَاطِعَةِ مَالِقَةِ. الْإِحَاطَةُ (ج ٢ ص ١٤٥) حَاشِيَةٌ رَقْم ٦.

(٤) فَنِيَانَةُ Fināna: قَرْيَةٌ بِقَرَبِ وَادِي آشٍ مِنَ الْأَنْدَلُسِ، وَقِيلَ هِيَ حَضْنٌ. نَزْمَةُ الْمَشْتَقِ (ص ٥٦٧) وَالرُّوضُ الْمَعْطَارُ (ص ٤٤١).

(٥) فِي الْأَصْلِ: «سَبْعٌ» وَهُوَ خَطَأٌ نَحْوِي.

يَسِج فيه الغمام بقطرة، ولا لمعت السماء بنزعة، حتى أضرت الأنفس الشخ، وخسر العُسر عن ساقه، وتوقفت البذور، فساعده الجُدُ بنزول الرُحمة عند نزوله من مِرْقاة المنبر، مُجابه دعوة استسقاؤه، ظاهرة بركة خشوعه، ولذلك ما أنشدته في تلك الحال^(١): [الكامل]

ظَمِئْتُ إِلَى السُّقْيَا الْبَاطِحِ وَالرُّبَا حَتَّى دَعَوْنَا الْعَامَ عَامًا مُجَدِّبَا
وَالغَيْثُ مَسْدُولُ الْحِجَابِ وَإِنَّمَا عَلِمَ الْغَمَامُ قَدُومَكُمْ فَتَأَذَّبَا

وتولى النظر في الأحكام فأجال قداحها، مضطلعًا بأصالة النظر، وإرجاء المُشَبَّهات، وسلك في الخطابة طريقةً مثلى، يفرغ في قوالب البيان أغراضها، ويضرف على الأحكام الكواين والبساطات أساليبها، من المحاكاة، باختلاف القبض والبسط، والوعد والوعيد، حظوظها على مقبض العدل، وسبب الصواب يقوم على كثير مما يصدع به، من ذلك شاهد البديهة، ودليل الاستيعاب. قال شيخنا أبو البركات: ثم صُرِفَتْ عنها للسبب المتقدم، وبقيت مقيمًا بها، لما اشتهر من وقوع الوباء بالمرية، ثم أعدت إلى القضاء والخطابة بالمرية، وكتب بذلك في أوائل رجب عام تسعة وأربعين. وبقيت على ذلك إلى أن صُرِفَتْ بسبب ما ذكر. ثم أعدت إليها في أواخر رجب سنة ست وخمسين، عسى أن يكون الانقطاع لله سبحانه. فأنا الآن أتمثل بما قاله أبو مطرف^(٢) بن عميرة رحمه الله: [الخفيف]

قَدْ نُسَبْنَا إِلَى الْكِتَابَةِ يَوْمًا وَأَنْتَ^(٣) خُطَّةُ الْقَضَاءِ تَلِيهَا
وَبِكُلِّ لَمْ تُطِيقْ لِلْمَجْدِ إِلَّا مَنْزَلًا نَابِيًا وَعَيْشًا كَرِيهَا
نِسْبَةً بُدِّلَتْ فَلَمْ تَتَغَيَّرْ مِثْلُ مَا يَزَعُمُ الْمَهْنَدِسُ فِيهَا

بَدُلَ مِنْ لَفْظِ الْكِتَابَةِ إِلَى الْخُطَابَةِ. وأغرب ما رأيت ما أحكي لك، وأنت أعلم ببعض ذلك، أن أفضل ما صدر عني في ذلك، الخُطَّةُ من العمل الذي أخلصتُ لله فيه، ورجوت منه المثوبة عليه، وفيه مع ذلك مفتخر لمن أراد أن يفتخر غير مُلتفتٍ للدنيا، فعليه عوّلت سبحانه. انتهى كلامه.

تصانيفه: كتب إلي بخطه ما نصه، وهو فصل من فصول: وأما توالي في فأكثرها، أو كلها غير مُتَّمة، في مُبَيَّضَات. منها كتاب قد يَكْبُرُ الجواد في أربعين

(١) البيتان في نفع الطيب (ج ٨ ص ١٧).

(٢) هو أحمد بن عبد الله بن عميرة البلنسي، وقد تقدمت ترجمته في الجزء الأول من الإحاطة، ووردت آياته التالية هناك ببعض اختلاف عما هنا.

(٣) في الأصل: «ثم جاءت» وهكذا ينكسر الوزن.

غلطة عن أربعين من الثُّقَاد، وهو نوع من تَضْخِيف الحُفَاط للذَّارِقُطْنِي، منها «سَلْوَة الخاطر فيما أشكل من نِسْبة النُّسب الرُّتَب إلى الذَّاكِر». ومنها كتاب «قَدْر جَم في نظم الجُمَل». ومنها كتاب «خَطَر قَبْطَر، ونَظَر فَخْطَر، على تنبيهات على وثائق ابن قُتُوح». ومنها كتاب «الإفصاح فيمن عُرف بالأندلس بالصُّلاح». ومنها «حركة الدَّخُولِيَّة في المسألة المالقيَّة». ومنها «خَطَرَة المجلس في كلمة وَقَعَتْ في شعرِ استنصر به أهلُ الأندلس» جزء صغير. ومنها «تاريخ المَريَّة» غير تام. ومنها ديوان شعره المسمى بـ «العَذْب والأجاج في شعر أبي البركات ابن الحاج»^(١). ومختصره سَمَاء القاضِي الشَّريف «اللُّؤلؤ والمرجان، اللذان من العذب والأجاج يُسْتَخْرَجَان»^(٢). ومنها «عرائس بنات الخواطر المجلَّوة على مَنَصَّات المنابر» يحتوي على فصول الخطب التي أنشئت بطول بنى والخطابة. ومنها «المُؤْتَمَن على أنباء أبناء الزمن». ومنها تأليف في أسماء الكتب، والتعريف بمؤلفيها، على حروف المعجم. ومنها «ما اتفق لأبي البركات فيما يُشبه الكرامات». ومنها كتاب «ما رأيت وما رُئي لي من المقامات». ومنها كتاب «المرجع بالدرك على مَنْ أنكر وقوع المشترك». ومنها «مُشَبَّهَات اصطلاح العلوم». ومنها «ما كثر وروده في مجلس القضاء». ومنها «العَلَسِيَّات»، وهو ما صدر عني من الكلام على صحيح مُسَلَّم أيام التكلُّم عليه في التَّغْلِيْس. ومنها «الفصول والأبواب، في ذكر مَنْ أخذ عني من الشيوخ والأتباع والأصحاب».

ثم قال: وقد ذهب شَرَحُ الشُّبَاب ونشاطه، وتقطَّعت أوصاله، ورَّخِل رِباطه، وأصبحت النفس تنظر لهذا كله بعين الإمهال والإغفال، وقلة المبالاة التي لا يصل أحد بها إلى مَنال. وهذه الأعمال لا يُنَشِّط إليها إِلَّا المَحْرُكَات التي هي مفقودة عندي، أحدها طلبُة مجتمعون متعطِّشون إلى ما عندي، متشَوِّفون غاية التَّشَوِّف، وأين هذه بالمرية؟ الثاني، طلبُ رياسة على هذا، ومتى يرأس أحد بهذا اليوم، وعلى تقدير أن يرأس به وهو محالٌ في عادة هذا الوقت، فالتَّشَوِّف لهذه الرياسة مفقود عندي. الثالث، سلطانٌ يملأ يد مَنْ يُظْهَر مثل هذا، على يده غبطة، وما تم هذا. الرابع، نيَّة خالصة لوجه الله تعالى في الإفادة، وهذا أيضًا مفقود عندي، ولا بدَّ من الإنصاف. الخامس، قُضْدُ بقاء الذِّكْر، وهذا خيال ضعيف بعيد عني. السادس، الشفقة على شيء ابتدى، وسعي في تحصيل مبادئه، أن يضيع على قُطْع ما سوى هذا الإشفاق،

(١) في نفع الطيب (ج ٨ ص ١٩): «العذب والأجاج، من كلام أبي البركات ابن الحاج».

(٢) في المصدر نفسه: «اللؤلؤ والمرجان، من بحر أبي البركات ابن الحاج يستخرجان».

وهذا السادس، هو الذي في نفسي منه شيء، وبه أنا أقيد أسماء من لقيت، وما أخذت، ويكون إن شاء الله إبراز إذا الصحف نُشرت. وأكثر زماني يذهب في كيفية الخروج عما أنا فيه، فإذا يَنْظُرُ إليَّ العاقل في هذا الوقت بعين البصيرة، لا يسعه إلا الشفقة عليّ، والرحمة لي، فإنه يرى رجلاً مُطرقاً أكثر نهاره، ينظر إلى ماله، فلا ينشط إلى إصلاحه، وهو سابع ولا يلبس بالعبادة، وهو في زمانها المُقارب للفتوت، ولا ينهض إلى إقامة حق كما ينبغي لعدم المُعين، ولا ينجح إلى شيء من راحات الدنيا، ويشاهد من علوم الباطل الذي لا طاقة له على رفعه ما يُضيق صدر الحرّ يقضي نصف النهار، مُختلاً في مكان غير حَسَن، تارة يفكر، وتارة يكتب ما هو على يقين منه أنه كذا لا يُنتفع به، وينصف النهار يقعد للناس، تارة يرى ما يكره، وتارة يسمع ما يكره، لا صديق يُذكره بأمر الآخرة، ولا صديق يُسليه بأمر الدنيا، يكفيني من هذه الغزارة، اللهم إليك المشتكى يا من بيده الخلق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

شعره: من مَطَوَّلَاتِهِ فِي النَزْعَةِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي انْفَرَدَ بِهَا، مَنْقُولًا مِنْ دِيْوَانِهِ، قَالَ:
ومما نظمته بِسَبْتَةٍ فِي ذِي الْحِجَّةِ مِنْ عَامِ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ، فِي وَصْفِ
حَالِي، وَأَخَذَهَا عَنِّي الْأَسَازُ بِسَبْتَةٍ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هَانِي، وَالْأَدِيبُ الْبَارِعُ أَبُو الْقَاسِمِ
الْحُسَيْنِي، وَأَبُو الْقَاسِمِ بْنُ حَزْبِ اللَّهِ، وَسَوَاهِم. وَلَمَّا انْفَصَلْتُ مِنْ سَبْتَةٍ إِلَى بِلَادِ
الرَّيْفِ^(١) زِدْتُ عَلَيْهَا أَبْيَاتًا فِي أَوَّلِهَا، وَكَثُرَ ذَلِكَ بِوَادِي لَوْ مِنْ بِلَادِ الرَّيْفِ وَهِيَ:
[الطويل]

وكفكفتُ دمعًا حين لا عين تذرُفُ
ونادى بأُنْسٍ والمنازل تعنفُ
فألقيته ذِيَاكَ الَّذِي أَنَا أَغْرِفُ
سوى مَنْ لَهْ فِي مَازِقِ الْمَوْتِ مَوْقِفُ
وعالج نَفْسًا دَاوَاهَا يَتَضَاعَفُ
إِذِ الْهَمُّ يُشْقِيهِ أَوْ السَّرُّ يَنْزِفُ
وَإِنْ حَلَّتِ السَّرَاءُ لَا يَتَكَيَّفُ
فَوَادٍ، لِعَمْرِي، لَا يُرَى مِنْهُ أَطْرَفُ
بَنُوهُمْ وَأَهْلُهُمْ وَثَوْبٌ وَارْغَفُ

تأسفتُ لكن حين عزُّ التأسفُ
ورام سكونًا هو في رَجُلٍ طائر
أراقب قلبي مرةً بعد مرة
سقيمٌ ولكن لا يحسنُ بدائه
وجاذبٌ قَلْبًا ليس يَأْوِي لِمَآلِفِ
وَأَعْجَبُ مَا فِيهِ اسْتِواءُ صفاته
إِذَا حَلَّتِ الضَّرَاءُ لَمْ يَنْفَعِلْ لَهَا
مَذهِبُهُ لَمْ تُبْدِ غَايَةَ أَمْرِهِ
فَمَا أَنَا مِنْ قَوْمِ قُصَارَى هُمُومِهِمْ

(١) تقع بلاد الريف في المغرب الأقصى. الإحاطة (ج ٢ ص ١٥١) حاشية رقم ١.

ولا لي بالإسراف فكرٌ محدثٌ
ولا أنا ممن لهوهُ جلُّ شأنه
ولا أنا ممن أُنسَ غايَةُ المُنَى
ولا أنا ممن تَزدهيه مصانعُ
ولا أنا ممن همُّه جَمْعُها فإن
على أنْ دهري لم تَدع لي صُروفه
ولا أنا ممن هذه الدار همُّه
ولا أنا ممن للسؤال قد انبَرى
ولا أنا ممن نجح الله سَغيهم
فلا في هوى أضحى إلى اللهو قائدا
أحارب دهري في نقيض طباعه
وانظره شَرّاً بأضلف ناظر
وأضبطه ضَبْط المحدث صُخفه
وبأخذ مني كلَّ ما عزَّ نيله
أدور له في كل وَجِهٍ لعلني
ولما يئسنا منه تَهتأ ضرورة
تكلَّفْتُ قطع الأرض أطلب سَلوةً
وخاطرْتُ بالنفس العزيزة مُقدِّما
وصرَّفت نفسي في شؤون كثيرة
وخُضت لأنواع المعارف أبْحَرا
ولم أخل من تلك المعاني بطائل
وقد مرَّ من عمري الألدُّ وها أنا
وإني على ما قد بقي منه إن بقي
أعدُّ ليالي العمر والفرض صُومها
على أنها إن سلَّمت جَدِيلةٌ
تُحدثني الآمال وهي كدينها
بأنِّي في الدُّنيا سأقضي ما ربي
وتلك أمان لا حقيقة عندها

سيغدو حبيبي أو سيَشعرُ مُطرف
بروض أنيق أو غزال مُهْفَهِف
بصوت رخيم أو نديم وقَرْقَف
ويُسبِّيه بُستان ويلهيه مُخَرَّف
تراث يثب بسُغي لها وهو مُرْجَف
من المال إلا مَسْحَة أو مجلف
وقد عَرَّه منها جمالٌ وزُخْرُف
ولا أنا ممن صان عنه التَّعَطَف
فهَمَّتْهم فيها مُضَلَّى ومُضْحَف
ولا في تُقى أُنسى إلى الله يَزْلِف
وحزبك من يقضي عليك تَعَجُرف
فيعرض عني وهو أزهى وأضلف
فيخرج في التَّوَقُّع أنت المُضْحِف
ويبدو بجهلي منه في الأخذ مُخْتَف
سأثبتته وهو الذي ظلَّ يحذف
فلم تَبق لي فيها عليه تشوُّف
لنفسي فما أجدى بتلك التَّكْلَف
إذا ما تخطى النُّضْلُ قصد مُزْهَف
لحظي فلم يظفر بذاك التَّصَرُّف
ففي الحين ما استجرتُها وهي تَتَرَف
وإن كان أهلوها أطلوا وأسَرَفوا
على ما مضى من عَهْدِه أتلُف
لحرمة ما قد ضاع لي أتخوِّف
وحسبك من قُرض المُحال تَعَسُف
تعارض آمالاً عليها يُنَيِّف
تَبْدُل في تَحْدِيثِها وتُحَرِّف
وبغد بحقُّ الزهد لي والتَّقشُّف
أفي قُرْني الضُّدين يبقى التَّكْلَف؟

وربّ أخلأء شكوت إليهم
فبعضهم يُزري عليّ وبعضهم
وبعضهم يومي إليّ تعجباً
وبعضهم يُلقي جوابه على
يسيء استماعاً ثم يُعِدُّ إجابة
ولا هو يبدي لي عليّ تعقلاً
وما أفرّنا إلا سواءً إنما
فلو قد فرّغنا من علاج نفوسنا
أما لهم من علة أزمّت بهم
وحضنا لهم في الكُتب عن كُنه أمرهم
وصنّفنا في الآفات كلّ غريبة
وليس عجيباً من تركّب جهلهم
إذا جاءنا بالسُّخف من نزو عقله
فما جاءنا إلا بأمرٍ مناسب
ولكن عجيبُ الأمر علمي وغفّلي
إلا أنها الأقدار يظهرُ سرّها
أيا ربّ إن اللب طاش بما جرى
وإنّا لندعوهم ونخشى وإنما
أقول وفي أثناء ما أنا قائلٌ
وإني مع الساعات كيف تقلّبت
وما جرّ ذا التّسويق إلا شيبتي
إذا جاء يومٌ قلتُ هو الذي يلي
أقدم رجلاً عند تأخير أختيها
كأنّي لداني المراقدة منهم
وهبني أعيش هل إذا شاب مفرقي
وكيف ويستدعي الطريق رياضةً

ولكن لفهم الحال إذ ذاك لم يَفُوا^(١)
يغضّ وبعض يرثي ثم يصدّف
وبعض بما قد رأيتَه يتوقّف
مُقْتَضَى العقل الذي عنه يتوقّف
على غير ما تحدّوه يحذرو ويخفف
ولا هو يرثي لي ولا هو يغنيف
عرفنا وكلّ منهم ليس يعرف
وحطّوا الدنية من عليل وأنصفوا^(٢)
ولم يعرفوا أغوارها وهي تثلّف؟
ومثلي عن تلك الحقائق يكشفُ
فجاء كما يهوى الغريب المصنّف
فإن يخرجوا عن مثل ذاك وصرفوا^(٣)
إذا ما مثّلناه أزهى وأنسخف
أينهض عن كفّ الجبان المثقّف؟
فديتكم أيّ المحاسن أكتشف
إذا ما وقى المقدور فالرأي يخلف
به قلم الأقدار والقلب يزجف
على رسمك الشرعي من لك يغكف
رأيتُ المنايا وهي لي تتخطّف
لأنهمها إن فوقت متهدّف
تخيّل لي طول المدى فأسوف
ووقتك في الدنيا جليس مخفّف
إذا لاح شمس فالنفس تكسف
ولم أودعهم والخض ريان ينسف
وولّى شبابي هل يُباح التّشوّف؟
وتلك على عصر الشباب تُوظف

(١) في الأصل: «يفّ».

(٣) في الأصل: «وصرف».

(٢) في الأصل: «وأنصف».

متى يقبل التَّقْوِيم غير عطوفة
ولو لم يسكن إلا ظهورة سره
أمولى الأسارى أنت أولى بعذرهم
قدفنا بلج البحر والقيد أخذ
وفي الكون من سر الوجود عجائب
وكعفت عليهم نكشة فتأخروا
فليس لنا إلا أن نحط رقابنا
فهذا سبيل ليس للعبد غيرها

وبى بَعْدَه حَسَان^(١) فالنار تَنَسِيف؟
إذا ما دنا التُدْلِيس هان التَنَطُّف
وأنت على المملوك أحق وأعطف
بأزجلنا والريح بالموج تعصف
أطل عليها العارفون وأشرفوا^(٢)
ودذت بأن القوم بالكل أسعف
بأبواب الاستسلام والله يَلُطَف
وإلا فماذا يستطيع المُكَلَّف

وقال: وضمنها محاوراة بينه وبين نفسه، وقيدتها عنه زوال يوم الثلاثاء التاسع والعشرين لمحرم خمس وخمسين وسبعمائة، برابطة العقاب^(٣)، متعبد الشيخ ولي الله أبى إسحق الإلبيري، رحمه الله، فمنها^(٤): [الكامل]

يَأبى شجونَ حديثي الإفصاح
قالت صفيه إذ مررت^(٥) بها
فأجبتُها لولا الرقيبُ لكان لي^(٦)
قالت: وهل في الحيّ حيّ غيرنا؟
فأجبتها: إنَّ الرقيبَ هو الذي^(٧)
وهو الشهيد على مواردِ عبده
قالت وأين يكون جُود^(٨) الله إذ
فافرَحَ بإذن^(٩) الله جلّ جلاله

إذ لا تقومُ بشرجه الأواخ
أفلا تُنزلُ ساعةَ ترتاح؟
ما تَبْتَغِي بَعْدَ العُدُوِّ رواح
فاسمخْ قَدَيْتُكَ فالسماخ رياخ
بسيّدته مئنا هذه الأرواح
سيان ما الإخفاء والإفصاح^(١٠)
يُخْشى^(١١) ومنه هذه الأفراح
واشطخْ فَنُشْوانُ الهوى شطّاح

(١) في الأصل: «بعد حنا» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «وأشرف».

(٣) هي رابطة العقاب أو رباط العقاب، كانت تخصص للعبادة، وكانت على مقربة من مدينة غرناطة. الإحاطة (ج ٢ ص ١٥٥) حاشية رقم ٤ من تعليق الأستاذ محمد عبد الله عنان.

(٤) القصيدة في الكتيبة الكامنة (ص ١٢٨ - ١٢٩).

(٥) في الكتيبة: «... صفيه عندما مرّت بها إبلي أتزل...».

(٦) في الكتيبة: «في». (٧) في الكتيبة: «الرقيب هو إلك».

(٨) في الكتيبة: «والإيضاح».

(٩) في الأصل: «وجود» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة الكامنة.

(١٠) في الأصل: «تخشى» والتصويب من الكتيبة.

(١١) في الكتيبة: «فافرح على اسم الله».

وانهيج^(١) على ذم الرجال ولا تحف
وانزل على حكم السرور ولا تبلى
واخلع عذارك في الخلاعة يا أخي
وانظر إلى هذا النهار فسئله
أنواره ضحكك^(٢) وأثرع كأسه
وانظر إلى الدنيا بنظرة رحمة
فأجبتها لو كنت تعلم^(٣) ما الذي
من كل معنى غامض من أجله
حتى لقد سكرنا من الأمر الذي
لعدزتي وعلمت أني طالب
فاترك صفئك قارعاً باب الرضى
يا حي^(٤)، حي على الفلاح وخلني

فالحكم^(٥) رخب والنوال مباح
فالوقت صاف ما عليك جناح
باسم الذي دارت به الأقداح
ضحكت ونور جبينه وضاح
فقد استوى ريحائه والراح
فجفاؤها بوفائها يثزاح
يبدو لتاركها وما يلتاح
قد ساح قوم في الجبال وناحوا^(٦)
هاموا به عند العيان فباحوا^(٧)
ما الزهد في الدنيا له مفتاح
والله جل جلاله الفتحاح
فجماعتي حثوا المظي وراخوا^(٨)

وقيدت من خطه في جملة ما كتب إلي ما نصه:

ومما نظمته بغرناطة، وبعضه بيزجة، وهو مما يعجبني، وأظنه كتبه لك، وهو
غريب المنزع، وإنه لكما، قال^(٩): [الكامل]

خُذْهَا عَلَى رَغْمِ الْفَقِيهِ سُلَافَةً
أَبْدَى أَطْبَاءِ الْقُلُوبِ لِأَهْلِهَا
وَإِذَا الْمَرَّاثِي^(١٠) قَالَ فِي نَشْوَانِهَا
يَا قُوْتَةَ^(١١) دَارَتْ عَلَى أَرْيَابِهَا
مُزِجَتْ فِغَارِ الشَّيْخِ مِنْ تَرْكِيبِهَا
فَبَدَتْ^(١٢) فِغَارِ الشَّيْخِ مِنْ إِظْهَارِهَا

تُجَلَى بِهَا الْأَقْمَارُ فِي شَمْسِ الضُّحَى
مِنْهَا شَرَابًا لِلنَّفْسِ مُبَرِّحًا^(١٣)
قُلْ أَنْتَ بِالْإِخْلَاصِ فَيَمْنٌ قَدْ صَحَا
فَاهْتَزَّتِ الْأَقْدَامُ مِنْهَا وَاللِّحَا
فَلِذَاكَ جَرَّدَهَا وَصَاحَ وَسَرَّحًا^(١٤)
فَاشْتَدَّ يَبْتَدِرُ الْحِجَابَ مُلَوِّحًا

(١) في الكتيبة: «وارهيج».

(٢) في الكتيبة: «تَفَحَّتْ».

(٣) في الأصل: «وتأخ» والتصويب من الكتيبة.

(٤) في الكتيبة: «يا أخث».

(٥) القصيدة في الكتيبة الكامنة (ص ١٢٩ - ١٣٠). (١٠) في الكتيبة: «مفرحاً».

(١١) في الأصل: «وإذا امرؤ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

(١٢) في الكتيبة: «يا قهوة».

(١٣) في الكتيبة: «وَصَرَّحًا».

(١٤) في الكتيبة: «وَصَرَّحًا».

(٦) في الكتيبة: «فالحلم».

(٧) في الكتيبة: «كنت عالمة الذي».

(٨) في الأصل: «وساخ» والتصويب من الكتيبة.

لا تعترض أبداً على مُسْتَرْفِد^(١) وكذا لا تَغْتَبِ على مُسْتَهْتَر سكرانٌ يعثرُ في ذبول لسانه كَتَمَ الهوى حريّة^(٢) بعضٌ وبعـ لا تخشين^(٣) على العدالة هاتفاً الحبُّ خمُرُ العارفين قد ضَفَّتْ^(٤) فاشطخ على هذا الوجود وأهله كَبُرَ عليهم إنهم موتى على واهزأ بهم فمتى يَقُلْ نُصْحَاؤُهُمْ وإذا أَرِيْبُهُمْ^(٥) استخفَّ فُؤْلُ له أبني سُلَيْمٍ قد نجا مجنونكم هل يستوي من لم يَبُخْ بحبيبه فافرخ وطب وابهج^(٦) وقل ما شئت^(٧)

قد غار من أسرارها أن يُفَضِّحاً^(٨) لم يدر ما الإيضاح لما أوضحا كُفْراً وبحسب أنه قد سُبِّحا ضُ ضاق دَزَعاً بالغرام فبرحاً ثغر^(٩) ارتياح العاشقين فجرحاً^(١٠) حتماً على مَنْ ذاقها أن يَشْطَحَا عَجَباً فليس براجع من رَجَّحَا غير الشهادة ما أَعْرَ وأقبحا أهج^(١١) فقل حتى ألاقى مُفْلِحَا بالله يا يحيى بن يحيى دَغْ جحا مجنون ليلى العارفين^(١٢) به قد محا مَعْ مَنْ بِذِكْرِ حبيبه قد أَفْضَحَا^(١٣) ما أَمْلَحَ الفقراء يا ما أَمْلَحَا

ومن مقطوعاته التي هي آيات العجائب، وطرزُ حُلل البدائع في شتى الأغراض والمقاصد، قوله يعتذر لبعض الطلبة، وقد استدبره ببعض حُلُق العلم بسببته^(١٤) :
[السريع]

إن كنتُ أَبْصَرْتُكَ لا أَبْصَرْتُ بصيرتي في الحق بُرْهَانُهَا
لا غَرَوْ أَنِي لَمْ أَشَاهِدْكُمْ فالعين لا تُبْصِرُ إِنْسَانُهَا^(١٥)

- (١) في الكتيبة: «مستهر».
(٢) في الأصل: «كَمَ الهوى حرب...» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
(٣) في الكتيبة: «لا تحسبن».
(٤) في الكتيبة: «مُفْرَحَا».
(٥) في الكتيبة: «أفلح».
(٦) في الكتيبة: «العامرية».
(٧) في الكتيبة: «وارهج».
(٨) في الكتيبة: «شئت» والتصويب من الكتيبة.
(٩) في الكتيبة: «وإذا رزيتهم استخفك...».
(١٠) في الكتيبة: «صرحاً».
(١١) في الأصل: «شئت» والتصويب من الكتيبة.
(١٢) في الكتيبة: «وإذا رزيتهم استخفك...» ونفع الطيب (ج ٨ ص ٢٦).
(١٣) في الكتيبة: «وإذا رزيتهم استخفك...» ونفع الطيب (ج ٨ ص ٢٦).
(١٤) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ١٣١) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ٢٠٦) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٢٦).
(١٥) إنسان العين: يؤيؤها، لسان العرب (أنس).

ومنها قوله في غرض التورية، وهو بديع في معناه^(١): [الطويل]

يلومونني بعد العذار على الهوى ومثلي في وجدي^(٢) له لا يُفند^(٣)
يقولون^(٤) أمسك عنه قد ذهب الصبا وكيف يرى^(٥) الإمساك والخيط أسود؟^(٦)

ومنها قوله في المُجَنَّبَات، وهو من الغريب البديع^(٧): [الطويل]

ومُضَفَّرَةُ الخَاضِينَ مطوية الحشا على^(٨) الجبن والمُضَفَّرُ يؤذن بالخوف
لها هيئة^(٩) كالشمس عند طلوعها ولكنها في الحين تغرب في الجوف

ومنها قوله في النصح، ولها حكاية تقتضي ذلك: [الكامل]

لا تَبْذُلَنَّ نصيحة إلا لمن تلقى لبذل النصح منه قبولا
فالنصح إن وجد القبول فضيلة ويكون إن عديم القبول فضولا
ومنها في الحكم^(١٠): [الخفيف]

ما رأيت الهموم تَدْخُلُ إلا من دروب العيون والآذان
غَضَ طَرْقًا ومُدَّ سَمْعًا ومهما^(١١) تَلَقَّ هُمًا فلا تُثِقْ بضممان

ومنها قوله، وهو من المعاني المبتكرات^(١٢): [الكامل]

حَزَنْتُ عَلَيْكَ الْعَيْنُ يَا مَغْنَى الْهَوَى فالدمع منها بَعْدَ بُعْدِكَ مَا رَقَا^(١٣)

(١) البيتان في الكتيبة (ص ١٣١) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ٢٠٦) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٢٣).

(٢) في الكتيبة وتاريخ قضاة الأندلس: «جبي». (٣) يُفْنَدُ: يُتَّهَمُ بالكذب. لسان العرب (فند).

(٤) في الأصل: «يقولون لي أمسك...». وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصادر.

(٥) في المصادر: «أرى».

(٦) في البيت تورية؛ فالإمساك يطلق على الصوم، وأراد هنا الكَفَّ عن الحب. والخيط الأسود يطلق على الليل، وأراد العذار، وفي التنزيل الكريم: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾. سورة البقرة ٢، الآية ١٨٧.

(٧) البيتان في الكتيبة (ص ١٣١)، وتاريخ قضاة الأندلس (ص ٢٠٥)، ونفع الطيب (ج ٨ ص ٢٣).

(٨) في الكتيبة: «عن».

(٩) في الكتيبة وتاريخ قضاة الأندلس ونفع الطيب: «بَهَجَةٌ».

(١٠) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ١٣٢).

(١١) في الكتيبة: «... سمعًا وإن أحسست هُمًا...».

(١٢) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ١٣٢ - ١٣٣) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٢٧).

(١٣) أصل القول: «رقا»، وقد أسقط الهمزة للضرورة الشعرية؛ يقال: رقا الدمع إذا جف. لسان العرب (رقا).

ولذلك قد^(١) صُبِغَتْ^(٢) بلونِ أزرقٍ أو ما ترى ثوبَ المآتمِ أزرقاً؟

ومنها قوله في المعاني الغربية. قال: ومما نظمته في عام أربعة وأربعين في التفكير في المعاني، مُغلق العينين: [السريع]

أبحث فيما أنا خَصْلُثُهُ عند انغماض العين في جَفْنِهَا
أخسبُني كالشاة مجترّة تمضغ ما يخرج من بَطْنِهَا

وقال: ومما نظمته بين أندرش وبرجة^(٣) عام أربعة وأربعين، وأنا راكب مسافر، وهو مما يُعجبني، إذ ليس كل ما يصدر عني يُعجبني. قلتُ ويحقُّ أن يعجبه^(٤): [الطويل]

تطالبني نفسي بما ليس لي به يَدَانِ^(٥) فأعطيها الأمان^(٦) فَتَقَبَّلُ
عجبتُ لخَصْمٍ لَجَّ في طلباته يصلحُ عنها^(٧) بالمحال فيفصلُ

[قال: ومما نظمته في الستة المذكورة من ذم النساء]^(٨): [الخفيف]

ما رأيتُ النساءَ يَصْلُحْنَ إلّا للذي يَصْلُحُ الكنيف لأجْلِه^(٩)
فعلى هذه الشريطة صالح^(١٠) هُنَّ لا تَعْدُ بامرئٍ عن محلّة

قال: ومما نظمته في الستة المذكورة^(١١): [الخفيف]

قد هجرتُ^(١٢) النساءَ دهرًا فلم أبْدِ لِمَنْ أذاني^(١٣) صفاتِهِنَّ الذميمة
ما عسى أن يُقال في هجو مَنْ قد خَصَّه المصطفى بأقبح شيمة
أو يبقى لناقص^(١٤) العقلِ والذِّيرِ من إذا عُذَّتِ المثالبُ قيمة؟

وقال: وما نظمته في تاريخ لا أذكره الآن، هذان البيتان، ولم أر معناهما لمن مضى. ولو رحل رجل إلى خراسان، ولم يأت إلا بهما، كان ممن لم يخفق

(١) في الكنية: «ما».

(٢) في النفع: «ظهرت».

(٣) أندرش وبرجة كانتا في عهد ابن الخطيب تابعتين لمقاطعة ألمرية.

(٤) البيتان في الكنية الكامنة (ص ١٢٣) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٢٦).

(٥) ليس لي به يدان: ليس لي عليه قدرة. (٦) في الكنية: «وأعطيها الأمان».

(٧) في الكنية: «عنه». (٨) البيتان في الكنية الكامنة (ص ١٢٣).

(٩) في الأصل: «من أجله» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب في الكنية الكامنة.

(١٠) في الكنية: «فأصحبهن». (١١) الأبيات في الكنية الكامنة (ص ١٢٣).

(١٢) في الكنية: «قد هجوت».

(١٣) في الأصل: «أذاني» وهكذا ينكسر الوزن. وفي الكنية الكامنة: «أذاني» بدال غير معجمة.

(١٤) في الأصل: «لنا قِصر» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكنية الكامنة.

مسعاه، ولا أجذب مرعاه، يَنْفَتَحُ بهما للقلب باب من الراحة فسيح، إذا أجهده ما يكابد من المضاضة، ونَقَضَ العهد، واختلاف الوعود. وهذه المحنة من شر ما ابتلي به بنو آدم، شَنْشَنَة نعرفها من أمرهم. ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي^(١). [الطويل]

رعى الله إخوان الخيانة إنهم كَفَوْنَا مؤونات البقاء^(٢) على العهد
فلو^(٣) قد وَقَوْا كُنَّا^(٤) أسارى حُقُوقهم نراوح ما^(٥) بين النسيئة والنقد

وقال يُداعِبُنِي، وعلى سبيل الكناية يخاطبني: ولقد لقيت رجلاً ببلاد الهند يعرف بأبي البركات ابن الحاج، وكان برد في بستان كان له، فقلت أهجوه عام أربعة وأربعين وسبعمئة: [الكامل]

قالوا أبو البركات جَمَّ^(٦) ماؤه فغدا أبو البركات لا البركات^(٧)
قُلْنَا لَأَنْ يُكْنَى بموجوداته أولى مِنْ أَنْ يُكْنَى بمغذومات
ومما نظمته عام خمسة وأربعين وسبعمئة^(٨): [السريع]

قد كنتُ معذورًا بعلمي وما أبثُ من وعظي بين البشر^(٩)
من حيث قد أملتُ إصلاحهم بالوعظ والعلم فخان النطر
فلم أجد أوعظ للناس من أصوات وُعَاظِ جلود البقر

ومما نظمته بمرسى تلهي، من بلد هُنين^(١٠)، عام ثلاثة وخمسين، وقد أصابني هَوَسٌ في البحر وخاطبت به بعض الأصحاب: [الكامل]

رأسي به هَوَسٌ جديد لا الذي تَذْريه من هَوَسٍ قديم فيه
قد حلَّ ما أبديه من هذا كما قد حلَّ من ذاك الذي أخفيه

(١) البيتان في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢٠٥) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٢٦).

(٢) في الأصل: «البقاء» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين السابقين.

(٣) في تاريخ قضاة الأندلس: «ولو قريوا كئا...».

(٤) في النسخ: «كانوا».

(٥) كلمة «ما» ساقطة في الأصل، وهكذا ينكسر الوزن، وقد أضفناها من المصدرين السابقين.

(٦) جَمَّ ماؤه: كثر واجتمع. محيط المحيط (ج ١).

(٧) في الأصل: «لا أبا البركات» وهكذا ينكسر الوزن.

(٨) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ١٣٣ - ١٣٤).

(٩) في الكتيبة: «... مغرورًا بوعظي وما... علمي بين...».

(١٠) هونين: بلد في جبال عاملة في جنوب لبنان. معجم البلدان (ج ٥ ص ٤٢٠).

ومن الملح قوله: قال: وبث بحمام الخندق من داخل ألمرية ليلة الجمعة الثامن من شهر محرم عام اثنين وثلاثين منفردًا، فطفيء المصباح، وبقيت مفكرًا، فخطر ببالي ما يقول الناس من تخيل الجن في الأرحاء والحمامات، وعدم إقدام كافة الناس إلا ما شذ عند دخولها منفردين بالليل، لا سيما في الظلام، واستشعرت قوة في نفسي عند ذلك، أعراض وأوهام، فقلت مرتجلًا، رافعًا بذلك صوتي: [الكامل]

زعم الذين عقولهم قذرهما	إن عرّضت للبيع غير ثمين
أن الرّحما معمورة بالجن والـ	حمام عندهم كذا بيقين
إن كان ما قالوه حقًا فاحضروا	للحرب هذا اليوم من صيفين
فلئن حضرتم فاعلموا بحقيقة	بأنى مصارع قيس المجنون

قال: ودخلت رياضًا يومًا، فوجدت كساء منشورًا للشمس لم أعرفه من حوائجي، ولا من حوائج حارسة البستان، فسألتها فقالت: هو لجارتي، فقلت: [الكامل]

من مُصنفي من جارتي جارت على	مالي كأي كنه من أعدائها
عمدت إلى الشمس التي انتشرت على	أرضي وأمت فيه بنس كسائها
لولا غيوم يوم تئبس الكسا	سرّ لحجب الشخب جل ضيائها
لقضيت منهم الخسار لأنني	أصبخت موزورًا على بخلائها

قلت: وصرت إلى مغنى بحمة بجانة^(١)، وسار معي كلب كان يحرس رياضي اسمه قطمير، وهو، فيما يُذكر، كلب أهل الكهف، في بعض الأقوال، فتبعني من ألمرية إلى الحمة، ثم من الحمة إلى ألمرية، فقلت: [المقارب]

رحلت وقطمير كلبى رفيقى	يونس قلبى بطول الطريق
فلما أنخث أناخ حذائي	بلا حظني لحظ خل شفيقي
ويرعى أذمة رفيقى كما	يتغنى الصديق الصدوق
على حين قومي بني آدم	بلؤمهم لم يوقوا حقوقي
ولا فرق بين الأباعد منهم	وبين أخ منشحب شفيقي
أو ابن متى تلقاه تلقه	هوئى اشتياق بقلب خفوق

(١) بجانة: بالإسبانية Pechina، وهي مدينة بالاندلس، وخمة بجانة عجيبة الشأن، تقع في جبل شامخ يبعد عن بجانة ثلاثة أميال. الروض المعطار (ص ٧٩).

فما منهم من وليّ حميم ولا ذي إخاء صحيح حقيق
وناهيك ممن يُفضّل كلبًا عليهم فيا ويلهم من رفيق
ألا من يرقّ لشيخ غريب أبي البركات الفتى البلفيق

وقال: ومما نظمته بتاريخ لا أذكره هذين البيتين^(١): [الطويل]

وإني لخير^(٢) من زمانى وأهله على أننى للشّرّ أوّل سائق^(٣)
لحى الله دهرًا قد تقدّمتُ أهله فتلك لعمرُ الله إحدى البوائق

ومن النزعات الشاذة الأغراض: [البسيط]

لا بارك الله في الزُّهاد إنهم لم يتركوا عرض الدنيا لفضلهم
بل أثقلتهم تكاليف الحياة فلم يُصايروها فملّوا ثقل حملهم
وعظم الناس منهم تركها فغدوا من غبطة التّرك في حرص لأجلهم
نعم أسلم أن القوم إذ زهدوا زادوا وأعلى الناس طرًا فضل تركهم
من حيث قد أحرزوا التّرجيح دونهم لا شيء أبين من ترجيح فضلهم
فالمال والجود والراحات غاية ما يحكي لنا الزهد في ذاعن أجّلهم
والزاهدون براحات القلوب مع الـ أبدان سُروا وعزّوا بعد ذلّهم
فكل ما فرّقوا قد حصلوا غرضًا منه وزادوا ثناء الناس كلّهم

قال: ومما نظمته عام أربعين في ذم الخمر من جهة الدنيا، لا من جهة الدين،

إذ ليس بغريب: [الطويل]

لقد ذمّ بعض الخمر قومٌ لأنها تُكرّ على دين الفتى بفساد
وقد سلّموا قول الذي قال إنها تحلّ من الدنيا بأعظم ناد
وتذهب بالمال العظيم فلن ترى لمُذمّنها من طارف وتلاد
فيُمسي كريمًا سيّدًا ثم يَغتدي سفيها حليف الغي بعد رشاد
وقالوا: تسلى وهو عارية لها وإلا فلم يأتوا لذاك بشاد
وصيل^(٤) ونورٌ وحسناء طفلة ومزأى به للطريف سير جواد

(١) البيتان في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢٠٦).

(٢) في الأصل: «وإين الخير» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من تاريخ قضاة الأندلس.

(٣) في الأصل: «سابق»: والتصويب من تاريخ قضاة الأندلس.

(٤) أصل القول: «وصلة» وهكذا ينكسر الوزن.

وهلّا^(١) يُداوى من مرارتها التي
ولو أُشرب الإنسان مهلاً بهذه
ومن حُسن حال الشاربين يُقيّو
ومن حُسن ذا المحروم أن مُدامه
فيختلف النُدمان طراً لروحه
ومن حُسنه بين الورى ضربُ ظهره
مجانين في الأوهام قد ضلّ سعيهم
وأخراها مقرونة بمهاد؟
لأصبح مسروراً باطيب زاد
نها بالرغم من برقي وساد^(٢)
إذا غلبت تكسوه ثوب رقاد
ويحدوهم نحو المروءة حادي
فيُمسي بلا حرب رهين جِلاذ
يخففون بيعاً بحسن غواد

ومن نظمه في الإنحاء على نفسه، واستيعاد وجوه المطالب في جنسه، بما
نظمته يوم عرفة عام خمسين^(٣) وأنا مُنْزَوٍ في غارٍ ببعض جبال المريّة^(٤) :
[الخفيف]

زعموا أن في الجبال رجلاً^(٥)
وَادَّعُوا أَنْ كُلُّ مَنْ سَاخَ فِيهَا
فاخترقنا تلك الجبال مراراً
ما رأينا فيها سوي^(٦) الأفاعي
وسباعاً يخجرون^(٧) بالليل عذواً
وَلَوْ أَنَّا^(٨) لَدَى الْعُدُوَّةِ الْآخِ
وإذا أظلم الدُّجى جاء إبلى
صالحينا^(٩) قالوا من الأبدالِ
فَسَيَلِقَاهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ
بِنَعَالٍ طَوْرًا وَدُونَ نَعَالٍ
وَشَبَا^(١٠) عَقْرِبَ كَمَثَلِ النَّبَالِ
لا تسلني عنهم بتلك الليالي^(١١)
رى رأينا نواجذَ الرُّبَالِ^(١٢)
س إلينا يزور طَيْفُ الْخِيَالِ^(١٣)

- (١) أصل القول: «وهل» وهكذا ينكسر الوزن.
(٢) هكذا ورد عجز هذا البيت، وهو منكسر الوزن.
(٣) يعني عام خمسين وسبعمئة كما في نفع الطيب (ج ٨ ص ١٨).
(٤) القصيدة في نفع الطيب (ج ٨ ص ١٨).
(٥) في الأصل: «قومًا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.
(٦) في الأصل والنفع: «صالحين» وهكذا ينكسر الوزن.
(٧) في النفع: «خلاف».
(٨) شبا العقرب: إبرتها التي تلدغ بها، واحدها شبة. محيط المحيط (شبا).
(٩) في الأصل: «يخجرون» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.
(١٠) في الأصل: «الفيال» والتصويب من النفع.
(١١) في الأصل: «ولو كنا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.
(١٢) الرُّبَال: الأسد، ونواجذه: أنيابه، واحدها ناجد. محيط المحيط (رأبل) و(نجد).
(١٣) في النفع: «خيال».

هو كان الأنيسَ فيها ولولا هـ أصيبت عقولنا بالخبال^(١)
 خلّ عنك المحالّ يا من تعنى ليس يلقى^(٢) الرجال غير الرجال
 قال: ومن المنازع الغريبة ذمّ الأصحاب ومدح الأعداء، فمن ذلك قولي:
 [المتقارب]

جزى الله بالخير أعداءنا	فموردهم أئسى المصـ
هم حمّلونا على العُرف كرها	وهم صرّفونا عن المُنكر
وهم أقعدونا بمجلس حُكم	وهم بوؤونا ذرى المـ
وهم صيّرونا أئمة علم	ودين وحسبك من مـ
عدوي بأول فدي مائـ	وإن جنت بالإثم لم يغـ
وأنت ترى تمحيص من يغـ	ل بين المـ وبين البري ^(٣)
ولا زود الله أصحابنا	بزاد تقي ولا خـ
هم جرّونا على كل إثم	وما كنت لولاهم بالمـ
وعدوا من أكبار آثامنا	فكانوا أضـ من الفـ
أعارني القوم ثوب الثقى	واني مما أعاروني بري
إذا خدعوني ولم ينصـ	واني بالشـصـ منهم خـ
فمن كان يكذب حال الرضى	ينصـ في غضـ يفتـ
بلى سوف تلقى لدى الحالـ	يحكم النفس هوى الفـ
فيارب أبق علينا عقولنا	نبيع بها وبها نشـ

قال: وما رأيت هذا المعنى قط لأحد، ثم رأيت بعد ذلك لبعضهم ما معناه:
 [الطويل]

عداتي لهم فضل عليّ ومئة	فلا أذهب الرحمن عني الأعاديا
هم بحثوا عن زلتى فاجتنبتـ	وهم نأفـوني فاكتسبتـ المعاليا

فوقع حافري على ساق هذا. قال: ومما نظمته، متخيلاً أني سابق معناه:
 [الوافر]

خلّسنا ليلة من كف دهر	ضنين بالليالي الطيبات
-----------------------	-----------------------

(١) الخبال: الجنون. لسان العرب (خل). (٢) في الأصل: «تلقى» والتصويب من النفع.
 (٣) في الأصل: «البر». والبري: أصلها: البري، وقد حذفت الهمزة للضرورة الشعرية.

سَلَكْنَا لِلْهَوَى وَالْعَقْلِ فِيهَا مَسَالِكَ قَدْ جُلِينَ عَلَى الشَّتَابِ
قَضَيْنَا بَعْضَ حَقِّ النَّفْسِ فِيهَا وَحَقُّ اللَّهِ مَرَعِي الثُّبَاتِ
فَلَمْ نَرِ قَبْلَهُ فِي الدَّهْرِ وَقْتًا بَدَتْ حَسَنَاتُهُ فِي السَّيِّئَاتِ

ثم رأيت بعد ذلك على هذا: [مخلع البسيط]

لَا وَلِيَالٍ عَلَى الْمُضَلَّى تَسْرِقُ فِي نُسْكِهَا الذُّنُوبُ
فَوَقَعْتَ سَاقِي عَلَى حَافِرِ هَذَا الْمَحْرُومِ، إِلَّا أَنِّي جَرَّدْتُ ذَلِكَ فِي الْمَعْنَى،
وَأَوْضَحْتُهُ، وَجَلَّوْتُهُ عَلَى كُرْسِيِّ التَّعْيِيدِ وَالتَّجْيِيدِ، فَلَوْلَا التَّارِيخُ لَعَادَ سَارِقُ الْبَرَقِ.

نشره: وَأَمَّا نَثْرُهُ، فَنَمَطٌ مَرْتَفِعٌ عَنْ مُعْتَادِ عَصْرِهِ، اسْتِنْفَارًا وَبِلَاغَةً، وَاسْتِرْسَالًا
وَحَلَاوَةً، قَلَمًا يُعْرَجُ عَلَى السُّجْعِ، أَوْ يَأْمُرُ عَلَى التَّكْلِيفِ، وَهُوَ كَثِيرٌ بِحَيْثُ لَا يَتَّعِينَ
عِيُونُهُ، وَلَكِنْ تُلْمَعُ مِنْهُ ثُبُودَةٌ، وَتَجْلِبُ مِنْهُ يَسِيرًا. كَتَبَ إِلَيَّ عِنْدَ إِيَابِي مِنَ الرُّسَالَةِ إِلَى
مَلِكِ الْمَغْرِبِ، مَتَمَثِّلًا بِيَتَيْنِ لِمَنْ قَبْلَهُ، صَدَّرَ بِهِمَا^(١): [السريع]

أَيْتَهَا^(٢) النَّفْسُ إِلَيْهِ أَذْهَبِي فَحُبُّهُ الْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِي
أَيَّاسَنِي^(٣) الثُّوبَةُ مِنْ حُبِّهِ طُلُوعُهُ شَمْسًا مِنَ الْمَغْرِبِ

بَلْ مَحَلُّكَ أَمَثَلُ مِنَ التَّمَثِيلِ بِالشَّمْسِ، فَلَوْ كَانَ طُلُوعُكَ عَلَى هَذِهِ الْأَقْطَارِ
شَمْسًا، لَأَصْبَحَ جُلُّهَا لَكَ عُيَادًا. وَلَوْ كَانَ نَزُولُكَ مَطَرًا لَتَكَيَّفَتْ الصُّخُورُ ثُرَابًا دَمِيمًا.
وَلَوْلَا مَعْرِفَتُنَا مَغْشَرِ إِخْوَانِ الصُّفَا، بِإِقْرَارِ أَنْفُسِنَا، لَحَكَمْنَا بِأَنْ قُلُوبُنَا تَمَائِمٌ لِأَصْدِقَائِنَا،
وَلَكِنْ سَبَقَتْ عَيُونُ السَّعَادَةِ بِالْكَلَّاتِ، فَلَوْ تُصَادَفُ بِالرَّضَى مُحَلًّا؛ لِأَنَّ تَحْصِيلَ
الْحَاصِلِ مُحَالٌ، لَا زِلْتَ مُحْرُوسًا، بَعِينُ الَّذِي لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ مَكْثُوفَةٌ بِبِرْكَه
الَّذِي يَرُومُهُ رَائِمٌ، وَالسَّلَامُ.

وَكَتَبَ إِلَيَّ عِنْدَمَا تَقَلَّدْتُ مِنْ رِئَاسَةِ الْإِنْشَاءِ مَا تَقَلَّدْتُ: تَخْصِيصُكُمْ يَا مَحَلُّ الْإِبْنِ
الْأَرْضَى وَلَادَةً، وَالْأَخَ الصَّادِقَ إِخْلَاصًا وَوُدًّا، خَصَّكُمْ اللَّهُ مِنَ السَّعَادَةِ بِأَعْلَاهَا مَرْقَى،
وَأَفْضَلِهَا عُقْبَى، وَأَحْمَدَهَا غِنَى، وَأَكْرَمَهَا مَسْعَى، تَحِيَّةُ اللَّهْفَانِ إِلَى أَيَّامِ لِقَائِكَ،
الْمُنْتَلَى عَنْهَا بِتَأْمِيلِ الْعُودِ إِلَيْهَا، الْمُرْجَى أَوْقَاتِهِ بِتَرْدَادِ الْفِكْرِ فِيهَا، مُحَمَّدُ بْنُ الْحَاجِّ،
أَبْقَاهُ اللَّهُ، عَنْ شَوْقٍ، وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَمْ أَجِدْ قَطُّ مِثْلَهُ إِلَى وَلِيِّ حَمِيمٍ. وَاللَّهُ
عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ، مَعْرِفًا أَنَّنِي بِعِلَاقِمِهِ، وَتَضْلِيلِنِي عَنْ كُسْرِهِ مَجَامِعُهُ، لَمَّا اعْتَنَى بِهِ

(١) البيتان لابن خروف الشاعر، وقيل لغيره، وهما في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢٦).

(٢) في الأصل: «يا أيتها» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٣) في الأصل: «إياسني» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

من توقُّلكم بالرتبة التي ما زال أحبَّاءكم بها مَنطولي برِّه، على أنك لم تزد بذلك رتبة على ما كنت باعتبار الأهلية، والمكانة العلية، إلا عند الأطفال والأغفال، والمُحلِّقين من النساء والرجال، لكن أفزعنا هذه المخاطبة المحظية في قالب الجمهور، ولم نسر فيها، على الأصح، لكن على الجمهور، ولو كانت مَصَارِف الوجود بيدي، لوافقتك من الوجود منازلُ أسمائه منازل، وأوطأتك أفلاكه مراكب، وأوردتك كوثره مشرباً، وأحللتك أرفعه مَغِيلاً، وأقْبَسْتُكَ بدره مصباحاً، وأهدتك أسرارهِ تحفاً. وقد تبلغ المقاصدُ مبالغ لا تنتهي أقاصيها الأعمال، فنحن وما نُضمِّره لتلك الجملة الجليلة الفاضلة، مما الله رقيبٌ عليه، ومحيطٌ بدقائقه. ولو كانت لهذا العبد الغافل، المأسور في قيد نفسه، المحزون على انتهاب الأيام، رأس عمره في غير شيء، دعوة يساعدها الوجود حتى يغلب على ظنه أن العليم بذات الصدور، ولأها من قبوله بارقة لخصك بها، والله شهيد على ما تكنه الأفئدة، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

والفضلُ جَمٌّ، والمحاسنُ عديدة، فلنقصِر اضطراراً، ولنكفُ امتثالاً للرسم، وانقياداً، أمتع الله به.

محمد بن عبد الله بن منظور القيسي^(١)

من أهل مالقة، يكنى أبا بكر.

أوليته: أصله^(٢) من إشبيلية، من البيت المشهور بالتعيين والتقدم، والأصالة، تشهد بذلك جملة أوضاع، منها «الروض المحظور»^(٣) في أوصاف بني منظور، وغيره.

حاله: من كتاب «عائد الصلة». كان^(٤) جَمٌّ التواضع والتخلق، كثير البر، مفرط الهتة، مبذول^(٥) البشر، عظيم المشاركة، سريع اللسان إلى الثناء، مُنْتَرِسلاً في باب الإطراء، دَرَباً على الحكم، كثير الحُنْكة، قديم العالة، بصيراً بالشروط، وُلِّي القضاء بجهات كثيرة، وتقدم بمالقة، بلده فشكرت^(٦) سيرته، وحمدت مدارته. وكان سريع

(١) ترجمة ابن منظور في الكتيبة الكامنة (ص ١١٩) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ٣٧) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٢). وجاء في المصدر الأخير أنه «أبو بكر محمد بن عبيد الله بن محمد بن يوسف بن يحيى بن عبيد الله بن منظور...».

(٢) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٢). (٣) في تاريخ قضاة الأندلس: «المنظور».

(٤) النص في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٢).

(٥) في تاريخ قضاة الأندلس: «مبذول» بالبدال المهملة.

(٦) في المصدر نفسه: «فحمدت سيرته، وشكرت طريقته...».

العبرة، كثير الخشية، حسن الاعتقاد، معروف الإيثار والصدقة، شائع الإقراء لمن ألم بضقه، واجتاز على محل ولايته، جاريًا على سنن سلفه، ينظم وينثر، فلا يقصر.

مشيخته: قرأ^(١) على الأستاذ أبي محمد بن أبي السداد الباهلي، ولازمه وانتفع به، وسمع على غيره من الأعلام، كالخطيب الولي أبي عبد الله الطنجالي، والعذل الراوية المسنن أبي عبد الله بن الأديب، والمسنن أبي الحكم مالك بن المرحل، وعلى الشيخ الصوفي أبي عبد الله محمد بن أحمد الأفشري الفاسي، ولبس عنه خرقه التصوف، وعلى الخطيب أبي عبد الله بن رشيد، وعن الشيخ القاضي أبي المجد بن الأحوص، وعلى ابن مجاهد الرندي، المعروف بالسَّمَار، والخطيب أبي العباس بن خميس بالجزيرة الخضراء، وعلى الخطيب الزاهد أبي عبد الله السلال. وكتب إليه بالإجازة، أبو عبد الله بن الزبير، والفقيه أبو الحسن بن عقيل الرندي، والوزير المعمر أبو عمر^(٢) الطنجي، وأبو الحكم بن منظور، ابن عم أبيه، والأستاذ أبو عبد الله بن الكماد. نقلت ذلك من خطه.

توالياً: أخبرني^(٣) أنه ألف «نفحات المسوك»^(٤)، و«عيون الثبر المسبوك» في أشعار الخلفاء والوزراء والملوك». وكتاب «الشحوب»^(٥) الواكفة والظلال الوارفة، في الرد على ما تضمنته المضمون^(٦) به على غير أهله من اعتقاد الفلاسفة». وكتاب الصيب الهتان، الواكف بغايات الإحسان، المشتمل على أدعية مستخرجة من الأحاديث الصحيحة النبوية وسور القرآن». وكتاب «البرهان والدليل في خواص سور التثزيل، وما في قراءتها في النوم من بديع التأويل»^(٧). وكتاب يشتمل على أربعين حديثاً في الرقائق، موصولة الأسانيد. وكتاب «تحفة الأبرار في مسألة النبوة والرسالة، وما اشتملت عليه من الأسرار». وكتاب «الفعل المبرور، والسعي المشكور، فيما وصل إليه، أو تحصل لديه من نوازل القاضي أبي عمر بن منظور».

شعره: ومن شعره قوله^(٨): [البسيط]

ما لِلْعَطَاسِ وَلَا لِلْفَالِ مِنْ أَثَرٍ فَيُثِقُ فِدَيْتُكَ^(٩) بِالرَّحْمَنِ وَاصْطَبِرْ

(١) النص أيضاً في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٢)، ولكن باختصار.

(٢) في المصدر نفسه: «أبو عمرو». (٣) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٢).

(٤) في تاريخ قضاة الأندلس: «النسوك». (٥) في المصدر نفسه: «السجم».

(٦) في المصدر نفسه: «المظنون به من اعتقادات الفلاسفة».

(٧) وقوله: «وما في قراءتها... التأويل» ساقط في تاريخ قضاة الأندلس.

(٨) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ١١٩) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٢).

(٩) في تاريخ قضاة الأندلس: «بدينك».

وسلم الأمر فالأحكام ماضية تجري على السنن^(١) المربوط بالقدر

محمد بن علي بن الخضر بن هارون الفسائي

من أهل مالقة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن عسكر^(٢).

حاله: من كتاب «الذيل والتكملة»^(٣): كان مقررًا^(٤) مجودًا، نحويًا^(٥)، متوقد الذهن، متفنيًا في جملة معارف، ذا حظ صالح من رواية الحديث، تاريخيًا، حافظًا، فهيما^(٦)؛ مشاورًا، دؤوبًا^(٧) في الفتوى، متينًا في^(٨) الدين، تام المروءة، سنيًا فاضلاً، معظماً عند الخاصة والعامة، حسن الخلق، جميل العشرة، رحيب^(٩) الصدر، مسارعًا إلى قضاء الحوائج^(١٠)، شديد الإجمال^(١١)، محسنًا إلى من أساء إليه، نقاعًا بجاهه، سمنًا بذات يده، متقدمًا في عقد الوثائق، بصيرًا بمعانيها، سريع البديهة^(١٢) في النظم والنثر، مع البلاغة والإحسان في الفنين.

وُلِّي قضاء مالقة نائبًا عن القاضي^(١٣) أبي عبد الله بن الحسن مدة، ثم وُلِّي^(١٤) مستبدًا بتقديم الأمير أبي عبد الله بن نصر^(١٥)، يوم السبت لليلتين بقيتا من رمضان عام^(١٦) خمسة وثلاثين^(١٧). وأشفق^(١٨) من ذلك وامتنع منه وخاطبه مستعفيًا، وذكر أنه لا يصلح للقيام بما قلده من تلك الخطئة تورعًا منه، فلم يسعفه.

(١) في الأصل: «السنن» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٢) ترجمة ابن عسكر في التكملة (ج ٢ ص ١٣٩) والذيل والتكملة (السفر السادس ص ٤٤٩)

وبغية الوعاة (ص ٧٦) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٥٨) واختصار البقدح المعلى (ص ١٣٠)

والمغرب (ج ١ ص ٤٣١) ونفع الطيب (ج ٣ ص ١١١) و(ج ٤ ص ٤٧٨) و(ج ٦ ص ٨٤).

(٣) الذيل والتكملة (السفر السادس ص ٤٥٠).

(٤) في الأصل: «مقررًا» والتصويب من الذيل والتكملة.

(٥) في الذيل: «نحويًا ماهرًا».

(٦) في الذيل: «متين الدين».

(٧) في الذيل: «رحب».

(٨) في الذيل: «احتمال».

(٩) في الذيل: «سريع القلم والبديهة في إغشاء نظم الكلام ونثره».

(١٠) كلمة «القاضي» ساقطة في الذيل.

(١١) في الأصل: «خمس وثلاثين» وهو خطأ نحوي. وفي الذيل: «خمس وثلاثين وستمئة».

(١٢) هو الغالب بالله أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر، أول سلاطين بني نصر بغرناطة، وقد حكم من سنة ٦٣٥ هـ إلى سنة ٦٧١ هـ. اللوحة البدرية (ص ٤٢).

(١٣) كلمة «عام» ساقطة في الذيل.

(١٤) في الأصل: «خمس وثلاثين» وفي الذيل: «خمس وثلاثين وستمئة».

(١٥) في الذيل: «فأشفق».

فتقلدها، وسار فيها أحسن سيرة، وأظهر الحقوق التي كان الباطل قد غمرها، ونفذ الأحكام.

وكان ماضي العزيمة، مقدامًا، مهيبًا، جزلًا في قضائه، لا تأخذه في الله لومة لائم، واستمر على ذلك بقية عمره.

مشيخته: روى^(١) عن أبي إسحق الزوالي، وأبي بكر بن^(٢) عتيق بن منزل^(٣)، وأبي جعفر الجيان^(٤)، وأبي حسن الشقوري، وأبي الحجاج بن الشيخ، وأبي الخطاب بن واجب، وأبي زكريا الأصبهاني مقيم غرناطة.

من روى عنه: روى^(٥) عنه أبو بكر بن خميس ابن أخته، وأبو العون^(٦)، وأبو عبد الله بن بكر الإلبيري^(٧). وحدث عنه بالإجازة، أبو عبد الله الأبار^(٨)، وأبو القاسم بن عمران، وكتب بالإجازة للعراقيين من^(٩) أهل بغداد الذين استدعوها من أهل الأندلس، حسبما تقدم^(١٠) في رسم أبي بكر بن هشام، وضمنها نظمًا ونثرًا اعترف له بالإجادة فيهما.

تصانيفه: صنف^(١١) كتبًا كثيرة، أجاد فيها وأفاد، منها «المشروع الزوي في الزيادة على المزوي»^(١٢). ومنها «أربعون حديثًا» التزم فيها موافقة اسم شيخه، اسم الصابي^(١٣)، وما أراه سبق إلى ذلك، وهو شاهد بكثرة شيوخه، وسعة روايته. ومنها «نزهة الناظر في مناقب عمّار بن ياسر». ومنها «الخبر»^(١٤) المختصر، في السلوى^(١٥) عن ذهاب البصر، ألفه لأبي محمد بن أبي الأحوص^(١٦) الضرير الواعظ. ومنها

-
- (١) النص في الذيل: (السفر السادس ص ٤٤٩).
 - (٢) كلمة «بن» غير واردة في الذيل.
 - (٣) في الذيل: «قتال».
 - (٤) في الذيل: «الجيار».
 - (٥) ما يزال النقل عن الذيل والتكملة (السفر السادس ص ٤٤٩).
 - (٦) في الذيل: «وابن أبي العيون».
 - (٧) في الذيل: «وأبو عبد الله بن أبي بكر البري».
 - (٨) في الذيل: «ابن الأبار».
 - (٩) كلمة «من» غير واردة في الذيل.
 - (١٠) في الذيل: «تقدم ذكره».
 - (١١) ما يزال النقل مستمرًا عن الذيل (ج ٦ ص ٤٥٠).
 - (١٢) في الذيل: «على غريب الهروي».
 - (١٣) في الذيل: «الصابي».
 - (١٤) في الذيل: «الجزء».
 - (١٥) في الذيل والتكملة وتاريخ قضاة الأندلس: «السلو».
 - (١٦) في الذيل: «مُخرص».

«رسالة في ادخار الصبر، وافتخار القصر والفقر». ومنها «الإكمال والإتمام في صلة الإعلام بمجالس»^(١) «الأعلام من أهل مالقة الكرام». وله اسم آخر، وهو «مطلع الأنوار ونزهة الأبصار»^(٢)، فيما احتوت عليه مالقة من الرؤساء والأعلام والأخيار، وتقيد من المناقب والآثار. واختارته المنيّة عن إتمامه فتولّى إتمامه ابن أخته أبو بكر محمد بن خميس المذكور، وقد نقلت منه في هذا الكتاب.

شعره: ومن شعره، وقد نُعيت إليه نفسه قبل أن تُغرب من سماء معارفه شمس^(٣): [الطويل]

ولما انقضى^(٤) إحدى وخمسون حجةً كآني منها بعد كُرب^(٥) أخلُمُ
ترقيت أعلاها لأنظر فوقها مدى^(٦) الحثف مني علني^(٧) منه^(٨) أسلمُ
إذا هو قد أدنت إليه كأنما ترقيت فيه نجوة وهو سَلَمُ^(٩)

وقال في أحذب: [السريع]

وأحذبٌ تحسب في ظهره جاء^(١٠) به في نهرٍ عائمة
مُثلت الخَلقة لكُنه فسي ظهره زاوية قائمة

ومن أمثال نظمه قوله، وقد استُدِّعيت منه إجازة^(١١): [الطويل]

أجبتك لا أني^(١٢) لما رُمته أهلٌ ولكن ما أجبت^(١٣) مُحتملٌ سهلٌ
وما العلم إلا البحر طاب مذاقه وما لي عل في الورود ولا نهلٌ^(١٤)

(١) في الذيل: «بمحاسن». (٢) في الذيل: «ونزهة البصائر والأبصار».

(٣) الأبيات في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٥٨).

(٤) في تاريخ قضاة الأندلس: «ولما انقضت».

(٥) في المصدر نفسه: «... منها ما تذكرت أحلم».

(٦) في تاريخ قضاة الأندلس: «إلى».

(٧) في الأصل: «علي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من تاريخ قضاة الأندلس.

(٨) في تاريخ: «منها».

(٩) رواية البيت في تاريخ قضاة الأندلس هي:

إذا هي قد أدنته مني كأنما ترقيت فيها نحوه وهو سَلَمُ

(١٠) في الأصل: «جابه» وهكذا ينكسر الوزن.

(١١) الأبيات في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٥١).

(١٢) في الأصل: «لأنني» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الذيل.

(١٣) في الذيل: «أحييت».

(١٤) رواية البيت في الأصل مضطرب ومنكسر الوزن هكذا:

فكيف^(١) أراني أهل ذاك وقد أتى عليّ المميتان^(٢) البطالة والجهل

وأسأل^(٣) ربي العفو عني فإنه لما يرتجيه العبد من فضله^(٤) أهل

مولده: تخمينًا في نحو أربع وثمانين وخمسمائة.

وفاته: ظهر يوم الأربعاء لأربع خلون من جمادى الآخرة، عام ستة وثلاثين وستمئة^(٥).

محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن أحمد بن محمد
ابن أبي بكر بن سعد الأشعري المالقي^(٦)

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن بكر، من ذرية^(٧) بلج بن يحيى بن خالد بن عبد الرحمن بن يزيد^(٨) بن أبي بردة. واسمه عامر بن أبي عامر بن أبي موسى. واسمه عبد الله بن قيس، صاحب رسول الله ﷺ. ذكره ابن حزم^(٩) في جملة من دخل الأندلس من العرب^(١٠).

حاله: من «عائد الصلة»: كان^(١١) من صدور العلماء، وأعلام الفضلاء، سذاجة ونزاهة ومعرفة وتفنتًا. فسيحّ الدرس، أصيل النظر، واضح المذهب، مؤثرًا

= وما العلم إلا بحر طال مداه وما لي محمّ في الورود ولا نهل والتصويب من الذيل والتكملة.

- (١) في الذيل: «وكيف».
- (٢) في الأصل: «المحيتان» والتصويب من الذيل.
- (٣) في الذيل: «فأسأل».
- (٤) في الأصل: «فضل» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الذيل.
- (٥) كذا في التكملة (ج ٢ ص ١٤٠) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٥٢) وبغية الوعاة (ص ٧٦) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٥٩). وفي اختصار القدر المعلن: «ومات بمالقة سنة ثمان وثلاثين وستمئة».
- (٦) ترجمة محمد بن يحيى الأشعري في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٧٧) واللمحة البدرية (ص ٩٥، ١٠٤) ونفع الطيب (ج ٧ ص ٣٥٩) ونيل الابتهاج (ص ٢٣٤) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ٢٨٤).

- (٧) في نفع الطيب: «من ذرية أبي موسى الأشعري».
- (٨) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٣٧٨): «زيد».
- (٩) هاء الضمير في كلمة «ذكره» يعود إلى عبد الله بن قيس الأشعري، وقد ذكره ابن حزم في جمهرة أنساب العرب (ص ٣٩٧).
- (١٠) في تاريخ قضاة الأندلس: «المغرب».
- (١١) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣٥٩ - ٣٦٠).

للإنصاف، عارفاً بالأحكام والقراءات^(١)، مبرزاً في الحديث تاريخاً وإسناداً وتعديلاً وتجريباً^(٢)، حافظاً للأنساب والأسماء والكنى، قائماً على العربية، مشاركاً في الأصول والفروع، واللغة والعروض والفرائض والحساب، مخفوض الجناح، حسن التخلق^(٣)، عطوفاً على الطلبة، مُحِباً في العلم والعلماء، مجللاً لأهله^(٤)، مطروح^(٥) التصنع، عديم المُبالاة بالملبس، بادي الظاهر، عزيز النفس، نافذ الحكم، صوّالة، معروف بنُصرة من أزر إليه. تقدّم للشيخة^(٦) ببلده مالقة، ناظرًا في أمور العقْد والحل، ومصالح الكافة. ثم وُلّي القضاء بها، فأعزّ الخُطة، وترك الهوادة وإنفاذ الحق^(٧) ملازمًا للقراءة والإقراء، محافظًا للأوقات، حريصًا على الإفادة.

ثم وُلّي القضاء^(٨) والخطابة بقرناطة في العشر الأول لمحرم سبعة وثلاثين وسبعمائة، فقام بالوظائف، وصدع^(٩) بالحق، وجرح^(١٠) الشهود فزيف منهم ما ينيف على السبعين^(١١) عددًا، واستهدف بذلك إلى مُعادة ومناضلة خاض ثبجها، وصادم تيارها، غير مبالي بالمغبة، ولا حافل بالثبّة، فناله لذلك من المشقة، والكيد العظيم ما نال مثله، حتى كان^(١٢) يمشي إلى الصلاة ليلاً في مسلة، لا يطمئن على حاله. جرت في هذا الباب حكايات إلى أن استمرت الحال على ما أَراده الله، وعزم عليه الأمير في بعض من الخُطة، ليردّه إلى العدالة، فلم يجد في قناته مغمزاً، ولا في عوده مغمماً، وتصدّر لبث العلم بالحضرة، يقرئ فنوناً منه جمّة، فنفع وخرّج، ودرّس العربية والفقه والأصول، وأقرأ القرآن، وعلم الفرائض والحساب، وعقد مجالس الحديث شرحاً وسماعاً، على سبيل من انشراح الصدر، وحُسن التجمل، وخَفَض الجناح^(١٣).

(١) في النفع: «القراءة».

(٢) في النفع: «وجرحاً».

(٣) في النفع: «الخلق».

(٤) قوله: «مجللاً لأهله» غير وارد في النفع.

(٥) في النفع: «مطروحاً للتصنع».

(٦) هذه الكلمة غير واردة في النفع.

(٧) في النفع: «وترك الشوائب، وأنفذ الحق».

(٨) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٧٩): «ثم وُلّي قضاء الجماعة، فقام بالوظائف...». وفي نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٦٠): «ثم وُلّي القضاء بقرناطة المحروسة، سنة ٧٣٧».

(٩) صدع بالحق: جهر به. لسان العرب (صدع).

(١٠) في النفع: «وبهزج».

(١١) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٧٩): «على الثلاثين عددًا». وفي نفع الطيب: «على سبعين، واستهدف...».

(١٢) في النفع: «حتى كان لا يمشي إلى الصلاة ليلاً، ولا يطمئن...».

(١٣) في النفع: «جناح».

وذكره القاضي المؤرخ أبو الحسن بن الحسن، فقال^(١): وأما شيخنا، وقربنا مصاهرة، أبو عبد الله بن أبي بكر، فصاحب عزم ومضاء، وحكم صادق وقضاء. كان له، رحمه الله، مع كل قولة صولة، وعلى كل رابع لا يعرف ذرة، فأحرق قلوب الحسدة والضب، وأعز الخطّة بما أزال عنها من الشوائب، وذهب وقضض^(٢) كواكب الحق بمعارفه، ونقذ في المشكلات، وثبت في المذهلات^(٣)، واحتج وبكت، وتفقه ونكت.

توقيعه: قال: وحديثنا صاحبنا أبو جعفر الشَّقُورِي قال^(٤): كنت قاعدًا في مجلس حُكْمِهِ فرفعت إليه امرأة رُقعة، مضمونها أنها مُحِبَّة في مُطْلَقِهَا، وتبتغي من يَسْتَشْفِع لها في رَدِّهَا، فتناول الرُقعة، ووقع في ظهرها للحين من غير مُهْلَةٍ: الحمد لله، من وقف على ما بالمقلوب^(٥)، فليصغ لسماعه إصاعة مُغِيث، وليشفع للمرأة عند زوجها، تأسيًا بشفاعه رسول الله ﷺ لَبْرِيرَةَ في مُغِيث. والله يُسَلِّم لنا العقل والدين، ويسلك بنا مسالك المُهْتَدِينَ. والسلام يعتمد على مَنْ وقف على هذه الأحرف من كاتبها، ورحمة الله. قال صاحبنا: فقال لي بعض الأصحاب: هَلَا كان هو الشفيع لها؟ فقلت: الصحيح أَنَّ الحاكم لا ينبغي أن يباشر ذلك بنفسه على النصوص^(٦).

شعره: ولم يُسمع له شعر إلا بيتين في وصف قوس عربي النَّسَب في شعر من لا شعر له، وهما: [البسيط]

هام الفؤاد ببنت^(٧) التُّبُع والنُّشْم زوراء^(٨) تُزْري بعطف البان والضنم
قوامُ قامتها تمامُ معطفها من يلقي مقتلها تُصميه أو تُصم

مشيخته: قرأ على الأستاذ الْمُتَفَنُّن الخطيب أبي محمد بن أبي السُّدَاد الباهلي^(٩) القرآن العظيم جَمْعًا وإفرادًا، وأخذ عنه العربية والفقه والحديث، ولازمه،

(١) النص: في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣٦٠). وهو لم يرد حرفيًا في تاريخ قضاة الأندلس، وجاء فيه ما في معناه.

(٢) ذُهِبَها وقَضُّضُها: جعلها ناصعة كالذهب والفضة.

(٣) في النفع: «المعضلات».

(٤) النص في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٨٢) ونفع الطيب (ج ٧ ص ٣٦١) ببعض اختلاف عما هنا.

(٥) في المصدرين السابقين: «القلوب»، فليُصِغْ لسماعه. والمراد هنا بالمقلوب: ظهر الرُقعة.

(٦) في النفع: «المنصوص».

(٧) في الأصل: «في بنت»، وهكذا ينكسر الوزن.

(٨) في الأصل: «زوراء» وهكذا ينكسر الوزن.

(٩) هو عبد الواحد بن محمد بن علي بن أبي السُّدَاد الأموي المالقي، الشهير بالباهلي، وسيترجم=

وتأدب به. وعلى الشيخ الراوية الصالح أبي عبد الله محمد بن عيَّاش الخَزْرَجِي القرطبي، قرأ عليه كثيرًا من كُتُب الحديث، منها كتاب صحيح مُسلم، وسمع عليه جميعه إلا دولة واحدة. ومن أشياخه القاضي أبو القاسم قاسم بن أحمد بن حسن بن السُّكُوت، والفقيه المُشاور الصُّدر الكبير أبو عبد الله بن ربيع، والخطيب القُدوة الولي أبو عبد الله بن أحمد الطَّنْجَالِي، والشيخ القاضي أبو الحسن ابن الأستاذ العلامة أبي الحجاج بن مصادم، والأستاذ خاتمة المُقرئين أبو جعفر بن الزُّبَيْر، والخطيب المحدث أبو عبد الله بن رُشيد، والخطيب الولي الصالح أبو الحسن^(١) بن فضيلة، والأستاذ أبو الحسن بن اللُّباد المشرفي، والشيخ الأستاذ أبو عبد الله بن الكماد السُّطِّي اللَّبْلِيسِي. وأجازه من أهل سبته شيخ الشُّرفاء أبو علي بن أبي التُّقى طاهر بن ربيع، والعدل الراوية أبو فارس عبد العزيز بن الهواري، وأبو إسحق التلمساني، والحاج العدل الراوية أبو عبد الله بن الحضار، والأستاذ المقرئ ابن أبي القاسم بن عبد الرحيم القيسي، والأستاذ أبو بكر بن عُبيدة، والشيخ المعمر أبو عبد الله بن أبي القاسم بن عبيد الله الأنصاري. ومن أهل إفريقية الأديب المعمر أبو عبد الله محمد بن هارون، وأبو العباس أحمد بن محمد الأشعري المالقي نزيل تونس، ومحمد بن محمد بن سيّد الناس اليغمري، وعثمان بن عبد القوي البلوي. ومن أهل مصر النسابة شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدُمياطي، والمحدث الراوية أبو المعالي أحمد بن إسحاق، وجماعة غيرهم من المصريين والشاميين والحجازيين.

مولده: في أواخر ذي حجة من عام أربعة^(٢) وسبعين وستمائة.

وفاته: قُتِلَ في مصاب^(٣) المسلمين يوم المناجزة بطريف^(٤) شهيدًا مُحَرَّضًا، زعموا أن بَغْلَةً كان عليها كَبَتْ به، وأفاق رابط الجأش، مجتمع القوي. وأشار عليه بعض المنهزمين بالركوب فلم يكن عنده قوة عليه. وقال: انصرف، هذا يوم الفرج^(٥).

= له ابن الخطيب في الجزء الثالث من الإحاطة.

(١) في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣٦١): «أبو الحسين».

(٢) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٨٤): «ومولده في أواخر شهر ذي الحجة من عام ٦٧٣».

(٣) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٨٣): «مصاف».

(٤) موقعه طريف: هي الموقعة الشهيرة التي كانت بين الإسبان وبنو مرين، وكان مع بني مرين قوات الأندلس بقيادة السلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل النصري، سنة ٧٤١ هـ، وكانت الهزيمة فيها للمسلمين. اللوحة البدرية (ص ١٠٥).

(٥) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٨٤) ونفح الطيب (ج ٧ ص ٣٦٢): «الفرج».

إشارة إلى قوله تعالى في الشهداء: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١)، وذلك ضحى يوم الاثنين السابع من جمادى الأولى عام أحد وأربعين وسبعمائة.

محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد
ابن محمد بن محمد بن علي بن موسى بن إبراهيم بن محمد
ابن ناصر بن حيّون بن القاسم بن الحسن بن محمد
ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه^(٢)

حسبما نقل من خطه:

أوليته: معروفة، كان وليته مثله.

حاله: هذا^(٣) الفاضل جُملة من جُمل الكمال، غريب في الوقار والحصافة، وبلوغ المدى، واستولى على الأمم جُلماً وأناة، وبُعْداً عن الريب، وتمسكاً بعُرى النزاهة، واستمسكاً مع الاسترسال، وانقباضاً مع المُداخلة، معتدلاً الطريقة، حسن المداراة، مالكا أزمّة الهوى، شديد الشفقة، كثير المواساة، معار حبل الصبر، جميل العشرة، كثيف ستر الحياء، قوي النفس، رابط الجأش، رقيق الحاشية، مُمتع المجالسة، متوقد الذهن، أصيل الإدراك، بارعاً بأعمال المشيخة، إلى جلال المُتَمي، وكرم المنصب ونزاهة النفس، وملاحة الشئبة، وحمل راية البلاغة، والإعلام في ميادين البيان، رُخلة الوقت في التبريز بعلوم اللسان، حائز الخصل^(٤) والفضل في ميدانها، غريبة^(٥) غزيرة الحفظ، مُقنعة الشاهد^(٦)، مُستبصرة النظر، أصيلة التوجيه، بريّة عن التؤك والغفلة، مرهفة باللغة والغريب والخبر والتاريخ والبيان، وصناعة البديع، وميزان العروض، وعلم القافية، وتقدّماً في الفقه، ودرساً له، وبراعة في الأحكام، وإتقان التدريس، والصبر، والدؤوب عليه، بارعُ التصنيف، حاضر الذهن، فصيحُ اللسان، مُفخّرة من مفاخر أهل بيته.

(١) سورة آل عمران ٣، الآية ١٧٠.

(٢) ترجمة محمد بن أحمد الحسن في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٠) ونشر فرائد الجمان (ص ٢٣١) وجاء فيه أنه يكنى أبا القاسم، ونفع الطيب (ج ٧ ص ١٨٢) وبغية الوعاة (ص ١٦) والدرر الكامنة (ج ٣ ص ٣٥٢) واللمحة البدرية (ص ١٠٥، ١١٦) وكشف الظنون (ص ١٨٠٧).

(٣) النص في بغية الوعاة (ص ١٦) نقلاً عن الإحاطة، والسيوطي ينقل بنصرف.

(٤) كلمة «الخصل» غير واردة في بغية الوعاة. (٥) في بغية الوعاة: «عربية».

(٦) في بغية الوعاة: «الشماثل».

ولايته: قَدِمَ على الحَضْرَةِ في دولة الخامس من ملوك بني نصر^(١)، كما استجمع شبابه، يَفْهَقُ عِلْمًا باللسان، ومعرفةً بمواقع البيان، وينطق بالعَذْبَ الزُّلال من الشعر، فَسَهْلٌ له كَنْفُ البر، وتُنْظِمُ في قلادة كتاب الإنشاء، وهو إذ ذاك ثَمِينَةُ الخَزَرَات، مُحْكَمَةُ الرُّصَف، فَشَاعَ فضله، وذاع رَجَلُهُ. ثم تقدم، فنقل من طور الحكم، إلى أن قُلِدَ الكتابة والقضاء والخطابة بالحاضرة، بعد ولاية غيرها التي أعقبها ولاية مالقة في الرابع من شهر ربيع الآخر عام سبعة وثلاثين وسبعمائة. فاضطلع بالأحكام، وطَبَّقَ مِفْصَلَ الفضل، ماضِي الصُّرِيمة، وَجِيَّ الإِجْهَار، نافذ الأمر، عَظِيمُ الهَيْبَةِ، قَلِيلُ النَّاقِد، مُطْعَمُ التَّوْفِيق، يَضْدَعُ في مواقف الخُطْبِ، بِكُلِّ بَلِغٍ من القول، مما يُرِيقُ دِيبَاجَتَهُ، وَيَشِفُّ صِيقَالَهُ، وتبرأ من كلال الخُطْبَاءِ جوانبه وأطرافه. واستعمل في السَّفَارَةِ للعدوِّ ناجح المسعى، ميمون النُّقِيبة، جَزِيلُ الحَيَاءِ والكَرَامَةِ، إلى أن عُزِلَ عن القضاء في شعبان من عام سبعة وأربعين وسبعمائة، من غير زَلَّةٍ تَخْفُضُ، وَلَا هِنَةٍ تُؤَثِّرُ، فتَحَيَّزَ إلى التَّحْلِيقِ لتدريس العلم، وتَفَرَّغَ لإِقْرَاءِ العربية والفقه، ولم يَنْشِبْ أَمِيرُهُ المنطوي على الهاجس، المُغْرِي بِمَثَلِهِ، أن قَدَّمَهُ قَاضِيًا بوادي آش، بِثَتِ حَضْرَتُهُ، معززةً بسندها الكبير الخُطَّة، فانتقل إليه بجملته. وكانت بينه وبين شيخنا أبي الحسن بن الجِيَّاب، صِدَاقَةٌ صَادِقَةٌ، ومودة مستحكمة، فجرت بينهما أثناء هذه الثُّقْلَةِ، بدائع، منها قوله، يَرْقُبُ^(٢) خُطَّةَ القضاء التي اخترعها، ويوليها خطة الملامة^(٣):

[السريع]

لا مَرْحَبًا بالناشر الفارك	إِنْ جُهِلَتْ رَفْعَةُ مَقْدَارِكَ
لو أنها قد أوتيت رُشْدَهَا	مَا بَرِحَتْ تَغْشُو إِلَى نَارِكَ
أَقْسَمْتُ بِالثُّورِ المُبِينِ الذي	مِنْهُ بَدَتْ مِشْكَاةُ أَنْوَارِكَ
ومَظْهَرِ الحُكْمِ الحَكِيمِ الذي	يَتَلَوُّ عَلَيْهِ ^(٤) طَيِّبُ أَخْبَارِكَ
ما لَقِيتَ مِثْلَكَ كُفْرًا لَهَا	وَلَا أَوْثَ أَكْرَمَ مِنْ دَارِكَ ^(٥)

(١) الخامس من سلاطين بني نصر هو أبو الوليد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف، وقد حكم من سنة ٧١٣ إلى سنة ٧٢٥ هـ. راجع اللوحة البدرية (ص ٧٨).

(٢) في الأصل: «يوس عنه خطة»، وهو كلام لا معنى له، وصوبناه من تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٢).

(٣) الأبيات في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٢ - ٢١٣).

(٤) في تاريخ قضاة الأندلس: «علينا».

(٥) رواية البيت في المصدر السابق هي:

مَا أَلْفَتْ مِثْلَكَ كُفْرًا وَلَا أَوْثَ إِلَى أَكْرَمَ مِنْ دَارِكَ

ثم أُعيد إلى القضاء بالحضرة، فوليها، واستمرت حاله وولايته على متقدم سيمته من الفضل والتزاهة والمراجعة فيما يأنف فيه من الخروج عن الجادة، إلى أن هلك السلطان^(١) مُستقضىه، مأمومًا به، مُقتديًا بسجده، يوم عيد الفطر، خمسة وخمسين وسبعمائة. وولي الأمر ولده^(٢) الأسعد، فجدد ولايته، وأكد تجلته، ورفع رتبته، واستدعى مجالسته.

مشيخته: قرأ^(٣) بيلده سبته على أبيه الشريف الطاهر، نسيح وحده في القيام، وعلى أبي عبد الله بن هاني وبه جل انتفاعه، وعليه جل استفادته. وأخذ عن الإمام شيخ المشيخة أبي إسحق الغافقي. وروى عن الخطيب أبي عبد الله الغماري، والخطيب المحدث أبي عبد الله بن رشيد، والقاضي أبي عبد الله القرطبي، والفقيه الصالح أبي عبد الله بن حريث. وأخذ عن الأستاذ النظار أبي القاسم بن الشاط وغيره.

محبته: دارت عليه يوم مهلك السلطان المذكور رحي الوقعة، فعرّكه بالثقال، وتخلص من شرارها هولا، لتطارح الأمير الموثب أمام المرية عليه، خاتما في السجدة، وذرس الحماة إياه عند الدجلة، من غير التفات لمحل الوطأة، ولا افتقاد لمحل صلاة تلك الأمة، فغشيه من الأزجل، رجل الربي كثيرة، والتف عليه مرسل طيلسانه، سادا مجرى النفس إلى قلبه، فعالج الحمام وقتا، إلى أن نفّس الله عنه، فاستقل من الردى، وانتبذ من مطرح ذلك الوعى، وبودر بالفصاد، وقد أشفى، فكانت عشرة لقيت لما ومتاعا، فسمح له المدي آخر من يوثق به، من محل البث، ومودعات السر من حظيات الملك، أن السلطان عرض عليه قبل وفاته في عالم الحلم، كونه في محراب مسجده، مع قاضيه المترجم به، وقد أقدم عليه كلب، أصابه بثوبه، ولطخ ثوبه بدمه، فأهّمته رؤياه، وطرقت به الظنون مطارقها، وهم بعزل القاضي، انقيادا لبواعث الفكر، وسدا لأبواب التوقيعات، وقد تأذن الله بإرجاء العزم، وتصديق الحلم، وإمضاء الحكم، جل وجهه، وعزت قدرته، فكان من الأمر ما تقرر في محله.

(١) هو السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج، سابع سلاطين بني نصر بغرناطة. راجع لللمحة البدرية (ص ١٠٢).

(٢) هو الغني بالله محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج، ثامن سلاطين بني نصر بغرناطة، والمتوفى سنة ٧٩٣ هـ. ترجمته في الللمحة البدرية (ص ١١٣، ١٢٩) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٣) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ٢٩١) وأزهار الرياض (ج ١ ص ٣٧، ٥٨، ١٩٤).

(٣) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٧).

تصانيفه: وتصانيفه بارعة، منها، «رَفْعُ الحُجُبِ المستورة في»^(١) محاسن المَقْصُورَة^(٢)، شرح فيها مقصورة الأديب أبي الحسن حازم بما تنقطع الأطماع فيه. ومنها «رياضة الأبي»^(٣) في قصيدة الخزرجي، أبدع في ذلك بما يدل على الاطلاع وسداد الفهم، وقيد على «كتاب التسهيل» لأبي عبد الله بن مالك تقييداً جليلاً، وشرحاً بديعاً، قارب التمام. وشرع في تقييد على الخبر المسمى بـ«ذَرَر السَّمْط في خبر السَّمْط». ومحاسنه جمّة، وأغراضه بديعة.

شعره: وأما الشعر، فله فيه القَذَحُ المَعْلَى، والحِظُّ الأوفى، والدَّرَجَة العليا، طبقة وقته، ودرجة عصره، وحجة زمانه، كلامه متكافئ في اللفظ والمعنى، صريح الدلالة، كريم الخيم، متحصّد الحبل، خالص السبك، وأنا أثبت منه جزءاً خصني به، سمّاه جهد المقل، اشتمل من حرّ الكلام، على ما لا كفاء له.

الحمد لله تردّدته أخرى الليالي، فهو المسؤول أن يعصمنا من الزلل، زلل القول، وزلل الأعمال. والصلاة على سيدنا محمد خاتم الإرسال. هذه أوراق ضمّتها جملة من بنات فكري، وقطعاً مما يُحِيش به في بعض الأحيان صدري، ولو خُزمت لأضريت عن كثبها كل الإضراب، ولزمت في دَفْنِها وإخفائها دين الأعراب، لكنني أثرت على المحو الإثبات، وتمثلت بقولهم إن خير ما أوتيته العربُ الأبيات. وإذا هي عُرضت على ذلك المجد، وسألها كيف نجت من الوأد، فقد أوتيتها من حُزْمكم إلى ظلّ ظليل، وأحللتها من بناتكم مُعَرَّسًا ومقيل، وأهديتها علماً بأن كرمكم بالإغضاء عن عيوبها جدّ كفيل، فاغتنم قلة التهذئة مني، إن جُهد المقلّ غير قليل، فحسبها شرفاً أن تبوّأت في جنابك كنفًا، وكفاها مجداً وفخراً أن عَقَدت بينها وبين فكرك عَقْدًا وجوارًا ومما قلت في حرف الهمزة.

مولده: بسبّته في السادس لشهر ربيع الأول^(٤) من عام سبعة وتسعين وستمائة.

وفاته: توفي قاضيًا بقرناطة في أوائل شعبان^(٥) من عام ستين وسبعمائة.

(١) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٧): «عن».

(٢) هي مقصورة أديب المغرب أبي الحسن حازم بن محمد القرطاجني الأندلسي، التي مدح بها أمير المؤمنين المستنصر بالله أبا عبد الله محمدًا الحفصي. راجع نفح الطيب (ج ٧ ص ١٨٢).

(٣) في تاريخ قضاة الأندلس: «الآن في شرح قصيدة...».

(٤) هكذا في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٧). وفي بغية الوعاة: «ربيع الآخر».

(٥) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٧): «وفاته بقرناطة ضحى يوم الخميس الحادي والعشرين لشهر شعبان من عام ٧٦٠». وفي نفح الطيب (ج ٧ ص ١٩٠): «وكانت وفاة الشريف المذكور سنة إحدى وستين وسبعمائة».

محمد بن أحمد بن عبد الملك الفشتالي^(١)

قاضي الجماعة ببيضة الإسلام فاس، يكنى أبا عبد الله.

حاله: هذا الرجل له أبوة صالحة، وأصالة زاكية، قديم الطلب، ظاهر التخصص، مفرط في الوقار، نابه البرة والركبة، كثير التهمة، يؤهم به الفاز، وصدر الصدور في الوثيقة والأدب، فاضل النفس، مَمْحُوض النصح، جميل العشرة لإخوانه، مُجْرِي الصداقة نُصْحًا ومشاركة وتَفْقِيحًا على سجيّة الأشراف وسُنن الحُساباء، مديدُ الباع في فن الأدب، شاعر مجيد، كاتب بليغ، عارف بالتحسين والتّقييح، مَنْ أدركه، أدرك عِلْمًا من أعلام المشيخة. قدّمه السلطان الكبير العالم أبو عنان فارس، قاضيًا بحضرته، واختصّه، واشتمل عليه، فاتصل بعده سَعْدُهُ، وعُرف حقّه. وتردّد إلى الأندلس في سبيل الرسالة عنه، فذاع فضله، وعُلم قَدْرُهُ. ولما كان الإزعاج من الأندلس نحو النُّبوة التي أصابت الدولة، بَلَوْتُ من فضله ونصحه وتأييده، ما أكد الغبطة، وأوجب الثناء، وخاطبته بما نصه: [الكامل]

من ذا يَعدُّ فضائل الفشتالي	والدهر كاتبُ أيها والتّالي
عَلِمَ إذا التمسوا الفنون بعلمه	مرعى المُشيع ونُجعة المُكتال
نال الذي لا فوقها من رفعة	ما أُمَلَّتْها حيلةُ المحتال
وقضى قياس ترائه عن جَدّه	إن المُقَدِّم فيه عين التّالي

قاضي الجماعة، بماذا أثنى على خالك المُرتضاة؟ أبْقَدِيمك المُوجب لتَقْدِيمك؟ أم بحديثك الداعي لتحمل حديثك؟ وكلاهما غاية بُعد مرماها، وتحامي المتصور حماها، والضال لا يسام سَبَقًا، والمُتَبِّت لا أرضًا قطع ولا ظَهْرًا أبقى. وما الظنُّ بأصالة تعترف بها الآثار وتشهد، وأبوة صالحة كانت في غير ذات الحق تزهد، وفي نيل الاتصال به تجهد، ومعارف تقرر قواعد الحق وتمهد، وتهزم الشُّبه إذا تشهد. وقد علم الله أن جوارك لم يُبق للدهر عليّ جوارًا^(٢)، ولا حَتٌّ من غصني ورقًا ولا نوارًا. هذا وقد زار على أسدٍ وحمل ثورًا، فقد أصبحَتْ في ظل الدولة التي وقف على سيدي اختيارها، وأظهر خلوص إبريزه مِغْيَارَها، تحت كنف وعزٍّ مؤتلف، وجوار أبي دلف، وعلى ثقة من الله بحسن خلف. وما منع من انتساب ما لديه من

(١) نسبة إلى فشتاله وهي إحدى القبائل الجبلية التي تقطن في شمال مدينة فاس. الإحاطة (ج ٢ ص ١٨٧) حاشية رقم ١.

(٢) في الأصل: «جوارًا»

الفضائل إلا رحلة لم يَبْرُكْ بعد حملها، ولا قرّ عملها، وأوحال حال بيني وبين مُسَوِّر
البلد القديم^(١) مَهْلُهَا. ولولا ذلك لا غتبطت الزائد، واقتنيت الفوائد، والله يطيل بقاءه،
حتى تتأكد القرية، التي تُنسى بها الغربة، وتعظم الوسيلة، التي لا تُذكر معها الفضيلة.
وأما ما أشار به من تقييد القصيدة التي تُفِق سوقها استحسانه، وأنس باستظرافها
إحسانه، فقد أعمل وما أمهل، والقصور باد إذا تأمل، والإغضاء أولى ما أمل، فإنما
هي فكرة قد أخدمت نارها الأيام، وغيّرت آثارها اللثام. وقد كان الحق إجلال مطالعة
سيدي من خَلَلها، وتنزيه رجله عن تقبيل مُرتجلها. لكن أمره مُمثّل، وأتى من المجد
أمرًا لا مردّ له مثّل. والسلام على سيدي من مُعظم قدره، ومُلتزم برّه، ابن الخطيب،
ورحمة الله.

فكتب إليّ مراجعًا، وهو المليء بالإحسان: [الكامل]

وافث يجرّ الزُهو فضلة بُزدها خَنَاءٌ قد أَضَحَّتْ نَسِيجَةٌ وَخِدها
لله أي قصيدة أهديتُ لو يهتدي المُعارض نحو غاية قُصِدها
لابن الخطيب بها محاسنُ جمّة قارعت عنه الخطوب ففلت من حَدّها^(٢)
سرّ البلاغة عنه أودع حافظًا قد صانه حتى فُشّا من عندها
في غير عقدِ نفثته بسحرها^(٣) فلذا أتى سَلِسًا مُنَظَّمٌ عِقْدِهَا
لم أذر ما فيها وقمت معاونا من طرسها أو مُغلّما من بُزدها
حتى دَقَعْتُ بها لِأَبْعَد غاية باعًا تُقْصِرُ في البلوغ بِحَدّها
حدّان من نظم ونثر إن من يَلْقَاهُمَا منها بذلة عُبْدَهَا
أولى يدا بيضاء موليها فما لي مِزْيَةٌ مِنْ^(٤) أن أقوم بِحَمْدِهَا
ورفضت تكذيب المُنى متشيّعًا لَعَلِي مَرَأَاهَا يُصَادِق وَغْدَهَا
فبذلت شعري رافعًا من برّها وهزرت عَظْفِي رافلاً من بُزدها

خُذَهَا، أعزّ الله جنابك، وأدال للأئس على الوخشة اغترابك، كغبة^(٥) الطائر
المتجمد، ونُهيبة الثائر المُستوفز، ومِقة اللحظ، قليلة اللفظ، قد جَمَعَتْ من سُوامِها
وانقحامها، بين نُظْم قيد، وضُلود زُند، ونُوعت، فعلى إقدامها وانحجامها إلى قاصر

(١) البلد القديم هو مدينة فاس القديمة، والبلد الجديد هو ضاحية فاس الملوكية. الإحاطة (ج ٢ ص ١٨٩) حاشية رقم ١.

(٢) عجز هذا البيت منكسر الوزن. (٣) صدر هذا البيت منكسر الوزن.

(٤) كلمة «مِنْ» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن.

(٥) الغبة: البلغة من العيش. محيط المحيط (غيب).

ومُعْتَد، وليتني إذا جادت سحابة ذلك الخاطر الماطر الودق، وانجاب العاني عن مُرَّة فكرتي، بتقاضى الجواب، انجياب الطوق، وأيقنتُ أني قد سُدَّ عليّ باب القول وأزتحج، وقلت: هذه السالفة الكلية فسدت لها الداعة من تكلم الإمرة ولم أنه إذ أعوزت المرأة بالخُلوة، لكنني قلت: وجدُّ المكثر كجهد المقل، والواجب قد يقل الامثال فيه بالأقل. فبعثت بها على علاتها، وأبلغتها عذرها، في أن كتبت عن شوقها بِلغاتها، وهي لا تُغْدَم من سيدي في إغضاء كريم، وإرضاء سليم. والله، عز وجل، يَصِل بالتائيس الخبل، ويجمع الشمل.

والسلام الكريم يخص تلك السيادة، ورحمة الله وبركاته. من محمد بن أحمد الفشتالي.

وهو الآن قاض بفاس المذكورة، محمود السيرة، أبقاه، وأمتع به.

محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى
ابن عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي بن داود القرشي المقرئ^(١)

يكنى أبا عبد الله، قاضي الجماعة بفاس وتلمسان.

أوليته: نُقلت من خطه، قال^(٢): وكان الذي اتخذها من سلفنا قرارًا بعد أن كانت لمن قبله مزارًا^(٣)، عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي المقرئ، صاحب أبي مَذِين^(٤)، الذي دعا له ولذريته، بما ظهر فيهم من قبول^(٥) وتبيين. وهو أبي الخامس؛ فأنا محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن، وكان هذا الشيخ عُزوي^(٦) الصلاة، حتى أنه ربما امتحن بغير شيء فلم يؤنس منه التفات، ولا استشعر منه شعور، ويقال: إن هذا الحضور، مما أدركه من مقامات شيخه أبي مدين. ثم^(٧) اشتهرت ذريته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة، فمهدوا طريق الصحراء

(١) محمد بن محمد المقرئ، جد المقرئ صاحب كتاب نفح الطيب، وترجمته في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢٠٩) والتعريف بابن خلدون (ص ٥٩) ونيل الابتهاج (ص ٢٤٩) ونفح الطيب (ج ٧ ص ١٩٥) وأزهار الرياض (ج ١ ص ٥) و(ج ٤ ص ٢٠٤).

(٢) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ١٩٥). (٣) في النفح: «مزارًا».

(٤) أبو مَذِين: هو شعيب بن الحسين الأندلسي التلمساني، المتوفى سنة ٥٩٤ هـ، وقد تقدم ذكره في الجزء الأول من الإحاطة في ترجمة جعفر بن عبد الله بن محمد بن مبد بونة الخزاعي.

(٥) في النفح: «قبوله».

(٦) أغلب الظن أنه ينسب إلى عروة بن الزبير، الذي كان يطيل الصلاة ويكثر من الدعاء.

(٧) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ١٩٦ - ١٩٨).

بحفر الآبار، وتأمين التجار، واتخذوا طبل الرّحيل^(١)، وراية التّقدم^(٢) عند المسير. وكان ولدٌ يحيى، الذي^(٣) كان أحدهم أبو بكر، خمسة رجال، فعقدوا الشّركة بينهم فيما ملكوه^(٤) وفيما يملكونه على السّواء بينهم والاعتدال، وكان^(٥) أبو بكر ومحمد، وهما أرومتا نسبي من جميع جهات الأم والأب^(٦) بتلمسان، وعبد الرحمن وهو شقيقهما الأكبر بسجلماسة، وعبد الواحد وعلي، وهما شقيقاهم الصغيران، بأي والأثن^(٧) فاتخذوا هذه^(٨) الأقطار والحوائط والديار، فتزوجوا^(٩) النساء، واستولدوا الإمام. وكان التلمساني يبعث إلى الصّحراوي بما يرسم له من السلع. ويبعث إليه الصّحراوي بالجلد والعاج والجوز والثّبر، والسّجلماسي كلّسان الميزان يعرفهما بقدر الرّجحان والخسران^(١٠)، ويكتبهما بأحوال التجار، وأخبار البلدان، حتى اتسعت أموالهم، وارتفعت في الفخامة^(١١) أحوالهم. ولما افتتح التّكرور كورة أي والأثن وأعمالها، أصيبت أموالهم فيما أصيب من أموالها، بعد أن جمّع من كان بها^(١٢) منهم إلى نفسه الرّجال، ونصّب دون^(١٣) ماله القتال. ثم اتصل بملكهم فأكرم مثواه، ومكّنه من التجارة بجميع بلاده، وخاطبه بالصدّيق الأحبّ، والخلاصة الأقرب. ثم صار يكتب من بتلمسان، يستقضي منهم ما ربه، فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة، وعندي من كتبه وكتب الملوك بالمغرب، ما ينبىء عن ذلك، فلما استوثقوا من الملوك، تذلّت لهم الأرض للسلوك، فخرجت أموالهم عن الحدّ، وكادت تفوق^(١٤) الحصر والعُدّ؛ لأن بلاد الصّحراء، قبل أن يدخلها أهل مصر، كانت^(١٥) تجلب لها من المغرب ما لا بال له^(١٦) من السّلع، فيعّاوز^(١٧) عنه بماله بال من الثمن^(١٨). ثم قال أبو مدين: الدنيا ضمّ جنب أبي حمو^(١٩)، وشمل ثوباه. كان يقول: لولا الشناعة لم أزل في بلادي تاجرًا من غير تجار الصّحراء الذين يذهبون بخبيث السّلع، ويأتون بالثّبر الذي

- (١) في النفع: «طبلًا للرّحيل».
- (٢) في النفع: «تقدم».
- (٣) في النفع: «الذين أحدهم».
- (٤) في النفع: «بينهم في جميع ما ملكوه أو يملكونه...».
- (٥) في النفع: «مكان».
- (٦) في النفع: «أمي وأبي».
- (٧) هو موضع بالصّحراء.
- (٨) في النفع: «بهذه الأقطار والحوائط».
- (٩) في النفع: «وتزوجوا».
- (١٠) في النفع: «بقدر الخسران والرجحان».
- (١١) في النفع: «الضخامة».
- (١٢) في النفع: «فيها».
- (١٣) في النفع: «دونها ودون ما لهم القتال».
- (١٤) في النفع: «تفوت».
- (١٥) في النفع: «كان يجلب إليها من...».
- (١٦) ما لا بال له: أي ما ليس بذي شأن.
- (١٧) في النفع: «فتعّاوز».
- (١٨) في النفع: «الثمن. أي مدبر دنيا ضمّ جنب أبي حمو...».
- (١٩) أبو حمو: هو موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان، كما سيرد بعد قليل في عنوان: مولده.

كل أمر الدنيا له تبع، ومن سواهم يحمل منها الذهب، ويأتي إليها بما يضمحل عن قريب ويذهب، إلى ما يغير من العوائد، ويجزئ السفهاء إلى المفاسد.

ولما هلك^(١) هؤلاء الأسياف، جعل أبناؤهم ينفقون مما تركوا لهم ولم يقوموا بأمر التثمير قيامهم، وصادفوا توالي الفتن، ولم يسلموا من جور السلطان^(٢)، فلم تزل^(٣) حالهم في نقصان إلى هذا الزمان^(٤)، فما أنا ذا لم أدرك^(٥) في ذلك إلا أثر نعمة اتخذنا فصوله غيشا، وأصوله حُرمة. ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب، وأسباب كثيرة تعين على الطلب، فتفرغت بحول الله، عز وجل، للقراءة، فاستوعبت أهل البلد لقاء، وأخذت عن بعضهم عرضا وإلقاء، سواء المقيم القاطن، والوارد والظاعن.

حاله: هذا^(٦) الرجل مشار إليه بالعُدوة المغربية اجتهدا، ودؤوبا، وحفظا وعناية، واطلاعا، ونقلا ونزاهة، سليم الصدر، قريب الغور، صادق القول، مسلوب التصنع، كثير الهشة، مفرط الخفة، ظاهر السذاجة، ذاهب أقصى مذاهب التخلق، محافظ على العمل، مثابر على الانقطاع، حريص على العبادة، مضائق في العقد والتوجه، يكابد من تحصيل النية بالوجه واليدين مشقة، ثم يغافض^(٧) الوقت فيها، ويوقعها دُفعة متبعا إياها زغفة التكبير، برخفة يثبو عنها سمع من لم يكن^(٨) تأنس بها عادة، بما هو دليل على حُسن المعاملة، وإرسال السجية، قديم النعمة، مُتصل الخيرية، مُكب على النظر والدرس والقراءة، معلوم الصيانة والعدالة، منصف في المذاكرة، حاسر الذراع^(٩) عند المباحثة، راحب عن الصدر في وطيس المناقشة، غير مختار للقرن، ولا ضان^(١٠) بالفائدة، كثير الالتفاف، متقلب الحدة، جهيز بالحجة، بعيد عن المراء والمباهة، قائل بفضل أولي الفضل من الطلبة، يقوم أتم القيام على العربية والفقه والتفسير، ويحفظ الحديث، ويتهجز بحفظ الأخبار^(١١) والتاريخ والآداب، ويشارك مشاركة فاضلة في الأصليين والجدل والمنطق، ويكتب ويشعر

(١) في النسخ: «ولما درج».

(٢) في النسخ: «السلطين».

(٣) في النسخ: «يزل».

(٤) في النسخ: «الزمن».

(٥) في النسخ: «من».

(٦) النص في نسخ الطيب (ج ٧ ص ١٩٩ - ٢٠٠).

(٧) في النسخ: «يغافض».

(٨) في النسخ: «من لم تؤنسه بها العادة».

(٩) في النسخ: «الذراع».

(١٠) ضان: اسم فاعل ضن أي بخل. لسان العرب (ضن).

(١١) في النسخ: «يحفظ التاريخ والأخبار».

مصيبًا في ذلك^(١) غرض الإجادة، ويتكلم في طريقة الصوفية كلام أرباب المقال، ويعتني بالتدوين فيها. شَرَقَ وحجَّ، ولقي جِلَّةً، واضطبن^(٢) رحلة مفيدة، ثم آب إلى بلده، فأقرأ به، وانقطع إلى خدمة العلم. فلما ولي ملك المغرب السلطان، محالف الصنع ونشيدة الملك، وأثير الله من بين القرابة والإخوة أمير المسلمين^(٣) أبو عنان فارس^(٤)، اجتذبه وخلطه بنفسه، واشتمل عليه، وولاه قضاء الجماعة بمدينة فاس، فاستقل بذلك أعظم الاستقلال، وأنفذ الحكم^(٥)، وألان الكلمة، وأثر التشنيد، وحمل الكل^(٦)، وخفض الجناح، فحسنت عنه القالة^(٧)، وأحبته الخاصة والعامة. حضرت بعض مجالسه للحكم، فرأيت من صبره على اللد^(٨)، وتأتيه^(٩) للحجج ورفقه بالخصوم، ما قضيت منه العجب.

دخوله غرناطة: ثم^(١٠) لما أخر عن القضاء، استعمل بعد لأي في الرسالة، فوصل الأندلس، أوائل جمادى الثانية من عام ستة^(١١) وخمسين وسبعمائة. فلما قضى غرض الرسالة^(١٢)، وأبرم عقد وجهته، واحتل مالقة في منصرفه، بدا له في نبذ الكلفة، وأطراح^(١٣) وظيفة الخدمة، وحل التقيد، إلى ملازمة الإمرة، فتقاعد، وشهر غرضه، وبث في الانتقال، طمع من كان صحبته، وأقبل على شأنه، فخلّي بينه وبين همه. وترك وما انتحله من الانقطاع إلى ربه. وطار الخبر إلى مرسله، فأنف من تخصيص إيالته بالهجرة، والعدول عنها، بقصد التخلي والعبادة، وأنكر ما نحله^(١٤) غاية الإنكار، من إبطال عمل الرسالة، والانقباض قبل الخروج عن العهدة، فوغر صدره على صاحب الأمر، ولم يُبعد حمله على الظنة والمواطأة على النفرة، وتجهزت جملة من الخدام المجلّين في مازق^(١٥) الشبهة، المضطلعين بإقامة الحجة، مؤلين خطة الملام، مخيرين بين سحائب عادٍ من الإسلام، مظنة إغلاق النعمة^(١٦).

(١) قوله: «في ذلك» غير وارد في النفع.

(٢) اضطبن الرحلة: اعتزمها.

(٤) هذه الكلمة غير واردة في النفع.

(٦) الكل: الثقب. محيط المحيط (كلل).

(٣) في النفع: «المؤمنين».

(٥) في النفع: «الحق».

(٧) حسنت عنه القالة: حسن قول الناس فيه.

(٨) اللد: الخصومة الشديدة. لسان العرب (لد).

(٩) في النفع: «وتأتيه».

(١٠) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٠٠ - ٢٠٢).

(١١) في الأصل: «ست» وهو خطأ نحوي. وفي نفع الطيب: «سبعة».

(١٢) في النفع: «رسالته».

(١٣) في الأصل: «واضطراح» والتصويب من النفع.

(١٤) في النفع: «ما حقه الإنكار».

(١٥) في النفع: «مازق».

(١٦) في النفع: «النعمة».

وإيقاع المثلة^(١)، والإساءة^(٢) بسبب القطيعة والمُنابذة. وقد كان المترجم به لحق بغرناطة فتذم بمسجدها، وجار^(٣) بالانقطاع إلى الله، وتوعد من يُجيره^(٤) بنكير من يُجير ولا يُجار عليه سبحانه، فأهم أمره، وشغلت القلوب أبدته، وأمسك الرسل بخلال ما صدرت شفاعته^(٥) له رفع التبعة، وتزكه إلى تلك الوجهة.

ولما تحصل ما تيسر من ذلك، انصرف محفوقاً بعالمى القطر، قاضي الجماعة أبي القاسم الحسنى المترجم^(٦) به قبله، والشيخ الخطيب أبي البركات بن الحاج، مُستهلين^(٧) لوروده، مُشافهين للشفاعة^(٨) في غرضه، فأقشعت^(٩) الغمة، وتنفست الكربة. وجرى أثناء هذا من المراسلة والمراجعة، ما تضمنه الكتاب المسمى بـ«كناسة الدكان بعد انتقال السكان» المجموع بسلا ما صورته:

«المقام الذي يحبُّ الشفاعة، ويرعى الوسيلة، ويُنجز العدة، ويتمم الفضيلة، ويُضفي مجده المنن الجزيلة، ويُعبي حمده الممادح المريضة الطويلة، مقام محل والدنا الذي كرم مجده، ووضح سعده، وصنع في الله تعالى عقده، وخلص في الأعمال الصالحة قضده، وأعجز الألسنة حمده، السلطان الكذا^(١٠) ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاه الله سبحانه لوسيلة يرعاها، وشفاعة يُكرم مسعاها، وأخلاق جميلة تجيب دغوة الطبع الكريم إذا دعاها، مُعظّم سلطانه الكبير، ومُمتجد مقامه الشهير، المُشيع لأبوته الرفيعة قولاً باللسان واعتقاداً بالضمير، المعتمد منه بعد الله على الملجأ الأحمى والولي النصير. فلان^(١١). سلام كريم، طيب برّ عميم، يخص مقامكم الأعلى، وأبوتكم الفضلى، ورحمة الله وبركاته.

أما بعد^(١٢) حمد الله، الذي جعل الخلق الحميدة دليلاً على عنايته بمن حلاه خلّاه، وميّز بها النفوس النفيسة، التي اختصها بكرامته وتولّاه، حمداً يكون كفوّاً

(١) في النفع: «العقوبة».

(٢) في النفع: «أو الإساءة بسبب إجارته بالقطيعة...».

(٣) في الأصل: «جار» بدون همزة، والتصويب من النفع. وجار إلى الله: رفع صوته بالدعاء.

(٤) في النفع: «يجيره».

(٥) في النفع: «اقتضى له فيها رفع...».

(٦) في النفع: «مسلمين».

(٧) في النفع: «فانقشعت».

(٨) في النفع: «المذكور قبله».

(٩) في النفع: «بالشفاعة».

(١٠) أغلب الظن أنه أبو عنان فارس ابن أبي الحسن المربني، سلطان المغرب، المتوفى سنة ٧٥٩ هـ. راجع حاشية عنان.

(١١) هو ثامن سلاطين بني نصر محمد بن أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل، وقد حكم غرناطة من عام ٧٥٥ إلى عام ٧٩٣ هـ. راجع اللوحة البدرية (ص ١١٣، ١٢٩).

(١٢) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٠٢ - ٢٠٤).

للنعم التي أولاها، وأعادها ووالاها، والصلاة والسلام^(١) على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله، المترقي من درجات الاختصاص أزفعها وأعلاها، الممتاز من أنوار الهداية بأوضحها وأجلاها، مطلع آيات السعادة يرُوق مُجَلاها، والرضا عن آله وصحبه الذين خَبَرَ صدق ضمائرهم لَمَّا ابتلاها، وَعَسَلَ ذكْرهم^(٢) في الأفواه فما أغدب أوصافهم على الألسن وأحلاها، والدعاء لمقام أبوتكم حَرَسَ الله تعالى عُلاها، بالسعادة التي يقول الفتح: أنا طَلَعَ الثنايا وابن جَلاها^(٣)، والصنائع التي تخرق المفاوز بركائبها المُبَشِّرَات فتَقْلِي فلاها. فلنا كتبنا إليكم، كَتَبَ الله تعالى لكم عَزَّةً مشيئة البناء، وحشد على أعلام صنائعكم الكرام جيوش الشناء، وقلدكم قلائد^(٤) مكارم الأخلاق، ما يشهد لذاتكم منه بسابقة الاعتناء. من خَمراء غرناطة حرسها الله، والوُدُّ باهر السناء^(٥)، مُجَدُّ على الأناء، والتَّشْيِيع رَحْبَ الدَّسِيعَةِ^(٦) والفناء.

وإلى هذا، وصل الله تعالى سَعَدَكم، وحرس مجدكم! فلنا خاطبنا مقامكم الكريم، في شأن الشيخ الفقيه الحافظ الصالح أبي عبد الله المقرئ، خار الله تعالى لنا وله، وبلغ الجميع من فضله العميم أَمَلَهُ، جواباً عما صدر من مثابكم^(٧) فيه من الإشارة المُمَثِّلَةِ^(٨)، والمآرب المَعْمَلَةِ، والقضايا غير المهمة، تُصَادِرُكم بالشفاعة التي مِثْلُهَا بأبوابكم لا يُرَدُّ، وَظَمَّأَهَا عن مَنَهْلِ قبولكم لا تجلى^(٩) ولا تُصَدُّ، حسبما سئله الأب الكريم والجَدُّ، والقَبِيلُ الذي وَضَحَ منه في المكارم الرسم والحَدُّ. ولم تُضِدِر الخطاب حتى ظهر لنا من أحواله صدقُ المَخِيلَةِ، وتَبَلَّجَ صُبْحَ الزَّهَادَةِ والفضيلة، وجُودِ النفس السَّحِيحَةِ بِالْعَرَضِ الأدنى البَخِيلَةِ، وظهر تَخْلِيهِ عن هذه الدار، واختلاطه باللفيف والعُمار، وإقباله على ما يعني مثله من صلة الأوراد، ومداومة الاستغفار. وكُنَّا لما تعرَّفنا إقامته بمالقة لهذا الغرض الذي شَهِرَهُ، والفضل الذي أَبْرَزَهُ للبيان

(١) كلمة «والسلام» غير واردة في النسخ.

(٢) عسل ذكْرهم في الأفواه: أصبح حلواً كالعسل، وهو كناية عن استعذاب الحديث عنهم. لسان العرب (عسل).

(٣) أخذه من قول سُحَيْم بن وثيل الرياحي: [الوافر]

أنا ابنُ جَلا وطلاغُ الثنايا متى أضحى العجماء نعرفوني الشعر والشعراء (ص ٥٣٨).

(٤) في النسخ: «من قلائد».

(٥) في النسخ: «السنا، ظاهر السناء، مجدّد على...».

(٦) الدسيعة: الخُلُق؛ ورحب الدسيعة: طيب الخُلُق والطباع. محيط المحيط (دسع).

(٧) في النسخ: «مثابكم».

(٨) في النسخ: «الممثلة».

(٩) في النسخ: «لا تحلا».

وأظهره، أمرنا أن يُعْتَنَى بأحواله، ويُعَان على فراغ باله، ويُجْرى عليه سَيْبٌ من ديوان الأعيان الشرعية وصريح ماله، وقلنا: أما أذاك من غير مسألة مستند صحيح لاستدلاله، ففرّ من مألقة على ما تعرّفنا لهذا السبب، وقعد بحضرتنا مستور المُتَمَي والمُتَنَسِب، وسكن بالمدرسة بعض الأماكن المعدة لسكنى المُتَسَمِين بالخير، والمحترفين ببضاعة الطلب، بحيث لم يُتَعَرَف وروده ووصوله إلا ممن لا يُؤْبَهُ بتعريفه، ولم تتحقق زوائده وأصوله لقلة تضرّيفه. ثم تلاحق إرسالكم الجيلة. فوجبت حينئذ الشفاعة، وعُرِضت على سوق الحلم والفضل من الاستلطاف والاستغطف البضاعة، وقررنا ما تحققناه من أمره، وانقباضه عن زُيد الخلق وعمره، واستقباله الوجهة التي من ولى وجهه شطرها فقد أثر أثيراً، ومن ابتاعها بمتاع الدنيا فقد نال فضلاً كبيراً وخيراً كثيراً، وسألنا منكم أن تسيحوه ذلك الغرض الذي رماه بعزمه، وقصّر عليه أقصى همه. فما أخلق مقامكم أن يفوز منه طالب الدنيا بسهمه، ويحصل منه طالب الآخرة على حظه الباقي وقسمه، ويتوسّل الزاهد بزهده والعالم بعلمه، ويعول البريء على فضله، ويشق المذنب بجلمه. فوصل الجواب الكريم بمجرد الأمان، وهو أربّ من آراب^(١)، وفائدة من جراب، ووجه من وجوه إعراب، فرأينا أن المَطل بعد جفاء، والإعادة ليس يثقلها خفاء، ولمجدكم بما ضمنا عنه وفاء، وبادرنا الآن إلى العزم عليه في ارتحاله، وأن يكون الانتقال عن رضا منه من صفة حاله، وأن يقتضي له ثمرة المقصد، ويبلغ طية الإسعاف في الطريق إن قصد، إذ كان الأمان لمثله ممن تعلق بجناب الله من مثلكم حاصلاً، والدّين المتين بين نفسه وبين المخافة فاصلاً، وطالب^(٢) كيمياء السعادة بإعانتكم واصلًا. ولما مدت اليد في تسويغ حالة هديكم عليها أبداً يُحرّض، وعلمكم يُصرّح بمزيتها ولا يُعرّض، فكمّلوا أبقاكم الله ما لم تسعنا فيه مشاحة الكتاب، وألحقوا بالأصل حديث هذه الإباحة فهو أصحّ حديث في الباب، ووفّوا غرضنا من مجدكم، وخلّوا بينه وبين مراده من ترك الأسباب، وقصد غافر الذنب وقابل الثوب بإخلاص المتاب، والتشهير ليوم الغرض وموقف الحساب، وأظهروا عليه عناية الجناب، الذي تعلق به، أعلق الله به يدكم من جناب، ومعاذ الله أن تعود شفاعتنا من لدنكم غير مكتملة الآراب. وقد بعثنا من ينوب عنا في مشافهتكم بها أحمد المناب، ويقتضي خلاصها بالرغبة لا بالغلاب، وهما فلان وفلان. ولولا الأعذار لكان في هذا الغرض إعمال الركاب، بسبق^(٣) أعلام الكتاب، وأنتم تؤلّون هذا القصد من مكارمكم ما يوفّر الشناء الجميل، ويُزبي على التأميل، ويكتب على الودّ الصريح العقد وثيقة

(١) الآراب: جمع أرب وهو البنية والمطلب. لسان العرب (أرب).

(٢) في الأصل: «وطالبنا» والتصويب من النفع. (٣) في النفع: «يسبق».

التَّسْجِيل. وهو سبحانه يُبْقِيكُمْ لتأييد المجد الأثيل، وإنالة الرُّفْد الجزيل. والسلام الكريم يَخْصُّ مقامكم الأعلى، ومَثَابَتكم الفضلى، ورحمة الله تعالى وبركاته. في الحادي والعشرين لجمادى الآخرة من عام سبعة وخمسين وسبعمئة، والله ينفع بقضده، ويسر علينا الرجعة إلى وَجْهه وفضله^(١).

مُشِيخته: قال^(٢): فَمِمَّنْ أَخَذْتُ عَنْهُ، وَاسْتَفَدْتُ مِنْهُ عِلْمَاهَا، يَعْنِي تَلْمِسان، الشَّامِخَان، وعالماها الراسخان: أبو زيد عبد الرحمن، وأبو موسى عيسى، ابنا محمد بن عبد الله بن الإمام^(٣)، وحافظها ومُدْرَسُها ومُفْتِيها أبو موسى عمران بن موسى بن يوسف المَشْدَالِي^(٤)، صهر شيخ المتأخرين^(٥) أبي علي ناصر الدين^(٦) على ابنته، ومشكاة الأنوار التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تَمْسُسه نار، الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن حكيم الكِنَانِي^(٧) السُّلَوِي، رحمه الله. ومنهم القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور^(٨)، والشيخ أبو عبد الله محمد بن الحسن^(٩) البرُونِي، وأبو عمران موسى بومين^(١٠) المَضْمُودِي الشهير بالبُخَارِي. قال: سمعت البرُونِي يقول: كان الشيخ أبو عمران يُدْرَسُ البُخَارِي^(١١)، ورفيق له يدرُس صحيحَ مُسْلِم، وكانا يُعْرِفَانِ بالبُخَارِي ومُسْلِم، فشهدا عند قاض، فطلب المشهودُ عليه بالإعذار فيهما، فقال له أبو عمران: أتمكُّنه من الإعذار في الصُّحُوحين البُخَارِي ومُسْلِم؟ فضحك القاضي، وأصلح بين الخصمين. ثم قال: ومن شيوخ الصلحاء الذين لقيت بها، خطيبها الشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي الخياط، أدرك أبا

(١) قوله: «والله ينفع حتى: وفضله» غير وارد في النفع.

(٢) تحدث المقرئ عن مشيخة ابن الخطيب في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٠٦، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢٣ - ٢٢٤، ٢٢٨).

(٣) ترجمة ابني محمد بن عبد الله بن الإمام في التعريف بابن خلدون (ص ٢٨) والديباج المذهب (ص ١٥٢) ونيل الابتهاج (ص ١٣٩).

(٤) في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢١٣): «المشدالي». وترجمة المشدالي في نيل الابتهاج (ص ٣٧٧).

(٥) في النفع: «المدرسين».

(٦) هو منصور بن أحمد بن عبد الحق، المتوفى سنة ٧٣١ هـ. ترجمته في نيل الابتهاج (ص ٣٧٧) وعنوان الدراية (ص ١٣٤).

(٧) كلمة «الكِنَانِي» غير واردة في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢١٤).

(٨) ترجمة أبي عبد الله بن عبد النور في التعريف بابن خلدون (ص ٤٦) وجذوة الاقتباس (ص ١٩٠) ونيل الابتهاج (ص ٢٤١).

(٩) في النفع (ج ٧ ص ٢١٤): «الحسين». وترجمته البروني في نيل الابتهاج (ص ٢٢٨).

(١٠) هذه الكلمة غير واردة في النفع. (١١) في النفع: «يدرس صحيح البخاري».

إسحق الطيار. ومنهم أبو عبد الله بن محمد الكرموني، وكان بصيرًا بتفسير الرؤيا، فمن عجائب شأنه، أنه كان في سجن أبي يعقوب يوسف بن عبد الحق مع من كان فيه، من أهل تلمسان أيام محاصرته لها، فرأى أبا جمعة علي التالسي الجرايحي منهم، كأنه قائم على ساقية دائرية، وجميع أقداحها وأقواسها تصب في نقيير في وسطها، فجاء ليشرب، فاغترف الماء، فإذا فيه قرث ودم، فأرسله، واغترف فإذا هو كذلك، ثلاثًا أو أكثر، ثم عدل إلى خاضة ماء، فجاءها وشرب منها. ثم استيقظ، وهو النهار، فأخبره، فقال: إن صدقت الرؤيا، فنحن عن قليل خارجون من هذا السجن. قال: كيف؟ قال: الساقية الزمان، والنقيير السلطان، وأنت جرايحي، تدخل يدك في جوفه فينالها القرث والدم، وهذا ما لا يحتاج معه إلى دليل، فأخرج، فوجد السلطان مطعمًا بخنجير، فأدخل يده في جوفه، فناله القرث والدم، فخاط جراحته وخرج، فرأى خاضة ماء، فغسل يده وشرب. ولم يلبث السلطان أن توفي، وسرحوا من كان في سجنه. ومن أشياخه الإمام نسيج وحده، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد الأبلي التلمساني، وهو زحلة الوقت في القيام على الفنون العقلية، وإدراكه وصحة نظره.

حدث قال: قدم على مدينة فاس، شيخنا أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي، عُرف بابن المُسفر، رسولاً من صاحب بجاية. وزاره الطلبة، فكان مما حدثهم أنهم كانوا على زمان ناصر الدين، يستشكلون كلامًا وقع في تفسير سورة الفاتحة من كتب فخر الدين، واستشكله الشيخ معهم. وهذا نصه: ثبت في بعض العلوم العقلية، أن المركب مثل البسيط في الجنس، والبسيط مثل المركب في الفصل، وأن الجنس أقوى من الفصل، فأخبروا بذلك الشيخ الأبلي لما رجعوا إليه، فتأمل ثم قال: هذا كلام مُصَحَّف، وأصله أن المركب قبل البسيط في الجنس، والبسيط قبل المركب في العقل، وأن الجنس أقوى من العقل، فأخبروا ابن المُسفر، فليج، فقال لهم الشيخ: التمسوا النسخ، فوجدوا في لفظ بعضها كما قال الشيخ.

رحلته: رحل^(١) إلى بجاية مُسَرِّقًا، فلقي بها جلّة، منهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي، ابن المُسفر^(٢). ومنهم قاضيها أبو عبد الله محمد ابن الشيخ

(١) راجع نفع الطبيب (ج ٧ ص ٢٣٦ - ٢٣٧، ٢٣٩).

(٢) توفي ابن المسفر في عام ٧٤٣ هـ، وترجمته في نيل الابتهاج (ص ٢٣٧) والديباج المذهب (ص ٣٣٢).

أبي يوسف يعقوب الزواوي، فقيه ابن فقيه. ومنهم أبو علي^(١) حسن بن حسن إمام المَعْقُولَات بعد ناصر الدين. وبتونس قاضي الجماعة وفقهها أبو عبد الله بن عبد السلام^(٢)، وحضر دروسه، وقاضي المَنَاكِح أبو محمد اللخمي^(٣)، وهو حافظُ فقهاءها في وقته، والفقهاء أبو عبد الله بن هارون شارح ابن الحاجب في الفقه والأصول. ثم حجَّ فلقي بمكة إمام الوقت أبا عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن التُّوزَرِي، المعروف بخليل، وإمام المقام أبا العباس رضي^(٤) الدين الشافعي، وغير واحد من الزَّائِرِينَ والمجاورين وأهل البلد. ثم دخل الشام، فلقي بدمشق شمس الدين بن قَيْم الجَوْزِيَّة، صاحب ابن تَيْمِيَّة، وصدر الدين الغُمَارِي المالكي، وأبا القاسم بن محمد اليماني الشافعي وغيرهم. وببيت القدس أبا عبد الله بن مُثَبِّت، والقاضي شمس الدين بن سالم، والفقهاء أبا عبد الله بن عثمان، وغيرهم.

تصانيفه: أَلْف^(٥) كتابًا يشتمل على أزيد من مائة مسألة فقهية، ضمَّنَها كل أصيل^(٦) من الرأي والمباحث. ودوَّن في التَّصَوُّف إقامة المُريد، وِرْخلة المُتَبَتِّل، وكتاب الحقائق والرقائق، وغير ذلك.

شعره: نقلتُ^(٧) من ذلك قوله: هذه لمحَّة العارض لتكملة أَلْفِيَّة ابن الفارض، سَلَبَ الدهرُ من فرائدها مائة وسبعة وسبعين، فاستعنت على ردِّها بحول الله المعين.

من فصل الإقبال^(٨): [الطويل]

رَفَضْتُ السَّوَى وَهُوَ الطَّهَّارَةُ عِنْدَمَا	تَلَفَعْتُ فِي مِرْطِ الْهَوَى وَهُوَ زِينَتِي
وَجِئْتُ الْجَمَى وَهُوَ الْمُصَلَّى مُيَمَّمًا	بُوجْهَةٍ قَلْبِي وَجْهَهَا وَهُوَ قِبْلَتِي
وَقَمْتُ وَمَا اسْتَفْتَحْتُ إِلَّا بِذِكْرِهَا	وَأُخْرَمْتُ إِحْرَامًا لَغَيْرِ تَجَلَّةٍ ^(٩)
فَدِينِي إِنْ لَاحَتْ رُكُوعٌ وَإِنْ دَنَتْ	سُجُودٌ وَإِنْ لَاحَتْ ^(١٠) قِيَامٌ بِخُسْرَةٍ

(١) في النفع: «أبو علي حسين بن حسين».

(٢) هو محمد بن عبد السلام المُسْتِيرِي، المتوفى سنة ٧٥٠ هـ. وترجمته في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٩) والتعريف بابن خلدون (ص ١٩) والديباج المذهب (ص ٣٣٦) ونيل الابتهاج (ص ٢٤٠).

(٣) في النفع: «الأجمي».

(٤) في النفع: «ابن رضي».

(٥) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٦٦).

(٦) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣٠٦).

(٧) القصيدة في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣٠٦ - ٣٠٨).

(٨) في النفع: «تحلة» بالحاء غير المعجمة. (٩) لاهت: تسرت. محيط المحيط (لا).

على أننا في القُرب والبُعد واحد
وكم من هَجِير خُضْتُ ظمآنً طاوياً
وفيها لقيتُ الموتَ أحمَرَ والعِدا
وبيني وبين العَذل فيها منازلُ
ولما اقْتَسَمْنَا خُطَّتَيْنَا فحاملُ
خلا مَسْمَعِي من ذكرها فاستعدته
وكم لي على حُكْم الهوى من تجلُدٍ
يقول سَمِيرِي والأسا سالم الأسى
لو أنَّ مجوساً بَتَّ موقِدَ نارِها
ولو كنتُ بَخْرًا لم يكن فيه نَضْحَةٌ
فلا رَذَمٌ مِنْ نَقَبٍ^(٥) المعاولِ آمِنُ
فمِمَّ تقولُ الأسْطِقْسَاتِ^(٧) منك أو
فإنَّ قامَ لم يَثْبُثْ له منك قاعدُ
فما أنت يا هذا الهوى؟ ماءٌ أو هوا
وإني على صبري كما أنت^(٨) واصفُ
أقلُّ الضنى أن عَجَّ من جسمي الضنى
وأيسرُ شوقي أنني ما ذكرْتُها
وأخفي الجوى قرعُ الصواعقِ منك في
وأسهلُ ما ألقى من العَذل أنني
وأزجُ حظوظي اليوم منها حضيضُها
وأوجزُ أمري أنَّ دهري كلُّه

تؤلَّفنا^(١) بالوصل عينُ التَّشْتِ
إليها وديجور طويثُ برحلة^(٢)
بزُرْقَةٍ^(٣) أسنانِ الرِّماحِ وجِدَّةُ
تُنْسِيكَ أيامَ الفِجارِ ومُؤْتَةٌ
فجارٍ بلا أجرٍ وحاملُ بَرَّةٍ
فعاد ختامُ الأمرِ أضلَّ القضية
دليلُ على أنَّ الهوى من سَجِيَّتِي
ولا تُوضَعُ الأوزارُ إلا لِمُخَنَّةٍ
لما ظلَّ إلا مَنهلاً ذا شريعة
لعينٍ إذا نارُ الغرامِ استحرَّتْ^(٤)
ولا هَدمَ إلا منك^(٦) شيد بقوة
علامَ مزاجٍ رُكبت أو طبيعة
وإلا فأنت الذَّهرُ صاحبُ قِغدة
أم النارُ أم دَسَّاسُ عِرْقِ الأمومة؟
وحالي أقوى القائمين بخُجَّةٍ
وما شاكُهُ مِغْشَارُ بعضِ شَكِيَّتِي
ولم أتسها إلا احترقتُ بلوْعَةٍ
جَوَّاي وأخفى الوجد صَبْرُ المودة
أحبُّ أَقْلِي^(٩) ذكرها وفضيحتي
بالأمس وَسَلَّ حَرُّ الجفونِ الغزيرة
كما شاءتِ الحسناءُ يومَ الهزيمة

(١) في الأصل: «تألَّفنا» والتصويب من النفع.

(٢) طاوياً: أي طاوياً بطني من الجوع. طويث: قطعت واجتزت. لسان العرب (طوى).

(٣) في الأصل: «مُزْرَقَةٌ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٤) استحرَّت: اشتدَّت. محيط المحيط (حرر).

(٥) في الأصل: «نقيب» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٦) في الأصل: «إلاك شيد» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٧) في الأصل: «الأسفطسات» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٨) في النفع: «أنا».

(٩) في الأصل: «أقلي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

وأغدو ما يعدو التفجع خطتي
مساءتها في طي طيب المسرة
وحسبك أن لم يُخبر الحب رؤيتي
أوام بلا ري، دم لا بقيمة
وإن ترض منها الصبر فهو تعتي^(١)
ركاب ملامي فهو أول محنتي
وخلوا سبيلي ما استطعتم ولوعتي
ولكن رأيت ذاك الجمال فجئت
ورُشدني غار والعمايا عمت
وراجعت إيصاري^(٢) له وبصيرتي

أروح وما يلقي التأسف راحتي
وكالبيض بيض الدهر والشعر سوده
وشأن الهوى ما قد عرفت ولا تمل
سقام بلا برء، ضلال بلا هدى
ولا عتب فالأيام ليس لها رضا
إلا أيها اللوام عني قوضوا
ولا تغذوني في البكاء ولا البكى
فما سلسلت بالدمع عيني إن جئت
تجلى وأرجاء الرجاء خوالك
فلم يستب حتى كاني كاسف

ومن فصل الاتصال^(٣): [الطويل]

عباب الردى بين الظبا والأسنة
مشاهدتي لما سمعت بي همتي
سوى صورة التنزيه في كل صورة
فلم أنتبه حتى امتحى اسمي وكنيتي
وعدت إلى اللاهوت بالمطمئنة
ولم يبق دوني حاجب غير هيبتتي
ومن كل أحوالي مقامات رفعة
مع المحو والإثبات عند تشبتي
لبسطي وقبضي بسط وجه البسيطة
وفي ملكوت النفس أكبر عبرة
مع الشكر إذ لم يحظ فيه مشوبتي
وأكني إذا هم صرخوا بالخبيثة
كنوع، ففضل النوع علّة حصتي

وكم موقف لي في الهوى خضت دونه
فجاوزت في حدي مجاهدتي له
وحل جمالي في الجلال فلا أرى
وغبت عن الأغيار في يبه حالتي
وكاتب ناسوتي بأمارة الهوى
وعلم يقيني صار عيناً حقيقة
ويذلت بالثلوين تمكين عزّة
وقد غبت بعد الفرق والجمع موقفي
وكم جلت في سم الخياط^(٤) وضاق بي
وما اخترت إلا دن بقراط زاهداً
وفقرى مع الصبر اصطفت على الغنى
وأكتم حبي ما كنى عنه أهله
وإني في جنسي ومنه لواحد

(١) في الأصل: «بغيتي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٢) في الأصل: «أبصاري»، والتصويب من النفع.

(٣) القصيدة في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣٠٨ - ٣٠٩) وجاء فيه: «وفي» بدل «ومن».

(٤) سم الخياط: ثقب الإبرة. محيط المحيط (سم) و(خيط).

تَسَبَّيْتُ فِي دَعْوَى التَّوَكُّلِ ذَاهِبًا
وَأَخْرُ حَرْفٍ صَارَ مِنِّي أَوَّلًا
تَعَرَّفْتُ يَوْمَ الرِّقْفِ مَنْزِلَ قَوْمِهَا
فَأَصْبَحْتُ أَقْضِي النَّفْسَ مِنْهَا مَنَى الْهَوَى
فَبَايَعْتُهَا بِالنَّفْسِ دَارًا سَكَنَتْهَا
فَخَلَّصَ الاسْتِحْقَاقُ نَفْسِي مِنَ الْهَوَى
فِيَا نَفْسُ لَا تَرْجِعِ تَقْطَعُ بَيْنَنَا

ومن فصل الإدلال^(١): [الطويل]

تَبَدُّثٌ^(٢) لِعَيْنِي مِنْ جَمَالِكَ لَمَحَةٌ
وَمَرَّتْ بِسَمْعِي مِنْ حَدِيثِكَ مُلْحَةٌ
مَلَامِي أَبْنُ، عَذْرِي اسْتَبْنُ، وَجَدِي اسْتَعْنُ
فَمَنْ شَاهِدِي سُخْطٍ وَمَنْ قَاتِلِي^(٤) رِضَا
مَرَامِي إِشَارَاتٍ، مَرَاعِي تَفَكَّرٍ^(٥)
وَفِي مَوْقِفِي وَالِدَارُ أَقْوَتْ رِسْمُهَا
مَعَانِي أَمَارَاتٍ، مَغَانِي تَذَكُّرٍ
وَبُتُّ غَرَامٍ، وَالْحَبِيبُ بِحَضْرَةٍ
وَمَطْلَعُ بَذْرِ فِي قَضِيبٍ عَلَى نَقَا
وَمَكْمَنُ سِخْرِ بَابِلِي لَهُ بِمَا
وَمَنْبَتُ مِسْكِ مِنْ شَقِيقِ ابْنِ مَنْذِرٍ
وَرَصْفُ اللَّالِي فِي الْيَرَاقِيتِ كُلَّمَا
سَلَّ السَّلْسَبِيلَ الْعَذْبَ عَنْ طَعْمِ رِيقِهِ
وَرُمَانُ كَافُورٍ عَلَيْهِ طَوَابِعُ
وَلُطْفُ هَوَاءٍ بَيْنَ خَفَقِ رِبَائَةٍ
لَقَدْ عَزَّ الصَّبْرُ حَتَّى كَأَنَّهُ

إِلَى أَنْ أُجْدَى حَيْلَتِي تَرَكُ حَيْلَتِي
مَرِيدًا وَخَرَفَ فِي مَقَامِ الْعُبُودَةِ
فَبِتُّ بِجَمْعِ سَدِّ خَرْقِ التُّشْتِ
وَأَقْضِي عَلَى قَلْبِي بِرَعِي الرَعِيَّةِ
وَبِالْقَلْبِ مِنْهُ مَنْزِلًا فِيهِ حَلَّتْ
وَأَوْجِبُ الاسْتِرْقَاقُ تَسْلِيمَ شُفْعَةٍ
وَيَا قَلْبُ لَا تَجْزَعِ ظَفِيرَتِ بَوَاحِدَةٍ

أَبَادَتْ فَوْدَايَ مِنْ سَنَاها بِلَفْحَةٍ^(٣)
تَبَدُّثٌ لَهَا فَيْكِ الْقِرَانِ وَقَرَّتْ
سَمَاعِي أَعْنُ، حَالِي أَبْنُ، قَاتِلِي أَضْمِتْ
وَتَلَوِينُ أَحْوَالِي وَتَمَكِينُ رُتَبَتِي
مَرَاقِي نَهَائِيَاتٍ، مَرَاسِي تَثْبِيتِ
تُقَرَّبُ أَشْوَاقِي تُبْعَدُ حَسْرَتِي
مَبَانِي بِدَايَاتٍ، مَثَانِي تَلَفَّتْ
وَرُدُّ سَلَامٍ وَالرَّقِيبُ بِغَفْلَةٍ
فَوَيْقَ مَحَلِّ عَاطِلٍ دُونَ دُجْيَةٍ
خَوْتُ أَضْلَعِي فَعَلُ الْقَنَا السُّمَهْرِيَّةِ
عَلَى سَوَسَنِ غَضٍّ بِجُنَّةٍ وَجُنَّةِ
تُعَلَّ بِصَرْفِ الرِّاحِ فِي كُلِّ سُخْرَةٍ
وَتُكْهِنُهُ بِخَبْرِكَ عَنْ عِلْمِ خَبْرَةٍ
مِنَ النَّدِّ^(٦) لَمْ تَحْمِلْ بِهِ بِنْتُ مُزْنَةٍ
وَرِقَّةُ مَاءٍ فِي قَوَارِيرِ فِضَّةِ
سُرَاقَةُ لِحْظٍ مِنْكَ لِمَتَلَفَّتْ

(١) القصيدة في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣٠٩ - ٣١١).

(٢) في الأصل: «تبوّب»، والتصويب من النفع. (٣) في الأصل: «بلفعة» والتصويب من النفع.

(٤) في النفع: «قاتلي». (٥) في الأصل: «تعكر» والتصويب من النفع.

(٦) الند: عود يتبخّر به. لسان العرب (ندد).

وَأَنْتَ وَإِنْ لَمْ تُبْقِ مِنِّي صَبَابَةً
وَكُلُّ فَصِيحٍ مِنْكَ يُسْرِي لِمَسْمَعِي
تَهْوُنُ عَلَيَّ النَّفْسُ فَيْكَ وَإِنِّهَا
فَإِنْ تَنْظُرِينِي بِالرُّضَا تُشَفِّ عُلَّتِي
وَإِنْ تَذَكِّرِينِي وَالْحَيَاةَ بِقَيْنِهَا
وَإِنْ تَذَكِّرِينِي بَعْدَمَا أَسْكُنُ الثَّرَى
صَلِّينِي وَإِلَّا جَدُّدِي الْوَعْدَ تُذَكِّرِي
فَمَا أُمُّ بَوِّ هَالِكٍ بِتَنُوفَةٍ^(١)
فَلَمَّا رَأَتْهُ لَا يَنْزَعُ خَلْفَهَا
بَكَتْ كُلَّمَا رَاحَتْ عَلَيْهِ وَإِنِّهَا
بِأَكْثَرِ مَنِّي لَوْعَةً غَيْرَ أَنَّنِي
فَرَحْتُ كَمَا أَغْدُو إِذَا مَا ذَكَرْتُهَا
أَهْوَنُ مَا أَلْقَاهُ إِلَّا مِنَ الْقَلَى
أَخْوَضُ الصُّلَى أَطْفِي الْعُلَا وَالْعُلُوَّ لَا
إِلَّا قَاتِلَ اللَّهِ الْحَمَامَةَ غُدُوَّةً
وَقَاتِلَ مَغْنَاهَا وَمَوْقِفَ شَجْوِهَا
فَغَنَّتْ غِنَاءً أَعْجَمِيًّا فَهَيَّجَتْ
فَأَرْسَلَتْ الْأَجْفَانُ سُخْبًا وَأَوْقَدَتْ
نَظَرْتُ بِصَحْرَاءِ الْبَرِيقَيْنِ نَظْرَةً
فِيَا لِهَمَّا قَلْبًا شَجِيًّا وَنَظْرَةً
وَوَاعَجِبَا لِلْقَلْبِ كَيْفَ اعْتَرَفَهُ
وَلِلْعَيْنِ لَمَّا سُوِّتْ كَيْفَ أَخْبَرَتْ
وَكُنَّا سَلَكَنَا فِي صَعُودٍ مِنَ الْهَوَى
إِلَى مَسْتَوَى مَا فَوْقَهُ فِيهِ^(٢) مَسْتَوَى

مُنَى النَّفْسِ لَمْ تَقْصِدْ سِوَاكَ بِوُجْهَةٍ
وَكُلُّ مَلِيحٍ مِنْكَ يَبْدُو لِمُقْلَتِي
لَتَكْرُمَ أَنْ تَغْشَى سِوَاكَ بِنَظْرَةٍ
وَإِنْ تُظْفِرِينِي بِاللِّقَا تُطْفِئُ غُلَّتِي
عَدَلْتُ لِأَمَّتِي مُنِيَّتِي بِمَنْيَّتِي
تَسْجِلْتُ دُجَاهَ عَسْنَدِ ذَاكَ وَوَلَّتْ
صَبَابَةً نَفْسٍ أَيْقَنْتُ بِتَفْلَتِ
أَقِيمَ لَهَا خَلْفَ الْجِلَابِ فَذَرْتُ
إِذَا هِيَ لَمْ تَرْسِلْ عَلَيْهِ وَضُنْتُ
إِذَا ذَكَرْتَهُ آخِرَ اللَّيْلِ خَنُتِ
رَأَيْتُ وَقَارَ الصُّبْرِ أَحْسَنَ جَلِيَّةٍ
أَطَامَنُ أَحْشَائِي عَلَى مَا أَجَنْتُ
هَوَى وَنَوَى نَيْلُ الرُّضَا مِنْكَ بِغِيَّتِي
أَصْلَ السَّلَا أَرَعَى الْخَلَى بَيْنَ عَبْرَتِي
لَقَدْ أَضَلَّتِ الْأَحْشَاءُ نِيرَانُ لَوْعَةٍ
عَلَى الْغُصْنِ مَاذَا هَيَّجَتْ حِينَ غَنَّتِ
غِرَامِي مِنْ ذِكْرِي عَهْدِي تَوَلَّتْ
جَوَايَ الَّذِي كَانَتْ ضُلُوعِي أَكُنْتُ^(٣)
وَصَلْتُ بِهَا قَلْبِي فَصَلَّى وَصَلَّتِ
حِجَازِيَّةٌ لَوْ جُنَّ طَرَفُ لُجْنَتِ
وَكَيْفَ بَدَتْ أَسْرَارُهُ خَلْفَ سِثْرَةٍ
وَلِلنَّفْسِ لَمَّا وُطِّئَتْ كَيْفَ ذَلَّتِ
يُسَامِي بِأَغْلَامِ الْعُلَا كُلِّ رُثْبَةٍ
فَلَمَّا تَوَافَيْنَا ثَبِتُ وَزَلَّتِ

(١) البؤ: ولد الناقة. التنوفة: الأرض الواسعة التي لا ماء فيها ولا إنسان. محيط المحيط (بو) و(تف).

(٢) أكنْتُ: سترت. محيط المحيط (كن).

(٣) كلمة «فيه» ساقطة من الإحاطة، وقد أضفناها من النفع.

وكنّا عقدنا عُقْدَةَ الوصل بيننا
مؤكدَةً بالسُّنْدَرِ أيامَ عهده

ومن فصل الاحتفال^(١): [الطويل]

أزورُ اعتمارًا أرضَها بئنسك
وفي نشاتي الأخرى ظهرتُ بما علتُ
ولولا خفاءُ الرُّمُزِ لا ولن ولم
ولو لم يُجَدِّدْ عَهْدَنَا عقدُ خِلَّةٍ
بعثتُ إلى قلبي بشيرًا بما رأتُ
فلم يَغْدُ أن شامَ البشارة شامٌ ما
فيالك من نورٍ لو أنَّ التفاتةً
تحدثتُ أنفاسُ الصُّبَا أن طيبها
وتنبىء أصالُ الربيع عن الربا
وتخبر أصواتُ البلابل أنها
فهذا جمالي منك في بُغْدِ خِشْرَتِي
تَبْدِي وما زال الحجابُ ولا دنا
له كلُّ غَيْرٍ في تجلّيه مظهرُ
تجلّي دليلٍ واحتجابُ تنزه
فما شئتُ من شيءٍ وآليتُ أنه
وفي كلِّ خَلْقٍ منه كلُّ عجيبةٍ
وفي كلِّ خافٍ منه مَكْمَنُ حِكْمَةٍ
أراه بقلْب^(٢) القلبِ واللُّغزِ كامنًا
وفي طيِّ أوفاقِ الحسابِ وسرُّ ما
وفي ثَفَثاتِ السُّحْرِ في العُقْدِ التي
يصوّر شكلًا مثلَ شكلٍ ويَغْتَلِي

على نُحْرِ قُرْبَانٍ لدى قَبْرِ شَيْبَةٍ
فلَمّا نَوَّاثِقْنَا اشْتَدَّتْ وَحَلَّتْ

وأقصدُ حَجًّا بيتها بتَحَلَّةٍ
له نشاتي الأولى على كلِّ فِطْرَةٍ
تجدّها لشملي مَسَلَكًا بتَشْتِيتِ
قَضِيَّتْ ولم يَقْضِ المُنَى صِدْقُ تَوْبَةٍ
على قدمِ عَيْنَيَّ منه فَكُفَّتِ
جفا الشَّامُ من نُورِ الصفاتِ الكريمةِ
تُعَارِضُ منه بالنفوسِ النَّفِيسَةِ
بما حَمَلْتُهُ من خِراقةٍ حُرْقَةٍ
وأشجاره إن قد تجلّت فجلّت
تَغْتُتْ بترجييعي^(٣) على كلِّ أَيْكَةٍ
فكيف به إن قُرْبَتَنِي بخِلَّةٍ
وغاب ولم يُفْقِدْهُ شاهدُ حَضْرَتِي
ولا غَيْرَ إِلَّا ما مَحَتْ كَفُّ غَيْرَةٍ
وإثباتُ عرفانٍ ومحوُ تَسْبُتِ
هو الشيء لم تَحْمَدُ فجارِ أَيْتِي
وفي كلِّ خَلْقٍ منه كلُّ لطيفةٍ
وفي كلِّ بادٍ منه مظهرُ جَلْوَةٍ
وفي الزُّجَرِ والقَالِ الصحيحِ الأدلّةُ
يَتَمُّ من الأعدادِ فابداً بسُئَةٍ
تَطْوَعُ^(٤) لها كلُّ الطُّبَاعِ الأبيّةِ
عليه بأوهامِ النفوسِ الخبيثةِ

(١) القصيدة في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣١١ - ٣١٣).

(٢) الترجيع: ترديد الصوت، وأراد هنا الغناء. لسان العرب (رجع).

(٣) في الأصل: «بقلب» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٤) في الأصل: «تطوع» وهكذا ينكسر الوزن.

اختلاج وفي الثقويم مجلى لرؤية
مواعيد عرقوب على إثر صفرة
فبان بها جمل لأقرب مدة
أتى فيه عن غير البرية واسكت
يبين منها النظم كل خفية
كنوز وتغوير المياه المعينة
وحزب أصيل الشاذلي وبكرة
من سبعين إذ يعزى إلى شر بدعة
بها أوهموا لما تساموا بسنة
حوى الكون إلا ناطقا بعجوبة
ولا جهر إلا وهو فيه كجلية
عليه الكلام من حروف سليمة
أثت فيه أمضى عدها وثبتت
ولا ظلم إلا ظلم صاحب حكمة
لعاجل مس البرد خوفي لميتي
درجت رجائي أن نعتني خيبتني
قضى العتب متي بغية بعد وخشتي
كما هرتت بالصبر كل بلية

وفي كل تصحيف وعضو بذاته
وفي خضرة الكمون تزجي شرابه
وفي شجر قد خوفت قطع أصلها
وفي النخل في تلقحه واعتبر بما
وفي الطابع السبتي في الأحرف التي
وفي صنعة الطلسم والكيمياء والد
وفي جزر أقسام المؤدب مخز
وفي سيمياء الحاتمي ومذهب اب
وفي المثل الأولى وفي النخل الألى
وفي كل ما في الكون من عجب وما
فلا سر إلا وهو فيه سريرة
سل الذكر عن أنصاف أصناف ما ابتنى
وعن وضعها في بعضها وبلوغ ما
فلا بد من رمز الكنوز لذي الحجا
ولولا سلام ساق للأمن خيفتي
ولو لم تداركني ولكن بعطفها
ولو لم تؤانسني عنا قبل لم ولم
ونعم أقامت أمر ملكي بشكرها

ومن فصل الاعتقال^(١): [الطويل]

وسارت ولم تُثن العنان بعطفة
محيًا ابنة الحيين في خير ليلة
لما أبصرت عيناك حيًا كميت
لكل نجاشي بها حصن ذمة
سوى وقفة التوديع حتى استقلت

سرت بفؤادي إذ سرت فيه نظرتي
وذلك لما أطلع الشمس في الدجى
يمانئة لو أنجذت حين أنجذت^(٢)
لأصحمة^(٣) في نضحها قدم بنى
ألمت فحطت رخلها ثم لم يكن

(١) القصيدة في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣١٣ - ٣١٥).

(٢) أنجذت الأولى: من النجدة. وأنجذت الثانية: دخلت نجدا. لسان العرب (نجد).

(٣) أصحمة: هو نجاشي الحبشة، الذي استقبل بالحبشة مهاجري المسلمين وأحسن معاملاتهم، ولما توفي صلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب.

فلو سَمَحَتْ لي بالتفاتٍ وَحُلٍّ من
ولكنها هُمْتُ بنا فتذكُرتُ
أَجَلْتُ خيالاً إنني لا أَجِلُهُ
على أنني كُلِّي وبعضي حقيقة
وجنسي وفضلي والعوارض كلها
وجسمي ونفسي والخشا وغرامه
وفي كل لفظٍ عنه مَيْلٌ لمسمعي
ودهري به عيدٌ ليوم غُرُوبِهِ
ووقتي شهودٌ في فناء شَهِدْتُهُ
أراه معي جِئاً وَوَهَمًا وإنه
وأسمعه من غير نُطْقٍ كأنه
ملأت بأنوار المحبة باطني
وجَلَّيتُ بالإجلال أرجاء ظاهري
فأنت الذي أخفيه عند تسْثري
فَتُهُ أحتمل، واقطعُ أَصِلُ وأَعْلُ استفلُ
فقلبي إن عائبته فيك لم أجدُ
ونفسي تَثْبُو عن سواك نَفَاسَةً
تَعْلَقُتِ الآمالُ منك بفوق ما
وحامتُ حواليتها وما وافقتُ جَمِيَّ
فلو فاتني منك الرضى ولجفتني
ولو كنتُ في أهل اليمين مُنْعَمًا
وكم من مقام قمتُ عنك مسائلًا
أتيتُ بفاراب أبا نَضْرَها فلم
ولم يَذِرْ قولي ابنُ سينا سائلًا
فهل في ابن رُشد بعد هذين مُرتجى
لقد ضاع لولا أن تداركني جَمِيَّ
فَقِيضٌ لي نَهْجًا إلى الحق سالكا

مهاوي الهوى والهون جدُ تَفَلُّتي
قضاء قضاة الحُسن قَدَمًا فَصَدْتُ
ولم أُنْتَسِبْ منه لغير تَعِلَّةٍ
وباطلُ أوصافي وحقُّ حقيقتي
ونوعي وشخصي والهواءُ وصورتي^(١)
وعقلي وروحانيَّتي القُدسيَّة
وفي كل معنى منه معنى للوعتي
وأمرِي أمرِي والوزرَى تحت قُبُضتي
ولا وقتٌ لي إلا مَشَاهِدُ غَيْبَةٍ
مَنَاطُ الثُّرَيَّا من مدارك رؤيتي
يُلَقِّنُ سمعي ما تُوسَّوسُ مُهْجتي
كأنك نورٌ في سِرارِ سَريرتي
كأنك في أفقي كواكبُ زينة
وأنت الذي أبديه في حين شَهرتي
ومُرُ أَمَثِلُ وأَمِلِلُ أَمِلُ، وازم أثبتُ
لَعَثبي فيه الدهرُ موقعُ نُكْنَةٍ
فلا تَسْتَمِي إلا إليك بِمِئَةٍ
أرى دونه ما لا يُنَالُ بِحِيلَةٍ
سحائبُ يَأْسٍ أمطرتُ ماءً غَبرتي
بعضو بكيثُ الدهرُ قُوْتُ قُضيلةٍ
بكيثُ على ما كان من سَبْقِيَّةٍ
أرى كلَّ حيٍّ كلَّ حيٍّ ومَيِّتٍ
أجدُ عنده عِلْمًا يُبَرِّدُ غُلَّتِي
فَقُلْ كيف أرجو عنده بُرءٌ عِلَّتِي
وفي ابن طُفيل لاختِثاتٍ مَطِيَّتِي؟
من الله سعيٌ بينهم طولُ مُدَّتِي
وأيقظني من نوم جهلي وعَفَلَّتِي

(١) يستعمل الشاعر في هذا البيت اصطلاحات علم المنطق.

فَحَصْنْتُ أَنْظَارَ الْجُنَيْدِ^(١) جُنَيْدِهَا
وَكَسْرْتُ عَنْ رَجُلِ ابْنِ أَدَهْمٍ أَذَهَمًا
وَعُدْتُ عَلَى خَلَاجِ شُكْرِي^(٢) بَصْلِبِهِ
فَقَوْلِي مَشْكُورٌ وَرَأْيِي نَاجِحٌ
رَضِيْتُ بِعِزِّفَانِي فَأَغْلَيْتُ لِلْعَلَا
فَعَشْتُ وَلَا ضَيْرًا أَخَافُ وَلَا قِلَى
فَهَا أَنَا ذَا أَمْسِي وَأُضْبِحُ بَيْنَهُم
وَأَنْشَدَنِي قَوْلَهُ فِي حَالِ قَبْضٍ وَقَيْدَتِهَا عَنْهُ^(٤): [الطويل]

إِلَيْكَ بَسَطْتُ الْكَفَّ أَسْتَنْزِلُ الْفَضْلَا
وَهَا أَنَا ذَا قَدِ قَمْتُ^(٥) يُقَدِّمُنِي الرَّجَا
أَقْدُمُ رِجْلًا إِنْ يَضِيءُ بَرْقٌ مَطْمَعٍ
وَلِي عَثْرَاتٌ لَسْتُ أَمَلُ أَنْ هَوَتْ
فَإِنْ تُدْرِكْنِي رَحْمَةٌ أَنْتَعَشَ بِهَا
قَالَ، وَمِمَّا نَظَّمَتْهُ مِنَ الشَّعْرِ^(٧): [مجزوء الكامل]

وَجَدْتُ تُسْفِرُهُ الضُّلُو
هَمْ تَحْرُكُهُ الصُّبَا
أَمَلِي^(٨) إِذَا وَصَلَ الرَّجَا
بِاللَّهِ يَا هَذَا السُّهْوَى
عُ مَا تُبْرِدُهُ الْمَدَامِغُ
بُهُ وَالْمَهَابَةُ لَا تُطَاوِغُ
أَسْبَابُهُ فَالْمَوْتُ قَاطِعُ
مَا أَنْتَ بِالْعُشَاقِ صَانِعُ؟

قَالَ: وَمِمَّا كَتَبَتْ بِهِ لِمَنْ بَلَغَنِي عَنْهُ بَعْضُ الشَّيْءِ^(٩): [الرمل]

نَحْنُ، إِنْ تَسْأَلُ بَنَاسٍ، مَعَشَرُ
عَرَبٍ مِنْ بِيضِهِمْ أَرْزَاقُهُمْ
أَهْلُ مَاءٍ قَجَّرَتْهُ الْهِمَمُ
وَمِنْ السُّمْرِ الطَّوَالِ الْخَيْمُ

(١) في الأصل: «الجند» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.
(٢) في الأصل: «سكري» والتصويب من النفع. (٣) في الأصل: «التفاني» والتصويب من النفع.
(٤) الأبيات في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣١٥).
(٥) في الأصل: «قدمت» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.
(٦) في النفع: «ويحجم بي».
(٧) الأبيات في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣١٥).
(٨) في النفع: «أمل».
(٩) الأبيات في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣١٥ - ٣١٦).

عَرَضْتُ أَحْسَابَهُمْ أَرْوَاحَهُمْ دُونَ نَيْلِ الْعِرْضِ وَهِيَ الْكَرَمُ
أُورِثُونَا الْمَجْدَ حَتَّى إِنَّا نَرْتَضِي السُّمُوتَ وَلَا نَزُدُّهُمْ
مَا لَنَا فِي النَّاسِ مِنْ ذَنْبٍ سِوَى أَنَّا نَلُوي إِذَا مَا اقْتَحَمُوا
قال: ومما قلته مذيلاً به قول القاضي أبي بكر بن العربي^(١): [مجزوء الوافر]

أما وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَمَا يُسْتَلَى بِهِ نَسْطَا
لَقَدْ رَقَصَتْ بَنَاتُ الشُّرَى فِي بَيْنِ جَوَانِحِي رَقْصَا
قولِي: [مجزوء الوافر]

فَأَقْلَعَ بِي إِلَيْهِ هَوَى جَنَاحَا عَزْمُهُ قُضَا^(٢)
أَقْلُ الْقُلُوبِ وَاسْتَعْدَى عَلَى الْجُثْمَانِ فَاسْتَعَصَى
فَقَمْتُ أَجُولَ بَيْنَهُمَا فَلَا أَدْنَى وَلَا أَقْصَى

قال: ومما قلته في التورية بشأن راوي المدونة^(٣): [البسيط]

لَا تَعْجَبَنَّ لَطْفِي قَدْ دَهَا أَسَدًا فَقَدْ دَهَا أَسَدًا مِنْ قَبْلُ سُحْنُونُ
قال: ومما قلته من الشعر^(٤): [البسيط]

أَتَبْتُ عَوْدًا بِنِعْمَاءٍ^(٥) بَدَأَتْ بِهَا فَضْلًا وَالْبَسْتَهَا بَعْدَ اللَّحَى الْوَرَقَا
فَظُلٌّ مُسْتَشْعِرًا مُسْتَدَثِّرًا أَرْجَا^(٦) رِيَّانَ ذَا بَهْجَةٍ يَسْتَوْقِفُ الْحَدَقَا
فَلَا تَشِينُهُ بِمَكْرُوهِ الْجَنَى فَلَکُمْ عَوْدَتُهُ مِنْ جَمِيلٍ مِنْ لَدُنْ خُلِقَا
وَإِنِّي الْقَدَى عَنْهُ وَآثِرُ الدَّهْرِ مِنْبَتُهُ وَغَدُهُ بِرَجَاءٍ وَاسْقِيهِ غَدَقَا^(٧)
وَاحْفَظْهُ مِنْ حَادِثَاتِ الدَّهْرِ أَجْمَعَهَا مَا جَاءَ مِنْهَا عَلَى ضَوْءٍ وَمَا طَرَقَا

ومما قُتِدَتْ عَنْهُ أَيَّامُ مَجَالَسَتِهِ وَمَقَامِهِ بِغَرْنَاطَةِ، وَقَدْ أَجْرَى ذَكَرَ أَبِي زَيْدِ ابْنِ
الْإِمَامِ، أَنَّهُ^(٨) شَهِدَ مَجْلِسًا بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ أَبِي تَاشَفِينَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي حَمْرٍ،

(١) الأبيات في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣١٦).

(٢) أقلع: نشر شراع السفينة، وهنا يشبه الهوى بالملاح.

(٣) البيت في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣١٦). (٤) الأبيات في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣١٧).

(٥) في النفع: «النعماء».

(٦) مستشعرًا: لابسًا الشعراء، وهو اللباس الذي يلامس البدن. مستدثرًا: لابسًا الدثار. لسان العرب (شعر) و(دثر).

(٧) الغدق: بالفتح: الماء الكثير. لسان العرب (غدق).

(٨) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٠٨ - ٢١١).

ذكر فيه أبو زيد المذكور، أن ابن القاسم مُقيد بالنظر بأصول مالك، ونازعه أبو موسى عمران بن موسى المشدالي^(١)، وادعى أنه مُطلق الاجتهاد، واحتج له بمخالفته لبعض ما يرويه أو^(٢) يبلغه عنه لما ليس من قوله، وأتى من ذلك بنظائر كثيرة. قال: فلو تقيّد بمذهبه لم يخالفه لغيره، فاستظهر أبو زيد بنصّ لشرف الدين بن^(٣) التلمساني، ومثّل فيه الاجتهاد المخصوص باجتهاد ابن القاسم بالنظر إلى مذهب مالك، والمزني إلى الشافعي. فقال أبو موسى عمران^(٤): هذا مثال، والمثال لا يلزم^(٥) صحته، فصاح به أبو زيد^(٦) ابن الإمام وقال لأبي عبد الله بن أبي عمر^(٧): تكلم، فقال: لا أعرف ما قال هذا الفقيه، والذي أذكره من كلام أهل العلم أنه لا يلزم من فساد المثال فساد الممثل به، فقال أبو موسى للسلطان: هذا كلام أصولي مُحقق، فقلت لهما^(٨) يومئذ، وأنا حديث السن: ما أنصفهما^(٩) الرجل، فإن المثل^(١٠) كما يؤخذ على جهة التحقيق، كذلك يؤخذ على جهة التقريب، ومن ثمّ جاء ما قال^(١١) هذا الشيخ، أعني ابن أبي عمران^(١٢)، وكيف لا وهذا سيويه يقول: وهذا مثال ولا يتكلم به، فإذا صحّ أن المثال قد يكون تقريبًا، فلا يلزم صحة المثال، ولا فساد الممثل لفساده، فهذان القولان من أصل واحد.

وقال: شهدت مجلسًا آخر عند هذا السلطان، قرىء فيه على أبي زيد ابن الإمام حديث: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»، من^(١٣) صحيح مسلم، فقال له الأستاذ أبو إسحق بن حكم السلوي: هذا الملقّن مُختَصَر حقيقة، ميّت مجازًا، فما وجه ترك مُختَصِرِكُم إلى موتاكم، والأصل الحقيقة؟ فأجابه أبو زيد بجواب لم يُقنعه. وكنت قد قرأت على الأستاذ بعض «التنقيح»، فقلت: زعم القرافي أن المُشتَقّ إنما يكون حقيقة في الحال، مجازًا في الاستقبال، مختلفًا فيه في الماضي، إذا كان محكومًا به. وأما^(١٤) إذا كان متعلّق بالحكم كما هنا، فهو حقيقة مُطلقًا إجماعًا، وعلى هذا التقرير لا مجاز ولا سؤال. ولا يقال: إنه احتجّ على ذلك بما فيه نظر؛ لأننا نقول: إنه نقل الإجماع، وهو أحد الأربعة التي لا يُطالب عنها^(١٥) بالدليل، كما ذكر أيضًا. بل

(١) في النفع: «المشدالي».

(٣) كلمة «بن» غير واردة في نفع الطيب.

(٢) في النفع: «ويبلغه».

(٤) في النفع: «فقال عمران».

(٥) في النفع: «تلزم».

(٦) في النفع: «أبو موسى».

(٧) في النفع: «عمرو».

(٨) في النفع: «لهما وأنا يومئذ حديث...».

(٩) في النفع: «أنصفتهما».

(١٠) في النفع: «المثل كما تؤخذ».

(١١) في النفع: «قاله».

(١٢) في النفع: «عمرو».

(١٣) في النفع: «في».

(١٤) في النفع: «أما».

(١٥) في النفع: «مذعبيها».

نقول: إنه أساء حيث احتج في موضع الوفاق، كما أساء اللخمي وغيره في الاحتجاج على وجوب الطهارة ونحوها. بل هذا أشنع، لكونه مما علم كونه من الدين ضرورة^(١). ثم إنا لو سلمنا نفي الإجماع، فلنا أن نقول: إن ذلك إشارة إلى ظهور العلامات التي يعقبها الموت عادة؛ لأن تلقيه قبل ذلك، إن لم يدهش، فقد يوحش، فهو تنبيه على وقت التلقين: أي لقنوا من تحكمون بأنه ميت. أو يقال^(٢): إنما عدل عن الاحتضار لما فيه من الإبهام، ألا ترى اختلافهم فيه: هل هو^(٣) أخذ من حضور الملائكة أو حضور الأجل، أو حضور الجلّاس؟ ولا شك أن هذه حالة خفية يحتاج في نصها^(٤) إلى دليل الحكمة أو إلى وصف ظاهر يضبطها، وهو ما ذكرناه، أو من حضور الموت، وهو أيضاً مما لا يعرف بنفسه، بل بالعلامات. فلما وجب اعتبارها، وجب كون تلك التسمية إشارة إليها، والله أعلم.

وقال: وكان أبو زيد يقول، فيما جاء من الأحاديث: ما^(٥) معنى قول ابن أبي زيد: «إذا سلم الإمام، فلا يلبث^(٦) بعد سلامه ولينصرف»، وذلك بعد أن ينتظر^(٧) من يسلم من خلفه لثلاً يمر بين يدي أحد، وقد ارتفع عنه حكمه، فيكون كالداخل مع المسبوق جمعاً بين الأدلة.

وقلت^(٨): وهذا من ملح الفقيه. وقال: كان أبو زيد يعني الإمام، يصحف قول الخونجي في الجمل والمقارنات التي يمكن اجتماعه معها، فيقول: «المفارقات»، ولعله في هذا قال أبو عمرو بن العلاء للأصمعي لما قرأ عليه: [مجزوء الكامل]

وَعَزَزْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ لَابِنٌ فِي الضَّيْفِ^(٩) تَامِرٌ

فقال: [مجزوء الكامل]

وَعَزَزْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ لَا تَنِي^(١٠) بِالضَّيْفِ تَامِرٌ

فقال: أنت في تصحيفك أشهر من الخطيئة، أو كما يحكي^(١١) عن الشافعي أنه لما صلى في رمضان بالخليفة، لم يكن يومئذ يحفظ القرآن، فكان ينظر في

(١) في النفع: «بالضرورة».

(٢) في النفع: «أو نقول».

(٣) كلمة «هو» غير واردة في النفع.

(٤) في النفع: «في نصها دليلاً على الحكم إلى وصف».

(٥) في النفع: «من».

(٦) في النفع: «ثبت».

(٧) في النفع: «ينتظر بقدر ما يسلم...».

(٨) في النفع: «قلت».

(٩) في النفع: «بالضيف».

(١٠) في النفع: «لا ين».

(١١) في النفع: «كما حكى عن صلى بالخليفة في رمضان، ولم...».

المصحف، وقرأ الآية «صنعة الله أصيب بها من أساء». إنما المشركون نحس. وعدّها إياه^(١)، تقية لكم خير لكم. هذا أن دعوا للرحمن ولذا، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه^(٢).

وقال^(٣): وذكر أبو زيد ابن الإمام في مجلسه يوماً أنه سُئل بالمشرق عن هاتين الشريطين^(٤): ﴿وَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ يُعْرِضُونَ﴾^(٥)، فإنهما يستلزمان^(٦) بحكم الإنتاج «ولو علم الله فيهم خيراً لتولوا وهم معرضون» وهو محال. ثم أراد أن يرى ما عند الحاضرين، فقال ابن حكم: قال الخونجي: والإهمال بإطلاق لفظه، لو وأن في المتصلة، فهاتان القضيتان على هذا مُهملتان، والمهملة في قوة الجزئية، ولا قياس على^(٧) جزئيتين. فلما اجتمعت ببجاية بأبي علي حسين بن حسين، أخبرته بهذا، وبما أجاب به الزمخشري وغيره، مما يرجع إلى انتفاء أمر^(٨) تكرار الوسط. فقال لي: الجوابان في المعنى سواء؛ لأن القياس على الجزئيتين إنما امتنع لانتفاء أمر تكرار^(٩) الوسط. وأخبرت بذلك شيخنا أبا عبد الله الآبلي، فقال: إنما يقوم القياس على الوسط، ثم يشترط فيه بعد ذلك أن لا يكون من جزئيتين ولا سالتين، إلى سائر ما يشترط، فقلت: ما المانع من كون هذه الشروط تفصيلاً لمُجمل ما ينبنى عليه الوسط^(١٠) وغيره، وإلا فلا مانع لما قاله ابن حسين. قال الآبلي: وأجبتُ بجواب السلوي، ثم رجعت إلى ما قاله الناس، لوجوب كون مُهملات القرآن كلية؛ لأن الشرطية لا تنتج جزئية. فقلت: هذا فيما يُساق منها للحجة مثل ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(١١). أما في مثل هذا فلا قلت^(١٢). وكان يلزم السؤال الأول لو لم يكن للمتولي سبب تأخر، حسبما تبين في مسألة، لو لم يطع الله، فلينظر ذلك في اسم شيخنا أبي بكر يحيى بن هذيل رحمه الله.

وقال^(١٣): لما ورد تلمسان الشيخ الأديب أبو الحسن بن فزحون، نزيل طيبة، على تربتها السلام، سأل ابن حكم عن معنى هذين البيتين: [الوافر]

- | | |
|---|-------------------------------------|
| (١) في النفع: «أباه». | (٢) في النفع: «يعنيه». |
| (٣) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢١٥). | (٤) في النفع: «الشرطيتين». |
| (٥) سورة الأنفال ٨، الآية ٢٣. | (٦) في النفع: «استلزمان». |
| (٧) في النفع: «عن». | (٨) في النفع: «انتفاء تكرار الوسط». |
| (٩) في النفع: «تكرر». | (١٠) في النفع: «من الوسط». |
| (١١) سورة الأنبياء ٢١، الآية ٢٢. | (١٢) كلمة «قلت» غير واردة في النفع. |
| (١٣) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢١٥ - ٢١٨). | |

رَأَتْ قَمَرَ السَّمَاءِ فَأَذْكَرْتَنِي لِيَالِي وَضَلِينَا^(١) بِالرُّقْمَتَيْنِ
كَلَانَا نَاطِرُ قَمَرًا وَلَكِنْ رَأَيْتُ بِعَيْنِهَا وَرَأَتْ بِعَيْنِي

فَفَكَّرَ ثُمَّ قَالَ: لَعَلَّ هَذَا الرَّجُلَ كَانَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى قَمَرِ السَّمَاءِ، فَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى الْقَمَرِ حَقِيقَةً، وَهُوَ لَفَرْطُ^(٢) الاستحسان يرى أنها الحقيقة. فَقَدْ رَأَى بِعَيْنِهَا أَنَّهَا نَاطِرَةٌ حَقِيقَةً. وَأَيْضًا وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى قَمَرٍ مُجَازًا، وَهُوَ لِإِفْرَاطِهِ اسْتِحْسَانُهَا^(٣) يَرَى أَنَّ قَمَرَ السَّمَاءِ هُوَ الْمُجَازُ، فَقَدْ رَأَتْ بِعَيْنِهَا؛ لِأَنَّهَا نَاطِرَةٌ الْمُجَازُ. قُلْتُ: وَمَنْ هَذَا يُعَلِّمُ وَجْهَ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَذْكَرْتَنِي أَذْكَرْتَنِي﴾ وَالْفَاءُ فَأَذْكَرْتَنِي بِمِثَابَةِ قَوْلِكَ أَذْكَرْتَنِي، فَتَأَمَّلْهُ، فَإِنْ بَعْضُ مَنْ لَا يَفْهَمُ كَلَامَ الْأَسْتَاذِ كُلِّ^(٤) الْفَهْمِ، يَنْشُدُهُ: «وَأَذْكَرْتَنِي». فَالْفَاءُ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ، مُنْبِئَةٌ عَلَى الثَّانِي، وَهَذَا النَّحْوُ يُسَمَّى «الْإِيْذَانُ فِي عِلْمِ الْبَيَانِ».

وَقَالَ: سَأَلَنِي ابْنُ حَكَمٍ عَنْ نَسَبِ هَذَا^(٥) الْمُجِيبِ فِي هَذَا الْبَيْتِ: [الْكَامِلُ]

وَمُهَفَّفِ الْأَعْطَافِ قُلْتُ لَهُ انْتَسَبَ فَأَجَابَ مَا قُتِلَ الْمُحِبُّ حَرَامٌ

فَفَكَّرْتُ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ^(٦): أَرَاهُ تَمِيمِيًّا؛ لِإِلْغَائِهِ «مَا» النَّافِيَةَ. فَاسْتَحْسَنَهُ مِنِّي لِصِغَرِ سَنِي يَوْمَئِذٍ. وَسَأَلَ ابْنُ فَرَحُونَ ابْنَ حَكَمٍ يَوْمًا^(٧): هَلْ تَجِدُ فِي التَّنْزِيلِ سِتَّ فَاءَاتٍ مُرْتَبَةً تَرْتِيبًا فِي هَذَا الْبَيْتِ: [الْبَسِيطُ]

رَأَى فَحَبَّ فَرَامَ الْوَضْلِ فَاْمْتَنَعْتُ فَسَامَ صَبْرًا فَأَغْيَا نَيْلُهُ فَقَضَى

فَفَكَّرَ ابْنُ^(٨) حَكَمٍ، ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَافٌ مِّنْ رَبِّكَ وَهُوَ قَائِمٌ﴾^(٩) فَاصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿فَنَادَا﴾^(١٠) إِلَى آخِرِهَا، فَمَنْعَتْ لَهُ الْبِنَاءُ فِي ﴿فَنَادَا﴾. فَقَالَ ابْنُ فَرَحُونَ: فَهَلْ عِنْدَكَ غَيْرُهُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾^(١١) إِلَى آخِرِهَا، فَمَنْعَ لَهُمْ بِنَاءَ الْآخِرَةِ لِقِرَاءَةِ الْوَاوِ. فَقُلْتُ لَهُ: اْمْنَعُ وَلَا تُسْنَدُ، فَيُقَالُ^(١٢): إِنْ الْمَعْنَى قَدْ تَخْتَلَفَ بِاخْتِلَافِ الْحُرُوفِ، وَإِنْ كَانَ السُّنْدُ لَا يَسْمَعُ الْكَلَامَ عَلَيْهِ. وَأَكْثَرُ مَا وَجَدْتُ الْفَاءَ تَنْتَهِي فِي كَلَامِهِمْ إِلَى هَذَا الْعَدَدِ، سِوَاهُ بِهَذَا الشَّرْطِ وَبِدُونِهِ، كَقَوْلِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ

(١) فِي النَّفْحِ: «وَضَلِينَا».

(٢) فِي النَّفْحِ: «لِإِفْرَاطِهِ».

(٣) فِي النَّفْحِ: «الاسْتِحْسَانُ لَهَا يَرَى...».

(٤) فِي النَّفْحِ: «حَقٌّ».

(٥) كَلِمَةُ «هَذَا» غَيْرُ وَارِدَةٍ فِي النَّفْحِ.

(٦) كَلِمَةُ «لَهُ» غَيْرُ وَارِدَةٍ فِي النَّفْحِ.

(٧) كَلِمَةُ «يَوْمًا» غَيْرُ وَارِدَةٍ فِي النَّفْحِ.

(٨) فِي النَّفْحِ: «فَفَكَّرَ ثُمَّ قَالَ».

(٩) سُورَةُ الْقَلَمِ ٦٨، الْآيَاتُ ١٩ - ٢١.

(١٠) سُورَةُ الشَّمْسِ ٩١، الْآيَةُ ١٣.

(١١) فِي النَّفْحِ: «فَيُقَالُ لَكَ».

وَشُرْكَاءَكُمْ^(١). وكقول امرئ القيس: «غشيت ديار الحَيِّ بالبَكَرات، البيتين^(٢)». لا يقال قوله: فالحب^(٣)؛ سابع؛ لأننا نقول إنه عطف على «عاقِل» المجزء منها، ولعلَّ حكمة السُّتة أنها أول الأعداد التامة، كما قيل في حكمة خلق السموات والأرض فيها، وشأن اللسان عجيب.

وقال^(٤): سمعت ابن حكيم يقول: كتب^(٥) بعض أدباء فاس إلى صاحب له: [المجتث]

ابْعَثْ إِلَيَّ بِشَيْءٍ مَدَارُ فَاسٍ عَلَيْهِ
وليس عندك شيء مِمَّا أُشِيرُ إِلَيْهِ

فبعث إليه ببطء من مَرِي^(٦) شرب، يشير بذلك إلى الرِّياء.

وَحَدَّثْتُ أَنَّ قَاضِيهَا أَبَا مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ الْمَلْجُومِ دَعَى^(٧) إِلَى وَلِيْمَةٍ، وَكَانَ كَثِيرَ الْبَلْغَمِ، فَوَضَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ صِبْغَهُ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ الْأَشْقَرِ غُضَارًا مِنَ اللَّوْزِ الْمَطْبُوعِ بِالْمَرِي، لِمُنَاسَبَتِهِ لِمَزَاجِهِ، فَخَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَّضَ لَهُ بِالرِّيَاءِ. وَكَانَ ابْنُ الْأَشْقَرِ يُذَكِّرُ بِالْوُقُوعِ فِي النَّاسِ، فَقَدَّمَ^(٨) لَهُ الْقَاضِي غُضَارَ الْمَقْرُوضِ، فَاسْتَحْسَنَ الْحَاضِرُونَ فِطْنَتَهُ.

وقال عند ذكر شيخه أبي محمد عبد الله بن عبد الواحد المجاصي: دخلت عليه بالفقيه أبي عبد الله السُّطِّي في أيام عيد، فَقَدَّمَ لَنَا طَعَامًا، فَقُلْتُ: لَوْ أَكَلْتُ مَعَنَا، فَرَجَوْنَا بِذَلِكَ مَا يُرْفَعُ مِنْ حَدِيثٍ «مَنْ أَكَلَ مَعَ مَغْفُورٍ لَهُ، غُفِرَ لَهُ» فَتَبَسَّمَ، وَقَالَ لِي: دَخَلْتُ عَلَى سَيِّدِي أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْفَاسِي بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ، فَقَدَّمَ

(١) سورة يونس ١٠، الآية ٧١.

(٢) بيتا امرئ القيس هما [الطويل]:

غَشِيتُ دِيَارَ الْحَيِّ بِالْبَكَرَاتِ فَمَارِمَةٌ فَبُزْقَةُ الْجِيرَاتِ
فَقُولُ فَجَلْبِيتُ فَمَنْجِجٍ إِلَى عَاقِلٍ فَالْحُبُّ ذِي الْأَمَرَاتِ

ديوان امرئ القيس (ص ٧٨).

(٣) في النفع: «فالحب».

(٤) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢١٨ - ٢٢١).

(٥) في النفع: «بعث».

(٦) البطء: إناء كالقارورة. محيط المحيط (بطط). والمرى: بتشديد الراء: نوع من مستحضرات

تتخذ في صنع الأطعمة، ويقال إنه مركب يصنع من الدقيق والملح والعسل والتمر وأشياء

أخرى. و قال هو نوع يعمل من السمك المالح واللحوم المالحة. ملحق معجم المعاجم العربية

لدوزي (م. مري) وكتاب الطبخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين (ص ٨٢).

(٧) في النفع: «حضر وليمة».

(٨) في النفع: «فناوله القاضي».

لنا^(١) طعامًا، فسأله عن هذا الحديث فقال: وقع في نفسي^(٢) شيء، فرأيت النبي ﷺ في المنام، فسأله عنه، فقال^(٣): لم أقله، وأرجو أن يكون كذلك. وصافحته بمصافحته الشيخ أبا عبد الله زيان، بمصافحته أبا سعيد عثمان بن عطية الصعيدي، بمصافحته أبا العباس أحمد المُلثَم، بمصافحته المَعْمَر، بمصافحته رسول الله ﷺ.

وحدث عن شيخه أبي محمد الدلاصي، أنه كان للملك العادل مملوك اسمه محمد، فكان يخصصه لدينه وعقله، بالنداء باسمه، وإنما كان يَنعَقُ^(٤) بمماليكه: يا ساقى، يا طبَّاخ، يا مُزَيِّن. فناده^(٥) ذات يوم: يا فراش، فظنَّ أن^(٦) ذلك لموجدة^(٧) عليه. فلم ير أثر ذلك، وتصوَّرت له به خلوة، فسأله عن مخالفته لعادته^(٨)، فقال له: لا عليك، كنتُ يومئذ جُنُبًا، فكرهت أن أذكر^(٩) اسم رسول الله ﷺ، على تلك الحالة. وقال: أنشدني المجاصي، قال: أنشدني الإمام^(١٠) نجم الدين الواسطي، قال: أنشدني شرف الدين الدمياطي، قال: أنشدني تاج الدين الآمدي^(١١)، مؤلف «الحاصل»، قال: أنشدني الإمام فخر الدين^(١٢) لنفسه: [الطويل]

نهاية إقدام العقول عقائل وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وخشة^(١٣) من جسامنا وحاصل دنيانا أذى^(١٤) ووبال^(١٥)

- (١) كلمة «لنا» غير واردة في النسخ. (٢) في النسخ: «نفسى منه شيء». (٣) في النسخ: «فقال لي». (٤) يقال: نَعَقَ الغراب إذا صَوَّت، ونَعَقَ الراعى الغنم: صاح بها، وينعق بمماليكه: ينادي. لسان العرب (نعق).
- (٥) في النسخ: «فتنادى به ذات...». (٦) كلمة «أن» غير واردة في النسخ. (٧) الموجدة: الغضب. لسان العرب (وجد). (٨) في النسخ: «لعادته معه فقال». (٩) في النسخ: «نكرهت ذكر رسول...». (١٠) كلمة «الإمام» غير واردة في النسخ. (١١) في النسخ: «الآرموي». (١٢) هو فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن البكري الطبرستاني الأصل، الرازي المولد، إمام مفسر وطبيب وأديب وشاعر. توفي سنة ٦٠٦ هـ. ترجمته في وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٨٢) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٤٦٢) والبداية والنهاية (ج ١٣ ص ٥٥). وأبياته هذه في وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٨٤) وعيون الأنباء (ص ٤٦٨) والوافي بالوفيات (ج ٤ ص ٢٥٧ - ٢٥٨) ونفح الطيب (ج ٧ ص ٢٢٠ - ٢٢١). وفي البداية والنهاية (ص ٥٦) فقط البيتان الثاني والثالث.
- (١٣) في عيون الأنباء: «في عقلة». (١٤) في الوافي بالوفيات: «ردى». (١٥) في الأصل: «ودبال»، والتصويب من المصادر المذكورة.

ولم نستفد من بحثنا طولَ عمرنا سوى أن جَمَعْنَا فيه قِيلَ وقال^(١)
 وكم من رجال قد رأينا ودولة^(٢) فبادوا جميعًا مُسرعين وزالوا
 وكم من جبال قد عُلَّتْ شُرُفاتها رجالُ فماتوا والجبال جبال^(٣)

وقال^(٤): وقد مرُّ من ذكر الشريف القاضي أبي علي حسين بن يوسف بن يحيى الحسيني في عداد شيوخه وقال: حدَّثني أبو العباس الرُّندي عن القاضي أبي العباس بن الغَمَّاز^(٥)، قال: لما قدم القاضي أبو العباس بن الغماز من بلنسية، نزل بِجاية؛ فجلس بها في الشهود مع عبد الحق بن ربيع^(٦)، فجاء عبد الحق يومًا، وعليه بُزُنس أبيض، وقد حَسُنَتْ شارته، وكُمِلَتْ هيئته، فلما نظر إليه ابن الغماز أنشده:
 [الخفيف]

لَيْسَ الْبُزُنْسُ الْفَقِيهُ فَبَاهِي ورأى أنه المَلِيحُ فَتَّاهَا^(٧)
 لو زَلَّيخا رَأَتْه حين تَبَدَّى لَتَمُنُّهُ أن يَكُونَ فَتَّاهَا

وقال أيضًا: إن ابن الغماز جلس لارتقاب الهلال بجامع الزُّيْتُونَة، فنزل الشهود من المثذنة وأخبروا أنهم لم يَهْلُوه^(٨). وجاء حفيد له صغير، فأخبره أنه أهله، فردَّهم معه، فأراهم إياه، فقال: ما أشبه الليلة بالبارحة. وقد^(٩) وقع لنا مثل هذا مع أبي الربيع بن سالم^(١٠)، فأنشدنا فيه: [الطويل]

تواری هلال الأفق عن أغين الوری وأزخى حجاب الغيم دون مُحَيَّاهُ
 فلما تَصَدَّى لارتقاب شقيقه تَبَدَّى له دون الأنام فحَيَّاهُ

(١) في الوافي بالوفيات: «... طول دهرنا سوى...» فيه قلت وقالوا.

(٢) في وفيات الأعيان وعيون الأنباء: «وكم قد رأينا من رجال ودولة».

(٣) في المصدرين السابقين: «فزالوا» بدل «فماتوا». ورواية عجز البيت في الوافي بالوفيات هي: ومال فزال والجبال جبال

(٤) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٢٢).

(٥) هو أحمد بن محمد بن الحسن بن الغماز الأنصاري؛ ولي قضاء بجاية، وتوفي بتونس سنة ٦٩٣ هـ. عنوان الدراية (ص ٧٠).

(٦) لعبد الحق بن ربيع ترجمة ضافية في عنوان الدراية (ص ٣٢).

(٧) تاه: فعل ماض من التيه، والألف للإطلاق، وأصل القول: تاه.

(٨) لم يَهْلُوه: لم يَزُوه. لسان العرب (همل).

(٩) كلمة «وقد» غير واردة في النسخ.
 (١٠) هو سليمان بن موسى بن سالم الحميري الكلاعي، المتوفى سنة ٦٣٤ هـ. وسيترجم له ابن الخطيب في الجزء الرابع من الإحاطة.

وجرى في ذكر أبي عبد الله بن النجار^(١)، الشيخ التعالمي من أهل تلمسان، فقال^(٢): ذكرْتُ يوماً قول ابن الحاجب فيما يُحرَّم من النساء بالقرابة، وهي «أصول وفصول، أول أصوله، وأول فصل من كل أصل وإن علا»، فقال: إن تركب لفظ التسمية العرفية من الطرفين حلت، وإلا حرمت، فتأملته، فوجدته كما قال: لأن أقسام هذا الضابط أربعة: التركيب من الطرفين، كابن العم وابنة العم مقابله كالأب والبنت، والتركيب^(٣) من قبل الرجل كابنة الأخ والعم مقابله كابن الأخت والخالة.

وذكر الشيخ الرئيس أبا محمد عبد المهيم بن محمد الحضرمي. وقال^(٤): كان يُنكر إضافة الحول إلى الله عز وجل، فلا يجيز أن يقال: «بحول الله وقوته»، قال: لأنه لم يُرد إطلاقه^(٥)، والمعنى يقتضي امتناعه؛ لأن الحول كالحيلة، أو قريب منها.

وحكى^(٦) عن شيخه أبي زيد عبد الرحمن الصنهاجي^(٧)، عن القاضي أبي زيد عبد الرحمن بن علي الدكالي، أنه اختصم عنده رجلان في شاة، ادعى أحدهما أنه أودعها الآخر، وادعى الآخر أنها ضاعت منه، فأوجب اليمين على المودع^(٨) أنها ضاعت من غير تضييع، فقال: كيف أضيع، وقد شغلتنى حراستها عن الصلاة، حتى خرج وقتها؟ فحكم عليه بالغرم، فقبل له في ذلك، فقال: تأولت قول عمر: «من ضيعها فهو لما سواها أضيع».

وحكى عن الشيخ الفقيه رُحلة الوقت أبي عبد الله الأيلي، حكاية في باب الضرب، وقوة الإدراك، قال^(٩): كنت يوماً مع القاسم بن محمد الصنهاجي، فوردت عليه طومارة من قبل القاضي أبي الحجاج الطرطوشي فيها: [السريع]

خيرات ما تحويه مبدولة ومطلبي تضحيف مقلوبها

(١) هو أبو عبد الله محمد بن يحيى بن علي بن النجار، وترجمته في التعريف بابن خلدون (ص ٤٧) ونيل الابتهاج (ص ٢٣٩) وجذوة الاقتباس (ص ١٩٠) ونفع الطيب (ج ٧ ص ٢٢٤).

(٢) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٢٥). (٣) في النفع: «التركيب».

(٤) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٢٧ - ٢٢٨).

(٥) إطلاق الأسماء على الله سبحانه وتعالى مختلف فيه بين العلماء.

(٦) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٢٩).

(٧) في النفع: هو أبو زيد عبد الرحمن بن يعقوب بن علي الصنهاجي المكنى.

(٨) في النفع: «المودع عنده أنها».

(٩) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٣١ - ٢٣٢).

فقال لي: ما مطلبه؟ فقلت: «تاريخ». ودخل^(١) عليه وأنا عنده بتلمسان الشيخ الطيب^(٢) أبو عبد الله الدبّاغ المالقي^(٣)، فأخبرنا أن أديباً استجدي وزيراً بهذا الشطر: «ثم حبيبٌ قلما ينصف» فأخذته وكتبته، ثم قلبته وصحفته، فإذا به^(٤): «قَصَبَتَا مِلَفٌ شحمي».

وقال: قال^(٥) شيخنا الأبلّي: لما نزلت تازة مع أبي الحسن بن برّي، وأبي عبد الله التّرجالي، فاحتجت إلى النوم، وكرهت قطعهما إلى^(٦) الكلام، فاستكشفتُ منهما عن معنى هذا البيت للمعري: [الطويل]

أقول لعبد الله لَمَّا سقاؤنا ونحن بوادي عبد شمس وهاشم
فجعلاً يفكران فيه، فنمتُ حتى أصبحا، ولم يجداه، وسألوني عنه، فقلت:
معناه «أقول لعبد الله لَمَّا وهي سقاؤنا، ونحن بوادي عبد شمس: شيم لنا بَرَقَا».

قلت: وفيه نظر^(٧). وإن استقصينا مثل هذا، خرجنا عن الغرض.

مولده: نقلت من خطه: كان^(٨) مولدي بتلمسان أيام أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمرايين بن زيان. وقد وقفتُ على تاريخ ذلك، ورأيت^(٩) الصّفح عنه؛ لأن أبا الحسن بن موسى^(١٠) سأل أبا الطاهر السلفي عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألتُ أبا الفتح بن زيان بن مسعدة^(١١) عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألتُ محمد بن علي بن محمد اللّبان عن سنّه فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت حمزة بن يوسف السّهمي عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت أبا بكر محمد بن علي النفري^(١٢) عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت بعض أصحاب الشافعي عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت أبا إسماعيل الترمذي عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت الشافعي^(١٣) عن

(١) في النسخ: «دخل عليه الأبلّي وأنا...».

(٢) كلمة «الطيب» غير واردة في النسخ.

(٣) في النسخ: «المالقي المتطيب».

(٤) في النسخ: «فإذا هو».

(٥) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٣٣).

(٦) في النسخ: «قلت: وفي جواز مثل هذا نظر».

(٧) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ١٩٨ - ١٩٩).

(٨) في النسخ: «ولكني رأيت».

(٩) قوله: «ابن مسعدة» غير وارد في النسخ.

(١٠) في النسخ: «سألت علي بن محمد اللّبان».

(١١) في النسخ: «محمد بن عدي المنقري».

(١٢) في النسخ: «سألت بعض أصحاب الشافعي عن سنّه فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت الشافعي...».

سنه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت مالك بن أنس عن سنه، فقال: أقبل على شأنك، ليس من المروءة إخبار الرجل عن سنه^(١).

وفاته: توفي بمدينة فاس في أخريات محرم من عام تسعة وخمسين وسبعمائة، وأراه توفي في ذي حجة من العام قبله. ونقل إلى ثربة سلفه بمدينة بلمسان حرسها الله.

محمد بن عياض بن محمد بن عياض بن موسى اليحصبي

من أهل سبتة، حفيد القاضي الإمام أبي الفضل عياض، يكنى أبا عبد الله.

حاله: قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: كان من عُدُول القضاة، وجلّة سراتهم، وأهل النزاهة فيهم، شديد التحري في الأحكام والاحتياط، صابراً على الضعيف فيهم والملهوف، شديد الوطأة على أهل الجاه وذوي السطوة، فاضلاً، وقوراً، حسن السمّت، يُعرفه كلامه أبداً، ويزينه ذلك لكثرة وقاره، محباً في العلم وأهله، مُقرباً لأصاغر الطلبة، ومكرمًا لهم، ومُعْتنياً بهم، مُغِيلاً جَهْدَه في الدُّفع عنهم، لما عسى أن يسوءهم؛ ليحبّب إليهم العِلْمَ وأهله، ما رأينا بعده في هذا مثله. سكن مالقة مع أبيه عند انتقال أبيه إليها، إلى أن مات أبوه سنة خمس وخمسين وستمائة.

حدّثني شيخنا أبو الحسن بن الجيّاب، وجرى ذكر إعرابه لفظ من حديثه عن شيوخه، قال: دخلت على القاضي المذكور، فسأل أحدنا عن أبيه، فقال: ابن فلان. وذكر معرفة مشتركة بين تجّار فاس، فقال: أيهما الذي ينحت في الخشب، والذي يعمل في السلاح؟ فما فطن لقصده لسذاجته. وحدّثني عن ذكر جزالته أنها كانت تقع له مع السلطان مُسْتَقْضِيه، مع كونه مرهوباً، شديد السطوة، وقائع تُنبئ عن تصميمه، وبُعْده عن الهوادة؛ منها أن السلطان أمر بإطلاق محبوس كان قد سجنه، فأنفذ بين يدي السلطان الأمر للسّجّان بحبسه، وتوعّده إن أطلقه. ومنها إذاعة ثبوت العيد في أخريات يوم كان قد أمل السلطان البروز إلى العيد في صباحه، فنزل عن القلعة ينادي: عبد الله، يا ميمون، أخبر الناس عن عيدهم اليوم، وأمثال ذلك.

مشيخته: قرأ بسبتة، وأسند بها، فأخذ عن أبي الصبر أيوب بن عبد الله الفهري وغيره، ورحل إلى الجزيرة الخضراء، فأخذ بها كتاب سيبويه وغيره تفقيهاً على النحويّ الجليل أبي القاسم عبد الرحمن بن القاسم القاضي المتفنن. وأخذ بها أيضاً كتاب «إيضاح الفارسي» عن الأستاذ أبي الحجاج بن مغرور، وأخذ بإشبيلية وغيرها

(١) في النسخ: «المروءة للرجل أن يخبر بسنه».

عن آخرين. وقرأ على القاضي أبي القاسم بن بَقِيّ بن نافحة، وأجاز له. وكتب له من أهل المشرق جماعة كثيرة، منهم أبو جعفر محمد بن أحمد بن نصر بن أبي الفتح الصّيدلاني، وأجاز له بإصْبَهان، وهو سَبْط حسن بن مَثْدَة، أجاز له في شوال سنة ثمانٍ وتسعين وخمسمائة. وتحمل عن أبي علي الحداد، شيخ السُّلَفي الحافظ عن محمود الصيرفي ونظائرهما، وجماعة من إصْبَهان كثيرة كتبوا له بالإجازة. وكتب له من غيرها من البلاد نَيْفٌ وثمانون رجلاً، منهم أحد وستون رجلاً كتبوا له مع الشيخ المحدث أبي العباس المغربي، والقاضي أبي عبد الله الأزدي، وقد نصح على جميعهم في برنامجهما، واستوفى أبو العباس الغربي نصوص الإِشْتِرَعات، وفيها اسم القاضي أبو عبد الله بن عِيَاض.

مَنْ رَوَى عَنْهُ: قال الأستاذ أبو جعفر، رحمه الله: أجاز لي مرتين اثنتين^(١). وقال: حدّثني أبو عبد الله مشافهة بالإذن، أنبأنا أبو الطاهر بركات بن إبراهيم الخُشُوعي كتاباً من دمشق، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن أحمد الرّازي، المعروف بابن الحطّاب، بالحاء المهملة، أخبرنا محمد بن أحمد بن عبد الوهاب البغدادي بالفسطاط، أخبرنا موسى بن محمد بن عَرَفَة السمسار ببغداد، قال أبو عمرو بن أحمد بن الفضل النَّفْزِي: أخبرنا إسماعيل بن موسى، أخبرنا عمر بن شاعر عن أَنَس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، الصَّابِرُ مِنْهُمْ عَلَى دِينِهِ، كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ».

هذا الإسناد قريب يعزُّ مثله في القرب لأمثالنا، ممن مولده بعد الستمائة، وإسماعيل بن موسى من شيوخ الترمذي، قد خرّج عنه الحديث المذكور، لم يقع له في مُصَنَّفِهِ ثَلَاثِي غَيْرُهُ.

مولده: بسبْعة سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

وفاته: توفي بغرناطة يوم الخميس الثامن والعشرين لجمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة.

محمد بن عِيَاض بن موسى بن عِيَاض بن عمر بن موسى
ابن عِيَاض البَحْصِي

من أهل سَبْعة، ولد الإمام أبي الفضل، يكنى أبا عبد الله.

(١) في الأصل: «اثنين» وهو خطأ نحوي.

حاله: كان فقيهاً جليلاً، أديباً، كاملاً. دخل الأندلس، وقرأ على ابن بشكوال كتاب الصلة، وولي قضاء غرناطة. قال ابن الزبير: وقفت على جزء ألفه في شيء من أخبار أبيه، وحاله في أخذه وعلمه، وما يرجع إلى هذا، أوقفني عليه حفته بمالقة.

وفاته: توفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة.

محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن سعيد

ابن جبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان

ابن عبد السلام بن جبير الكِنَانِي^(١)

الواصل إلى الأندلس.

أوليته: دخل جده عبد السلام بن جبير في طليعة بلج بن بشر بن عياض القشيري في محرم ثلاث وعشرين ومائة. وكان نزوله بكورة شدونة. وهو من ولد ضمرة بن كنانة بن بكر بن عبد مناف بن كنانة بن خزيمة بن مذكاة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. بلنسي الأصل، ثم غرناطي الاستيطان. شرق، وغرب، وعاد إلى غرناطة.

حاله: كان^(٢) أديباً بارعاً، شاعراً مجيداً، سنياً فاضلاً، نزيه المهمة، سري النفس، كريم الأخلاق، أنيق الطريقة في الخط. كتب بسبته^(٣) عن أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن، وبغرناطة عن غيره من ذوي قرابته، وله فيهم أمداح كثيرة. ثم نزع عن ذلك، وتوجه إلى المشرق. وجرت بينه وبين طائفة من أدباء عصره، مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته. ونظمه فائق، ونثره بديع. وكلامه المرسل، سهل حسن، وأغراضه جليلة، ومحاسنه ضخمة، وذكره شهير، ورحلته نسيجة وخديها، طارت كل مطار، رحمه الله.

رحلته: قال من غني بخبره^(٤): رحل ثلاثاً من الأندلس إلى المشرق، وحج في كل واحدة منها. فصل عن غرناطة أول ساعة من يوم الخميس لثمان خلون من شوال، ثمان وسبعين وخمسمائة، صحبة أبي جعفر بن حسان، ثم عاد إلى وطنه

(١) ترجمة ابن جبير في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٥٩٥) والتكملة (ج ٢ ص ١٠٩) وزاد المسافر (ص ٧٢) والنجوم الزاهرة (ج ٦ ص ٢٢١) وشذرات الذهب (ج ٥ ص ٦٠) والمغرب (ج ٢ ص ٣٨٤) ونفع الطيب (ج ٣ ص ١٣٨) ومقدمة كتابه «رحلة ابن جبير».

(٢) النص في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٧ - ٦٠٨).

(٣) في الذيل: «في شبته». (٤) راجع الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٥٩٦).

غَرْنَاطَة لثمان بقين من محرم واحد وثمانين، ولقي بها أعلامًا يأتي التعريف بهم في مشيخته، وصنّف الرحلة المشهورة، وذكر مناقله فيها وما شاهده من عجائب البلدان، وغرائب المشاهد، وبدايع الصّنائع، وهو كتاب مؤنس ممتع، مثير سواكن النفوس إلى الرّفادة على تلك المعالم المكرمة والمشاهد العظيمة.

ولما^(١) شاع الخبرُ المُبْهَج بفتح بيت المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي^(٢)، قَوِيَ عزمُه على عمل الرحلة الثانية، فتحرك إليها من غرناطة، يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة خمس وثمانين وخمسمائة، ثم آبَ إلى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة^(٣) خلت من شعبان سبع وثمانين. وسكن غرناطة، ثم مالقة، ثم سبتة، ثم فاس^(٤)، منقطعًا إلى إسماع الحديث والتصوّف، وتزوية ما عنده. وقضّله بديع، ووزّعه يتحقق، وأعماله الصالحة تَزْكُو. ثم رحل الثالثة من سبتة، بعد موت زوجته عاتكة أم المجد بنت الوزير أبي جعفر الوُقْشِي^(٥)، وكان كَلِيفًا بها، فعظّم ونجّده عليها. فوصل مكة، وجاور بها طويلاً، ثم بيت المقدس، ثم تجوّل بمصر والإسكندرية، فأقام^(٦) يُحدّث، ويؤخذ عنه إلى أن لحق بربه.

مشيخته: روى بالأندلس عن أبيه، وأبي الحسن بن محمد بن أبي العيش، وأبي عبد الله بن أحمد بن عروس، وابن الأصيلي. وأخذ العربية عن أبي الحجاج بن يسعون. وبسببته عن أبي عبد الله بن عيسى التميمي السبتي. وأجاز له أبو الوليد بن سبكة، وإبراهيم بن إسحاق بن عبد الله الغساني التونسي، وأبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر القرشي الميئانجي، نزىلاً مكة، وأبو جعفر أحمد بن علي القرطبي الفثكي، وأبو الحجاج يوسف بن أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد البغدادي، وصذر الدين أبو محمد عبد اللطيف الحَجَرِي رئيس الشافعية بإصبهان. وبيغداد العالم الحافظ المُتَبَحِّر نادرة الفلّك أبو الفرج، وكناه أبو الفضل ابن الجوزي. وحضر بعض مجالسه الوُعظية وقال فيه: «فشاهدنا رجلاً ليس بعمر ولا زيد، وفي جوف الفرا كلُّ الصُّيد»، ویدمشق أبو الحسن أحمد بن حمزة بن علي بن عبد الله بن عباس السلمي الجوّاري، وأبو سعيد عبد الله بن محمد بن أبي عُضْرُون، وأبو الطاهر

(١) انظر: الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٥ - ٦٠٦).

(٢) في الذيل: «بوري».

(٣) في الأصل: «عشر» والتصويب من الذيل.

(٤) في الذيل: «ثم فاس ثم سبتة».

(٥) في الذيل: «أبي جعفر أحمد بن عبد الرحمن الوقشي».

(٦) في الذيل: «فأقام بها».

بركات الخشوعي، وسمع عليه، وعماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الإضبهاني من أئمة الكتاب، وأخذ عنه بعض كلامه، وغيره، وأبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الأخضر بن علي بن عساكر، وسمع عليه، وأبو الوليد إسماعيل بن علي بن إبراهيم والحسين بن هبة الله بن محفوظ بن نصر الرُّبَيعي، وعبد الرحمن بن إسماعيل بن أبي سعيد الصوفي، وأجازوا له، وبخراان الصوفي العارف أبو البركات حيّان بن عبد العزيز، وابنه الحاذي حذوه.

مَنْ أَخَذَ عَنْهُ: قال ابن عبد الملك^(١): أَخَذَ^(٢) عَنْهُ أَبُو إِسْحَاقَ بْنَ مُهَيْبٍ، وَابْنُ الْوَاعِظِ، وَأَبُو تَمَامٍ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، وَأَبُو الْحَسَنِ بْنُ^(٣) نَصْرِ بْنِ فَاتِحٍ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبُجَّائِيِّ، وَأَبُو الْحَسَنِ بْنُ عَلِيِّ الشَّادِيِّ^(٤)، وَأَبُو سُلَيْمَانَ بْنِ خَوْطِ اللَّهِ، وَأَبُو زَكْرِيَا، وَأَبُو بَكْرٍ يَحْيَى بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي الْغُضَنِ^(٥)، وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ مُجْبِرٍ^(٦)، وَأَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمَنِ الْبُتَّانِيِّ^(٧)، وَأَبُو^(٨) مُحَمَّدٍ بْنِ حَسَنِ اللَّوَاتِيِّ، وَابْنُ^(٩) تَامِتِيتٍ، وَابْنُ مُحَمَّدٍ الْمُؤَزُّورِيِّ، وَأَبُو عَمْرِو بْنِ سَالِمٍ، وَعُثْمَانُ بْنُ سَفْيَانَ بْنِ أَشْقَرِ الثَّمِيمِيِّ التُّونِسِيِّ.

وَمَنْ أَخَذَ عَنْهُ^(١٠) بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ، رَشِيدُ الدِّينِ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنُ عَطَاءِ اللَّهِ، وَبِمِصْرَ رَشِيدُ الدِّينِ بْنُ الْعِطَّارِ، وَفَخْرُ الْقَضَاةِ ابْنُ الْجِيَّابِ، وَابْنُهُ جَمَالُ الْقَضَاةِ.

تَصَانِيفُهُ: مِنْهَا نَظْمُهُ. قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ^(١١): «وَقَفْتُ مِنْهُ عَلَى مَجْلَدٍ مُتَوَسِّطٍ يَكُونُ عَلَى^(١٢) قَدْرِ دِيْوَانِ أَبِي تَمَامٍ حَبِيبِ بْنِ أَوْسٍ. وَمِنْهُ جُزْءٌ سَمَاهُ «نَتِيجَةُ وَجْدِ الْجَوَانِحِ فِي تَأْيِينَ الْقَرِينِ الصَّالِحِ» فِي مَرَاثِي زَوْجِهِ أُمِّ الْمَجْدِ. وَمِنْهُ جُزْءٌ سَمَاهُ «نَظْمُ الْجُمَانِ فِي التَّشْكِي مِنْ إِخْوَانِ الزَّمَانِ». «وَلَهُ تَرْسِيلٌ بِدِيعٍ، وَجِجَمٌ مُسْتَجَادَةٌ»، وَكِتَابُ رَحْلَتِهِ. «وَكَانَ أَبُو الْحَسَنِ الشَّادِيُّ يَقُولُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ تَصَانِيفِهِ، وَإِنَّمَا قَيْدٌ مُعَانِي مَا

(١) الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٦ - ٦٠٧). (٢) في الذيل: «رُوي عنه».

(٣) في الذيل: «وأبو الحسن ابن أبي نصر فاتح بن...».

(٤) في الذيل: «وابن محمد الشاري».

(٥) في الذيل: «أبو بكر يحيى بن عبد الملك بن أبي الغصن».

(٦) في الأصل: «مجير» والتصويب من الذيل.

(٧) في الذيل: «وأبواه العباس: ابن عبد المؤمن والنباتي».

(٨) في الذيل: «وابن محمد».

(٩) في الذيل: «ابن».

(١٠) في الذيل: «وممن رُوي عنه».

(١١) الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٨).

(١٢) كلمة «على» ساقطة من الذيل والتكملة.

تضمنته، فتولى ترتيبها، وتنضيد معانيها بعض الآخذين عنه، على ما تلقاه منه. والله أعلم.

شعره: من ذلك القصيدة الشهيرة التي نظمها، وقد شارف المدينة المكرمة طيبة، على ساكنها من الله أفضل الصلوات، وأزكى التسليم^(١): [المقارب]

أقول وآنسْتُ بالليل نارا لعل سراج الهدى قد أنارا
وإلا فما بال أفق الدجى كأن سنا البرق فيه استطارا
ونحن من الليل في جندس فما باله قد تجلى نهارا؟
وهذا التسيم شذا المسك قد أعير أم المسك منه استعارا؟
وكانت رواجلنا نشتكى وجاهما فقد سابتقنا ابتدارا
وكنّا شكونا عناء السرى فعُدنا نُباري سراج المهاري
أظن النفوس قد استشعرث بلوغ هوى تخذته شعارا
بشائر ضبح السرى آذنت بأن الحبيب تدانى مزارا
جرى ذكر طيبة ما بيننا فلا قلب في الركب إلا وطارا
حينئذ إلى أحمد المصطفى وشوقا يهيج الضلوع استعارا
ولاح لنا أخذ مشرقا بنور من الشهداء استنارا^(٢)
فمن أجل ذلك ظل الدجى يحل عقود النجوم انتشارا
ومن طرب الركب حث الخطا إليها ونادى البدار البدارا
ولما خللنا فناء الرسول نزلنا بأكرم مجد^(٣) جوارا
وحين دنونا لفرض السلام قصرنا الخطا ولزمننا الوقارا
فما نرسل اللحظ إلا اختلاسا ولا ترجع^(٤) الطرف إلا انكسارا
ولا نظهر الوجه إلا اكتناما ولا نلفظ القول إلا سارا
سوى أننا لم نطق أغينا بأدمعها غلبتنا انفجارا
وقفنا بروضة دار السلام^(٥) نعيد السلام عليها مرارا

(١) القصيدة في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٢ - ٦٠٣). وورد منها الأبيات الثلاثة الأولى في نفع الطيب (ج ٣ ص ٢٣٥).

(٢) في الأصل: «استعارا»، والتصويب من الذيل والتكملة.

(٣) في الذيل والتكملة: «خلق». (٤) في الذيل والتكملة: «ترفع».

(٥) رواية صدر البيت في الذيل والتكملة هي: وقفنا بروضة للسلام.

ولولا مهابتُهُ في النفوس
قضينا بزورته^(١) حَجُّنا
إليك إليك نبيُّ الهدى
وفارقتُ أهلي ولا مئةً
وكيف نمنُّ على مَنْ به
دعاني إليك هوى كامنٌ
فناديتُ^(٢) لبيك داعي الهوى
ووطئتُ نفسي بحكم^(٣) الهوى
أخوضُ الدُّجى وأروضُ السُّرى
ولو كنتُ لا أستطيع السبيلَ
وأجدرُ من نال منك الرضى
عسى لحظةً منك لي في غدٍ
فما ضلُّ مَنْ بِمَسْرَاك^(٤) اهتدى

لثمننا الثرى والتزمننا الجدارا
وبالعُمَرتين^(٥) ختمنا اعتِمَارا
ركبتُ البحارَ وجُئتُ القفارا
ورُبُّ كلامٍ يجرُّ اعتذارا
نؤمِّلُ للسَّيِّئاتِ اغتفارا
أثارَ مَنْ الشوقِ ما قد أثارا
وما كنتُ عنكَ أطيعُ اضطبارا
عليّ وقلتُ رضىً اختيارا
ولا أطعمُ النومَ إلَّا غرارا
لطرْتُ ولو لم أصادف مطارا^(٦)
محبُّ ثراك^(٧) على البُعد زارا
تُمهِّدُ لي في الجنان القرارا
ولا ذُلٌّ مَنْ بذراك استجارا

وفي غبطةٍ مِنْ مَنْ اللهُ عليه لحجَّ بيته، وزيارة قبره ﷺ يقول^(٨): [المتقارب]

هنيئًا لمن حجَّ بيتَ الهدى
وإنَّ السَّعادةَ مضمونةٌ
لَمَنْ حَجَّ^(٩) طيِّبَةً أوزارها
وخطَّ عن النُّفْسِ أوزارها

وفي مثل ذلك يقول^(١٠): [المتقارب]

إذا بلغ المرء^(١١) أرضَ الحجاز
فقد نال أفضلَ ما أمَّ لَه^(١٢)

(١) في الذيل: «بزورتنا».

(٢) في الأصل: «فناديتك» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الذيل والتكملة.

(٣) في الذيل: «الحكم».

(٤) أخذه من قول الأعمى التطيلي من موشحة تامة:

امتنع النومُ وخطَّ المراز ولا قراز طرْتُ ولكن لم أصادف مطاز

ديوان الأعمى التطيلي (ص ٢٦١) وجيش التوشيح (ص ٢٤) وتوشيح التوشيح (ص ١٠٦).

(٦) في الذيل: «ذراك».

(٨) البيتان في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٤) ونفع الطيب (ج ٣ ص ٢٤١).

(٩) في الذيل: «خل».

(١٠) البيتان في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٤) ونفع الطيب (ج ٣ ص ٢٣٦).

(١١) في النفع: «العبد».

(١٢) في الأصل والذيل والتكملة: «أمله»، والتصويب من النفع.

وإن^(١) زار قَبْرَ نَبِيِّ الْهُدَى فَقَدْ أَكْمَلَ اللَّهُ مَا أُمِّلَ^(٢)
وفي تفضيل المشرق^(٣): [الكامل]
لا يستوى شَرْقُ البلادِ وَغَرْبُهَا
انظر^(٥) جمال^(٦) الشمس عند طلوعها
وانظر إليها عند الغروبِ كَنِيْبَةٍ
وكفى بيومِ طلوعها من غَرْبِهَا
وقال في الوصايا^(٩): [الطويل]
عليك بكتمانِ المصائبِ واضْطَبِّرْ
كفاك من الشكوى^(١٠) إلى الناس أنها^(١١)
وقال^(١٣):

لصانع^(١٤) المعروف فَلْتُهُ عَاقِلٍ إن لم تُضَعِّفْها في محلٍّ عَاقِلٍ^(١٥)
كالنفس في شهواتها إن لم تكن وَفَقًا^(١٦) لها عادتُ بضرٍّ عاجِلٍ
نشره: من حكمه قوله^(١٧): إن شَرَّفَ الإنسانَ فشرَّفَ^(١٨) وإحسان، وإن فاق
فَتَفَضَّلَ وإِرْفَاق^(١٩)، ينبغي أن يحفظَ الإنسانَ لسانه، كما يحفظُ الجفْنُ إنسانه. فربَّ
كلمة تقال، تُحدثُ عَثْرَةً لا تُقال. كم كَسَتْ فَلَتَاتُ الألسنة الجِدادَ، من ورائها ملابس

-
- (١) في الضح: «فإن».
(٢) في الأبيات في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦١٠ - ٦١١).
(٣) في الذيل والتكملة: «بالمشرق».
(٤) في الأصل: «انظر إلى جمال» وكذا ينكر الوزن.
(٥) في الذيل والتكملة: «لحال».
(٦) في المصدر نفسه: «بوشك».
(٧) في المصدر نفسه: «تصحب».
(٨) البيتان في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦١٢ - ٦١٣).
(٩) في الأصل: «بالشكوى»، وكذا ينكر الوزن، والتصويب من الذيل والتكملة.
(١٠) في الذيل والتكملة: «أنه».
(١١) البيتان في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٩ - ٦١٠).
(١٢) في الأصل: «وصانع» والتصويب من الذيل والتكملة.
(١٣) في الذيل والتكملة: «قابل».
(١٤) في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٨ - ٦٠٩).
(١٥) في الذيل والتكملة: «بفضل».
(١٦) في الذيل والتكملة: «وإنفاق»، ينبغي للإنسان أن يحفظ لسانه.

جَداد^(١). نحن في زمن لا يَحْظَى فيه بنفاق، إِلَّا مَنْ عامل بِنِفاق. شُغِلَ الناس عن طريق الآخرة بزخارف الأغراض، فُلجُوا في الصُّدود عنها والإعراض، آثروا دنيا هي أضغاث أحلام، وكم هَفَّت في حبها من أحلام، أطالوا فيها آمالهم، وقَصَّروا أعمالهم، ما بالهم، لم يتفرغ لغيرها بالهم، ما لهم في غير ميدانها اشتياق^(٢)، ولا يسوى هواها اشتياق^(٣). تالله لو كُشِفَت الأسرار، لما كان هذا الإضرار، ولَسَهَرَت العيون، وتفجرت من شؤونها الجفون^(٤). فلو أن عين البصيرة من سنتها هابة، لراث جميع ما في الدنيا ريخا^(٥) هابة، ولكن استولى العمى على البصائر، ولا يعلم الإنسان^(٥) ما إليه صائر. أسأل الله هداية سبيله، ورحمة تورث نسيم الفردوس وسلسيله، إنه العنان المئان لا رب سواه.

ومنها^(٦): قَلَّتْ الهبات، أشبه شيء بفلتات الشهوات. منها نافع لا يُعْقَبُ ندما، ومنها ضارٌّ يُبْقِي في النفس المآ. فضرر الهبة وقوعها عند مَنْ لا يعتقد لحقها أداء، وربما أثمرت^(٧) عنده اعتداء. وضرر الشهوة أن لا توافق ابتداء، فتصير لمتبعتها^(٨) داء، مثلها كمثّل السكر يلتذُّ صاحبه بحلاوة^(٩) جنّاه، فإذا صحا يعرف^(١٠) قدر ما جنّاه. عكس هذه القضية هي الحالة المرضية.

مولده: ببِلّسية سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وقيل: بشاطبة سنة أربعين وخمسمائة.

وفاته: توفي بالإسكندرية ليلة الأربعاء التاسع والعشرين لشعبان أربع عشرة وستمائة.

محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن
محمد بن عبد الرحمن بن علي بن شبرين^(١١)

يكنى أبا بكر، شيخنا الفقيه القاضي المؤرخ الكاتب البار، رحمة الله عليه.

(١) في الذيل والتكملة: «من ملابس الحداد». (٢) في الذيل والتكملة: «استنان».

(٣) في الذيل: «العيون». (٤) في الذيل: «ريخ».

(٥) في الذيل: «المرء». (٦) في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٩).

(٧) في الأصل: «أثرت»، والتصويب من الذيل والتكملة.

(٨) في الذيل: «فتعود لمستعملها». (٩) في الذيل: «بحلو».

(١٠) في الذيل: «تعرف».

(١١) ترجمة ابن شبرين في الكتيبة الكامنة (ص ١٦٦) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٠) واللمحة

البدرية (ص ٦٤، ٩٠، ٩٨) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٨٥).

أوليته: أصله^(١) من إشبيلية، من حصن شلب من كورة باجة، من غربي صقعهما، يعرفون فيها ببني شبرين معرفة قديمة. ولي جدّه القضاء بإشبيلية، وكان من كبار أهل العلم، تشهد بذلك الصلاة. وانتقل أبوه منها عند تغلب العدو عليها عام ستة وأربعين وستمائة، فاحتل رندة ثم غرناطة، ثم انتقل إلى سكنى سبتة، وبها ولد شيخنا أبو بكر، وانتقل عند الحادثة إلى غرناطة^(٢)، فارتسم بالكتابة السلطانية، وولي القضاء بعدة جهات، وتأثّل مالا وشهرة، حتى جرى مجرى الأعيان من أهلها.

حاله: كان^(٣) فريد دهره، ونسيج وحده في حُسن السُمت والرواء^(٤)، وكمال الظرف وجمال الشارة، وبراعة الخط، وطيب المجالسة، خاصّيّا، وقورًا، تام الخلق، عظيم الأبهة، عذب التلاوة لكتاب الله، من أهل الدين والفضل والعدالة، تاريخيًا، مقيّدًا، طُلعة اختيار أصحابه، محققًا لما ينقله، فكها مع وقاره، غزلاً، لودعيًا، علي شأن الكتابة، جميل العشرة، أشد الناس على الشعر، ثم على المحافظة، ما يحفظه من الأبيات من غير اعتياف ولا تنقيح، يُناغي الملكين في إثباتها، مقررة التواريخ، حتى عظم حجم ديوانه، تفرّدت أشعاره بما أبرّ على المكثرين، مليح الكتابة، سهلها، صانعًا، سابقًا في ميدانها، راجحًا كفة المشور. وكانت له رحلة إلى تونس، اتسع بها نطاق روايته. وتقلب بين الكتابة والقضاء، منحوس الحظ في الاستعمال، مُضيّقًا فيه، وإن كان وافر الجدّ، مُوسّعًا عليه.

وجرى ذكره في كتاب «التاج المحلى» بما نصّه:

خاتمة المحسنين، وبقية الفصحاء اللّسينين، ملأ العيون هديًا وسَمْتًا، وسلك من الوقار طريقة لا ترى فيها عوجًا ولا أَمًا، ما شئت من فضل ذات، وبراعة أدوات. إن خطّ، نزل ابن مقلّة عن درجته وإن خطّ. وإن نظم أو نثر، تبيعت البلغاء ذلك الأثر. وإن تكلم أنصت الحفل لاستماعه، وشرع لدُزره النفيسة صديق أسماعه. وقد على الأندلس عند كائنة سبتة، وقد طرحت الثوى برحاله، وظعن عن رُبّعه بتوالي إِمحاله، ومُصرّف بلاده، والمستولي على طاريفها وتالدها، أبو عبد الله بن الحكيم، قدس الله صدها، وسقى مُتداه، فاهتزّ لقدمه اهتزاز الصّارم، وتلقاه تلقى الأكارم، وأنهض إلى لقاءه آماله، وألقى له قبل الوسادة ماله، ونظّمه في سَمَط الكُتاب، وأسلاه عن أعمال

(١) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٠).

(٢) في تاريخ قضاة الأندلس: «ثم عاد عند الحادثة التي كانت بها في أواخر عام ٧٠٥ إلى غرناطة».

(٣) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٠). (٤) في المصدر السابق: «وجمال الرواء».

الأقتاد، ونزل ذمامه تأكداً في هذه الدول، وقوفي له الآتية منها على الأول، فتصرف في القضاء بجهاتها، ونادته السيادة هاك وهاتها، فجدد عهد حكامه العدول من سلفه وقضاتها. وله الأدب الذي تحلت بقلائده اللبات والنحور، وقصرت عن جواهره البحور. وسيمر من ذلك في تضاعيف هذا المجموع ما يشهد بسعة ذرعه، ويخبر بكرم عنصره، وطيب نبعه.

مشيخته: قرأ^(١) على جدّه لأمّه الأستاذ الإمام^(٢) أبي بكر بن عبّدة الإشيلي، وسمع على الرئيس أبي حاتم، وعلى أخيه أبي عبد الله الحسين، وعلى الأستاذ أبي إسحق الغافقي، وعلى الشريف أبي علي بن أبي الشرف، وعلى الإمام أبي عبد الله بن حريث. وسمع على العدل أبي فارس عبد العزيز الجزيري. وسمع بحضرة غرناطة على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، وعلى العدل أبي الحسن بن مستقور، وعلى الوزير أبي محمد بن المؤذن، وعلى الخطيب أبي عبد الله بن رشيد. وبمالقة على الخطيب ولي الله تعالى، أبي عبد الله الطنجالي، وعلى الوزير الصدر أبي عبد الله بن ربيع، وعلى القاضي العدل أبي عبد الله بن برطال. وبيجاية على الإمام أبي علي ناصر الدين المشذالي، وعلى أبي العباس الغبريني. وبتونس على أبي علي بن علوان، وعلى قاضي الجماعة أبي إسحق^(٣) بن عبد الرّفيع، وسمع على الخطيب الصوفي ولي الله تعالى، أبي جعفر الزيات، والصوفي أبي عبد الله بن برطال، وعلى الصدر أبي القاسم محمد بن قائد الكلاعي. وأجازه عالم كثير من أهل المشرق والمغرب.

شعره: وشعره متعدّد الأسفار، كثير الأغراض. وفي الإكثار مجلّل الاختيار، فمنه قوله^(٤): [الطويل]

أخذت بكظم الروح يا^(٥) ساعة النوى
فمن مخبري يا ليت شعري متى اللقاء
سلا كل مشتاق وأكثر^(٦) وجده
ولي نيّة ما عشت في حفظ عهدهم
وأضربت في طي الحشا لاعيّ الجوى
وهل تحسن الدنيا وهل يرجع الهوى؟
وعند الثوى^(٧) وجدي وفي ساكن الهوى
إلى يوم ألقاهم وللمرء ما نوى

(١) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٠).

(٢) كلمة «الإمام» ساقطة في تاريخ قضاة الأندلس.

(٣) اسمه في المصدر السابق: إبراهيم بن عبد الرّفيع.

(٤) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ١٧٠ - ١٧١).

(٥) في الكتيبة الكامنة: «في ساعة».

(٦) في الكتيبة الكامنة: «وأقصر».

(٧) في الكتيبة الكامنة: «اللوى».

وقال: [المنسرح]

بأثوا فمن كان باكيًا يَبْكُ
فمن ظهور الرُّكَّابِ معملة
تصدع الشَّمْلُ مثلما انحدرت
كُنْ بالذي حَدَّثُوا على ثقةٍ
من النُّوى قَبْلُ لم أزلْ حَدِرًا

وقال: [السريع]

يا أيها المُعرَضُ الالاهي
يا^(٢) ليت شعري كم أرى فيك
ويحي مغيري إلى باخل واه
من يُرِدِ الله فيه فتنةً
يا غُصْنَ البانِ ألا عطفةً
أوسعني بعدك ذُلًّا وقَدْ
ذكرُك لا ينفكُ عن خاطري
يكفيك يا عثمان من جفوني
هيهات لا مُعترض لي على

يسسوؤني هَجْرُكُ والله
لا أقفك عن وئهِ وعزاه^(٣)
مَسْنُ ذَا السَّيْدي رآه^(٤)
يُشغله في الدنيا بتيَّاه
على مُسَعِّي جِسْمِهِ واه؟
رَأَى يُشْنِيَا^(٥) عندك ذا جاهٍ
وأنت عني غافل ساهٍ
لو كان ذَنْبي ذنب جهجاهٍ
حُكْمُكَ أنت الأمرُ النَّاهي^(٦)

قلت: جهجاه المشار إليه رجل من عُقَّار، قيل: إنه تناول عصا الخطبة من يد عثمان، رضي الله عنه، فكسرها على ركبته، فوقعت فيها الأكلة فهلك.

وقال: [البسيط]

يا من أعاد صباحي فقد حَلَكَا
مصيبتني ليست كالمصائب لا
فمن أطلب في شَرِّع الهوى بدمي

قَتَلْتُ عبدك لكن لم تَحْفَ دركا
ولا بُكائي عليها مثل كلِّ بُكا
لَحْظِي ولَحْظُكَ في قَتْلِي قد اشتركا

(١) في الأصل: «جلّ مني مالك...» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «يا» وهكذا ينكسر الوزن.

(٣) عجز هذا البيت مضطرب، لم أهتم إلى تقويمه.

(٤) البيت مضطرب في الوزن والمعنى معًا. (٥) في الأصل: «يُشْنِي» وهكذا ينكسر الوزن.

(٦) في الأصل: «الناه».

وقال، وقد سبقه إليه الرُّصافي؛ وهو ظريف: [المنسرح]

اشكو إلى الله فَرَطَ بَلْبَالِي^(١) ولَوْعَةً لا تزال تُذَكِّي لي
بمهجتي حائكٌ شَغِلْتُ به حُلُو المعاني طرازه عالي
سألتُه لَئِمَ خالِه فأبى وَمَنْ ذا نَخْوَة وإذلال
وقال حالي يَصُون خالي يُدْنِي فَوَيْحِي بالحال والخال^(٢)
يُفَرِّئُنِي الآلُ من مواعده وأتقي منه مَطْوَةَ الآل
لكن على ظُلْمه وقسوته فلنْتُ عنه الزَّمانَ بالسالي
وقال أيضًا مضمناً^(٣): [البسيط]

لي هِمةٌ كلما حاولتُ أَمْسِكُها على المَدْلَةِ في أرجاء^(٤) أرضيها
قالت: أَلَمْ تَكْ^(٥) أرضُ الله واسعةٌ حتى يُهاجِرَ عَبْدٌ مؤمِنٌ فيها

وقال مُسترجعاً من ذنبه، ومُستوحشاً من شَيْبه: [السريع]

قد كان عيبي قبل^(٦) في غَيْبٍ فمذ بدا شَيْبي بدا عَيْبي
لا عُذْرَ اليومَ ولا حُجَّةً فَصَحَّحَنِي والله يا شَيْبي
وقال^(٧): [الخفيف]

أثَقَلَتْنِي الذُّنُوبُ ويحي ووَئِسي ليتني كنت زاهداً كأويس^(٨)

وَجَرَّتْ بينه وبين السلطان ثالث الأمراء من بني نصر^(٩)، بعد خلعه من مُلكه،
وانتثار سُلُكِهِ، واستقراره بقصبة المُنكَب، غريباً من قومه، مُعَوَّضاً بالسهاد من نومه،

(١) البَلْبَال: شدة الهمِّ والوساوس. محيط المحيط (بلبل).

(٢) في الأصل: «والحال» بالحاء المهملة.

(٣) البيتان في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٠) والكتيبة الكامنة (ص ١٧٢).

(٤) في تاريخ قضاة الأندلس: «أرجا أراضيها».

(٥) في الأصل: «تكن» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٦) في الأصل: «من قبل في...» وهكذا ينكسر الوزن.

(٧) البيت في الكتيبة الكامنة (ص ١٧٢).

(٨) هو أويس القرني أحد زهاد القرن الأول الهجري. وجاء في الكتيبة الكامنة بعد هذا البيت التالي:

إنما أصل محنتي حبٌ دنيا هي لبلى ولي بها وَجْدٌ قيس

(٩) هو محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، الملقب بالمخلوع، وقد حكم غرناطة من سنة ٧٠١ هـ إلى سنة ٧٠٨ هـ. اللوحة البدرية (ص ٦٠).

قد فلّ الدهر سباته، وتركه يندب ما فاته، والقاضي المترجم به يومئذ مُدَبَّرُ أحكامها، وعَلِمَ أعلامها، ومتولّي نَقْضِها وإبرامها، فارتاح يوماً إلى إيناسه، واجتلاب أدبه والتماسه، وطلب منه أن يعبر عن حاله بَيَّانه، وينوب في بثّه عن لسانه، فكتب إليه:

[الطويل]

قفا نَفْسًا فالخَطْبُ فيها يهون	ولا تُعْجِلا إِنَّ الحديث شجون
عَلِمْنَا الذي قد كان من صَرَفِ دهرنا	ولسنا على علم بما سيكون
ذكرنا نعيمًا قد تَقْضَى نعيمه	فأقلَقْنَا شوقاً له وحنين
وبالأمس كُنَّا كيف شِئْنَا وللذُّنا	جِراك على أحكامنا وسكون
وإذا بآبُنَا مَثَوَى الفؤاد ونحونا	تُمَدُّ رِقَابٌ أو تُشِيرُ عيون
فَنَغْصُ من ذاك السرور مَهْنًا	وَكَدَرٌ من ذاك التَّعِيمِ مَعِينُ
ونبا عن الأوطان بين ضرورة	وقد يَقْرُبُ الإنسان ثم يَبِينُ
أيا معهد الإسعاد خُيِّتَ معهدًا	وجادَكَ من سَكَبِ الغمام هُتُونُ
تريد الليالي أن تُهين مَكَائِنَا	رُويدَكَ إِنَّ الخير ليس يَهُونُ
فإن تكن الأيام قد لَعِبَتْ بنا	ودارت علينا لِلْخَطوبِ فنون
فمن عادة الأيام ذلُّ كِرَامِهَا	ولكنَّ سَبِيلَ الصَّابِرِينَ مُبِينُ
لئن خَانَا الدهر الذي كان عَبْدَنَا	فلا عجب إِنَّ العَبِيدَ تَخُونُ
وما غَضُّ مَنَّا مَخْبَرِي غير أنه	تَضَاعَفَ إيمانٌ وزاد يقين

وكتب إلى الحكم بن مسعود، وهو شاهد المواريث بهذه الدُّعابة التي تستخفُّ الوقور، وتُلجِّج السَّمْعَ المَوْقور:

أطال الله بقاء أخِي وسيدي، لأهل الفرائض يُحْسِنُ الاحتِيالَ في مَدَارَاتِهِمْ، وللمنتقلين إلى الدار الآخرة يأمر بالاحتياط في أمواتهم، ودامت أقلامه مُشْرِعةً لَصْرَمِ الأجلِ المُنْشَأ، مُعَدَّةً لتحليل هذا الصَّنْفِ المُنْشَأ من الصُّلْصَالِ والحِمَا. فمن مَيِّتٍ يُغْسَلُ وآخر يُقْبَرُ، ومن أَجَلٍ يُطَوَّى وَكَفَّنٍ يُنْشَرُ، ومن رَمْسٍ يُفْتَحُ وَبَابٍ يُغْلَقُ، ومن عاصِبٍ يُخْبَسُ وَنَعَشٍ يُطْلَقُ، فكلما خَرُبَتْ ساحة، نشأت في الحانوت راحة، وكلما قامت في شَغَبٍ مَنَاحَة، اتسعت للرزق مِسَاحَة، فبإكر سَيِّدِي الحانوت وقد اخْتَسَى مَرَقَتَهُ، وسَهَّلَ عَثَقَتَهُ، فيرى الصُّغْبَةَ بالمناصب شَطْرًا، فيلحظ هذا برفق وينظر إلى هذا شَرًّا، ويأمر بشقِّ الجيوب تارة والبحثِّ عن الأوساط أخرى. ثم يأخذ القَلَمَ أَخْذًا رَفِيقًا، ويقول وقد خَامَرَهُ السرور: رَجِمَ الله فلانًا لقد كان لنا صديقًا، وربما أَذْبَرَهُ بالانزعاج الحَثِيثُ، وقال مستريحٌ منه كما جاء في الحديث. وتختلف عند ذلك

المراتب، وتتبين الأصدقاء والأجانب، فيتنصرف هذا، وحظه التهريب، والنظر الحديد، وينفصل هذا وبين يديه المُنذر الصَّيِّت والنَّعش الجديد. ثم يَغشى دار الميت ويسأل عن الكَيْت والكَيْت، ويقول: عليّ بما في البَيْت. أين دعاء الثَّاغِيَّة والرَّاغِيَّة؟ أين عَقُود الأملاد بالبادية؟ وقد كانت لهذا الرجل حالاً في حال. وقد ذُكر في الأسماء الخمسة فقيل: ذو مال. وعيون الأعوام تَرنو من عَلٍ، وأعناقهم تَشربُ إلى خلف الكِلل، وأزجلهم تدبُّ إلى الأسفاط دَيِّب الصُّقُور إلى الحَجَل. والموتى قد وجبت منهم الجنوب، وحضر المَوروث والمَكسُوب، وقُيد المَطْعوم والمشروب. وعُدَّت الصحاح، ووُزنت الأبطال وكِيلت الأقداح. والشُّهود يُغلظون على الورثة في الأليَّة، ويصونهم بالبتات في النشأة الأولى. والروائح حين تُفعم الأرض طيباً، وتُهدي الأرواح شذاً يفعل في إزعاجها على الأبدان فعلاً عجيباً. والدُّلالُ يقول: هذا مفتاح الباب، والسُّمسار يصيح: قام النُّدا فما تنتظرون بالثبات؟ والشَّاهد يصيح فتَغلو صيحته، والمُشرف يَشرب فتسقط سبَّحته. والمحتضر يهسُّ ألا حيّ فلا تسمعون، ويباهي لون العباء عليه الجواب رب أزعجون. ما هذا الشُّيخ والضُّجيج؟ مُتٌ كلا لم أمت. ومَن حجَّ له الحجيج، فترتفع له الأصوات، كي لا يُفسح فيه الممات. ويُبقر بطئه برغمه، ويُحفر له بجانب أبيه وبهذا أمه. ثم يشرع في نفسه الفُرْض، ولو أكفشت السموات على الأرض. ويقال لأهل السُّهام: أحسنوا، فالإحسان ثالث مراتب الإسلام، وقد نصَّ ابن القاسم على أجرة القَسَام. وسوَّغه أَضْبَغ وسُحْنُون، ولم يختلف فيه مطَّرف وابن المَاجِشُون. إن قيل إيصال الحقائق إلى أَرْجائها، حَسَن فجزاء الإحسان إحسان، وقيل إخراج النَّسب والكسور كِفَايَه، فللكاهنين حُلُوان. اللهم غَفِّراً، ونَسْتَقِيلُ الله من انبساط يجرُّ غَدْرًا، ونسأل الله حَمْدًا يوجب المزيد من نِعَمائه وشكرًا. ولولا أن أغفل عن الخَضَم، وأثقل رَحْلَ الفقيه أبي النجم، لاسْتَغْلَيْنَ المجلس شَرْحًا، ولكان لنا في بَخر المُباسطة سَبَّح، ولاقُضينا في ذكر الوارث والوَرَاث، وبيئنا العِلَّة في أقسام الشُّهود مع المُشْتَغَل بنسبة الذكور مع الأنثى. والله يَصِلُ عَزُّ أخِي ومجده، ويَهَبُ له قوة تخصُّه بالفائدة وجده، ويَزِيدُه بصيرة يتَّبَع بها الحقوق إلى أقصاها، وبَصْرًا لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ودام يُحصي الخَرارِيب والفلوس والأطمار، ويملا الطوامر بأقلامه البديعة الصُّنعة، ويصل الطُّومار بالطُّومار والسلام.

والشيء بالشيء يذكر، قلتُ: ومن أظرف ما وقعتُ عليه في هذا المعنى، قال بعض كتاب الدولة الحَكَمِيَّة^(١) بمنورقة، وقد ولَّاه خُطَّة الموارِيث، وكتب إليه راغبًا

(١) هي دولة أبي عثمان سعيد بن حكيم بن عمر بن حكيم القرشي الذي ضبط منورقة وأقام عليها.

في الإعفاء: [الطويل]

وما نلتُ من شغل الموارث رُقعة سوى شرح نغشٍ كلما مات مَيِّثُ
وأكُتِبَ للأموات صَكا كأنهم يُخاف عليهم في الجِباب التَّفْلُثُ
كأنى لعزرائيلَ صِرْتُ مُناقِضًا بما هو يَمْحو كلَّ يومٍ وأُثْبِتُ

وقال: فاستظرفها الرئيس أبو عثمان بن حكيم وأعفاه.

مولده: في أواخر أربعة وسبعين وستمئة.

وفاته: قال في العائد: ومضى لسبيله، شهابًا من شُهَب هذا الأفق، وبقية من بقايا حَلْبَةِ السُّبُق، رحمه الله، في ليلة السبت الثاني من شهر شعبان المكرم عام سبعة وأربعين وسبعمائة، وتخلَّف وقرًا لم يشتمل على شيء من الكُتُب، لإيثاره اقتناء الثَّقَدِين، وعيَّن جراية لمن يتلو كتاب الله على قبره على حَدٍّ من التَّعْزِرة والمحافظة على الإتيان. ودفن بباب البيرة في دار اتخذها لذلك.

محمد بن أحمد بن قُطْبَةِ الدَّوسِي^(١)

من أهل غرناطة، يكنى أبا القاسم.

حاله: مجموع خلال بارعة، وأوصاف كاملة، حسن الخط، ذاكرٌ للتاريخ والأخبار، مُسْتَوِلٍ على خصال حميدة من حُسن رِواء وسلامة صدر، إلى نزاهة الهمة، وإرسال السَّجِيَّة، والبُغْد عن المُصانعة، والتحلي بالوقار والجشمة، شاعر، كاتب. ومناقِبُه يَقْصُرُ عنها الكثير من أبناء جنسه، كالْفُروسيَّة، والتجند، والبسالة، والرَّماية، والسَّباحة، والشطرنج، متَحَمِّدٌ بِحَمْلِ القَنَا، مع البراعة، مديم على المروءة، مُواسٍ للمحاوِيج من معارفه. ارتسم في الديوان فظهر غناؤه، وانتقل إلى الكتابة، معززة بالخطط الثَّبيهة العَلَمِيَّة، وحاله الموصوفة مُتَّصِلَةٌ إلى هذا العهد، وهو معدود من حَسَنَاتِ قَطْرِهِ.

= أحسن قيام، وهادن الأعداء، وطالت مدته في ذلك، وحسنت سيرته إلى أن مات سنة ٦٨٠ هـ. ترجمته في بغية الوعاة (ص ٢٥٥) واختصار القدح المعلى (ص ٢٨) والمغرب (ج ٢ ص ٤٦٩) والحلة السيرة (ج ٢ ص ٣١٨) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٧٤) والذيل والتكملة (ج ٤ ص ٢٨) والروض المعطار (ص ٥٤٩، مادة: منورقة).

(١) ترجم ابن الخطيب في الكتبية الكامنة (ص ٢٨٩) لرجل قد يكون هو نفسه المترجم له، تحت عنوان: «الكاتب أبو القاسم محمد بن أبي بكر بن محمد بن أحمد بن قطبة الهرميسي» وقال إن ابن قطبة كتب له قصيدتين، الأولى لامية ساكنة والثانية يائية، وهذا ما ينطبق على المترجم له هنا في الإحاطة.

وثبت في «التاج المحلى» بما نصه: «سابق رخص المحلى، أتى من أدواته بالمعائب، وأصبح صدرًا في الكتاب وشهنا في الكتائب. وكان أبوه، رحمه الله، بهذه البلدة، قُطِبَ أفلاكها، وواسطة أسلاكها، ومؤتمن رؤسائها وأملاكها، وصنر رجالها، وولّى أرباب مجالها، فقد نل ابنه سهامها، فخير عدالة وبراعة وفهما، وألقاه بينهم قاضيًا شهنا، فظهر منه نجيبًا، ودعاه إلى الجهاد سميحًا مجيبًا، فصحب السرايا الغربية المغيرة، وحضر على هذا العهد من الوقائع الصغيرة والكبيرة، وعلى مصاحبة البعوث، وجوب السهول والوعوث، فما رفض اليراعة للباتر^(١)، ولا ترك الدفاتر للزمان الفاتر.

شعره: وله أدب بارع المقاصد، قاعد للإجادة بالمراسد. وقال من الرؤضيات وما في معناها: [الطويل]

دعيني ومطلول الرياض فلأنني
أعلل هذا بخضرة شارب
وأزهر غصن البان رائد نسمة
أنادم في بطحائها الآس والوزدا
وأحكي بهذا في تورده الخدا
ذكرت به لين المعاطف والقدا

وقال: [الطويل]

وليل أدزناها سلاقا كأنها
غنيينا عن المصباح في جئح ليلها
على كف ساقبها تضرم نار^(٢)
يخذ مدير لا بكأس عقار

وقال: [الرملي]

يومنا يوم سرور فلتقم
إنما الدنيا منام فلتكن
تصدع الهم بكاسات المدام
مغرما فيها بأحلى المنام

وقال: [الطويل]

وبي منك ما لو كان للشرب ما صحا
أحبك ما هبت من الروض نسمة
وبالهنيم ما روث صداها المناهل
فإن شئت أن تهجر وإن شئت فلتقبل
وما اهتز غصن في الحديقة مائل
فلأني لما حملتني اليوم حامل

وقال: [الكامل]

كم قلت للبدر المنير إذا بدا
هيهات وجه فلانة تحكي لنا

(١) في الأصل: «الباتر». والباتر: السيف القاطع. لسان العرب (بتر).

(٢) في الأصل: «نارًا».

فأجابني بلسان حال واعتنى
 وصرفت وجهي نحو غضن أملد
 فضحكت هزءاً عند هز قوامها
 إذا رام أن يحكى قواماً كالقنا
 وكتبت إليه في غرض يظهر من الأبيات: [الطويل]

جوانحنا نحو اللقاء جوانح
 وتمضي الليالي والتزاور مغور
 فديتك عجلها لعيني زيارة
 وإن لقائي جلّ عن ضرب موعد
 ومقدار ما بين الديار قريب
 على الرغم منّا إن^(١) ذا لغريب
 ولو مثل ما ردّ اللحاظ مريب
 لأكرم ما يهدى الأريب أريب
 فراجعني بقوله، والتجني شيمه: [الطويل]

لعمرك ما يومي إذا كنت حاضراً
 أزور فلا ألفي لديك بشاشة
 فلا ذنب للأيام في البعد بيننا
 وإن لقاء جاء من غير موعد
 سوى يوم صبّ من عداه يغيب
 فيبعد مني الخطر وهو قريب
 فإني لداعي القرب منك مجيب
 ليحسن لكن مرة ويطيب
 وإحسانه كثير، وفيما ثبت كفاية لئلا نخرج عن غرض الاختصار.

محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدوسي^(٢)

يكنى محمد أبا بكر، أخو الذي قبله.

حاله: تلوّه في الفضل والسراوة، وحسن الصورة، ونصاعة الطرف، مريب عليه بمزيد من البشاشة والتنزل، وبذل التودد، والتبريز في ميدان الانقطاع، متأخر عنه في بعض خلال غير هذا. ذكيّ الذهن، مليح الكتابة، سهلها، جيد العبارة، متأني اليراع، مطلق اليد، حسن الخط، سريع بديهة المنشور، معتم، مخول في التخصص والعدالة. كتب الشروط بين يدي أبيه، ونسخ كثيراً من أمّهات الفقه، واستظهر كتباً، من ذلك «المقامات الحريية». وكتب بالدار السلطانية، واختص بالمراجعة عمّن بها، والمفاتحة أيام حركات السلطان عنها إلى غيرها. حميد السيرة، حسن الوساطة، نجديّ الجاه،

(١) في الأصل: «وإن» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) ترجمة أبي بكر محمد بن محمد ابن قطبة الدوسي في نشر فرائد الجمان (ص ٣١٨) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ١٦٧).

مشكور التصرف، خفيف الوطأة. وولّى الخطابة العلية، مع الاستمساك بالكتابة. ولم يؤثر عنه الشعر^(١)، ولا عول عليه.

محمد بن محمد بن محمد بن قطبة الدوسي

يكنى أبا بكر، وقد ذكرنا أباه وعمه، ويأتي ذكر جدّه.

حاله: نبيل المقاصد في الفن الأدبي، مشغول به، مفتوح من الله عليه فيه، شاعر مطبوع، مكثّر، انقاد له مَرَكِب النظم، في سنّ المراهقة، واشتهر بالإجادة، وأنشد السلطان، وأخذ الصّلة، وارتمى لهذا العهد في الكتابة. وشرع في تأليف يشتمل على أدباء عصره.

شعره: ومما خاطب به أحد أصحابه: [الطويل]

إذا شمتُ من نحو الحمى في الدجا بَرَقَا	أبى الدُّمْعُ إِلَّا أَنْ يَسِيلَ وَلَا يَرْقَى
ومهما تذكّرتُ الزمان الذي مضى	تقطّعت الأَحْشاءُ مِنْ حَرٍّ مَا أَلْقَى
خيلَني، لا تجزع لَمَخْل فادمعي	تبادر سَقْيًا فِي الْهَوَى لِمَنْ اسْتَسْقَى
وما ضرُّ من أصبحْتُ ملك يمينه	إذا رَقَّ لِي يَوْمًا وَقَدْ حَازَنِي رِقًا
فنيْتُ به عَشَقًا وَإِنْ قَالَ حَاسِدٌ	أَضَلَّ الْوَرَى مِنْ مَاتَ فِي هَاجِرِ شَقَا
تلْهَبُ قَلْبِي مِنْ تَلْهَبِ خَدّه	فِيَا نَعَمْ ذَاكَ الْخَدُّ فَاضْ بِأَنْ أَشَقَى

ومنها:

وكم من صديق كنت أحسب أنه إذا كذبت أوهامنا رفع الصّدقا

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدوسي^(٢)

ابن عمّ المذكورين قبله، يكنى أبا القاسم.

حاله: حسن^(٣) الصورة، لازم القراءة على شيوخ بلده، ونظم الشعر على الحداثة، وترشح للكتّيب بالدار السلطانية مع الجماعة، ممن هو في نظمه.

(١) قال عنه ابن الأحمر إنّ الشعر فتح له بابه وهو صغير، وأتى منه بما ملا الأقطار بالكثرة، وأورد له بعض في «تثير فرائد الجمان» (ص ٣١٩ - ٣٢٠).

(٢) ترجمة أبي القاسم محمد بن محمد ابن قطبة الدوسي في الكتيبة الكامنة (ص ٢٧٢).

(٣) يبدو أن نظرة ابن الخطيب لأبي القاسم تغيرت عند تأليف الكتيبة الكامنة، فهو هناك يذمه وينعته بأقبح النعوت، على خلاف ما ورد هنا.

ومن شعره، كتب إلي بما نصه: [الكامل]

أخسب وخذة يوم رأسك ربما تُعطي السَّلامة في الصراع سلما

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدوسي

أخو الفقيه أبي بكر بن القاسم بن محمد المذكور.

حاله: شاب حسن فاضل، دميث، متخلق، جميل الصورة، حسن الشكل، أحمر الوجنتين. حَفِظَ كُتُبًا من المبادئ النحوية، وكتب خطًا حسنًا، وارتسم في ديوان الجُند مثل والده، وهو الآن بحاله الموصوفة.

شعره: قَتِدَ أخوه لي من الشعر الذي زعم أنه من نظمه، قوله: [المقارب]

حلفتُ بمن ذاد عني الكرى وأسهرَ جفني ليلاً طويلاً
وألبس جسمي ثياب التحول وعذب بالهجر قلبي العليلاً
ما خلُتُ عن ودّه ساعةً ولا اغتَضْتُ منه سواه بديلاً

محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى
ابن عبد الرحمن بن يوسف بن جُزَي الكَلْبِي^(١)

من أهل غرناطة وأعيانها، يكنى أبا عبد الله.

أوليته: تُنظر في اسم أبيه في ترجمة المُقرئين والعلماء.

حاله: من أعلام الشهرة على الفتاوة، وانتشار الذكر على الحداثة، تبرزاً في الأدب، واضطلاحاً بمعانة الشعر، وإتقان الخط، وإيضاحاً للأحاجي والمُلغزات. نشأ بغرناطة في كنف والده، رحمه الله، مقصُور التدريب عليه، مشاراً إليه في ثُقُوب الذهن، وسعة الحفظ، ينطوي على نبل لا يظهر أثره على التفاتة، وإدراك، تُغَطِّي شُغْلَتَه مخيلة غير صادقة، من تغافله. ثم جاش طبعه، وفُهِق حوضه، وتفجرت بناييعه، وتوقد إحسانه.

ولما فقد والده، رحمه الله، ارتسم في الكتابة، فبذ جلة الشعراء، إكثاراً واقتداراً، ووفور مادة، مجيداً في الأمداح، عجيباً في الأوضاع، صديقاً في السَّيب، مطبوعاً في المقطوعات، معتدلاً في الكتابة، نشيط البنان، جليداً على العمل، سيال

(١) ترجمة محمد بن جزي في الكتيبة الكامنة (ص ٢٢٣) ونشير فرائد الجمان (ص ٢٩٢) وأزهار الرياض (ج ٣ ص ١٨٩) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٧٠).

المجاز، جَمُوحِ عِنانِ الدُّعابة، غَزَلًا، مُؤَثِّرًا للَفكاهة. انتقل إلى المغرب لَشُفوف خَضله، على ما قد قَسَمَ الحَظوظ. سَبَحانه من رَزَقه بهذه البلاد، فاستقرَّ بِبابِ مَلِكه، مَزْعِي الجِناح، أثيرَ الرتبة، مطلقَ الجِراية، مقرَّر السَّهام، مُغْتَبًا وطنه، راضيًا عن جِيرته، دَيَّدَن من يستند إلى قديم، ويتحيزُ إلى أصالة.

توالياقه: أخبرني عند لقائه إياي بمدينة فاس في غرض الرسالة؛ عام خمسة^(١) وخمسين وسبعمائة، أنه شرع في تأليف تاريخ غرناطة، ذاهبًا هذا المذهب الذي انتدبتُ إليه، ووقفت على أجزاء منه تشهد باضطلاعه، وقيد بخطه من الأجزاء الحديثة والفوائد والأشعار ما يفوت الوصف، ويفوق الحَذ. وجرى ذكره في «التاج» بما نصه^(٢):

«شمسٌ في سماءٍ^(٣) البلاغة بازغة، وحجة على بقاء الفطرة الغريزية^(٤) في هذه البلاد المغربية بالغة، وفريدة وقت أصاب من فيها نادرة أو نابغة، من جذع^(٥) بن علي القادح، وجري^(٦) من المعرفة كل بارح، لو تعلقت الغوامض بالثرى لنالها، وقال أنا لها. وربما غلبت الغفلة على ظاهره، وتنطبق^(٧) أكمائها على أزاهره، حتى إذا قدح في الأدب زنده، تقدّم المواكب بنده، إلى خط بارع، يعنو طوال الطويل منه إلى سر وبراعة، كما ترضى المسك والكافور عن طرس وحبر.

شعره: فمن غرامياته وما في معناها قوله^(٨): [الطويل]

متى يتلاقى شائق ومَشُوق	ويُصبحُ عاني ^(٩) الحُبِّ وهو طليق
أما أنها أمنية عَزَّ نيلها	ومَرَمَى لعمري في الرُّجاءِ ^(١٠) سحيق
ولكنني ^(١١) خدعتُ ^(١٢) قلبي تَعْلَةً	أخافُ أنصداعَ القلبِ فهو رقيق
وقد يُرزقُ الإنسانُ من بعد يأسه	وروضُ الرُّبى بعد الذبول يروق

(١) في الأصل: «خمس» وهو خطأ نحوي. (٢) قارن بالكتيبة الكامنة (ص ٢٢٣ - ٢٢٤).

(٣) كلمة «سماء» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من الكتبية الكامنة.

(٤) في الكتبية: «العربية هي بالمغربية بالغة». (٥) في الكتبية: «من جذع أبر على القارح».

(٦) في الكتبية: «رزجر... كل سائح، لا بارح».

(٧) في الأصل: «وتنطق» ولا معنى له. وفي الكتبية الكامنة: «وانطبق كمامه».

(٨) القصيدة في الكتبية الكامنة (ص ٢٢٥ - ٢٢٦).

(٩) في الأصل: «عير» وقد اخترنا هذه الكلمة من الكتبية؛ لأنها أكثر ملاءمة للمعنى.

(١٠) في الأصل: «الرجاء» وهكذا ينكسر الوزن.

(١١) في الأصل: «ولكنني» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتبية الكامنة.

(١٢) في الكتبية: «خادعت».

تباعدت لما زادني القرب لوعة
ورفت شفاء الداء بالداء مثله
وتالله ما للصب في الحب راحة
ويا^(٢) رب قد ضاقت علي مسالكي^(٣)
ولا سلوة ترجى ولا صبر^(٤) ممكن
ولا الحب عن تعذيب قلبي ينشني
شجون يضيق الصدر عن زفرتها
نشزت عقود الدمع ثم نظمتها
بكيث أسي حتى بكى حاسدي معي
ولو أن عند الناس بعض محبتي
أيا عين كفي الدمع ما بقي الكرى
ويا نائمًا^(٨) عن ناظري أما ترى^(٩)
رويدك رفقا بالفؤاد فإنه
نقضت عهودي ظالمًا بعد عقدها
كتمتلك حبي^(١١) يعلم الله مدة
فما زلت بي حتى فضحت^(١٢) فإن أكن
وقال^(١٥): [الكامل]

ومورّد الوجنات معسول اللمى فتاك لخط^(١٦) العين في عشاقه

- (١) في الكتيبة: «لاني».
- (٢) في الكتيبة: «أيا».
- (٣) في الكتيبة: «مداهي».
- (٤) في الكتيبة: «ولا الصبر».
- (٥) في الكتيبة الكامنة: «... حتى بكث لي حسدي كأن عدوي صار رهو...».
- (٦) في الأصل: «يلقى» والتصويب من الكتيبة.
- (٧) في الكتيبة: «اليوم».
- (٨) المصدر نفسه: «غائبًا».
- (٩) المصدر نفسه: «يرى».
- (١٠) المصدر نفسه: «عذبة».
- (١١) المصدر نفسه: «حبا».
- (١٢) المصدر نفسه: «صبروت».
- (١٣) المصدر نفسه: «صبروت».
- (١٤) في الأصل: «بعد» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
- (١٥) القصيدة في الكتيبة الكامنة (ص ٢٢٤).
- (١٦) في الأصل: «فتاك بلحظ»، وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

الخمرُ بين لثاته والزهرُ في
 مباد^(١) غصن البان في أثوابه
 من للهلل^(٢) بثغره أو خذه^(٣)
 ولقد تشبّهت الظباء^(٤) بشبهه
 نادمتُه وبيتًا مُحيا الشمس قد
 في روضة ضحكك تُغورُ أقاحها
 أسقيه كأس سلافة كالمنك في
 صفراء لم يُدير الفتى أكواسها
 ولقد تلى الصخر^(٥) من سطواته
 واطل أرشف من سلافة^(٦) ثغره
 ولربما عطفته عندي^(٧) نشوة
 أرجو نداء^(٨) إذا تبسم ضاحكا
 أشكو القساوة من هواي^(٩) وقلبي
 يا هل لعهد قد مضى من عودة
 يا ليت^(١٠) لو كانت لذلك حيلة
 فلقد يروق الغصن بعد ذبوله

وَجَنَاتِهِ وَالسُّخْرُ فِي أَحْدَاقِهِ
 وَيَلُوحُ بَذْرُ التَّمِّ فِي أَطْوَاقِهِ
 هَبْ أَنَّهُ بِحَكِيهِ فِي إِشْرَاقِهِ
 مِنْ خَلْقِهِ وَعَجْزُهُ عَنْ أَخْلَاقِهِ
 أَلْقَى عَلَى الْآفَاقِ فَضْلَ رَوَاقِهِ
 وَأَسَالَ^(٥) فِيهَا الْمُرْنُ مِنْ أَمَاقِهِ
 تَفَحَّاتِهِ وَالشَّهِيدِ عِنْدَ مَذَاقِهِ
 إِلَّا تَسْدَاعِي هُمُّهُ لِفِرَاقِهِ
 فَيَعُودُ لِلْمَعْهُودِ مِنْ إِشْفَاقِهِ
 خَمْرًا تُدَاوِي الْقَلْبَ مِنْ إِحْرَاقِهِ
 تَشْفِي^(٩) الْخَبَالَ بِضُمِّهِ وَعِنَاقِهِ
 وَأَخَافُ مِنْهُ الْعَثَبُ فِي إِطْرَاقِهِ
 وَالضُّعْفُ مِنْ جَلْدِي وَمِنْ مِيثَاقِهِ
 أَمْ لَا سَبِيلَ بِحَالَةٍ لِلْحَاقِهِ
 أَوْ كَانَ يُغَطِّي الْمَرْءُ بِاسْتِحْقَاقِهِ
 وَيَتَسَمَّ^(١٣) بَذْرُ التَّمِّ بَعْدَ مُحَاقِهِ

(١) في الأصل: «ينادي غصن...» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

(٢) في الأصل: «للهلك» والتصويب من الكتيبة.

(٣) في الكتيبة: «بخذه أو ثغره».

(٤) في الأصل: «الظباء» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

(٥) في الأصل: «وأسال»، وقد اخترنا هذه الكلمة من الكتيبة لأنها أكثر ملاءمة للمعنى.

(٦) في الكتيبة: «الصم».

(٧) في الكتيبة: «نحري».

(٨) في الأصل: «فشفى الخبال» والتصويب من الكتيبة.

(٩) في الكتيبة: «رضاه».

(١٠) في الكتيبة: «هواه».

(١١) في الأصل: «يا ليت شعري لو...» وهكذا ينكسر الوزن، ولذلك حذفنا كلمة «شعري» ليستقيم

الوزن، كما في الكتيبة الكامنة.

(١٢) في الكتيبة: «ويروق».

ومما اشتهر عنه في هذا الغرض^(١): [الكامل]

ذَهَبَتْ حَشَاشَةُ قَلْبِي الْمَصْدُوعُ^(٢)
 مَا أَنْصَفَ الْأَحْبَابُ يَوْمَ وَدَاعِهِمْ
 أَنْجَذَ بِقَيْثِكَ^(٣) يَا غَمَامَ فَإِنِّي
 مَنْ كَانَ يَبْكِي الظَّالِمِينَ بِأَدَمِ
 إِيهِ وَبَيْنَ الصُّدْرِ مِنِّي وَالْحَشَا
 هَاتِ الْحَدِيثَ عَنْ^(٤) الَّذِينَ تَحَمَّلُوا
 عِنْدِي شَجُونَ فِي الَّتِي جَنَّتِ النَّوَى^(٥)
 مِنْ وَضَلِّيَ الْمَوْقُوفِ أَوْ مِنْ سُهْدِي^(٦) أَلِ
 لَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ صَبَابَتِي
 يَا قَلْبُ^(٧) لَا تَجْزَعْ لِمَا فَعَلَ النَّوَى^(٨)
 أَفَبَعْدَ^(٩) مَا عُودِزْتُ فِي أَشْرَاكَه
 وَمَهْفَهْفٍ مَهْمَا هَبْتَ رِيحَ الصُّبَا
 جَمَعَ الْمُحَاسِنَ وَهُوَ مُنْفَرِدٌ بِهَا
 وَالشَّمْسُ لَوْلَا إِذْنُهُ مَا آذَنْتُ

بَيْنَ السَّلَامِ وَوَقْفَةِ التَّوْدِيْعِ
 صَبًا^(١٠) يَحْدُثُ نَفْسَهُ بِرَجُوعِ
 لَمْ أَرْضَ يَوْمَ الْبَيْنِ فَعَلَ^(١١) دَمُوعِ
 فَأَنَا الَّذِي أَبْكِيهِمْ بِنَجْوِي
 شَجَنَ طُوبَيْتَ عَلَى شَجَاهِ ضُلُوعِي^(١٢)
 وَأَقْدَحُ^(١٣) بِزُنْدِ الذُّكْرِ نَارَ وَلُوعِي
 أَشْكُو الْعُدَاةَ^(١٤) وَهَنْ فِي تَوْدِيْعِ^(١٥)
 مُوَصُولٍ أَوْ مِنْ تَوَمِّي الْمَقْطُوعِ^(١٦)
 بَعْدَ^(١٧) الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ هُجُوعِي
 فَالْحَرُّ لَيْسَ لِحَادِثٍ بِجَزُوعِ
 تَبْغِي التُّزُوعِ؟ وَلَاتِ حِينَ تُزُوعِ
 أَبَدْتُ لَهُ عِطْفَاءَ عِطْفِ مُطِيْعِ
 فَأَعْجَبَ لِحُسْنِ مُفْرِدِ مَجْمُوعِ
 خَسَجَلًا وَاجْلَالًا لَهُ بِطُلُوعِ^(١٨)

(١) القصيدة في نثر فرائد الجمان (ص ٢٩٦ - ٢٩٨)، وبعضها في نفع الطيب (ج ٨ ص ٧٧ - ٧٨) وأزهار الرياض (ج ٣ ص ١٩٧).

(٢) في الأصل: «الصدوع» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من نثر فرائد الجمان.

(٣) في النثر: «صَبَّ». (٤) في النثر: «بدمعك».

(٥) في الأصل: «قَلَّ» والتصويب من نثر فرائد الجمان.

(٦) في الأصل: «ضُلُوع» والتصويب من النثر. (٧) في النثر: «على».

(٨) في النثر: «تَقْدَحُ».

(٩) في النثر وأزهار الرياض: «من أي أشجاني التي جَنَّتِ الهوى». وفي النفع: «من أي أشجاني التي جَنَّتِ النوى».

(١٠) في النفع وأزهار الرياض: «العذاب». (١١) في المصادر الثلاثة: «تنويع».

(١٢) في المصادر الثلاثة: «هَجْرِي».

(١٣) في هذا البيت والبيتين التاليتين مصطلحات الحديث وهي: الموقوف، والموصول، والمقطوع، والصحيح، والموضوع، والمسند.

(١٤) في النثر: «مثل».

(١٥) في النثر: «الهوى».

(١٦) في الأصل: «أَبْعَدُ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من نثر فرائد الجمان.

(١٨) في الأصل: «مطلوع»، والتصويب من النثر.

حتى تفتّح عن رياض ربيع
فلربّ ضِرْغام بهنّ صريع
حُسنًا كحسن الشعر بالتّصريع
فشَقَّيت^(١) بالممنوح والممنوع
أتراه يَعْطِفه عليّ خضوعي؟
حُبِّي ولا بِعِذارِي المخلوع
ليمحوز أجزر مُنْعَم وشفيع
لولا الهوى ما كنتُ بالمخدوع
وأثبّتي سوءًا لحُسنِ صنيعي
بسطويل هُجران إليّ سريع^(٢)
فمنعتُ من^(٣) ماء الرُّضاب شروعي
خيرًا صحيحًا ليس بالمصنوع^(٤)
عن مُقلتي عن قلبي المصدوع^(٥)
وأنا^(٦) لذكراهنّ في تَقْطِيع
ويعزّ سلوان^(٧) الهوى المطبوع
بمُذِيع سرّ للعهد مُضِيع
إن كان قلبي منك غير جميع

ما زلتُ أسقي خدّه من أدمعي
إن كان يرئو عن نواظر شادين
عجبًا لذاك الشعر زاد بقرقه
منع الكرى ظلمًا وقد منع الضنا
جرّدتُ ثوبَ العزّ عني طائعا
لم أنتفع^(٢) لئسا من الملبوس في
بجماله استشفّغت في إجماله
يا خادعي عن سلوتي وتصبري^(٣)
أوسعتني بعد^(٤) الوصال تفرقا
أسرّغت فيما ترتضي فجزيتني^(٥)
أشرّغت رُمحا من قوامك ذابلا^(٦)
خُذ من حديث تولّعي وتولّهي
يزويه خدي مُسنِدا عن أدمعي
كم من ليالٍ في هواك قطعُها
لا والذي طبع الكرام على الهوى
ما غيرتني الحادثات ولم أكن
لا خير في الدنيا وساكنها^(١٣) معًا

وقال في غير ذلك في غرض يظهر من الأبيات: [الطويل]

وقالوا عداك البخت والحزم عندما غدوت غريب الدار منزلك الفنت

-
- (١) في النثر: «فشَقَّيت».
(٢) في النثر: «لم أفتنع بسقامي الملبوس في...».
(٣) في النثر: «ويا خادعي... ومصبري».
(٤) في النثر: «بعدًا بفضل تقربي وجزيتني سوءًا...».
(٥) في النثر: «فأثبّتي».
(٦) في النثر: «صريع».
(٧) في الأصل: «دايلا» والتصويب من النثر: (٨) في النثر: «في».
(٩) في النثر: «... تولّعي وصبايتي... ليس بالموضوع» وفي النفح: «أو من حديث تولّهي وتولّعي... ليس بالموضوع».
(١٠) في النفح: «المفجوع».
(١١) في النثر: «قلبي».
(١٢) في الأصل: «وبرّ سوا أن»، والتصويب من نثر فرائد الجمان.
(١٣) في النثر: «الدنيا وفي لذاتها إن كان جمعي منك...».

ألم يعلموا أنَّ اغترابي حُرَّامة
نعم لست أرضى عن زمانى أو أرى
لقد ستمت نفسي المقام ببلدة
يُذَلُّ بها الحرُّ الشريف لعَبْدِه
إذا اصطافها المرء اشتكى من سُومِها
ولست كقوم في تعصُّبهم عثوا
رغبتُ بنفسى أن أساكن مَغشِراً
يدسُّون في لِين الكلام ذَوَاهِيَا
فلا دُرُّ دُرِّ القوم إلَّا عَصِيبَة
وَأَثَرْتُ أَقْوَامًا حَمَذْتُ جَوَارِهِم
لهم عن عِيَان الفاحشات إذا بدت
فما أَلْفُوا لَهْوًا ولا عَرَفُوا خَتَى
به كلُّ مُرتاح إلى الضَّيف والوَغَى
وَأَشَعْتُ ذِي طَمَرِينَ أَغْنَاهُ زُهْدُهُ
صَبُورٌ عَلَى الإِيذَاءِ بَغِيضٌ عَلَى الْعَدَا
وَلِي صَاحِبٌ مِثْلِي يَمَانٍ جَعَلْتُهُ
وَأَجْرُدُ جَرَّارَ الْأَعْنَةِ فَارِح
تَسَامَتْ بِهِ الْأَعْرَاقُ فِي آلِ أَعْرَج
وَحَسْبِي لِعَضَّاتِ النَّوَائِبِ مُتَجِدَا
قَطَعْتُ زَمَانِي خُبْرَةً وَبِلَوْتُهُ
وَمَارَسْتُ أَبْنَاءَ الزَّمَانِ مُبَاحِثًا
وَذِي صَلَفٍ يَمْشِي الْهُوَيْنَا تَرْفُقًا
إِذَا غَبْتُ فَهُوَ الْمَرْوَةُ الْقَوْمَ عِنْدَهُم
وَإِنْ ضَمَّنِي يَوْمًا وَإِيَاهُ مَشْهَد
فَحَسْبِي عُدَاتِي أَنْ طَوَيْتُ مَآرِبِي
وَقُلْتُ لِدُنْيَاهُمْ إِذَا شَتَّتْ فَاغْرِبِي
وَإِغْضَيْتُ عَنْ زَلَّاتِهِمْ غَيْرَ عَاجِزِ

وَأَنْ ارْتَحَالِي عَنْ دَارِهِمْ هُوَ الْبُخْتُ؟
تَهَادِي السَّفِينِ الْمَوَاحِرِ وَالْبُخْتُ
بِهَا الْعَيْشَةُ الْتُكْرَاءُ وَالْمَكْسَبُ السُّخْتُ
وَيَجْفَوُهُ بَيْنَ السُّمْتِ مِنْ سُنَّةٍ سَتْ
أَذَى وَيَرَى فِيهِ أَذَا يَبِيتُ
يَقُولُونَ بِغَدَاذٍ لِفَرْنَاطَةِ أُخْتُ
مَقَالَهُمْ زَوْزٌ وَوُدُّهُمْ مَقْتُ
هِيَ السُّمُّ بِالْأَلِ الْمَشُودُ لَهَا لَتْ
إِلَيَّ بِإِخْلَاصِ الْمَوْدَةِ قَدْ مَثُوا
مَقَالَهُمْ صَدَقٌ وَوُدُّهُمْ بَخْتُ
تَعَامٍ وَعَنْ مَا لَيْسَ بَعِيْنُهُمْ صَمْتُ
وَلَا عَلِمُوا أَنَّ الْكُرُومَ لَهَا بِنْتُ
إِذَا مَا أَتَاهُ مِنْهُمَا النَّبَأُ الْبَغْتُ
فَلَمْ يَتَشَوَّفْ لِلَّذِي ضَمُّهُ التُّخْتُ
مَعِيْنٌ عَلَى مَا يَثْقِي جَاشُهُ الشُّتُّ^(١)
جَلِيسِي نَهَارًا أَوْ ضَجِيعِي إِذَا بَتْ
كُمَيْتٌ وَخَيْرُ الْخَيْلِ قَذَاخُهَا الْكَمْتُ
وَلَا عِوَجٌ فِي الْخَلْقِ مِنْهُ وَلَا أَمْتُ
عَلَيْهَا الْكُمَيْتُ الْهِنْدُ وَالصَّارِمُ الصُّلْتُ
فَبِالْقَدْرِ وَالتَّخْفِيفِ عِنْدِي لَهُ نَعْتُ
فَأَصْبَحَ خَبْلِي مِنْهُمْ وَهُوَ مُنْبِتُ
عَلَى نَفْسِهِ كَيْلًا يَزَايِلُهَا السُّمْتُ
لَهُ الصُّدْرُ مِنْ نَادِيهِمْ وَلَهُ الدُّسْتُ
هُوَ الْمُعْجَمُ السُّكَيْتُ وَالْعَمَّةُ الشُّخْتُ
عَلَى عَزْمِهِمْ حَتَّى صَفَا لَهُمُ الْوَقْتُ
وَكُنْتُ مَتَى أَعَزَمُ فَقَلْبِي هُوَ الْبَتْ
فَمَاذَا الَّذِي يَبْغُونَهُ لَهُمُ الْكَبْتُ؟

(١) الشُّتُّ: المتفرق، محيط المحيط (شنت).

وقال^(١): [الكامل]

لا تعدّ ضيفك إن ذهبت لصاحب
أو ما ترى الأشجار مهما رُكبت

ومنه في المقطوعات: [السريع]

وشادنٍ تيمّني حُبّه
مورّد الخدين حلو اللمى
لم تنطو الأغصان في الروض بل
يا أيها الطّبي الذي قلبه
هل عطفةٌ ترجى لصبّ شبح
يوذ أن لو رزته في الكرى
قد رام أن يكتتب ما نابّه
فأفضيت أسراؤه واستوى

وقال^(٢): [مخلع البسيط]

نهارٌ وجهٍ وليلٌ شجرٍ
قد طلبا بالهوى فؤادي
وكيف ينبغي النجاة شيء

وقال في الدوبيت:

زارت ليلاً وأطلعت فجرها
لما بصرت بالشمس قالت يا فتى

وقال في غرض التورية^(٣): [الطويل]

أبغ لي يا روض^(٤) المحاسن نظرة
وبالله لا تبخل عليّ بعطفة^(٥)

تغثّه لكنّ تحيّر وانثى
إن خولقت أصنافها لم تغلق^(٦)

حظي منه الذّهر هجرائه
أحمر مضمي الطرف وسنائه
ضلت له تسجد أغصائه
تضرّم في القلب نيرائه
ليس يرجي عنك سلوانه؟
لو متعت بالنوم أجفائه
والحب لا يمكن كثمائه
إسراؤه الآن وإعلائه

بينهما الشوق يستنار
فأين^(٧) لي عنهما الفراق؟
يطلبه الليل والنهار؟

صُبْحًا فجمعت بين صبح وظلام
جمع الإنسان بين الأختين حرام

إلى وزد ذلك الخد أزوي به الصدى^(٨)
فلاني رأيت^(٩) الرّوض يوصف بالثدى

(١) البيتان في نفع الطيب (ج ٨ ص ٨٣).

(٢) الأبيات في نثر فرائد الجمان (ص ٣٠٢).

(٣) البيتان في الكنية الكامنة (ص ٢٢٧) ونثر فرائد الجمان (ص ٣٠٠).

(٤) في الأصل: «... لي في رياض المحاسن» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٥) في المصدرين: «... الخد كنت لك الفدا».

(٦) في الكنية: «بعطفة».

(٧) في المصدرين: «عهدت».

وقال^(١): [السريع]

وعاشقٍ صليٍّ ومخراجه
وجهُ غزالٍ ظلَّ يَهْوَاهُ

قالوا تَعَبَّدْتَ^(٢)؟ فقلتُ نعم
تَعَبَّدَا يُفْهَمُ مَعْنَاهُ

وقال وهو مليح جدًا^(٣): [الخفيف]

وصديقي شكّا بما^(٤) حَمَلُوهُ
من قضاءٍ يَقْضِي بِطُولِ^(٥) الْعَنَاءِ

قلتُ فاردّدْ ما حَمَلوكَ عليهم
قال مَنْ يَسْتَطِيعُ^(٦) رَدُّ الْقَضَاءِ؟

وقال^(٧): [المتقارب]

لسانان هاجا^(٨) مَنْ خَاصَمَاهُ
لسان الفتى ولسان القضاء

إذا لم تَحْزُ واحداً منهما
فلست أرى لك أن تنطقا

وقال^(٩): [الكامل]

تلك الذّوابة^(١٠) ذُبْتُ من شوقي لها
واللّخْظُ يَحْمِيهَا بأيّ سلاحٍ

يا قَلْبُ فأنجح^(١١) لا إخالكَ ناجياً
من فِتْنَةِ الْجَعْدِيِّ والسَّقَّاحِ^(١٢)

وإحسانه كثير. ويدل بعض الشيء على كَلِّهِ، ويخجُر طُلُ الغيث على

وبله.

وفاته: اتصل بنا خبر وفاته بفاس مَبْطُونًا في أوائل ثمانية وخمسين وسبعمائة.

ثم تحقّقْتُ أن ذلك في آخر شوال من العام قبله^(١٣).

(١) البيتان في نفع الطيب (ج ٨ ص ٨٣).

(٢) في الأصل: «تعبد» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتية.

(٣) البيتان في الكتية الكامنة (ص ٢٨) ونثر فرائد الجمان (ص ٣٠١).

(٤) في الكتية: «لما». (٥) في المصدرين: «بفرط».

(٦) في الأصل: «يستطيع» وهو خطأ نحوي لأنه ليس مجزوماً، وكذا أيضاً ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٧) كلمة «وقال» ساقطة في الأصل. (٨) في الأصل: «هَجَا» وهكذا ينكسر الوزن.

(٩) البيتان في نفع الطيب (ج ٨ ص ٨٣). (١٠) في النفع: «الذوائب».

(١١) في الكتية: «فأنج وما إخالك».

(١٢) أراد بالجعدي الشجر الذي عبر عنه بالذّوابة، وأراد بالسقّاح اللّخْظ، وفي الكلمتين تورية.

(١٣) كذا جاء في نفع الطيب (ج ٨ ص ٧٠ - ٧١).

محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم
ابن يحيى بن محمد بن الحكيم اللخمي^(١)

يكنى أبا القاسم.

حاله: من كتاب «عائد الصلة»: فرع دوحة الأصالة والخصوصية، والعلم والدين، والمكانة والجلالة، مُجلى بيته، ومجدد مآثره برًا، ومجاملة، وخيرية. نشأ بأطراف جُمَلته من الفنون؛ من حساب وفريضة وأدب وقراءة ووثيقة، إلى خط حسن، وأدب تكفله، حتى انقاد له أو كاد. أُعْطِيَتْ في وقية الطاعون قاضيًا ببعض الجهات، وكاتبًا للدار السلطانية، فكانت فيه الفجيرة عظيمة.

وجرى ذكره في «التاج المحلى» بما نصّه^(٢): «من فروع^(٣) مجد وجلالة، ورث الفضل لا عن كلاله. أشرف، مجيد، معظّم، مُحَوَّل في العشرة، وصل لباب المجد بفرائد الخلال الأثيرة، وأصبح طِرْقًا في الخير والعفاف، واتّصف من العدالة بأحسن اتّصاف، وسلك^(٤) من سَنَن سَلَفه، أثّر هادٍ^(٥) لا يزال يُرشد ويدله، ويسدّد فيما يعقده أو يُحلّه، واتّسم بميسم الحياء، والحياء خير كله، إلى نزاهة لا ترضى بالدُّون، ونجاسة تنهالك في صون الفنون، وطمح في هذا العهد إلى نَمَط في البلاغة رفيع، وجَنَح إلى مساجلة ما يستحسنه من مُخْتَرع وبيدع، وصدرت منه طُرْف تُسَمِّلح، وتُسْتَحلى إذا استحلى. ونحن نورد ما أمكن من آياته، ونجلى بعض غُرّه وشيآته.

شعره: ومن مقطوعات آياته: [الطويل]

وَهَبْتُ فَهَزْتُ عِنْدَمَا أَنْ ^(٦) رَأْتُ بِهِ	الطَّلَا مِثْلَ الطِّفْلِ يَرْضَعُ فِي الْمَهْدِ
وَرَوْضِ ^(٧) حَبَاءِ الْمَزْنِ خَلْعَةً بَرَقَةً	وَبَاتَتْ رُبَاهُ مِنْ حَبَاهُ عَلَى وَغْدِ
يَحْدِثُنَا عَنْ كَرَمِهَا مَاءً ^(٨) مُزْنِهَا	فَتُبْدِي ابْتِسَامَ الزَّهْرِ فِي لَشْمَةِ الْخَدِّ
عَجِبْنَا لِمَا رَأَيْنَا مِنْ بَرِّهَا ^(٩)	بُدُورِ حَبَابِ الْكَاسِ تَلْعَبُ بِالنُّزْدِ

(١) ترجمة محمد بن محمد ابن الحكيم اللخمي في الكنية الكامنة (ص ١٩٦).

(٢) قارن بالكنية الكامنة (ص ١٩٦).

(٣) في الكنية: «فرع محمدا وجلالة».

(٤) في المصدر نفسه: «واقفى».

(٥) في الأصل: «هذا» والتصويب من الكنية.

(٦) كلمة «أن» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم المعنى والوزن معًا.

(٧) في الأصل: «والروض حياء» وهكذا ينكسر الوزن.

(٨) في الأصل: «ما من» وهكذا ينكسر الوزن، ولا معنى له.

(٩) صدر هذا البيت مضطرب، ومنكسر الوزن.

وقال: [الطويل]

شَرِبْنَا وَزَنْجِي الدِّيَاجِي مُوقِدُ
عَقَارًا رَأَتْهُ حِينَ أَقْبَلَ حَالِكَا
عَجِبْتُ لَهَا تَرْتَاعُ مِنْهُ وَإِنِهَا
مَصَابِيحُ مِنْ زَهْرِ النُّجُومِ الطَّوَالِغِ
فَجَاءَتْ بِمُضْفَرٍّ مِنَ اللَّوْنِ فَاقِعِ
لَفِي الْفَرْقَدِ قَرَّتْ لِدَمِ الْمَدَامِعِ^(١)

وقال: [الخفيف]

لَا حَ فِي الدُّرِّ وَالْعَقِيقِ^(٢) فَحَيَّا
مِنْ بَنَاتِ الْكُرُومِ وَالرُّومِ بِكُرَّا
خِلَتْهَا وَالْحَبَابُ يَطْفُو عَلَيْهَا
أَقْبَلْتُ تَرْتَدِي حَيَاءً^(٣) يُهَيَّا
شَفَقًا نَوْقَهُ نَجُومُ الثُّرَيَّا
صَاغَ مِنْ لَوْلَتْهَا^(٤) الْمَرْجُ حَلِيَّا
قَهْوَةٌ كَالْعُرُوسِ فِي الْكَاسِ تُجَلَّى

وقال: [البسيط]

وَيَوْمَ أَنَسِ صَقِيلِ الْجَوْ ذِي نَظَرِ
مَا زِلْتُ فِيهِ لَشَمْسِ الطُّسْتِ مُضْطَحِبًا
صَفَرَاءَ كَالْعَسْجَدِ الْمَسْبُوكِ إِنْ شَرِبْتَ
كَذَلِكَ الشَّمْسِ فِي أُخْرَى عَشِيَّتِهَا
كَانَهُ مِنْ وَمِیْضِ الْبَرْقِ قَدْ خُلِقَا
وَبِالنُّجُومِ وَبِالْأَكْوَاسِ مُتَّبِقَا
تُبْدِي أَحْمَرَارًا عَلَى الْخَذَيْنِ مُؤْتَلَقَا
إِذَا تَوَارَتْ أَثَارَتْ بَعْدَهَا شَفَقَا

وقال^(٥): [الطويل]

بِنَفْسِي حَبِيبُ صَالٍ^(٦) عَامِلُ قَدِّهِ
وَيَا عَجَبًا مِنْهُ مَتَى صَارَ ذَابِلًا
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا أَنْ سَيَفُ لِحَاظِهِ
عَلَيَّ وَلَمَّا يَنْعَطِفُ وَهُوَ كَالْغُضَنِ
وَنُضْرَتُهُ لَمْ تَنَأَ عَنْ حَوَاطِهِ اللَّذَنِ^(٧)
يَمْرُقُ أَفْلَاذُ الْحَشَا وَهُوَ فِي الْجَفْنِ

وقال^(٨): [الكامل]

بَابِي وَغَيْرِ أَبِي غَزَالٍ نَافِرٍ
قَمَرُ تَلَالَا وَاسْتِنَارَ جَبِيئُهُ^(٩)
بَيْنَ الْجَوَانِحِ يَغْتَدِي وَيَرُوحُ
غَارَتْ بِهِ بَيْنَ الْكَوَاكِبِ يُوحُ

(١) عجز البيت منكسر الوزن. (٢) في الأصل: «العقيق» وهكذا ينكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «حَيَّا» وهكذا ينكسر الوزن. (٤) في الأصل: «لَوْلَتْهَا» وهكذا ينكسر الوزن.

(٥) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ١٩٧). (٦) في الكتيبة: «مال».

(٧) في الأصل: «ونضرته تُنَارُ عَنْ حَوَاطِهِ اللَّذَنِ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة الكامنة.

(٨) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ١٩٧). (٩) في الأصل: «جبيبه» والتصويب من الكتيبة.

لم يَرْضَ غيرَ القلبِ منزلةً فهل
وما نسب لنفسه وأنشدنيه: [الكامل]

ليلُ الشَّبابِ انْجَابَ أولُ وهلةٍ
عن صُبْحِ شَيْبٍ لست عنه براضٍ
إن سرّني يوماً سوادُ خضابه
فَنُصُولُهُ عن ساقِي^(١) ببياضٍ
هَلَا اختفى فَهَوَ الذي سرق الصُّبا
والقُطْعُ في السُّرقاتِ أمرٌ ماضٍ
فعليه ما استطاع^(٢) الظهورَ بلمّتي
وعليّ أن ألقاه بالمِقْرَاضِ

وفاته: توفي، رحمه الله، بغرناطة في السابع عشر شهر ربيع الآخر عام خمسين وسبعمائة، في وقعة الطاعون، ودفن بباب إلبيرة رحمة الله عليه.

محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن علي
ابن محمد اللوشي البحصبي^(٣)

يكنى أبا عبد الله، ويعرف باللوشي.

أوليته: من لوشة، وقرأ العلم بها، وتعرّف بالسلطان الغالب بالله محمد قبل تَصْيُرِ الملك له، وتقدم عنده. تضمّن ذكره الكتاب المسمّى بـ«طُرْفَةِ العصر في أخبار بني نصر»، وتقرر ذلك في حرف الحاء في اسم أبي عمر اللوشي، كاتب الدولة النصرية، رحمه الله.

حاله: من كتاب «عائد الصلة»: كان، رحمه الله، من أهل الحسب والأصالة، شاعراً، مَذَاحاً. نشأ مُدَلِّلاً في حُجُور الدولة النصرية، خفيفاً على أبوابها، مُفَضَّلاً على مُذَاحِها. ثم تجنّى بآخرة، ولزم طَوْراً من الخمول في غير تَشَكُّ، أعرض به عن أرباب الدنيا، وأغرض عنه، واقتصر على تَبْلُغ من غلالة مُؤَمِّل كان له خارج غرناطة، غير مُسَاد من ثَلَمه، ولا مُضِلح في خَلله، أخذ نفسه بالتَّقَشُّف، وسوء المسكن، والتهاون بالملبس، حملاً عليها في غير أبواب الرياضة، مجاناً أرباب الخُطَط، وفيما لمن لحقته من السلطان مَوْجِدة، تختلف معاملته لمن يعرفه في اليوم مرّات، من إعراض عنه، وقَبُول عليه، ولصوق به، كل ذلك عن سلامة، وتهيب نفس. مليح الدُّعابة، ذاكرًا لفنون من الأناشيد، حسن الجدّ، متجافياً عن الأعراض.

(١) في الأصل: «ساق» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «ما استطاع» وهكذا ينكسر الوزن.

(٣) ترجمة محمد بن محمد اللوشي البحصبي في الكتيبة الكامنة (ص ١٧٥) ونشر فرائد الجمان (ص ٣٢٩).

وجرى ذكره في «التاج» بما نصه^(١): شاعر مُفلق، وشهاب في أفق^(٢) البلاغة متألق، طبّق مفاصل الكلام بخُسام لسانه، وقلّد نُحُورَ الكلام^(٣) ما يُزري بجواهر الملوك^(٤) من إحسانه. ونشأ في حُجُور الدولة النصرية مُدَلِّلاً بمتاته، متقلِّباً في العزّ في أفانينه وأشتاته، إذ لَسَلَفَه الذُّمام الذي صَفَّت منه الحياض والحمام، والوداد الذي قَصُرَتْ عنه الأنداد، والسابقة التي أزرى بخبرها العيان، وشهدت بها أزجونة وجيان، محيّر ثمرة الطيب. وله همّة عالية، بعيدة المرمى، كريمة المنتمى، حَمَلَتْه بأخرة على الانقباض والازدراء والزهد في الازدياد والاستكثار، والاقتصاد والاقتصار، فعَطَف على انتجاع غلّته، والتزام محلّته، ومُباشرة فلاحه صان بها وجهه؛ ووقاه الدهر حقّه ونجمه، واحتجبت عقائل بيانه لهذا العهد وتقنّعت، وراودتها النّفس فتمنّعت، وله فكاهة وأنس الزمان مناجاة القينات، عند البّيات، وأعذب من معاطاة الرّاح في الأقداح.

شعره: قال: وله أدبٌ بلغ في الإجادة الغاية، ورفع للجبين من السُّنن الرّاية. ومن مقطوعاته يودع شيخنا الفقيه القاضي أبا البركات بن الحجاج: [الطويل]

وأحرقْتُ في ناري لدى زَفَراتي	وأحرقْتُ في ناري لدى زَفَراتي
فقالوا سَلُّوه تعلموا كُنْه حاله	فقالوا سَلُّوه تعلموا كُنْه حاله
فمن قال إني بالرحيل مُحدِّثٌ	فمن قال إني بالرحيل مُحدِّثٌ
ونادى فؤادي رَكْبَه فأجابه	ونادى فؤادي رَكْبَه فأجابه

ومن مقطوعاته البديعة من قصيدة مجازية: [الطويل]

سيخطب قس العزم في مثير السرى	وهل في الدُّنا يوم المسير أطيّق؟
وأقطع زُنْد الهَجْر والقَطْع حَقّه	فما زال طيبُ العمر عني يريقُ ^(٥)

مولده: في حدود ثمانية وسبعين وستمائة.

وفاته: في الموقى عشرين من شهر ربيع الثاني من عام اثنين وخمسين وسبعمائة.

(١) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٧٥). (٢) كلمة «أفق» ساقطة من الكنية الكامنة.

(٣) في الكنية: «الملوك». (٤) في المصدر نفسه: «السلوك».

(٥) في الأصل: «يسترق» وهكذا ينكسر الوزن، وفيه عيب القافية.

محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى ابن الحكيم اللخمي^(١)

يكنى أبا بكر.

أوليته: مَرَّت في اسم ذي الوزارتين.

حاله: من كتاب «عائد الصلة»: «كان صَدْرُ أبناء أصحاب النعم، وبقية أعلام البيوت، تُرف نشأة، وعزُّ تربية، وكرم نفس، وطيب مجالسة، وإمتاع محاضرة، وصحة وفاء، وشياع مشاركة في جملة فاضلة، محدثًا تاريخيًا، كاتبًا بليغًا، حسن الخط، مليح الدعاية، ظريف التوقيع، متقدم الحيلة في باب التحسين والتنقيح، يقرض الشعر، ويفك المعنى، ويقوم على جمل الكتاب العزيز، حفظًا وتجويدًا، وإتقانًا، ويشرد بتف التاريخ، وعيون الأخبار، إلى حُسن الخلق، وكمال الأبهة، وحلاوة البساطة، واحتمال المناشئة، والمثابرة على حفظ المودة، والاستقالة من الهفوة، والتمسك بالاستغتاب والمغفرة. كتب بالدار السلطانية أكثر عُمره، وتصدر بعد في قيادة المواضع النبيلة، محاربًا ذا قدرة في ذلك، ومع ذلك فشائع المعروف، ذائع المشاركة. قيد الكثير، ودون وصُف، وحمل عن الجلة ممن يشق إحصاؤهم، وكان غرة من غرر هذا القطر، وموكبًا من مواكب هذا الأفق، لم يتخلف بعده مثله.

وجرى ذكره في «الناج المحلي» بما نصه^(٢): «ماجد أقام رسم^(٣) المجد بعد عفاؤه، فوقى الفضل حق وفائه. بيته في رُندة أشهر في الأصالة من بيت امرئ القيس، وأزسى في بُخُوحه الفخر من قواعد الرضوى وأبي قيس. استولى على الجود البديع البعيد المدى، وحجّت إليه من كل فج طُلاب الندى، وعشت إلى ضوء ناره فوجدت على النار الثقى والهدى. ولي الوزارة النصرية التي اعتصر منها طريقًا بتالد، فأحيت مآثرها الخالدة مآثر يحيى بن خالد^(٤). ولما أدار عليها الدهر كأس الثائب، وخلّص إليها سهمه الضائب، بين صحائف الكُتب وصفائح الكتائب، تطلعت من خلالها الرائقة لباب الوجود، وبكتتها بسيل أجفانها عينُ الباس والجود، وطلّع على

(١) ترجمة محمد بن محمد بن الحكيم في الكتيبة الكامنة (ص ١٩٥) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٤٢).

(٢) قارن بالكتبة الكامنة (ص ١٩٥). (٣) في الكتيبة: «ربع».

(٤) هو يحيى بن خالد البرمكي، وزير الخليفة هارون الرشيد.

أعقاب هذه الفضائل مُحَلَّى من صفحاتها، وأعاد لو ساعده الدهر من لَمَحَاتِهَا، وارتقى من الكتابة إلى المحلِّ الثَّيِّب، واستحقَّها من بعض ميراث أبيه، وبَنَى وشيَّد، ودوَّن فيها وقِيْد، وشَهَّر في كُتُب الحديث وروايته، وَجَنَى^(١) ثمرة رِخْلَةِ أبيه، وهو في حَجَر دُؤَابَتِهِ^(٢)، وأنشأ الفهارس، وأحيا الأثر الدَّارس، وألَّف كتابه المسمى بـ«الموارد المُستَعْدبة والمقاصد المُنتخبة» فَسَرَح الطَّرْف، وروضه طَيِّب الجنى والعزف. وله شعرُ أنيق الحِلْيَة، حاز في نمط العِلْيَة. وبينى وبين هذا الفاضل وِدَاد صافي الجِياض، وفكاهة كَقِطْع الرِّياض، ودُعَابَة سَحَبَت الدَّالَة أذْيَالَهَا، وأدارت الثَّقة والمَقَة جريالَهَا. وسيمرَّ في هذا الديوان كل رائق المُحَيَّا، عاطر الرِّيا.

مُشِيخَتُهُ: قرأ على الأستاذ أبي جعفر الحريري، والأستاذ أبي الحسن القَيْجَاطِي، والأستاذ إسحق بن أبي العاصي. وأخذ عن الطَّم والرَّم، من مشايخ المشرق والمغرب، فمنهم الولي الصالح فضل بن فضيلة المعافري، إلى العدد الكثير من أهل الأندلس، كالمُخْطَبَاء الصلحاء أبي عبد الله الطَّنْجَالِي، وأبي جعفر الزِّيَات، وأبي عبد الله بن الكَمَاد، وغيرهم من الرُّنْدِيَّين والمالْقِيَّين والغَرْنَاطِيَّين، حسبما تضمنه برنامجُه.

تَوَالِيْفُهُ: ألَّف الكتاب المسمى، «الفوائد المُنتخبة والموارد المُستَعْدبة». وكَمَّل التاريخ المسمى بـ«بميزان العمل» لابن رَشِيْق. ودوَّن كتابًا في عبارة الرؤيا سَمَاه «بشارة القلوب بما تخبره الرؤيا من الغُيُوب» و«الأخبار المُدْهَبَة» و«الإشارة الصُوفِيَّة»، والنُّكْت الأدبية». والهُودُج في الكتب. والإشارة في ألف إنشاده.

شعرُه وكتابتُه: قال في التاريخ ما نصُّه: «وتهادته إلى هذا العهد رُتِب السِّيَادَة، واستُعْمِل في نِيَهَات القِيَادَة؛ فَوُجَّه إلى معقل قرطمة من كورة رِيه وهو واليه، وبطاحه في مجرى جِيَادِه وصَحْر عوَالِيه. وقد حَلَلْتُ مَالَقَة صُحْبَة الرُّكْب السلطاني في بعض التَّوَجُّهَات، إلى تلك الجهات، في بعض ما أتُحَف من مقعده، المتصل المستمر، بهدِيَّة مشتملة على ضروب من البَرِّ فخاطبته مقيمًا لسوق الانبساط، وغير حائِد على الوداد والاعتباط، على ما عوِّل عليه من حمل الإفراط، والانتظام في هذا المعنى والانخراط: [الطويل]

أَلَام على أَخَذ القليل وإنما أَعَامِل أقوامًا أَقَلَّ من الدُّرِّ
فإن أنا لم أَخْذُهُ منهم فَقْدْتُهُ ولا بُدُّ من شيء يُعِين على الدُّهْرِ

(١) في الكتية: «واجتنى ثمرة رحلة إليه؛ وهو...».

(٢) في المصدر نفسه: «دايته»، ودوَّن الفهارس...».

سيدي، أطلق الله يدك بما تملك، وفتر عن منحك البخل لئلا تهلك. كنت قد هومت، وحذرنى القلق فتلومت. ولؤمي كما علمت سيء الخصال، عزيز الوصال. يمطل ديني، ويعاف طيره ورذ عيني. فإذا الباب يدق بحجر، فأنباني عن ضجر، وجار الجنب يؤخذ بالذنب، فقتت مبادراً وجزعت، وإن كان الجزع مني نادراً. واستفهمت من وراء العلق، عن سبب هذا القلق. فقالت امرأة من سكان البوادي: رابطة الفؤاد يا قوم، رسول خير، وناعق طير، وقرع إذلال، لا فرغ إذلال. حطوا شعار الحرب والحرب، فقد ظفرتهم ببلوغ الأرب، فتأخرت عن الإقدام، وأنهت إليه، فحن عمر بن أبي ربيعة عمن كان بالدار من الخدام، فأسفرت الواقعة عن سلام وسلم، ولم يزن أحد منا بكليم. ونظرت إلى رجل قرطبي الطلعة والأخلاق، خار على الإطلاق، تنهد قبل أن يسلم، وارتعض لما ذهب من الشبيهة وتآلم. شئنة معروفة، وعين تلك الجهات معاذ الله مضروفة. وقد حملته سيادتكم من المبرة ضروريا شئى، وتجاوزت في المسرات غاية حتى. ولم تضع عضواً من جسده، فضلاً عن منكبه ويده، إلا علقته وعاء ثقيلاً، وناطت به زنبيلاً. واستلقى كالمني إذا ترك المغتر، وعلت حوله تلك الأثقال، وتعاورها الانتقال، وكثر بالزقاق القيل والقال. فلما تخلصت إلى الدار، وستر معرفتها بالجدار، وتناولها الاختبار الفاضح، وبان قصورها الواضح، فتلاشت، بعد ما جاشت، ونظرت إلى قعب من اللبن الممزوق، الذي لا يستعمل في البيوت ولا يباع في السوق، فأذكرتني قول الشاعر: [البسيط]

تلك^(١) المكارم لا قعبان من لبن شيبت بماء فعادت بعد أبوالا

أما زبده فرفع، وأما جنبه فاقيت به وانتفع، وأما من بعته من فضلاء الخدام فدفع، وكأنني به قد ألح وضيع، والتفت إلى قفة قد خيطت، وبغلق ذاك البائس قد نيطت، رمس فيها أفراخ الحمائم، وقلدت بجيده كما يتقلد بالتمائم، وشد حبلها بمخنقه، وألزم منها في العاجل طائرته في عنقه، هذا بعد ما دبحت، وأما حشوها فربحت. ولو سلكتم الطريقة المثلى، لحفظتم جثتها من العفن كما تحفظ جثة القتلى، وأظنكم لم تغفلوا هذا الغرض الأدنى، ولا أهملتم هذه الهمم التي غريزة في المبنى. فلاني رميت منها اللهور رمي المختبر، فكُلح من مرارة الصبر، ولما أخرجتها من كفن القفة، واستدعيت لمواراتها أهل الصفة، تمثلت تمثل اللبيب،

(١) في الأصل: افي تلك... وهكذا ينكسر الوزن.

بقول أبي تمام حبيب^(١): [الكامل]

هُنَّ الْحَمَامُ فَإِنْ كَسَرْتَ عِبَاقَهُ^(٢) مِنْ حَائِثِهِنَّ فَإِنَّهِنَّ جِمَامٌ^(٣)

ولو أن إحدى الدجاجتين لاحت عليها مُخَيِّلَةٌ سِرٌّ، لكانت من بقايا مواطني ديوك بني مُرٍّ، وبعث بها حلالك حلاله، وأهدى منها اجتهاد من أحسن. ولم يكن بالهدية ما يذكر، ولا كانت مما يُنكر، أستغفر الله، فلو لم تكن الثُحفة، إلا تلك الفكاهة العاطرة والغمامة الماطرة، التي أحسبها الأمل الأقصى، وتجاوزت إلا من التي لا تُعد ولا تُحصى، للزم الشكر ووجب، وبرز من حُرِّ المدح ما تيسر واحتجب. فالمكارم وإن تغيّرت أنسابها، وجُهل انتسابها، وأدعي إرثها واكتسابها، إليكم تنشر يدها، وتُسعى لأقدامها، ولبيّنتكم تميل بهواديهها، وبساحتكم يسيل واديهها، وعلى أرضكم تسحُ غواديهها. ومثلي أعزكم الله، لا يُغضي من قدر تُحفكم الحافلة، ولا يُقدر من شكرها على فريضة ولا نافلة، ولكنها دُعابة معتادة، وفكاهة أصدرتها ودادة. ولا شك أنكم بما جُبلتم عليه قديمًا وحديثًا، تغتفرون جفائي، الذي سيّرتموه سَمَرًا وحديثًا في جنب وفائي، وتُغضون وتتحملون، وبقول الشاعر تتمثلون، وأسمع من الألفاظ اللغوية التي يُسرّ بها سَمْعِي، وإن ضمنت شَمِي ووصفي: [الطويل]

<p>بعثت بشيء كالجفاء وإنما وقلت لنفسي لا تزدعي فإنه وما كان قدر الوُدِّ والمجد مثله وإن كنت لم أحسن صنيعي فلأنني وقدرك قدر النيل عندي وإنني قَتَعْتُ وحظي من زماني وودكم أتاني كتاب منك بإهٍ مبارك جلا من بنات الفكر بكراً وزفها فألفاظها كالزهر والزهر يانع نجوم معانٍ في سماء صحيفة تضمّن من نوع الدعابة ما به</p>	<p>بعثت بعُذري كالمُدلِّ إلى عُذري كما قيل شيء قد يُعين على الدهر فخذ على قدر الحوادث أو قذري سأحسن في حُسن القبول له شكري لدى قدرك العالي أدق من الذرِّ هباء ومثلي ليس يقنع بالثرر لقيت به الآمال باهتة الثغر إلى ناظري تختال في حَبَر الحبر وقدّر المعاني في الأصالة كالزهر ولكنها تُسري النجوم ولا تسري رجوت الذي قد قيل في نشوة الخمر</p>
--	---

(١) البيت في ديوان أبي تمام (ص ٢٤٧) من قصيدة من ٥٦ بيتاً.

(٢) العيافة: زجر الطير.

(٣) الجمام، بكسر الحاء: الموت.

رعى الله مَسْرَها الكريم فجعل ما
 لعمري لقد أذكَرتني دولة الصبا
 ولما أتت تلك الفكاهة غدوة
 ولا سيما إن كان ملحم بُزدها
 نشرت بها ما قد طويث بساطه
 ونعم خليل الخير أنت محافظا
 ودونكها تلهو بها وتديرها

جَلَّتْهُ من البُشرى وأبَدَتْ من البُشرِ
 وأهْدَيْت لي نوعَ الجلال من السُخرِ
 وجدتُ نشاطًا سائر اليوم في بُشري
 عميدُ أولي الألباب نادرة العصر
 زمانًا وبني طيِّ الأمور مع النُشرِ
 على سُنن الإخلاص في السُرِّ والجهرِ
 سُخَيْرِيَّة الأنفاس طيِّبة النُشرِ

فراجعني بقوله :

وقد من سيدي الجواب، محتويًا على العجب العُجاب، فيالك من فكاهة كَوَثْرِيَّة المناهل، غَثَرِيَّة المسائل، ولو لم يكن إلا وصف القرطبي المستوى الطَّلعة، الشَّرْطِي الصُّنعة. وأما وصف اللبن وفراخ الحمام، فقد بَسَطْتُم في المزاح القول. وامتنعتم في الكلام القُضْل. وذلك شيء يعجز عن مُساجلتكم فيه أربابُ البلاغة والبيان، فكيف بمثلي ممن له القول المُهْلَهْل النُسيج الواهي البيان. ولا بد من عَرْض ذلك على سيدي القُطْب الكبير الإمام، وأستاذنا عَلم الأعلام، وكبير أئمة الإسلام، فيحكم بيننا بحكم القُضْل، ويُنصف بما لديه من الحق والعدل. وقد كنت أحيده عن مراجعتكم حِيْدَةَ الجبان، وأميل عن ذلك ميْلَةَ الكَوْدَن^(١) عن مجارة السُمر الهيجان، وأعدل عن مساجلة أدبكم الهثان، عدول الأغزل عن مبارزة جَيْد السنان. إلى أن وثقت بالصفح، وعولت على ما لديكم من الإغضاء والسَّمْع، ووجهتُ حاملة السر والظروف، كي تتصل الهدايا ولا ينقطع المعروف. وأستقيل من انبساط يجرُّ عُذْرًا، وأسأله سبحانه وتعالى حمدًا يوجب المزيد من إنعامه وشكرًا. دام سيدي وآماله مساعدة، والكلمة على فضله واحد.

ومن شعره في الشُّك واللُّجأ إلى الله تعالى^(٢) :

أيا مَنْ له الحُكْمُ في خَلْقِهِ ويا مَنْ^(٣) يَكْزِبِي له أَشْتَكِي
 تَوَلَّ أُمُورِي ولا تُسَلِّمْنِي وإن أنت أَسَلَمْتَنِي أَهْلِكِ
 تَعَالَيْتَ من مُفْضِل^(٤) مَنَعَم ونُزَهْتَ من طَالِبٍ مُذْرِكِ

(١) الكَوْدَن: الفيل، والمراد هنا البطيء في مشيه. محيط المحيط (كود).

(٢) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ١٩٦).

(٣) في الأصل: «ومن» وهكذا ينكر الوزن، والتصويب من الكتيبة الكامنة.

(٤) في الكتيبة: «من مُنعم مفضل».

ومن ذلك ونقلته من خطه^(١): [الطويل]

تَصْبِرُ إِذَا مَا أَدْرَكَتْكَ مُلِمَّةٌ قُصِّنِعَ إِلَهَ الْعَالَمِينَ عَجِيبُ
وما يذكرك^(٢) الإنسانَ عَارٌّ بِنَكْبَةٍ يُنَكَّبُ^(٣) فِيهَا صَاحِبٌ وَحَبِيبُ
فَقِي مَنْ مَضَى لِلْمَرْءِ ذِي الْعَقْلِ أَسْوَةٌ^(٤) وَعِيشُ كِرَامِ النَّاسِ لَيْسَ يَطِيبُ
ويوشك أن تهمني سحائبُ نعمةٍ فَيُخَصِّبُ رُبْعَ السَّرُورِ^(٥) جَدِيبُ
إلهك يا هذا مجيب^(٦) لمن دعا وَكُلُّ الَّذِي عِنْدَ الْقَرِيبِ قَرِيبُ

مولده: عام خمسة وستين وستمائة.

وفاته: من «عائد الصلاة»، قال: وختم الله عمره بخير العمل من الإنابة والتهدج، والتزام الورد، وإن كان مُستصحب الخيرية. وحلّ ببلد ولايتهم رُندة، فكانت بها تربيته في الثالث والعشرين لربيع الآخر عام خمسين وسبعمائة.

محمد بن محمد بن علي بن العابد الأنصاري

وُلِدَ المذكور بعد، الكاتب بالدار السلطانية.

حاله: من كتاب طُرْفَةِ الْعَصْرِ وغيره، قال: كان كاتبًا مشهورًا، بليغًا، ذا معرفة، بارع الخط، أوْخَذَ زمانه في ذلك، وقورًا، مُعَذَّبُ الْلفظ، منحطًا في هوى نفسه، مُحَارَفًا^(٧) بحرفة الأدب على جلالة قدره. وكتابته نقيّة، جانحة إلى الاختصار.

شعره: وثيق، ثقل فيه أرواح المعاني كشعر أبيه، وتوشيح فائق. تولّى كتابة الإنشاء لثاني الملوك النصريين^(٨)، واستمرّ قيامه بها على حَجَرٍ شَدِيدٍ مِنَ السُّلْطَانِ وَمَحْمَلٍ؛ لِمَلَاظِمَتِهِ الْمُعَاوَرَةِ وَانْهَمَاكِهِ فِي الْبَطَالَةِ، وَاسْتِعْمَالِ الْخَمْرِ، حَتَّى زَعَمُوا أَنَّهُ قَاءَ يَوْمًا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَخْرَجَهُ عَنْهَا، وَقَدَّمَ الْوَزِيرَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَكِيمِ. وَفِي ذَلِكَ

(١) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ١٩٥) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٤٢).

(٢) في النفع: «وما يلحق». (٣) في الكتيبة: «فينكب».

(٤) الأسوة: بضم الهمزة وكسرهما؛ هو ما يأتي به الحزين يتعزى به. مختار الصحاح (أما).

(٥) في الأصل: «من ريع السرور» والتصويب من المصدرين.

(٦) في النفع: «قريب».

(٧) المحارفة: الاحتيال، والمراد هنا الاحتراف. محيط المحيط (حرف).

(٨) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، وقد حكم غرناطة من سنة ٦٧١ هـ حتى

سنة ٧٠١ هـ. ترجمته في اللوحة البدرية (ص ٥٠)، وتقدمت ترجمته في الجزء الأول من

الإحاطة.

يقول: [الطويل]

أمن عادة الإنصاف والعدل أن أجفا لأن زعموا أنني تحسنتها صرُفا؟
وأقام بقية عمره تحت رقد وبر.

وفاته: توفي في حدود التسعين وستمائة. وكان شيخنا ابن الجيَّاب قد آثره
بكتبه، وكانت نفيسة أعلاها بخط أبيه، رحمه الله.

محمد بن مالك المُرِّي الطُّغْنَرِي^(١)

من أهل غرناطة، من ذوي البيئية والحسب فيها. ذكره الأستاذ^(٢) في الكتاب
المسمى بالصلة، والغافقي^(٣)، وغيرهما.

حاله: أديب نبيل، شاعر؛ على عهد الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس،
صاحب غرناطة. قال: وكان أولاً يميل إلى البطالة والراحة. ثم إنه استيقظ من غفلته،
وأقلع عن راحته، وأجَب في توبته. وكان من أهل الفضل والخير والعلم.

من تواليفه: كتابه الشهير في الفلاحة، وهو بديع، سماه «زهرة البستان، ونُزهة
الأذهان»، عبرة في الظرف. قال: وجرى له مع سماجة^(٤) خليفة عبد الله بن بلقين
قصة. إذ فاجأه سماجة مع إخوان له، ولم يشعروا به، فأنشده ابن مالك ارتجالاً، وقد
أخذ بلبجام دابته: [الخفيف]

بينما نحن في المصلى نسا وجناح العشي فيه جنوح
إذ^(٥) أتانا سماجة يتلأ فردى^(٦) الشمس من تجليه^(٧) يوح
فطفقنا يقول بعض لبعض أغبوق شراينا أم صبوح؟

(١) ترجمة محمد بن مالك في الذخيرة (ق ١ ص ٨٠٥)، والطُّغْنَرِي، نسبة إلى طُغْنَر Tignar،
إحدى قرى غرناطة. وكنيته كما جاء في الذخيرة، أبو عبد الله.

(٢) المقصود هنا الأستاذ ابن الزبير صاحب كتاب «صلة الصلة».

(٣) هو محمد بن عبد الواحد الغافقي، المعروف بالملاحى.

(٤) سماجة الصنهاجي من وزراء باديس بن حبوس، صاحب غرناطة، وكان حازماً شديد السطوة،
مرهوب الجانب، شجاعاً، جواداً، فاضلاً. ثم لزم أمير غرناطة عبد الله بن بلقين بن باديس مدة
كوزير، ثم أبعده عبد الله عن غرناطة، فلجأ إلى المرية وعاش في كنف صاحبها المعتصم بن
صمادح. راجع مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ١٦١).

(٥) في الأصل: «إذا» وهكذا ينكسر الوزن. (٦) في الأصل: «ردى» وهكذا ينكسر الوزن.

(٧) في الأصل: «تجليه» وهكذا ينكسر الوزن ولا معنى له.

قال: فتكلم الوزير سماجة باللسان البربري مع عبيده، فرجعوا مسرعين، ووقف سماجة مع الوزير ابن مالك، إلى أن أتاه عبيده، بوعاء فيه جملة كبيرة من الدراهم، تنيف على الثلاثمائة دينار. فقال: ادفعوها إليه، وانصرف. وأتاهم العبيد مع الدراهم، بطعام وشراب. قال ابن مالك: وذلك أول مال تألّثه.

شعره: ومنه^(١) [السريع]

وَدَبْتُ فِي جَسْمِي ضَيْئِي دَارِجُ	صَبْتُ عَلَى قَلْبِي هَوًى لَاعِجُ
لِسَانُ تَذْكَارِي بِهِ لَاهِجُ	فِي شَادِنِ أَحْمَرَ ^(٢) مُسْتَانِسِ
وَمَا عَسَى يَفْعَلُهُ ^(٣) عَالِجُ؟	مَا ^(٤) قَدَرُ نَعْمَانٍ إِذَا مَا مَشَى
وَرِدْقُهُ مِنْ ثِقَلِهِ ^(٥) مَائِجُ	فَقَدُّهُ مِنْ رُقَّةٍ مَائِسِ
تَشَابَهُ الدَّاحِلُ وَالْخَارِجُ	عَنَوَانُ مَا فِي ثَوْبِهِ وَجْهُهُ
ذَا مُغْلَمُ الْوَجْهِ وَذَا سَادِجُ	فَلَا تَقْيِسُوهُ بِبَذْرِ الدُّجَى

وقد نسبها بعض الناس لغيره.

وفاته: قال الأستاذ: كان حياً ستة ثمانين وأربعمئة. وأمر أن يكتب على قبره:
[الخفيف]

أَكَلَةٌ ^(٦) التُّرْبِ بَيْنَ جَنْبَيَّ ضَرِيحِ	يَا خَلِيلِي، عَرَّجْ عَلَى قَبْرِي تَجْدُ
أَيُّ نُطْقِي إِنْ اعْتَبِرْتَ قَصِيحِ؟	خَافَتْ الصَّوْتِ إِنْ نَطَقْتُ وَلَكِنْ
فَرَّقَ ^(٧) الْمَوْتَ بَيْنَ جَسْمِي وَرُوحِي ^(٨)	أَبْصَرْتَ عَيْنِي الْعَجَائِبُ لَكِنْ

محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن عبد الملك الأوسي
المدعو بالعُقْرَب، من إقليم الآش^(٩).

حاله: كان حسن النظم والنثر، ذكياً من أهل المعرفة بالعربية والأدب، موصوفاً بجودة القريحة، والنبيل والفطنة.

(١) الأبيات في الذخيرة (ق ١ ص ٨٠٨). (٢) في الذخيرة: «أحور».

(٣) كلمة «ما» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من الذخيرة.

(٤) في الذخيرة: «يلغنه». (٥) في الذخيرة: «ثقل».

(٦) في الأصل: «من أكلة» وهكذا ينكسر الوزن.

(٧) في الأصل: «لما فرَّق...» وهكذا ينكسر الوزن.

(٨) في الأصل: «وروح» بدون ياء. (٩) أي من إقليم وادي آش Guadix.

أدبه وشعره: ذكره الملاحى وقال: حدّثني قاضي الأحكام بغرناطة، أبو القاسم الحسن بن قاسم، الهلالي صاحبنا، قال: كان الأستاذ أبو عبد الله العقرب جازنا، قد وقع بينه وبين زوجته زهرة بنت صاحب الأحكام، أبي الحسن علي بن محمد تنازع، فرفعه إلى القاضي بغرناطة، أبي عبد الله بن السماك العاملي، وكنت يومئذ كاتباً له، فرأى القاضي قوته وقدرته على الكلام وضعفها، وإخفاق نظمها، وشفق لحالها. وكان يرى أن النساء ضعاف، وأن الأغلب من الرجال يكون ظالمهن. وكان كثيراً ما يقول في مجلسه: زويدك، رفقا بالقوارير، وحين رأى ما صدر عن القاضي من الجمل، فقلت له: وأين حلاوة شعرك والقاضي أديب يهتز إليه ويرتاح؟ فطلب مني قرطاساً، وجلس غير بعيد، ثم كتب على البديهة بما نصّه:

[الكامل]

لله حيّ، يا أميم، حواك	وحمائم فوق الغصون حواك
غئين حتى خلتهن غيئني	بغنائهن فتحت في مغناك
ذكرتني ^(١) ما كنت قد أنسيته	بخطوب هذا الدهر من ذكراك
أشكو الزمان إلى الزمان ومن شكى	صرف الزمان إلى الزمان فشاكي
يا ابن السماك ^(٢) المستظل برمحه	والعزل ^(٣) ترهب ذا السلاح الشاكي
راع الجوار فبيننا في جونا	حق السرى والسير في الأفلاك
وابسط إلى الخلق المؤوب ببسطة	ظرف الكرام بعفة النساك
وأنا ذاكر إن لم يفت من لم يمت	فدارك ثم دارك ثم ذاك ^(٤)

ثم دفعها إلى القاضي، فكتب القاضي بخطه في ظهر الرقعة: لييك، لييك. ثم أرسلني أصلح بين العقرب وزوجه، فإن وصل صلحهما إلى خمسين ديناراً، فأنا أؤذيها عته من مالي، فجمعت بينهما، وأصلحت بينهما عن تراض منهما، رحمهما الله تعالى.

محمد بن علي بن عبد الله بن علي القيسي العرادي

من أهل غرناطة.

(١) في الأصل: «ذكرتني» وكذا لا يستقيم الوزن والمعنى معاً.
 (٢) السماك: كوكب نير صغير في جهة الشمال، يقال له السماح الراح. محيط المحيط (سمك).
 (٣) في الأصل: «والعزل» بتشديد الزاي، وهكذا ينكسر الوزن. والعزل: جمع أعزل وهو أحد السماكين لأنه لا سلاح معه. محيط المحيط (عزل).
 (٤) هذا البيت منكسر الوزن.

حاله : كان فتى حسن السُّمت، ظاهر السكون، بادي التَّصَوُّن والعِفَّة، دُمِث الأخلاق، قليل الكلام، كثير الحياء، مليح الخط، ظريفه، بادي النُّجابه. أبوه وجدُّه من تجار سوق العِطر، نُبهاء السوق. نظم الشعر، فجاء منه بعجب، استرسالاً وسهولة، واقتداراً، ونفوذاً في المَطَوَّلَات، فَأَيَّقَتْ له من الإغفال، وجذبته إلى الدار السلطانية، واشتدَّت براعته، فكاد يستولي على الأمر لولا أن المَنيَّة اخترمته شاباً، فشكَّل منه الشعر، قريحُ إجادة، وبارع ثُبَّة شهرة، لو انفسح له الأمد.

مولده : في ذي الحجة عام أحد وثلاثين وسبعمئة.

وفاته : توفي مبطوناً على أيام قريبة من إسرائه بغرناطة، عن سنِّ قريبة من العشرين، في عام خمسة وخمسين وسبعمئة. وأبوه أمين العطارين.

محمد بن علي بن العابد الأنصاري

يكنى أبا عبد الله، أصله من مدينة فاس.

حاله : من خطِّ القاضي أبي جعفر بن مسعدة، علَّم كتاب دار الإمارة النُصرية الغالبية، الذي يثوره يستَضْبِحون، وسراجهم الذي بإشراقه وبهجته ونهَج مَحْدِثه يهتدون. رفع لواء الحمد، وارتدى بالفهم والعلم والحلم. كان، رحمه الله، إماماً في الكتابة، والأدب، واللغة، والإعراب، والتاريخ والفرائض والحساب، والبرهان عليه، عارفاً بالسجلات والتوثيق، أزبى على الموثقين من الفحول المبرزين في حفظ الشعر ونظمه، ونسبته إلى قائله حافظاً مبرزاً. درس الحديث، وحفظ الأحكام لعبد الحق الإشبيلي، ونسخ الدواوين الكبار، وضبط كتب اللغة، وقيد على كتب الحديث، واختصر التفسير للزمخشري، وأزال عنه الاعتزال، لم يفتِّر قط من قراءة أو درس أو نسخ أو مطالعة، ليله ونهاره. لم يكن في وقته مثله.

مشيخته : أخذ بفاس عن أبي العباس أحمد بن قاسم بن البقال الأضولي، وأبي عبد الله بن البيوت المقرئ، وعن الزاهد أبي الحسن بن أبي الموالى، وغيرهم.

شعره : ومنه قوله : [الكامل]

طَرَقَتْ تَتِيه على الصُّباح الأبلج حَسَناءُ تَخْتالُ اختيالَ تَبْرِج
في ليلةٍ قد أُلْبِسَتْ بظلامها فضفاضٌ بُزِدَ بالنجوم مُدْبِج

وشعره مُدَوَّن كثير.

وفاته : توفي بحضرة غرناطة عام اثنين وستين وسبعمئة في ذي القعدة منه.

محمد بن هاني بن محمد بن سعدون الأزدي الإلبيري الغرناطي^(١)

من أهل قرية سُكون، يكنى أبا القاسم، ويعرف بالأندلسي، وكأنها تفرقة بينه وبين الحكمي أبي نواس.

أوليته: قال غير واحد من المؤرخين^(٢): هو من ذرية يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة، وقيل: من ولد أخيه رُوح بن حاتم.

حاله: كان من فحول الشعراء، وأمثال النظم، وبرهان البلاغة، لا يُدرك شأوه، ولا يُشَقُّ غُبارُه، مع المشاركة في العلوم، والنفوذ في فك المعنى. خرج من الأندلس ابن سبع وعشرين سنة، فلقى جوهراً المعروف بالكاتب مولى المعز بن المنصور العبيدي، صاحب المغرب، وامتدحه، وكان لثيماً، فأعطاه مائتي درهم، فوجد لذلك، وقال: أهنا كريم يُقصد؟ فقل: بلى، جعفر بن يحيى بن علي بن فلاح بن أبي مروان، وأبو علي بن حمدون، فامتدحهما، ثم اختص بجعفر بن يحيى وأبي علي، فبالغا في إكرامه، وأفاضاً عليه من النعم والإحسان ما لم يمر بباله، وسارت أشعاره فيهما، حتى أنشدت للمعز العبيدي، فوجهه جعفر بن علي إليه في جملة طُرف وتُحف بعث بها إليه، كان أبو القاسم أفضلها عنده، فامتدح المعز لدين الله، وبلغ المعز من إكرامه الغاية. ثم عاد إلى إفريقية، ثم توجه إلى مصر، فتوفي ببرقة.

وجرى ذكره في «تخليص الذهب» من تأليفنا بما نصه: «العقاب الكاسرة، والصمصامة الباترة، والشوارد التي تهادتها الآفاق، والغايات التي أعجز عنها السباق».

وَصَمَّمَتْهُ: وذكره ابن شَرَف في مقاماته، قال: وأما ابن هاني محمد، فهو تَجْدِي الكلام، سَرْدِي النظام، إلّا أنه إذا ظهرت معانيه، في جزالة مبانيه، رَمَى عن منجنيق،

(١) ترجمة ابن هانيء الأندلسي في التكملة (ج ١ ص ٢٩٥، رقم ١٠٢١) ومطمح الأنفس (ص ٣٢٢) والمطرب (ص ١٩٢) وجذوة المقتبس (ص ٩٦) وبغية الملتبس (ص ١٤٠) ووفيات الأعيان (ج ٤ ص ٢١٥) ومعجم الأدباء (ج ٥ ص ٤٦٨) وعبر الذهب (ج ٢ ص ٣٢٨) وشذرات الذهب (ج ٣ ص ٤١) والفلاكة والمفلوكون (ص ١٠٢) والمغرب (ج ٢ ص ٩٧) والنجوم الزاهرة (ج ٤ ص ٦٧) ورايات المبرزين (ص ١٥٠) ومرآة الجنان (ص ٣٧٥) والأعلام (ج ٧ ص ١٣٠) ونفح الطيب (ج ١ ص ٢٨٢) و(ج ٤ ص ١٨٣) و(ج ٥ ص ١٨٧).

(٢) قارن بالتكملة (ج ١ ص ٢٩٥ - ٢٩٦).

لا يؤثر في التَّفْيِيق. وله غَزَل مَعَرِّي، لا عُذْرِي، لا يَقْنَع بالطَّيْف، ولا يُصْفَع بغير السيف، وقد قَدَّه به الذات، وعَظَّم شأنه فاحتمل الثواب، وكان يَقِف دولته في أعلى منزلته، ناهيك من رجل يستعين على صلاح دنياء، بفساد أخراه، لرداءة دينه، وضَعْف يقينه. ولو عَقِل ما ضاقت عليه معاني الشَّعر، حتى يستعين عليه بالكفر.

شعره: كان أول ما مدح به جعفر بن علي قوله^(١): [الكامل]

أَحِبِّ بَتِيَّكَ الْقَبَابِ قَبَابَا لا بِالْحُدَاةِ وَلَا الرُّكَابِ رَكَابَا^(٢)
فِيهَا قُلُوبُ الْعَاشِقِينَ تَخَالُهَا عَنَّمَا بِأَيْدِي الْبَيْضِ وَالْعُنَابَا^(٣)

وقال يمدح جعفر بن علي من القصيدة الشهيرة^(٤): [الطويل]

أَلَيْلَتْنَا إِذَا أَرْسَلَتْ وَارِدًا وَخَفَا^(٥) وَبَانَتْ^(٦) لَنَا الْجُوزَاءُ فِي أُذُنِهَا شَتْفَا^(٧)
وَبَاتَ لَنَا سَاقٍ يَقُومُ^(٨) عَلَى الدُّجَى بِشَمْعَةٍ صُبُحٍ^(٩) لَا تُقَطُّ^(١٠) وَلَا تُطْفَا
أَغْنُ غَضِيضٍ خَفَّفٍ^(١١) اللَّيْنُ قَدَّه وَأَثْقَلْتُ^(١٢) الصُّهْبَاءُ أَجْفَانَهُ الْوُطْفَا^(١٣)
وَلَمْ يُبْقِ إِرْعَاشُ الْمُدَامِ لَهُ يَدَا وَلَمْ يُبْقِ إِعْنَاتُ^(١٤) التُّشْنِي لَهُ عِطْفَا
نَزِيفُ قَضَاءِ السُّكْرِ إِلَّا ارْتِجَاجَةٌ إِذَا كَلَّ عَنْهَا^(١٥) الْخَضِرُ حَمَلَهَا الرَّدْفَا

(١) ديوان ابن هانيء الأندلسي (ص ٤٩).

(٢) الحُدَاة: الذين يسوقون الإبل؛ أراد أنه يحب القباب لأنها تخص الحبيب، ولا يحب الحُدَاة ولا الإبل لأنها سبب بعد الحبيب عنه.

(٣) العنم: شجرة حجازية لها ثمر أحمر يشبه به البنان المخضب. يقول: إن تلك القباب حمر، كأنها عنم أو عناب بأيدي النساء البيض.

(٤) ديوان ابن هانيء الأندلسي (ص ٢٠٧ - ٢١٠) ورايات المبرزين (ص ١٥١ - ١٥٤). وورد منها في المغرب (ج ٢ ص ٩٧ - ٩٨) فقط سبعة أبيات.

(٥) في الأصل: «وجفا» والتصويب من الديوان والمغرب. والوارد: الشعر الطويل المسترسل. والوحف: الكثيف المسود.

(٦) في الديوان والمغرب: «وبتنا نرى الجوزاء».

(٧) الشَّنْف: ما يعلّق في أعلى الأذن، وهو القرط.

(٨) في المغرب: «يصول». (٩) في الديوان: «نجم».

(١٠) لا تُقَطُّ: لا يُقَطَّع رأسها.

(١١) في الأصل: «جفف» والتصويب من الديوان والمغرب.

(١٢) في الديوان: «وثقلت».

(١٣) الأغن: الذي في صوته غنة. والغضيض: الفاتر الطرف المسترخي الأجفان. والوطف: جمع أوطف وهو الذي كثر شَعْرُ حاجبيه وعينه.

(١٤) الإعنات: من أعتته: أي أدخل عليه مشقة شديدة.

(١٥) في الديوان: «عنه الخضر حمله...».

يقولون جُفِّ فوقه^(١) خَيْرَ رَائَةٍ
 جعلنا خَشَايَا^(٢) ثِيَابَ مُدَامِنَا
 فمن كَبِدٍ تُدْنِي إِلَى كَبِدِ هَوَى
 بِعَيْشِكَ نَبَّةَ كَاسِهِ وَجَفْوَنَهُ
 وقد فَكَّتِ الظُّلُمَاءُ بَعْضَ قِيودِنَا
 وولَّتْ نَجُومٌ لِلثَّرِيَّا كَأَنَّهَا
 وَمَرَّ عَلَى آثَارِهَا دَبْرَانُهَا
 وَأَقْبَلَتِ الشُّعْرَى الْعَبُورُ مُلِمَّةً^(٥)
 وقد قَبَّلَتْهَا^(٧) أَخْتُهَا مِنْ وَرَائِهَا
 تَخَافُ زَيْيَرَ اللَّيْثِ قَدُمُ^(٩) نَثْرَةٍ
 كَانَ مُعَلَّى قُطْبِهَا^(١١) فَارَسَ لَهُ
 كَانَ السَّمَاكِينَ الَّذِينَ تَظَاهَرَا
 فَذَا رَامِحٌ يُهْوِي إِلَيْهِ سِنَانُهُ
 كَانَ قُدَامَى النَّسْرِ وَالنَّسْرُ وَقَعَ
 كَانَ أَخَاهُ حِينَ دَوْمَ طَائِرًا
 كَانَ رَقِيبَ اللَّيْلِ^(١٥) أَجْدَلُ مَرْقَبٍ

أما يَعْرِفُونَ الْخَيْرَ رَائَةً وَالْجُفْفَا؟
 وَقَدَّتْ لَنَا الظُّلُمَاءُ مِنْ جِلْدِهَا لُخْفَا
 وَمِنْ شَفَةِ تُوحِي إِلَى شَفَةِ رَشْفَا
 فَقَدْ نُبَّةَ الْإِبْرِيْقُ مِنْ بَعْدِ مَا أَغْفَا
 وَقَدْ قَامَ جَيْشُ اللَّيْلِ لِلصَّبْحِ فَاصْطَفَا^(٣)
 خَوَاتِيمُ تَبْدُو فِي بَنَانٍ يَدٍ تَخْفَى
 كَصَاحِبِ رِدَى^(٤) كُمُتَتْ خَيْلُهُ خَلْفَا
 بِمِرْزَمِهَا الْيَغُوبُ تَجَنَّبُهُ طَرْفَا^(٦)
 لَتَخْرُقَ مِنْ يُثْيِي مَجْرَّتِهَا سِجْفَا^(٨)
 وَيَزْبَرُ فِي الظُّلُمَاءِ يَتَسِفُّهَا نَسْفَا^(١٠)
 لِيَوَاءِ إِنْ مَرْكُوزَانِ قَدْ كَرِهَ الزُّخْفَا
 عَلَى لُبَّتِيهِ^(١٢) ضَامِنَانِ لَهُ الْحَتْفَا^(١٣)
 وَذَا أَغْرَلَ قَدْ عَضَّ أُنْمَلَهُ لَهْفَا
 قُصِصْنَ فَلَمْ تَسْمُ الْخَوَافِي لَهُ ضَعْفَا^(١٤)
 أَتَى دُونَ نِصْفِ الْبَذْرِ فَاخْتَطَفَ النُّصْفَا
 يُقَلِّبُ تَحْتَ اللَّيْلِ فِي رِيْشِهِ طَرْفَا

(١) في الأصل: «فوقي» والتصويب من الديوان والمغرب...

(٢) الحشايَا: جمع حشية وهي الفراش المحشو.

(٣) في الديوان: «وقد ولَّتِ الظُّلُمَاءُ تَقْفَرُ نَجُومَهَا... جيش الفجر لليل واصطفَا».

(٤) في الأصل: «ردى» والتصويب من الديوان. (٥) في الديوان: «مَكْبَةٌ».

(٦) المرزم: نجم من الشعري اليمانية. اليعوب: الفرس السريع الطويل. تجنبه: تقوده إلى جانبها. الطَرْف: المهر.

(٧) في الديوان: «وقد يادرثها».

(٨) أخْتُهَا: الشعري الشامية. الثُّي: الطي، الطاقة. السَّجْف: النسْر.

(٩) في الديوان: «يَقْدَم».

(١٠) النَّثْرَة: أنف الأسد، وكوكبان بينهما قدر شبر. بربر: غضب وصاح.

(١١) معلى القطب: نجم في القطب. (١٢) في الديوان: «على لُبَّتِيهِ».

(١٣) في الديوان: «خُفَّأ». والسماكان: كوكبان، يقال لأحدهما السماك الرامح وللآخر السماك الأعزل.

(١٤) في الديوان: «به ضَعْفَا». والقُدَامَى: الريشات الكبار في مقدم الجناح. النسْر: كوكب، وهما

كوكبان؛ النسْر الطائر، والنسر الواقع. الخوافي: الريشات الصغار في مؤخر الجناح.

(١٥) في الديوان: «النجم». ورقيب النجم: هو النجم الذي يغيب بطلوع النجم الذي يراقبه.

كَانَ بَنِي نَعَشٍ وَنَعَشٍ^(١) مَطَافِلُ
 كَانَ سُهَامَا^(٢) عَاشِقُ بَيْنِ عُرُودِ
 كَانَ سُهَيْلًا^(٣) فِي مَطَالِحِ أَفْقِهِ
 كَانَ الْهَزِيعُ الْآبَنُوسِيُّ مُوهِنًا^(٤)
 كَانَ ظِلَامُ اللَّيْلِ إِذْ مَالَ مَيْلَةً
 كَانَ نَجُومُ الصُّبْحِ خَاقَانُ مَعْشَرٍ^(٥)
 كَانَ لِرَاءِ الشَّمْسِ غُرَّةُ جَعْفَرٍ
 وَقَدْ جَاشَتْ الظُّلُمَاءُ^(٦) بِيضًا صَوَارِمًا
 وَجَاءَتْ عِتَاقُ الْخَيْلِ تَزْدِي كَانَهَا
 هُنَالِكَ تَلْقَى جَعْفَرًا خَيْرَ^(٧) جَعْفَرٍ
 وَكَائِنْ^(٨) تَرَاهُ فِي الْكَرْيَةِ جَاعِلًا^(٩)
 بَوَجْرَةٍ قَدْ أَضْلَلَنْ فِي مَهْمِهِ خِشْفًا^(١٠)
 فَسَاوْنَةُ يَسْبُدُ وَأَوْنَةُ يَخْفَى
 مُفَارِقُ إِلْفٍ لَمْ يَجْزِ بَعْدَهُ إِلَّا
 سَرَى بِالنَّسِيجِ الْخُسْرَوَانِي مُلْتَقًا^(١١)
 صَرِيحُ مُدَامِ بَاتِ يَشْرِبُهَا صِرْفًا
 مِنَ التُّرْكِ نَادَى بِالنَّجَاشِيِّ فَاسْتَخْفَى^(١٢)
 رَأَى الْقِرْنَ فَازدَادَتْ طَلَاقَتُهُ ضِعْفًا^(١٣)
 وَمَرْكُوزَةً^(١٤) سُمِرَا وَقَضْفَا ضِعْفًا^(١٥)
 نَخَطُ لَنَا أَقْلَامُ آذَانِهَا صُخْفًا
 وَقَدْ بُدِّلَتْ يُمْنَاءُ مِنْ لَيْنِهَا^(١٦) عَنَفًا
 عَزِيمَتُهُ بَرْقًا وَصَوْلَتُهُ خَطْفًا

وشعره كثير مدون، ومقامه شهير. وفيما أوردناه كفاية. وهو من البيرة الأصيلة.

وفاته: قالوا: لما توجه إلى مصر، شرب ببرقة وسكر ونام غريانا، وكان
 البرد شديدا فأفلج، وتوفي في سنة إحدى وستين وثلاثمائة^(١٧)، وهو ابن

= والأجل: الصفر.

(١) في الديوان: «ونعشا».

(٢) في الأصل: «قشقا» والتصويب من الديوان. وبنات نعش: سبعة كواكب. والمطافل: ذوات
 الأطفال من الإنس والوحش، وأراد هنا بها الأطباء، واحدها: مطفل. وجرة: موضع بين مكة
 والبصرة. الخشف: الطي.

(٣) السهي: كوكب خفي.

(٤) في الديوان: «لونه».

(٥) الهزيع: قطعة من الليل. الآبنوس: نسبة إلى الآبنوس وهو شجر لون عوده أسود، صلب.
 الخسرواني: حرير رقيق أبيض منسوب إلى خسرو أحد ملوك الفرس.

(٦) في الديوان: «كان عمود الفجر خاقان عسكرا».

(٧) شبه عمود الفجر بملك الترك، وهو الخاقان، في بياضه، وشبه الليل بالنجاشي ملك الحبشة في
 سواده.

(٨) القرن: الخصم. طلاقته: بشاشته.

(٩) في الديوان: «ومارئة».

(١٠) في الديوان: «من رفقها».

(١١) في الأصل: «وكاين» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(١٢) في الأصل: «عاجلا» والتصويب من الديوان.

(١٣) جاء في التكملة (ج ١ ص ٢٩٦) أنه توفي سنة ٣٦١ هـ، وقيل: سنة ٣٦٢ هـ. وفي وفيات =

اثنتين^(١) وأربعين سنة. ولما بلغت المعز وفاته، تأسف عليه وقال: هذا رجل كنا نطمح أن نفاخر به أهل المشرق.

محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن علي بن إبراهيم
ابن علي الغساني البرجي الغرناطي^(٢)

يكنى أبا القاسم، من أهل غرناطة.

حاله: فاضل^(٣) مُجمع على فضله، صالح الأبوة، طاهر النشأة، بادي الصيانة والعفة، طرّف في الخير والحشمة، صدر في الأدب، جُم المشاركة، ثاقب الذهن^(٤)، جميل العشرة، مُمتع المجالسة، حسن الخط^(٥) والشعر والكتابة، قد في الانطباع، صنيع^(٦) اليدين، يحكم على^(٧) الكثير من الآلات العلمية، ويجيد تفسير الكتاب^(٨). رَحَلَ إلى العُدوة^(٩)، وتوسّل إلى ملكها، مُجدّد الرسم، ومقام^(١٠) الجلة، وعلم دشت الشعر والكتابة، أمير المسلمين أبي عنان فارس^(١١)، فاشتمل عليه، ونوّه به، وملاً بالخير يده، فاقتنى جدة وخطوة وشهرة وذكرًا^(١٢)، وانقبض مع استرسال الملك^(١٣)، وآثر الراحة، وجهد في التماس الرحلة الحجازية، ونبذ الكل، وسلا الخطّة، فأسعفه سلطانه بغرضه، وجعل حبله^(١٤) على غاربه، وأصبحه رسالة إلى النبي الكريم من إنشائه، متصلة بقصيدة من نظمه، وكلاهما تُعلن^(١٥) في الخلفاء بُغْد شأوه، ورسوخ قَدَمِ علمه، وعراقة البلاغة، في نَسَب خُضله، حسبما تضمّنه الكتاب

= الأعيان: توفي سنة ٣٦٢ هـ.

- (١) في الأصل: «اثنين» وهو خطأ نحوي.
- (٢) ترجمة محمد بن يحيى الغساني البرجي في الكتيبة الكامنة (ص ٢٥٠) ونيل الابتهاج طبعة فاس (ص ١٧٢) والتعريف بابن خلدون (ص ٦٤) وجذوة الاقتباس (ص ١٩٧) ونفح الطيب (ج ٧ ص ٢٤١) وأزهار الرياض (ج ٥ ص ٧٧).
- (٣) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٠٣). (٤) في النفح: «الفهم».
- (٥) في النفح: «حسن الشعر والخط».
- (٦) في النفح: «صناع».
- (٧) في النفح: «محكم لعمل الكثير».
- (٨) في النفح: «الكتب».
- (٩) في النفح: «العدوة ولقي جلة وتوسّل».
- (١٠) في النفح: «ومقام أولي الشهرة وعامر دست».
- (١١) كلمة «فارس» غير واردة في النفح. (١٢) كلمة «وذكرًا» غير واردة في النفح.
- (١٣) في النفح: «الملك لفضل عقله، حتى تشكى إلى سلطانه بثّ ذلك عند قدومي عليه، وآثر الراحة...».
- (١٤) في النفح: «حبل همّه». والمعنى أنه تركه وشأنه.
- (١٥) في النفح: «يعلن».

المسمى بـ «مُساجلة البيان». ولما هلك وُلِّي ابنه، قدّمه قاضيًا بمدينة مُلْكِهِ، وضاعف الثنويه به، فأجرى الخُطّة، على سبيل من السُّداد والنزاهة. ثم لما وُلِّي السلطان أبو سالم عمّه، أجراه على الرسم المذكور، وهو الآن بحاله الموصوفة، مَفْخَر من مفاخر ذلك الباب السلطاني على تعدّد مفاخره، يحظى بكل اعتبار.

شعره: ثبت^(١) في كتاب «نفاضة الجراب» من تأليفنا، عند ذكر المُدْعَى الكبير بباب ملك المغرب، ليلة ميلاد رسول الله ﷺ، وذُكِرَ مَنْ أنشد ليلتئذ من الشعراء ما نصّه:

وتلاه الفقيه الكاتب الحاج القاضي، جُملة^(٢) السُّداجة، وكرم الخلق، وطيب النفس، وخذن العافية، وابن الصُّلاح والعبادة، ونشأة القرآن، المُتَحَيِّز إلى حزب السلامة، المنقبض عن العُمار، العزوف عن فضول القول والعمل، جامع المحاسن، من عقل رصين، وطَلَب ممتع، وأدب نقّادة^(٣)، ويد صناع، أبو القاسم بن أبي زكريا البرّجي، فأنشدت له على الرسم المذكور هذه القصيدة الفريدة^(٤): [البسيط]

أصغى إلى التّوَجُّد لَمَّا جَدَّ عَاتِبُهُ	صَبَّ لِه شُغْلٍ عَمَّنْ يُعَاتِبُهُ
لَمْ يُغَطِّ لِلصَّبْرِ مِنْ بَعْدِ الْفِرَاقِ يَدًا	قَضَلُ مَنْ ظَلَّ إِرْشَادًا يَخْطِطُهُ
لَوْلَا النَّوَى لَمْ يَبْتَ حِرَانُ ^(٥) مَكْتَشِبًا	يُغَالِبُ التّوَجُّدَ كَشْمًا وَهُوَ غَالِبُهُ
يَسْتَوْدَعُ ^(٦) اللَّيْلَ أَسْرَارَ الْغَرَامِ وَمَا	تُمْلِيهِ أَشْجَائُهُ فَالذُّمُّ كَاتِبُهُ
لِلَّهِ عَصْرٌ بِشَرْقِيٍّ الْجَمَى سَمَحَتْ	بِالْوَصْلِ أَوْقَاتُهُ لَوْ عَادَ ذَاهِبُهُ
يَا جَبْرَةَ أَوْدَعُوا إِذْ وَدَّعُوا حُرْقًا	يَضْلِي بِهَا مِنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ ذَائِبُهُ ^(٧)
يَا هَلْ تُرَى تَجَمُّعُ ^(٨) الْآيَامِ فُرْقَتَنَا	كَعَهْدِنَا أَوْ يَرُدُّ الْقَلْبُ سَاكِبُهُ؟
وَيَا أَقِيلَ وَدَادِي، وَالنُّوَى قَذَفَ	وَالْقُرْبُ قَدْ أَبْهَمَتْ دُونِي مَذَاهِبُهُ
هَلْ نَاقِضُ الْعَهْدِ بَعْدَ الْبُعْدِ حَافِظُهُ	وَصَادَعُ الشُّمْلِ يَوْمَ الشُّعْبِ شَاعِبُهُ؟

(١) النص في نفاضة الجراب (ص ٣٨٢) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٢٠٤).

(٢) في نفاضة الجراب: «حملة».

(٣) في نفاضة الجراب: «نقاوة». وفي نفع الطيب: «وآدب ونقاوة».

(٤) القصيدة في نفاضة الجراب (ص ٣٨٢ - ٣٨٦) والكتيبة الكامنة (ص ٢٥٢ - ٢٥٤) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٢٠٤ - ٢٠٨)، وجاء في الكتيبة الكامنة أنه قال هذه القصيدة عام ٧٠١ هـ.

(٥) في الأصل: «حيران» والتصويب من المصادر الثلاثة.

(٦) في الكتيبة: «يُودَع». (٧) في الكتيبة: «نائبه».

(٨) في الكتيبة: «ترجع الأيام ألفتنا... ويرد... سالبه».

ويا ربوعَ الجِمْى لا زلتِ ناعمةً
يا مَنْ لقلبٍ مَعَ الأهواءِ مُشْعِطُفٌ
يسمو إلى طَلَبِ الباقي بهِمَّتِه
وفتنهُ المرءِ بالمألوفِ مُغْضِلَةٌ
أبكى لعهد الصُّبا والشَّيبِ يضحك بي^(١)
ولن ترى كالهوى أشجاءَ سالفُهُ
وهمةُ المرءِ تُغْلِيهِ وتُرْجِصُهُ
ما هان كسبُ المعالي أو تناوُلُها
لولا سُرَى الفَلَكِ السَّامِي لما ظهرت
في ذمَّةِ الله رَكْبٌ للعللِ رَكِبُوا
يرمون عَرَضَ الفلا بالسَّيرِ عن عَرَضِ^(٢)
كانهم في فؤاد^(٣) الليل سِرُّ هوى
شدُّوا على لَهَبِ الرِّمضاءِ وطأَتْهُمُ
وَكَلَّفُوا الليلَ من طولِ السُّرى شَطَطًا
حتى إذا أَبْصَرُوا الأعلامَ مائلةً^(٤)
بحيث يأمنُ مَنْ مَوْلَاهُ خائِفُهُ
فيها وفي طيبةِ الغرِّاءِ لي أَمَلٌ
لم^(٥) أنس لا أنس أيامًا بظلمتهما
شوقي إليها وإن شَطَّ المزارُ بها
إن رَدَّها الدهرُ يومًا بعد ما عِبِثَتْ
معاهدُ شَرَفَتْ بالمصطفى قلها
محمدُ الْمُجْتَبَى الهادي الشَّفيعُ إلى
أزفى الورى ذمَّاءَ أسماهُمُ هِمَمًا
هو المُكَمَّلُ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ

يبكي عهدك مُضْنى الجسمِ شاحِبُهُ
في كل أَوْبٍ له شوقٌ يُجاذِبُهُ
والنفسُ بالمَيْلِ للفاني تُطالِبُهُ
والأنسُ بالإلفِ نحو الإلفِ جاذِبُهُ
يا للرجالِ سَبَتْ جَدِّي ملاعبُهُ
ولا كوعِدِ السُّمْنى أحلاه كاذِبُهُ
مَنْ عَزَّ نَفْسًا لقد عَزَّتْ مطالبُهُ
بل هان في ذاك ما يَلْقَاهُ طالبُهُ
آثارُهُ ولما لاحَتْ كواكبُهُ
ظَهَرَ السُّرى فأجابَتْهُمُ نجائبُهُ
طَيَّ السُّجُلُ إذا ما جَدَّ كاتبُهُ
لولا الضُّرامُ لما خَفَّتْ جوانبُهُ
فغاصَ في لُجَّةِ الظُّلُماءِ راسِبُهُ
فخَلَفُوهُ وقد شَابَتْ ذوائبُهُ
بجانبِ الحُرَمِ المَحْمِيَّ جانبُهُ
من دَنْبِهِ وينالُ القُضْدَ راغِبُهُ
يُصاحِبُ القلبَ منه ما يُصاحِبُهُ
سَقَى ثراهَ عَمِيمُ الغَيْثِ ساكِبُهُ
شوقُ المقيمِ وقد سارَتْ حبايبُهُ
في الشُّمْلِ منا يداهُ لا تُعَاتِبُهُ^(٦)
مِنْ قَضْلِهِ^(٧) شَرَفٌ تَغْلُو مراتبُهُ
رَبُّ العبادِ أَمِينُ الوحي عاقِبُهُ
أعلامُ كرماءَ جَلَّتْ مناقبُهُ
زَكَّتْ خُلَاهُ^(٨) كما طابَتْ مناسِبُهُ

(١) في الكتيبة: «لي».

(٢) في الأصل: «عرض» والتصويب من المصادر الثلاثة.

(٣) في الكتيبة: «سواد».

(٤) في الكتيبة: «ما أنس».

(٥) في الكتيبة: «من أجله».

(٦) في نقاضة الجراب: «مائلة».

(٧) في نقاضة الجراب: «تعاتبه».

(٨) في الكتيبة: «علاه».

عنايةً قبل بدء الخلق سابقةً
جاءت تُبَشِّرُنَا الرُّسُلُ الكرامُ به
أخباره سرُّ عِلْمِ الأولين وسل
تطابق الكون في البُشرى بمولده
فالجَنُّ تهتفُ إعلاّنا هوانفه
ولم تزل عصمةُ التأييد تُكثِّفه
سرى وجنحُ ظلام الليل مُتَسَدِّلٌ
يسمو لكلِّ سماء منه منفردٌ
لمُنْتَهَى وَقَفَ الرُّوحُ الأَمِينُ به
لِقَابٍ^(٣) قوسين أو أدنى فما علمت
أراه أسرارَ ما قد كان أودعه
وآبَ والبذرُ في بحر الدُّجى غرقٌ
فأشرقَت بِسَيِّئِهِ الأَرْضُ وأتَبَعَت
واقبلَ الرُّشْدَ والتَّاحَتْ زواهره
وجاء بالذكرِ آياتٍ مُفَصَّلَةٌ
نورٌ من الحِكم لا تخبر سوا طعمه
له مقامُ الرِّضا المحمودِ شاهدهُ
والرُّسُلُ تحت لواء الحمد يقدِّمها
له الشِّفَاعَاتُ مقبُولًا وسائلها
والحوض يروي الصُّدى من عَذْبٍ مورده
محامدُ المصطفى لا ينتهي أبدًا
فَضْلٌ تَكْفُلُ بالذَّارين يُوسِّعُها
حسبي التوسُّلُ منها بالذي سَمَحَتْ
حَيَّاه من صلواتِ الله صَوَّبُ حَيَّا

مِنْ أَجْلِهَا^(١) كان آتية وذاهبيه
كالصُّبْحِ تبدو تباشيرًا كواكبه^(٢)
يَذِيرُ نِيَمَاءَ ما أبداه رَاهِبُهُ
وَطَبَّقَ الأَرْضَ أعلامًا تُجَاوِبُهُ
والجَنُّ تَقْذِفُ إحراقًا ثوابه
حتى انجلى الحقُّ وانزاحت شوائبه
والتَّجَمُّ لا يهتدي في الأفق ساربه
عن الأنام وجَبِرائيلُ صاحبه
وامتاز قُرْبًا فلا خَلْقٌ يُقَارِبُهُ
نَفْسٌ بمقدار ما أولاه واهبه
في الخَلْقِ والأمرِ باديهِ وغائبه
والصُّبْحُ لَمَّا يُوْبُّ للشرق آيبُهُ
سُبُلَ النِّجاةِ بما أبدت مذهبهِ
وأذْبَرَ الغي فأنجابت^(٤) غياهبه
يُهْدِي بها من صراطِ الله لاجِبُهُ
بَحْرٌ مِنَ العِلْمِ لا تُفْنِي عجائبهِ
في موقفِ الحَشْرِ إذ نابت نوائبه
محمدٌ أحمدُ السَّامِي مراتبُهُ
إذا دهى الأمرُ واشتدَّت مصاعبه
لا يشتكي غُلَّةَ الظَّمآنِ شاربُهُ
تَعْدَادُهَا، هل يَعُدُّ القَطْرَ حاسبُهُ؟
نُغْمَى ورُخْمَى فلا فَضْلٌ يُناسِبُهُ
به القوافي وجَلَّتْها غرائبهِ
تُخْدي إلى قبره الزَّاكِي نجائبهِ

(١) في الكتيبة: «من أجله».

(٢) هذا البيت والآيات التالية غير واردة في الكتيبة الكامنة.

(٣) القاب: المقدار، وما بين المقبض والسَّيَّة من القوس. وفي القرآن الكريم: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩]، ومحيط المحيط (قرب).

(٤) انجابت: انجلت وانكشفت. محيط المحيط (جيب).

وخلد الله ملك المستعين به
 إمام عدل بتقوى الله مشتمل
 مسدد الحكم ميمون نقيبته
 مشمر للثقى أذبال مجتهد
 قد أوسعت أمل الراجي مكارمه
 وفاز بالأمن محبوباً مسالمة^(٢)
 كم وافد أمل مغهودة نائله
 ومشتجير بعز من مثابته
 وجاء الدهر يسترضيه معتذراً
 لولا الخليفة إبراهيم لانبهت
 سمث لنيل تراث المجدي همته
 ينميه للعز والعليا أبو حسن
 من آل يعقوب حسب الملك مفتخراً
 أطواذ حلم رسا بالأرض محبته
 تحفها من مرين أبحر زخرت
 بكل نجم لدى الهيجاء ملتهب
 أكفهم في دياجيه مطالعه
 يا خير من خلصت لله نيته
 جرذت والفتنة الشعواء ملبسة
 وخضتها غير هتاي ولا وكل
 صبرت نفساً لعقبى الصبر حامدة
 فليهن دين الهدى إذ كنت ناصره
 لا زال ملكك والتأييد يخدمه

مؤيد الأمر منصوراً كتائبه
 في الأمر والنهي يرضيه يراقبه
 مظفر العزم صدق الرأي صائبه
 جرار أذبال شخب الجود ساحبه
 وأحسبت^(١) رغبة العافي رغائبه
 وباء بالخزي مقهوراً محاربه
 أثنى وأثنت بما أولى حقائبه
 عزت مراميه وانسقدت مآربه
 مستغفراً من وقوع الذنب تائبه
 طرقت المعالي ونال الملك غاصبه
 والملك ميراث مجد وهو عاصبه^(٣)
 سمنح الخلائق محمود ضرائبه
 بباب عزهم السامي تعاقبه
 وزاحمت^(٤) منكب الجوزا مناكبه
 أمواجها وغمام نار صائبه
 ينقض وسط سماء النفع ثاقبه
 وفي نحور أعاديهم مغاربه
 في الملك أو خطب العلية خاطبه
 سيفاً من العزم لا تنجو مضاربته
 وقلما أدرك المسطلوب هائبه
 والصبر مذ^(٥) كان محمود عواقبه
 أمن يواليه أو خوف يجانبه
 تقضي بخفض مناويه قواضيه^(٦)

(١) أحسبت: أكثر وأجزلت. لسان العرب (حسب).

(٢) في نفاضة الجراب: «مسالمة».

(٣) في النفاضة والنفع: «غاصبه» بالغين المعجمة.

(٤) في الأصل: «وزاحت» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفاضة والنفع.

(٥) في نفاضة الجراب: «مذ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصادر الأخرى.

(٦) القواضب: جمع قاضب وهو السيف القطاع. محيط المحيط (قضب).

ودُفئت في نَعَمِ تصفرو^(١) ملابسُها في ظلِّ عزٍّ علًا تصفو مشاربُه
ثم الصلاة على خير البرية ما سارت إليه بمشتاق ركائبه
ومن شعره ما قيده لي بخطه صاحب قلم الإنشاء بالحضرة^(٢) المَرينية، الفقيه
الرئيس الصدر المتفنن أبو زيد بن خلدون^(٣): [الطويل]

صَحَا القلبُ عَمَّا تعلمينَ فأقلعَا وعَطَّلَ من تلك المعاهدِ أَرْبَعَا^(٤)
وأصبحَ لا يلوي على خَدِّ منزلٍ ولا يَتَّبِعُ الطَّرْفَ الخَلِيَّ المودَعَا
وأضحى من السُّلوانِ في جِرْزٍ مَعْقِلٍ بعيدٍ على الأيام أن يَتَضَعَضَعَا
يرد الجفانَ النُّجْلَ عن شُرُفاته وإن لحظتُ عن كل أجيدٍ أثْلَعَا
عزيزٌ على داعي الغرام انقياده وكان إذا ناداه للوَجْدِ أهْطَعَا^(٥)
أهابَ به للشَّيبِ أنصحُ واعظُ أصاخ له قلبًا مُنيبًا ومُسَمَعَا
وسافر في أفقِ التفكير والحجا زواهرُهُ لا تبرحُ الدُّفْرِ طُلَعَا
لعمري لقد أنضيتُ عزمي تَطْلُبَا وقَضَيْتُ عُمري رُقِيَّةً^(٦) وتطلعا
وخَضْتُ غُبابَ البحرِ أخضرَ مُزِيدَا ودُسْتُ أديمَ الأرضِ أغبرَ أسْفَعَا^(٧)

ومن شعره حسبما قيده المذكور^(٨): [المتقارب]

نَهاه النُّهى بَعْدَ طولِ التجاربِ ولاخ له منهجُ الرُّشدِ لاجِبُ^(٩)
وخاطبته دَهْرُهُ ناصحَا بالسنةِ الوَعظِ مِنْ كُلِّ جانبِ
فأضحى إلى نُضحهِ واعيًا وألغى حديثَ الأمانِ الكواذبِ
وأصبحَ لا تُسْتَبِيه^(١٠) الخواني

(١) في الأصل: «تصفوا». وفي نقاضة الجراب: «تصفرو».

(٢) الحضرة المرينية: هي عاصمة بني مرين بالمغرب.

(٣) القصيدة في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢٠٨).

(٤) الأَرْبَعُ: جمع ربع وهو الدار. لسان العرب (ربع).

(٥) أهْطَعُ: أسرع. لسان العرب (هطع). (٦) في النفع: «رُقْبَةُ».

(٧) الأسْفَعُ: الأسود المائل إلى الحمرة. لسان العرب (سفع).

(٨) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ٢٥١) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٢٠٨).

(٩) اللاجب: الطريق الواضح. محيط المحيط (لجب).

(١٠) في الكتيبة: «لا تستهيه».

واحسانه^(١) كثير في النظم والنثر، والقصار والمطولات. واستعمل في السفارة إلى ملك مصر وملك قشتالة، وهو الآن قاضي^(٢) مدينة فاس، نسيج وخدي في السلامة والتخصيص^(٣)، واجتناب فضول القول والعمل، كان الله له.

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف ابن محمد الصريحي^(٤)

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن زمرك. أصله من شرق الأندلس، وسكن سلفه رُبض البيّازين من غرناطة، وبه وُلد ونشأ، وهو من مفاخره.

حاله: هذا^(٥) الفاضل صدر من صدور طلبة الأندلس وأفراد نجبائها، مختص^(٦)، مقبول، هش، خلوب، عذب الفكاهة، حلو المجالسة، حسن التوقيع، خفيف الروح، عظيم الانطباع، شره المذاكرة، فطن بالمعارض^(٧)، حاضر الجواب، شغلة من شغل الذكاء، تكاد تختدم جوانبه، كثير الرقة، فكه، غزل مع حياء وحشمة، جواد بما في يده، مشارك لإخوانه. نشأ عفاً، طاهراً، كلفاً بالقراءة، عظيم الدؤوب، ثاقب الذهن، أصيل الحفظ، ظاهر الثبل، بعيد مدى الإدراك، جيد الفهم، فاشتهر فضله، وذاع أَرْجُه، وفشا خبره، واضطلع بكثير من الأغراض، وشارك في جملة^(٨) من الفنون، وأصبح مُتَلَقِّف كُرّة البحث، وصارخ الخلقة، وسابق الخلبة، ومظنة الكمال. ثم ترقى في درج المعرفة والاضطلاع، وخاض لجة الحفظ، وركض قلم التقييد والتسويد والتعليق، ونصب نفسه للناس، متكلماً فوق الكرسي المنصوب، وبين^(٩) الحفل المجموع، مُستظهرًا بالفنون^(١٠) التي بُعدَ فيها شأؤه، من العربية والبيان واللغة، وما يقذف به في لُج النقل، من الأخبار والتفسير. متشوقاً مع ذلك إلى السلوك، مصاحباً للصوفية، آخذاً نفسه برياض ومجاهدة، ثم عانى الأدب، فكان

(١) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٠٩). (٢) في النفح: «قاضي حضرة الملك».

(٣) في النفح: «والتخصيص».

(٤) ترجمة ابن زمرك في الكتيبة الكامنة (ص ٢٨٢) ونشر فرائد الجمان (ص ٣٢٧) ونيل الابتهاج

طبعة فاس (ص ٢٨٢) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٧) ونفح الطيب (ج ١٠ ص ٣) واسمه في

الأزهار والنفح: «محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحي».

(٥) النص في نفح الطيب (ج ١٠ ص ٤ - ٥) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٨ - ٩).

(٦) في النفح: «مختصر».

(٧) أي المعارض من الكلام، وهو ما عرض به ولم يُصرَح.

(٨) في النفح: «كثير». (٩) في النفح: «رفوق المحفل».

(١٠) مستظهرًا بالفنون: متقوياً بها.

أفلك به، وأعمل الرحلة في طلب العلم والازدياد، وترقى^(١) إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبي سالم إبراهيم ابن أمير المسلمين أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب، ثم عن السلطان، وعُرف في باب^(٢) الإجابة. ولما جرت الحادثة على السلطان صاحب الأمر بالأندلس، واستقر بالمغرب، أُنس به، وانقطع إليه، وكرّ صحبة^(٣) ركابه إلى استرجاع حقّه، فلُطف منه محلّه، وخَصّه بكتابة سرّه. وثابت الحال، ودالت الدولة، وكانت له الطائلة، فأقرّه على رُسْمه معروف الانقطاع والصّاغية، كثير الدّالة، مضطلعًا بالخُطّة خطًا وإنشاءً ولِسْنَا ونقْدًا، فحسُن منابّه، واشتهر فضله، وظهرت مشاركته، وحسنت وساطته، ووسيع الناس تخلّقه، وأرضى للسلطان حمله، وامتدّ في ميدان النثر^(٤) والنظم باعه، فصدر عنه من المنظوم في أمداحه قصائد بعيدة الشّأر في مدى الإجابة، [حسبما يشهد بذلك، ما تضمّنه اسم السلطان، أيّده الله، في أول حرف الميم، في الأغراض المتعددة من القصائد والميلاديات، وغيرها^(٥)]. وهو بحاله الموصوفة إلى الآن^(٦)، أعانه الله تعالى^(٧) وسدّده.

شيوخه: قرأ^(٨) العربية على الأستاذ رُحلة الوقت^(٩) في فنها أبي عبد الله بن الفخّار ثم على إمامها^(١٠) القاضي الشريف، إمام الفنون اللّسانية، أبي القاسم محمد بن أحمد الحسني، والفقه والعربية على الأستاذ المفتي أبي سعيد بن لب، واختصّ بالفقيه الخطيب الصّدر المحدث أبي عبد الله بن مرزوق فأخذ عنه كثيرًا من الرّواية، ولقي القاضي الحافظ أبا عبد الله المقرّي عندما قدم^(١١) رسولًا إلى الأندلس، وذاكره، وقرأ الأصول الفقهية على أبي علي منصور الزّواوي، وروى^(١٢) عن جملة، منهم القاضي أبو البركات ابن الحاج، والمحدث أبو الحسن^(١٣) ابن التلمساني، والخطيب أبو عبد الله ابن اللوشي، والمقرّي أبو عبد الله ابن بيبش. وقرأ بعض الفنون العقلية بمدينة فاس على الشريف الرحلة الشهير أبي عبد الله العلوي التلمساني، واختصّ به اختصاصًا لم يخل فيه من إفادة^(١٤) مران وحُنكة في الصّناعة^(١٥).

- | | |
|--|--|
| (١) في النفح: «ترقى». | (٢) في النفح: «في باب الإجابة». |
| (٣) في النفح: «في صحبة». | (٤) في النفح: «النظم والنثر». |
| (٥) ما بين قوسين ساقط في النفح. | (٦) في النفح: «إلى هذا العهد». |
| (٧) كلمة «تعالى» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من النفح. | |
| (٨) النص في نفح الطيب (ج ١٠ ص ٥). | (٩) في النفح: «رحلة إلى المغرب في...». |
| (١٠) كلمة «إمامها» ساقطة في النفح. | (١١) في النفح: «قدم من الأندلس». |
| (١٢) في النفح: «ويروي عن جماعة». | (١٣) في النفح: «أبو الحسين». |
| (١٤) في النفح: «استفادة». | (١٥) في النفح: «في الصنعة». |

شعره: وشعره^(١) مترام إلى نمط^(٢) الإجادة، خفاجي^(٣) التزعة، كلف بالمعاني البديعة، والألفاظ الصقيلة، غزير المادة. فمعه في غرض النسيب^(٤):

رضيت بما تقضي عليّ وتحكم
إذا كان قلبي في يديك قياده
على أن رُوحى في يديك بقاؤه
وأنت إلى المشتاق نار وجنة
ولي كبد تئدى إذا ما ذكرت
ولو كان ما بي منك بالبرق ما سرى
أراعي نجوم الأفق في الليل ما دجى
وما زلت أخفي الحب عن كل عادل
كساني الهوى ثوب السقام وإنه
فيا من له العقل الجميل سجيئة
وعنه يروى الناس كل غريبة
إذا أنت لم ترحم خضوعي في الهوى
وحلمك حلم لا يليق بمذنب
ووالله ما في الحيّ حيّ ولم ينل
ومن قبل ما طوّقتني كل نعمة
وفتحت لي باب القبول مع الرضى
ولو كان لي نفس تخونك في الهوى
وأترك أهلي في رضاك إلى الأسى
أما والذي أشقى فؤادي في الهوى
لأنت من قلبي ونزهة خاطري

أمان فأقصى أم أصافي فأكرم
فمالي عليك في الهوى أتحكم
بوضلك يحيى أو بهجرك يعدم
ببُعدك يشقى أو بقربك ينعم
وقلب بنيران الشوق يتضرم
ولا استصحب الأنواء تبكي وتبسم
وأقرب من عيني للنوم أنجم
وتشفي دموع الضب ما هو يكتم
متى صبح حب المرء لا شيء يسقم
ومن جود يمناه السحيا يتعلم
تخط على صفح الزمان وترسم
فمن ذا الذي يحني عليّ ويرحم
فما بال ذنبي عند حلمك يعظم؟
رضاك وعمته أباد وأنعم
كأنّي وإياها سوار ومغضم
يغض الحيّ طرفي كأنّي مجرم
لفارقتها طوعاً وما كنت أندم
وأسلم نفسي في يديك وأسلم
وإن كان في تلك الشقاوة ينعم
ومورد آمالي وإن كنت أكرم

(١) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢٠٩) و(ج ١٠ ص ٥).

(٢) في النفع: «هدف».

(٣) نسبة إلى ابن خفاجة، شاعر الطبيعة في الأندلس.

(٤) لم ترد هذه الأبيات في نفع الطيب.

ومن ذلك ما خاطبني به، وهي^(١) من أول نظمه، قصيدة مطلعها: [الطويل]

«أما وانصداع الثور في^(٢) مطلع الفجر»

وهي طويلة^(٣). ومن بدائعه التي عَقِمَ عن مثلها قياس قيس، واشتهرت بالإحسان اشتهاه الزهد بأويس^(٤)، ولم يحل مجاريه ومباريه إلا بويح وويس، قوله في إعدار الأمير ولد سلطانه، المنوّه بمكانه، وهي من الكلام الذي غنيت الإجابة بتذيه وتهذيه، وناسب الحسن بين مديحه ونسييه^(٥): [الطويل]

مَعَاذَ الْهَوَى أَنْ أَضْحَبَ الْقَلْبَ سَالِيَا	وَأَنْ يُشْغَلَ اللِّوَامُ بِالْعَذْلِ بَالِيَا
دَعَانِي أَغْطِ الْحَبَّ فَضْلَ مَقَادَتِي	وَيَقْضِي عَلَيَّ الْوَجْدُ مَا كَانَ قَاضِيَا
وَدُونَ الَّذِي رَامَ الْعَوَاذِلُ صَبَوَةَ	رَمَتْ بِي فِي شِغْبِ الْغَرَامِ الْمَرَامِيَا
وَقَلْبٌ إِذَا مَا الْبَرْقُ أَوْمَضَ مَوْهِنًا ^(٦)	قَدْخَتْ بِهِ زُنْدًا مِنَ الشُّوقِ وَارِيَا
خَلِيلِي إِنِّي يَوْمَ طَارِقَةِ النُّوَى	شَقِيتُ بِمَنْ لَوْ شَاءَ أَنْعَمَ بَالِيَا
وَبِالْخَيْفِ يَوْمَ الثُّفْرِ يَا أُمَّ مَالِكٍ	تَخَلَّفْتُ ^(٧) قَلْبِي فِي حِبَالِكَ عَانِيَا ^(٨)
وَذِي أَشْرٍ عَذِبِ الثَّنَايَا مُحْضَرٍ	يُسْقَى بِهِ مَاءُ النِّعَمِ الْأَقَاحِيَا
أَحْوَمُ عَلَيْهِ مَا دَجَا اللَّيْلُ سَاهِرَا	وَأُضْبِحُ دُونَ الْبُورْدِ ظِمَآنَ صَادِيَا ^(٩)
يُضِيءُ ظِلَامَ اللَّيْلِ مَا بَيْنَ أَضْلَعِي	إِذَا الْبَارِقُ النُّجْدِي وَهَنَا بَدَا لِيَا
أَجِيرَتْنَا بِالرُّمْلِ وَالرُّمْلُ مَنْزِلُ	مَضَى الْعَيْشُ فِيهِ بِالشُّبِيَةِ حَالِيَا
وَلَمْ أَرْ رُبْعًا مِنْهُ أَقْضَى لُبَانَةً	وَأَشْجَى حَمَامَاتٍ وَأَخْلَى مَجَانِيَا
سَقَتْ طَلَّةُ ^(١٠) الْغُرِّ الْغَوَادِي وَنُظِّمَتْ	مِنَ الْقَطْرِ فِي جِيدِ الْغُصُونِ لَالِيَا

(١) في نفح الطيب (ج ١٠ ص ٥): «وهو». (٢) في النفح: «من».

(٣) وردت في الكتيبة الكامنة (ص ٢٨٤ - ٢٨٨) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ١٦٤ - ١٦٦)، وعدد أبياتها ٥٩ بيتًا، ومطلعها:

لَكَ اللَّهُ مِنْ فَذِّ الْجَلَالَةِ أَرْخِدِ تَطَاوَعَهُ الْأَمَالُ فِي السُّهْيِ وَالْأَمْرِ
(٤) هو أويس القرني أحد أعلام الزهد في العصر الأموي، قُتِلَ في وقعة صفين عام ٢٧ هـ. الأعلام (ج ٢ ص ٣٢) ومصادر حاشيته.

(٥) القصيدة في نفح الطيب (ج ١٠ ص ٦) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٥٦).

(٦) المَوْهِنُ مِنَ اللَّيْلِ: نصفه أو بعد ساعة منه. لسان العرب (وهن).

(٧) تَخَلَّفْتُ: تَرَكْتُهُ خَلْفِي. لسان العرب (خلف).

(٨) الْعَانِي: الْأَسِير. لسان العرب (عنا).

(٩) فِي الْأَصْلِ: «ضَارِيًا» وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الْمَصْدَرَيْنِ.

(١٠) فِي الْأَزْهَارِ: «ظَلَّة».

أُبشُّكُمْ أَنِّي عَلَى النَّأْيِ حَافِظٌ ذِمَامَ الْهَوَى لَوْ تَحْفَظُونَ ذِمَامِيَا
أُنَاشِدُكُمْ وَالْحُرَّ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَلَنْ يَغْدَمَ الْأَحْسَانُ وَالْخَيْرُ^(١) جَازِيَا

وورد^(٢) على السلطان أبي سالم ملك المغرب، رحمة الله تعالى عليه، وَقَدْ
الْأَحَابِيشْ بِهَدِيَّةٍ مِنْ مَلِكِ السُّودَانِ، وَمِنْ جَمَلَتِهَا الْحَيَوَانُ الْغَرِيبُ الْمَسْمَى بِالزَّرَافَةِ^(٣)،
فَأَمَرَ مَنْ يُعَانِي الشَّعْرَ مِنَ الْكِتَابِ بِالنَّظْمِ فِي ذَلِكَ الْغَرَضِ، فَقَالَ وَهِيَ مِنْ بَدَائِعِهِ:
[الكامل]

لَوْلَا تَأَلَّقُ بَارِقِ التُّذْكَارِ مَا صَابَ وَاكِفُ دَمْعِي الْمِذْرَارِ
لَكِنَّهُ مَهْمَا تَعَرَّضَ خَافِقًا قَدَحَتْ يَدُ الْأَشْوَاقِ زَنْدَ أُوَارِي^(٤)
وَعَلَى^(٥) الْمَشْوُوقِ إِذَا تَذَكَّرَ مَعَهْدًا أَنْ يُغْرِى الْأَجْفَانُ بِاسْتِغْبَارِ
أَمُذَكَّرِي غَرْنَاطَةٍ حَلَّتْ بِهَا أَيْدِي السُّحَابِ أَزْرَّةَ الثُّوَارِ؟
كَيْفَ التَّخْلُصُ لِلْحَدِيثِ وَبَيْنَنَا^(٦) عَرَضُ الْقَلَاةِ وَطَافِحِ زَخَارِ^(٧)؟
وَعَرِيبَةٌ قَطَعَتْ إِلَيْكَ عَلَى الْوَنَى بِيْدَا تَبِيدُ بِهَا هُمُومُ السَّارِي
تُنْسِيهِ طَيْئَةً^(٨) الَّتِي قَدْ أَمَّهَا وَالرُّكْبُ فِيهَا مَيِّتُ الْأَخْبَارِ
يَقْتَادُهَا مِنْ كُلِّ مُشْتَمِلِ الدُّجَى وَكَأَنَّمَا عَيْنَاهُ جَذْوَةٌ نَارِ
خَاضُوا بِهَا لُجَجَ الْقَلَا فَتَخَلَّصَتْ مِنْهَا خُلُوصَ الْبَذْرِ بَعْدَ سِرَارِ
سَلِمَتْ بِسَعْدِكَ مِنْ غَوَائِلِ مِثْلِهَا وَكَفَى بِسَعْدِكَ حَامِيَا لِذِمَارِ
وَاتَّشَكَ يَا مَلِكَ الزَّمَانِ غَرِيبَةً قَيْدُ النَّوَظِرِ نَزْهَةَ الْأَبْصَارِ
مَوْشِيَّةُ الْأَعْطَافِ رَائِقَةٌ^(٩) الْجَلَى رَقَمَتْ بِدَائِعِهَا يَدُ الْأَقْدَارِ
رَاقِ الْعَيُونَ أَدِيمُهَا فَكَأَنَّهُ رَوْضٌ تَفْتَحُ عَنْ شَقِيقِي بَهَارِ
مَا بَيْنَ مُبْيَضٍّ وَأَضْفَرٍ فَاقِعٍ سَالِ اللَّجَيْنِ بِهِ خِلَالِ نُضَارِ
يَخْكِي حَدَائِقَ نَرْجِسٍ فِي شَاهِقٍ تَنْسَابُ فِيهِ أَرَاقِمُ الْأَنْهَارِ

(١) في الأصل: «الخير والإحسان» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٢) النص والقصيدة في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٠ - ١١) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ١٧٠ - ١٧٢).

(٣) في النفح: «الزرافة».

(٤) الأوار: حر النار، والتهب: محيط المحيط (أور).

(٥) في أزهار الرياض: «عل المشوق...» (٦) في أزهار الرياض: «ودونها».

(٧) في نفح الطيب: «وطافح الزخار» (٨) الطية: النبة والوجهة. لسان العرب (طوى).

(٩) في أزهار الرياض: «رائقة».

وأنشد^(١) السلطان في ليلة ميلاد رسول الله ﷺ، عَقِبَ ما فرغ من البنية الشهيرة ببابه، رحمه الله تعالى: [الطويل]

تأمل أطلال الهوى فتألما وسيما الجوى والسقم منها تعلما
أخو زفرة هاجت له منه^(٢) ذكره فأنجد في شغب الغرام وأثهما

وأنشد^(٣) السلطان في وجهة للصيد أعملها، وأطلق أجنة الجياد في ميادين ذلك الطراد وأرسلها قوله: [الكامل]

حيالك يا دار الهوى من دار نوء السماك بديممة مذار
وأعاد وجه رباك طلقا مشرقا متضاحكا بمباسم النوار
أمدكري دار الصبابة والهوى حيث الشباب يرف^(٤) غصن نضار
عاطيتني عنها الحديث كأنما عاطيتني عنها كؤوس عفار
إيه وإن أذكيت نار صبابتي وقدحت زند الشوق بالتذكار
يا زاجر الأظعان وهي مشوقة أشبهتها في زفرة وأوار
حئت إلى نجد وليست دارها وصبت إلى هندية والقار^(٥)
شافت به برق الجمى واعتادها طيف الكرى بمزارها المزوار^(٦)

ومن شعره في غير المطولات^(٧): [الطويل]

لقد زادني وجدا وأغرى بي الجوى ذبال^(٨) بأذيال الظلام قد التفا
تسير وراء الليل منه بنانة مخضبة والليل قد حجب الكفا
تلوح سنانا حين لا تنفخ الصبا وتبدو^(٩) سوارا حين تنفي له العظفا
قطعت به ليلا يطارحني الجوى فأونة يبدو وأونة يخفى

(١) النص مع بيتي الشعر في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٢).

(٢) في النفح: «له نار ذكره».

(٣) النص والقصيدة في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٢ - ١٣) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ١٠٣).

(٤) في أزهار الرياض: «بروق حشن نضار». (٥) في النفح: «هندية والغار».

(٦) رواية البيت في أزهار الرياض هي:

لكنها شامت به برق الجمى واعتادها طيف الكرى بمزار

(٧) الأبيات في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٦) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ١٦٩).

(٨) الذبال: جمع ذبالة وهي القتيلة، وأراد المصباح الذي يصفه ابن زمرك في هذه الأبيات.

(٩) في النفح: «وتبدو».

إذا قلت لا يبدو أشال لسانه
إلى أن أفاق الصبح من غمرة الدجى
لك الله يا مضباح أشبهت منهجتي
ومما ثبت له في صدر رسالة^(٢): [الطويل]

أزور بقلبي مَفْهَدَ الأتس والهوى
ومهما سألت البرق يَهْفُو من الحمى
فياليت شغري والأمانى تَعْلَلُ
وהל جيرتي الأولى كما قد عَهْدَتْهُمْ
ومن أياته الغراميات^(١): [الوافر]

قيادي قد تَمَلَّكَه الغرام
ودمعي دُونُهُ صَوْبُ الغَوادي
إذا ما الوجد لم يَبْرُخ فَوادي

وفي غرض يظهر من الأبيات^(٨): [الطويل]

ومُشْتَمِلٍ بالحسنِ أخوى مُهْفَهَفٍ
فأبصرتُ أشباهَ الرياضِ محاسنًا
فقلتُ لجلّاسي خذوا الحذرَ إنما
ويا وجنةً قد جاررتُ سيفَ لَحْظِهِ
تَحْبَلُ للعِينينِ جُرْحًا وإنما
قضى رجُع طَرْفِي من محاسنه الوَطَرُ^(٩)
وفي خَدِّه جُرْحٌ بدا منه لي أثرُ
به وَصَبُّ من أسهم الغُثجِ والخَوَزِ
ومن شأنها تَذمي من اللَّمَحِ بالبَصَرِ
بدا كَلَفٌ منه على صفحةِ القَمَرِ

(١) في النفع: «لا يخفى الضياء به كفا» وفي أزهار الرياض: «لا يخبر الضياء به كفا».

(٢) نفع الطيب (ج ١٠ ص ١٦) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ١٧٠).

(٣) في أزهار الرياض: «يبادر به».

(٤) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ٢٨٨) ونفع الطيب (ج ١٠ ص ١٦ - ١٧).

(٥) يُرام: يطلب. لسان العرب (روم). (٦) في الكتيبة: «وشوقي».

(٧) في الكتيبة: «يُشكي». وفي النفع: «يشكو».

(٨) الأبيات في نفع الطيب (ج ١٠ ص ١٧).

(٩) الأحوى: الأسمر، ومن كان لونه لون صدأ الحديد. الوطر: الحاجة. لسان العرب (هوى) و(وطر).

ومما يرجع إلى باب الفخر، ولعمري لقد صدق في ذلك^(١): [الطويل]

الأئمة^(٢) في الجود والجود شيمتي^(٣) جُبِلْتُ على آثارها^(٤) يوم مولدي
ذريني فلو أني أخلد بالغنى لكثت ضئيلاً بالذي ملكت يدي

ومن مقطوعاته^(٥): [المقارب]

لقد علم الله أني امرؤ أجزر ثوب العفاف القشيب
فكم غمض الدهر أجفائه وفازت قداحي بوصل الحبيب
وقيل رقيبك في غفلة فقلت أخاف الإله الرقيب

وفي مدح كتاب «الشفاء»^(٦) طلبه الفقيه أبو عبد الله بن مرزوق عندما شرع في شرحه^(٧): [الطويل]

ومسرى ركاب للصبأ قد وثت به نجائب سخب للتراب نزوعها
تسل سيف البرق أيدي خداتها فتنهل خوفاً من سطها دموعها
ومنها:

ولا مثل تعريف الشفاء حقوة فقد بان فيه للعقول جميعها
بمراة حسن قد جلثها يد النهى فأوصافه يلتاح فيه بديعها
نجوم اهتداء، والمداد ينجؤها وأسرار غيب واليراع تذيبها
لقد حزت فضلاً يا أبا الفضل شاملاً فيجزيك عن نصح البرايا شفيها
ولله ممن قد تصدى لشرحه فلباه من غر المعاني مطيعها
فكم مجمل فصلت منه وحكمة إذا كتم الإدماج منه تضيعها
محاسن والإحسان يبدو خلالها كما افتر^(٨) عن زهر البطاح ربيعها

(١) البيتان في نفع الطيب (ج ١٠ ص ١٧) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ١٠).

(٢) في الأصل: «يا لائمي» والتصويب من نفع الطيب. وفي أزهار الرياض: «ولائمي».

(٣) في النفع: «شيمة». (٤) في المصدرين: «إثارها».

(٥) الأبيات في أزهار الرياض (ج ٢ ص ١٠) ونفع الطيب (ج ١٠ ص ١٧).

(٦) كتاب «الشفاء» للقاضي عياض بن موسى اليحصبي، واسمه كاملاً: «الشفاء، بالتعريف بحقوق المصطفى».

(٧) البيتان في نفع الطيب (ج ١٠ ص ١٧ - ١٨).

(٨) افتر: ابتسم. مختار الصحاح (فرر).

إذا ما أصول المَرءِ طابت أرومة^(١) فلا عجب أن أشبهتها فروغها
بقيت لأعلام الزمان تزيلها هدى ولأحداث الخطوب تروغها

ومما امتزج فيه نثره ونظمه، وظهر فيه أدبه وعلمه، قوله يخاطبني جوابًا عن رسالة خاطبت بها الأولاد، وهم مع مولانا أيده الله بالمنتكب^(٢): [مخلع البسيط]

ما لي بِخَمَلِ الهوى يَدانٍ من بعد ما أعورَ التُداني
أصبحتُ أشكو إلى^(٣) زمانٍ ما يثُّ منه على أمانٍ
ما بالُ عَيْنِكَ تُسْجُمانٍ والدَّمْعُ يرفضُ كالْجُمانِ؟
نِدادك والإلفُ عَسَنَسِكَ وإنِ والبعدُ من بعده كواني؟^(٤)
يا شُقَّةَ^(٥) النفسِ، مِنْ هوانٍ لُجَجِ^(٦) في أَبْحَرِ الهوانِ
لم يَثْنِني^(٧) عن هواك ثانٍ يا بُغِيَةَ القلبِ^(٨) قد كفاني^(٩)

يا جانحة الأصيل، أين يذهب قرصك المذهب، وقد ضاق بالشوق المذهب.
أفست شمس الأنس محجوبة عن عيني، وقد ضرب البُعد الحجاب بينها وبينى.
وعلى كل حال، من إقامة وارتحال. فما مَحَلِّك من قلبي محلا بينها. وما كنت لأتفع
من وجهك تخيلاً وشبيهاً. ومن أين انتظمت لك عقول التشبيه وأتسقت، ومن بعض
المواقع والشمس لو قطعت. صادق مَنذُور، وأنت تتجمل بثوبي زور، وجيبُ الظلام
على دينارك حتى الصباح مَزُور، ووراءك من الغروب غريم لا يرحم، ومُطالب
تُثْقَل منه في كفه المطالب. ويا بَرِّق الغمام من أي حجاب تبتسم، وبأي صبح
تَرْتسم، وأي عُفْل من السحاب تيسم. أليست مباسم الثغور، لا تُنجد بأفقي ولا تغور؟
هذا وإن كانت مباسمك مُساعدة، والجو مُلبس لها من الوجوم شعارًا، فلطالما
ضَحِكْتَ فأبكت الغوادي، وعَقت الرائح والغادي. أعوذ بواشيم البروق، بنواسم الطُّفل
والشروق، ذوات الزائرات المتعددة الطُّروق، فهي التي قطعت وهاذا ونجادًا، واهتدت
بسيف الصباح من السحاب قُرابًا ومن البروق نجادًا، واهتدت خبر الذين أحبهم

(١) الأرومة: الأصل. لسان العرب (أرم).

(٢) الأبيات في أزهار الرياض (ج ٢ ص ١٠ - ١١).

(٣) في الأصل: «من» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من أزهار الرياض.

(٤) في الأصل: «كوان» والتصويب من أزهار الرياض.

(٥) في الأزهار: «يا شُقوة». (٦) في الأزهار: «لُجَجْتُ».

(٧) في الأصل: «لم يَثْنِ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من أزهار الرياض.

(٨) في الأصل: «القلوب» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من أزهار الرياض.

(٩) في الأصل: «كفان» والتصويب من أزهار الرياض.

مُسْتَظَرَفًا مُسْتَجَادًا، فعالها ولعلها، والله يَصِلُ في أرض الوجود نَهْلَهَا وَعُلْهَا، وأن يُبَلَّ ظَمِيعِ الشوق بنسيمها البليل، وأن نعوضه من نار الغليل، بنار الخليل، وخير طبيب يداوي الناس وهو عليل. فشكواي إلى الله لا أشكو إلى أحد. هل هو إلّا فرد تَسْطُو رِيَّاحُ الْأَشْوَاقِ عَلَى ذُبَالَتِهِ، وَعُمُرُ الشُّوقِ قَدْ شَبَّ عَلَى الطُّوقِ، وَوَهَبَ الْجَمْعُ لِلْفِرْقِ وَلَمْ يَقْنَعْ بِالْمَشَاهِدَةِ بِالْوَصْفِ دُونَ الذُّوقِ. وَقَلْبٌ تُقْسَمُ أَحْشَاؤُهُ الْوَجْدَ، وَقَسَمَ بِالْهَ الْغُورِ وَالْتَّجْدِ. وَهَمُومٌ مَنَى وَرَدَتْ قُلُوبُ الْقَلْبِ، لَمْ تَبْرَحْ وَلَمْ تُعَدْ، فَلِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ.

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ يَا سَيِّدِي الَّذِي يُوْقِدُ أَفْكَارِي حُلُوقَ لِقَائِهِ، وَأَتَنَسَّمُ أَرْوَاحَ الْقَبُولِ مِنْ تَلْقَائِهِ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُدِيمَ لِي آمَالِي بِدَوَامِ بَقَائِهِ. إِنْ بَعُدَ مَدَاهُ، قَرِبتُ مَنَّا يَدَاهُ، وَإِنْ أَخْطَأْنَا رِفْدَهُ أَضْيَيْنَا نَدَاهُ. فَثَمَرَاتُ آدَابِهِ الزُّهْرُ تَجِيءُ إِلَيْنَا، وَسَحَابُ بَنَانِهِ الْغُرُ تُصَوِّبُ دَوَالِينَا أَوْ عَلَيْنَا، عَلَى شَحْطِ هَوَاهُ، وَبُعْدِ مَنَتَوَاهُ. وَلَا كَرَسَالَةَ سَيِّدِي الَّذِي عَمَّتْ فُضَائِلُهُ وَخَصَّتْ، وَتَلَّتْ عَلَى أَوْلِيَاءِ نِعْمَتِهِ أَنْبَاءُ الْكَمَالِ وَقَصَّتْ، وَآيَ قَضَى كُلِّ مِنْهَا عَجَبًا، وَنَالَ مِنَ التِّمَاحِ غُرَّتُهَا وَاجْتِلَاءُ صَفْحَتِهَا أَرْبَابًا. فَلَقَدْ كَرُمْتُ عَنْهُ بِالِاشْتِرَاكِ فِي بُنُوْتِهِ الْكَرِيمَةِ نَسَبًا، وَوَصَلْتُ لِي بِالْعَنَايَةِ مِنْهُ سَبَبًا. تَوَلَّى سَيِّدِي خَيْرَكَ مِنْ يَتَوَلَّى خَيْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَيُجْزِلُ شُكْرَ الْمُتَعَمِّينَ. أَمَا مَا تَحَدَّثَ بِهِ مِنْ الْأَغْرَاضِ الْبَعِيدَةِ الْعَذِيبَةِ، وَأَخْبَرَ عَنْهُ مِنَ الْمَعَانِي الْفَرِيدَةِ الْعَجِيبَةِ، وَالْأَسَالِيبِ الْمُطِيلَةِ، فَيَعْبُزُ عَنْ وَصْفِهِ، وَإِحْكَامِ رَصْفِهِ، الْقَلَمُ وَاللِّسَانُ، وَيَعْتَرِفُ لَهَا بِالْإِبْدَاعِ الْمُسْتَوَلِيِّ عَلَى أَمَدِ الْإِحْسَانِ الْبَدِيعِ وَحُسْنَانِ. وَلَقَدْ أَجْهَدْتُ جِيَادَ الْارْتِجَالِ، فِي مَجَالِ الْاسْتَعْجَالِ، فَمَا سَمَحَتْ الْقَرِيحَةُ إِلَّا بِتَوَقُّعِ الْأَجَالِ، وَعَادَتْ مِنَ الْإِقْدَامِ إِلَى الْكَلَالِ. فَعَلِمْتُ أَنَّ تِلْكَ الرِّسَالَةَ الْكَرِيمَةَ، مِنَ الْحَقِّ الْوَاجِبِ عَلَى مَنْ قَرَأَهَا وَتَأَمَّلَهَا، أَنْ لَا يَجْرِي فِي لُجَّةٍ مِنْ مِيَادِينِهَا، وَيَدِيمُ يَرَاعُ سَيِّدِي الْإِحْسَانَ كَرِينَهَا، لَكِنْ عَلَى أَنْ يَفْسَحَ الرِّيَاضَ لِلْقَصِي مَدَى، وَيَقْتَنِدِي بِأَخْلَاقِ سَيِّدِي الَّتِي هِيَ ثُورٌ وَهْدَى، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ يَبْقِيهِ، وَيَقِيهِ مِمَّا يَتَّقِيهِ، بَعْدَ مَا أَعَادَ فِي شُكْوَى الْبَيْنِ وَأَبْدَى، وَتَظَلَّمَ مِنَ الْبَعْدِ وَاسْتَعْدَى، وَرَفَعَ حَكْمَ الْعِتَابِ عَنْ ذَرَاتِ النَّسِيمِ وَالْاِقْتِعَابِ، وَرَعَى وَسِيلَةَ ذِكْرِهَا فِي مُحْكَمِ الْكِتَابِ. وَوَلَّى فَضْلُهُ مَا تَوَلَّى، وَصَرَفَ هَوَاهُ إِلَى هَوَى الْمَوْلَى أَنْ صُورَ السَّعَادَةِ عَلَى رَأْيِهِ، أَيْدَهُ اللَّهُ تُجَلَّى، وَثَمَرَةُ فِكْرِهِ الْمَقْدَسِ، أَيْدَهُ اللَّهُ تَتَحَلَّى. شُكْرُ اللَّهِ لَهُ عَنْ جَمِيعِ نِعَمِهِ الَّتِي أَوْلَى، وَحَفِظَ عَلَيْهِ مَرَاتِبَ الْكَمَالِ الَّتِي هِيَ الْأَحَقُّ بِهَا وَالْأَوْلَى. وَقَدْ طَالَ الْكَلَامُ، وَجَمَعْتُ الْأَقْلَاحَ. وَلِسَيِّدِي وَبِرُكَّتِي الْفَضْلِ، أَبْقَى اللَّهُ بَرَكَتَهُ، وَأَعْلَى فِي الدَّارَيْنِ دَرَجَتَهُ، وَالسَّلَامَ الْكَرِيمَ يَخْضُكُمُ، مِنْ مَمْلُوكِكُمْ ابْنِ زَمْرَكُ، وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ، فِي الْخَامِسِ عَشَرَ لِحَمَادَى الْأُولَى عَامَ تِسْعَةِ وَسْتِينَ.

وخاطبني كذلك، وهو من الكلام المرسل: أبو معارفي، وولي نعمتي، ومعيد جاهي، ومقوم كمالتي، ومورد آمالي، ممن توالى نعمه عليّ، ويتوقر قسمه لدي؛ وأبوء له بالعجز، عن شكر أياديه التي أحيت الأمل، وملأت أكف الرغبة، وأنطقت الحداثق، فضلاً عن اللسان، وأياديه البيض وإن تعددت، وميثقه العميمة وإن تجددت، تقصر عن إقطاع أسمى شرف المجلس في الروض الممطور بيانه. فماذا أقول، فيمن صار مؤثراً إليّ بالتقديم، جالياً صورة تشريفي، بالانتساب إليه في أحسن التقويم...^(١) وإني ثالث اثنين أتشرف بخدمتها، وأسحب في أذيال نعمتها: [الطويل]

خليتي، هل أبصرتما أو سمعتما باكرم من تمشي إليه عبيد؟
اللهم، أوزعني شكر هذا المنعم، الذي أثقلت نعمه ظهر الشكر، وأنهضت كمال الحمد، اللهم أدم بجميع حياته، وأمتع بدوام بقائه الإسلام والعباد، وأمسك بيمن آرائه رَمَق ثغر الجهاد. يا أكرم مسؤول، وأعز ناصر. تفضل سيدي، والفضل عادته، بالتعريف بما يقر عين التطلع ويقنع غلة التشوف. ولقد كان الممالك لما مثلنا بين يدي مولانا، أيده الله، لم يقدم عملاً عن السؤال ولا عن الحال، إقامة لرسم الزيارة، وعملاً بالواجب، فلأنني أرى الديار بطرفي، فعلى أن أرى الديار بعيني، وعلى ذلك يكون العمل إن شاء الله. وإن سألت سيدي شكر الله احتفاءه، وأبقى اهتمامه، عن حال الممالك، من تعب السفر، وكد الطريق، فهي بحمد الله دون ما يظن. فقد وصلنا المُنْكَب تحت الحفظ والكلاءة، مُخرزين شرف المساوقة، لمواكب المولى، يَمَن الله وجهته، وكتب عِصْمته، واستقر جميعنا بمحل القُصبة، وتاج أهبتها، ومهب رِيّاح أجراتها، تحت النعم الثرة، والأنس الكامل الشامل. قَرَب الله أمد لقائكم، وطلع على ما يسر من تلقائكم. ولما بلغنا هذه الطيبة، وأنحنا المطيبة، قمنا بواجب تعريفكم على الفور بالأدوار، ورفعنا مخاطبة المالك على الابتداء. والسلام.

مولده: في الرابع عشر من شوال ثلاثة وثلاثين وسبعمائة.

انتهى السفر السادس هنا، والحمد لله رب العالمين

(١) يباض في الأصل.

ومن السفر السابع المُفْتَح بقوله
ومن الطارئين منهم في هذا الباب
محمد بن أحمد بن محمد بن أبي خيشمة الجبائي
سكن غرناطة، يكنى أبا الحسن.

حاله: كان مبرزًا في علوم اللسان نحوًا ولغةً وأدبًا، متقدمًا في الكتابة
والفصاحة، جامعًا فنون الفضائل، على غفلة كانت فيه.
مشيخته: روى عن أبي الحسن بن سهل، وأبي بكر بن سابق، وأبي
الحسن بن الباذش، وأبي علي الغساني وغيرهم. وصحب أبا الحسن بن سراج صحبة
مواخاة.

توابعه: صنف في شرح غريب البخاري مصنفًا مفيدًا.
وفاته: توفي ليلة الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة أربعين وخمسمائة.

محمد بن أحمد بن عبد الله بن أحمد الإستنجي الحميري
من أهل مالقة، وأصله من إستجة، انتقل سلفه إلى مالقة، يكنى أبا عبد الله.
حاله: كان من جملة حَمَلَة العلم، والغالب عليه الأدب، وكان من أهل
الجلالة، ومن بيت علم ودين. أقرأ ببلده، وقعد بالجامع الكبير منه، يتكلم على
صحيح البخاري، وانتقل في آخر عمره إلى غرناطة.

وقال الأستاذ^(١): كان من أبرع أهل زمانه في الأدب نظمًا ونثرًا.
شعره: منقولاً من خط الوزير الراوية أبي محمد عبد المنعم بن سيماك، وقد
ذكر أشياخه فقال: الشيخ المتفنن الأديب، البارع، الشاعر المُفْلِق، قرأ على أشياخها،
وأقرأ وهو دون العشرين سنة. وكانت بينه وبين الأستاذ المقرئ الشهير أبي العباس،
الملقب بالوزعي، قرابة، وله قصيدة أولها: [الكامل]

ما للنسيم لدى الأصيل عليلا

ومنها:

حتى النسيم إذا ألم بأرضهم خلعوا عليه رقةً ونحولاً

(١) هو ابن الزبير، صاحب كتاب «صلة الصلة».

وكان يقول: كان الأستاذ أبو العباس يستعيدني هذا البيت ويقول: نعم أنت قريبي. وقدم على غرناطة، أظن سنة تسع وثلاثين ومستمائة.

محبته: قال الأستاذ: جرى له قصة، نُقل بعض كلامه فيها، على بعض أحاديث الكتاب من جهة استشهاد أدبي عليه فيها، غالب أدبه، فأطلق عنان الكلام، وما أكثر مما يطاق فيما يأنفه إدراكات تلك الأفهام، ولكل مقام مقال، ومن الذي يسلم من قيل وقال. وكان ذلك سبب الانقطاع، ولم يؤت من قصر باع، وانتقل إلى غرناطة، فتوفي في أثر انقطاعه وانتقاله.

شعره: من ذلك قوله في غرض يظهر من الأبيات: [الطويل]

قضوا في ربي نجد ففي القلب مرساه	وغثوا إن أبصرتم ^(١) ثم مغناه
أما هذه نجد أما ذلك الجمي؟	فهل عميت عيناه أم صم ^(٢) أذناه؟
دعوه يؤقي ذكره باتشامه	ديون هواه قبل أن يتوقاه
ولا تسألوه سلوة فمن العنا	رياضة من قد شاب في الحب فوداه ^(٣)
أيخسب من أضلى فؤادي بحبه	بأني ^(٤) أسألو عنه، حاشاه حاشاه؟
متى غدر الضب الكريم وفي ^(٥) له	وإن أتلّف القلب الحزين تلافاه
وإن حجروا معناه وصرّحوا به	فلان معناه أحق بمعناه
ويا سابقا عيس الغرام سيوفه	وكل إذا يخشاه في الحب يخشاه
أرخها فقد ذابت من الوجد والسرى	ولم يبق إلا عظمها أو بقاياها
ويا صاحبي عجب بي على الخيف ^(٦) من منى	وما لتعني ^(٧) لي بأني ألقاه
وعرج على وادي العقيق لعلمي	أسائل عمّن كان بالأمس مأواه
وقل لليالي قد سلفن بعيشه	وعمرّ على رغم العذول قطغناه
هل العود أرجوه أم العمر ينقضي	فأقضي ولا يقضى الذي أتمناه؟

(١) في الأصل: «إن أبصرتهم» وهكذا ينكسر الوزن، لذلك جعلنا همزة القطع همزة وصل.

(٢) في الأصل: «صمّث» وكذا ينكسر الوزن.

(٣) الفؤد: معظم شعر الرأس مما يلي الأذن. محيط المحيط (فود).

(٤) في الأصل: «أني أسألو...» وكذا ينكسر الوزن.

(٥) في الأصل: «وفي» بتشديد الفاء، وكذا ينكسر الوزن.

(٦) الخيف: ما انحدر عن غلظ الجبل. محيط المحيط (خيف).

(٧) في الأصل: «وما تعني لي من بأني ألقاه» وكذا لا يستقر الوزن والمعنى معاً.

ومن شعره أيضًا، قوله، رحمه الله: [الطويل]

سَرَّتْ مِنْ رَبِّي تَجْدِ مُعْطَرَةَ الرَّيَّا يَمُوتُ لَهَا قَلْبِي وَأَوْنَةُ يَخْيَا
تَمَسُّحُ أَعْطَافِ الْأَرَاكِ بَلِيلَةَ وَتَنْشُرُ كَافُورًا عَلَى التَّرْبَةِ اللَّمْيَا
وَتَرْتَدُّ^(١) فِي حِجْرِ الرِّيَاضِ مَرِيضَةً فَتُحْيِي بِطَيْبِ الْعُزْفِ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَخْيَا
وَيُشْرَى^(٢) بِأَنْفَاسِ الْأَحْيَةِ سُخْرَةً فَيَسْرِعُ دَمْعُ الْعَيْنِ فِي إِثْرِهَا جَزْيَا
سَقَى^(٣) اللَّهُ دَهْرًا ذِكْرَهُ بِنَعِيمِهِ فَكَمْ لَجَفُونِي عِنْدَ ذِكْرِهِ مِنْ سُقْيَا
نَأْنِي^(٤) مُحْيِيَاهِ الْأَنْيَقِ وَخُسْنُهُ وَمَنْ خُلِقِي قَدْ كُنْتُ لَا أَحْمِلُ النَّأْيَا
وَيْسِي رَشًا مِنْ أَهْلِ غَرْنَاطَةِ غَدَا يَجُودُ بِتَعْذِيبِي وَيَبْخُلُ بِاللُّقْيَا
رَمَانِي فَصَابِنِي^(٥) بِأَوَّلِ نَظْرَةٍ فَيَا عَجَبًا مِنْ عِلْمِ الرَّشَا الرُّمْيَا
وَيَدُدُ جِسْمِي نَوْرَهُ وَكَأَنَّهُ أَشْعَةُ شَمْسٍ قَابِلَتْ جَسَدِي مَلْيَا
تَصَوَّرَ لِي مِنْ عَالَمِ الْخُسْنِ خَالصًا فَمَنْ عَجِبَ أَنْ كَانَ مِنْ عَالَمِ الدُّنْيَا
وَهَمَّ بَأَنْ يَرْقَى إِلَى الْخُورِ جِسْمَهُ فَثَقُلَتْهُ كُتُبًا وَحَمَلَتْهُ حَلْيَا
إِذَا مَا انْثَنَى أَوْ لَاحَ أَوْ جَاحَ أَوْ رَنَا سَبَا الْقُضْبَ وَالْأَقْمَارَ وَالْمِسْكَ وَالضْيَا
رَعَى اللَّهُ دَهْرًا كَانَ يَنْشُرُ وَصَلَهُ بِرُودِ طَوَاهَا الْبَيْنِ فِي صَدْرِهِ طَيَّا

مشيخته: ومما يشتمل على أسماء شيوخه، ويدلّ على تبخّره في الأدب ورسوخه، إجازته أبا الوليد إسماعيل بن تبر الأيادي، وعندها يقال: أتى الوادي: [الخفيف]

إِنَّ لِي عِنْدَ كُلِّ نَفْحَةٍ بَسْتَا نِ مِنْ الْوَرْدِ أَوْ مِنْ الْيَاسْمِينَا
نَظْرَةً وَالتَّفَاتَةَ أَتَمْنَى أَنْ تَكُونِي حَلَلَتْ فِيمَا تَلِينَا

ما هذه الأنوار اللاتحة، والثوار الفاتحة، إني لأجد ريح الحكمة، ولا مُقْنَد، وأرد مورد النعمة، ولا مُنْكَد، أمْسُكُ دَارِينَ يُنْهَبُ، أم المُنْدَل الرطب في الغرام المُلهَب، أم نَفَحَتْ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ ففَاحَ نَسِيمُهَا، وتوضّحت أسباب المِئَةِ فَلَاحَ

(١) في الأصل: «ومرتد». (٢) في الأصل: «وبشرت».

(٣) في الأصل: «سقني» وهكذا ينكسر الوزن.

(٤) في الأصل: «ملني». ونأني محيّا: بعد عني.

(٥) في الأصل: «فأصابني» وهكذا ينكسر الوزن.

وسيمها: [الطويل]

مُحيّاك أم نور الصباح تبسّما وريّاك أم نور الأفاحي^(١) تنسّما
فمن شمّ من ذا نفحة رقى شيمه ومن شام من ذا لمحة راق مَبسّما؟

أجل خلق الإنسان من عَجَل. قال رسول الله ﷺ: لتفهموا أسرار الحكيم وتعووا، وإذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا، يعني مجالس الذكر، ومأنس النظر والفكر، ومطالع المناظرة، ومواضع المحاضرة، فهذه بتلك، وقد انتظمت الجواهر النبوية في سلك، ولهان جمى للعطارة وطيس، بين منك المداد وكافور القراطيس. فيا أيها المعلم الأوحى، والعالم الذي لا تنكر أمامته ولا تُجحد، حوّمت على علم الملوك، ولزمت بحلم طريق الحكم المسلوك، فلم تعد أمل الحكماء، ولم تُعد إلا بعمل العلماء، وقد قال حكيمهم الفاضل، وعظيمهم الذي لا مُناظر له ولا مُفاضل: إذا خدمت الأمراء فكن بين استلطاف واستعطاف، تُجنّ المعارف والعوارف دانية القُطاف، فتعلمهم وكأنك تتعلم منهم، وترويهم وكأنك تروي عنهم، فأجريت الباب، وامتريت من العلم اللباب، ثم لم تُبعد، فقد فعل النحويون ذلك في يكرّم، ويَعِد، ويَعِزُّ، ولا غرو أن تقرأ على من هو دونك، وتُسّجيز الإجازة عن القوم العظام يقصدونك. فهذا رسول الله ﷺ، قد أمره الله بأن يقرأ على أبي بن كعب، فهل في حيّ الخواطر الذكية من حيّ؟ فقال له، رضي الله عنه: الله أمرك أن تقرأ عليّ، والعناية الربانية تُنادي إليّ، وإذا قال لي: من أحبّ مولاي، واستعار لزيته حُلّاي:

فما على الحبيب من اعتراض وللطبيب تصرف في المراض^(٢)
قد يزحل المرء لمطلوبه والسبب المطلوب في الرّاحل^(٣)

عجّت متواضعًا، فما أبرمت في معاجك، ولا ظلمت في السؤال نعيته إلى معاجك، فإنه سرُّ الله، لا يحلُّ فيه الإفشاء، وحكمة الله البالغة، والله يؤتي الحكمة من يشاء، وإن لبست من التواضع شعارًا، ولبست عن الترفع تنبيهاً على السر المكتوم وإشعارًا، فهذه الثريا من العجائب إذا ارتفعت في أعلى صعودها، وأسمى راياتها الخافقة وينودها، نهاية وجودها الحسّي عدم، وغاية وظيفها الشبهي أن تُشبهه بقدم، فإذا همّت بالركوع، وشمّت في المغرب ريح الوقوع، كان لها من السمو القذح

(١) في الأصل: «الأفاح».

(٢) المراض: جمع مريض وهو ذو المرض. محيط المحيط (مرض).

(٣) هذا البيت على البحر السريع.

المُعَلَّى، وعادت قرطاً تتزيّن به الآذان وتتحلّى:

وفي الشرق كأسٌ وفي مغاربها قِرْطٌ وفي وسط السماء قَدَمٌ

هذه آثار التواضع مَثْلُوَّة السُّور، مجلُوَّة الصُّور، وكان بعضهم إذا أعطى الصدقة، يعطيها ويده تحت يد السائل، وهكذا تُفهم المسائل. فإنه لما سَمِع النبوة تقول: اليد العليا خير من اليد السفلى، أراد أن يؤثر المقام الأعلى. ولما أعطى أبو بكر، رضي الله عنه، ماله كله، أعطى عُمر، رضي الله عنه، النصف من المال، لا احتياطاً على ماله، ولكن ليقف لأبي بكر في مقام القصور عن كماله، تَفْوِيضاً وتسليماً، وتنبهها لمن كان له قَلْب وتعليماً. ورؤي الدراقطني، رحمه الله عليه، يحبس أباه بركابه، فلا يُنكر عليه، فقليل له في ذلك، فقال: رأيت يبادر إلى فضيلة، فكرهت مخالفته: [البسيط]

فوق السماء وفوق الزُّهر ما طلبوا وهُم إذا^(١) ما أرادوا غايةً نزلوا

وإلى هذا وصل الله حِفْظَكَ، وأجزك من الخيرات حَظُّكَ، فإنه وصلتني الكُرَاسَة المباركة، الدَّالَّة على التفنن في العلوم والمشاركة، فبينما أنا أتلو الإجازة، وأرى صدور البيان وإعجازه، أُلقي إليّ كتاب كريم، إنه من أبي الوليد، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، فحِزْتُ، ووقفت كأنني سُحِرْتُ، وقلت: ساحران تظاهرا معاً، وأحدهما قاتلي، فكيف إذا اجتماعاً: [الطويل]

فلو كان رُمَحًا واحدًا لأثقيته ولكنّه رمحٌ وثان وثالثٌ

ومن لَعِبْتُ بشيمته المثنائي فأخري أن تطير به المثلث^(٢)

وطار بي الشوق كلّ مطار، وقرأت سماء فكرتي سورة الانفطار، وكذت أصدع إلى السماء توقُّدًا، واختلط بالهواء تودُّدًا: [الكامل]

كانت جواهرنا أوائل قبل ذان فالآن صارت بالتحول ثوانٌ

وُجدت وراء الحسن وهي كثيفة فوجودهن الآن في الأذهان

ولم يكف أن بُهرت بالحُسن الخُلوب، حتى أمرت أن أنظم على ذاك الأسلوب، وبالحريّ لذلك النثر البديع، الحريريّ أو البديع، ولذلك النظم العجيب، المُتنبّي أو حبيب، ولذلك التصوف الرقيق، الحارث بن أسد ذي التحقيق. وأما الحديث، فما لك تقطع تلك المسالك، إلّا أن العربية ليس لأحد معه فيها دليل،

(١) في الأصل: «وإذا» وكذا ينكسر الوزن. (٢) هذا البيت على البحر الوافر.

أستغفر الله إلا للخليل، لكن أصول الدين مجرّية، تركت تلك الميادين. هناك الله
 جَمَعَ كل مَنْقَبَة جليّة، فترى الفضيلة لا تردّ فضيلة، فمر الرديف وقد رَكِبَ غضنفرًا،
 أو المُدَّعي صفة فضل، وكلّ الصَّيد في جوف الفَرَا^(١). من يُزحم البحر يغرق، ومن
 يُطعم الشجر يَشْرُق. وهل يُبارى التوحيد بعمل، أو يُجارى البراق بجمل؟ ذلك انتهى
 إلى سِدْرَة المنتهى، وهل انبرى ليلطم خذّه في الثرى؟ لا تقاس الملائكة بالحدادين،
 ولا حُكماء يونان بالفدادين. أفي طريق الكواكب يُسلك، وعلى الفلك الأثير
 يُستملك؟ أين الغد من الأمس، وظلمة الغسق من وضّح الشمس؟ ولولا ثقتي بغمام
 فضلك الضيّب، لتمثلت لنفسي بقول أبي الطيب^(٢): [الطويل]

إذا شاء أن يُلْهُو بِإِخِيَةِ أَخْمَقٍ أراه غُبَارِي ثُمَّ قَالَ لَهُ الْخَقِ^(٣)

فإن رضيت أيها العلم، فما لجرح إذا أرضاكم. ألم تر كيف أجاري أغوج
 بمغرب أفوج وأجاري ذا العقال بجحش في عقال؟ ظهر بهذه الظلمة، ذلك الضياء،
 وبضدّها تتبين الأشياء. وما يزكو بياض العاج حتى يُضاف إلى سواد الأبنوس. الفاظ
 تذوب رقة، وأغراض تملك حبّ الكريم ورقّة الزهر، والزهر بين بنان وبيان، والدرّ
 طرّع لسان وإحسان: [الوافر]

وقالوا ذاك سحرٌ بـ«أهلي»^(٤) فقلتُ وفي مكان الهاءِ باءٌ

وأما محاسن أبي الوليد، فيقصر عنها أبو تمام وابن الوليد: [المتقارب]

معانٍ لِبِسْنِ ثيابِ الجمال وهزّت لها الغانيات القُدودا
 كَسَنُونِ عَبِيدًا ثيابَ عَبيد وأضحى لبيدٌ لديها بليدا

وكيف أعجب من إجرائك لهذه الجياد، وأياديك من إياد؟ أورثت هذه البراعة
 المساعدة، عن قَسْ بن ساعدة؟ أجذك أنت الذي وصف رسول الله ﷺ، فقال: كاني
 أنظر إليه في سوق عكاظ على جَمَلٍ أَوْزَقٍ، وهو يقول أيها الناس: مطرٌ ونبات، وآباء
 وأمّهات، إلى قوله: [مجزوء الكامل]

في الذاهبين الأولي من من القرون لنا بصائر

(١) قوله: «كلّ الصَّيد في جوف الفَرَا» مثل يضرب لمن يُفَضِّل على أقرانه. والفَرَا: الحمار
 الوحشي، وجمعه فَرَاء. مجمع الأمثال (ج ٢ ص ١٣٦).

(٢) هو بيت من قصيدة مؤلفة من ٤٣ بيتًا، وهو في ديوان المتنبي (ص ٣٦٢).

(٣) يقول: إذا أراد سيف الدولة أن يسخر بأحق من الشعراء أراه أثر المتنبي، ثم أمره أن يلحق به،
 لأنه لا يقدر على ذلك. والغبار واللاحاق استعارة من سباق الخيل.

(٤) في الأصل: «بأهلي».

لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدَ لَلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ

أَيْقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَا لَهَا حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ

إيه بغير تمويه . رجع الحديث الأول إلى ما عليه الْمُعَوَّل . سألتني، أيها السيد الذي يجب إسعافه، أن أرغم أَنفَ القلم حتى يجري رُعافه، وأن أَكْخُلْ جُفُونِ الأوراق بمداد الأَقْلَامِ، وأن أجمع الطُّرُوس والأَمِدَّة^(١)، بين إصباح وإظلام، وأطرز بياض السُّوسن بخضرة الآس، وأبرز العلم الأبيض تحت راية بني العباس، فقلت مبادرًا مُمَثِّلًا، وَجُلْتُ في ميدان الموافقة متمثلاً: [البسيط]

لُبَيْكَ لُبَيْكَ أَضْعَافًا مَضَاعِفَةً إِنِّي أَجَبْتُ وَلَكِنْ دَاعِيَ الْكَرَمِ

أَتَى مِنَ الْمَجْدِ أَمْرٌ لَا مَرَدَّ لَهُ أَمْشِي عَلَى الرَّأْسِ فِيهِ لَا عَلَى الْقَدَمِ

دعاء والله مُجَاب؛ ونداء ليس دونه جِجَاب: [المقارب]

كُتِبَتْ وَلَوْ أَنِّي أَسْتَطِيع لِأَجَلَالِ قَدْرِكَ بَيْنَ الْبَشَرِ

قَدْذْتُ الْبَرَاعَةَ مِنْ أُنْمَلِي كَانَ^(٢) الْمِدَادُ سَوَادَ الْبَصَرِ

نعم أَجَزْتُ، سيدي الفقيه الأجل، الخطيب الأكرم، العالم العَلَم، الأوحد الأكمل، الحسيب الأخفل الأطول، أبا الوليد بن الفقيه الأجل، المعظم الموقر، المكرم المبارك الأظهر، المرحوم أبي زكريا يحيى بن سعيد بن قنري الأيادي القَرْمُونِي، ونبيه السادات النجباء المباركين، أبا القاسم أحمد، وأبا إسحق إبراهيم، وأبا الحسين بتزيا. ونعمت الأغصان والشجرة، والأقنان والثمرة، أقر الله بهم أغْنِ الْمَجْد، ولا زالوا بدورًا في مطالع السُّعْد، ولا برحوا في مكارم يعجنون نُورَهَا، وَيَجْتَلُونَ أَنْوَارَهَا، وتفيض عليهم يد العناية الإلهية، نهرها الكَوْثَرِي ونهارها، جميع ما رويته قراءة وسماعًا، وإجازة ومناولة، من العلوم على اختلافها، وتباين أصنافها، بأي وجه رويته، وعلى أي وصف تقلدته ودريته، وكذلك أَجَزْتُهُمْ جميع ما قلته وأقوله، من مَسْطُور ومَرْسُوم، ومنثور ومنظوم، وتصرفت فيه من منقول ومفهوم، وقصائدي المسماة بالروحانيات، ومُعْشَرَاتِي الحبيبات، وما نظمته من الوَثَرِيَّات، وشرحي لشعر أبي الطيب المسمى بـ«ظهور الإعجاز بين الصدور والأعجاز»، وكتابي المسمى «شمس البيان في لَمْسِ الْبَنَانِ»، والزهرة الفاتحة في الزهرة اللاتحة، ونفع

(١) الطُّرُوس: جمع طَرْس وهو الصحيفة. والأَمِدَّة: سدى الغزل والمِسَاك في جانبي الثوب إذا ابتدء به، والمراد هنا: الحبر، مفردًا: مِدَاد. لأن العرب (طرس) و(مدد).

(٢) في الأصل: «وكان» وكذا ينكسر الوزن، لذا حذفت الواو.

الكمادات في شرح المقامات، واقتراح المتعلمين في اصطلاح المتكلمين، وكتاب التصور والتصديق، في التوطية لعلم التحقيق، ورّقم الحُلل، في نظم الجمل، ومفتاح الإحسان، في إصلاح اللسان. وما أنشأته من السلطانيات نظمًا ونثرًا، وخطابة وشعرًا. والله تعالى يجعل أعمالنا خالصة لوجهه بمئه وكرمه، فليقل الفقيه الأجل، وبنوه الأكرمون، رضي الله عنهم، أنبأنا وأخبرنا وحدثنا، أو ما شاءوا من ألفاظ الرواية، بعد تحري الشروط المرعية، في الإجازات الشرعية، وإن ذهبوا حفظ الله كمالهم، وأراهم في الدارين آمالهم، إلى تسمية من لي من المشايخ، قدس الله أرواحهم، وزحزح عن النار أشباحهم:

فمنهم الأستاذ الخطيب الكبير، العالم الفاضل الجليل، البقية الصالحة، آخر الأدباء، وخاتمة الفضلاء، أبو جعفر أحمد بن يحيى بن إبراهيم الحميري القرطبي الدار، رضي الله عنه. قرأت عليه بقرطبة شعر أبي الطيب قراءة فهم لمعانيه، وإعراب لألفاظه؛ وتحقيق للغة، وتنقيح عن بديعه. وكذلك قرأت عليه أكثر شعر أبي تمام. وسمعتُ عليه كتاب الكامل لأبي العباس المبرّد، ومقامات التميمي، كان يرويها عن منشئها، وكانت عنده بخط أبي الطاهر. وتفقهت عليه «تبصرة الضمري». وكان على شياخته، رحمه الله، ثابت الذهن، مقبل الخاطر، حافظ المعنى: [الوافر]

يسروع زكّانة ويذوب ظرفاً فما تدري أشيخ أم غلام

نأثيه بمقاطيع الشعر فيصلحها لنا. ويقف على ما نستحسنه منها، فنجده أثبت منّا، ولقد أنشدته يوماً، في فتى مفقود العين اليسرى: [الكامل]

لم تزو إحدى زهرتيه ولا انثنت عن نورها وبديع ما تحويه
لكنه قد رام يُغلق جفّنه ليصيب بالشهم الذي يرميه

فاستفادهما وحفظهما، ولم يزل، رحمه الله، يعيدهما مستحسنًا لهما، متى وقع ذكرى. وكان يروي عن الإمام المازري بالإجازة، وعن القاضي أبي مروان بن مسرة، وعن الأستاذ عباس، وعن أبي عبد الله بن أبي الخصال.

ومنهم الفقيه الأجل العالم العَدْل، المحدث الأكمل، المتفنن، الخطيب، القاضي أبو محمد بن حَوط الله. سمعت عليه كتبًا كثيرة بمالقة، بقراءة الفقيه الأستاذ أبي العباس بن غالب، ولقيته بقرطبة أيضًا، وهو قاضيهما. وحدثني عن جدّي، وعن جملة شيوخ، وله برنامج كبير، وأخوه القاضي الفاضل أبو سليمان أيضًا منهم.

ومنهم الفقيه الأجل، العالم العَلَم، الأوحد، النحوي، الأديب المتفنن، أبو علي عمر بن عبد المجيد الأزدي، قرأت عليه القرآن العزيز مفردات، وكتاب الجمل، والإيضاح، وسيبويه تفقها، وكذلك الأشعار السُّنة تفقها، وما زلت مواظبا له إلى أن توفي رحمه الله. وكان فريد عصره في الذكاء والزكا. ولم يكن في حلبة الأستاذ أبي زيد السُّهيلي أنجب منه على كثرتهم. وقد قال الأستاذ أبو القاسم السُّهيلي للإمام المنصور، رضي الله: هو أَقْعَدُ لكتاب سيبويه منا. وقال لي يوما، وقد نظر إلى طالب يُصغي بكلية إلى ثان، فقلت: ماذا؟ فقال: إِنَّ حُبَّ الشيء يعمي ويصم، فقلت له: ويعيد الصُّبح ليلاً مُدْلَهَم، فاستحسنه.

ومنهم الفقيه الأجل، الأديب الأريب الكامل، اللغوي الشهير، أبو علي ابن كسرى المَؤري، قريبي ومُعَلِّمي. وكان من طلبة أبي القاسم السُّهيلي، وممن نبغ صغيراً. وهو الذي أنشد في طفولته السيد أبا إسحق الكبير بإشيلية: [الكامل]

قسما بِحُمَصٍ^(١) وإنه لعظيمُ فُهَيَّ المقامُ وأنتَ إبراهيمُ

وكان بالحضرة الأستاذ أبو القاسم السُّهيلي، فقام عند إتمامه القصيدة، فقال: لمثل هذا كنت أخسيك الحساء، ولمثل هذا كنت أواصل في تعليمك الإصباح والإمسا. وقد أنشد هذا لأمير المؤمنين أبي يعقوب^(٢)، رضي الله عنه: [الطويل]

أعشَرُ أهلِ الأرضِ بالطولِ والعرضِ بهذا أنادي في القيامة والعرضِ
فقد قال الله فيك ما أنتَ أَفْلُهُ فيقضى بحكم الله فيك بلا نَقْصِ
فإياك يُغنى ذو الجلال بقوله كذلك مَكْنًا ليوسف في الأرضِ

ومنهم الفقيه الأجل، العالم المحدث، الحافظ الفاضل المؤثر، السيد أبو محمد القرطبي، قرأت عليه القرآن بالروايات مفردات، وتفقهت في الجمل والأشعار، وأجازني جميع ما رواه. وكذلك فعل كل واحد ممن تقدّم ذكره. وكان، رحمه الله، آخر الناس علماً ونزاهة وحسن خلق، وجمال سَفَت وأبهة ووقار، وإتقان وضبط، وجودة وحفظ.

(١) حمص هنا هي إشيلية، وقد سميت إشيلية بـحمص لشبهها بها.

(٢) هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الموحدي، وقد حكم المغرب والأندلس من سنة ٥٥٨ هـ إلى سنة ٥٨٠ هـ. ترجمته في البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٨٣، ١٣٠) والحلل الموشية (ص ١١٩).

ومنهم الفقيه الأجل، الحاج الفاضل، الشهيد في كائنة العقاب^(١)، المحدث الورع، الزاهد الطاهر، أبو عبد الله بن حسين بن صاحب الصلاة الأنصاري، وعليه كان ابتدائي للقراءة، وكان مبارك التعليم، حسن التفهيم، شديد التواضع.

ومنهم الفقيه الأجل الفاضل الورع، المحدث، الحاج المُلهم، المجاب الدعوة، الميمون النقيبة، الأواب، أبو الحجاج بن الشيخ، رضي الله عنه. وهذا الكتاب على الإطالة مني، ولكن القرطاس فَنِي، والسلام الأتم عليكم، ورحمة الله وبركاته. قال ذلك، وكتبه العبد المعترف بذنبه، الراجي رحمة ربّه، محمد بن عبد الله الحميري ثم الإستيجي، في أواسط شعبان المكرم من عام أحد وأربعين وستمائة.

وفاته: من خطّ الوزير أبي محمد عبد المنعم بن سماك، قال: قَدِمَ غرناطة، أظنّ سنة تسع وثلاثين وستمائة، وشكى علة البطن مدة ثمانية أشهر بدار أبي، رحمه الله، مرّضناه الثلاثة الأخوة، إلى أن توفي، رحمه الله، ودفن بمدفنه، مَغْنَى الأدب، بروضة الفقيه أبي الحسن سهل بن مالك.

محمد بن أحمد بن علي الهواري^(٢)

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن جابر، من أهل المرية.

حاله: رجل^(٣) كفيف البصر، مدلّ على الشعر، عظيم الكفاية والمِنة على زَمَانَتِهِ^(٤). رحل إلى المشرق، وتظافر^(٥) برجل من أصحابنا يعرف بأبي جعفر الإلبيري، صاراً رُوحين في جسد، ووقع الشعر منهما بين لُخَيّ أسد، وشُمراً^(٦) للكُذبة، فكان وظيف الكفيف النّظم، ووظيف^(٧) البصير الكُتب، وانقطع الآن

(١) كانت وقعة العقاب في منتصف شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ، بين الناصر أبي عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف الموحد و جيوش قشتالة بقيادة ألفونسو الثامن، وكانت الهزيمة فيها للمسلمين، فكانت السبب في هلاك الأندلس. البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٢٦٣) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٤٩).

(٢) ترجمة ابن جابر الهواري في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٥٥).

(٣) النص في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٥٥).

(٤) الزمّانة: العاهة الدائمة. لسان العرب (زمن).

(٥) في النفح: «وتظاهر».

(٦) في النفح: «وشُمّر للعلم وطلبه، فكان وظيفة الكفيف...».

(٧) في النفح: «ووظيفة».

خبرهما. وجرى ذكره في الإكليل بما نصه^(١): محسوب من طلبتها الجلة، ومعدود فيمن طلع بأفقه من الأهلة، رحل إلى المشرق، وقد أصيب ببصره، واستهان في جنب الاستفادة^(٢) بمشقة سفره، على بيان عذره، ووضوح ضرره.

شعره: وشعره كثير، فمته قوله^(٣): [الطويل]

سلو مسر^(٤) ذاك الخال في صفحة الخد
ومن هز^(٥) غصن القد منها لفتنتي
ومن متع^(٦) القضب اللدان بوصلها^(٧)
فتاة تفت القلب مني بمقلة
تمثيت أن تهدي إلي نهودها
فقلت وللرمان^(٨) بد من الجنى
فقلت ليس القلب عندك حاصلًا^(٩)
وقلت^(١٠) اجعليني من عبيدك في الهوى
إذا شئت أن أرضاك عبدا فمت جوى^(١١)
ألم تر النخل يحمل ضرها
كذلك بذل النفيس سهل لذي النهى
ألسن ترى كف ابن جانة طالما^(١٢)

متى رَقُمُوا بالمِسْكِ في ناعم الورد
وأودعه رُمَائِي ذلك الشهد
إلى أن أعز^(١٣) الحسن من ذلك القد
له رقة الغزلان في سطوة الأسد
فقالَت رأيت البذر يُهداه أو يُهدي
فتاهت وقالت باللواحق لا الأيدي
فقالَت^(١٤) قلوب الناس كلهم عندي
فقالَت كفاني كم لعُسنِي من عبدي
ولا تشكي^(١٥) واضبر على ألم الصد
لأجل الذي تجنيه من خالص الشهد؟
لما يكسب الإنسان من شرف الحمد
أضاع كريم المال في طلب المجد

(١) النص في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٥٦).

(٢) في النفح: «الإفادة».

(٣) القصيدة في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٥٦ - ١٥٧).

(٤) في النفح: «حسن».

(٥) في الأصل: «ومز متي» ولا معنى له، وقد صوبناه من النفح.

(٦) في النفح: «بوصفها».

(٧) في الأصل: «أعز» ولا معنى له، والتصويب من النفح.

(٨) في النفح: «الرمان».

(٩) في الأصل: «فقلت ليس للقلب عندك حاصل» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.

(١٠) في الأصل: «وقالت» والتصويب من النفح. (١٢) في النفح: «فقلت».

(١٣) في الأصل: «قوى» والتصويب من النفح.

(١٤) في الأصل: «ولا تشكي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.

(١٥) في الأصل: «... ترى أزجاته طالما» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.

ومن شعره أيضا قوله^(١): [الكامل]

عَرَّجْ عَلَى بَانَ الْعُذَيْبِ وَنَادِ
وَإِذَا مَرَزْتَ عَلَى الْمَنَازِلِ بِالْجَمَى
إِيهِ فَدِيثُكَ يَا نُسَيْمَةً خَبْرِي
يَا سَعْدُ، قَدْ بَانَ الْعُذَيْبُ وَبَانَهُ
خُذْ فِي الْبِشَارَةِ مُنْهَجْتِي يَوْمًا إِذَا
قَدْ صَحَّ عَيْدِي يَوْمَ أَبْصِرُ حُسْنَهَا

وَأَنْشُدْ فَدِيثُكَ أَيْنَ^(٢) حَلْ فَوَادِي
فَأُشْرَحْ هُنَالِكَ لَوَعْتِي وَشُهَادِي
أَرْبَ^(٣) الْأَحْبَةِ وَالْجَمَى وَالْوَادِي
فَانْزِلْ فَدِيثُكَ قَدْ بَدَا إِسْعَادِي
بَانَ الْعُذَيْبُ وَنُورُ حُسْنِ سَعَادِ^(٤)
وَكَذَا الْهَلَالُ عَلَامَةُ الْأَعْيَادِ

ومما نقلناه من خبر قيده لصاحبنا الفقيه الأستاذ أبي علي منصور الزواوي، ومما أدعاه لنفسه^(٥): [الوافر]

عَلَيَّ لِكُلِّ ذِي كَرَمٍ ذِمَامٌ
وَأُخَسِّنُ مَا لَدَيَّ لِقَاءَ خَرٍّ
وَلَإِنِّي حِينَ أَنْسَبُ مِنْ أَنْاسٍ
يَمِيلُ بِهِمْ إِلَى الْمَجْدِ ارْتِيَاخٌ
هُمْ لَبَسُوا أَدِيمَ اللَّيْلِ^(١١) بُرْذَا
هُمْ جَعَلُوا مُتَوَّعَ الْعَيْسِ^(١٢) أَرْضَا
فَمَنْ كُلِّ الْبِلَادِ لَنَا ارْتِحَالٌ
وَحَوَّلَ مَوَارِدِ الْعُلْيَاءِ مِنْهَا^(١٤)
تَصِيبُ سَهَامُنَا غَرَضَ الْمَعَالِي

وَلِي بِمَدَارِكِ الْمَجْدِ اهْتِمَامٌ
وَصَحْبَةٌ^(٦) مَغْشَرٍ بِالْمَجْدِ هَامُوا^(٧)
عَلَى قِمَمِ النُّجُومِ لَهَا^(٨) مَقَامٌ
كَمَا مَالَتْ بِشَارِبِهَا الْمُدَامِ^(٩)
لِيُسْفَرَ مِنْ مَرَادِهِمْ^(١١) الظَّلَامُ
فَمَذْ عَزَمُوا الرُّحِيلَ فَقَدْ أَقَامُوا^(١٣)
وَفِي كُلِّ الْبِلَادِ لَنَا مُقَامٌ
لَنَا مَعَ كُلِّ ذِي شَرَفٍ زِحَامٌ
إِذَا ضَلَّتْ عَنِ الْغَوَاصِ^(١٥) السُّهَامُ

(١) الأبيات في نفع الطيب (ج ١٠ ص ١٥٧).

(٢) في الأصل: «إِنْ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٣) في النفع: «كَيْفَ».

(٤) في الأصل: «وَنُورُ حُسْنِ سَعَادِي»، وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٥) القصيدة في نفع الطيب (ج ١٠ ص ١٥٧ - ١٥٨).

(٦) في الأصل: «وَصَحْبَةٌ مَغْشَرٌ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٧) في الأصل: «هَامٌ» والتصويب من النفع. (٨) في النفع: «لَهُمْ».

(٩) في الأصل: «بِشَارَتِهَا الْمَرَامُ»، والتصويب من النفع.

(١٠) في الأصل: «الْقِيلُ» والتصويب من النفع. (١١) في النفع: «عَنْ أَدِيمِهِمْ».

(١٢) في الأصل: «الْعَيْشُ» والتصويب من النفع. (١٣) في الأصل: «أَقَامُ» والتصويب من النفع.

(١٤) في النفع: «مَنَا». (١٥) في النفع: «الْغَرَضُ».

وليس لنا من المجد اقتناعٌ
 نُنَزِّهَ عَرْضَنَا عَنْ كُلِّ لَوْمٍ
 وَنَبْذِلَ لَا نَقُولُ الْعَامَ مَاذَا
 إِذَا مَا الْمَحَلُّ عَمَّ بِلَادَ قَوْمٍ
 وَإِنْ حَضَرَ الْكِرَامَ فِي يَدِينَا
 وَفِينَا الْمُشْتَشَارَ بِكُلِّ عِلْمٍ
 فَمِيدَانُ الْكَلَامِ لَنَا مَدَاهُ
 كَلَّا الْأَمْرَيْنِ لَيْسَ لَهُ يَقُومُ
 يُرِيقُ دَمَ الْمَدَادِ بِكُلِّ طَرْسٍ
 وَكُتِبَ بِالْمُثَقِّفَةِ الْعَوَالِي
 إِذَا عَبَسَتْ وَجْوهَ الدَّهْرِ مَنَّا
 لَقَدْ عَلِمْتَ قُلُوبَ الرُّومِ أَنَّا
 وَلَيْسَ يُضِيرُنَا أَنَا قَلِيلُ
 إِذَا مَا الزَّايَةِ الْحَمْرَاءُ هُزَّتْ
 وَمَا أَحْمَرَّتْ سَدَى بِلَ مِنْ دِمَاءٍ
 تُظَلِّلُ مِنْ بَنِي نَصْرٍ مُلُوكًا
 فَكَمْ قَطَعُوا الدُّجَى فِي وَصَلِ مَجْدٍ
 أَبَا الْحِجَااجِ لَمْ تَأْتِ اللَّيَالِي
 وَلَا حَمَلَتْ ظُهُورَ الْخَيْلِ أَمْضَى
 وَأَتَى جِئْتُ مِنْ شَرْقٍ لَغْرِبٍ
 وَجُرَيْتِ الْمُلُوكِ وَكُلِّ شَخْصٍ
 فَلَمْ أَرِ مِثْلَكُمْ يَا آلَ نَصْرٍ
 وَمِنْهَا:

لَأَنْدَلِسَ بِكُمْ شَرَفٌ وَذِكْرٌ
 سَعَى صَوْبُ الْغَمَامِ بِلَادَ قَوْمٍ
 وَلَوْ أَنَّ النُّجُومَ لَنَا خِيَامٌ^(١)
 فَلَيْسَ يَشِينُ سُودَدُنَا مَلَامٌ
 سَوَاءٌ كَانَ خِصْبٌ أَوْ حُطَامٌ
 أَثْبَنَاهَا فَجَادَ بِنَا الْغَمَامُ
 مَلَاكُ أُمُورِهِمْ وَلَنَا الْكَلَامُ
 وَمِنَّا الْبَيْتُ وَالْبَطْلُ الْهَمَامُ
 وَمِيدَانُ الْحُرُوبِ بِنَا يُقَامُ
 سَوَانَا يَوْمَ نَازِلَةٍ تَمَامُ
 وَلَيْسَ سِوَى الْبِرَاعِ لَنَا سَهَامُ
 بِحَيْثُ الطُّرْسُ لَبَاتِ وَهَامُ
 إِلَيْهَا فَانْتَشَتْ وَلَهَا انْتِقَامُ
 أَنَاسٍ لَيْسَ يَغُوزُنَا مَرَامُ
 لَعَمْرُؤُا بَيْتُكَ مَا كَثُرَ الْكِرَامُ
 نَعَمْ فَهَنَّاكَ لِلْحَرْبِ اازْدِحَامُ
 لَيْسَ عَلَى جَوَانِبِهَا اانْسِجَامُ
 حَلَالُ النَّوْمِ عِنْدَهُمْ حَرَامُ
 وَكَمْ سَهَرُوا إِذَا مَا النَّاسُ نَامُوا^(٢)
 بِأَكْرَمِ مَنْكَ إِنْ عُذَّ الْكِرَامُ
 وَأَشْجَعِ مِنْهُ إِنْ هَزَّ الْحَسَامُ
 وَرُمْتُ بِي الزَّمَانِ كَمَا تُرَامُ
 تَحَدَّثُ عَنْ مَكَارِمِهِ الْأَنَامُ
 جَمَالُ الْخُلُقِ وَالْخُلُقِ الْعِظَامُ

(١) في الأصل: «قيام» والتصويب من النسخ.

(٢) في الأصل: «نام».

إليك بها مهذبة المعاني يُرينها ابتسام وانتظام
لها لجناب مجدكم انتظام طواف وفي أركان إسلام
نجزت وما كادت، وقد وطى الإبطاء صروحكم، وأعيا الإكثار حارثها
وسروجها، والله وليُّ التَّجاوز بفضلِهِ.

محمد بن أحمد بن الحداد الوادي آشي^(١)

يكنى أبا عبد الله.

حاله: شاعر^(٢) مُفلق، وأديب شهير، مُشار إليه في التعاليم، منقطع القرين منها
في الموسيقى، مضطلع بفكِّ المَعْمَى. سكن ألمرية، واشتهر بمدح رؤسائها من بني
صُمادح. وقال ابن بسام: كان^(٣) أبو عبد الله هذا شمسَ ظهيرة، وبخَرَ خَبرٍ وسيرة،
وديانِ تعاليم مشهورة، وَضَحَ في طريق المعارف وَضُوح الصُّبْح المُنْتَهَل، وَضَرَبَ
فيها بقَدَح ابن مُقْبَل^(٤)، إلى جلالَةِ مَقْطَع، وأصالَةِ مَنَزَع، ترى العَلَمَ ينمُّ على أشعاره،
ويَتَبَيَّن في منازعه وآثاره.

توآليفه: ديوان^(٥) شعر^(٦) كبير معروف. وله في العروض تصنيف^(٧)، مزج فيه
بين الأنحاء الموسيقية، والآراء الجليّة.

بعض أخباره: حَدَث^(٨) بعض المؤرخين منّا يدلّ على ظَرْفه أنه فقد
سَكَنًا^(٩) عزيزًا عليه، وأحوجت الحال^(١٠) إلى تكْلُف سَلْوة، فلَمّا حضر الندماء،
وكان قد رَصَد الخسوف بالقمر^(١١)، فلَمّا حَقَّق أنه قد^(١٢) ابتداءً، أخذ العود

(١) ترجمة ابن الحداد في مقدمة ديوان ابن الحداد الأندلسي، بقلمنا، وفيها ثبت بأسماء المصادر والمراجع التي ترجمت له.

(٢) النص في نفح الطيب (ج ٩ ص ٢٥٢).

(٣) النص في الذخيرة (ق ١ ص ٦٩١ - ٦٩٢) وممالك الأبصار (ج ١١، الورقة ٤٠١).

(٤) هو أبو كعب تميم بن أُنْبِي بن مُقْبَل؛ شاعر خنديد، كان من أوصاف العرب لِقْدَح، ولذلك يقال: قدح ابن مُقْبَل. توفي بعد ٣٧ هـ. الشعر والشعراء (ص ٣٦٦) وطبقات الشعراء (ص ٦١ والأعلام (ج ٢ ص ٨٧).

(٥) النص في نفح الطيب (ج ٩ ص ٢٥٢). (٦) في النفح: «شعره».

(٧) في النفح: «تصنيف مشهور مزج فيه من الألحان الموسيقية والآراء الخيلية».

(٨) النص في نفح الطيب (ج ٩ ص ٢٥٣).

(٩) السَّكَنُ: المرأة لأنها يُسَكَنُ إليها، والساكن. لسان العرب (سكن).

(١٠) في النفح: «الحاجة». (١١) في النفح: «القمر».

(١٢) كلمة «قد» ساقطة في النفح.

وغنى^(١): [المتقارب]

شقيقتك غيب في لحيده وتشرق يا بذر من بغده
فهلا خسفت وكان الخسوف^(٢) جداذا لبست على فقده؟

وجعل يرددها، ويخاطب البذر، فلم يتم ذلك إلا واعترضه الخسوف، وعظم من الحاضرين التعجب. قال^(٣): وكان مني في صباه بصبية من الروم، نصرانية، ذهبت بلبه وهواه، تسمى نورية، افتضح بها، وكثر نسيه.

شعره: قال في الغرض المذكور^(٤): [الطويل]

حديثك ما أخلى! فزيدي وحديثي عن الرشح الفرد الجمال المثلث
ولا تسامي ذكراه فالذكر مؤنسي وإن بعث الأشواق من كل مبعث
وبالله فأزقي خبل نفسي بقوله وفي عقد وجدي بالإعادة فانقشي^(٥)
أحقا وقد صرخت ما بي أنه تبسم كاللاهي، بنا، المتعبت
واقسم بالإنجيل إني شابت^(٦) وناهيك دمي من مجق محنت
ولا بُد من قصي على القس قصتي عساه مغيث المذنب المتعوث
ولم^(٧) يأتهم عيسى بدين قساوة فيفسو على بئي^(٨) ويلهو بمكرث
وقلبي من حلي التجلد عاطل هوى في غزال الواديين المرعث^(٩)
سيضبح ميري كالصباح^(١٠) مشهرا ونفسي حديثي غرصة المتحدث
ويغري بذكري بين كأس وروضة ويشدو^(١١) بشعري فوق مثني ومثلث

(١) البيتان في ديوان ابن الحداد الأندلسي (ص ٢١٧).

(٢) رواية صدر البيت في الديوان هي: فهلا خسفت وكان الخسوف.

(٣) القول لابن بسام وهو في الذخيرة (ق ١ ص ٦٩٣) ولكن ببعض اختلاف عما هنا. كذلك ورد

النص في مسالك الأبصار، (ج ١١، الورقة ٤٠١).

(٤) القصيدة في ديوان ابن الحداد الأندلسي (ص ١٦٩ - ١٧٢).

(٥) في الأصل: «فانبعث» والتصويب من الديوان.

(٦) في الديوان: «لما نزل».

(٧) في الديوان: «فلم».

(٨) في الديوان: «مضى».

(٩) في الديوان: «غزال ذي تقار مرعث».

(١٠) في الأصل: «كالصبح» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(١١) في الديوان: «ويشد بشعري بين مثني...».

ومن شعره في الأمداح الصمادية^(١): [الطويل]

لعلك بالوادي المقدس شاطيء
وانني في ريتاك واجد ربحهم^(٢)
ولي في الشرى من نارهم ومنارهم
لذلك ما حثت ركابي^(٣) وحممحت
فهل حاجها ما حاجني؟ أو لعلها
زويدا فذا وادي لبيني وانه
ميادين تهيامي ومسرح ناظري
ولا تحسبوا غيدا حممتها مقاصر
ومنها:

محا ملة السلوان مبعث حسنه
فكيف ارفي كلم طرقيك في الحشا
وما لي لا اسمو مرادا وهممة
وما اخرتني عن تناء مباديء
ولكنه الدهر المناقض فغله
كان زماني إذ راني جذيلة
فداريت اغتابا ودارأت عاتبا
فالقيت اعباء الزمان وأهله
ولازمت سمت الصمت لا عن فدامة^(٤)
ولولا علا الملك ابن مغي محمد
لآلى إلا أن فكري غائص

فكل إلى دين الصبابة صابيء
وليس لتمزيق المهند رافيء؟
وقد كرمت نفس وطابت ضاضىء؟
ولا قصرت بي عن تباة مناشيء
فذر الفضل منخط وذو النقص ناميء
يلابسني منه^(٥) عدو ممالىء
ولم يغنني أني مدار مداريء
فما أنا إلا بالحقائق عابيء
فلي منطق للسمع والقلب صابيء^(٦)
لما برحت أصدافهن اللآلىء
وعلمي ذو ماء^(٧) ونطقني شاطيء

(١) القصيدة في ديوان ابن الحلال الأندلسي (ص ١٤١ - ١٤٩).

(٢) في الديوان: «فكالعبر الهندي ما أنا واطيء».

(٣) في الأصل: «... واجد عزف ربحهم»، وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(٤) في الأصل: «ركابي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(٥) في الديوان: «به».

(٦) في الديوان: «قلاني فلي منه».

(٧) في الأصل: «مدامة» والتصويب من الديوان. وقلة الفهم والفتنة.

(٨) في الديوان: «مالي».

(٩) في الديوان: «دأماء».

تجاوزَ حَدَّ الوَهْمِ واللَّخِظِ والمُنَى
فتنعكس الأَبصارُ^(١) وهي خَوَاسِرُ
وقال من أخرى^(٢): [الكامل]

أَقْبَلَنَ فِي الجِبَرَاتِ يَفْصِرُنَ الخُطَا
مِزْبُ الجَوَى لَا الجَوَّ عَوْدَ حُسْنُهُ
مَالَتْ معَاطِفُهُنَّ مِنْ سُكْرِ الصَّبَا
وَيَمَسَّقُطِ العَلَمِينَ أَوْضَحُ مَعْلَمِ
مَا أَخْجَلَ البَذَرَ المَنِيرَ إِذَا مَشَى
ومنها في المدح:

يَا وَاغْدِي شَرْقِي البِلَادِ وَغَرْبِيهَا
وَرَأَيْتُمَا مَلِكَ البَرِّيَّةِ فَاغْنَا
يُذْمِي نُحُورَ الدَّارِعِينَ إِذَا ارْتَأَى
وَأَحْسَانَهُ كَثِيرَ دَخَلَ غِرْنَاطَةَ، وَمِنْ بَنَاتِ عَمَلِهَا وَطَنَهُ، رَحِمَهُ اللَّهُ.

محمد بن إبراهيم بن خيرة^(٦)

يكنى أبا القاسم. ويعرف بابن الموعيني^(٧)، حرفة أبيه، من أهل قرطبة. واستدعاه السيد أبو سعيد الوالي بفرنطرة إليه، فأقام عنده مدة من عامين في جملة من الفضلاء مثله.

حاله: قال ابن عبد الملك^(٨): كان كاتباً بليغاً، شاعراً مجيداً، استكتبه أبو حفص بن عبد المؤمن، وحظي عنده حُظوة عظيمة، لصهر كان بينهما بوجه ما،

(١) في الديوان: «الأنصار وهي خواسِرُ وتنقلب الأبصار...».

(٢) القصيدة في ديوان ابن الحداد الأندلسي (ص ٢٣٢ - ٢٣٣).

(٣) كلمة «في» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من الديوان.

(٤) في الأصل: «الوارشين» والتصويب من الديوان. والوراشين: طيور تشبه الحمام، واحداً ورشان. لسان العرب (ورش).

(٥) في الأصل: «الحسا» بالسين المهملة، والتصويب من الديوان.

(٦) ترجمة ابن الموعيني في التكملة (ج ٢ ص ٤٣) واسمه فيه: «محمد بن إبراهيم بن خير».

والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٩١) والمغرب (ج ١ ص ٢٤٧) وتاريخ المن بالإمامة (ص ٣١١).

(٧) في التكملة: «يعرف بالموعيني».

(٨) الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٩١).

ونال^(١) فيه جاهًا عظيمًا، وثروة واسعة. وكان حسن الخط رائقه، سلك فيه^(٢) في ابتدائه مسلك المتقن أبي بكر بن خيرة^(٣).

مشيخته: روى^(٤) عن أبي بكر بن عبد العزيز، وابن العربي، وأبي الحسن شريح، ويونس بن مغيث، وأبي عبد الله حفيد مكّي، وابن أبي الخصال، وابن بقي^(٥).

تأليفه: له^(٦) تصانيف تاريخية وأدبية منها «ريحان الآداب»^(٧)، و«زئعان الشباب» لا نظير له. و«الوشاح المفضل»^(٨). وكتاب في الأمثال السائرة. وكتاب في الأدب^(٩) نحا فيه^(١٠) منحى أبي عمر بن عبد البر في «بهجة المجالس». وفاته: توفي بمراكش سنة أربع وستين وخمسمائة^(١١).

محمد بن إبراهيم بن علي بن باق الأموي^(١٢)

مُرْسِي الأصل، غرناطي النشأة، مألقي الإسكان، يكنى أبا عبد الله.

حاله: من عائد الصلة^(١٣): كان، رحمه الله تعالى^(١٤)، كاتبًا أديبًا ذكيًا، لَوْدَعِيًّا، يجيد الخط، ويرسل النادرة، ويقوم^(١٥) على العمل، ويشارك في الفريضة. وبَدَأَ السُّبَّاقَ في الأدب الهزلي المستعمل بالأندلس. عَمَّرَ^(١٦) زمانًا من عُمره، محارفاً للفاقة، يعالج بالأدب الكُذْبَةَ، ثم استقام له الميَسَم، وأمكنه البَحْثُ من امتطاء غاربه، فأنشبت الحُظُوة فيه أناملها بين كاتب وشاهد ومحاسب ومدير تَجَرٍّ، فأثرى ونما ماله، وعَظُمَتْ حاله، وعهد^(١٧) عندما شارف الرحيل بجملة تناهز الألف من العين، لِتُضَرَفَ في وجوه من البر، فتوهم أنها كانت زكاة امتسك^(١٨) بها.

(١) في الذيل والتكملة: «ونال باختصاص أبي حفص إياه جاقًا عريضًا وغزوة واسعة».

(٢) في المصدر نفسه: «به».

(٣) في المصدر نفسه: «خير».

(٤) الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٩١).

(٥) جاء في الذيل والتكملة أنه أبو القاسم أحمد بن محمد بن بقي.

(٦) الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٩١).

(٧) في التكملة: «الآلباب».

(٨) في الذيل والتكملة: «المفصل» بالصاد المهملة.

(٩) في المصدر نفسه: «في الآداب».

(١٠) في المصدر نفسه: «به».

(١١) قال ابن الأبار في التكملة: «وتوفي في نحو السبعين وخمسمائة».

(١٢) ترجمة ابن باق الأموي في الدرر الكامنة (ج ٣ ص ٣٧٦) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٤٠٠).

(١٣) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٠١).

(١٤) كلمة «تعالى» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من النفح.

(١٥) في النفح: «ويقدم».

(١٦) في النفح: «غبر».

(١٧) في النفح: «عهد».

(١٨) في النفح: «أمسك».

وجرى ذكره في التاج بما نصه^(١): مديّر أكواس^(٢) البيان المَعْتَق، ولَعُوبَ
بأطراف الكلام المُشَقَّق، انتحل لأول أمره الهزل من أصنافه، فأبرز دُرّ معانيه من
أصدافه، وجنى ثمرة الإبداع لحين قطافه. ثم تجاوزه إلى المَعْرَب^(٣) وتخطّاه،
فأدار كأسه المُنْتَرَع وعاطاه، فأصبح لِفَنِّهِ^(٤) جامعًا، وفي قلّبه شهابًا لامعًا، وله
ذكاء يطير شَرَرُهُ، وإدراك تتبلّج غَرَرُهُ، وذهن يكشف الغوامض، ويسبق البارق
الوامض^(٥)، وعلى ذلاّقة لسانه، وانفساح أمد إحسانه، فشديد الصّباية بشعره^(٦)،
مُغْلٍ لِسِغَرِهِ.

شعره: أخبرني الكاتب أبو عبد الله بن سلمة، أنه خاطبه بشعر أجابه عنه
بقوله، في زوِيّه^(٧): [الخفيف]

أخَرَزَ الخَضَلَ من بني سلمة	كاتبٌ تخدمُ السُّبّا قَلَمَـة
يحملُ الطُّرسُ عن ^(٨) أنامله	أثرُ الطُّرسِ ^(٩) كلما رَقَمَـة ^(١٠)
وتمدُّ البيانَ فكرته ^(١١)	مُرسلًا حيث يَمُمّت دِيَمَـة
خَصَنِي مُثَقِّفًا بخمس إذا	بَسَمَ الرُّوضُ فُقْن مُبْتَسِمَـة
قلت أهدى زهر الرُّبّا خَضِلًا	فإذا كلُّ زهرةٍ كَلِمَـة
أقسم الحُسْنَ لا يُفَارِقُها	فأبْرُ اثِيقَاؤُها قَسَمَـة
خَطُ أسطارها ونمقّها	فانت كالقعود منتظمَـة
كاسيًا من حلاه لي خَلَلًا	رَسَمُها من بديع ما رَسَمَـة
طالبًا عند عاطشٍ نَهَلًا	ولديه الغُيُوثُ مُنْسَجِمَـة
يبتغي الشعرَ من أخي بَلَه	أخْرَسَ العِيّ والقُصورُ قَمَـة
أيها الفاضلُ الذي حَدِثَ ^(١٢)	السنُّ المدح والشُّنّا شِيَمَـة
لا تُكَلِّفْ أخاك مَقْتَرِحًا	نشرَ عارٍ لديه قد كَتَمَـة

(١) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٠٠ - ٤٠١).

(٢) في النفع: «أكوس».

(٣) في النفع: «المغرب».

(٤) أي قَنِي النظم والثر.

(٥) الروامض: الماضي. لسان العرب (ومض).

(٦) في الأصل: «الضنّانة يشعره» والتصويب من النفع.

(٧) الأبيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٠١ - ٤٠٢).

(٨) في النفع: «من».

(٩) في النفع: «الحسن».

(١٠) في الأصل: «رقه» وهكذا ينكر الوزن، والتصويب من النفع.

(١١) في الأصل: «ريمّد البيان بفكرته» وهكذا ينكر الوزن، والتصويب من النفع.

(١٢) في النفع: «حفظت».

وَابَقَ فِي عَزَّةٍ وَفِي دَعَا صَافِي^(١) الْعَيْشِ وَارْدًا شَبِيْمَةً^(٢)
 مَا ثَنَى الْغَصْنَ عِطْفَهُ طَرَبًا وَشَدَا الطَّيْرُ فَوْقَهُ^(٣) نَغْمَةً
 مَشِيخَتَهُ: قَرَأَ^(٤) عَلَى الْأَسَازِ أَبِي جَعْفَرِ بْنِ^(٥) الزُّبَيْرِ، وَالْخَطِيبِ أَبِي عَثْمَانَ بْنِ
 عَيْسَى.

وَفَاتَهُ: تَوَفَّى^(٦) بِمَالِقَةِ فِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ لِمَحْرَمٍ^(٧) عَامِ اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ
 وَسِتْمِائَةٍ^(٨)، وَأَوْصَى بَعْدَ أَنْ حُفِرَ قَبْرُهُ بَيْنَ شَيْخِيهِ الْخَطِيبَيْنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الطَّنْجَالِيِّ
 وَأَبِي عَثْمَانَ بْنِ عَيْسَى، أَنْ يَدْفَنَ بِهِ^(٩)، وَأَنْ يُكْتَبَ عَلَى قَبْرِهِ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ:
 [الطَّوِيلُ]

تَرَحَّمْ عَلَى قَبْرِ ابْنِ بَاقٍ وَحَيِّهِ فَمَنْ حَقَّ مَيِّتِ الْحَيِّ تَسْلِيمٌ حَيِّهِ
 وَقُلْ آمَنْ الرَّحْمَنُ رَوْعَةً خَائِفٍ لَتَفْرِيطُهُ فِي الْوَاجِبَاتِ وَغِيهِ
 قَدْ اخْتَارَ هَذَا الْقَبْرَ فِي الْأَرْضِ رَاجِيًا مِنْ اللَّهِ تَخْفِيفًا بِقَرَبٍ^(١٠) وَلِيَّهِ
 فَقَدْ يَشْفَعُ الْجَارُ الْكَرِيمُ لَجَارِهِ وَيَشْمَلُ بِالْمَعْرُوفِ أَهْلَ نَدِيهِ
 وَإِنِّي بِفَضْلِ اللَّهِ أَوْثَقُ وَائْتِ وَخَسْبِي وَإِنْ أَذْنَبْتُ حُبُّ نَبِيِّهِ

مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَالِمٍ بْنِ فَضِيلَةَ الْمَعَارِي^(١١)

مِنْ أَهْلِ الْمَرِيَّةِ، يَدْعَى بِالْيُؤُوسِ^(١٢)، وَيَكْنَى أَبَا عَبْدِ اللَّهِ.

حَالُهُ: مِنَ الْإِكْلِيلِ الزَّاهِرِ: شَيْخٌ^(١٣) أَخْلَاقُهُ لَيِّنَةٌ، وَنَفْسُهُ كَمَا قِيلَ هَيِّنَةٌ، يَنْظُمُ
 الشَّعْرَ سَهْلًا مَسَاقَةً، مُحْكَمًا اتِّسَاقَهُ، عَلَى فَاقَةٍ مَا لَهَا مِنْ إِفَاقَةٍ. أَنْشَدَ السُّلْطَانُ^(١٤)

-
- (١) فِي النَّفْعِ: «صَافِي». (٢) الشَّيْمُ: الْبَارِدُ. لِسَانُ الْعَرَبِ (شَيْم).
 (٣) فِي الْأَصْلِ: «فَوْقَ» وَهَكَذَا يَنْكَسِرُ الْوِزْنُ، وَالتَّصْوِيبُ مِنَ النَّفْعِ.
 (٤) النَّصْرُ مَعَ الشَّعْرِ فِي نَفْعِ الطَّيْبِ (ج ٨ ص ٤٠٢ - ٤٠٣).
 (٥) كَلِمَةُ «بَيْنَ» سَاقِطَةٌ فِي الْإِحَاطَةِ، وَقَدْ أَضْفَنَاهَا مِنَ النَّفْعِ.
 (٦) فِي النَّفْعِ: «وَتَوَفَّى». (٧) فِي النَّفْعِ: «لِمَحْرَمٍ فَاتِحٍ عَامٍ...».
 (٨) فِي النَّفْعِ: «وَسِتْمِائَةٍ». (٩) كَلِمَةُ «بِهِ» سَاقِطَةٌ فِي الْإِحَاطَةِ، وَقَدْ أَضْفَنَاهَا مِنَ النَّفْعِ.
 (١٠) فِي النَّفْعِ: «يَدْفَنُ بِهِ». (١١) تَرْجَمَةُ ابْنِ فَضِيلَةَ الْمَعَارِي فِي الدَّرَرِ الْكَامِنَةِ (ج ٣ ص ٣٦٧) وَنَفْعِ الطَّيْبِ (ج ٨ ص ٤٠٣).
 (١٢) فِي النَّفْعِ: «الْمَدْعُوُّ بِالنَّوْءِ». (١٣) النَّصْرُ مَعَ بَعْضِ أَيْبَاتِ الْقَصِيدَةِ فِي نَفْعِ الطَّيْبِ (ج ٨ ص ٤٠٣ - ٤٠٤).
 (١٤) فِي النَّفْعِ: «أَنْشَدَ الْمَقَامَ السُّلْطَانِيَّ».

بظاهر بلده قوله : [الطويل]

سَرَتْ رِيحٌ تَجِدُ مِنْ رَبِي أَرْضَ بَابِلِ
وَذَكَّرَنِي عَرْفُ النَّسِيمِ الَّذِي سَرَى
فَأَصْبَحْتُ مَشْغُوفًا بِذِكْرِ مَنَازِلِ
فِيَا رِيحُ هُبِّي بِالْبَطَاحِ وَبِالرُّبَا
وَسِيرِي بِجَسَمِي لِلَّتِي الرُّوحُ عِنْدَهَا
وَقُولِي لَهَا عَنِّي مَعْنَاكَ بِالْهُوَى^(١)
فِيَا أَبَايَ هَيْفَاءَ كَالْغَصَنِ تَثْنِي^(٢)
فَتَاةَ بَرَاهَا اللَّهُ مِنْ فِتْنَةٍ فَمَنْ
لَهَا مَنَظَرٌ كَالشَّمْسِ فِي رَوْنَقِ الضُّحَا
بَطِيبِ شَذَاهَا عَطَّرَتْ كُلَّ عَاطِرِ
رَمَثْنِي بِسَهْمٍ مِنْ سَهَامٍ جُفُونَهَا
فَظَلْتُ غَرِيقًا فِي بَحَارٍ مِنَ الْهُوَى
فِيَا مَنْ سَبَتْ عَقْلِي وَأَفْنَتْ تَجَلُّدِي
فَلِي كَبِدٌ شَوْقِي إِلَيْكَ تَفْطَرْتُ
وَلِي أَدَمٌ تَحْكِي نَدَا كَفَّ يَوْسُفَ
إِذَا مَدَّ بِالْجُودِ الْأَنَامِلَ لَمْ تَزَلْ

فَهَاجَتْ إِلَى مَسَرَى سُرَاهَا بِبَابِلِ^(١)
مَعَاهِدَ أَحْبَابٍ سُرَاةٍ أَفَاضِلِ
أَلْفَتْ، فَوَا شَوْقِي لَتِلْكَ الْمَنَازِلِ
وَمُرِّي عَلَى أَغْصَانِ زَهْرِ الْخُمَائِلِ
فَرُوحِي لَدَيْهَا مِنْ أَجَلِ الْوَسَائِلِ
لَهُ شَوْقٌ مَعْمُودٌ وَعَبْرَةٌ ثَاكِلِ^(٣)
بَقْدُ يَقْدُ^(٥) كَادَ يَنْقُدُ مَائِلِ
رَأَاهَا وَلَمْ يُفْتَنَ فَلَيْسَ بِعَاقِلِ
وَلَحِظْتُ كَحَيْلٍ سَاحِرُ الطَّرْفِ بِبَابِلِ^(٦)
كَمَا بِحُلَاهَا زِيْنَتْ كُلَّ عَاطِلِ
فَصَادَفَ ذَاكَ السَّهْمُ مِنِّي مِقَاتِلِي^(٧)
وَمَا الْحَبِّ إِلَّا لُجَّةٌ دُونَ سَاحِلِ
صَلَّيْنِي فَإِنَّ الْبُعْدَ لَا شَكَّ قَاتِلِي^(٨)
وَقَلْبُ بَنِيَرَانِ الْجَوَى فِي مَشَاعِلِي^(٩)
أَمِيرِ الْعُلَى الْأَرْضِي الْجَمِيلِ الْفَضَائِلِ
بِحَوْرٍ الثَّدَى تَهْمِي بِتِلْكَ الْأَنَامِلِ

ومن شعره قوله من قصيدة^(١٠) : [الكامل]

بَهَرَتْ كَشْمِسٍ فِي غَلَالَةِ عَسْجِدِ
ثُمَّ انْتَنَتْ كَالْغَصَنِ هَزَّتُهُ الصُّبَا
وَكَبِدٍ يَمُ فِي قَضِيبِ زَبَرَجِدِ
طَرِبًا فَتَزْرِي بِالْغَصُونِ الْمُيِّدِ

- (١) في الأصل : «بابل» والتصويب من النفع . (٢) في النفع : «بالنوى» .
(٣) المعمود : اسم مفعول من قولهم : عمدته الحب إذا أحزنه . والثاكل : الفاقد . والعبرة : الدمعة .
لسان العرب (عمد) و(ثكل) و(عبر) .
(٤) في الأصل : «تثنى» وهكذا ينكسر الوزن ، والتصويب من النفع .
(٥) في النفع : «تقد بقد» .
(٦) في الأصل : «بابل» .
(٧) في الأصل : «مقاتل» .
(٨) في الأصل : «قاتل» .
(٩) في الأصل : «مشاعل» .
(١٠) الأبيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٠٣ - ٤٠٤) .

خَوْرَاءُ بَارِعَةُ الْجَمَالِ غَرِيرَةٌ^(١) تَزْهَى فَتَزْرِي بِالْقَضِيبِ الْأَمْلَدِ
 إِنْ أَذْبَرْتُ لَمْ تُبْقِ عَقْلَ مُدَبِّرٍ أَوْ أَقْبَلْتُ قَتَلْتُ وَلَكِنْ لَا تُدِي^(٢)
 تَوَالِيْقُهُ: قَالَ شَيْخُنَا أَبُو الْبَرَكَاتِ: وَابْتُلِيَ^(٣) بِاخْتِصَارِ كُتُبِ النَّاسِ، فَمِنْ ذَلِكَ
 مَخْتَصَرُهُ الْمُسَمَّى بِ«الدَّرْرِ الْمَنْظُومَةِ الْمَوْسُومَةِ»، فِي اسْتِثْقَاقِ حُرُوفِ الْهَجَا
 الْمَرْسُومَةِ^(٤)، وَكِتَابٌ فِي حِكَايَاتٍ تَسْمَى «رَوْضَةُ الْجَنَانِ»^(٥)، وَغَيْرَ ذَلِكَ.
 وَفَاتِهِ: تَوَفَّى فِي أَوَاخِرِ رَمَضَانَ مِنْ عَامِ تِسْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ، وَدَخَلَ غُرْنَاطَةَ
 غَيْرَ مَرَّةٍ.

محمد بن إدريس بن علي بن إبراهيم بن القاسم

مِنْ أَهْلِ جَزِيرَةِ شُقْرٍ^(٦)، يَكْنَى أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، وَيُعْرَفُ بِابْنِ مَرْجِ الْكُحْلِ^(٧).
 حَالُهُ: كَانَ شَاعِرًا مُفْلِقًا^(٨) غَزَلًا، بَارِعَ التَّوْلِيدِ، رَفِيقَ الْغَزْلِ. وَقَالَ الْأَسْتَاذُ أَبُو
 جَعْفَرٍ: كَانَ^(٩) شَاعِرًا مَطْبُوعًا، حَسَنَ الْكِفَايَةِ، ذَاكِرًا لِلْأَدَبِ، مُتَصَرِّفًا فِيهِ. قَالَ ابْنُ
 عَبْدِ الْمَلِكِ: وَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ طَائِفَةٍ مِنْ أَدْبَاءِ عَصْرِهِ مَخَاطَبَاتٌ، ظَهَرَتْ فِيهَا إِجَادَتُهُ.
 وَكَانَ مُبْتَذِلَ اللَّبَاسِ، عَلَى هَيْئَةِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ أُمِّيًّا.

(١) فِي الْأَصْلِ: «غَرِيرَةٌ» وَالتَّصْوِيبُ مِنَ النَّفْحِ.

(٢) فِي الْأَصْلِ: «تَدِي» وَالتَّصْوِيبُ مِنَ النَّفْحِ. وَتَدِي: تَدْفَعُ الذَّيَّةَ. لِسَانَ الْعَرَبِ (وَدِي).

(٣) النَّصُّ فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ (ج ٨ ص ٤٠٤).

(٤) فِي النَّفْحِ: «الدَّرُّ الْمَوْسُومَةُ»، فِي اسْتِثْقَاقِ الْحُرُوفِ الْمَرْسُومَةِ.

(٥) فِي النَّفْحِ: «وَكِتَابٌ حِكَايَاتٍ يَسْمَى دَوْحَةُ الْجَنَانِ وَرَاحَةُ الْجَنَانِ...».

(٦) شُقْرٌ، بِالْإِسْبَانِيَةِ Jucar: جَزِيرَةٌ بِالْأَنْدَلُسِ، قَرِيبَةٌ مِنْ شَاطِئَةِ: كَثِيرَةُ الْأَشْجَارِ وَالْأَنْهَارِ. الرُّوَضُ الْمَعْطَارُ (ص ٣٤٩).

(٧) تَرْجَمَةُ ابْنِ مَرْجِ الْكُحْلِ فِي الْمَغْرِبِ (ج ٢ ص ٣٧٣) وَاسْمُهُ فِيهِ: مُحَمَّدُ بْنُ الدَّمَنِ، الْمَعْرُوفُ بِمَرْجِ الْكُحْلِ. وَزَادَ الْمَسَافِرُ (ص ٢٧) وَالْوَافِي بِالْوَفَايَاتِ (ج ٢ ص ١٨١) وَأَعْمَالُ الْأَعْلَامِ (القِسْمُ الثَّانِي ص ٢٧٨) فِي تَرْجَمَةِ مُحَمَّدِ بْنِ يُوْسُفَ بْنِ هُرْدِ الْجَذَامِيِّ، وَبِرَنَامِجِ شَيْبُوخِ الرَّعِينِيِّ (ص ٢٠٨) وَرَايَاتِ الْمُبْرُزِينَ (ص ٢٢٠) وَالْمَقْتَضِبِ مِنْ كِتَابِ تَحْفَةِ الْقَادِمِ (ص ١١٤، ١٥٢) وَالتَّكْمِلَةِ (ج ٢ ص ١٣٦) وَجَاءَ فِيهِ أَنَّهُ يَعْرِفُ بِمَرْجِ الْكُحْلِ. وَالذَّيْلُ وَالتَّكْمِلَةُ (السَّفَرُ السَّادِسُ ص ١١٠) وَنَفْحُ الطَّيِّبِ (ج ٧ ص ٤٧). وَالتَّرْجَمَةُ هُنَا مَعَ الشُّعْرِ فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ (ج ٧ ص ٤٧ - ٥١) وَوَفَايَاتِ الْأَعْيَانِ (ج ٢ ص ٣٣١) فِي تَرْجَمَةِ سَكِينَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ.

(٨) فِي التَّكْمِلَةِ «كَانَ شَاعِرًا مَغْلِقًا بِدِيعِ التَّوْلِيدِ وَالتَّجْوِيدِ...».

(٩) فِي النَّفْحِ: «شَاعِرٌ مَطْبُوعٌ، حَسَنُ الْكِتَابَةِ ذَاكِرٌ لِلْأَدَبِ مُتَصَرِّفٌ فِيهِ».

مَنْ أَخَذَ عَنْهُ: روى عنه أبو جعفر بن عثمان الوراد، وأبو الربيع بن سالم، وأبو عبد الله بن الأبار، وابن عسكر، وابن أبي البقاء، وأبو محمد بن عبد الرحمن بن بَرطلة، وأبو الحسن الرعيني.

شعره ودخوله غرناطة

قال في عُشِّيَّة بنهر الغنداق، خارج^(١) بلدنا لَوْشَة بنت الحَضْرَة، والمحسوب مَنْ دخلها فقد دخل البيرة، وقد قيل: إن^(٢) هذا النهر من أحواز بَرْجَة، وهذا الخلاف داع إلى ذكره^(٣): [الكامل]

عَرَجُ بِمُنْعَرَجِ الْكُثِيبِ الْأَغْفَرِ
وَلْتَنْتَبِقْهَا^(٤) قَهْوَةٌ ذَهَبِيَّةٌ
وَعَشِيَّةٌ قَدْ^(٥) كُنْتُ أَزُتُّبُ وَقْتُهَا
نَلْنَا بِهَا آمَالَنَا^(٦) فِي رَوْضَةٍ
وَالذُّهْرُ مِنْ نَدَمٍ^(٧) يُسْفَهُ رَأْيَهُ
وَالْوَزْقُ تَشْدُو وَالْأَرَاكَةُ تَنْتَنِي
وَالرَّوْضُ بَيْنَ مُقَضَّضٍ وَمُذْهَبٍ^(٨)
وَالنَّهْرُ مَرْقُومُ الْأَبَاطِحِ وَالرُّبَى^(٩)
وَكَأَنَّهُ وَكَأَنَّ خُضْرَةً شَطَطُهُ
وَكَأَنَّمَا ذَاكَ الْحَبَابُ فِرْنْدُهُ
وَكَأَنَّهُ، وَجِهَاتُهُ مَحْفُوفَةٌ

بَيْنَ الْفُرَاتِ وَبَيْنَ شَطِّ الْكَوْثَرِ
مِنْ رَاخَتِي أَخْوَى الْمَرَاثِفِ^(١٠) أَخْوَرِ
سَمَحَتْ بِهَا الْأَيَّامُ بَعْدَ تَعَذُّرِ
تُهُدِي لِنَائِقِهَا^(١١) شَمِيمَ الْعَنْبَرِ
فِي مَا مَضَى مِنْهُ بِغَيْرِ تَكْذُرِ
وَالشَّمْسُ تَرْقُلُ فِي قَمِيصِ أَضْفَرِ
وَالزُّهْرُ بَيْنَ مُدْرَهَمٍ وَمُدَّرِ
بِمُصْنَدَلٍ مِنْ زَهْرِهِ وَمُعْضَفَرِ
سَيْفٍ يُسَلُّ عَلَى بِسَاطٍ أَخْضَرِ
مَهُمَا طَفَا فِي صَفْحَةٍ كَالْجَوْهَرِ
بِالْآسِ وَالْثُّغْمَانِ، خَذُ مُعَذَّرِ

- (١) في النفع: «من خارج». (٢) في النفع: «إن نهر الغنداق».
- (٣) في النفع: «الذكر». والشعر في الذيل والتكملة (السفر السادس ص ١١١ - ١١٢) ورايات المبرزين (ص ٢٢١) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣١٥ - ٣١٦)، ونفع الطيب (ج ٧ ص ٤٦ - ٤٩) والمغرب (ج ٢ ص ٣٧٣ - ٣٧٤) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١١٤ - ١١٥).
- (٤) في النفع والمغرب والمقتضب والذيل والتكملة: «وَلْتَنْتَبِقْهَا».
- (٥) في المغرب والمقتضب والذيل والتكملة: «المدامع».
- (٦) في الذيل والنفع: «كم كنت». وفي رايات المبرزين والمقتضب والمغرب: «كم بت».
- (٧) في النفع: «فلنا بهذا ما لنا في...». وفي المغرب ورايات المبرزين: «في جنة أهدت...».
- (٨) في الأصل: «لنا بشقها» وهكذا ينكسر الوزن. والتصويب من النفع. وفي المقتضب: «شَفَهَا نسيم العنبر».
- (٩) في أزهار الرياض: «قَدَم».
- (١٠) في أزهار الرياض: «وَمُعْجَدٍ».
- (١١) رواية صدر البيت في رايات المبرزين هي: والنهر فيها والنبات يحفه.

نهرٌ يهيمُ بحُسنِهِ مَنْ لَمْ يَهْمِ ويُجيد فيه الشَّعرَ مَنْ لَمْ يَشْعُرِ
ما اصفَرَّ وجهُ الشمسِ عند غروبها إلا لفرقةٍ حُسنِ ذاك المنظرِ
ولا خفاء ببراءة هذا النظم^(١). وقال منها^(٢):

أرأت جفونك مثله من منظرٍ ظلٌ وشمسٌ مثلُ خدٍ مُعذِّر^(٣)
وهذا تميم عجيب لم يسبق إليه. ثم قال منها:

وقرارة كالعشرِ بين خميلة سالت مَذانِبُها بها كالأسطرِ
فكأنها مشكولةٌ بمصنَدلٍ من يانع الأزهارِ أو بمُعصفرِ
أملٌ بلغناه بهضبٍ حديقةٍ قد طرزته يدُ الغمامِ المُنظرِ
فكانه والزهرُ تاجٌ فوقه ملكٌ تجلى في يساطٍ أخضرِ
راقٌ الشواظِرُ منه رائقٌ منظرٍ يصفُ النَّضارةَ عن جنانِ الكوثرِ
كم قادَ خاطرٍ خاطرٍ مُستوفزٍ وكم استَفَزَّ جماله من مُبصرِ
لو لاح لي فيما تقدَّم^(٤) لم أقل (عرج بمُنْعرجِ الكثيبِ الأعفرِ)
قال أبو الحسن الرُّعيني، وأنشدني لنفسه^(٥): [الكامل]

وعشيّةٌ كانت قنيصةً فثيةً ألفوا من الأدبِ الصُّريحِ شيوخا
فكانما العنقاء قد نَصَبوا لها من الانحناءِ إلى الوقوعِ قُخوخا
شَمَلَتْهُمْ آدابُهُمْ فتجاذبوا سرُّ الشُّرورِ محدثًا ومُصيخا
والوُزُقُ تقرأ سيرة^(٦) الطرب التي يُنْسِيكَ منها ناسخًا^(٧) منسوخا
والنهر قد صَفَحَتْ به نارنجةً قَتِيَمَمَتْ من كان فيه مُنيخا
فتخالَهُمْ حُلل^(٨) السَّماءِ كواكبًا قد قارنت بسعودها المَرِيخا
خرق العوائدَ في الشُّرورِ نهارُهُمْ فجَعَلْتُ أبياتي لهم^(٩) تاريخا

(١) في النفع: «هذا الشعر». (٢) في الأصل: «أيضًا» والتصويب من النفع.
(٣) المعذِّر: الذي نبت عذاره وهو شعر الخد. لسان العرب (عذر). وجاء في النفع بيت آخر لم يرد في الإحاطة وهو:

وجد أولُ كساراقمٍ حصباؤها كبطونها وحيابها كالأظهرِ

(٤) في النفع: «تقدم». (٥) الأبيات في نفع الطيب (ج ٧ ص ٤٩).

(٦) في النفع والذيل: «سورة». (٧) في الذيل والنفع: «ناسخ».

(٨) في الذيل والنفع: «حُلل»، بالخاء المعجمة. (٩) في النفع والذيل والتكملة: «له».

ومن أبياته في البديهة^(١): [الوافر]

وعندي من مَرَاثِفِهَا^(٢) حديثٌ
وفي أجفانها^(٣) السُّكْرَى دليلاً
تعالى الله ما أجرى دموعي
وأشجاني إذا لاحث بُرُوقُ
يُخْبِرُ أَنْ رِيْقَتَهَا مُدَامُ
وما^(٤) دُقْنَا وَلَا زَعَمَ الْهُمَامُ
إذا عَثَّتْ^(٥) لِمُقْلَتِي الْخِيَامُ
وأطربني إذا عَثَّتْ حَمَامُ^(٦)

ومن قصيدة^(٧): [الطويل]

عذيري من الآمال خابث قصودها
وقالوا: دُكِرْنَا بِالْغِنَى، فَأَجَبْتُهُمْ
يهون علينا أن يبيد أثائنا
وما ضرَّ أصلاً طيباً عدمُ الغنى
ونالت جزيلَ الحظِّ منها الأخابثُ
خمولاً وما ذكرَّ مع البُخْلِ ما كَثُ
وتبقى علينا المَكْرَمَاتُ الأثاثُ^(٨)
إذا لم يُغَيِّرْهُ مِنَ الدَّهْرِ حَادِثُ

وله يتشوق إلى أبي^(٩) عمرو بن أبي غياث: [الوافر]

أبا^(١٠) عمرو متى تُقْضَى اللَّيَالِي
أبث نفسي هوى إلا شريشاً
بلقيائكم وهن قصصن ريشي
وما^(١١) بَعْدَ الْجَزِيرَةِ مِنْ شَرِيشِ

وله من قصيدة^(١٢): [الكامل]

طَفَلَ الْمَسَاءِ وَلِلنَّسِيمِ تَضَوُّعُ
وَالزُّهْرُ يَضْحَكُ مِنْ بَكَاءِ غَمَامَةٍ
وَالشُّهْرُ مِنْ طَرَبٍ يُصَفِّقُ مَوْجُهُ
فانعم أبا عمران وآله بروضةٍ
وَالْأَنْسُ يَنْظِمُ^(١٣) شَمْلَنَا وَيُجَمِّعُ
ريعت لَشَيْمٍ سَيُوفٍ بَرَقَ تَلْمَعُ
وَالْغَصْنُ يَرْقُصُ وَالْحَمَامَةُ تُسْجَعُ
خَسَنَ الْمَصِيفُ بِهَا وَطَابَ الْمَرْبَعُ

(١) الأبيات في نفع الطيب (ج ٧ ص ٤٩) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣١٦). وورد البيتان الأول والثاني في المغرب (ج ٢ ص ٣٧٤).

(٢) في المغرب: «معاطفها».

(٣) في المغرب: «ولا».

(٤) في المغرب: «ولا».

(٥) في أزهار الرياض: «إذا غنى الحمام».

(٦) في الأبيات في نفع الطيب (ج ٧ ص ٤٩).

(٧) في الأصل: «الأثابت»، والتصويب من نفع الطيب.

(٨) في النفع (ج ٧ ص ٤٩) إلى عمرو بن أبي غياث. والبيتان في المصدر المذكور.

(٩) في النفع: «أيا».

(١٠) في المصدر نفسه: «ويا».

(١١) في النفع: «يجمع».

(١٢) القصيدة في نفع الطيب (ج ٧ ص ٥٠).

(١٣) في النفع: «يجمع».

يا شادنَ البانِ الذي دون النقا
الشمسُ يغربُ نورُها ولربما
إن غابَ نورُ الشمسِ يتنا^(١) نتقي
أقلتُ فتابَ سناكَ عن إشراقها
فأمنتُ يا موسى الغروبَ ولم أقل
وقال^(٣): [الطويل]

أضرُّ به الليلُ الطويلُ مع البكا
إذا الليلُ أجزى دمنه وإذا شكا
فلم يزلِ الكافورُ للدمِ مُفسِكًا
ولا عَجَبُ أن يمسك الصبحُ عبرتي
ومن بديع مقطوعاته قوله^(٤): [الرملي]
مَلُّ الرُّزْقِ الذي تَطْلُبُهُ
أنت لا تُذِرْكُهُ مُتْبِعًا
وقال^(٦): [الطويل]

دخلتم فافسدتم قلوبًا بملككم^(٧)
وبالعدل^(٩) والإحسان لم تتخلقوا
فأنتم على ما جاء في سورة النمل^(٨)
فأنتم على ما جاء في سورة النحل^(١٠)

(١) في النفع: «لسنا».

(٢) عجز هذا البيت للرصافي البلنسي، والبيت بتمامه هو:

سَقَطْتُ وَلَمْ تَمْلِكْ يَمِينُكَ رَدَّهَا
فَرَدَّدْتُ يَا مُوسَى لَوْ أَنَّكَ يَوْشَعَ
ديوان الرصافي البلنسي (ص ١٠٥).

(٣) الأبيات في نفع الطيب (ج ٧ ص ٥٠).

(٤) البيتان في نفع الطيب (ج ٧ ص ٥٠) ووفيات الأعيان (ج ٢ ص ٢٣١) والتكملة (ج ٢ ص ١٣٦).

(٥) في النفع والوفيات: «تبعك».

(٦) البيتان في نفع الطيب (ج ٧ ص ٥٠ - ٥١).

(٧) في النفع: «بملكها».

(٨) يشير هنا إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَلْوَلَّكَ إِذَا تَخَلَّوْا قَرْيَةً أَفْتَوْهَا﴾ [النمل: ٣٤].

(٩) في النفع: «وبالجود».

(١٠) يشير هنا إلى ما جاء في سورة النحل ١٦، الآية ٧٦: ﴿إِنَّمَا يُوجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِغَيْرِ﴾.

وقال أبو بكر محمد بن محمد بن جهور: رأيت لابن مرج الكحل مَرَجًا أحمر قد أجهد نفسه في خدمته فلم يُتَجَب، فقلت^(١): [البسيط]

يا مَرَجَ كُحَلٍ وَمَنْ هَذَا المَرُوجُ لَهُ ما كان أَخَوَجَ هذا المَرَجَ لِلْكُحَلِ
يا حمرة^(٢) الأرض من طيبٍ ومن كَرَمٍ فلا تكن طَمِعًا في رزقها العَجَلِ
فإنَّ مِنْ شأنها إخلافَ أَمَلِها فما تُفارقها كَيْفِيَّةُ الخَجَلِ
فقال مجيبًا بما نصّه^(٣): [البسيط]

يا قائلًا إذ رأى مَرَجِي وَحُمُرَتُهُ ما كان أَخَوَجَ هذا المَرَجَ لِلْكُحَلِ
هو احمرارُ دماءِ الرُّومِ سَيْلُها بالبَيْضِ مَنْ مَرٌّ من آبائي الأولِ
أَخْبَيْتُهُ أَنْ حَكِي^(٤) مَنْ فُتِنْتُ بِهِ في حُمرةِ الخَدِّ أو إخلافِهِ أَمَلِي

وفاته: توفي ببلده يوم الاثنين ليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة^(٥) أربع وثلاثين وستمائة، ودفن في اليوم بعده.

محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري

من أهل مرسية، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن الجنان^(٦).

حاله: كان^(٧) محدثًا راوية، ضابطًا، كاتبًا بليغًا، شاعرًا بارعًا، رائق الخط، ديتًا فاضلاً، خيرًا، زكياً^(٨). استكتبه بعض أمراء الأندلس، فكان يتبرم من ذلك، ويقلق منه. ثم خلصه الله تعالى^(٩) منه. وكان من أعاجيب الزمان في إفراط القماءة^(١٠)، حتى يظن رائيه إذا^(١١) استذبره أنه طفل ابن ثمانية أعوام أو نحوها، متناسب الخلقة، لطيف الشماثل، وقورًا. خرج من بلده حين تمكن العدو من بيئته^(١٢) عام أربعين.

(١) الأبيات في نفح الطيب (ج ٧ ص ٥١). (٢) في النفح: «ما حمرة».

(٣) قوله: «بما نصّه» ساقط من النفح (ج ٧ ص ٥١).

(٤) في الأصل: «أحبته إن من فتنت به» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.

(٥) في النفح: «عام أربعة...».

(٦) ترجمة ابن الجنان في عنوان الدراية (ص ٢١٣) ونفح الطيب (ج ١٠ ص ٢٥٩).

(٧) النص في نفح الطيب (ج ١٠ ص ٢٦٠ - ٢٦١).

(٨) في النفح: «ذكياً».

(٩) كلمة «تعالى» ساقطة في الإحاطة، وأضفناها من النفح.

(١٠) القماءة: القصر. لسان العرب (قما). (١١) في النفح: «الذي».

(١٢) في النفح: «قبضته سنة ٦٤٠».

وستمائه، فاستقر بأوزيولة^(١)، إلى أن استدعاه^(٢) إلى سبته الرئيس بها^(٣)، أبو علي بن خلاص^(٤)، فوفد عليه، فأجل وفادته، وأجزل إفادته، وحظي عنده حظوة تامة. ثم توجه إلى إفريقية، فاستقر ببجاية. وكانت بينه وبين كتاب عصره مكاتبات ظهرت فيها براعته.

مشيخته: روى^(٥) ببلده وغيرها^(٦) عن أبي بكر عزيز بن خطاب، وأبي الحسن^(٧) سهل بن مالك، وابن قطرال، وأبي الربيع بن سالم، وأبي عيسى بن أبي السداد، وأبي علي الشلوبين، وغيرهم.

من روى عنه: روى عنه صهره أبو القاسم بن نبيل، وأبو الحسن محمد بن رزق.

شعره: قال القاضي أبو عبد الله بن عبد الملك: وكان له في الزهد، ومدح النبي ﷺ، بدائع، ونظم في المواعظ للمذكّرين كثيرًا. فمن ذلك قوله في توديع رمضان وليلة القدر: [الطويل]

مضى رمضان كأن ^(٨) بك قد مضى	وغاب سنه بعد ما كان أوامضا
فيا عهد ما كان أكرم مفعدا	ويا عصره أغزر علي أن انقضا
ألم بنا كالطيف في الصيف زائرا	فخيم فينا ساعة ثم قوضا
فيا ليت شعري إذ نوى غربة الثوى	أبالسخط عنا قد تولى أم الرضا؟
قضى الحق فينا بالفضيلة جاهدا	فأي فتى فينا له الحق قد قضا؟
وكم من يد بيضاء أمدى لذي ثقى	بتوابعه فيه الصحائف بيضا
وكم حسن قد زاده حسنا وسنا	محاه وبالإحسان والحسن عوضا
فلله من شهر كريم تعرضت	مكارمه إلا لمن كان أعرضا

(١) في النسخ: «بأريولة». وهي بالإسبانية Orihuela، من بلاد شرقي الأندلس، تقع على نهر شقوره. الروض المعطار (ص ٦٧).

(٢) في النسخ: «دعاه». (٣) كلمة «بها» ساقطة في النسخ.

(٤) هو أبو علي الحسن بن خلاص البلنسي، تولى سبته سنة ٦٣٧ هـ، ثم ثار فيها على عهد السعيد أبي الحسن علي بن إدريس بن المنصور الموحد سنة ٦٤١ هـ، وبابيع الأمير أبا زكريا الحفصي، صاحب تونس. توفي سنة ٦٤٦ هـ. البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٣٥٩ - ٣٦٠).

(٥) النص في نفع الطيب (ج ١ ص ٢٦١). (٦) في النسخ: «وغيره».

(٧) في الأصل: «أبي الحسن بن سهل...» والتصويب من النسخ.

(٨) في الأصل: «وكان» وكذا ينكسر الوزن، لذا حذفنا حرف الواو.

نفى بينه وبين شَجْوَك^(١) مَعْلَمًا
 وَقِفْ بِثَنِيَّاتِ الوداع فلإنها
 وإن قُضِيَتْ قبل التفرُّق وقْفَةً
 فإِذَا حُسْنُهَا من ليلة جَلَّ قَدْرُهَا
 لعلَّ بقايا الشهر وهي كريمة
 وقد كان أضفى وزده كي يفيضه
 وقال أَطْلُبُوهَا تَسْعَدُوا بِطَلَابِهَا
 جزى الله عنا أحمدًا للجزاء^(٢)
 وصلى عليه من نبيِّ مبارك
 له عِزَّةٌ أعلى من الشمس منزلا
 له الذكر يهمي فضُّ منك ختامه
 عليه سلام الله ما انهل ساكب
 وفي إثره أَرْسِلْ جَفْوَتَكَ فَيُضَا
 تُمَحِّصْ مُشْتَقًّا إِلَيْهَا وَتُمَجِّضَا
 فَمُقْضِيهَا من ليلة القَدْر ما قُضَى
 وحض عليها الهاشِمِيَّ وحرَّضَا
 تُبَيِّنْ سِرًّا لِلأَوَاخِرِ أَعْمَضَا
 ولكن تلاحى مَنْ تلاحى فقيضا
 فحرَّك أرياب القلوب وأنهضا
 على كَرَمِ أضفاه بُرْدًا وَقَضْفَضَا
 رؤوف رحيم للرسالة مُرْتَضَى
 وعزَّمته أمضى من السيف مُنْتَضَى
 تَارَج من رِثَا فضائله القضا
 وذُفِّب مَوْشِيَّ الرِّياضِ وَقَضَضَا

ومن ذلك قصيدة في الحج: [الطويل]

مذاكرة الذكرى تهيج اللواعجا^(٣)
 رِكَابًا سَرَتْ بين العُذَيْبِ وبارق
 تيمُّن من وادي الأراك منازل
 لهن من الأشواق حادٍ فإن وثت
 ألا بِأَيِّ تلك الركاب إذا سرّت
 فَعَالَجَنَ أَشْجَانًا يُكَاثِرْنَ عَالِجًا^(٤)
 نَوَافِيجَ^(٥) في تلك الشُّعَابِ نَوَاعِجًا^(٦)
 يُطَرِّنَهَا في الأراكِ سَجَاسِجًا^(٧)
 حُدَاهُ يُرْجِعُنَ الحَنِينِ أَهَازِجًا
 هَوَادِي يَمْلَأَنَّ الفلاة هَوَادِجًا

(١) في الأصل: «شجونك» وكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «أحمد الجزاء» وكذا ينكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «تذاكر الذكر وتهيج اللواعجا» وكذا ينكسر الوزن.

(٤) عالج: رمال بالبادية، سمي بذلك تشبيهاً له بالبعير العالج وهو الذي يأكل العُلجان. معجم البلدان (ج ٤ ص ٦٩).

(٥) في الأصل: «نوافيج».

(٦) الرُّكَّاب: الإبل، وأحدثها راحلة. الشُّعَاب: جمع شُعب وهو الطريق في الجبل. النواعج: جمع ناعجة وهي الناقة البيضاء والسريعة والتي يُصاد عليها. محيط المحيط (ركب) و(شعب) و(نعج). والعُذَيْب: ماء بين القادسية والمغيرة. معجم البلدان (ج ٤ ص ٩٢). وبارق: ماء بالعراق وهو الحد بين القادسية والبصرة. معجم البلدان (ج ١ ص ٣١٩).

(٧) في الأصل: «يطرنها إلا في الأراك سجاسجا» وكذا ينكسر الوزن. والأراك: شجر يُسْتَاك به وترعاه الإبل.

بَراهم سَوامح أو سُراهم فأصبحوا
 لهم في مَنى أَسنى المَنا ولدى الصِّفا
 سَما بهم طَوفَ ببيتِ طامح
 فأبدوا من اللُّوعات ما كان كامنا
 ولَمّا دنوا نودوا هُنيّا وأقبلوا
 وقَضُوا بتقبيل الجدار ولُثمه
 إذا اعتنقوا تلك المعالم خِلَّتْهُمْ
 فَلَله ركبٌ يُمَموا نحو مكة
 أناخوا بأرجاء الرِّجاء وعُرسوا
 فبشري^(٣) لهم كم خُولُوا من كرامة
 بفتحهم بابَ القبول وللرِّضا^(٤)
 تميّز أهلُ السُّبق لكنَّ غيرهم
 أيلحق جِلْسُ^(٥) للبيوت مَداهم
 ألا ليت شعري للضرورة هل أرى
 له الله من ذي كُزبة ليس يُرتجى
 قد أسهَمَتْ شتى المسالك دونه
 يخوض بحار الذُّنب ليس يهابها
 جبانٌ إذا عنَّ الهدى وإذا الهوى
 يتيه ضلالا في غِيابة هُمة
 فواخربا لاح الصِّباح لمبضرٍ
 لعلَّ شَفيعي أن يكون معاجلا
 فيُنشِئني بيتُ الإله نوافحا

رسوماً على تلك الرسوم عوالجا
 يُرْجُونَ من أهل الصِّفاء^(١) المناهجا
 أراهم قباباً للعلی ومعارجا
 وأذروا دموعاً بل قلوباً مناضجا
 إلى الرُّكن من كل الفجاج أدارجا
 حقوقاً تُقَضِّي للنفوس حوائجا
 أساور في إيمانها وجهالجا
 لقد كُرموا قَصْداً وحلُّوا مناسجا
 فأصبح كلُّ مايز^(٢) القِذح فالجا
 فكانت لِمَا قَدَّموه نتائجا
 ووَفَدُهم أضحى على الباب والجا
 غدا هَمَجًا بين الخليقة هامجا
 ولم يَلْه^(٦) في تلك المدارج دارجا؟
 إلى الله والبيت المحجَّب خارجا؟
 لِمُرْتَجِّها^(٧) يوماً سوى الله فارجا
 فلا نَهَجَ يَلْقَى فيه لله ناهجا
 ويَضَعُ دُعْراً إن يرى البحر هائجا
 يَمَنُّ له كان الجريء المَهارجا
 فلا حَجَرَ تهديه لرُشدٍ ولا جججا
 وقلبي لم يُنصر سوى الليل إذ سَججا
 لداء ذنوب بالشِّفاء مُعالجا
 ويُعبقُ لي قَبْرُ التُّبَيِّ نوافجا

(١) في الأصل: «الصفا» وكذا ينكر الوزن.

(٢) في الأصل: «ما يز» وكذا يختل الوزن والمعنى معاً.

(٣) في الأصل: «فبشروا» وكذا ينكر الوزن.

(٤) في الأصل: «بفتح بابٍ للقبول وللرضا» وكذا ينكر الوزن.

(٥) الجِلْس: المجلس. محيط المحيط (جلس).

(٦) في الأصل: «ولم يَلْغَب» وكذا ينكر الوزن ولا يستقيم المعنى.

(٧) في الأصل: «المرتجها» وكذا ينكر الوزن ولا يستقيم المعنى.

فما لي لإمالي^(١) سوى حُبِّ أحمد وَصَلْتُ له من قُرْبِ قلبي وشائجا
عليه سلام الله من ذي صِباية حليف شَجَا يَكْنَى من البعد ناشجا
ولو أَنَصَفْتُ أَجْفَاءَهُ حَقٌّ وَجَدِهِ سَفَكْتُ دَمًا لِلدموع موازجا

كتابته: وكتابته شهيرة، تُضرب بذكره فيها الأمثال، وتُطوى عليه الخناصر. قالوا: لما عقد أمير المسلمين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود اليبعة لابنه الواصل بالإمارة من بعده، تولى إنشاءها، وجعل الحاء المهملة سَجْعًا مُزْدَقًا إياها بالالف، نحو «صباحًا» و«صلاخًا»، وما أشبه ذلك، طال مجموعها فناهزت الأربعين، وطاب مَسْمَعُهَا، فأحرزت بُغْيَةَ المُسْتَمْعِينَ، فكتب إليه أبو المُطَرِّف ابن عَمِيرَةَ، رسالته الشهيرة، يداعبه في ذلك، وهي التي أولها:

«تحريك الأقلام تحية كسرى، وتقف دون مداك خسرى». ومنها في الغرض: «وما لك أُمِيتَ تَغْيِيرَ الحالات، فَشَنَّتْ غارتك على الحاءات، وَنَقَضَتْ عنها المهارق، وَبَعَثَتْ في طلبها السوابق، وَلَقِظَتْها من الأقواء، وَطَلَبَتْها بين الشِّفَاء، حتى شهد أهل اللسان بتزحزحها عن ذلك المكان، وَتَوَارَتْ بالحُلُوق، ولو تَغَلَّغْتَ إلى العُروق، لَأَثَرَتْها جِياذُك، وَافْتَنَصْها قَلَمُك ومِداذُك». وهي طويلة.

فراجع بقوله: «ما^(٢) هذه التحية الكسروية؟ وما هذا الرأي وما^(٣) هذه الروية؟ أتُنَكِّيت من الأقلام؟ أم^(٤) تُنَكِّيت من الأعلام؟ أم^(٥) كلا الأمرين تَوَجَّه القصد إليه، وهو الحق مُصَدِّقًا لما بين يديه؟ وإلا فعهدي بالقلم يتسامى عن عكسه^(٥)، ويترامى إلى الغاية البعيدة بنفسه، فمتى لَأَثَرُ أنابيه للعاجم، ودانت أعاريه^(٦) بدين الأعاجم؟ وا عَجَبًا لَقَدْ اسْتَنَوَقَ الْجَمَلُ^(٧)، واختلف القول والعمل، لأمر ما جَدَعَ أَنْفَهُ قَصِيرُ^(٨)، وارتدَّ على عَقِبِهِ الأعمى أبو بصير. أفسس أَسْتَشْقِي مِنْ سَحَابِهِ فلا يشقيني، وأَسْتَشْفِي بِأَسْمَائِهِ فلا يشفيني. واليوم يُحَلِّنِي محلَّ أنو شروان، ويشكو مني شكوى اليزيدية^(٩)

(١) في الأصل: «الإمالي» وكذا ينكسر الوزن. والإمثلة: الأمل. محيط المحيط (أمل).

(٢) النص في نفح الطيب (ج ١٠ ص ٢٦١ - ٢٦٧).

(٣) في النفح: «وهذه». (٤) في النفح: «أو».

(٥) عكس القلم هو: الملق. (٦) في النفح: «أعاريه للأعاجم».

(٧) أخذه من المثل: «قد استنوق الجمال» أي صار ناقة، يضرب هذا المثل في التخليط، والمراد: تغيُّرت الطباع. مجمع الأمثال (ج ٢ ص ٩٣) ومحيط المحيط (نوق).

(٨) هو مثل آخر، قيل في قصة احتيال قصير بن سعد القضاعي على الزباء ملكة تدمر حتى أخذ منها بالثار. محيط المحيط (زبا).

(٩) في النفح: «اليزيدية».

من بني مروان، ويزعم أنني أبطلتُ سحره^(١) كما أبطل سحرُ بردوران، ويخفي في نفسه ما الله مُبديه^(٢)، ويستجدي بالأثر ما عند مُستجديه. فمن أين جاءت هذه الطريقة المُتبعة، والطريقة^(٣) المُبتدعة، أيظن أن مُعمّاه لا يُفك^(٤)، وأنه لا يتجلى^(٥) هذا الشك؟ هل هذا^(٦) منه إلا إمحاض التيه، وإمحاض تفتيه، ونشوة من خمرة^(٧) الهزل، ونخوة من ذي ولاية آمين الغزل؟ تالله لولا محله من القسم، وفضله في تعليم النسم، لأسمعت^(٨) ما يقطع به صلفه، وأودعته ما يتصدع به صدقه، وأشدت^(٩) بشرف المشرقى ومجده^(١٠)، وأشرت إلى تعاليه عن اللعب بجده. ولكن هو القلم الأول، فقوله على أحسن الوجوه يتأول، ومغذود في تهذيبه، كل ما لسانه يهذي به. وما أنسانيه^(١١)، إلا الشيطان أياديه، أن أذكرها^(١٢)، وأما أقول: [البسيط]

ليت التحية كانت لي فأشكرها^(١٣)

ولا عتب إلا على الحاء^(١٤)، المبرحة بالبرحاء، فهي التي قيّمت^(١٥) قيامتي في الأنديّة، وقامت عليّ قيام المُعتدية^(١٦)، يتظلم وهو عين الظالم، ويلين القول وتحت سُم الأراقم^(١٧)، ولعمر البراعة وما نصّعت^(١٨)، والبراعة وما صنّعت، ما خامرني هواها^(١٩)، ولا كلفتُ بها دون سواها. ولقد عرّضت نفسها عليّ مرارًا، فأعرّضت عنها ازورارًا، ودفعتها عني بكل وجه، تارة بلطفٍ وأخرى بنجّه^(٢٠)،

(١) في النفع: «سحر» بئر دزوان.

(٢) أخذه من قوله تعالى: ﴿وَنُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَنَخْشَى النَّاسَ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

(٣) في النفع: «والشريعة».

(٤) في النفع: «لا ينفك».

(٥) في النفع: «لا ينجلي».

(٦) في النفع: «ذلك».

(٧) في النفع: «خمر».

(٨) في النفع: «وأشرت».

(٩) في النفع: «وما أنساني».

(١٠) أخذه من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْسَيْنِي إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَ﴾ [الكهف: ٦٣].

(١١) هو صدر بيت لكثير عزه، والبيت بتمامه هو: [البسيط]

ليت التحية كانت لي فأشكرها مكان يا جمل خبيث يا رجل

الأغاني (ج ٩ ص ٤٣) والشعر والشعراء (ص ٤١٨).

(١٢) قد تكون قصيدة حانية، أو رسالة بُنيت على تكرير حرف الحاء في كل كلمة.

(١٣) في النفع: «أقامت».

(١٤) في النفع: «ولعمر البراعة وما رضعمت».

(١٥) في النفع: «لأن العرب (رقم)».

(١٦) في النفع: «لأن العرب (نجه)».

وخفت منها السامة، وقلت انكحي أسامة. فرضيت منها^(١) بأبي جهم^(٢) وسوء سلكته^(٣)، وابن أبي سفيان وصغلكته، وكانت أسرع من أم خارجة للخطبة، وأسمع من سجاح^(٤) في استنجاح تلك الخطبة. ولقد كنت أخاف من انتقال الطباع في عثرتها^(٥)، واستقال الاجتماع من عثرتها^(٦)، وأرى من الغبن والشفاء، أخذها وترك بنات الأفواه والشفاء^(٧)، إذ هي أيسر مؤونة، وأكثر^(٨) معونة، فغلطني^(٩) فيها أن كانت بمنزل تتوارى صوئنا عن الشمس، ومن نسيوة خفريات لا ينطقن إلا بالهمس، ووجدتها أطوع من البنان للكف، والعنان للوكف^(١٠)، والمعنى للاسم، والمعنى للرسم، والظل للشخص، والمستبدل^(١١) للنص. فما عرفت منها إلا خبرا^(١٢) أرضاه، حتى حسبتها من الحافظات للغيب بما حفظ الله، فعجبت لها الآن كيف زلت نعلها، ونشزت فنشرت ما استكتمها بعلها، واضطربت في رأيها اضطراب المختار بن^(١٣) أبي عبيد، وضربت في الأرض تسمى علي بكل مكر وكيد، وزعمت أن حرف^(١٤) الجيم خدعها، والآن^(١٥) أخذعها، وأخبرها أن سيبلغ بخبرها الخابور^(١٦)، وأحضرها لصاحبها كما أحضر بين يدي قيصر سابور^(١٧)، فقد جاءت إفكا وزورا، وكثرت من أمرها شرورا^(١٨)، وكانت كالقوس أرئت وقد أضمت القنيص، والمراودة قالت ﴿مَا جَزَاءُ﴾^(١٩) وهي التي قدت

(١) في النفع: «مني».

(٢) يشير هنا إلى قصة فاطمة بنت قيس، أخت الضحاك، حين خطبها معاوية بن أبي سفيان وأبو جهم، فتزوجت أسامة بن زيد؛ لأن معاوية وصف بأنه صعلوك لا مال له، وأبو جهم كان لا يضع عصاه عن عاتقه، أي أنه كان يضرب النساء.

(٣) في النفع: «ملكته».

(٤) في النفع: «وأسمع من سجاح». وأخبار سجاح مع مسيلمة الكذاب معروفة، وقد ضرب بها المثل في الإسماع.

(٥) في النفع: «عثرتها».

(٦) في النفع: «عثرتها».

(٧) بنات الأفواه والشفاء: الحروف مثل الباء والميم وغيرهما.

(٨) في النفع: «وأكثر».

(٩) في النفع: «فغلطني».

(١٠) في النفع: «للكف».

(١١) في النفع: «والمستدل».

(١٢) في النفع: «خيرا أرضاه، وحسبتها».

(١٣) كلمة «بن» ساقطة من الإحاطة. وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي، الذي ثار عام ٦٥ هـ، مطالباً بدم الحسين بن علي، عليهما الصلاة والسلام.

(١٤) في النفع: «أن الجيم».

(١٥) في الأصل: «والآن» والتصويب من النفع.

(١٦) الخابور: من روافد نهر الفرات؛ يريد أن يقول: إنه سيبلغ خبرها إلى مكان ناء.

(١٧) هو سابور ذو الأكتاف، يقال إنه تنكر ودخل بلاد الروم فوقع في يدي قيصر.

(١٨) في النفع: «منزورا».

(١٩) سورة يوسف ١٢: الآية ٢٥.

القَمِيص^(١)، وربما يُظَنُّ بها الصدق، وظنُّ الغيب تَزْجِيم، ويقال: لقد خُفِضَت الحاء بالمجاورة لهذا الأمر الجسيم^(٢)، وتنتصر لها أختها^(٣) التي خِيَمَت بين النرجسة والريحانة، وختمت السورة باسم جعلت ثانيه أَكْرَم نبيٍّ على الله سبحانه، فإن امتَعَضَتْ لهذه المتظلمة^(٤)، تلك التي سبقت بكلمتها بشارة المتكلمة^(٥)، فأنا ألوذ بعدلها، وأعوذ بفضلها، وأسألها أن تقضي قضاء مثلها، وتعمل بمقتضى: ﴿فَابْتَغُوا حَكْمًا مِّنْ أَهْلِهَا وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾^(٦) على أن هذه النسي قد أَبْذَتْ مَينها^(٧)، ونَسِيت الفضل بيني وبينها، أن قال الحَكَمَان: منها كان النشور، عادت حُرُورية^(٨) العجوز، وقالت: الشَّحْكُم^(٩) في دين الله لا يجوز، فعند ذلك يُخَضِّص^(١٠) الحق، ويعلم من الأُولى بالحكم والأحق، ويصيبها ما أصاب أروى، من دعوة سعيدة^(١١) حين الدُّعوى، ويا وَيَحْها أن^(١٢) أرادت أن تجني عليّ فجنت لي، وأناخت لي مَرْكَب السعادة وما ابْتَغَتْ إِلَّا خَتْلِي، فأتى شرُّها بالخير، وجاء النَّفْعُ من طريق ذلك الضَّير. أتراها علمت بما يشيرُه اعوجاجُها، وينجلي عنه عَجَاجُها؟ فقد أفادت عظيم الفوائد، ونظيم الفرائد، ونَفْسُ الْفَخْرِ، ونَفِيسُ الذُّخْرِ^(١٣)، وهي لا تنكر^(١٤) أن كانت من الأسباب، ولا تذكر إِلَّا يوم المَلاحاة والسَّباب. وإنما يستوجب الشكر جسيمًا، والثناء الذي يتضوع نسيما، الذي شَرَفَ إذ أهدى أشرف السُّحاءات، وعَرَّفَ بما كان من انتحاء تلك الحاء المذمومة في الحاءات، فإنه وإن أَلَمَّ بالفكاهة، فما أَمَلَى^(١٥) من البداهة، وسَمَى باسم السابق السُّكَيْت، وكان من أمر مداعبته كَيْت وكَيْت، وتلاعب بالصفات^(١٦)، تلاعب السَّيْل بالصفاة، والصُّبا بالبانة، والصُّبا بالعاشق ذي اللَّبانة، فقد أَعْرَبَ بفنونه، وأغرى

(١) إشارة إلى قصة امرأة العزيز في قوله تعالى: ﴿وَرَزَوْتَهُ آلِي مَرْوٍ يَتِيهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتْ آلِ ابْرَأَةَ﴾ [يوسف: ٢٣]. وعندما انفضح أمرها قالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يَسْتَبْنَ أَزْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الآية.

(٢) في النفع: «لهذا الجيم».

(٣) كلمة «أختها» ساقطة في النفع.

(٤) في النفع: «الكلمة».

(٥) في النفع: «الكلمة».

(٦) سورة النساء ٤، الآية ٣٥.

(٧) حرورية: أي ترفض التحكيم وتقول: لا حكم إلا لله.

(٨) في النفع: «التحكيم».

(٩) يُخَضِّصُ الحق: يظهر ويبين. لسان العرب (حصحص).

(١٠) في النفع: «سعيدية».

(١١) كلمة «أن» ساقطة في النفع.

(١٢) في النفع: «لا تشكر».

(١٣) في النفع: «بما أمل».

(١٤) في النفع: «في الصفات تلاعب الصفايح والصُّبا بالبانة».

القلوب بِقُتُونِهِ، ونَفَثَ بِجَفَنِهِ^(١) الأطراف، وَعَبَثَ مِنَ الْكَلَامِ الْمُشَقُّقِ الْأَطْرَافِ^(٢)،
وعَلِمَ كَيْفَ يُلَخِّصُ^(٣) الْبَيَانَ، وَيُخَلِّصُ الْعَقِيَانَ. فَمَنْ الْحَقُّ أَنْ أَشْكُرَهُ عَلَى أَيَادِيهِ
الْبَيْضِ، وَأَنْ آخِذَ لَفْظِهِ^(٤) مِنْ مَعْنَاهُ فِي طَرَفِ النَقِيضِ. تَالَلَهُ أَيُّهَا الْإِمَامُ الْأَكْبَرُ،
وَالْغَمَامُ الْمُسْتَمَطَّرُ، وَالْخَبَرُ^(٥) الَّذِي يُشْفِي سَائِلَهُ، وَالْبَحْرُ الَّذِي لَا يُرَى سَاحِلُهُ، مَا
أَنَا الْمُرَادُ بِهَذَا الْمَسْلُوكِ، وَمَنْ أَيْنَ حَصَلَ^(٦) النُّورُ لِهَذَا الْخَلْكَ؟ وَصَحُّ أَنْ يُقَاسَ بَيْنَ
الْحَدَادِ وَالْمَلِكِ؟ إِنَّهُ لَتَوَاضَعُ الْأَعِزَّةُ، وَمَا يَكُونُ لِلْأَكَارِمِ^(٧) عِنْدَ الْمَكَارِمِ مِنَ الْعِزَّةِ،
وَتَحْرِيطُ الشَّيْخِ لِلتَّلْمِيذِ، فِي^(٨) إِجَازَةِ الْوَضْعِ بِالنَّبِيذِ. وَلَوْ حَضَرَ الَّذِي قُضِيَ لَهُ
بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ أَمْرُ الْبَلَاغَةِ، وَارْتَضَى مَا لَهُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ، مِنْ حُسْنِ السَّبْكِ
لِحِلْيَتِهَا^(٩) وَالصِّيَاغَةِ، وَأَطَاعَتِهِ فِيمَا أَطْلَعَتْهُ طَاعَةُ الْقَوَافِي الْحَسَانَ، وَأَتَّبَعَتْهُ فِيمَا جَمَعَتْهُ
لَكِنْ بِغَيْرِ إِحْسَانٍ، لِأَذْعَنَ كَمَا أَدْعَيْتُ، وَظَعَنَ عَنْ مَحَلِّ دَعْوَى^(١٠) الْإِجَادَةِ كَمَا
ظَعَنْتُ، وَأَتَى يُضَاهِي الْفُرَاتِ الْمَعِينِ^(١١) بِالنُّبَةِ^(١٢)، وَيُبَاهِي بِالْفُلُوسِ مَنْ أَوْتِيَ مِنَ
الْكُنُوزِ مَا أَنَّ مِفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعَصْبَةِ، وَأَيُّ حِظٍّ لِلْكَلَالَةِ فِي النَّشَبِ^(١٣)، وَقَدْ اتَّصَلَ
لِلوَرْتَةِ عَمُودُ النَّسَبِ. هِيَاهُ وَاللَّهِ بَعْدُ^(١٤) الْمَطْلَبُ، وَشَتَانُ الدَّرِّ وَالْحَشْلَبِ^(١٥)،
وَقَدْ سِيمَ الْعَلْبُ، وَرَجَعَ إِلَى قِيَادَةِ السَّلْبِ، وَإِنْ كُنَّا مَمَّنْ تَقَدَّمَ لَشِدَّةِ الظُّلْمِ إِلَى
الْمَنْهَلِ، وَكَمَنْ أَقْدَمَ إِلَى عَيْنِ تَبُوكَ بَعْدَ التَّهْيِ لِلْعَلِّ وَالنَّهْلِ. فَقَدْ ظَهَرَتْ بِذَلِكَ^(١٦)
الْمُعْجِزَةُ عِيَانًا، وَمَلَى مَا هُنَاكَ^(١٧) جِنَانًا، وَمَا تَعَرَّضْنَا بِإِسَاءَةِ الْأَدَبِ وَاللُّومِ، وَلَكِنْ
عَلِمْنَا أَنَّ آخِرَ الشَّرْبِ^(١٨) سَاقِي الْقَوْمِ، وَإِنْ أَسْهَبْنَا فَمَا يَلْنَا رَتَبَةَ ذَلِكَ الْإِيجَازِ، وَإِنْ
أَغْرَقْنَا فَهَوَانًا فِي الْحِجَازِ، فَلَكُمْ قَصِيرَاتُ الْحِجَالِ، وَلَنَا قَصِيرَاتُ الْخَطَا فِي هَذَا
الْمَجَالِ، وَإِكْثَارُنَا فِي قِلَّةٍ، وَجَارُنَا مِنَ الْفَقْرِ فِي فَقْرٍ وَذَلَّةٍ. وَمَنْ لَنَا بِوَاحِدَةٍ يُشْرِقُ
ضِيَآؤُهَا، وَيُخْفِي النُّجُومَ خَبْلُهَا مِنْهَا وَحَيَاؤُهَا؟ إِنْ لَمْ تُطَلْ فَلَانِهَا لِلْفُرُوعِ كَالْأَصْلِ،
وَفِي الْمَجْمُوعِ^(١٩) كَلِيلَةُ الْوَضْلِ. فَلَوْ سَطَعَ نُورُهَا الزَّاهِرُ، وَنُورُهَا الَّذِي تَطْيِبُ مِنْهُ

(١) فِي النَّفْحِ: «بِخَفِيَّة».

(٢) فِي النَّفْحِ: «بِمَحْض».

(٣) فِي النَّفْحِ: «وَالْحَبْر».

(٤) فِي النَّفْحِ: «عِنْدَ الْكَرَامِ مِنَ الْهَزَةِ».

(٥) فِي النَّفْحِ: «لِحِلْيَتِهَا».

(٦) كَلِمَةُ «الْمَعِينِ» سَاقِطَةٌ فِي النَّفْحِ.

(٧) النَّبَةُ: الْجُرْعَةُ مِنَ الْمَاءِ. لِسَانُ الْعَرَبِ (نَغْب).

(٨) فِي النَّفْحِ: «بِالنَّشَبِ».

(٩) فِي النَّفْحِ: «وَالْمَحْشَلَبِ».

(١٠) فِي النَّفْحِ: «وَمَلَى مَا هُنَاكَ».

(١١) فِي النَّفْحِ: «الْمَجْمُوع».

(١٢) فِي النَّفْحِ: «بِالْأَطْرَافِ».

(١٣) فِي النَّفْحِ: «وَأَنْ آخِذَ لَفْظَهُ...».

(١٤) فِي النَّفْحِ: «حَصَلَ ذَلِكَ التَّوَرُّ».

(١٥) فِي النَّفْحِ: «وَتَرْخِيصٌ فِي...».

(١٦) كَلِمَةُ «دَعْوَى» سَاقِطَةٌ فِي النَّفْحِ.

(١٧) كَلِمَةُ «بَعْدُ» سَاقِطَةٌ فِي النَّفْحِ.

(١٨) فِي النَّفْحِ: «بَعْدَ ذَلِكَ».

(١٩) فِي الْأَصْلِ: «الشَّرَابُ» وَالتَّصْوِيبُ مِنَ النَّفْحِ.

الأنوار الأزاهر، لَسَجَدَتِ الثَّيْرَانُ لِيُوسُفَ ذَلِكَ الْجَمَالِ، وَوَجَدَتْ نَفَحَاتِ رِيَّاهَا فِي
أَعْطَافِ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ، وَأَسْرَعَتْ نَحْوَهَا النُّفُوسُ إِسْرَاعَ الْحَجِيجِ يَوْمَ النَّفْرِ، وَسَارَ
خَبْرُهَا وَسَرَى فَصَارَ حَدِيثَ الْمُقِيمِينَ وَالسُّفَرِ. وَمَا أَظُنُّ^(١) تِلْكَ السَّاحِرَةَ فِي
تَدْلِيهَا^(٢)، إِلَّا السَّاحِرَةَ بِتَجْنِيهَا، إِذْ كَانَتْ رِبِيَّتَهَا، بَلْ رِبِيَّتَهَا، هَذِهِ الَّتِي سَبَقْتَنِي لَمَّا
سَبَقْتَنِي بِسِينِهَا^(٣)، وَوَجَدْتُ رِيحَهَا، لَمَّا فَصَلْتُ مِنْ مِصْرَها غَيْرَهَا^(٤) وَحِينَ وَصَلْتُ
لَمْ يَدُلَّنِي عَلَى سَابِقِهَا^(٥) إِلَّا غَيْرُهَا، وَكَمْ رَامَتْ أَنْ تَسْتَتِرَ عَنِّي بَلِيلُ خَبَرِهَا فِي هَذِهِ
الْمِغَانِي، فَأَغْرَانِي بِهَآؤِهَا وَكُلَّ مُغْرَمٍ مُغْرَى بِبَيَاضِ صُبْحِ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي. وَهَلْ كَانَ
يَنْفَعُهَا تَلْفُحُهَا بِمِزْطِهَا وَتَلْفُعُهَا؟ إِذْ نَادَتْهَا الْمَوْدَةُ، فَقَدْ عَرَفْنَاكَ يَا سَوْدَةَ. فَأَقْبَلْتُ عَلَى
شَمِّ نَشْرِهَا وَعَرْفِهَا، وَلَثَمْتُ سَطْرَهَا وَخَرَفَهَا، وَقَرَيْتُهَا الشَّاءَ الْحَافِلَ، وَقَرَأْتُهَا فَرَزَيْنَتْ بِهَا
الْمَحَاضِرُ وَالْمَحَافِلُ^(٦). وَرُمْتُ أَمْرَ الْجَوَابِ، فَغَرَّتَنِي^(٧) فِي الْخَطَابِ، لَكِنْ رَسَمْتُ
هَذِهِ الرُّقْعَةَ الَّتِي هِيَ لَدَيْكُمْ بَعَجَزِي وَاشِيَّةً، وَإِلَيْكُمْ مِنِّي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ مَاشِيَّةً، وَإِنْ
رَقَّ وَجْهُهَا فَمَا رَقَّتْ لَهَا حَاشِيَّةً، فَمُنُوا بِقَبُولِهَا عَلَى عِلَّاتِهَا^(٨)، وَانْقَعُوا بِمَاءِ
سَمَاحَتِكُمْ خَرُّ غُلْلِهَا، فَإِنَّهَا وَافِدَةٌ مَنِ اسْتَقَرَّ قَلْبُهُ عِنْدَكُمْ وَتَوَى، وَأَقْرَأُ بِأَنَّهُ يَلْقُطُ فِي
هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مَا يُلْقَى لِلْمَسَاكِينِ مِنَ الثُّوَى. بِقِيَّتُمْ، سَيَدِي الْأَعْلَى^(٩) لِلْفَضْلِ
وَالْإِغْضَاءِ، وَدَمْتُمْ غُرَّةً فِي جَبِينِ السَّمْعَةِ الْبَيضاءِ، وَاقْتَضَيْتُمْ السَّعَادَةَ الْمُتَّصِلَةَ مَدَّةَ
الْإِقْتِضَاءِ، يُمْنُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ. انْتَهَى.

ومحاسنه عديدة، وآماده بعيدة.

دخوله غرناطة: دخلها مع المتوكل مخدومه، أو وجده بها.

من روى عنه: روى عن أبي الحسن سهل بن مالك.

وفاته: قال الأستاذ في الصلة^(١٠): انتقل إلى بجاية فتوفي بها في عشر الخميس
وستمائة^(١١).

(١) في النسخ: «وما ضرَّ تلك».

(٢) في النسخ: «في تجليها، الساحرة بتجنيها، أن كانت بمنزلة ربيبتها بل يزبها،
هذه...».

(٣) في النسخ: «بسيها».

(٤) في النسخ: «من مصر غيرها».

(٥) في النسخ: «سارها».

(٦) في النسخ: «فرزيت بها المحافل».

(٧) في النسخ: «نغرني».

(٨) في النسخ: «عللها».

(٩) كلمة «الأعلى» ساقطة في النسخ.

(١٠) المراد «صلة الصلة» لابن الزبير.

(١١) كذا ورد في نفع الطيب (ج ١٠ ص ٢٧٦).

محمد بن محمد بن أحمد بن شلبطور الهاشمي^(١)

من أهل^(٢) المريّة، يكنى أبا عبد الله، من وجوه بلده وأعيانه، نشأ نبيه البيت، ساحباً بنفسه وبماله ذَيْلَ الحُظرة، متحلّياً بخُصْل من خطّ وأدب، وزيراً، متجنّداً، ظريفاً، درّياً على ركوب البحر وقيادة الأساطيل. ثم انحطّ في هواه انحطاطاً أضاع مروءته، واستهلك عقاره، وهذّب بئته، وألجأ أخيراً إلى اللّحاق بالعدوة فهلك بها.

وجرى ذكره في الإكليل بما نصّه^(٣): مجموع شعر وخطّ، وذكاء عن درجة الظرفاء غير مُنحطّ، إلى مجادة أثيلة البيت، شهيرة الحيّ والميت. نشأ في ججر الثّرف والنعمة، محفوقاً بالماليّة الجمّة، فلما غفل^(٤) عن ذاته، وترعرع بين لذاته، أجرى خيول لذاته، فلم يدغ منها ربّناً إلّا أقفره، ولا عقّاراً إلّا عقّره، حتى حطّ بساحلها، واستولى بسفر^(٥) الإنفاق على جميع مراحلها، إلّا أنه خلّص بنفس طيبة، وسراوة سماؤها صيّبة، وتمتّع ما شاء من زير وبتم^(٦)، وتأنّس لا يعطي^(٧) القياد لهم. وفي عفو الله سعة، وليس مع التوكل على الله ضعة.

شعره: من شعره^(٨) قوله يمدح السلطان، وأنشدها إياه بالمضارب من وادي الغيران عند قدومه من المريّة^(٩): [الطويل]

أثغرك أم سيمط من الدرّ يُنظّم؟	وريقك أم يسك به الرّاح تُختم؟
ووجهك أم باد من الصّبح نير؟	وقزعك أم داج من الليل مظلم؟
أغلّ منك النفس والوجد مُثلفي	وهل ينفع التّعليل والخطب أعظم ^(١٠) ؟
واقنع من طيف الخيال يزورني ^(١١)	لو أنّ جفوني بالمنام تنعم
حملت الهوى حيناً فلمّا علمته	سلوت لأنني بالمكّارم مُغرم

(١) ترجمة ابن شلبطور في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢١٥) وجاء فيه «ابن شلبطور» بالسين المهملة. وشلبطور: بالإسبانية Salvador، ما يدل على أنه من أصل مولدي.

(٢) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣١٧). (٣) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣١٧).

(٤) في النفح: «عقل». (٥) في النفح: «بفر».

(٦) الزير والبتم: من أوتار العود. لسان العرب (زير) و(بتم).

(٧) في النفح: «لم يُعط». (٨) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢١٨).

(٩) ورد من هذه القصيدة في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢١٨) فقط الأبيات الأربعة الأولى، وجاء هناك: «عند قدومه المريّة».

(١٠) في النفح: «... منك الوجد والليل مظلم وهل... والخطب مؤلم».

(١١) في النفح: «بزورة».

ولي في أمير المسلمين محبة
بلغت المني لما لثقت يمينه
يصوغ قومي الشعر في طيب ذكره
فاستمسك الدين الحنيف زمانه
له نظر في المشكلات مؤيد
ويستغرق طارحا فيه وابل جوده
فلو أن أملاك البسيطة أنصفوا
وفي الدين والدنيا وفي البأس والتدى
ومنها:

إليك أمير المسلمين اقتضيتها
تتم بعزف المسك أنفاسها
فباسمك سيرت في المسامع ذكرها
ولو أنني في المدح سخيان وائل
لما كنت إلا عن علاك مقصّر
بقيت ملاذا للأنام ورحمة
ومن شعره مذيلا على البيت الأخير

نامت جفونك يا سؤلي ولم أنم
أشكو إلى الله ما بي من محبتكم
«إن كان سفك دمي أقصى مرادكم
ومما نسب إليه كذلك»^(١): [السريع]

قف بي وناد بين تلك الطلوع
أين ليالينا بهم والمشي
لا حملوا بعض الذي حملوا
إن غبتكم يا أهل نجد ففي

فؤادي مشغوف بها ومثيم
فها أنذا في جنة الخلد أنعم
ويحسن فيه النظم من ليس ينظم
وقام منار الحق والشرك مغرم
والله مهدي إلى الرشيد ملهم
فمن فعله في جوده يتعلم
لألقوا إليه الأمر طوعا وسأما
لكم يا بني نصر مقام معظم

حمائل شكر طيرها مثرنم
إذا يفوه لراو في الندى بها فم
ويغزى في أقصى البلاد ويشم
وانجدني فيه حبيب ومسلم
ومن بعض ما نشدت وتولي وتنع
وساعدك الإسعاد حيث يتمم
حسبما نسب إليه^(٢): [البسيط]

ما ذاك إلا لفرط الوجد والألم^(٣)
فهو العليم بما تلقى من السقم^(٤)
فما غلت نظرة منكم بسفك دمي

أين الألى كانوا عليها نزون
نجنیه غضا بالرضا والقبول
يوم تولت بالقياب الحُمون
قلبي أنتم وضلوعي حلول

(١) الأبيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢١٨).

(٣) في النفع: «... بما ألقى من الألم».

(٢) في النفع: «والسقم».

(٤) الأبيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢١٨).

ومما خاطبني^(١) به : [الرجز]

تالله ما أوزى زناد القلق
أيقنت بالحين^(٢) فلولا نفحة
لكنك أقضي بتلظي زفرة
فأه من قول النوى وما جنى
يا حاكمي القطن أننى متوجا
الله في نفس معنى أقصدت
أتى على أكثرها بزح^(٣) الأسى
ولو بالمام خيال في الكرى
قرب زور من خيال زائر
شفيت^(٤) من بزح الأسى لو أن من
ففي معاناة الليالي عائق
وفي ضمان ما يعاني المرء من
هذا لعمرى مع أنى لم أبت
فقد أخذت من خطوب عذرها
فخر الوزارة الذي ما مثله
ومذ أرائيه زمانى لم أبلى^(٥)
لا سيما منذ^(٦) حططت في جمى
أيقنت أنى في رجائي لم أخب
نذب له في كل حسن آية

سوى ربح^(٧) لآخ لي بالأبرق^(٨)
تجدية منكم تلافى رمقى
وحسرة بين الدموع^(٩) تلتقى
على القلوب موقف الشفرق
بالبدل تحت لمة من غسق
من لاعج الشوق بما لم تطبق
دغ ما مضى منها وأدرك ما بقي
إن ساعد الجفن رقيب الأرق
أقر عيني وإن لم يصدق
أصبح رقى في يديه مغتقى
عن التصابى وفنون القلق
نوائب الدهر مشيب المفرق
منها بشكوى روعة أو فرق^(١٠)
بابن الخطيب الأمن مما أتقى^(١١)
بدل علا في مغرب أو مشرق
من صرّفه من مزعد^(١٢) أو مبرق
جواره^(١٣) الامنع رخل أيقنى
وأن مسمى بغيتي لم يخفق
تناسبت في الخلق أو في^(١٤) الخلق

(١) القصيدة في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢١٥ - ٢١٧).

(٢) في النفع: «بريق».

(٣) الأبرق: اسم مكان.

(٤) الحين: الهلاك. لسان العرب (حين).

(٥) البزح: الشدة. لسان العرب (برج).

(٦) الفرق، بالفتح: الخوف. لسان العرب (فرق).

(٧) في الأصل: «إلا من مما أتق». والتصويب من النفع.

(٨) لم أبلى: أصله: لم أبالي، أي لم أكثرث. (١١) في النفع: «بمزعد».

(٩) في الأصل: «مذ» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(١٠) في النفع: «مقامه».

(١١) كلمة «في» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من النفع.

في وجهه مَسْحَةٌ بِشَرِّ إِنْ بَدَتْ
تُغْتَبَرُ الْأَبْصَارُ فِي لَأَلْنَهَا^(١)
كَالدَّهْرِ فِي اسْتَيْنَائِهِ وَبَطْشِهِ
إِنْ بَخُلَ الْغَيْثُ اسْتَهْلَتْ يَدُهُ^(٢)
وَإِنْ وَشَتْ صَفْحَةُ طَرْسٍ انْجَلَى
بِمِثْلِهَا مِنْ خَبَرَاتٍ أَخْجَلَتْ
مَا رَاقَ فِي الْأَذَانِ أَشْنَأُ سِوَى
تَوَدُّ أَجْيَاذِ الْغُرَانِي أَنْ يُرَى
فَسَلَّ بِهِ هَلْ آدَهُ^(٣) الْأَمْرُ الَّذِي
إِذَا رَأَى الرَّأْيَ فَلَا يُخْطِئُهُ
أَيُّهَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ هَاكُنْهَا
خُذْهَا إِلَيْكَ بِكَرٍّ فَكَّرٍ يَزْدَرِي
لَا زَلَّتْ مَرْهُوبَ الْجَنَابِ مُرْتَجِي
مُبْلَغَ الْأَمَالِ فِيمَا تَبْتَغِي

تَبْهَرُجَتْ أَنْوَارُ شَمْسِ الْأَفَقِ
عَلَيْهِ مِنْ نَوْرِ السُّمَاحِ الْمَشْرِقِ
كَالسَيْفِ فِي حَدِّ الظُّبَا وَالرُّونِقِ
بِوَابِلٍ مِنْ غَيْثٍ جُودٍ غَدِيقِ
لَيْلُ دُجَاهَا عَنْ سَنَى مُؤْتَلَقِ
حَوَاشِي الرُّوضِ خُدُودُ الْمَهْرَقِ
مَلْتَقِطَاتٍ لَفْظُهُ الْمُفْتَرَقِ
خَلِيْهَا مِنْ دَرِّ ذَاكَ الْمَنْطَقِ
حُمْلٌ فِي شَرْخِ الشَّبَابِ الْمُونِقِ؟
يُضْمَنُ اخْتِيَارَ لِلطَّرِيقِ الْأَوْفَقِ
عِذْرَاءُ تَخْشُو فِي وَجْهِهِ السُّبُقِ
لَدَيْكَ بِالْأَعْشَى لَدَى الْمُحَلَّقِ^(٤)
مَوْصُولَ عِزٍّ فِي مَعُودٍ تَرْتَقِي
مُؤْمِنَ الْأَغْرَاضِ فِيمَا^(٥) تَتَّقِي

ناب^(٦) في القيادة البحرية عن خاله القائد أبي علي الرنداحي، وولي أسطول
المنكب برهة. توفي^(٧) بمراكش في^(٨) عام خمسة وخمسين وسبعمائة رحمه الله.

محمد بن محمد بن جعفر بن مُشْتَمَلِ الْأَسْلَمِي

من أهل المرية، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالبلياني.

- (١) في الأصل: «لألأنها» وكذا ينكسر الوزن. وفي النسخ: «في اللألا ما».
- (٢) استهلت يده: كثر إغداقها، وهنا يشبه اليد بالديمة التي اشتد انصبابها على سبيل الاستعارة.
- (٣) آده: ثقل عليه. لسان العرب (أدي).
- (٤) الأعشى: هو الأعشى ميمون بن قيس. والمحلق: رجل فقير استضاف الأعشى ونحر له وسقاء، ثم شكاه أن له بنات لم يتزوجن، فأنشد الأعشى في عكاظ قصيدته الكافية بمدح المحلق ومنها [الطويل]:

تَشَبُّ لِمَقَرُّوْرَيْنِ يَضْطَلِيَانِهَا وِبَاتِ عَلَى النَّارِ الْبُندَى وَالْمُحَلَّقُ
فَلَمْ يَحُلِ الْحَوْلُ حَتَّى تَزَوَّجَتْ بَنَاتُ الْمُحَلَّقِ كُلِّهِنَّ. لسان العرب (حلق).

- (٥) في النسخ: «يَمَّا».
- (٦) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢١٩).
- (٧) في النسخ: «وتوفي».
- (٨) كلمة «في» غير واردة في النسخ.

حاله: قال شيخنا أبو البركات: ناب عني في بعض الأعمال بالمرية، وخطب بنحانس من غربيها، ثم خطب بحمة مُرشانة، وهو الآن بها، وعقد الشروط قبل بالمرية. عفيف طاهر الذيل، نبيل الأغراض، مهذب الأخلاق، قيّم على القراءات والنحو والأدب، جيّد الشعر والكتابة.....^(١) من الضبط، وإجادة العبارة عن المعنى المراد.

تواليقه: قال: له رَجَز في علم الكلام جيد، ورجز آخر في ألفاظ فصيح ثعلب، عربي عن الحشو، على تَغْيِير فيه يُغْتَفَر لما جمع من اقتصاره، وله تأليف في الرباء^(٢) سماه بإصلاح النية في المسألة^(٣) الطاعونية.

مشيخته: قال: أخذ عني وعن أبيه جملة من الدواوين، وعن غيري من أهل بلده.

شعره: قال: ومما أنشدني من شعره قوله: [الطويل]

هَفا بي من بين المغاني عقيقها	ومن بينه انقضت لعيني عقيقها
ومالت من البیداء عنها قبابه ^(٤)	وأشرقني بالدمع منها شروقها
يَهَيِّجُ أنفاسي غراماً نسيتمها	وتقدح نار الشوق عندي بروقها
ومن دون واديهما ظباء ^(٥) خوادل ^(٦)	حكى لحظها ماضي الشفار رقيقها
فلو برزت للشمس ^(٧) منهن في الضحى	مُخَذَّرَة أضحت كمالاً تفوقها
نسيم الصبا، إن سِيرَتْ نحو الجحى	تحبي ^(٨) الديار التازحات تشوقها
غريب كئيب مُستَهَام مُتَيِّم	جريح الجفون الساهرات عريقها
فهل عطفة تُرجى وهل أمل يرى	بعودة أيام تقضى أنيقها؟
سَقْنَا ومن أدمع الصب جودها ^(٩)	ومن ^(١٠) ديم الغيث المليّات ريقها

(١) بياض في الأصل.

(٢) في الأصل: «المسلة».

(٣) قوله: «من البیداء عنها» ماقط في الأصل، وقد أضفناه ليستقيم الوزن والمعنى معاً.

(٤) في الأصل: «ظبا» وكذا ينكسر الوزن.

(٥) الخوادل: جمع خذلاء وهي المرأة الممتلئة الأعضاء لحماً في دقة عظام. محيط المحيط (خذل).

(٦) في الأصل: «الشمس» وكذا ينكسر الوزن.

(٧) في الأصل: «فقل تحي الديار...» وكذا ينكسر الوزن.

(٨) في الأصل: «سقى وتعلم من أدمع الصب جودها» وكذا ينكسر الوزن.

(٩) في الأصل: «من».

قال: وأنشدني أيضًا، وقال: كَلِفْتُ إجازة هذا البيت الأول من هذه القصيدة،
إذ ليس لي: [الكامل]

مَنْ عادلي؟ مَنْ ناصري أو مُنْصِفي^(١)؟
أو مَنْ يُخْلِصني وقد أوهى صحبـ
جَفْنٌ تحير والهوى يُهْدِيه
مُتَناعِسٌ يُهْدِي الشَّهاد ويصرع الـ
تبدو وتشدو للعيون ولللسان
مَلَكْتُ بصنعتها عنانَ عِنانها
تُغْني إذا غُثَّت بطيب صوتها
أما تَغْنَتْ أو تَثْنَتْ تهتف
يأتي على تَكَرَّر^(٢) ما غُثَّت به
تُهْدِي النفوسَ^(٣) على اختلاف طباعها
كُنَّا وَجَفْنُ الدهر عَنَّا ناعِسٌ
حتى وشى بالسُّر دهرٌ حاسد
واخْبَلْتا إن لم أُمِتْ يوم الثَّوى
لكنني مما نَحَلْتُ ودُبْتُ لم
كم ذا أبيتُ وليس لي من مُسعد
يا هل ترى هذا الزمانُ وصرْفُه
صبرًا أبا يعقوبهم فهي الثَّوى

هذا دمي^(٢) سَفَكَته بنتُ المُنْصِفِ
حُجَّ الجسم مَنِّي لَحْظُ طَرْفٍ مُدْنِفِ
لفؤادٍ كلُّ من الهوى لم يالف
بَطَلُ الكَمِيّ بلحظه المُتَضَعِفِ
مع فَهَيَ بين مُكْحَلٍ ومُشْنَفِ
وَعَدَتْ عليها كأنها^(٣) لم تُعرف
عن أن يُزَوِّدَ لَحْنُها بِالْمِغْزَفِ
قُمْرِي نَغْمَتها وعض المِغْطَفِ
صدَّقًا بكلِّ غريب مُسْتَطَرَفِ^(٥)
من تُبْلِها ما تشتهي بتَلْطَفِ
مِنْ^(٧) خَلْفِ سِثْرِ اللّامانِ مُسَجِّفِ
كَلِفْتُ بِشَغْفِصِ الكَريم الأَشْرَفِ
لهفًا وما إن كنتُ بَعْدُ بِمُنْصِفِ
يَرْنِي الجِمام فكنْتُ عنه أَخْتَفِي^(٨)
في حالتي غير الدموع الذُّرْفِ
هل يَسْمَحان بعودةٍ وتَأْلَفِ؟
لولا هَمَّتْ شوقًا للقياء يوسفِ

قال: وأنشدني أيضًا لنفسه، والبيت الأخير لغيره: [البسيط]

ما للأجبة في أحكامهم جاروا؟
نأوا جميعًا فلا جِلْ ولا جارُ

(١) في الأصل: «من عادى ومن ناصري ومنصفي» وكذا يخل الوزن والمعنى معًا.

(٢) في الأصل: «دمي» وكذا ينكسر الوزن. (٣) في الأصل: «كان» وكذا ينكسر الوزن.

(٤) في الأصل: «تكررا» وكذا ينكسر الوزن.

(٥) في الأصل: «أو مستطرف» وكذا ينكسر الوزن.

(٦) في الأصل: «للفوس» وهكذا يخل الوزن والمعنى معًا.

(٧) كلمة «من» ساقة في الأصل. (٨) في الأصل: «أخف» بدون ياء.

كيف البقاء^(١) وقد بانث قبائهم
 خداة تمسهم بالقلب قد رحلوا
 جار الزمان علينا في فراقهم
 ساروا فخيّمت الأشواق بغيرهم
 تراك يا ربّهم ترجو رجوعهم؟
 ودغث منهم شموسا ما مطالعها
 أستودع الله من فاز الفراق بهم
 وقد خلّت منهم وأسفي الدار؟
 يا ليتهم حملوا الجثمان إذ ساروا^(٢)
 من قبل أن تنقضي للضبّ أوطار
 ما لي عليها سوى الآماق أنصار
 يا ليت لو ساعدت في ذاك أقدار
 إلا من الوشي أطواق وأزرار
 وخلفونا^(٣) ودمع العين مذار

قلت: ولا خفاء بتخلف هذا النمط عن الإجادة، والله يقبض ويتسط، وشافنا عرض الإكثار.

وفاته: توفي في آخر أربعة وستين وسبعمائة.

محمد بن محمد بن حزب الله^(٤)

من أهل وادي آش، يكنى أبا عبد الله، ويعرف باسم جدّه.

حاله: دمث، متخلق، سهل الجانب، كثير الدعابة، خفيف الروح، له خط حسن، ووراقة بديعة، وإحكام لبعض العملية، واقتدار على النظم. اتصل بباب السلطان ملك المغرب، وأزتم كاتباً مع الجملة، فازتاش، وحسنت حاله.

وجرى ذكره في الإكليل الزاهر بما نصّه: راقم^(٥) واشي، رقيق الجوانب والحواشي، تزهى بخطه المهّارق والطروس، وتتجلى في حُلل بدائعه كما تتجلى العروس، إلى خلق كثير التجميل، ونفس عظيمة التحمل. ودود سهل الجانب، عذب المذائب. لما قضيت الواقعة بطريف^(٦)، أقال الله عثاها، وعجل ثاها، قذف به موج ذلك البحر، وتفلّت إفلات الهذي المقرب إلى النحر، ورمى به إلى رُندة القرار، وقد عرى من أثوابه كما عرى الغرار، فتعرّف للحين بأديبها المفلق، وبارقها المتألق

(١) في الأصل: «البقاء» وكذا ينكسر الوزن. (٢) في الأصل: «سار».

(٣) في الأصل: «وخلفوا» وكذا ينكسر الوزن.

(٤) ترجمة ابن حزب الله في الكتيبة الكامنة (ص ٢٧٤).

(٥) قارن بالكتيبة الكامنة (ص ٢٧٤).

(٦) كانت موقعة طريف الشهيرة بين الإسبان وبني مرين، وكان مع بني مرين قوات الأندلس بقيادة سلطان غرناطة أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل النصري، سنة ٧٤١ هـ، وكانت الهزيمة فيها للمسلمين. اللوحة البدرية (ص ١٠٥).

أبي الحجاج المُتَشَاْفِرِي، فراقه يبشر لقائه، ونَهَل على الظما في سِقائه، وكانت بينهما مخاطبات، أنشدنيها بعد إيباه، وأخبرني بما كان من ذهاب زاده وسَلَب ثيابه.

وخاطبني من شرح حاله في ارتحاله بما نصه: ولما دخلت رُندة الأنيقة البطاح، المحتوية على الأدب والسماح، والعلم والصلاح، أبرز القدر أن لقيت بها شيخنا المُعَمَّر رئيس الأدباء، وقُدوة الفقهاء، أبا الحجاج المُتَشَاْفِرِي، وكنت لم أشاهده قبل هذا العيان، ولا سَمَح لي بِلِقائه صرفُ الزمان، ولم أزل أَكَلِفُ بمقطوعاته العجيبة، وأولع بضرائبه الغريبة، وتأتي منه مخاطبات تُزْري بالعقود بهجة، وتطير لها العقود لهجة. نَظَمَ كما تنفَس الصبح عن تَسْنيمه، ونثر كما تأسس الثَر بتَنظيمه، فأحلتني منه محلَّ الروح من الجسد، وشهد لي أني أعزُّ مَنْ عليه وَرَد، ورأني قد ظهرت على مَضاضة الاكِتَاب، لكوني قريبَ عهدٍ بالإياب، مهزومًا انهزام الأحزاب، خالي الوطاب^(١)، نَزَر الثياب، فقال: فيم الجزع، ذهب بحول الله الخوف وأَمِنَ الفزع، فأجَبته عَجَلًا، وقلت أخاطبه مرتجلًا: [الكامل]

لا تجزعي، نفسي، لِفَقْد معاشرِي	وذهب مالي في سبيل القادرِ
يا رُندة ^(٢) ، ها أنتِ خَيْرُ بلاده	وبها أبو حجاج المُتَشَاْفِرِي
سِيرِك حُسن فرائدٍ من نظمه	فَتُزِيل كل كآبة في خاطرِ
فأجابني مرتجلًا: [الكامل]	

سُرَاي، يا قلبي المشوق، وناظري،	بمزارِ ذي الشرف السَّني الطاهرِ
روضُ المعارف زَهَرُها الزاهي	أوصافه ^(٣) أَعْيَت ثناء ^(٤) الشاكرِ
ولوادِ آسٍ مِنْ ^(٥) فخارٍ لم يزل	من كابن حزبِ الله نورِ الناظرِ
وافى يُشْرِفُ رُندةً بقدمه	فَعَدَّتْ به أفقا لبدرِ زاهرِ
من روضة الأدباء أبدى زهرة	قد أينعت عن فِكْر خَيْرِ ماهرِ
جمع المآثر بالسَّناء ^(٦) وبالسَّنا	أعْظَمَ به من صانع لمآثرِ
ما زلت أسمع من ثناء مآثرًا	كانت لسامعها معًا والذاكرِ

(١) الوطاب: جمع وَطْب وهو سقاء اللبن وهو جلد الجَدْع فما فوقه. وقوله: خالي الوطاب: أي انهزم أو قتل. محيط المحيط (وطب).

(٢) في الأصل: «ورندة» وكذا ينكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «ومن أوصافه» وكذا ينكسر الوزن.

(٤) في الأصل: «ثناء» وكذا ينكسر الوزن. (٥) كلمة «من» ساقطة في الأصل.

(٦) في الأصل: «السَّناء».

حتى رأى بصري حقائق وصفه فتنعمت كالأقمار نواظري^(١)
لا زال مخبوا بكل مسرة تجري له بالحظ حكم مغادر

ثم خاطبه القاضي المتشاقري بعد انصرافه إلى وطنه بقوله: [المتقارب]

أبى الدمع بَعْدَكَ إِلَّا انفجارا لدهرٍ بِبُعْدِكَ فِي الْحُكْمِ جارا
أذاق اللقاء الحُلُو لو لم يصل^(٢) به لئوى جَرَعَاتٍ مُرارا
رعى الله لَمَسَحَ ذاك اللقاء وإن يَكْ أَشْوَاقُنَا قَدْ أَثارا
قصاراي شكوأي طول النوى وفَقْدِي أَنَاةً وَصِلَ قِصَارا
سَقَّنِي القِدَاحَ وَمِنْ بَعْدِهِ فَوَادِي^(٣) القَرِيحِ قَدْ أَذْكَتْ أَوَارا
ألا يا صَبَّاءَ هُبَّ مِنْ أَرْبَعِي إلى وادي آشِي^(٤) تُخَيِّ الدِّيَارا
ألا خُصَّ مِنْ رَنَمِهَا مَنْزِلَا بأربابه الأكرمين استنارا
وهم إلى جِزْبِ الإله الألى^(٥) تسامروا فَنَخَارًا وَطَابُوا نِجَارا
فأجابه بأبيات منها^(٦):

تَأَلَّقَ بَرَقُ الْعُلا وَاسْتَنَارَا فأجج إذ لاح في القلب نارا
وذُكِرَنِي وَقْتُ^(٧) أَنَسٍ مَضَى برندة حيثُ الجلالُ استشارا^(٨)
وكانت لِنَفْسِي سَنًا^(٩) فِي حَمَاهَا طَوَالًا فَأَضْبَحْتُ^(١٠) لَدِيهَا قِصَارا
فأَجْرَيْتُ دَمْعَ الْعُيُونِ اشْتِيَاقًا ففاضت لأجل فراقِي بحارا
وقالت لي النَّفْسُ مَنْ لَمْ يَجِدْ نصيرًا سوى الدَّمْعِ قَلَّ انتصارا
قَطَعْتُ الْمُنَى عِنْدَهَا لِمَحَّةً وودغتها وامتطيتُ القِفَارا
وضيغْتُ تِلْكَ الْمُنَى غَفَلَةً ووافيت أبغي المنى^(١١) ديارا^(١٢)
ومنها:

أرقتُ لَذاكَ السَّنَا لَيْلَةً وما نومُها ذُقْتُ إِلَّا غَرَارا

(١) عجز هذا البيت منكسر الوزن. (٢) صدر هذا البيت منكسر الوزن.
(٣) في الأصل: «فوادي القريح قد أذكت...» وكذا ينكسر الوزن.
(٤) في الأصل: «واد آش» وكذا ينكسر الوزن. (٥) صدر هذا البيت منكسر الوزن.
(٦) القصيدة في الكتيبة الكامنة (ص ٢٧٥). (٧) في الكتيبة الكامنة: «أنس وقت».
(٨) في الكتيبة: «استنارا». (٩) في الكتيبة: «منى».
(١٠) في المصدر نفسه: «فأضحت». (١١) في الأصل: «نابس». ولا معنى لها.
(١٢) هذا البيت ساقط في الكتيبة الكامنة.

وجسمي أجلُّ الجسومِ التهاباً
إلى أن تجرُغتُ كأس النوى
وصبُرتُ نفسي لفقدانها
وقلبي أشدُّ القلوب انكِساراً
وقلْتُ زمانِي على الشُّمل جارا
هنالك بالرُّغم ليس اختياراً

وقال من قصيدة^(١): [الطويل]

خَنَنْتُ^(٢) لبرق لاح من سَرَخَتِي نَجْدِ
وقلت لعلَّ القلبَ تبسراً كلومهُ
لكن^(٥) شاركتني في المحبَّة فرقة
حنين تَهامي^(٣) يَحِنُّ^(٤) إلى نَجْدِ
ومن ذا يصدُّ النار عن شِيمة الوَقْدِ؟
فها أنا في وَجْدِي وفي كَلْفِي وحدي^(٦)

وهو إلى هذا العهد بالحال الموصوفة.

محمد بن إبراهيم بن عيسى بن داود الحميري^(٧)

من أهل مالقة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن عيسى.

حاله: كان أديباً، حسن الخط، جيد النظم، متظرفاً، لودعيّاً، مطبوعاً، مُنحطاً في هواه، جامعاً في ميدان بطلاته، معاقراً للتبذ، على حفظ للرسم، واضطلاع بالخدمة، وإيثار للمروءة، ومعرفة بمقادير الأمور، وتشبُّث بأذيال الحُظوة. كتب للرئاسة السعيدية بمالقة، ونظر على القاب جبايتها، وانتفع الناس بجاهه وماله، ووقع الثناء على حسن وساطته. ثم سافر عنها، وقد سَمَتْ مَجادة السلطان في غرض انتقالها إلى العُدوة، مُعَوَّضة بمدينة سلا من مالقة. وكان ما كان من معالجة الأمر، والقبض على الرئيس، وقيام ولده بالأمر، فانبثَّ المذكور بالعدوة، وكانت بها وفاته.

وجرى ذكره في الإكليل الزاهر بما نصه^(٨): عَلَّمَ من أعلام هذا الفن،

(١) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ٢٧٥ - ٢٧٦).

(٢) في الأصل: «حللت» والتصويب من الكتيبة.

(٣) التهامي: نسبة إلى نهامة وهي من اليمن. معجم البلدان (ج ٢ ص ٦٣).

(٤) في الأصل: «تحنَّ» والتصويب من الكتيبة.

(٥) في الأصل: «إن» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة الكامنة.

(٦) في الأصل: «وجد» بالجيم، والتصويب من الكتيبة الكامنة.

(٧) ترجمة محمد الحميري في الكتيبة الكامنة (ص ١٥٨) وجاء فيه أنه أبو عبد الله محمد بن محمد بن عيسى الحميري، ونفع الطيب (ج ٨ ص ٣٦٥) وجاء فيه أنه: أبو عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم بن عيسى بن داود الحميري.

(٨) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٦٥ - ٣٦٦) والكتيبة الكامنة (ص ١٥٨ - ١٥٩) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ٢٧١).

ومُشَغِشِي^(١) راح هذا الدُّن، بمجموع^(٢) أدوات، وفارس يَرَاة ودواة^(٣)، ظريف
المَنْزَع، أنيق المرأى والمَسْمَع، اختصَّ بالرياسة وأدار^(٤) فَلَك إمارتها، وأتسم باسم
كتابتها ووزارتها، ناهضًا بالأعباء، راقبًا^(٥) في دَرَج^(٦) التقريب والاجتباء، مُصَانَعًا دهره
في راح وراحة، آوياً إلى فضل وسماحة، وبخضب ساحة، كلما فرغ من شأن خدمته،
وانصرف عن ربِّ نعمته، عقد شُرْبًا، وأطفأ من الاهتمام بغير الأيام حَرْبًا، وعكف
على صوت يَسْتَعِيدُه، وظَرْفٍ يُبْدِيه ويعيده. فلما تقلبت^(٧) بالرياسة الحال، وقُوِّضت
منها الرحال، استقرَّ بالمغرب غريبًا، يقلب طَرْفًا مُسْتَرِيَبًا، ويلحظ الدنيا تَبَعَةً عليه
وتثريبًا^(٨)، وإن كان لم يُعْدم من أمرائها^(٩) حُظْوَةً وتقريبًا، وما برح يبوح بشَجْنِه،
ويرتاح إلى عهد وطنه.

شعره وكتابه: ممّا كتبه، ويُن في أدبه قوله^(١٠): [الكامل]

يا نازحين ولم أفارق منهم	شوقًا تأجج في الضلوع ^(١١) ضرامه
غيبتم عن ناظري وشخصكم	حيث استقر من الضلوع مقامه
رمت النوى شملي فشتت نظمه	والبين رام لا تطيش سهامه
وقد اعتدى فينا وجد مُبالغا	وجرت بمحكم جوره أحكامه
أترى الزمان مؤخرًا في مذتي	حتى أراه قد انقضت أيامه

تحملها^(١٢) يا نسيم تجديّة التّفحات، وجديّة اللّفحات، يؤدي^(١٣) عني نغمها
إلى الأجيّة سلامًا، ويورد^(١٤) عليهم لَفْحُها بَرْدًا وسلامًا، ولا تقل كيف تُحْمَلُنِي نَارًا،
وتُرسل على الأجيّة مني إغصارًا، كَلّا إذا أهديتهم تحية إيناسي، وأنسوا من جانب
هُبُوبك نار ضرام أنفاسي، وارتاحوا إلى هُبُوبك، واهتزوا في كفّ مَسْرَى جُثُوبك،

(١) في النفع: «ومشعشع».

(٢) في النفع والكتيبة: «مجموع».

(٣) كلمة «ودواة» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من المصادر الثلاثة.

(٤) في النفع: «فأدار».

(٥) في النفع: «درجات».

(٦) في الأصل: «تقلت» والتصويب من المصادر.

(٧) التريب: اللوم. لسان العرب (ثرب).

(٨) في النفع: «أمرائه».

(٩) في النفع: «أمرائه».

(١٠) الأبيات في الكتيبة (ص ١٦١) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٣٦٦). والبيتان الأول والثاني في الدرر

الكامنة (ج ٤ ص ٢٧٢).

(١١) في الكتيبة: «في الفؤاد».

(١٢) النص مع الشعر في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٦٦ - ٣٦٧).

(١٣) في النفع: «تؤدي إلى الأجيّة نفعها سلامًا».

(١٤) في النفع: «وتورد».

وتعلّلوا بها تعليلًا، وأوسعوا آثار مَهَبِكَ تقبيلًا، أرسلها عليهم بليلاً، وخاطبهم بلطافة
تَلَطَّفُكَ تعليلًا. ألم تروني كيف جتتكم بما حَمَلَنِي عَلِيلًا^(١): [الوافر]

كذاك^(٢) تَرَكْتُهُ مُلْقَى بِأَرْضٍ له فيها التعلُّلُ بِالرِّيحِ
إذا هَبَّتْ إِلَيْهِ صَبَا إِلَيْهَا وإنْ جَاءَتْهُ مِنْ كُلِّ النُّوَاحِي
تساعده الحَمَائِمُ حِينَ يَبْكِي فما يَنْفُكُ مَوْصُولَ النُّيَاحِ^(٣)
يُخَاطِبُهُنَّ مَهْمَا طَرَنَ شَوْقًا أما فَيَكُنْ وَاهِبَةً^(٤) الْجَنَاحِ؟

ولولا^(٥) تعلُّله بالأمانى، وتحدُّث نفسه بزمان التَّدَانِي، لكان قد قضى نَحْبَهُ،
ولم أَبْلُغْكُمْ إِلَّا نَعْيَهُ أَوْ نَذْبَهُ، لكنه يتعلَّل من الآمال بالوعد المَمْطُول، وَيَتَطَارَحُ
بِاقْتِرَاحَاتِهِ عَلَى الزَّمَنِ الْمَجْهُولِ، ويحدِّث نفسه وقد قُتِّعت من بُرُوقِ الآمالِ
بِالْخُلْبِ^(٦)، ووُثِّقت بمواعيد الدهر القُلْبِ^(٧)، فيناجيها بوحى ضميره، وإيماء
تصويره: كيف أجِدُّكَ يومَ الالتقاء بالأحباب، والتخلُّص من رِبْقَةِ الاغتراب؟ أبائنة
الحضور أم بادية الاضطراب؟ كأنني بك وقد استَفَزَّكَ وَلَهُ السرور، فصرفك عن
مشاهدة الحضور، وعاقَتِكَ غشاوة الاستِغبار للاستِيشار، عن اجتِلاء مُحْيَا ذلك
النهار^(٨): [البسيط]

يَوْمَ يُدَاوِي زَمَانَاتِي مِنْ أَزْمَانِي أزال^(٩) تَنْغِيصَ أَخْيَانِي فَأَخْيَانِي
جَعَلْتُ لَكَ نَذْرًا صَوْمَهُ أَبَدًا أفي به وَأَوْفِي شَرْطَ إِيْمَانِي
إذا ارتفعنا وزال البُعْدُ وانقطعت أَشْطَانُ دَهْرٍ قَدْ التَفَّتْ بِأَشْطَانِي^(١٠)
أَعْدُهُ^(١١) خَيْرَ أَعْيَادِ الزَّمَانِ إِذَا أوطاني السَّعْدُ فِيهِ تُرِبَ أوطاني

أرأيت^(١٢) كيف ارتياحي إلى التَّذْكَارِ، وانقيادي إلى مُعَلَّلَاتِ تَوْهَمَاتِ الْأَفْكَارِ؟
كَأَنَّ الْبُعْدَ بِاسْتِغْرَاقِهَا قَدْ طُوِيَتْ شَقَّتُهُ، وَذَهَبَتْ عَنِّي مَشَقَّتُهُ، وَكَأَنِّي بِالتُّخَيْلِ بَيْنَ تِلْكَ

(١) الأبيات أيضًا في الكتيبة الكامنة (ص ١٦٢). (٢) في الكتيبة: «غريبٌ بعدكم مُلْقَى...».

(٣) في الكتيبة: «النَّيَّاحِ». وفي النسخ: «النُّوَاحِ».

(٤) في الأصل: «واهية» والتصويب من النسخ والكتيبة.

(٥) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٦٧).

(٦) البرق الخُلْبُ: البرق الذي يظنُّ فيه سحابة المطر وليس فيه مطر. لسان العرب (خلب).

(٧) الدهر القُلْبُ: الكثير التقلُّب. لسان العرب (قلب).

(٨) الأبيات في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٦٧). (٩) في الأصل: «أزبر» والتصويب من النسخ.

(١٠) الأشطان: جمع شطن وهو الحبل. لسان العرب (شطن).

(١١) في الأصل: «أعده» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النسخ.

(١٢) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٦٧ - ٣٧١).

الخمائل أتَنَسَّم صَبَاها، وَأَتَسَّم رُبَاها^(١)، وأَجْتَنِي أَزْهَارها، وأَجْتَلِي أَنْوَارها، وأَجُول
فِي خَمَائِلها، وَأَتَنَعَّم بِبُكْرها وَأَصَائِلها، وَأَطُوف بِمَعَالِمها، وَأَتَشَقُّ أَزْهَار كَمَائِمها،
وَأَصِيحُّ بِأَذْن الشُّوق^(٢) إِلَى سَجْع خَمَائِمها، وَقَدْ دَاخَلْتَنِي الْأَفْرَاح، وَنَالَتْ مِنِّي نَشْوَة
الْأَرْتِيَّاح، وَدَنَا الشُّرُور لِتَوْشَم^(٣) ذَهَاب الْأَتْرَاح. فَلَمَّا أَفَقْتُ مِنْ غَمَرَات سُكْرِي،
وَوَثَبْتُ مِنْ هَفَوَات فِكْرِي، وَجَذْتُ^(٤) مَرَارَة مَا شَابَهُ لُبِّي^(٥) فِي اسْتِغْرَاقِ دَهْرِي،
وَكَأَنِّي مِنْ حَيْثُ عَالَجْتُ وَفَقَّةَ الْفِرَاقِ، وَابْتَدَأْتُ مَنَازِعَةَ الْأَشْوَاقِ، وَكَأَنَّمَا أَعْمَضْتَنِي^(٦)
لِلنُّومِ، وَسَمَحَ لِي بِتِلْكَ الْفِكْرَةِ الْجِلْمِ^(٧): [الكامل]

ذَكَرَ الدِّيَارَ فَهَاجَهُ تَذْكَارُهُ وَسَرَتْ بِهِ مِنْ حِينِهِ أَفْكَارُهُ
فَاخْتَلَّ مِنْهَا حَيْثُ كَانَ حُلُولُهُ بِالْوَهْمِ فِيهَا وَاسْتَقَرَّ قَرَارُهُ
مَا أَقْرَبَ الْأَمَالَ مِنْ غَفَوَاتِهِ لَوْ أَنَّهَا قُضِيَتْ بِهَا أَوْطَارُهُ^(٨)

فَإِذَا جِئْتَهَا أَيُّهَا الْقَادِمُ، وَالْأَصِيلُ قَدْ خَلَعَ عَلَيْهَا بُرْدًا مُورَسًا، وَالرَّبِيعُ قَدْ مَدَّ
عَلَى الْقِيَعَانِ مِنْهَا سُنْدُسًا، اتَّخَذَهَا^(٩) قَدَيْتُكَ مُعْرَسًا^(١٠)، وَاجْرُزْ ذِيُولَكَ فِيهَا
مُتَّبَعِيًّا^(١١)، وَبُتْ فِيهَا مِنْ طَيْبِ نَفَّحَاتِكَ غُثْبَرًا، وَافْتَقِ عَلَيْهَا مِنْ نَوَافِجِ^(١٢)
أَنْفَاسِكَ مِسْكًا أَذْفَرًا، وَاعْطِفْ مِعَاطِفَ^(١٣) بَانِيهَا، وَأَرْقِضْ قُضْبَ رِيحَانِهَا، وَصَافِخْ
صَفْحَاتِ نَهْرِهَا، وَنَافِخْ^(١٤) نَفَّحَاتِ زَهْرِهَا. هَذِهِ كُلُّهَا أَمَارَاتُ، وَعَنْ أَسْرَارِ
مَقَاصِدِي عِبَارَاتُ، هُنَالِكَ تَنْتَعِشُ بِهَا صُبَابَاتُ، تَعَالِجُ صَبَابَاتُ، تَتَعَلَّلُ بِإِقْبَالِكَ،
وَتَغْكِفُ عَلَى لَثَمِ أَذْيَالِكَ، وَتَبْدُو لَكَ فِي صِفَةِ الْفَانِي الْمُتَهَالِكِ، لَا طِفْهَا بِلَطَافَةِ

(١) أَتَسَّم رِيَاها: أَعْلَوْها وَأَرْتَفَعَ إِلَيْها. لِسَانُ الْعَرَبِ (سَم).

(٢) فِي الْأَصْلِ: «الشُّون» وَالتَّصْوِيبُ مِنَ النَّفْحِ. (٣) فِي النَّفْحِ: «التَّوَقُّم».

(٤) فِي الْأَصْلِ: «وَجَذَذْتُ» وَالتَّصْوِيبُ مِنَ النَّفْحِ. (٥) فِي النَّفْحِ: «لِي».

(٦) فِي النَّفْحِ: «أَعْمَضْتَنِي النَّوْمَ».

(٧) الْآيَاتُ فِي نَفْحِ الطَّيْبِ (ج ٨ ص ٣٦٨ - ٣٦٩).

(٨) رَوَايَةُ الْبَيْتِ فِي أَصْلِ الْإِحَاطَةِ هِيَ:

يَا لِقُرْبِ الْأَمَالَ مِنْ هَفَوَاتِهِ لَوْ أَنَّهُ قُضِيََتْ بِهَا أَوْطَارُهُ
وَهَكَذَا يَنْكَسِرُ الْوَزْنُ، وَالتَّصْوِيبُ مِنَ النَّفْحِ.

(٩) فِي النَّفْحِ: «فَاتَّخَذَهَا».

(١٠) الْمُعْرَسُ: مَكَانُ التَّزْوُلِ لَيْلًا. لِسَانُ الْعَرَبِ (عَرَس).

(١١) فِي الْأَصْلِ: «تَبَخَّرًا» وَالتَّصْوِيبُ مِنَ النَّفْحِ.

(١٢) فِي الْأَصْلِ: «نَوَافِجُ» بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ، وَالتَّصْوِيبُ مِنَ النَّفْحِ. وَالنَّوَافِجُ: جَمْعُ نَافِجَةٍ وَهِيَ رِعَاءُ الْمَسْكِ. لِسَانُ الْعَرَبِ (نَفَج).

(١٣) فِي الْأَصْلِ: «بِعَاطِفِ» وَالتَّصْوِيبُ مِنَ النَّفْحِ.

(١٤) الْمُرَادُ بِ«نَافِخٍ» الْمَغَالِبَةُ فِي إِظْهَارِ الرِّيحِ لِيُظْهِرَ أَيُّهُمَا أَظْهَرَ أَرِيحًا. لِسَانُ الْعَرَبِ (نَفَج).

اعتلالك، وترفّق بها تَرَفَّقَ أمثالك، فإذا مالت^(١) بهم إلى هواك الأشواق، ولوّوا إليك الأزؤس والأعناق، وسألوك عن اضطرابي في الآفاق، وتقلّبي بين الإشام والإعراق، فقل لهم: عَرَضَ له في أسفاره، ما يعرض للبذر في سَرَّاره، من سِرِّ^(٢) السَّرار، وطاق^(٣) المَحاق، وقد تَرَكْتَهُ وهو يُسامر القَرَقدين، ويُسائر الثَّيرين، وينشد إذا راعه البَين^(٤): [البسيط]

وقد نكونُ وما يُخشى تَفَرُّقنا واليوم^(٥) نحنُ وما يُرجى تلاقينا
لم يفارق وَغْشاء^(٦) الأسفار، ولا ألقى من يده عصا التَّسيار، يتهداه الغُور^(٧)
والنَّجد، ويتداوله الإِرْقَال^(٨) والوُخْد، وقد لَفَحَتْهُ الرُّمضاء، وسَمَّه^(٩) الإنضاء.
فالجَهاث تَلْفُظُهُ، والآكام تَبْهَظُهُ، تحمل^(١٠) همومَه الرُّواسم، وتُخْفِي^(١١) به النَّواسم:
[البسيط]

لا يستقرُّ بأرضٍ حينَ يَبْلُغُها ولا له غيرَ حَذْوِ العيسِ إيناسُ
ثم إذا استَوْفوا سؤالك عن حالي، وتقلّبي بين^(١٢) جَلِّي وتَرَحالي، وبلغت
القلوب منهم الحناجر، وملأت الدموعُ المحاجر، وابتلت ذبولك بمائها، لا بل
تَضَرَّجَتْ بدمائها، فَحَيَّهم عَنِّي تحيةً مُنفصل، وودَّعهم^(١٣) وداعَ مُرتحل. ثم اعطف
عليهم ركابك، ومَهَّدْ لهم جَنابك، وقُلْ لهم إذا سألتني عن المنازل بغد سُكانها،
والرُّبوع بعد ظُننِ أظعانها، بماذا أجيبه، وبماذا يسكن وجيبه^(١٤). فسيقولون لك هي
البلاقيع^(١٥) المَقْفرات، والمعارف^(١٦) التي أصبحت نِكِرَات: [السريع]

صَمَّ صداها وغفا^(١٧) رَسْمُها واستَغْجَمَتْ عن منطقِ السائلِ

-
- (١) في الأصل: «أمالَتْ» والتصويب من النفع. (٢) في النفع: «من سرار».
(٣) في النفع: «ولحاق».
(٤) البيت لابن زيدون وهو في ديوانه (ص ٩).
(٥) في النفع: «واليوم».
(٦) الوغشاء: المشقة والتعب. محيط المحيط (وعث).
(٧) في الأصل: «للغور» والتصويب من النفع.
(٨) الإرقال والوخد: ضربان من السير السريع. لسان العرب (رقل) و(وخد).
(٩) في الأصل: «وسيمه» والتصويب من النفع. (١٠) في النفع: «يحمل».
(١١) في النفع: «وتحياته».
(١٢) في الأصل: «بين حالي حلي...»، والتصويب من النفع.
(١٣) كلمة «وددعهم» غير واردة في النفع. (١٤) الوجيب: الخفقان. لسان العرب (وجب).
(١٥) البلاقيع: جمع بلقع وهو الأرض الخالية. لسان العرب (بلقع).
(١٦) كلمة «المعارف» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من النفع.
(١٧) في الأصل: «وعفى» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

قُلْ لَهُمْ: كيف الرّوض وآسُه؟ وعمّاذاً^(١) تتأرجح أنفاسه؟ عهدي به والحمام
يردد أسجاعه، والذباب يغني به هزجاً فيحك بذراعه ذراعَه، وعُصونه تعتنق،
وأحشاء جداوله تضطفّق، وأسحاره تتنّسم وأصاله تغتبق^(٢)، كما كانت بقية نُضرته،
وكما عهدتها أنيقة خُضرته، وكيف التفائه^(٣) عن أزرق نهره، وتأنقه في تكليل
إكليله بيانع زهره. وهل رقّ نسيم أصائله^(٤)، وصفت موارد جداوله؟ وكيف
انفساخ ساحاته، والتفاف دوحاته؟ وهل تمتدّ كما كانت مع العشيّ فينائه سرحاته؟
عهدي بها، المدينة الظلال، المزعفرة السّربال، لم تُحدّق الآن به عيون نرجسه،
ولا ضدّ^(٥) بساط سُندسه. وأين منه مجالس لذاتي، ومعاهد غدواتي وروحاتي؟ إذ
أباري في المُجّون لمن أباري، وأسبق إلى اللذات كلّ من يُجاري^(٦). فسيقولون
لك: دوت أفنائه، وانقصفت أغصانه، وتكدّرت عُدراته، وتغيّر ريحه^(٧) وزيحانه،
واقفرت معالمه، وأخرست خمائمه، واستحالت به^(٨) حللُ خمائله، وتغيّرت وجوه
بكره وأصائله، فإن صلّصلَ حنين رَغِدٍ فعنّ قلبي لفراقه خفق، وإن تلالاً برّق فعن
حرّ حشاي ائتلّق، وإن سحّت السّحب فمساعدة لجفني، وإن طال بكأوها فعني،
حيّاها الله تعالى^(٩) منازل، لم تزل بمنظوم الشّمل أوّاهل. وحين انتشرت^(١٠) نُثرت
أزهارها أسفاً، ولم تُثني الرّيح من أغصانها معطفاً، أعاد الله تعالى^(٩) الشّمل فيها إلى
مُحكّم نظامه، وجعل الدهر الذي فرّقه يتأنق في أحكامه. وهو سبحانه يُجبر
الصّدع، ويُعجلُ الجَمع، إنه بالإجابة جدير، وعلى ما يشاء قدير. إليه بُنيّ، كيف
حال من استودعته أمانتك، وألزمته صونك وصيانتك، وألبستهم نسبك، ومهدت
لهم حسبك؟ الله في حفظهم فهو اللائق بفعالك، والمناسب لشرف خلاك، ازغ
لهم الاغتراب لديك، والانقطاع إليك، فهم أمانة الله تعالى في يدك، وهو سبحانه
يحفظك بحفظهم، ويوالي بلحظك أسباب لحظهم، وإن ذهبتُم إلى معرفة الأحوال،
فنعّم الله ممتدّة الظلال، وخيراته ضافية^(١١) السّربال؛ لولا الشوق المُلّازم، والوجد
الذي سكّن الحيازم.

(١) في النفع: «وعمّ».

(٢) في الأصل: «التغانة» والتصويب من النفع. (٤) في الأصل: «أصاله» والتصويب من النفع.

(٦) في النفع: «أجاري».

(٥) في النفع: «ويمد».

(٨) كلمة «به» غير واردة في النفع.

(٧) في النفع: «رّوحه».

(٩) كلمة «تعالى» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من النفع.

(١٠) في الأصل: «انتثر»، والتصويب من النفع. (١١) في النفع: «وارقة».

ووقفت من شعره على قصيدة من جملة رسالة، أثبتها وهي^(١) : [الطويل]

أَلْبَرْقُ يَبْدُو تَسْتَطِيرُ^(٢) الْجَوَانِحُ وَلِلوُزْقِ تَشْدُو تَسْتَهْلُ^(٣) السَّوَابِحُ^(٤)
 وَقَلْبِي^(٥) لِلْبَرْقِ الْخَفُوقِ مُسَاعِدٌ وَوَجْدِي^(٦) لِلْوَرَقِ الشَّكَالِي مُطَارِحُ
 إِذَا الْبَرْقُ أَوْزَى فِي الظَّلَامِ زِنَادِي^(٧) فَلِلوُجْدِ فِي زَنْدِ الصُّبَابَةِ قَادِحُ
 وَكَمْ وَفْقَةٍ لِي حَيْثُ مَالُ بَيْتِ الْهَوَى أَغَادِي^(٨) بِهَا شَكْوَى الْجَوَى وَأَرَاوِحُ
 تَنَازَعُنِي مِنْهَا الشُّجُونُ^(٩) فَأَشْتَكِي وَيَكْثُرُ بَيْتِي عِنْدَهَا فَاسَامِحُ
 أَبْتُ شَجُونِي وَالْحِمَامُ يُصِيخُ لِي وَيُسْعِدُنِي فِيمَا تُبِيحُ^(١٠) التُّبَارِحُ
 وَتَطْرَبُ أَغْصَانُ الْأَرَاكِ فَتَسْتَنِي إِلَى صَفْحَةِ النِّهْرِ الصَّقِيلِ^(١١) تُصَافِحُ
 فَتَبْتَسِمُ الْأَزْهَارُ مِنْهَا تَعْجُبًا فَتُهْدِي إِلَيْهَا عَرْفَهَا وَتُنَافِحُ
 كَذَلِكَ حَتَّى مَادَ عَظْفُ مِثْقَفِي^(١٢) وَطَرَفِي أَبْدَى هَزَّةً وَهُوَ مَارِحُ
 فَلَمَّا التَّظَلَّى وَجْدِي تَرْتُمُ صَاهِلًا فَقُلْتُ: أَمِثْلِي يَشْتَكِي الْوَجْدَ نَابِحُ^(١٣)؟
 صَرَفْتُ عَدُوَّ الْبَيْدِ أَرْخُو عِنَانَهُ^(١٤) وَقُلْتُ لَهُ: شَمْرُ فَإِنِّي^(١٥) سَابِحُ^(١٦)
 تَهْيَأُ لِقَطْعِ الْبَيْدِ وَاعْتِيفِ السُّرَى سَيْلِقَاكَ غَيْظَانُ بِهَا وَمَمَائِحُ^(١٧)
 فَحَمَحَمَ لَوْ يَسْطِيعُ^(١٨) نُطْقًا لِقَالَ لَهُ^(١٩) بِمِثْلِي تَلْقَى هَذِهِ وَتُكَافِحُ
 وَحَمَلْتُهُ عَزْمًا تَعُودُ بِمِثْلِهِ فِقَامُ بِهِ مُسْتَقْبَلًا مِنْ يُنَاطِحُ

(١) القصيدة في الكنية الكامنة (ص ١٥٩ - ١٦١).

(٢) في الأصل: «تسطير» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكنية.

(٣) في الأصل: «وتستهل» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكنية.

(٤) في الأصل: «السوابح» والتصويب من الكنية.

(٥) في الكنية: «قلبي».

(٦) في الكنية: «وجدني».

(٧) في الأصل: «زناده».

(٨) في الأصل: «للشجون» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكنية.

(٩) في الكنية: «تهيج».

(١٠) في الأصل: «شفقي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكنية.

(١١) في الكنية: «سابع».

(١٢) في الأصل: «فإنني» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكنية.

(١٣) في الكنية: «سائح».

(١٤) في الكنية: «سيلقاك غيطان بها وضحاخ».

(١٥) في الأصل: «يستطيع» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكنية.

(١٦) في الكنية: «لي».

وَيَمْنَتْ بِيَدًا لَمْ أَصَاحِبْ لِحَبْوَهَا^(١)
 وَمَاضِي الْغِرَارِينَ^(٢) اسْتَجَدْتُ مَضَاءَهُ^(٣)
 وَمُنْدَمَجٌ صَدَقِ الْأَنَابِيْبُ نَافِذٌ بِهِ
 وَبِزَتْ فَلَا أَلْقَى سِوَى الْوَحْشِ نَافِرًا
 تُحَدِّقُ نَحْوِي^(٤) أَغْيُنَا لَمْ يَلُخْ لَهَا
 وَقَدْ زَارَتْ أَسَدٌ تَقَحَّمَتْ غِيْلَهَا
 وَكَمْ طَافَ بِي لِلْخَيْرِ^(٥) مِنْ طَائِفٍ بِهَا^(٦)
 وَيَغْرُضُ لِي وَجْهًا دَمِيمًا وَمَنْظَرًا
 فَمَا رَاعَنِي مِنْهُ تَلَوْنُ حَالِهِ
 فَلَمَّا اكْتَسَتْ شَمْسُ الْعَيْشِيِّ شُحُوبَهَا
 تَسْرِبَلْتُ لِلْإِذْلَاجِ جُنُحٌ دُجْنِيَّةٌ
 فَخَضْتُ^(٧) ظِلَامَ اللَّيْلِ وَالنَّجْمُ شَاخِصٌ
 يُرَدِّدُهُ^(٨) شُرَرًا إِلَيَّ كَأَنَّمَا
 وَرَاقِبٌ مِنْ شَكْلِ^(٩) السَّمَاءِ نَظِيرُهُ
 يَخْطُ وَمِيضُ الْبَرْقِ لِي مِنْهُ أَسْطَرًا
 إِذَا خَطَّهَا مَا بَيْنَ عَيْنَيَّ لَمْ أَزَلْ^(١٠)
 وَمَا زِلْتُ سَرًّا فِي حَشَا النَّبْلِ^(١١) كَأَمَّا

سِوَى جَلْدٍ لَا يُتَّقَى مِنْهُ فَاضِحٌ^(١٢)
 إِذَا جُرَّدَتْ يَوْمَ الْجِلَادِ الصُّفَائِحُ
 عِنْدَ كَسْرِي فِي الْحُرُوبِ أَفَاتِحُ
 وَقَدْ شَرَّدَتْ عَنِّي الظُّبَاءُ^(١٣) السَّوَانِحُ
 هُنَالِكَ إِنْسِي^(١٤) وَلَا هُوَ لَائِحُ
 فَقُلْتُ: تَعَاوَتْ إِنَّهَا لَتَوَابِحُ
 فَلَمْ أَضْغِ سَمْعًا نَحْوَهَا وَهُوَ صَائِحُ
 شَنِيعًا لَهُ تَبْدُو عَلَيْهِ الْقَبَائِحُ
 بَلْ أَيْقِظُ عَزْمِي فَانْثَنِي وَهُوَ كَالْحُ
 وَمَالَتْ إِلَى أَفْقِ الْغُرُوبِ تُنَازِحُ^(١٥)
 فَهَا^(١٦) أَنْذَا غَزَمِي إِلَى الْقَصْدِ جَانِحُ
 إِلَيَّ بِلَخْظٍ^(١٧) طَرَفُهُ لِي لَامِحُ
 عَلَيَّ لَهُ حَقْدٌ بِهِ لَا يُسَامِحُ
 خَلَا أَنَّ شَكْلِي^(١٨) أَغْرَزَ وَهُوَ رَامِحُ
 عَلَى صَفْحَةِ الظُّلْمَاءِ فَهِيَ لَوَائِحُ
 أَكْلَفُ دَمْعِي نَحْوَهَا فَهُوَ طَامِحُ
 إِلَى أَنْ بَدَا مِنْ نَاسِمِ الصُّبْحِ فَاتِحُ^(١٩)

(١) في الكتيبة: «لِحَبْوِهَا».

(٢) الْغِرَارُ: حَدَّ السِّيفِ.

(٣) فِي الْأَصْلِ: «فِي الظُّبَاءِ» وَهَكَذَا يَنْكَسِرُ الْوِزْنُ، وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الْكُتَيْبَةِ الْكَامِنَةِ.

(٤) فِي الْكُتَيْبَةِ: «عِنْدِي».

(٥) فِي الْأَصْلِ: «سَنَا لَكَ أَسْنَى...» وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الْكُتَيْبَةِ.

(٦) فِي الْكُتَيْبَةِ: «لِلْجَنِّ». وَالْخَيْرُ: النَّاقَةُ الْغَزِيرَةُ اللَّبَنُ. مُحِيطُ الْمَحِيطِ (غَزَر).

(٧) فِي الْكُتَيْبَةِ: «لَهَا».

(٨) فِي الْكُتَيْبَةِ: «فَمَا أَبْدَا غَزَمِي إِلَى...».

(٩) فِي الْكُتَيْبَةِ: «بِطَرَفٍ لَخْظُهُ لِي...».

(١٠) فِي الْأَصْلِ: «يُرَدِّدُهُ» وَهَكَذَا يَنْكَسِرُ الْوِزْنُ، وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الْكُتَيْبَةِ.

(١١) فِي الْأَصْلِ: «شَكْلِي» وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الْكُتَيْبَةِ.

(١٢) فِي الْأَصْلِ: «الْخَلَا لَزِمَكْلِي» وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الْكُتَيْبَةِ.

(١٣) فِي الْكُتَيْبَةِ: «لَمْ يَزَلْ».

(١٤) فِي الْكُتَيْبَةِ: «نَافِحٌ».

(١٥) فِي الْكُتَيْبَةِ: «بَاطِحٌ».

(١٦) فِي الْأَصْلِ: «مَضَاءُ» وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الْكُتَيْبَةِ.

(١٧) فِي الْكُتَيْبَةِ: «تَبَارَحٌ».

(١٨) فِي الْكُتَيْبَةِ: «لَمْ يَزَلْ».

(١٩) فِي الْكُتَيْبَةِ: «نَافِحٌ».

وَهَبْ نَسِيمَ الصَّبْحِ فَاَنْعَطَفْتُ^(١) لَهُ .
 تَجَادِبْنِ^(٢) مِنْ ذِكْرِي أَحَادِيثَ لَمْ تَزَلْ
 وَمِلْتُ إِلَى التَّغْرِيسِ لَمَّا انْقَضَى الشَّرَى
 وَمَالَ الْكَرَى بِي مَيْلَةً سَكَنَتْ لَهَا
 كَمْ^(٦) أَخَذْتُ مِنْهُ الشُّمُولُ بِثَارِهَا
 وَقَرَّيْتُ الْأَحْلَامَ لِي كُلِّ مَامِلٍ^(٨)
 أَرْتَنِي وَجُوهَهَا لَوْ بِذَلِكَ لِقُرْبِهَا
 لَقُلَّ لَهَا عُمرِي وَمَا مَلَكَتْ يَدِي
 وَمَا زِلْتُ أَشْكُو بَيْنَنَا غُصَصَ^(١١) الثُّرَى
 فَمِنْهَا تُغَوِّرُ لِلشُّرُورِ بَوَائِمَ
 تُقَرِّبُهَا الْأَحْلَامَ مِنِّي وَدُونَهَا
 وَيَحْرُ طَمَتْ أَمْوَاجُهُ وَشَابِيبُ^(١٣)
 قَضَيْتُ حَقُوقَ الشُّوقِ فِي زُورَةِ الْكَرَى^(١٥)
 يُقَرِّبُنِ^(١٦) آمَالًا تَبَاعَدَ بَيْنُهَا
 فَلَمَّا تَوَلَّى عَنِّي النَّوْمُ أَعْقَبَتْ^(١٨)
 وَغَدْتُ إِلَى شَكْوَى الْبَلَاءِ^(١٩) وَلَمْ أَزَلْ
 وَمَا بَلَقْتُ عَنِّي مَشَافَهُةَ الْكَرَى
 وَخَسْبُكَ قَلْبٌ فِي إِسَارِ اشْتِيَاقِهِ

قُدُودُ غُصُونٍ قَدْ رَقَّتْهَا صَوَادِحُ^(٢)
 يُرَدِّدُهَا مِنْهَا^(٤) مُجِدُّ وَمَازِحِ
 أُرْوَضُ لَهُ نَفْسِي وَعَزْمِي جَامِحِ
 عَلَى نَصَبِ الرِّغْثَاءِ مَنِي الْجَوَارِحِ^(٥)
 فَبَاتَ يُسَقِّى^(٧) وَهُوَ رِيَانُ طَافِحِ
 فَأَذْنَتْهُ مِنِّي وَهُوَ فِي الْحَقِّ نَازِحِ
 حَيَاتِي لَمَنْ بِالْقُرْبِ مِنْهُ يُسَامِحِ
 وَحَدَّثْتُ^(٩) نَفْسِي أَنَّ تَجْرِي^(١٠) رَابِحِ
 وَمَا طَوَّخْتُ بِي فِي الزَّمَانِ الطَّوَانِحِ
 لِقُرْبِهِ^(١٢) وَمِنْهَا لِلْفِرَاقِ نَوَانِحِ
 مَهَامَةٍ فِيهَا لِلْهَجِيرِ لَوَافِحِ
 وَقَفَرْتُ بِهِ لِلسَّالِكِينَ جَوَامِحِ^(١٤)
 فَلِإِنْ زِيَارَاتِ الْكَرَى لِمَوَانِحِ
 وَتَغَبَّتْ فِيهَا بِالنَّفُوسِ الطَّوَامِحِ^(١٧)
 هَمُومٌ أَثَارَتُهَا الشُّجُونُ فَوَادِحِ
 أَرَدَّدَهَا وَالْعُذْرُ مِنِّي وَاضِحِ
 تُبَلِّغُهَا عَنِّي الرِّيحُ الْوَوَافِحِ^(٢٠)
 وَقَدْ أَسْلَمْتُهُ فِي يَدَيْهِ الْجَوَانِحِ

(١) في الكتيبة: «فانقطعت».

(٢) في الأصل: «تجادب ذكري أحاديث لم أزل» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

(٤) في الأصل: «مني» والتصويب من الكتيبة. (٥) في الكتيبة: «الجوانح».

(٦) في الكتيبة: «وكم».

(٧) في الأصل: «يسقي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

(٨) في الكتيبة: «الأحلام كل مؤمل».

(١٠) الشجر: من تجر تجر تجرًا وتجارة أي باع وشرى. لسان العرب (تجر).

(١١) في الكتيبة: «مضض».

(١٣) في الكتيبة: «ومباسب».

(١٥) في الأصل: «للكرى» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

(١٦) في الأصل: «يقرن» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

(١٧) في الأصل: «للنفوس الطوائح» والتصويب من الكتيبة.

(١٨) في الكتيبة: «أقبلت».

(٢٠) في الكتيبة: «النوائح».

(١٩) في الكتيبة: «البعاد».

وفاته: قال شيخنا أبو بكر بن شبرين: توفي بسجلّامة في صفر عام ستة عشر وسبعمائة.

محمد بن محمد بن عبد الله بن مقاتل^(١)

من أهل مالقة، يكنى أبا بكر.

حاله: من كتاب الإكليل: نابغة^(٢) مالقية، وخلف وبقية، ومغربي الوطن، أخلاقه مشرقية. أزمع الرحيل إلى المشرق، مع اخضرار العود وسواد المفرق^(٣)، فلما توسّطت السفينة اللّجج، وقارعت الثّجج^(٤)، مال^(٥) عليها البحر فسقاها كأس الحمام، وأولدها قبل التمام، وكان فيمن اشتملت عليه أعوادها، وانضم على نوره سوادها، جملة^(٦) من الطلبة والأدباء، وأبناء السراة الحسباء، أصبح كل منهم مطيعاً، لداعي الرّدى وسميعاً، وأحيوا فرادى وماتوا جميعاً، فأجروا الدموع حزناً، وأرسلوا العبرات عليهم مژناً. وكان^(٧) البحر لما طمّن سبل^(٨) خلاصهم وسدّها، وأحال^(٩) هضبة سفينتهم وهذها، غار على نفوسهم النفيسة واستردها^(١٠). والفقيه أبو بكر مع إكثاره، وانقياد نظامه ونثاره، لم أظفر من أدبه إلا بالقليل الشافه، بعد وداعه وانصرافه.

فمن ذلك قوله وقد أبصر فتى عائراً^(١١): [الكامل]

ومُهَفِّفٍ هافي المعاطفِ أخورَ قَضَحَتْ أشعّةُ نوره الأقمارا
زَلْتُ له قدّمٌ فأصبحَ عائراً بين الأنامَ لَمّا^(١٢) لَذَاكَ عِشارا
لو كنتُ أعلمُ ما يكونَ فَرَشْتُ في ذاكَ المكانِ المَخْدُ والأشْفارا^(١٣)

(١) ترجمة ابن مقاتل في الدرر الكامنة (ج ٤ ص ٣١٣) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧١).

(٢) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧١).

(٣) اخضرار العود وسواد المفرق: كناية عن الشباب.

(٤) الثّجج: الموج. لسان العرب (ثجج). (٥) في النفع: «مال».

(٦) في النفع: «من جملة». (٧) في الأصل: «وكان» والتصويب من النفع.

(٨) في النفع: «سبل». (٩) في النفع: «وأمال».

(١٠) في النفع: «فاستردها».

(١١) هذه المقطوعة في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧١).

(١٢) لما: كلمة دعاء لمن عثر، ومعناها: أنعشه الله.

(١٣) الأشفار: أهداب العيون. لسان العرب (شفر).

وقال متغزلًا^(١): [الطويل]

أيا لبني الرِّفَاءِ تنضي ظباؤهم جُفُونَ ظَبَاهِمِ وَالْفَوَاذُ^(٢) كَلِيمُ
لَقَدْ قَطَعَ الْأَحْشَاءَ مِنْهُمْ مَهْفَهْفُ لَهُ الثَّبَرُ خَذُّ وَاللَّجَيْنُ أَدِيمُ
يُسَدِّدُ إِذْ يَرْمِي قَسِيَّ حَوَاجِبِ وَأَسْهَمُهَا مِنْ مَقْلَتِيهِ تَسْوِمُ
وَتُسْقِمُنِي عَيْنَاهُ وَهِيَ سَقِيمَةٌ وَمَنْ عَجَبِ سَقَمِ جَنَاهُ سَقِيمُ
وَيَذْبُلُ جَسْمِي فِي هَوَاهُ صَبَابَةٌ وَفِي وَضْلِهِ لِلْعَاشِقِينَ نَعِيمُ

وفاته: توفي في حدود أخريات عام تسعة وثلاثين وسبعمائة غريقًا بأحواز الغبطة من ساحل المرية.

محمد بن أحمد بن أحمد بن صفوان القيسي

ولد الشيخ أبي الطاهر، من أهل مالقة.

من كتاب الإكليل: نبيل فطن، متحرك ذهن، كان أبوه، رحمه الله، يتبرم بجداله، ويخشى مواقع رشق نباله، ويشيم بأرق الاعتراض في سؤاله، فيشفق من اختلال خلاله، إذ طريقه إنما هي أذواق لا تشرح، وأسرار لا تفضح. وكان ممن احترم، وجد حبل أمله وضرم، فأفل عقب أبيه، وكان له أدب يخوض فيه.

فمن ذلك، وقد أبصر فتى وسيما على ريحانه: [البسيط]

بدرٌ تجلّى على غصن من الآس يُبْري ويُسقم فهو المُمْرِضُ الآسي
عادي المنازل إلا القلب منزلة فما له وجميع الناس من ناس
وقال:

يا عالمًا بالسُّرِّ والجَّهْرِ وملجأ في العُسر واليُسْرِ
جُدْ لي بما أَمَلْتَهُ مِنْكَ مولاي^(٣) واجيز بالرضا كسري
وفاته: في عام خمسة وسبعمائة.

محمد بن محمد بن عبد الواحد بن محمد البلوي^(٤)

من أهل المرية، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بنسبه، وقد مر ذكر أبيه في العمال.

(١) المقطوعة في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧١ - ٣٧٢).

(٢) في النفع: «الفواذ». (٣) في الأصل: «يا مولاي» وكذا يتكرر الوزن.

(٤) ترجمة البلوي في نفع الطيب (ج ٨ ص ١٩٧).

حاله: هذا^(١) الرجل من أبناء النعم، وذوي البيوتات، كثير السكون والحياء، آل به ذلك أخيراً للوثة^(٢) لم يستفّق منها، لطف الله به. حسن الخط، مطبوع الأدب، سيال الطبع، معينه. وناب عن بعض القضاة، وهو الآن رهين ما ذكر، يتمنى أهله وفاته^(٣)، والله ولي المعافاة بفضلته^(٤).

وجرى ذكره في الإكليل بما نصّه^(٥): من أولي الخلال^(٦) البارعة والخصال، خطاً رائقاً، ونظماً بمثله لائقاً، ودُعابة يسترها تجهم، وسكوناً^(٧) في طبعه إدراك وتفهم. غني بالرواية^(٨) والتقييد، ومال في النظم إلى بعض التوليد، وله أصالة ثبتت^(٩) في السُرور عروقتها، وتألّقت في سماء المجادة بروقها، وتصرف بين النيابة في الأحكام الشرعية، وبين الشهادات العملية^(١٠) المرعية.

شعره: ومن شعره فيما خاطبني به، مهنثاً في إعدار أولادي، أسعدهم الله، افتتح ذلك بأن قال:

قال يعتذر عن خدمة الإعدار، ويصل المدح والثناء على بُعد الدار، وذلك بتاريخ الوسط من شعبان في عام تسعة وأربعين وسبعمائة^(١١): [الكامل]

لا عُدْرَ لي عن خدمة الإعدار ^(١٢)	ولئن ^(١٣) نأى وطني وشطّ مزارِي
أو عاقني عنه الزمان وصِرْفُه	تَقْضي الأمانِي ^(١٤) عادة الأعصار
قد كنتُ أرغبُ أن أفوز ^(١٥) بخدمتي	وأحطَ رَحْلي ^(١٦) عند باب الدار
بادي ^(١٧) المسرة بالصنيع ^(١٨) وأهله	متشمرًا فيه بفضل إزارِي ^(١٩)

(١) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ١٩٧).

(٢) في النفح: «إلى لوثة». واللوث: اختلاط في العقل يشبه الجنون. لسان العرب (لوث).

(٣) في النفح: «موته».

(٤) كلمة «بفضلته» غير واردة في النفح.

(٥) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ١٩٨).

(٦) في النفح: «الاتصال».

(٧) في النفح: «وسكوناً».

(٨) في النفح: «بالدراية».

(٩) في النفح: «ثبتت».

(١٠) في النفح: «العملية».

(١١) القصيدة في نفح الطيب (ج ٨ ص ١٩٦ - ١٩٧).

(١٢) الإعدار: طعام يتخذ لسرور حادث. لسان العرب (عذر).

(١٣) في الأصل: «وإن» والتصويب من النفح.

(١٤) في الأصل: «نقض الأمان» والتصويب من النفح.

(١٥) في الأصل: «أفوت».

(١٦) في الأصل: «وأخطر جلي».

(١٧) في الأصل: «باب» والتصويب من النفح.

(١٨) في الأصل: «بالضيق» وكذا لا يستقيم المعنى.

(١٩) في الأصل: «إزار» بدون ياء، والتصويب من النفح.

من شاء أن يلقى الزمانَ وأهله
فليات حَيَّ ابن الخطيب مُلَبِّيا
كم ضَمَّ من صيدٍ ^(٢) كرام فضْلُهُمْ ^(٣)
إن جئت ناديه فُتِبَ ^(٤) عشي وقل
يا من له الشرف القديم ومن له الـ
يُهنئك ما قد نلت من أملٍ به
تجلاك قُطبا كلَّ تجرٍ ^(٦) باذخ
عبد الإله وصنوه قمرُ العلا
ناهيك من قمرين في أفق العلا
زاكي الأرومة ^(٩) مغرق ^(١٠) في مجده
رقت طبائعه وراق جماله
وخلت ^(١١) شمائلُ حسنه فكانما
فإذا تكلم قلتَ ظل ^(١٢) ساقط
أو فت مسك الحبر ^(١٣) في قرطاسه
تتبسم ^(١٥) الأقلام بين بنانه
فتخال من تلك البنان كماء
تلقاه فياض الندى مُتهللاً

ويرى جلا الإشعاع في الأفكار ^(١)
فيفوز بالإعظام والإكبار
يسمو ويعلو في ذوي الأقدار
نلت المني بتلطف ووقار
حسب الصميم العِدُّ يومَ فخار
في الفرقدين الثَّيرين لساري ^(٥)
أملان مَرَجُوانٍ في الإغسار ^(٧)
فرعانٍ من أصلٍ زكا ونجار ^(٨)
يُشميهما نور من الأنوار
جم الفضائل طيب الأخبار
فكانما خُلِقا من الأزهار
خلعت عليه رقة الأسحار
أو وقع دُر من سُحور جَواري
بالروض ^(١٤) غب الواكف المذار
فتريك نظم الدر في الأسطار ^(١٦)
ظلت ^(١٧) تُفتَح ناضر الثَّوار
يلقاك بالبشرى والاستبشار

- (١) في النفع: ويرى جلا شاع في الأقطار. (٢) في الأصل: «جيد» والتصويب من النفع.
(٣) في النفع: «قَدَرُهُمْ».
(٤) في الأصل: «إذ حيث ناديه فقف...» والتصويب من النفع.
(٥) في الأصل: «يسار» والتصويب من النفع. (٦) في النفع: «مَجْد».
(٧) في الأصل: «الاعتبار» والتصويب من النفع.
(٨) في الأصل: «وبحار» والتصويب من النفع. والثجار: الأصل. لسان العرب (نجر).
(٩) الأرومة: أصل الشجرة ويستعار للحب. محيط المحيط (أرم).
(١٠) في الأصل: «مغرق» والتصويب من النفع.
(١١) في الأصل: «وَجَلَّتْ»، وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.
(١٢) في الأصل: «ظل» والتصويب من النفع. (١٣) في النفع: «حبر المسك».
(١٤) في النفع: «فالروض».
(١٥) في الأصل: «تَسْم» والتصويب من النفع.
(١٦) في النفع: «الأمطار».
(١٧) في الأصل: «كانما نهلت...» والتصويب من النفع.

بحرُ البلاغة قُشها وأياؤها
 إن ناظرَ العلماءَ فهو إمامهم
 أربى على العلماء بالصُّيت الذي
 ما ضره إن لم يجرى متقدماً
 إن كان أخره الزمان لحكمة
 الشمس تُخجِبُ وهي أعظم نير^(٤)
 يا ابن الخطيب خطبتُها لعلاكم
 جاءتك من خجل على قدم الحيا
 وأنت^(٥) تؤذي بعض حق واجب
 مَدَّت يد التطفيل نحو علاكم
 فابذل لها في النقد صفحك إنها
 لا زلت في دعة وعز دائم

سَخبانها خَبرٌ من الأخبار^(١)
 شرف المعارف، واحد النظار
 قد طار^(٢) في الآفاق كل مطار
 بالسُّبق^(٣) يُعرف آخر المضمار
 ظهرت وما خفيت كضوء نهار
 وتُرى من الآفاق إثر دراري
 بكراً تُزف لكم من الأفكار
 قد طُيِّبَت بِشَنائك المِغطار
 عن نازح الأوطان والأوطار^(٦)
 فتوشَّحت^(٧) من جودكم^(٨) بنضار
 تشكو من التَّقصير^(٩) في الأشعار
 ومسرَّة تُثرى^(١٠) مع الأعمار^(١١)

ومن السلطانيات قوله من قصيدة نسيها: [الطويل]

تَبَسَّم ثَغْرُ الدهر في القُضْب المُلْد
 ونَبَّه وَقَعَ الطَّل الحَظَّ نرجس
 وثُمَّ لَسَبِر^(١٤) الروض في مسكة الدجى
 وغطى ظلام الليل حُمرة أفقه
 وبيات قلوب الشَّهْب تخفق رقة
 وأهَمَّى عليه الغيم أجفان مُشفق

فأذكى الحياء^(١٢) خَجَلَةً وَجَنَّةَ الوَزْد
 فمال إلى الوَسنان، عاد إلى الشَّهْد^(١٣)
 نسيم شذا الخير كالمسك والنَّد
 كما دار مُسَوِّدُ العِذار على الخَد
 لما حَلَّ بالمشتاق من لَوعة الوَجْد
 يُذَكِّرُهُ^(١٥) فاستَمَطَرَ الدَّمْعُ للخد

- (١) في النفع: «خبر من الأخبار».
 (٢) في الأصل: «السُّبق» والتصويب من النفع.
 (٣) في الأصل: «السُّبق» والتصويب من النفع.
 (٤) في الأصل: «أنت» والتصويب من النفع.
 (٥) في الأصل: «الإمكان والأفكار» والتصويب من النفع.
 (٦) في الأصل: «فتوشَّحت» والتصويب من النفع.
 (٧) في الأصل: «أنت» والتصويب من النفع.
 (٨) في الأصل: «تثرى» والتصويب من النفع.
 (٩) في الأصل: «تثرى» والتصويب من النفع.
 (١٠) في الأصل: «تثرى» والتصويب من النفع.
 (١١) في الأصل: «تثرى» والتصويب من النفع.
 (١٢) في الأصل: «تثرى» والتصويب من النفع.
 (١٣) في الأصل: «تثرى» والتصويب من النفع.
 (١٤) في الأصل: «تثرى» والتصويب من النفع.
 (١٥) في الأصل: «تثرى» والتصويب من النفع.

ومنها:

كَأَنَّ^(١) لَمْ أَقِفْ فِي الْحَيِّ وَقَفَّةً عَاشِقَ
وَنَادَيْتُ حَادِي الْعَيْسِ عَرَّجَ لَعَلَّنِي
فَقَالَ أَتُنْذِرُ يَا صَالِحَ مَا لَكَ مَلْجَأً

ومما خاطبني به قوله: [الخفيف]

عَلَّلُونِي وَلَوْ بَوْعِدِ مُحَالٍ
وَاعْلَمُوا أَنَّنِي أَسِيرُ هَوَاكُمُ
فَدَمَوْعِي مِنْ بَيْنِكُمْ فِي انْسِكَابِ
يَا أَقِيلِ الْجَمَى كِفَانِي غَرَامِي
مَنْ مُجِيرِي مَنْ لَحْظِ رِيمٍ ظُلُومِ
نَاعَسُ الطَّرْفِ أَسْمَرَ الْجَفْنِ مِنْ
بَابِلِي اللَّحَاطِ أَضْمَى فَوَادِهِ
وَكَسَا الْجِسْمَ مِنْ هَوَاهُ نُحُولًا
مَا ابْتَدَأَ فِي الْوَصَالِ يَوْمًا بِعُطْفٍ
لَيْسَ لِي مِنْهُ فِي الْهَوَى مِنْ مُخْبِرِ
عِلْمِ الدِّينِ عِزُّهُ وَسِنَاهُ
هُوَ غَيْثُ النَّدى وَيَخْرُ الْعَطَايَا
إِنْ وَشَى فِي الرِّقَاعِ بِالنَّقْشِ قُلْنَا
أَوْ دَجَا الْخُطْبِ فَهُوَ فِيهِ شِهَابُ
أَوْ يَنْبِي الْعُضْبِ فَهُوَ فِي الْأَمْنِ مَاضٍ
لَسْتُ تَلْقَى بِمِثَالِهِ فِي زَمَانٍ
قَدْ نَأَى حَبِّي مَا^(١٠) لَهُ عَنْ دِيَارِي

غَدَاةً افْتَرَقْنَا وَالتَّوَى رَنْدَهَا يُغْدِي^(٢)
أَبْشَكَ وَجَدِي إِنْ تَمَرَّ عَلَى تَجْدٍ
سِوَى الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ فِي الرُّفْقِ وَالرُّقْدِ

وَجَلَّلُونِي وَلَوْ بِطَيفِ خِيَالٍ
لَسْتُ أَنْفَكُ إِنَّمَا^(٣) عَنْ عِقَالٍ
وَفَوَادِي مِنْ سَحَرِكُمْ فِي اشْتِغَالِ
خَسْبِي^(٤) مَا قَدْ جَزَّ...^(٥) ال
حَلَّ الْهَجْرَ بَعْدَ طَيْبِ الْوَصَالِ
طَالَ مِنْهُ الْجَوَى بِطُولِ اللَّيَالِي^(٦)
وَرَمَاهُ مِنْ غُنْجِهِ بِنَسْبَالِ
قَضْدِهِ فِي التَّوَى بِذَاكَ النِّحَالِ
مُذْ رَوَى فِي الْغَرَامِ بَابَ اشْتِغَالِ
غَيْرِ تَاجِ الْعُلَا وَقُطْبِ الْكِمَالِ
ذِرْوَةِ الْمَجْدِ بَذَرُ أَفَقِ الْجَلَالِ
هُوَ شَمْسُ الْهَدَى فَرِيدُ الْمَعَالِي^(٧)
صَفْحَةُ الطَّرْسِ حُلَيْتُ بِاللَّالِي^(٨)
رَايَةُ الصَّبْحِ فِي ظِلَالِ^(٩) الضَّلَالِ
صَادِقُ الْعِزِّ ضَيْقُ الْمَجَالِ
جَلَّ فِي الدَّهْرِ يَا أَخِي عَنْ مِثَالِ
لَا لِيَجْدُو وَلَا لَتَيْلِ نَوَالِ

(١) في الأصل: «كأنني» وكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «إلا» وكذا ينكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «خسبي بما» وكذا ينكسر الوزن.

(٤) بياض في الأصل.

(٥) في الأصل: «الليال» بدون ياء.

(٦) في الأصل: «المعال» بدون ياء.

(٧) في الأصل: «باللال» بدون ياء.

(٨) في الأصل: «ظلل» وكذا ينكسر الوزن.

(٩) كلمة «ما» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم المعنى والوزن معاً.

لكنِ اشْتَقْتُ أن أرى منه وجهًا نُورُهُ فاضحٌ لنورِ الهلالِ
وكما هَمْتُ فيه الشَّم كفاً قد أتتْ بالنُّوالِ قبل السؤالِ
سألَ^(١) ابن الخطيب عُذْرًا أجابت تَلَيْمُ الثُّغْلِ قبل شَيْعٍ^(٢) النعالِ
وثَوَّقِي حَقَّ الوزارةِ عمن هو مِلْكٌ لها على كل حالِ

محمد بن محمد بن الشَّدِيد^(٣)

من أهل مالقة، يكنى أبا عبد الله.

حاله: ذكر في الإكليل بما نصّه^(٤): شاعرٌ مُجِيدٌ حَوْكُ الكلامِ، ولا يَقْصُرُ فيه عن درجة الأعلام. رحل إلى الحجاز لأوّل أمره فطال بالبلاد المشرقية ثواؤه، وعُمِيَتْ أنباؤه، وعلى هذا العهد وقفتْ له على قصيدة بخطه غرضها نبيل، ومرعاها غير وَّييل، تدلّ على نَفْسٍ ونَفْسٍ، وإضاءة قَبَسٍ، وهي: [الوافر]

لنا في كلِّ مَكْرَمَةٍ مَقَامٌ ومن فوقِ النجومِ لنا مَقَامٌ
رَوِينا من مِياهِ المَجْدِ لَمَّا وَرَدْنَاهَا وقد كَثُرَ الزحامُ
ومنها:

فنحن هُمُ وقُلْ لي مَنْ سوانا لنا التَّقْدِيمُ قُدَمًا والكلامُ
لنا الأيدي الطُّوالُ بكلِّ ضَرْبٍ^(٥) يُهَزُّ به لدى الروحِ الحُسامُ
ونحن اللّابسونَ لكلِّ دِرْعٍ يصِيبُ السُّفْرَ^(٦) منهمُ انْثِلامُ
بأنْدلسٍ لنا أيامُ حربٍ مَوَاقِفُهُنَّ في الدنيا عظامُ
ثوى^(٧) منها قلوبُ الرُّومِ خوفًا^(٨) يُخَوِّفُ منه في المَهْدِ الغلامُ
حَمِينا جانبَ الدينِ احتسابًا فها هو لا يُهَانُ ولا يُضامُ
وتحت الرايةِ الحمراءِ مَنّا كَتائبُ لا تُطْأَقُ ولا تُرامُ
بنو نَصْرٍ وما أدراك ما هم أَسودُ الحربِ والقومُ الكرامُ

(١) في الأصل: «سألها» وكذا ينكسر الوزن.

(٢) الشَّيْع: قِبال الثُّغْل. محيط المحيط (تسع).

(٣) ترجمة ابن الشَّدِيد في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٢).

(٤) النص مع القصيدة في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٢ - ٣٧٣).

(٥) في النفح: «صَوْب».

(٦) في الأصل: «السُّفْر» والتصويب من النفح؛ لأن كلمة «السُّفْر» أنسب للمعنى.

(٧) ثوى: أقام. لسان العرب (ثوى). (٨) في النفح: «خوف».

لهم في حربهم فتكات عمرو
يقول: عدائهم مهما ألما
إذا شرعوا الأسنة يوم حرب
كان رماحهم فيها نجوم
أناس تخلف الأيام مئنا
رأينا من أبي الحجاج شخصا
موقى العريض محمود السجيا
يجول بذهنه في كل شيء
قويم الرأي في ثوب الليالي
له في كل معضلة مضاء
رؤوف قادر يفضي ويعفو
تطوف ببيت سؤديه القوافي
وتسجد في مقام علاء شكرا
أفارسها إذا ما الحرب أختت^(١)
ومطرها إذا ما السحب كفت
لك الذكر الجميل بكل قطر
لقد جئنا^(٢) البلاد فحيث سزنا
فضلت ملوكها شرقا وغربا
فانت لكل مغلوة مدار
جعلت بلاد أندلس إذا ما
مكان انت فيه مكان عز
وهبتك من بنات الفكر بكرا
فنز طرف مجدك في حلاها

فلأعمار عندهم انصرام
أتونا ما من الموت اعتصام
فحقق أن ذاك هو الجمام
إذا ما أشبه الليل الغمام^(١)
بحي منهم فلهم دوام
على تلك الصفات له قيام
كريم الكف مقدم همام
فيدركه وإن عز المرام
إذا ما الرأي فارقه القوام
مضاء الكف ساعده^(٢) الحسام
وإن عظم اجتناء واجترام
كما قد طاف بالبيت الأنام
ونعم الركن ذلك والمقام
على أبطالها ودنا الجمام
وكف أخي الندى أبدا غمام
لك الشرف الأصيل المستدام
رأينا أن ملكك لا يرام
وبت لملكها يقظا وناموا^(٥)
وانت لكل مكرمة إمام
ذكرت تغار مضر والشام
وأوطان خللت بها كرام
لها من حنين لقياك ابتسام
فللمجد الأصيل بها اهتمام

(١) في النسخ: «القام».

(٢) في النسخ: «ساعدها».

(٣) أختت على أبطالها: أنت عليهم وأهلكتهم. لسان العرب (خنا).

(٤) في الأصل: «جينا» والتصويب من النسخ. (٥) في الأصل: «ونام» والتصويب من النسخ.

محمد بن مسعود بن خالصة بن فرج بن مجاهد ابن أبي الخصال الغافقي^(١)

الإمام البليغ، المحدث الحجّة، يكنى أبا عبد الله. أصله من قرغليط من شقورة، من كورة جيان، وسكن قرطبة وغرناطة.

حاله: قال ابن الزبير عند ذكره: ذو الوزارتين، أبو عبد الله بن أبي الخصال. كان من أهل المعارف الجمّة، والإتقان لصناعة الحديث، والمعرفة برجاله، والتقيد لغريبه، وإتقان ضبطه، والمعرفة بالعربية واللغة والأدب، والنسب والتاريخ، متقدماً في ذلك كله. وأما الكتابة والنظم، فهو إمامهما المتفق عليه، والمتحاكم فيهما إليه.

ولما ذكره أبو القاسم الملاحى بنحو ذلك قال: لم يكن في عصره مثله، مع دين وفضل وورع.

قال أبو عمرو ابن الإمام الإسيجي في سيمط الجمان، لما ذكره: البحر الذي لا يُماتح ولا يُشاطر، والغيث الذي لا يُساجل ولا يُقاطر، والروض الذي لا يُفاح ولا يُعاطر، والطود الذي لا يزاحم ولا يخاطر، الذي جمع أشات المحاسن، على ماء غير ملح ولا آسن؛ وكثرت فواضله، فأمنت المماثل والمُحاسن، الذي قُصرت البلاغة على مَحْتَدِه، وألقيت أزمة الفصاحة في يده، وتشرفت الخطابة والكتابة باعتزائهما إليه، فتثّل كِنَانَتِها، وأرسل كَمَائِنِها، وأوضح أسرارها ودفائنها، فحَسِبُ الماهر التحرير، والجَهْدُ العلامة البصير إذا أبدع في كلامه، وأتبع في روض الإجازة نثاره ونظامه، وطالت قنَى الخُطْبَةِ الذبل أقلامه، أن يستنير بأنواره، ويقتضي بعض مناهجه وآثاره، وينثر على أثوابه مِنكُ غُبَارِه، وليعلم كيف يتفاضل الخبر والإنشاء، ويتلو إنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

وعضّه العَقُور أبو نصر في قلائده، حيث قال^(٢): «هو وإن كان خامل المنشأ نازله، لم يُنزلْه المجدُ منازلَه، ولا فرُعُ للعلاء هِضابًا، ولا ارتشف للسنّا رضابًا، فقد تميّز بنفسه، وتحيز من أبناء^(٣) جنسه، وظهر بذاته، وفخر بأدواته».

(١) يكنى ابن أبي الخصال أبا عبد الله، وترجمته في المعجب (ص ٢٣٧، ٢٤٠) والذخيرة (ق ٣ ص ٧٨٦) وقلائد العقيان (ص ١٧٤) والمطرب (ص ١٨٧) وبغية الملتبس (ص ١٣١) والصلة (ص ٨٥٤) ورايات المبرزين (ص ١٨٨) والمعجم في أصحاب القاضي الصدفى (ص ١٥٢) والمغرب (ج ٢ ص ٦٦) والمقتطف من أزاهر الطرف (ص ٨٧، ٨٩) وبغية الوعاة (ص ١٠٤).

(٢) كلمة «أبناء» ماقطة في القلائد.

(٣) قلائد العقيان (ص ١٧٤).

مشيخته: قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير في الصلة^(١): روى عن الغساني، والصّدفي، وأبي الحسن بن الباذش، وأبي عمران بن تليد، وأبي بحر الأسدي، وأبي عبد الله النّفزي، وجماعة غيرهم.

توالياً: قال الأستاذ: وأما كتبه وشعره وتوالياً الأدبية، فكل ذلك مشهور، متداول بأيدي الناس، وقلّ من يُعلم بعده، أن يجتمع له مثله، رحمه الله.

من روى عنه: روى عنه ابن بشكوال، وابن حبيش، وابن مضاء وغيرهم، وكل ذلك ذكره في رحاله، وهو أعرف بتقدمه في احتفاله.

شعره: وله شعر كثير، فمن إخوانياته ما خاطب به أبا إسحق بن خفاجة:

[الكامل]

هَبْ النسيم هبوب ذي إشفاق	يُذهبن الهوى بجناحه الخفاق
وكانما صُبْحُ الغصونِ بِنشوة	باحث لها سرائر العشاق
وإذا تلاعبت الرياحُ ببيانِه	لعب الغرامُ بمهجة المشتاق
مَهْ يا نسيمُ فقد كَبُرَتْ عن الصبا	لم يبق من تلك الصُّبابة باق
إن كنتَ ذاكَ فليست ذاكَ ولا	أنا قد أَذِنْتُ ^(٢) مفارقي بفراق
ولقد عَهِدْتُ سُرّاك من عُدَد الهوى	والموت في نظري وفي استنشاق
أيام لو عَن السُّلُوْ لَخاطري	قَرَّبْتُهُ هَذِيًّا ^(٣) إلى أشواق ^(٤)
الهوى إلفي والبطالة مَرَكبي	والأمنُ ظِلِّي والشبابُ رواق ^(٥)
في حيث قُسِمَتِ المُدّامةُ قسمة	ضَيِيزَى ^(٦) لأن السكر من أخلاق ^(٧)
لا ذنب للصُّهْبَاءِ أني غاصب	ولذاك قام السكر باستحقاق
ولقد صَدَدْتُ الكأسَ فانقبضت بها	من بعدها انبسطت يمينُ السّاق
وتركتُ في وسط التُّدَامَى خلة	هامت بها الوُسْطَى من الأعلاق
فاسْتَسْرِقُونِي مُذْكَرِينَ وعندهم	أنى أدين اللهو دين نفاق
وخبأها نَفَثَ الحباب وربما	سَدِكت يد الملسوع منه براق

(١) المراد «صلة الصلة».

(٢) الهذبي: ما يُهدى إلى الحرَم من النعم. لسان العرب (هدى).

(٣) الهذبي: ما يُهدى إلى الحرَم من النعم. لسان العرب (هدى).

(٤) في الأصل: «أشواق».

(٥) في الأصل: «رواق».

(٦) القسمة الضييزى: الناقصة الجائرة. محيط المحيط (ضاز).

(٧) في الأصل: «من أخلاق».

وكانه لما توقر فوقها^(١) نور تجسم من ندى الأحداق
لو بارح نفع النوى في روضة
ولقد جلوا والله يذرا كيدهم
فثانة الأوصاف والأعراق
أغوى بها إبليس قدما آدم^(٢)
والسر يرمى في هواها الباقي^(٣)
تالله أصرف نحوها وجد الرضا
لو شغشت برضا أبي إسحق
ومن نسيه^(٤): [المنسرح]
وليلة عنبريّة الأفق
زويت فيها السرور من طروق
وكنت حران فافتدخت بها
نارا من الراح برذت حرقى^(٥)
وافت^(٦) بها^(٧) عاطلا وقد لبست
غلالة فصلت من الحدق
فاجا^(٨) بها الدهر من بنيه دجى^(٩)
لقيته كالإصباح في نسق^(١٠)
قامت لنا في المقام أوجههم
وراحهم بالنجوم والشفق
وأطلع^(١١) البدر من ذرى غصن
تَهْفُو عليه القلوب كالورق
من عبد شمس بدا سنائه وهل
ذا^(١٢) النور^(١٣) إلا لذلك^(١٤) الأفق
مد بحمراء من مدامته
بيضاء كف^(١٥) مشكاة العبق
فخلتها وردة منقمة
تحمل من شومن على طبق

- (١) في الأصل: «من فوقها» وكذا ينكسر الوزن. (٢) في الأصل: «أدما».
(٣) في الأصل: «وهي السر يرمى في هواها الباقي».
(٤) القصيدة في المغرب (ج ٢ ص ٦٧) والذخيرة (ق ٣ ص ٧٩٣).
(٥) في الأصل: «حرقى».
(٦) في المصدرين: «بنا».
(٧) في الأصل: «فاجا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المغرب. وفي الذخيرة: «فجاءها الدهر...». وقاجا: أي: فاجا، وقد خففها لكي لا ينكسر الوزن.
(٨) في الذخيرة: «هوى».
(٩) رواية عجز البيت في المصدرين هي: بفتية كالصباح في نسق.
(١٠) في المغرب: «وأطلع».
(١١) في الأصل: «ذلك» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.
(١٢) في المغرب: «البدر».
(١٣) في الأصل: «لذلك» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.
(١٤) في الذخيرة: «كفا».

يَشْرَبُ فِي الرَّاحِ حِينَ يَشْرَبُهَا^(١) مَا غَادَرْتُ مُقْلَتَاهُ مِنْ رَمَقٍ^(٢)
 وَقَالَ^(٣): [المنسرح]

يَا حَبِذَا لَيْلَةً لَنَا سَلَفَتْ أَغْرَثَ بِنَفْسِي الْهَوَى وَمَا^(٤) عَرَفْتُ
 دَارَتْ بِظِلْمَائِهَا الْمُدَامُ فِكْمِ تُرْجِسُهُ مِنْ بِنَفْسِيحٍ قُطِفَتْ
 وَقَالَ فِي مُغْنٍ زَارٍ، بَعْدَهُ أَغْبَى وَشَطُّ الْمَزَارِ^(٥): [الكامل]

وَإِنِّي وَقَدْ عَظُمْتُ عَلَيَّ ذُنُوبُهُ فِي غَيْبَةٍ قَبُحَتْ بِهَا آثَارُهُ
 فَمَحَا إِسَاءَتَهُ لَنَا^(٦) إِحْسَانُهُ وَاسْتَغْفَرْتُ لَذُنُوبِهِ أَوْتَارُهُ
 وَقَالَ يَعْتَذِرُ عَنْ اسْتِبْطَاءِ مُكَاتَبَةٍ^(٧): [الطويل]

أَلَمْ تَعْلَمُوا^(٨) وَالْقَلْبُ زَهْنٌ لَدَيْكُمْ يَخْبِرُكُمْ^(٩) عَنِّي بِمُضْجِرِهِ^(١٠) بَعْدِي؟
 فَلَوْ^(١١) قَلْبَتْنِي^(١٢) الْحَادِثَاتُ مَكَانَكُمْ لِأَنْهَبْتُهَا وَفَرِي وَأَوْطَأْتُهَا^(١٣) خَدِي
 أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنِّي وَأَهْلِي وَوَاحِدٌ^(١٤) فِدَاءُ^(١٥) وَلَا أَرْضِي بِتَقْدِيرِهِ^(١٦) وَخَدِي؟

ومن قوله في غرض المدح يخاطب تاشفين بن علي، ويذكر الوقعة بكركي،
 يقول فيها: [البسيط]

الله أعطاك فَتَحًا غير مشترك وردَّ عزمك عن قُوَّتٍ إِلَى دَرْكِ

- (١) في الأصل: «نشرت...» حين نشرتها» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين، وجاء في الذخيرة: «بالراح» بدل: «في الراح».
- (٢) في المغرب: «من رمقي».
- (٣) البيتان في الذخيرة (ق ٣ ص ٧٩٣ - ٧٩٤). وبغية الوعاة (ص ١٠٥).
- (٤) في الذخيرة: «وقد».
- (٥) البيتان في قلائد العقيان (ص ١٧٥) وبغية الملتبس (ص ١٣١) والمطرب (ص ١٨٧) والذخيرة (ق ٣ ص ٧٩٦).
- (٦) في الذخيرة: «بنا».
- (٧) الأبيات في قلائد العقيان (ص ١٧٧) والمطرب (ص ١٨٨) والذخيرة (ق ٣ ص ٧٩٧).
- (٨) في الذخيرة: «ألم تسألوا».
- (٩) في الذخيرة: «فيخبركم».
- (١٠) في المصادر: «بمضمرة».
- (١١) في القلائد والمطرب: «ولو».
- (١٢) في المطرب والذخيرة: «تبلتني».
- (١٣) في الأصل: «واودلاتها». والتصويب من المصادر الثلاثة.
- (١٤) في المصادر: «وواحدي».
- (١٥) في الأصل: «فداء» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصادر.
- (١٦) في المطرب: «بتقدمتي».

أرسل عنان جواد أنت راكبُه
حتى يصير إلى الحسنى على ثقة
قد كان بُغْدُكَ للأعداء مملكة
سارت بك الجرْدُ^(١) أو طارَ الفضاء^(٢) بها
فما تركت كميًا غير مُتَعَفِر
ناموا وما نام موتور على خنق
فَصَبَّحَتْهُمْ جنودُ الله باطشةً
من كل مُبتدر كالنجم مُنكدر
فطاعنوكم بأرماح وما طعنت
تَعَجَّلَ التُّحُرُ فيهم قبل موسمهِ
فالطيرُ عاكفةٌ والوحشُ واقفةٌ
عَدَتْ على كل عادٍ منهم أَسْرُ
كلي هنيئًا مريئًا واشكري مَلِكًا
فلو تَنَضَّدت الهامات إذ نشرت
أبرح وطالب بباقي الدهر ماضيه
وكم مضى لك من يوم يَنْتَ له
بالنُّفْعِ مُرْتَكَمٌ بالموت مُلْتَمِ
فحصُ القِبابِ إلى فحصِ الصعابِ
وكم على خَبرِ محمود وجارته
وقُتِيت للصفَرِ حتى قيل قد غدروا
فانسلَمَتهم إلى الإسلام غَدَوَتهم
يا أيها الملك السامي بهمتِهِ
ما زلت تُسمعه بُشْرَى وتُطلعه
بِيَضت وجه أمير المؤمنين بها

واضمم يديك ودَّعه في يد المَلِكِ
يُهدي سبيلك هادٍ غير مُؤْتَمَكِ
حتى اسْتَدَرَّت عليهم كورةُ الفلكِ
والحينُ قد قِيدَ الأعداء في شَرَكِ
ولا تركت نجيعًا غير مُنْسَفَكِ
أسدى إذا فرصة ليست^(٣) من السلكِ
والصبح من عَبَرَاتِ الفجرِ في مُسَكِ
تفيض أنفسهم غيظًا من المَسَكِ
وضاربوكم بأسياف ولم تُجِكِ
وقدَّمَ الهَدْيَ منهم كلُّ ذي نُسَكِ
قد أثقلتُها لحومُ القوم عن حَرَكَ
بُعْثَ^(٤) في حُجْرٍ^(٥) رَحِبٍ وفي حَنَكِ
قَرَّتْكَ أسيافه في كل مُغْتَرِكِ
بالقاع للغيظان بالشُّبِكِ
فيوم بَذَرَ أقامه الفِيءُ في قَدَكِ
في ماقط برماح الحظِّ مُشْتَبِكِ
بالبيض مشتمل بالشمر مُخْتَبِكِ
إلى أزيولة مَداساتٍ إلى السُّكِكِ
للرُّوم من مُرْتَكَلٍ غير مُتَرَكِ
سَمَوْتَ تطلب نصر الله بالدَّرَكِ
وأذهب السيف ما بالذَّن من حُنَكِ
إلى رضى الله لا تَعْدَم رضى المَلِكِ
أخرى كدرٌ على الأجياد مُنْسَلِكِ
والأرض من ظُلْمة الإلحاد في حَلَكِ

(١) الجرْد: جمع أجرد وهو الفرس السباق. محيط المحيط (جرد).

(٢) في الأصل: «الفضاء» وهكذا ينكسر الوزن.

(٣) كلمة «ليست» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن والمعنى معًا.

(٤) في الأصل: «بعثه» وهكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

(٥) المراد الحنجرة وهي الحلقوم.

فاستشعر النضر واهتزت منابرُه بذكر أزوع للكفار مُحْتَنَك
فأخلدك ولمن والاك طاعته خلود ير بتقوى الله مُمْتَسِك
وافيت والغيث زاهر قد بكى طربًا لما ظفرت وكم بلله من الضحك
وتمم الله ما أنشأت من حُسن بكل مُتَسَبِّح منه ومُتَمَك
وعن قريب ثباهي الأرض من زهير سماها بها غضة الحَبِك
فعد وقد واعتمد وأحمد وسُدْ وأبد وقل وصل واستطل واستول وانتِهك
وحسبك الله فردًا لا نظير له تغنيك نُضرتَه عن كل مُشْتَرِك

ومن قوله في غرض الرثاء، يرثي الفقيه أبا الحسن بن مغيث^(١): [البسيط]

الدهر ليس على حُرٍّ بمؤتمن
وأي علق تخطُّته يَدُ الزمن
يأتي العَفَاء^(٢) على الدنيا وساكنها
كانه^(٣) أذبر لم يسكن إلى سَكَنٍ
يا باكيًا فرقة الأحباب عن شَحْطِ^(٤)
هلا بكيت فراق الروح للبدن؟
نور^(٥) تَقْيِد^(٦) في طين^(٧) إلى أجل
وانحاز^(٨) غلوا^(٩) وخلي الطين في الكفن^(١٠)
كالطير في شرك يسمو إلى ذرَك
حتى تخلص من سقم ومن دَرَن
إن لم يكن في رضى الله اجتماعهما
فيا لها صفقة تُمُث على غَبِن^(١١)

(١) وردت من هذه القصيدة فقط الأبيات الثالث والرابع والسادس والسابع في المعجب (ص ٣١٣ - ٣١٤) منسوبة إلى ابن طفيل، صاحب رسالة «حي بن يقظان».

(٢) في الأصل: «العفا» وكذا ينكسر الوزن. (٣) في الأصل: «كان» وكذا ينكسر الوزن.

(٤) الشحط: البعد. (٥) النور: كناية عن الروح.

(٦) في المعجب: «تردّد». (٧) الطين: كناية عن البدن.

(٨) في المعجب: «فانحاز».

(٩) في الأصل: «غلوا»، والتصويب من المعجب.

(١٠) في المعجب: «الكفن».

(١١) في الأصل: «... الله التقي وهما فيا لها صفقه بُثَّت على دَعْنٍ»، والتصويب من المعجب. والغبن: الخطأ.

يَا شَدُّ مَا افْتَرَقَا مِنْ بَعْدِ مَا اعْتَنَقَا^(١)
 أَظْلُهَا مَحْرَقَةً^(٢) كَانَتْ عَلَى دَخْنٍ^(٣)
 وَرَبُّ سَارٍ إِلَى وَجْهِ يُسَرُّ بِهِ
 وَافِي وَقَدْ نَبَتِ الْمَرْعَى عَلَى الدَّمَنِ
 أَتَى إِلَى اللَّهِ لَا سَمْعَ وَلَا بَصَرَ
 يَدْعُو إِلَى الرُّشْدِ أَوْ يُهْدِي إِلَى السُّنَنِ
 فِي كُلِّ يَوْمٍ فِرَاقٍ لَا يَبْقَاءُ لَهُ
 مِنْ صَاحِبِ كَرَمٍ أَوْ سَيِّدِ قِمَنِ
 أَعْيَا أَبَا حَسَنِ فَقَدْ الَّذِينَ مَضَوْا
 فَمَنْ لَنَا بِالَّذِي أَعْيَا أَبَا حَسَنِ
 كَأَنَّ الْبَقِيَّةَ فِي قَوْمٍ قَدْ انْقَرَضُوا
 فَهَاجَ مَا شَاءَ ذَاكَ الْقَرْنَ مِنْ شَجَنِ
 يُعَدُّ فِدَاً وَفِي أَثْرَابِهِ رَمَزٌ مِنْ
 كُلِّ ذِي خُلُقٍ عَمَرُو وَذِي فِطْنٍ
 وَإِنْ مِنْ أَوْجَدْتَنَا كُلُّ مُفْتَقِدٍ
 حَيَاتِهِ لِعَزِيزِ الْفَقْدِ وَالظُّفَنِ
 مَنْ لِلْمَلُوكِ إِذَا خَفَّتْ حُلُومُهُمْ
 بِمَا يُقَاوِمُ ذَاكَ الطَّيْشِ مَنْ سَكَنَ
 وَمِنْهَا:

يا يونس لا تَسِرْ أَصْبَحْنَا لَوْحِشْتَنَا	نشكو اغتراباً وما بِنَا عن الوطن
وَيَا مُطَاعاً مُطِيعاً لَا عِنَادَ لَهُ	في كل أمر على الإسلام مُؤْتَمِن
كَمْ خَطَّتْ كَارْتِجَاجَ الْبَحْرِ مُبْهَمَةً	فَرَّجَتْهَا بِحُسامِ سُلٍّ مِنْ لَسَنِ
طُودِ الْمَهَابَةِ فِي الْجَلَا وَإِنْ جَذَبَتْ	عِنانَهُ خَلُوةَ هَزَّتْ دُرَى وَتَر
أَكْرَمَ بِهِ سَبَبًا تَلْقَى الرَّسُولَ بِهِ	لخمسٍ واردة في الفَرَضِ وَالسُّنَنِ
نَاهِيكَ مِنْ مَنَهِجِ سَمِّ الْقُصُورِ بِهِ	هَوَى فَمَنْ قَدَّرَ عَالٍ إِلَى قَدَن
مِنْ كُلِّ وَادِي الثُّقَى يَسْقَى الْغَمَامَ بِهِ	فَيَسْتَهْلُ شُرُوقَ الضُّرْعِ بِاللَّبَنِ
تَجَمَّلَتْ بِكَ فِي أَحْسَابِهَا مُضَرٌ	وَأَضِلُّ مَجْدَكَ فِي جُزْثُومَةِ الْيَمَنِ

(١) في المعجب: «اعتلقا». وألف الاثنين يعود إلى الروح والبدن.

(٢) الدَّخْنُ: الفساد.

(٣) في المعجب: «هدنة».

من دولة حولها الأنصار حاشدة
 من الذين هم رورا وهم نصروا
 إن يَبْدُ مطلع منهم ومستمع
 ما بَعْدَ منطقَه وشي ولا زَهْرُ
 أقول وفيينا فضل سُودَدَه
 محمد ومغيث نغم ذا عوضا
 تقيلا هذيه في كل صالحه
 ما حلَّ حَبَوْتَه إِلَّا وقد عقدا
 غُرُّ الأَجْبَةِ عند حسن عهدهما
 علما وحلما وترحيبا وتكرمة
 يا وافد الغيث أوسع قبره نزلا
 وطبق الأرض وبلا في شفاعته
 وأنت يا أرض كوني مرة بأبي
 وإن تردت بثرب فيك أعظمه
 في طامع شامخ الأركان والفتن
 من عينة الدين لا من جذوة الفتن
 فارغب بنفسك عن لحظ وعن أذن
 ولا لأغلاق ذاك الدر من ثمن
 أستغفر الله ملء السر والعلن
 هما سلاله ذاك العارض الهين
 نصر السوابق عن طبع وعن مرن
 حبا بما اختار من أيد ومن منن
 وإن يؤنس في الأثواب والجئن
 للزائرين وإغضاء على زكن
 ورؤما حول ذاك الديم من ثكن
 فنعم رائد ذاك الريف واليمن
 مشوى كريم ليوم البعث مرتها
 فكم لها في جنان الخلد من ردن

ومن شعره قوله مخمسا، كتب بها، وقد أقام بمراكش يتشوق إلى قرطبة:

[الطويل]

بَدَتْ لهم بالغُور والشُّمل جامعُ
 فباحث بأسرار الضمير المدامعُ
 بروق بأعلام الغُذيب لوامعُ
 ورُبَّ غرام لم تنله المسامعُ
 أذاع بها من فيضها لا يُصَوَّبُ^(١)

ألا في سبيل الشوق قلبٌ مؤثِّلُ
 هو الموت إلا أنني أتحمِّلُ
 بركب إذا شاء والبروق تحملُ
 إذا قلت هذا منهلٌ عزٌّ منهلُ
 وراية برقي نحوها القلبُ يَجِنِبُ

أبى الله إماما كلُّ بُغْدٍ فثابتُ
 ولا يلفت البين المصمَّمُ لافِتُ
 وإما دثو الدار منهم ففائتُ
 ويا ربَّ حيِّ البارِقِ المتهافتُ
 غرابٌ بتفريق الأحبة يثعَبُ

(١) في الأصل: «... فيضها التصويب» وهكذا ينكسر الوزن، ولا تتلام القافية مع التي تلتها.

خذوا بدمي ذاك الوَسِيْقُ الْمُضَرِّجَا وروضًا بَغِيضُ العاشقين تَارِجَا
 عفى الله عنه قَاتِلًا مَا تَحَرِّجَا تَمْشَى الرُّدَى فِي نَشْرِهِ وَتَدْرَجَا
 وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لِلْمَنِيَّةِ مَذْهَبُ
 سَقَى الله عَهْدًا قَدْ تَقْلَصَ ظِلُّهُ حَيَا قَطْرِهِ يَحْيَى الرُّبَا مُسْتَهْلُهُ
 وَعَى بِهِ شَخْصًا كَرِيمًا أَجَلُهُ يُصِخُّ فَوَادِي تَارَةٍ وَيُجِلُّهُ
 وَيُلْمُهُ بِالذِّكْرِ طَوْرًا وَيُشْعِبُ
 رَمَانِي عَلَى قُرْبٍ بِشَرْخِ ذِكَايِهِ فَأَغَشَتْ جُفُونِي نَظْرَةً مِنْ ذِكَايِهِ
 وَغُضَّتْ بَادِنِي شُعْبَةً مِنْ سَمَائِهِ شِعَابِي وَجَاءَ^(١) الْبَحْرُ فِي غُلَوَائِهِ
 فَكُلُّ بِقَرَبٍ^(٢) رَذَعُ خَذِيهِ يَرْكَبُ
 أَلَمْ يَأْتِهِ أَتَى رَكْنَتْ قَعُودَا وَأَجْمَنْتُ عَنْ وَفَرِ الْكَلَامِ قَعُودَا
 وَلَمْ أَعْتَصِرْ لِلذِّكْرِ بَعْدَكَ عُودَا وَأَزْهَقْنِي هَذَا الزَّمَانُ صُعُودَا
 فَرَبِّعِ الَّذِي بَيْنَ الْجَوَانِحِ سَبَسَبُ
 عَلَى تِلْكَ مِنْ حَالٍ دَعَوْتُ سَمِيْعَا وَذَكَّرْتُ رَوْضًا بِالْعَقَابِ مَرِيْعَا
 وَتَمَلَّأَ الشَّعْبُ الْمَذْجَجِي جَمِيْعَا وَسَرَبًا بِأَكْنَافِ الرُّصَافَةِ رِيْعَا
 وَأَحْدَاقِ عَيْنٍ بِالْجِمَامِ تُقْلَبُ
 وَلَمْ أَتَسَّ مِمَّشَانَا إِلَى الْقَصْرِ ذِي الثُّخْلِ بِحَيْثُ تَجَافَى الطُّودُ عَنْ دَمِيثٍ سَهْلٍ
 وَأَشْرَفُ لَا عَنْ عَظْمٍ قَدَرٍ وَلَا فَضْلٍ وَلَكِنَّهُ لِلْمُلْكِ قَامَ عَلَى رِجْلِ
 يَقِيهِ تَبَارِيخُ الشَّمَالِ وَيَخْجُبُ
 فَكَمْ وَجَعٍ^(٣) يَنْتَابُهُ بِرَمِيْمِهِ وَيَرْتَحِلُ الْفَتَى بِأَرْجَلِ عَيْسِهِ
 أَبَقَ أَمْ عَمَرُو فِي بَقَايَا دَرِيْسِهِ كَسَحَقِ الْيَمَانِي مُغْتَلِيهِ نَفِيْسِهِ
 فَرُقَعْتَهُ تُسْبِي الْقُلُوبَ وَتُفْجِبُ
 وَيَبِيضَاءَ لِلْيَبِيضِ الْبِهَالِيلِ تَعْتَزِي^(٤) وَتَعْتَزُّ بِالْبَانِ جَلَالًا وَتُشْتَزِي
 سَوَى أَنَهَا بَعْدَ الصَّنِيعِ الْمُطَرِّزِ كَسَاهَا الْبَلَى وَالثُّكُلُ أَثْوَابُ مُغَوِّزِ
 يَبْكِي وَتَبْكِي لِلزَّائِرِينَ وَتُثَدِّبُ

(١) في الأصل: «وجاء» وهكذا ينكسر الوزن. (٢) في الأصل: «قرب» وكذا ينكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «توجع» وهكذا ينكسر الوزن. (٤) في الأصل: «تعتزبه».

وكم لك بالزُهرَاء من مُتَرَدِّدٍ ووقفه مُتَسَقِّى المَجَامِعِ مُقْصِدِ
يسكن من خَفَقَ الجَوَانِحِ باليدِ وَيَهْتِكُ حُجْبَ النَّاصِرِ بنِ مُحَمَّدِ
ولا هَيْبَةً تُخْشَى هِنَالِكَ وَتُرْهَبُ

لنعم مقام الخَاشِعِ الْمُتَنَسِّكِ وكانت في محلِّ القَبْشَمِينَ المُمَلِّكِ
متى يورد النَّفْسَ العَزِيزَةَ يَشْفِكُ وإن يَسْمُ نحو الأَبْلَقِ الفردِ يَمَلِكُ
وأي مَرَامٍ رَامَهُ يَتَصَعَّبُ

قصورَ كان المَاءُ يَعِشِقُ مَبْنَاهَا فَطَوْرًا يَرَى تَاجًا بِمَفْرِقِ أَعْلَاهَا
وطورًا يَرَى خَلْخَالَ أَسْوَقِ سُفْلَاهَا إِذَا زَلَّ وَهْنَا عَنْ ذَوَائِبِ يَهْوَاهَا
يقول هَوَى بَدْرًا أَوْ انْقَضَ كَوْكَبُ

أَتَاهَا عَلَى رَغَمِ الجِبَالِ الشَّوَاهِقِ وَكُلُّ مُنِيفٍ لِلنَّجْمِ مُرَاهِقِ
وكم دَفَعَتْ فِي الصُّدْرِ مِنْهُ بَعَانِقِ فَأَوْدَعَ فِي أَحْشَائِهَا وَالْمَفَارِقِ
حَسَابًا بِأَنْفَاسِ الرِّيحِ يَذْرُبُ

هي الخُودُ مِنْ قَرْنٍ إِلَى قَدَمِ حُسْنَا تَنَاصَفَ أَقْصَاهَا جَمَالًا مَعَ الْأَدْنَى
وَدَرَجٍ كَأَفْلَاكٍ^(١) مَبْنَى عَلَى مَبْنَى تَوَافَقْنَ فِي الْإِتْقَانِ وَاخْتَلَفَ الْمَعْنَى
وَأَسْبَابُ هَذَا الْحُسْنِ قَدْ تَتَشَعَّبُ

فَأَيْنَ الشُّمُوسُ الْكَالِفَاتُ بِهَا لَيْلَا وَأَيْنَ الْعُصُونُ الْمَائِسَاتُ بِهَا مَيْلَا
وَأَيْنَ الظُّبَاءُ^(٢) السَّابِحَاتُ بِهَا ذَيْلَا وَأَيْنَ الثُّرَى رَجُلَا وَأَيْنَ الْحَصَا خَيْلَا
فَرَا عَجِبًا لَوْ أَنَّ مِنْ يَتَعَجَّبُ

كَمْ احْتَضَنْتَ فِيهَا الْقِيَانَ الْمَزَاهِرَا وَكَمْ فَاوَحَتْ فِيهَا الرِّيَاضُ الْمَجَامِرَا
وَكَمْ سَاهَرَتْ فِيهَا الْكَوَاكِبُ سَامِرَا وَكَمْ قَدْ أَجَابَ الطَّيْرُ فِيهَا الْمَزَامِرَا
عَظِيمٍ مِنَ الدُّنْيَا شِعَاعُ مُطْنَبُ

كَانَ لَمْ يَكُنْ يُقْضَى بِهَا النَّهْيُ وَالْأَمْرُ وَيُجْبَى إِلَى خَزَائِنِهَا الْبِرُّ وَالْبَحْرُ
وَيُسْفَرُ مَخْفُورًا بِذِمَّتِهَا الْفَخْرُ وَيُصْبِحُ مَخْتُومًا بِطَيْئَتِهَا الدَّهْرُ
وَأَيَّامُهُ تُغْزَى إِلَيْهَا وَتُنْسَبُ

(١) في الأصل: «كالأفلاك» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «الظباء» وهكذا ينكسر الوزن.

ومالك عن ذات القيسي التواضع وناصحة تُغزي قديماً لناصر
 وذو أثر على الدهر واضح يُخبر عن عهد هنالك صالح
 وتُعمّر ذكر الزاهبين ويخرب
 تلاقى عليه فيض نهر وجدول تَصْعَدُ من سفلٍ وأقبل من عل
 فهذا جنوبي وذلك شمالي^(١) وما اتفقا إلا على خير منزل
 وإلا فإن الفضل منه مُجرب
 كأنهما في الطيب كانا تنافرا فسارا إلى وصل القضاء وسافرا
 ولما تلاقى السابقان تناظرا فقال ولي الحق مهلاً تظافرا
 فكُلُّكما عذب المجاجة طيب
 ألم يعلما أن اللجاج هو المقت وأن الذي لا يقبل النصف مُنبت
 وما منكما إلا له عندنا وقت فلما استبان الحق واتجه السمت
 تنقشع من نور المودة غيب
 وإن لها بالعامرية لمظهرا ومُستشرقاً يلهي العيون ومُنظرا
 ورَوْضنا على شطي خضارة أخضرا وجَوْسق ملك قد علا وتجبّرا
 له ثرة عند الكواكب تُطلب
 أغْييره^(٢) في عُنفوان الموارد وأثبتته في ملتقى كل وارد
 وأبرزه للأزحى المجاهد وكل فتى عن حزمة الدين زايد
 حفيظته في صدره تثلّهب
 تقدّم عن قصر الخلافة فرسخا وأضخّر بالأرض الفضاء ليصرخا
 فحالت أرض الشرك فيها متوخا كذلك من جاس الديار ودوخا
 فردّعته في القلب تسري وتزهب
 أولئك قوم قد مضوا وتصدّعوا قضوا ما قضوا من أمرهم ثم ودّعوا
 فهل لهم ركز يُحسّ ويُسمع؟ تأمل فهذا ظاهر الأرض بلّقع
 إلا أنهم في بطنها حيث غُيِّبوا^(٣)

(١) في الأصل: «شمال».

(٢) في الأصل: «غيره» وهكذا ينكسر الوزن، ولا معنى له.

(٣) في الأصل: «غُيِّب».

أَلَسْتُ تَرَى أَنَّ الْمَقَامَ عَلَى شَفَا وَأَنْ بِيَاضَ الصُّبْحِ لَيْسَ بِذِي خَفَا
وَكَمْ زُئِمَ دَارٍ لِلْأَجْنَةِ قَدْ عَفَا وَكَأَنَّ حَدِيثًا لِلْوَفودِ مُعْرِفَا
فَأَصْبَحَ وَحْشَ الْمُتَنَدِي يُتَجَنَّبُ

وَلِلَّهِ فِي الدَّارَاتِ ذَاتِ الْمَصَانِعِ أَخْلَاءُ صِدْقٍ كَالنَّجُومِ الطُّوَالِعِ
أَشْيَعُ بَيْنَهُمْ كُلُّ أَبْيَضٍ نَاصِعٍ وَأَزْجَعُ حَتَّى لَسْتُ يَوْمًا بِرَاجِعِ
فِيَالْيَتَنِي فِي قِسْمَتِي أَنَهَيْبُ

أَقْرَطِبَةُ لَمْ يُثْنِنِي عَنْكَ سُلُوانُ وَلَا بِمِثْلِ إِخْوَانِي بِمَغْنَاكَ إِخْوَانُ
وَإِنِّي إِذَا لَمْ أَسْقِ مَاءَكَ ظِمَآنُ وَلَكِنْ عَدَانِي عَنْكَ أَمْرٌ لَهْ شَانُ
وَمَوْطِنِي أَتَارَ تُعَدُّ وَتُكْتَبُ

لَكَ الْحَقُّ وَالْفَضْلُ الَّذِي لَيْسَ يُدْفَعُ وَأَنْتَ لَشَمْسِ الدِّينِ وَالْعِلْمِ مَطْلَعُ
وَلَوْلَاكَ كَانَ الْعِلْمُ يُطَوَّى وَيُرْفَعُ وَكُلُّ التَّقَى وَالْهُدَى وَالْخَيْرِ أَجْمَعُ
إِلَيْكَ تَنَاهَى وَالْحَسُودُ مُعَذَّبُ

أَلَمْ تَكُ خُصَّتْ بِاخْتِيَارِ الْخِلَائِفِ وَدَانَتْ لَهُمْ فِيهَا مَلُوكِ الطُّوَائِفِ
وَعَضَّ ثِقَافَ الْمُلْكِ كُلِّ مُخَالَفِ بِكُلِّ حَسَامٍ مُزْهَفِ الْحَدِّ رَاعِفِ
بِهِ تُحَقَّنُ الْأَجَالُ طَوْرًا وَتُسَكَّبُ

إِلَى مُلْكِهَا انْقَادَ الْمُلُوكِ وَسَلَمُوا وَكَعْبَتْهَا نَدَا الْوَفُودِ وَيَتَمُّوا
وَفِيهَا اسْتِفَادُوا شَرْحَهُمْ وَتَعَلَّمُوا وَعَاذُوا بِهَا مِنْ دَهْرِهِمْ وَتَحَرَّمُوا
فَنُكِبَ عَنْهُمْ صَرْفُهُ الْمُتَسَحَّبُ

عَلَوَتْ فَمَا فِي الْحُسْنِ فَوْقَكَ مُرْتَقَى هَوَاؤُكَ مَخْتَارٌ وَتُرْبُكَ مُنْتَقَى
وَجَسْرُكَ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ مُلْتَقَى وَبَيْتُكَ مَرْبُوعُ الْقَوَاعِدِ بِالْتَقَى
إِلَى فَضْلِهِ لَأَكْبَابُ تُنْضَى وَتُضْرَبُ

تَوَلَّى خِيَارَ التَّابِعِينَ بَقَاءَهُ وَخَطَرُوا بِأَطْرَافِ الْعَوَالِي فَنَاءَهُ
وَمَدُّوا طَوِيلًا صَيْتَهُ وَثَنَاءَهُ^(١) فَلَا زَالَ مَخْلُوعٍ عَلَيْهِ سَنَاءَهُ^(٢)
وَلَا زَالَ سَفَى الْكَائِدِينَ يُخَيَّبُ

(١) فِي الْأَصْلِ: «وِثْنَاءَهُ».

(٢) فِي الْأَصْلِ: «سَنَاءَهُ».

وبالغ فيه كل أروع أضيء طويل المعالي والمكارم واليد
وشادوا وجادوا سيّداً بعد سيّد فبادوا جميعاً عن صنيع مُخلّد
يقوم عليه الثناء ويخطب
مصابيحه مثل النجوم الشوابك تمزق أثواب النجوم الخوالك
وتحفظه من كل لاهٍ وسالك أجادل تنقض انقضاض النيازك
فإبشارهم بالطبّطبية تُنهَب
أجذك لم تشهد بها ليلة القدر وقد جاش برّ الناس منه إلى بحر
وقد أسرجت فيه جبالاً من الزهر فلو أن ذلك الثور يُقبس من فجر
لأوشك نور الفجر يَفنى وينضب
كان للثريّات^(١) أطواد نرجس^(٢) ذوائبه تهفّو بأدنى تنفّس
وطيب دخان النّد من كل معطس وأنفاسه في كل جسم وملبس
وأذياله فوق الكواكب تُسحب
إلى أن تبدّت راية الفجر تزحف وقد قضى منهما^(٣) الذي لا يسوف
تولّوا وأزهار المصابيح تُقطف وأبصارها صوتاً تُغض وتُطرف
كما تُنصل الأرماح ثم تُركب
سلام على غيابها وحضورها سلام على أوطانها وقصورها
سلام على صخرائها وقبورها ولا زال سور الله من دون سورها
فحسن دفاع الله أحمى وأزهب
وفي ظهرها المعشوق كل مرفع وفي بطنها الممشوق كل مشفع
متى تاته شكوى الظلّامة تُرفع وكل بعيد المُستغاث مُدفع
من الله في تلك المواطن يُقرب
وكم كربة ملء الجوانح والقلب طرقت وقد نام المواسون من صخب
بروعتها قبر الوالي لي وهب وناديت في التراب المقدّس يا رب
فأبث بما يهوى الفؤاد ويرغب

(١) في الأصل: «للثريّات».

(٢) في الأصل: «من نرجس».

(٣) كلمة «منهما» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن والمعنى معاً.

فيا ضحبي حان قبلك مصرعي وكنت على عهد الوفا والرضا معي
فحط بضاحي ذلك السرى مضجعي وذرتني فجار القوم غير مروّع
فعندهم للجار أهل ومرحّب

رعى الله من يرعى العهود على النوى ويظهر بالقول المخبر ما نوى
وليئته من مستحكم الوؤ والهوى يرى كل واد غير واديه مجتوى
وأهدى سبيله الذي يتجشّب

كتابه: وكتابة ذي الوزارتين، رحمه الله، كالشمس شهرة، والبحر والقطر
كثرة؛ ونحن نثبت له شيئاً من ذلك لئلا يخلو هذا الكتاب من شيء من بيانه. كتب
يراجع الوزير أبا بكر بن عبد العزيز، من رسالة كتب بها إليه مع حاج يضرب
القرعة:

أطال الله بقاء وليي وإمامي الذي له إكباري وإعظامي، وفي سلكه اتسامي
وانتظامي، وإلى ملكه انتسابي واعتزائي، وبوذه افتخاري وانتزائي، للفضائل مجيباً
ومبدياً، وللمحامد مشتملاً ومزدياً، وبالغرائب متحفاً ومهدياً، ولا زال الرخاء وأزل،
وجد من المصافاة وهزل، وسحت من المراعاة وجزل. وصل كتابه صحبة عراف
اليمامة، وفخر نجد ونيامة، يقرظه ويزكيه، ويصفه بالخب يفسره ويجلية، والخفي
يظهره ويبديه. ولعله رائد، لابن أبي صائد، أو هاد للمسيح الدجال قائد. أشهد
شهادة إنصاف، أن عنده لعضباً صاف، ولو كان هناك ناظر صادق طاف، والله خفايا
اللطاف، لقلت هو باد غير خاف، من بين كل ناعل وحاف. وسأخبرك، أيّدك الله،
بما اتفق، وكيف طار ونفق، وتوسد الكرامة وارتفق، طرّق له وصفك ونعتك، وثقفه
بزيك ونحتك، ورفع للعيون جدك وبختك، وامتدت نحوه النواظر، واستشرفه الغائب
والحاضر، وتسابق إليه التابه والخامل، وازدحم عليه العاقل والعامل. هذا يلتمس
مزيّداً، وذاك يبتغي حظاً جديداً، وهذا يطلب تقليداً، وذلك يسأل إلى مغاليقه إقليداً.
فكلما خرب، وغلّ وجلب، حلب واستدرّ، وقلّاه وإن ساء الغيب بما سرّ. وكنت
واتعت جملة من الأعيان، ووافقت ثلة من جلة الإخوان، على تمشية أمره، وتوشية
ذكره؛ فلما صدقت تلك الفرقة، واستوت بهم تلك الفرقة، أحضرناه للسبار، وأقعدناه
للنقد والاختيار، وأردنا أن نقف على جلاليات تلك الأخبار، فأحضرنا طعناً ونطعاً،
وسرينا عنه من الوحشة قطعاً، وقلنا له خذ عفوك، ولا تورّدنا إلا صفوك، ولا
تصايغنا في الكريهة التي نراها، والحادثة تستفزع ذكراها؛ فما عندنا جهل، وما منا إلا
مختنك كهل، لا يتكاده حزن ولا يستخفه سهل، فسكن جائش قوره، وضرب بلحيته
على زوره، ثم صعد فينا النظر وصوب، واستهل صارخاً وثوب، وتخرج من الكذب

وَتَحَوُّبٍ، وَقَالَ: لَسْتُ لِلْعَشْرَةِ خَاطِبًا، وَلَا لِلطَّرْفِ غَامِضًا، وَلَا عَنِ الصَّدَقِ إِذَا صَدَعَ حَائِدًا، وَلَا لِلْغَدْرِ مَمَّنْ وَقَعَ مِنْهُ ذَائِدًا، وَلَا بِمُعْجَزَاتِ النُّبُوَّةِ لَاعِبًا، وَلَا لِصَرِيحِ الْجَدِّ مُدَاعِبًا، وَلَا تَطْيِيبُنِي مَسْأَلَةً وَلَا حُلُوانًا، وَلَا تَسْتَفِيزُنِي نَضَائِدَ كَثِيرَةٍ وَلَا أَلْوَانَ. إِنَّمَا هُوَ رَسَمٌ وَخَطٌّ، وَرَفَعٌ وَخَطٌّ، وَنُخَسٌ وَسَعْدٌ، وَنَقْدٌ وَوَعْدٌ، وَيَوْمٌ وَغَدٌ. فَقُلْنَا لَهُ الْآنَ صَحَّتِ الْوَفَادَةُ، وَأَيَّنَتِ الْإِرَادَةُ. ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْنَا نَظَرَ الْمُسْتَقِيلِ، وَاجْتَذَبَ النُّطْعَ اجْتَذَابَ الْمُدِيلِ، وَنَثَلَ الطُّحْنَ وَهَالَهُ، وَأَدَارَهُ حَتَّى اسْتَدَارَ هَالَهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ هَذَا الْمَبْتَدَأَ، فَأَيْكُمْ يَبْدَأُ. فَرَمَقْنِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ وَفَقَرُوا وَكَبَّرُوا، وَلِيَّتْهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ صَفَرُوا، فَقُلْتُ: يَا قَوْمَ قَدْ عَضَضْتُ عَلَى نَاجِذِي جِلْمًا، وَقَتَلْتُ شَأْنِي كُلَّهُ عِلْمًا، وَعَقَدْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ غَدٍ سَلْمًا، فَكَيْفَ اسْتَكْشِفَ عَمَّا أَعْرِفُ، وَأَسْبِقَهُمْ عَمَّا لَا يَسْتَبِقُهُمْ. عَلَى الرَّحْمَنِ تَوَكَّلْتُ، وَعَلَى الشَّيْطَانِ تَرَكَّلْتُ، وَمَنْ كَسْبِي أَكَلْتُ، وَفِي مَبْرَكِ السَّلَامَةِ بَرَكْتُ، وَجَسِيمَاتِ الْأُمُورِ تَرَكَشْنِي وَتَرَكَتُ، وَالنَّفْسَ الْمُطْمَثِّنَةَ رَجَوْتُ، وَلَعَلَّنِي قَدْ نَجَوْتُ، وَأَصَبْتُ فِيمَا نَحَوْتُ. فَلَحِظْتَنِي عِنْدَ هَذِهِ الْمَقَالَةِ عَيْنُهُ، وَطَوَانِي صَدَقَهُ وَمِئْتُهُ. ثُمَّ صَارَ الْقَوْمُ دُونِي أَنْجِيَةً، وَأَعَدُّ لَهُ كُلُّ تَوْرِيَةٍ وَتَعْمِيَةٍ. فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: تَعَالَوْا نَشْرِكْ فِي ضَمِيرٍ، وَتَرْزِيهِ بِهَذَا الطَّاغِيَةِ ابْنِ رُذْمِيرٍ، فَفِي كُلِّ قَلْبٍ مِنْهُ نَذْبٌ كَبِيرٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ دِينٌ وَأَدَبٌ، فَإِنْ أَصَابَهُ اسْتَرْحَنَّا مِنَ النَّصَبِ وَالشُّخُوصِ، وَجَرْنَا مِنَ الْعُمُومِ إِلَى الْخُصُوصِ، وَإِنْ أَخْطَأَهُ فَهُوَ لِمَا سِوَاهُ أَخْطَأَ، وَلَمَّا يَدْعِيهِ وَيُرِيدُهُ مِنْهُ أَبْطَأَ. فَقَالُوا: نَعَمْ مَا عَرَضْتُ، وَأَخْبَسَ بِمَا رَوَيْتَ وَفَرَضْتُ. فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ يُثْقَلُ التُّعْرِيزُ، وَيُحْكَمُ التَّقْرِيرُ وَالتَّعْوِيزُ، قُلْنَا لَهُ: حَقَّقْ ضَمِيرَكَ كُلَّ التَّحْقِيقِ، وَضَعْ مَسْبِحَتَكَ فِي الدَّقِيقِ. فَابْتَدَرَ مَا أَمَرَ، وَحَسَرَ عَنْ ذِرَاعِهِ وَشَمَّرَ، وَمَرَّتْ أَصْبَعُهُ فِي خَطِّهِ مَرَّ الذَّرِّ الْمَتَهَالِكِ، وَوَقَعَتْ وَقَعَ الْقَطَرِ الْمُتْدَارِكِ، لَا تَمَسُّ الطُّحْنَ إِلَّا تَحْلِيلًا، وَغَمَزَا كَالْوَهْمِ قَلِيلًا، فَطَوَّرَا يَسْتَقِيمُ سَبِيلًا، وَتَارَةً يَسْتَدِيرُ إِكْلِيلًا، وَأَوْنَةً يَأْتِي بِالسَّمَاءِ وَنَجُومِهَا قَبِيلًا. فَكَانَ هُنَالِكَ لِنَعَشٍ مِنْ بَنَاتِ، وَلِلثُرَيَّا مِنْ إِخْوَاتِ، وَطَيْرِ قَابِضَاتِ، وَصَافَاتِ وَأَسْرَابِ نَاشِرَاتِ خَافَقَاتِ. فَلَمَّا اسْتَوْفَى عُذْدَهُ، وَبَلَغَ أَمَدَهُ، وَخَتَمَ طَرَائِقَهُ وَقِدَدَهُ، وَأَعْطَى الْأَصُولَ وَفُرُوعَهَا، وَتَدَبَّرَ تَفَارِيقَهَا وَجُمُوعَهَا، فَجَمَعَ وَتَقَبَّضَ، وَفَتَّرَ ثُمَّ انْتَفَضَ، وَصَعَدَ ذَهْنَهُ وَتَسَافَهُ، وَأَخَذَ الطُّحْنَ فَسَافَهُ؛ وَزَفَرَ وَشَهَقَ، وَعَشَّرَ وَنَهَقَ، وَأَلْصَقَ بِظَهْرِهِ حَشَاءَهُ، وَكَتَمَ الرُّبُوبَ ثُمَّ أَفْشَاهُ، وَقَالَ: هَذَا الَّذِي كُنْتُ أَخْشَاهُ، عَمِيئَتِ الْأَثَرُ، وَكُتِمَتِ حَقِيقَةُ الْخَبَرِ، وَعَثَرْتُمْ خَاطِي فَمَا عَثَرُ، وَنَثَرْتُمْ نِظَامَ الْحَدْسِ فَمَا انْثَرُ. سَأَلْتُمْ عَنْ رُوحٍ شَارِدٍ، وَشَيْطَانٍ مَارِدٍ، وَصَادَرْتُمْ مَعَ اللَّحْظَاتِ وَارِدٍ، لَا يُوطِنُ دَارًا، وَلَا يَأْوِي قَرَارًا، وَلَا يُطْعِمُ النَّوْمَ إِلَّا غَرَارًا^(١). نَعَمْ أَمْرُهُ عِنْدِي مُسْتَقَرٌّ، هُوَ زَنْدِيقٌ مُسْتَرٌّ؛ وَشَهَابٌ مِنْ شُهَبِ الْكُفْرِ مُسْتَمَرٌّ.

(١) الْغَرَارُ: السَّهْمُ. لِسَانُ الْعَرَبِ (غُرُور).

ثم رجع البصر واختصر، وعاد إلى الحساب يتقرّاه، والصواب يتحرّاه، وتتبع أديم الطحن فقرّاه، وقال: أعوذ بالله من شرّ ما أراه. إلى كم أرى في غلاء وبلاء؟ كاني لست ذا أمرار وأخلاء، تالله لو كانت قُرْعَة رفعة وعلاء؛ ما غاب عني اللحياني ذو السبلة، ولواجهنا البياض ذو الفرّة المستقلة مواجهة حسان لجبلة. النّحس على هذه الروح قد رُتّب؛ وكُتب عليه من الشقاء ما كُتب، وأخرج النّصرة الداخلة من العتب. ثم أشار إلى الحُمرة، وكأنما وضع يده على جَمْرَة، وقال: كَوْسَجٌ نَعِيٌّ، وسِنَاطُ الوجه شَقِيٌّ، وثِقَافٌ وطريقٌ، وجماعة وتفريقٌ، وقَبْضٌ خارجٌ، ومَنكوسٌ مارج. ثم وضع عمامته، ولَوَلَبَ هامته، وأمال وجهه فجراً طلقاً، ثم عرضه مَجِئاً مُطَرَقاً، وعقد أنامله عضاً، وأذمى صدره دُعاً ورضاً، وقطع بصره لمخاً وعضاً، وتكفأً وتقلع، وأذلّع لسانه فاندلّع. فقلنا: شرٌّ تأبطه، أو شيطان يتخبّطه، أو قرين يستنزله ويختله، أو روى في الذرة والغاب يفتله. ثم تجاحظ وتحاذر، وتضائل وتنازر، وقال: والذي أحيا عازر، وأخرج إبراهيم من آزر، وملك عنان الريح وأذعن له كل شيء بالسجود والتسبيح، إنه لمن عبّاد المسيح، هيهات هيهات، لا أضغضّع بظنّ، ولا يُقنّع لي بِشَنّ، ولا أنزع من هذه الفنون في قرن. قد ركبت أثباج البحار، وقطعت نياط المفاوز والقفار. وشافهني الحرم والبيت، وصافحني الحجر الكُميت، وأخرمتُ ولّبت، وطُفّت ووفيت، وزُرت المصطفى ﷺ، وتحفّيت. ثم ملّت على عَدَنّ، وانحدرت عن اليمن، واستسقيت كل راعدة، وأتيت كل قاعدة؛ ورأيت صاحب الجمل قَسَ بن ساعدة، ووردت عُكاظ، وصدّقت الحفّاظ، وقُدّت العصية بِنَسع، ومسّخت الشامات بأخمس وتسع، ووقفت حيث وقف الحكّمان، وشهدت زحف الثركمان، وكيف تصاولت القُروم، وغلبت الرُّوم، وهزم المدبر المقبل، واكتسحت الجحاش الإبل. فقلنا: الله أنت، لقد جَلّيت عن نفسك، وأربى يومك على أمسك، ولقد صدق مُطريك، ووَفّت صحيفة تَرْكُيك، وما كانت فراستنا لتخيب فيك. فماذا تَسْتَقْري من اللوح، وترى في ذلك الروح؟ بِعَيْشِكَ ألا ما أمتّعنا بالإفشاء والبُوح! فرجع في البحث أدراجَه، وطالع كواكبه وأبراجَه، وظلّ على مادة الطحن يرقم ويرمق، ويفتق ويرتق. ثم جعل يتسم، وقال: أحلف بالله وأقسم، لقد استقام النّسم، وإنه لكما أزسم وأسيم، وإنني لا أجده إلا لاغباً مَبْهُوراً، ومنكوداً مَقْهُوراً، ولن يلبث إلا شهوراً. قد أقلّ طالع جَدّه، وقُلّ خَدّه، وأتي عليه نقي خَدّه، وصيّ لم يملك أبوه ومَلِك جَدّه، فقلنا: صرّحت وأوضحت، وشهّرت هذا المَسْثور وفضحت، وإن ساعدك قدر، وكان لك عن هذا الورود صَدْر، فحظك مُبْتَدِر، وخطك صاف لا يشوبه كَدَر. فقال: هذا أمر قد آن أو كان، وسيأتيكم الخبر الآن، فانفصلنا وأضعينا الأذان، وجعلنا نتلقّى الرُكبان، فلم يَرُغنا إلا النّعمى الناجمة، والبُشرى الهاجمة، بما

بان، فأدھنا في شأنه، ولم يكن يعاوده خوف طغيانه، فإذا الخبر لم يخط صمّاخه، وكأنما كان عودًا وافى مناخه، أو طائرًا أم أفراخه. فلم ينشِب أن أقبل يضمّد نحونا أي ضمّد، ويتعرضنا على عمد، تعرض الجوزاء للنجوم؛ وينقض انقضا ض نيازك النجوم، وقال: ألم يأن أن تدينوا لي بالإكبار، وتعلموا أني من الجهابذة الكبار؟ فقلنا: منك الإسجّاح، فقد ملكت ومنك ولك النجاح، آية سلكت. فأطرق زهوا، وأعرض عنا لهوا، وقال: اعلموا أن القرعة لو طوت أسرارها، ومنعتني أخبارها، لمزقت صدارها، وذروت غبارها، ولكان لي عنها أوسع مُتّدح، وأنجد زناد يُقدح، أين أنتم عن رصدي الأخلاك، وعلمي بالأفلاك؟ أنا في مَرَج الموج، وأوج الأوج، والمتفرد بعلم الفرد والزوج، ومُستَرط السُرتان، ومُستدير الدبران، وبائع المُشتري بالميزان، والقباض بيوم الحساب والعمل، على روق الثور وذنب الحمل، أغقد نُصل العقرب، وأقيد الأبعد والأقرب، لصيد أوابدها بالدقائق والدرج، حتى اضطر سارحها إلى الحرج، وأضيقها في أضيق مُتّعرج، أنا استذكرت بالأثبار، قرحة الإقبال وتزحة الإدبار، وطالعت إقليدس فاستنبطته، وصارعت المَجسطي فجسطنته، وارتمطت إلى الأزتماطيقى، وأطقت الألوطيقي، ولحظت التحليل بحل ما عقده، واتّضيت ما مَطل به الجهابذة فنقذه. وعينت زحل، حين استقل على بعيره ورّحل، وضايقت في ساحته، وحصرته في مساحته، وحضرت قرانه، وشهدت تقدّمه ومُرانه، وشاهدته شَفراً بشَفْر، وناجاني برقًا يُعدّ في الكُفر، وتخريبه لملك الصُفر، وتفريقه لبلاد اللطينة، وإنجاز الوعد في فتح قُسطنطينة. أنا عقدت رشا الدلو، وذروت غبار الخوت للفلو. أنا اقتدحت سَقط الجوزهر، فلاح بعد خفائه وظهر. أنا استثرت الهلال من مكان سريره، وأخذت عليه ثنایا سَفْره، وقذذت قلامته من ظُفْره، ودلت طير الصّاير على شجره، فجنيث المُر من ثمره، أنا طرقت الزهرة في جذرها، وصافحتها من الفكرة بيد لم تذرّها. أنا أذكيت على ذكاء فظلت تلتهب، وأخرزتها من الهم شَطناً أجذبها به فتجذب. أنا أنعى للمُغتربين حياتها، فيشبهون الحسنة وينحرون أوقاتها، حتى تنشر بعد الطي حياتها، وتستقبل من العثار آياتها. أنا انتضيت للشباب شَرخًا، وأضرمت للمريخ عقارًا ومرخًا، حتى أغانى بملاحم حُروبه، وحوادث طلوعه وغُروبه، وتلمّظه إلى السُجيع، وولوغه في مُهجة البطل السُجيع. أنا أبرى من اللّم، وأشفى من الصّم، وأنقل العطس إلى الشّم. فقلنا: أما الأولى، فقد سلّمنا لك جميعها، وأما هذه الثلاثة فلن تستطيعها. قال: فلم تعجزون ولا تستخزون؟ فقلنا: من كان له علاج فينفسه يبدأ، ونَعَب بغيره. ولنا نريدك، ولكن تهتزّ يدك. قال: أما من بينهم روي، وألقى في رُوعه ما ألقى في رُوعي، فمثله كالصّارم، حُسّه في فِرثه، لا غمّده، وجماله في حده لا في حده،

والمرء كما قيل بأضغريه، لا بمنخريه، والشأن في الخيزوم، لا في الخيشوم، وفي الذكرين، لا في الأنثيين، ويعد، فهو كلام ظاهره إجمال، وباطنه احتمال، وسأنبئكم بغزارة سئله، وفجر ليله. أما الأقطس فيدلي الضغنة، ويتزوج في آل جفنة. فإن الله أتم، جاء الولد أتم، وإن نام عزق خاله، بقي الولد بحاله. وأما الأصم، فيخرج عن الغلام، وبلا فال، ويطلب في بني السميعة بركة الاسميعة والقال، فإن الله أراد، ظفر بالمراد، وجاء ابنه أسمع من قراد^(١). فأحس من بعض الحاضرين تمریضا، وعاین طرفا غصیضا، فتعكر وتشذر، وطوف وحذر، وقال صاحب الشريعة، سمّاهم بني السميعة، قوموا يا بني اللكيعة، فقد قطعتم رزقي، وأذيتم طرقي، وأذلتهم ضربتي وطرقي، وسدذتم طوقي، وأخذتم على أفقي غربي وشرقي. ذروني للتي هي للبليّة تجني، ثم الوجد يعني، لو شرب نواديه إثر تجني. ثم نجا بغزمتة سميلا، وأرسل بنات نغش ذيلا، وقد أفاد بما استصحب من مياميك ليلا، كذبني أيدك الله عند نواه، ولم يطلعني طلع ما نواه؛ وما ذاك إلا لمطمع نواه، ومغتم هواه. قرّفت لي بعد وداعه نجوة، ورمتني بشخصه فجوة، فقلت: ما أراك إلا غائل، أورثت عنك الحبائل. فسراك سري قين، وحديثك مين، ألم تعبر دجیلا، ويئمت سهيلا؟ فقال: طربت إلى الأصفية الصغار، وشاقني الشوق بين الطواغيت والأصفار. فقلت له: هلم إلى خط نعيده، وحظ نستفيده. فقال: لولا أن تقولوا الساعة متى، وتطالبوني بإحياء الموتى، لما أجمعت إلى الغرب غروبا، ولأريتكم من الحدق ضروبا. ثم قال: إن لي بالخضرة أفراخا، وأما استصرخت عليها استصراخا، وانسلخت منها انسلاخا، وأعيا علي أمره فلم أعلم له ظعنا ولا مناخا. فلبثت كذلك أياما، ثم اعتم علي أمره اعتياما، ولم أعرف له إنجاذا ولا اهتماما، فإذا به وقد أضمرت عنه بأسا، ولم أطمع فيه رأسا، قد أشب لي شبابا، ولمعت صلعتة شهابا، تكتنفه صرة، ويئمنه قوصرة^(٢)، وتؤود يسراه جرة. فقلت له: قاتلك الله، ما أشد فقداتك إلا فقدتك، وما أذكر وجداتك إلا وجدتك، أين أفراخك، والأُم التي جذبها استصراخك؟ فقال: الصعلوك، لو أعلم مذهب، تحرم مناهبه، وتخدم مراهبه. دزني وعلاجي، أحاجي وأداجي، وأعاین وأناجي، وأقلب في بركة دعاء الباجي. فقلت له: مالك وللميت، ورحم الله من سميت. قال: لما أذن الله فالتأمت الشيمة، وتمزقت عني المشيمة، هممت بالشرق، ولففت في

(١) منه المثل: «أسمع من قراد»، وذلك أنه يسمع صوت أخفاف الإبل من مسيرة يوم، فيتحرك لها. مجمع الأمثال (ج ١ ص ٣٤٩، رقم المثل ٨٧٨).

(٢) القوصرة: وعاء للتغر. محيط المحيط (قوصر).

الخرق، وفارقت من الضيق مُنتداه، وأفلتتني يدها؛ فحسبني السعد بثمر المدينة، وسقاني من ماء البلدة الأمانة، وعوذني بدعوات متينة. فها أنا كما ترى أتهادى وأجتذب، وأستخلي وأستغذب. فقلنا: لعمرك إنه لفضل عيم، لولا الصميم، وإنها لمنقبة، لولا العقبة، وأثرة ملتزمة، لولا العطسة، فقال: دعنا من زخاريفك، وأغضض من عنان تصاريفك. البازل^(١) لا يكون إلا ذميماً، والليث لا يوجد إلا شميماً. ثم قام وحمل، وابتدر وارتجل: [مجزوء الخفيف]

عيشنا كله خدع	فاترك اللوم عنك ودع
أنا كالليث واللبو	ث بأرسائها نزع
ولها الأوجه السي	مه من يلقها يسرع
أي حسن لنمازن	بيد الدل يخترع
أنا كالسيف حده	لا يبالى بما وقع
إنما الحسنى للمها	ة وللطبي يال كغ

فقلت: تباً لك سائر اليوم، إنك لتريش وتبري، وتقد وتفري، وتحاسن وتقابح، وتهاش وتنابح، وتحب وتأمل، وتحسن وتغلغل، وتشاعر وتراجز، وتناطح وتناجز. وأنت على هذا كله مُصر، ما جزاؤك إلا ربح فيها صر، فما هو إلا أن غفلت عنه لمحة طرف، أو نفحة عَرَف، ثم التفت وإذا به قد أفلس، وكأنما كان بزقاً خلس، ولم أدر أقام أو جلس.

ومحاسنه القطر الذي لا يُعد، والأمر الذي يأخذه الحد. وكفى بهذه الرسالة دليلاً على جلالة مقداره، وتدق بحاره وفخاره؛ لما اشتملت عليه من بلاغة وبيان، وبساط حال أنت على خبره بعيان، وعلوم ذات افتنان، خلد الله عليه الرحمة، وضاعف له المنة والنعمة.

مولده: بأوائل ربيع الثاني عام خمسة وستين وأربعمائة^(٢).

وفاته: من خط الحافظ المحدث أبي القاسم بن بشكوال، رحمه الله: كان^(٣) ممن أصيب أيام الهَرَج بقرطبة، فعظم المصاب به، الشيخ الأجل، ذو الوزارتين، السيد الكامل، الشهير الأثير، الأديب، اللغوي، السري، الكاتب البليغ، معجزة زمانه

(١) البازل: ما بزل نابه من الإبل في السنة التاسعة. محيط المحيط (بزل).

(٢) قال في معجم الصدفى (ص ١٥٤): «ومولده سنة خمس، وقيل: سنة ثلاث وستين وأربعمائة».

(٣) هذا النص غير وارد في الصلة. وجاء في الصلة بعض مما ذكر هنا.

وسابق أقرانه، ذو المحاسن الجمّة، الجليّة الباهرة، والأدوات الرفيعة الزكية، الطاهرة الكاملة، المُجمّع على تناهي نباهته، وخَمَد خصاله وفصاحته، من لا يُشَقُّ غباره، ولا تلحق آثاره، معجزة زمانه في صناعة النثر والنظم، أبو عبد الله بن أبي الخصال، رحمه الله تعالى ورضي عنه ونَصَّر وجهه. أُلْفِي مقتولاً قرب باب داره بالمدينة، وقد سلب ما كان عليه، بعد نهب داره، واستئصال حاله، وذهاب ماله، وذلك يوم السبت الثاني عشر من شهر ذي الحجة من سنة أربعين وخمسائة. فاحتمل إلى الرِّبَض الشرقي بحومة الدرب، فغُسِّل هنالك وكُفِّن، ودفن بمقبرة ابن عباس عصر يوم الأحد بعده، ونعي إلى الناس وهم مشغولون بما كانوا بسبيله من الفتنة. فكثرت التفجّع لفقدته، والتأسف على مصاب مثله، وأجمعوا على أنه كان آخر رجال الأندلس علماً وحلمًا، وفهمًا ومعرفة، وذكاء وحكمة وبقظة، وجلالة ونباهة، وتفننًا في العلوم. وكان له، رحمه الله، اهتمام بها، وتقدم في معرفتها وإتقانها. وكان، رحمه الله، صاحب لغة وتاريخ وحديث، وخبر وسير، ومعرفة برجال الحديث مضطلعًا بها، ومعرفة بوقائع العرب وأيام الناس، وبالنثر والنظم. وكان جَزَلَ القول، عذب اللفظ، حلّ الكلام، عذب الفكاهة، فصيح اللسان، بارع الخطّ حُسْنِه ومُتَقْنِه. كان في ذلك كله واحد عصره، ونسيج وحده، يُسَلَّم إليه في ذلك كله، مع جمال منظره، وحسن خلقه، وكرم فعّاله، ومشاركته لإخوانه. وكان مع ذلك كله جميل التواضع، حسن المعاشرة لأهل العلم، مسارعًا لمهماتهم، نهاضيًا بتكاليدهم، حافظًا لعهدهم، مكرمًا لنبهائهم، واسع الصدر، حسن المجالسة والمحادثة، كثير المذاكرة، جَمُّ الإفادة. له تصانيف جليّة نبهة، ظهر فيها علمه وفهمه، أخذها الناس عنه مع سائر ما كان يحمله ويتقنه، عن أشياخه الذين أخذ عنهم، وسمع منهم، وقرأ عليهم.

وقال غيره: قتل بدرب الفرعوني بقرب رَحْبة أبان، بداخل مدينة قرطبة، قرب باب عبد الجبار يوم دخلها النصاري مع أميرهم ملك طليطلة، يوم قيام ابن خَمْدِين، واقتاله مع يحيى بن علي بن غانية المَشُوفِي المُلْتَم المرابطي يوم الأحد لثلاث عشرة مضت من ذي الحجة عام أربعين وخمسائة. قتله بَرَبَز المصامدة رجالة أهل دولة اللثام لحُسْن ملبسه، ولم يعرفوه، وقتلوا معه ابن أخته عبد الله بن عبد العزيز بن مسعود، وكان أنكحه ابنته، فقتلا معًا. وكان محمد خيرة الشيوخ، وعبد الله خيرة الأحداث، رحمهما الله تعالى.

محمد بن مُقْضِل بن مُهَيْب اللخمي

يكنى أبا بكر، من أهل شلب من العليا.

حاله: قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: كان منقبضاً عن الناس، أديباً، شاعراً، خمس عشرينيات الفازاري، رحمه الله تعالى. وذكره صاحب الذيل، وقال لي شيخنا أبو البركات، وهو جدّه، أبو أبيه، ما معناه: كان شريفاً، عالي الهمة، عظيم الوقار، ألوفاً، صموتاً، نحيف الجسم، آدم اللون، خفيف العارض، مقطب الوجه، دائم العبوس، شامخ الأنف، إلا أنه كان رجلاً عالماً راسخاً، عظيم النزاهة، حافظاً للمروءة، شهير الذكر، خطيباً مضجعاً، مهيباً كشهرته، قديم الرئاسة، يُعْضد حديثه قديمه. واستقر بالمرية، لما تغلب العدو على بلد سلفه. ولما توفي شيخ المشايخ: أبو إسحاق بن الحجاج، تنافس الناس من البلدين، وغيرهم، في خطبة بنته. قال شيخنا أبو البركات: ومن خطبه نقلت، وكان ابن مهيب واحداً منهم في الإلحاح بالخطبة، متقدماً في حلفتهم، بجيوش الأشعار. ورام غلبته ذور اليسار، من حيث كان بحمراء جيش الإعسار، فأذلهم بالمقابلة في عُقر الدار، فلم يراجعوا من الغنيمة إلا بالفرار. قلت: وجلب في هذا المعنى شعراً كثيراً، ناسب الغرض. ونال من المُتَغلب على المرية، على عهده، حُظوة، فاستظهر به تارة على معقل مَرُشانة، وتارة على الرسالة إلى الحُضرة الحفصية بتونس. ولما آب من سفره إليها، سعى به لديه بما أوجب أن يحجز عليه التُصرف، وسجنه بمنزله. فلما قصد المرية الغالب بالله، مُسْتَخْلِصاً إياها من يد الرئيس أبي عبد الله بن الرُميمي، ونزل بمدينتها، وحاصر قصبته، وقع اختيار الحاصر والمحصور على تعيين ابن مهيب، بمحاولة الأمر، وعقد الصلح، رضى بدينه وأمانته، فعقد الصلح بينهما على أن يسلم ابن الرُميمي القصبه، ويُعان على ركوب البحر بماله وأهله وولده، فتأتى ذلك واكتسب عند الغالب بالله، ما شاء من عزة وتجلة.

وقفني شيخنا أبو البركات على ظهير سلطاني، صدر عن الأمير الغالب بالله، يدل على جلاله قدره، نصه:

هذا ظهير كريم، أظهر العناية الحافلة لمُسْتَوْحِيها ومُسْتَحَقِّها، وأجراه من الرعاية الكاملة على الحُبِّ طرقها. أمر بإحكام أحكامه، والتزام العمل بفصوله وأقسامه، الأمير أبو^(١) عبد الله محمد بن يوسف بن نُصْر نُصْر الله أعلامه، وأدام لإقامة قِسط العدل أيامه، لوليّه العليّ المكانة، وصفيه المليء بأثرتي المعرفة

(١) كلمة «أبو» ساقطة في الأصل. وقد حكم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر غرناطة من سنة ٦٣٥ هـ إلى سنة ٦٧١ هـ. اللوحة البدرية (ص ٤٢).

والديانة، الحرى بما اختصه، أيده الله، من الحفظ لمرتبة السامية والصيانة. للشيخ الفقيه، الجليل، العالم، الأوحد، العلم، الأتقى، الأزهر، الفاضل، الخطيب الأرفع، المحدث الثقة، الراوية، الصالح، السني، الحافظ، الحافل، الماجد، السري، الطاهر، المكرم، المبرور، الكامل، أبي بكر ابن الشيخ الوزير الأجل، الفقيه، الحبيب، الأصيل، الأمجد، المكرم، المبرور، الأفضل، المرحوم، أبي عمرو بن مهيّب، أدام الله عزّة جانبه، ووصل بالعلم والعمل أرتقاء مراتبه، أقام به الشواهد على اعتقاده، أنه أخلص أوليائه وذّاء، وأفضلهم قصداً، وأكرمهم عهداً، حين ظهرت له، أيده الله، آثار آرائه الأصيلة، وبانت في الصلاح والإصلاح ميامين مناقبه الجميلة، ووجب له من العناية والمزنيات أتم ما توجبه معارفه، وتقتضيه مجادته، وزهادته، التي لا يفند في وصفها واصف. وأعلن بأنه دام عزّه، أحق من حُفِظت عليه مرتبة صدور العلماء الراسخين في العلم، وأبقيت مزية ما تميز به التقى والورع الكافي والجلم، وبرع بصلة العناية بجانبه، لما أهله إليه معرفته من نفع المتعلمين، وإرشاد من يسترشده في مسائل الدين من المسلمين، وأفصح بأنه أولى مخصوص بالتجلة والتوقير، وأجدر منصوص على أن قدره لديه معتمد بالتكريم والتكبير. وأمر، أعلى الله أمره، أن يستمر له ولزوجه الحرّة الأصيلة الزكية، التقية الصالحة، المصونة المكرمة المبرورة، عائشة بنت الشيخ الفقيه الجليل العالم الصالح السني، الزاهد الفاضل، المرحوم المقدس، الأرضي، أبي إسحق ابن الحاج، ما طردت به العادة لهما قديماً وحديثاً، وتضمنه الظهيران الكريمان، المؤرخ أحدهما بال عشر الأواخر لشوال عام خمسة وثلاثين وستمائة، من صرّف النظر في أغشارهما وزكواتهما إليهما، ليضعا ذلك في أحق الوجوه، ويؤدّيا فيه حقّ الله تعالى، ما مثلهما علماً ودينًا من يؤدّيه، موكولاً ذلك لله، إلى ما لديهما، من نشر الأمانة، مصروفًا إلى نظرهما الجاري مع العلم والديانة، وتجديد أحكام ما بأيديهما من الظواهر والأوامر القديمة والحديثة، المتضمنة تنويع الأملاك، على اختلافها، وتباين أجناسها وأوصافها، لهما ولأعقاب أعقابهما، على التأييد والتخليد، والمُحاشاة من اللوازم، والمعاوز والمغارم، وأن يطرد لشركائهما، وعَمَرَة أملاكهما، ووكلائهما، وحواشيها، ومن اتصل بهما، جميل العناية، وحفيل الرعاية، وموصول الحماية، الاستمرار الذي يطرد العمل به مدى الأيام، وتتوالى التمشية له من غير انصرام على الدوام، مؤقّى بذلك، ما يحقّ لجانب الفقيه العالم، الأوحد الأسنى، أبي بكر، أدام الله عزته، من حظوظ الإجلال، مُنتهى فيه إلى أبعد آماذ العناية الشريفة، الفسيحة المجال، مُقضى على حق ما انفرد به من العلم، واتصف به من الديانة، اللذين أضفيا عليه ملابس البهاء والجلال. فمن وقف على هذا الظهير الكريم من الولاة

والعمال، وسائر ولاية الأشغال، وليتلقه بغاية الائتثار والامتنان، إن شاء الله. وكتب في الثاني عشر من ذي الحجة عام ثلاثة وأربعين وستمائة.

مشيخته: أخذ عن أبي العباس أحمد بن مُنذر الإشبيلي، تلا عليه بإشبيلية، وعلى عباس بن عطية أبي عمرو. وروى عن أبي محمد عبد الكبير الإشبيلي، وصحب أبا الحسن بن زرقون، وتفقه عليه. وانتقل إلى المرية، فصحب أبا إسحاق البليفي وأخذ عنه، وتزوج ابنته. وأجاز له أبو عبد الله بن هشام الشواش وغيره. ثم انتقل آخر عمره إلى سبته.

شعره: نقلت من خط شيخنا أبي البركات قوله في غرض الوصية: [الطويل]

أبى السوى، هل من سبيل إلى فخر؟
أبى القلب إلا أن يهيم بحبكم
رحلت عنكم لا بقلبي وإنما
أعود بدهر الوصل من حين هجركم
إلغاب^(١) نفسي لست أنفق قربكم
تقطع أكباد عليكم صباية
وبالقلب من لا يصلح الصبر عنهم
فلولا هم ما كنت أخسب ساعة
ألا يا أخي فاسمع وصاتي^(٢) فإنها
يجبك في ذات الإله ويبتغي
ألا إنما التوفيق كنت من أهله^(٣)
بتوحيده في ذاته وصفاته
فثابر على القرار والأثر الذي
وعد لك الخيرات عما سواها
إذا يسلك الشيطان فجأ سوى الذي

ويا قلب، كم تأسى ويا دمع، كم تجري
وأن تبرحوا إلا القليل عن الفكر
تركت لديكم حين ودعيتكم سري
ورب وصال مستعاد من الهجر
لزهدي فيكم بل حرصت على البر
فاضبر فإن^(٤) الخير أجمع في الصبر
وإن كان خيرا فهو عنهم من الشر
فقدتكم فيها عيانا من الغمر
أنتك^(٥)، لغمري، من أخ سالم الصدر
بحبك عند الله مدخر الأجر
مراعاة حق الله في السر والجهر
وأفعاله أيضا وفي الند^(٦) والأمر
يصح عن المختار والسادة الغر
وكن بها مستمسكا أبد الدهر
سلكت ولا يلفي سبيلا إلى مكر

(١) في الأصل: «للغاب» وكذا لا يستقيم الوزن والمعنى معا.

(٢) في الأصل: «إن» وكذا ينكسر الوزن.

(٣) الوصاة، بفتح الوار: الوصية. محيط المحيط (وصى).

(٤) في الأصل: «لبنك»، وهو ما لا معنى له.

(٥) في الأصل: «من أهله» وكذا ينكسر الوزن، لذا جعلنا همزة القطع همزة الوصل.

(٦) في الأصل: «الندى» وكذا لا يستقيم الوزن والمعنى معا.

وفرق من^(١) الأجناس حاشا تقيهم
ولا تنسني واذكر أخاك بدعوة
فقد ظهر الإفساد في البر والبحر
فإنك منه يا أخي لعلى ذكر

قال شيخنا أبو البركات: ومن شعره، ومن خطه نقلت: [الكامل]

للصالحين إلى الصلاح طريق
صرفوا النفوس من الهوى عن صوبها
رَحِبَتْ بهم وَعَدَتْ عليك تضيقُ
فَعَدَتْ إلى طلب النجاة تُثَوِّقُ
منها بعد أبيات:

يا قرّة العينِ اسْتَمِعْ مِنْ ناصِحٍ
أنت الشقيق ولادةً ولذلك لي
لا تَسْخَدَنَّكَ ثَرَاهَاتُ أَخْدِثَتْ
واعكف على القرآن دهرَكَ واجتمع
إن الحديث وفقهه وعلومه
واهجز بني الدنيا فإن بهجرهم
والحق بقوم قد عَنَوْا بتجارة
واحفظ لسانك عن أذية^(٢) مُسْلِمٍ
لا تَبِكْ هَمُّ الرزق فهو مُقَدَّرٌ
ولتَرْضَ بالرحمن ربًّا حاكمًا
حلوا عقال عقولهم وتحكموا
ولقد أثثك نصيحتي ولشمسها
فكن القريب مكانه من نفعها
واصطد بباري العزم أطيّار الرضا
ولتجعل التسبيح شأنك إنه
واقنع بعلم الوحي علمًا ثم لا
لا تَرْضَ فيه بالدنية ولتُمُتْ
ما كلُّ عِلْمٍ يُهْتَدَى بحصوله
في صدره قَلْبٌ عليك شفيقُ
روحٌ لروحك في الخُلوصِ شقيقُ
وَحَزْغَبَلَاتٌ للجَهولِ تَرَوُّقُ
فالشغلُ عنك لغيره تفريقُ
هذا الذي للمؤمنين يليقُ
يتضاعف الإيمان والتصديق
نَفَقَتْ لهم يوم القيامة سُوقُ
فسيبابه قال الرسول فسوقُ
والعبد طول حياته مَرَزُوقُ
ودع الفضول فمنه ضلُّ فريقُ
إن التحكم بالعقول مُرَوِّقُ
في أفقِ حُبِّك يا حبيبُ شُروِقُ
فمَكَانَ سَدَّتْهَا إليك سَحِيْقُ
فأخوك غايةً بازِه التَّحْلِيْقُ
في الصُّغْبِ ممن شأنه التُّضْفِيْقُ
يذهب بك التُّشْقِيْقُ والتَّوْفِيْقُ
عَطَشًا إذا لم تُسَقَّ منه رَحِيْقُ
منه الرِّكِيْقُ نَعَمٌ ومنه رَقِيْقُ

(١) كلمة «من» ساقة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن.

(٢) في الأصل: «إذابة».

كمدارك الأصوات منها طيبٌ تسلو النفوس به ومنه نهيق
وعليكم مني تحية من له قلبٌ إليكم أجمعين^(١) مشرق

وقال: ألفيت بخطه ما نصه: وكان بعض السفهاء قد كتب إلي بيتين من شعر
وهما: [الطويل]

إليك، أبا بكر، رفعت وسيلتي ومثلك من تلقى إليه الوسائل
غرقت ببحر الذل يوما وليس لي بأرضكم إلا اهتمامك ساحل

وأساء المحاولة في دفعها، فصرفته، ولم أقف عليهما، فضرب عليهما، وكتب
في ظهرهما: [الطويل]

حللت، أبا بكر، بموطن عزة فأنسيت ما قد كنت فيه من الذل
وأصلك من كبر وكن متكبرا وكيف يطيب الفرع من ذلك الأضل؟

وكتبت إليه صُحبةً دراهم وجُهِتُ بها إليه: [الطويل]

جَفَوْتُ وما زال الجفاء^(٢) سجيّة لمثلك ما إن زال تُبلى بها مثلي^(٣)
وما قلت في أصلي فكذبة فاجر رأى الفرع محمودًا فعاب على الأضل
وبالإفك ما عثرت لا بحقيقة فما الكبر من شاني ولا كنت في ذل
وما زلت، والله، الحميد مُكرّمًا وفي نائبات الدهر للعقد والحل
ولو كنت من يثقني الله لم تكن تُبر^(٤) متى تَسْخَطُ وعند الرضا تُحلي^(٥)
أما قلت أني ساحل لك عندما غرقت ببحر الذل في زمن المخل؟
وكيف نَسَخْتُ المدح بالذم قبل أن تبث لي الشكوى وتذلي بما تُذلي^(٦)
ولكن لؤم الطبع يحمل أهله على الصّعب من سب الكرام أو الثيل
إذا^(٧) كان بعض الكبر نقصًا فإنه عليك من الأوغاد يُحسب في الفضل
وما الذل إلا ما أتى بك نحونا فقيرًا من التّقوى سلبًا من العقل
ومطلوبك الدنيا فخذها خسيّة توافي خسيس النفس والقول والفعل

(١) في الأصل: «أجمعه» وكذا ينكسر الوزن. (٢) في الأصل: «الجفاء» وهكذا ينكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «مثل» وهكذا ينكسر الوزن، واعتقد أنه خطأ في الطبع.

(٤) في الأصل: «تمد» بالذال.

(٥) في الأصل: «تحل». يقول: يُضَرّ متى يَسْخَطُ، وعند الرضا ينفع.

(٦) في الأصل: «تذل» بدون ياء. (٧) في الأصل: «إن» وكذا ينكسر الوزن.

وما الجود إلا ما أصبت مكانه
ومثلك من يُجفي ويقلب خاسئاً
ولكنني عوذت نفسي عادةً
فخذها، لحاك الله، غير مبارك
ومثلي من يؤذي فيحتمل الأذى
وقد قال من لا شك في قوله من جك
فإن زدنا زدنا وإن كنت نادماً
ففي كل شيء لست عنك مقصراً

ومهما فقدت الأصل لا عاز في البخل
فلست لإسداء الصنيعة بالأهل
من البذل لم أعدن بها قط عن نذل
لسعيك فيها يا ابن خانية النخل
ولكنه قد يذراً^(١) الجهل بالجهل
حمة إنما القتل أذهب للقتل^(٢)
قيلناك أخذاً في أمورك بالعدل
بما شئت من قطع وما شئت من وصل

قال الشيخ: قول الهاجي: وأصلك من كبر، معناه التعريض يكون سلف أبي بكر بن مهيب، علواً في أنفسهم وتكبروا، فثاروا بسبب ذلك بطبيرة وجهاتها، ثار منهم عبد الرحمن جد أبي بكر، ثم حسن، ثم عامر أخوه، وإلى هذا أشار أبو بكر بن مهيب بقوله في بعض شعره: [الكامل]

إن لم أكن ملكاً فكنث رئيساً^(٣)

وأشدد في الصلة الزبيرية^(٤)، قوله رحمه الله: [الكامل]

أملني من الدنيا المباحة كسرةً
قد أضرب الزمان عن سكانها
ومن شعره في المقطوعات: [الطويل]

ترحل صبري والولوع مقيم
فياليت شعري هل أفوز بعطف من
ويا جنة قد جيل بيني وبينها
وضح اشتياقي والسُّلُو سقيم
زئنت خدي ورذاً عليه أقوم^(٥)؟
بقلبي من شوقي إليك جحيم

دخوله غرناطة: قال الشيخ: دخل غرناطة مرتين، أخبرني بذلك الشيخ القاضي أبو الحسن بن عبيدة، وهو بصير بأخباره، إذ هو من أصحاب سلفه، وممن رافق جدّه في الكتب عن بعض الأمراء مدة، وفي الخطابة بالمرية أخرى.

(١) في الأصل: «يُذِر» وكذا لا يستقيم المعنى والوزن معاً. وذرأ الجهل بالجهل: دفعه دفعةً شديداً.

(٢) في الأصل: «...» من الحكماء القتل... وكذا لا يستقيم الوزن والمعنى معاً.

(٣) في الأصل: «رئيساً» وكذا ينكسر الوزن. (٤) أي كتاب «صلة الصلة» لابن الزبير.

(٥) عجز هذا البيت لا يستقيم وزنه ولا معناه.

وفاته: توفي بسبته أول ليلة من جمادى الآخرة عام خمسة وأربعين وستمائة.

محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي

حاله: من صلة ابن الزبير: كان كاتبًا بارعًا، شاعرًا مجيدًا، له مشاركة في أصول الفقه وعلم الكلام، وغير ذلك، مع نباهة وحسن فهم، ذو فضل وتعقل، وحسن سمت. وورد على غرناطة، واستعمل في الكتابة السلطانية مدة، وكان معلوم القدر، معظمًا عند الكافة. ثم إنه رجع إلى مرسية، وقد ساءت أحوالها، فأقام بها مدة، ثم انفصل عنها، وقد اشتدت أحوالها، واستقر بالعدوة بعد مكابدة.

قلت: أخبرني شيخنا أبو الحسن الجياب، رحمه الله، قال: كان شكس الأخلاق، متقاطبًا، زاهيًا بنفسه؛ ابتداء يومًا كتابًا مُصدّرًا بخطبته، فقال فيه يصف صحابة رسول الله ﷺ «عقوة العقوة»، وتركه لأمر عرض له، فنظر إليه الفقيه عمر اللوشي، وهو كاتب المقام السلطاني، فظن لقصوره أنه وهم، وأراد «الصفوة» فأصلحه، فلما عاد ونظر إليه مزقه، وكسر الآلة، وقال: لا أقيم بموضع بلغ فيه الجهل إلى هذا القدر، ويُتسور به الإصلاح على قلم يُطمع بعد في مقامه. وانصرف، واستقر بتلمسان، كاتبًا عن سلطانها أبي يحيى يغمُراسن بن زيان. وزعموا أن المستنصر أبا عبد الله ابن الأمير أبي زكريا، استقدمه على عادته في استدعاء الكتاب المشاهير والعلماء، وبعث إليه ألف دينار من الذهب العَيْن، فاعتذر ورده عليه المال، وكانت أشق ما مر على المستنصر، وطهر له علو شأنه، وبُعْدُ همته.

مشيخته: روى عن القاضيين أبي عيسى بن أبي السداد، وأبي بكر بن مُحرز، وعن الأستاذ أبي بكر محمد بن محمد، المعروف بالقرشي، وقرأ وسمع على هؤلاء ببلده، وأجاز له كتابة أبو الربيع بن سالم وغيره.

شعره: من ذلك قوله: [الكامل]

واذا دَفَعْتُكَ مُلِمَّةً فَتَضَبَّرِ	اقنُحْ بما أوتيته تَنَلِ الْغِنَى
رُفْنَا زِيَادَةَ ذَرَّةٍ لَمْ نَقْدِرْ	واعلم بأن الرزق مقسوم فلو
أَحَدًا تَعِيشَ عَيْشَ الْكِرَامِ وَتُؤْجِرْ	والله أرحمُ بالعباد فلا تَسَلْ
ورأيت نفسك قد غَوَتْ فلتبصر	وإذا سَخَطْتَ لبؤس حالك مرة
لعظيم نعمته عليك وتشكر	وانظر إلى مَنْ كان دونك تذكر

ومما قاله في صباه: [الكامل]

يا دعوة شاك^(١)
ظبي تصدى للقلوب بصيدها
ورمى وإن قالوا رنا عن فاتر
قد كنت أحذر بطشه لو أنني
أو ما عليه ولا عليه حاكم
أو ما لجارك ذمة مرعية
إني استنمت إلى ظلالك ضلة
ما لي أخاطب بآنة ما أن تعي
أكريمة الخيين، هل لمثيم
أصبتني بعد المشيب وليس من
لولاك^(٢) ما جذبت عنائي لوعة
لما دعا داعي هواك أجبت
أضليتني ناز الصدود وإنني
وأبخت ما منع الشرع من دمي
وتركت قلبي طائرا متخبطا
ومنعت أجفاني لذيذ منامها
ولقد عجت وأنت جد بخيلة
إني لأياس من وصلك تارة
أسماك أنك قد خففت مكانتي
إني معتك المتيم فليكن
تثني معاطفك الصبا خوطبة
أبعذتني منها بطعنة رامج
أموت من عطش وثغرك موريد
هلا تني عن خلوة فليعلة

ما قد ذهاه من لحاظ رشاك
من ناظرية في سلاح شاك
ساج عليه سيمة^(٣) الشساك
أبصرت منه مخايل الفتاك
يحمي ثغورك أو يحوط حماك
أبدا يظل دم الغريب طلاك؟
فإذا ظباؤك ماضيات ظباك
قولا ولا ترثي لدمعة باك؟
رخمى لديك فأرتجي رحماك؟
عذر لمن لم يضيئه ثراك
والله يشهد أنني لولاك
من لا يجيب إذا دعت عيناك؟
راض بأن أضل ولا أسلاك
بالله من أفتاك قتل فتاك؟
بشباك^(٤) خثلك أو بطغن سباك
كي لا يتيح لي الكرى لقياك
كان^(٥) أعزبت الشمس بغض حلاك
لكن أعلل مظمعي بعملاك
هلا خلعت علي من سيماك؟
حظي لديك مناسبا مغناك
وكذا الصبا فصباك مثل جماك
الذاك سمثك الورى بسماك؟
فيه الحياة استودعها فاك؟
وضعت أداة النفي في اسم لماك

(١) صدر هذا البيت مختل الوزن والمعنى. (٢) في الأصل: «سبم» وكذا لا يستقيم الوزن.

(٣) في الأصل: «لولا» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

(٤) في الأصل: «شباك» وكذا ينكسر الوزن. (٥) في الأصل: «أن» وكذا ينكسر الوزن.

وقال يجيب أبا عبد الله بن خميس، رحمه الله، عن قصيدة بعث بها إليه أولها:
[الكامل]

رُذ في حدائق مائها مرتادُ قد لُدَّ مَورودُ وطابَ مُرادُ
رُزُقُ الأسنَّةِ دونَ رُزُقِ حَمَامِها وظَبْيى كما رَتَّتِ العيونُ جِدادُ
هذه الأبيات: [الكامل]

نِغَمَ المراد لمن غدا يرتادُ مرعى يرف نَبائهُ ومهادُ
سألت على العافي جداوله كما صالت على العادي ظَبْيى تَنادُ^(١)
فَشَدَذْتُ رَحَلَ مطيئتي منه إلى حيث السيادة تُبتنى وتُشادُ
وركبْتُ ناجيةً^(٢) مبارية الضبا خَضراءَ^(٣) فوق خُضارةٍ^(٤) تُعتادُ
يغتادها سكانها قُلب على من كان من سكانها استبداد
عجباً لهم أحلامهم عاديةً تَمْضي عليهم حكمها أعواد
خَبِرْتُ يَلْمِسَانًا بأني^(٥) جئتُها لما دعاني نحوها الرُواد
وأعاقها^(٦) سَمْعًا ولم أر حُسْنها إلّا أناسًا حدّثوا فأجادوا^(٧)
ولربَّ حُسنٍ لا ثواء ناظرُ ويراه لا يخفى عليه فؤاد
ودخلتُها فدخلتُ منها جئةً سكانها لا تخفى ولا حياءُ^(٨)
ورأيت فضلًا باهرًا ومكارمًا وعلا تغاظر دونها التعداد
أهل الرّواية والدراية والنّدى في نورهم أبدًا لنا استِمْداد
فهم إذا سُئلوا بحارَ معارف ولدى السكينة والنهى أطواد
درجاتها ينحط عنها غيرهم ومن الورى قُترٌ ومنه وهاد
فأجلُّهم وأحلُّهم من مهجتي بمكانة ما فوقها مُزداد
وأود حين أخطُ أطيب ذكرهم لو أن أسود مُقْلَتِي مِدَاد

- (١) في الأصل: «العادي بدا ناد» وكذا لا يستقيم الوزن ولا معنى له. والعادي: العدو.
(٢) الناجية: الناقة السريعة تنجو بمن ركبها. محيط المحيط (نجا).
(٣) في الأصل: «خضراء» وكذا ينكسر الوزن. والخضراء: السماء. محيط المحيط (خضر).
(٤) الخُضارة: عَلَمٌ للبحر غير منصرف. محيط المحيط (خضر).
(٥) في الأصل: «بأنني» وكذا ينكسر الوزن.
(٦) في الأصل: «وعاقتها» وكذا لا يستقيم المعنى ولا الوزن.
(٧) في الأصل: «فأجادا». (٨) عجز البيت مختل الوزن والمعنى معًا.

وقال يخاطبه وقد وقف على بعض قصيدة: [الكامل]

رُئْتُ حواشي طبعك ابنَ خميسٍ فهما قريضك بي وهاج رَسيسي
ولمثله يَضْبُو الحلِيم ويمتري ما للشروق به وسيرُ العيس
لك في البلاغة والبلاغة بعض ما تحويه من أثرِ مَحَلِّ رَسيسي
نَظْمٌ ونثر لا تُبارى فيهما مهَّدت^(١) ذاك وذا بعلم الطوس

وقال عند وفاته وربما نُسبت لغيره: [الخفيف]

رَبِّ أَنْتَ الْحَلِيمُ فَاغْفِرْ ذُنُوبِي ليس يعفو عن الذنوبِ سواكا
رَبِّ ثَبِّتْ عِنْدَ السُّؤَالِ لِسَانِي وأَقِمْنِي عَلَى طَرِيقِ هُدَاكَا
رَبِّ كُنْ لِي^(٢) إِذَا وَقَفْتُ ذَلِيلًا نَاكِسَ الرَّأْيِ أَسْتَحْيِ أَنْ أَرَاكَا
رَبِّ مَنْ لِي وَالنَّارُ قَدْ قَرُبَتْ لِي وَأَنَا قَدْ أَبْحَثْتُ عَهْدَ جِمَاكَا؟
رَبِّ مَالِي مِنْ عُدَّةٍ لِمَالِي غَيْرَ أَنِّي أَعْدَدْتُ صِدْقَ رَجَاكَا
رَبِّ أَقْرَزْتُ أَنَّنِي^(٣) عَبْدٌ سَوْءٌ جِلْمُكَ الْجَمُّ غَرَّهُ فَعَصَاكَا
رَبِّ أَنْتَ الْجَوَادُ بِالْخَيْرِ دَوْمًا لَمْ تَزَلْ رَاحِمًا فَهَبْ لِي رِضَاكَا
رَبِّ إِنْ لَمْ أَكُنْ لِفَضْلِكَ أَهْلًا بِأَجْتِرَانِي فَأَنْتَ أَهْلٌ لِدَاكَا

نثره: ومن نثره ما خاطب به صديقين له بمرسية من مدينة إشبيلية:

كتبته، كتب الله لكما فوزًا بالحسنى، وأجناكما من ثمرات إحسانه أكثر ما يُجنى. من إشبيلية، وحالي بحمد الله حسنة، ونفسي بحب قريبكما مُرتَهنة، وعليّ بما لديكما من السراوة التي جُبلتما على فطرتيها، وامتزمتما في الاجتلاء بغُرتيها، علم لا يدخله الشك، ونسبتي إلى وُدكما الذي لبسته مغلما، وتقلدته مخرما، لا يعبر عن معناها إلّا بما لا يزال ولا ينفك. فلنشن عنان القلم عن مداده، ونأخذ في حديث سواه. وصلنا إشبيلية ضحوة يوم الثلاثاء خامس ربيع الآخر، ولقينا الإفانت^(٤) على ميلين، وفُزنا بما ظهر من بشره واعتنائه بقرار الخاطر، وقرة العين، ونزلنا في الأخبية

(١) في الأصل: «مهَّدت» وكذا ينكر الوزن.

(٢) كلمة «لي» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم المعنى والوزن معًا.

(٣) في الأصل: «أنّي» وكذا ينكر الوزن.

(٤) المراد: الإفانت، بالإسبانية Infante، وهو لقب كان يطلق على ولي عهد ملك قشتالة، إذ كانت إشبيلية آنذاك تابعة لقشتالة لأنها سقطت في أيدي الإسبان سنة ٦٤٦ هـ. وصارت عاصمة لقشتالة. راجع: الإحاطة (ج ٢ ص ٤٣١) تحقيق عنان، حاشية رقم ٦.

خارج البلد، موضعًا يعرف بالقنب^(١)، قد تفجر عيوننا، وجمع ماؤه وهواؤه من المحاسن فنونًا، وعرض علينا النزول في الديار داخل المدينة، فرأينا المقام فيه أحد الأسباب المُسعدة على حفظ الصحة المَعينة، ورغبنا عن المدينة لحرها الوهاج، وغبارها العجاج، ومائها الأجاج. ولما تاب من النشاط البارح، واستقل من المطي الرازح، طفت في خارجها وداخلها، ووقفت على مبانيها المشيدة ومنازلها، ورأيت انسياب أراقشها، وتقصيت آثار طُرَيَّانَتِها^(٢) وبراقشها، فشاهدت من المباني العتيقة، والمنارة^(٣) الأنيقة، ما يملأ أعين النظار، وينفسح فيه مجال الاعتبار، على أني ما رأيتها إلا بعد ما استولى عليها الخسف، وبان عنها الظرف، ونبا عنها الطرف، فلا ترى من مغانيها إلا ظلًا دارسًا، ولا تلمح من بدائعها إلا مُحَيَّا عابسًا، لكن الرائي إذا قَدَّر وضعها الأول، وركب وهمه من مبانيها ما تحلل، وتخيل في ذهنه حُسْنُها وتمثل، تصور حُسْنًا يدعو إلى المجون، ويُسلي عن الشجون، لولا أنها عُرِضَتْ لأشمط راهب، لما دان إلا بدن ولا تقرب بغير قارب، وحسبي أن أصفها بما يقيها من القبول، وأقول إنها في البلاد بمنزلة الربيع من الفصول، ولولا أن خاطري مُقَسَّم، وفكري حَذَّ مثلث، لقضيت من الإطباب وطَّرًا، ولم أدع من معاهدها عينًا إلا وصفتها ولا أثرًا.

وفاته: توفي بتلمسان يوم عاشوراء سنة ست وثمانين وستمائة.

محمد بن عبد الله بن محمد بن لب الأمي^(٤)

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن الصايغ، بالصاد المهملة، والغين المعجمة، من أهل المرية.

حاله: من خط^(٥) شيخنا أبي البركات في «الكتاب المؤتمن على أنباء أبناء الزمن»: كان سهلًا، سَلِسَ القياد، لذيد العشرة، ذَمِثَ الأخلاق، مَيَّالًا إلى الدعة، نَفُورًا عن النَّصَب، يركن إلى فضل ثبابة وذكاء، يُحاسب بها^(٦) عند التحصيل والدراسة والدُّؤوب على الطلب، من رجل يجري من الألحان على مضمار لطيف،

(١) القنب: بالإسبانية El Campo، وهو الحقل أو الميدان.

(٢) طريانة: بالإسبانية Triana وهي ضاحية بإشبيلية على نهر الوادي الكبير.

(٣) هي منارة المسجد الجامع بإشبيلية، وتعرف اليوم باسم La Giralda.

(٤) ترجمة ابن لب الأمي في الكنية الكامنة (ص ٨٨) وبغية الوعاة (ص ٦٠) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ١٠٣) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٢٥٨ وما بعدها).

(٥) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٥٩). (٦) في النفع: «بهما».

ولم يكن له صوت رخيم، يُساق^(١) انطباعه في التلحين، يخبر^(٢) ذلك بالأوتار. وحاول من ذلك بيده مع أصحابه، ما لاذ به الظرفاء منهم. واستعمل بدار الأشراف بالمرية، فأحكم تلك الطريقة في أقرب زمان، وجاء زمامه يروق من ذلك العمل شأنه^(٣). ثم نهضت به همته إلى أرفع من ذلك، فسار إلى غرناطة، وقرأ^(٤) بها العربية وغيرها، وانخرط في سلك نبهاء الطلبة لأدنى مدة. ثم رحل إلى بلاد المشرق في حدود العشرين وسبعمائة، فلم يتجاوز القاهرة لموافقة هوائها^(٥) علّة كان يشكوها، وأخذ في إلقاء العربية بها، وعرف بها إلى أن صار يدعى بأبي عبد الله النحوي. قال شيخنا المذكور: ورأى في صغره فأرة أنثى، فقال: هذه قرينة، فلُقّب بذلك، وصار هذا اللقب أغلب عليه^(٦) من اسمه ومعرفته.

وجرى ذكره في التاج بما نصه^(٧): لُج معرفة لا يغيض^(٨)، وصاحب فنون يأخذ فيها ويُفيض. نشأ ببلده مُشَمَّرًا عن ساعد اجتهاده، وشارك^(٩) في قُنن^(١٠) العلم ووهاده، حتى أነع روضه، وفهّق^(١١) حوضه. ثم أخذ في إراحة^(١٢) ذاته، وشام بارقة^(١٣) لذاته، ثم سار في البطالة سير الجُمُوح، وواصل الغُبُوق بالضُبُوح، حتى قضى وطره، وسيم بطره، وركب الفُلك، وخاض اللُجَج الحُلك، واستقر بمصر على النعمة العريضة، على شكّ في قضائه^(١٤) الحجة العريضة، وهو اليوم^(١٥) بمدرستها الصالحة، نبيه المكانة، معدود في أهل العلم والديانة.

مشيخته: قرأ بالمرية على المكتّب أبي عبد الله الميزقي، وأخذ عن شيخ الجماعة أبي الحسن بن أبي العيش، وقرأ بالحضرة على الخطيب أبي الحسن^(١٦) القيجاطي وغيره. وأخذ بالقاهرة عن الأستاذ أبي حيّان، وانتفع به وبجاهه.

(١) يساق: يجاري ويوازي. لسان العرب (سوق).

(٢) في النفع: «فجبر». (٣) في النفع: «من شأنه».

(٤) في النفع: «قرأ». (٥) في الأصل: «هواما» والتصويب من النفع.

(٦) كلمة «عليه» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من النفع.

(٧) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٥٨ - ٣٥٩).

(٨) لا يغيض: لا ينضب. لسان العرب (غيض).

(٩) في النفع: «وسائرا».

(١٠) القُنن: جمع قُنّة وهي القمّة. لسان العرب (قُنن).

(١١) فهّق: امتلأ. لسان العرب (فهق). (١٢) في النفع: «راحة».

(١٣) في النفع: «بارق». (١٤) في النفع: «في قضاء حجة الفريضة».

(١٥) كلمة «اليوم» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من النفع.

(١٦) في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٥٩): «على الخطيب أبي علي القيجاطي وطبقته».

شعره: قال شيخنا أبو البركات: وكان أخذ من قرض جيد الشعر بالحظ الوافر. فمن شعره ما نقله إلينا الحاج الحافظ المَكْتَب أبو جعفر بن غصن، حسبما قيده عنه بمصر^(١): [الكامل]

بُنْدُ الْمَزَارِ وَلَوْعَةُ الْأَشْوَاقِ^(٢) حَكْمًا بِفَيْضٍ مَدَامِيعِ الْأَمَاقِ
وَحَفُوقُ نَجْدِي النَّسِيمِ إِذَا سَرَى أَذْكَى لَهَيْبِ فَوَادِي الْخَفَاقِ
أُمَعَّلِي إِنَّ التَّوَاصِلَ فِي غَدٍ مَنْ ذَا الَّذِي لِعَدِ قَذِيثُكَ بَاقٍ؟
إِنَّ اللَّيَالِي سُبَّتْ قَدْ^(٣) أَقْبَلَتْ وَإِذَا تَوَلَّتْ لَمْ تُنَلْ بِلِحَاقِ
عُجْ^(٤) بِالْمَطِيِّ عَلَى الْحَمَى، سُقِيَ الْجَمَا صَوَّبَ الْقَمَامِ الْوَكَافِ الرُّقْرَاقِ
فِيهِ^(٥) لَذِي الْقَلْبِ السَّلِيمِ وَدَادُهُ قَلْبٌ سَلِيمٌ يَا^(٦) لَهُ مِنْ رَاقٍ^(٧)
قَلْبٌ غَدَاةَ فَرَاقِهِمْ فَارَقْتُهُ لَا كَانَ فِي الْأَيَّامِ يَوْمُ فِرَاقٍ^(٨)
يَا سَارِيَا وَاللَّيْلُ سَاجٍ عَاكِفٌ يَفْرِي الْفَلَا^(٩) بِنَجَائِبِ^(١٠) وَنِيَّاقِ
عَرُجٌ عَلَى مَثْوَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ ذِي الْمَحَلِّ الرَّاقِي^(١١)
وَرَسُولٍ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَنْ لَهُ حَفِظَ الْعَهْدِ وَصَحَّةَ الْمِيثَاقِ
الظَّاهِرُ الْآيَاتِ قَامَ دَلِيلُهَا وَالظَّاهِرُ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْرَاقِ
بَذَرُ الْهَدَى^(١٢) الْبَادِي الَّذِي^(١٣) آيَاتُهُ^(١٤) وَجَبِيئُهُ كَالشَّمْسِ فِي الْإِشْرَاقِ

(١) القصيدة في الكتيبة الكامنة (ص ٨٨ - ٩٠) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٣٥٩ - ٣٦٣).

(٢) في الأصل: «لَوْعَتُهُ أَشْوَاقٍ» والتصويب من المصدرين.

(٣) في المصدرين: «إِنَّ».

(٤) في الأصل: «فَصَفَحَ تَمَذُونَهُ عَلَى...». وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٥) في الكتيبة: «قَبَهُ». (٦) في النفع: «عَالَهُ».

(٧) جاء في الكتيبة بدل عجز هذا البيت عجز البيت التالي. والسليم: المريض. والراقي: الذي يستعمل الرقية لمداراة المرض. لسان العرب (سلم) ر(رقى).

(٨) هذا البيت غير وارد في الكتيبة.

(٩) في الأصل: «يَفْرِي لِلْعَلَا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(١٠) التجائب: الإبل السريعة. لسان العرب (نجب).

(١١) في الأصل: «الْمَنْخَلُ الْبَرَاقِ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة. وفي النفع: «المقام» بدل «المحل».

(١٢) في الكتيبة: «الْهَوَى».

(١٣) كلمة «الَّذِي» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من المصدرين.

(١٤) في النفع: «... الْهَدَى وَهُوَ الَّذِي آيَاتُهُ».

الشافعُ المقبولُ مَنْ غَمَّ الورى
والضادق^(١) المامونُ أَكْرَمُ مُرْسَلِ
أعلى الكرام نَدَى وأبسطُهم يَدَا
وأشدُّ خلقِ الله إقْدَامَا إذا
امضاهُم والخيلُ تعثرُ في القنا^(٢)
مَنْ صَيَّرَ الأديانَ دِينًا واحدًا
وأخلنا من حُرْمَةِ الإسلام في
لو أن للبذر السمنير كماله
لو أن للبحرين جودَ يمينه
لو^(٣) أن للآباء رحمةً قلبه
ذو العلم^(٤) والحلم الخفي^(٥) المنجلي
آياته شهبٌ وغرٌ بنانه
ماجت^(٦) فتوح الأرض وهو غياثها
ذو رافة بالمؤمنين ورحمة
وخصالٍ مجدٍ أفردت بالخصل في
ذو المعجزات الغر والأي التي
ثبت المعارض حائرًا^(٧) لما حكث
يقظ الفؤاد سرى وقد هجع الورى
وسما وأملاك السماء تحفه

بالجود والإفساد والإرفاق
سارث رسالته إلى الآفاق
قبضت عنان المجد باستحقاق
حمي الوطيس وشمرت عن ساق
وتجول سباحا في الدّم المِهراق
من بغد إشراك^(٨) مضى ونفاق
ظل ظليل وارف الأوراق
ما ناله^(٩) كشف ونكس^(١٠) محاق
أمن السفين غوائل الإغراق^(١١)
ذابت نفوسهم^(١٢) من الإشفاق
والجاء والشرف القديم الباقي
سحب الثوال تسدر بالأزراق
وربت ربي الإيمان وهو الساقى^(١٣)
وهدى وتأديب بحسن سياق
مرمى السفخار وغاية السباق
كم آية ففدت وهن بواقى
فلق الصباح وكان ذا إفلاق
لمقام صدق فوق ظهر براق
حتى تجاوزهن مبع طباق

- (١) في النفع: «الصادق».
(٢) في الأصل: «إشراق»، والتصويب من المصدرين.
(٣) في الكنية: «ما طاله».
(٤) في النفع: «الإساق».
(٥) في الكنية: «قلوبهم».
(٦) في الأصل: «ذو العلم والخفي المنجلي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.
(٧) في الأصل: «فاحت فيوح الأرض...»، والتصويب من النفع.
(٨) في الأصل: «وهو الشاق»، والتصويب من النفع.
(٩) في الأصل: «خيرًا»، والتصويب من النفع.
(١٠) في الكنية: «وكشف».
(١١) في الكنية: «أو».
(١٢) في الكنية: «ذو العلم والعلم».
(١٣) في الأصل: «وهو الشاق»، والتصويب من النفع.

منها:

يا ذا الذي اتصل الرجاء^(١) بحبله
 حُبِّي إليك وسيلتي وذخيرتي
 وإليك أَعَمَلْتُ الرُّواحِلَ ضُمْرًا
 نُجْبًا إِذَا تَشَرَّتْ^(٥) حُلَى^(٦) تلك العلا^(٧)
 يَخْدُو بهنَّ من النُّحَيْبِ مُرَدَّدٌ
 غَرَضٌ إِلَيْهِ فَوَقَّتْنَا^(٨) أَسْهُمَا
 وَأَنْخَتْنَا^(٩) بفنائك الرُّخْبَ الذي
 وِقْرِي^(١١) مؤمِّلُك الشِّفَاعَةَ فِي غَدٍ
 وَعَلَيْكَ يَا خَيْرَ الْأَنَامِ تَحِيَّةٌ
 تَتَارُجُ الْأَزْجَاءُ مِنْ نَفْحَاتِهَا^(١٢)
 منها^(١٣):

قَسَمًا بطيبِ تُرابٍ طَيِّبَةٍ إِنَّهُ
 وَبِشَانٍ^(١٥) مسجدها الذي برحابه
 لَأَجُودُ فِيهِ بِأَذْمُعِ أَسْلَاكُهَا
 مِسْكُ الْأَنْوِفِ وَإِثْمَدُ^(١٤) الْأَحْدَاقِ
 لِمُعَامِلِ الرَّحْمَنِ أَيُّ نَفَاقٍ
 مَنْظُومَةٌ بِتَرَائِبٍ وَتَرَاقٍ

(١) في الأصل: «الرجاء» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٢) في الأصل: «للورى» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٣) الإملاق: الفقر. لسان العرب (ملق).

(٤) الوخذ والإعناق: ضربان من السير السريع. لسان العرب (وخذ) و(عناق).

(٥) في النسخ: «نشدت».

(٦) كلمة «حلى» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من المصدرين.

(٧) في الأصل: «الفلا» والتصويب من المصدرين.

(٨) في الأصل: «فوقتنا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النسخ. وفي الكتيبة: «فوقتنا».

(٩) في المصدرين: «فأنختها».

(١٠) في الأصل: «الدقاق»، والتصويب من المصدرين.

(١١) في الأصل: «وقوى» والتصويب من المصدرين.

(١٢) في الأصل: «الفحاتها» والتصويب من المصدرين.

(١٣) الأبيات التالية غير واردة في الكتيبة.

(١٤) الإثمد: حجر يُكْتَحَلُ به. محيط المحيط (ثمد).

(١٥) في الأصل: «وأبَار مسجده» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النسخ.

أَعْدُو بِنَقِيلٍ عَلَى خَضْبَائِهِ
وَعَلَيْكَ ذَا النُّورَيْنِ^(٢) تَسْلِيمٌ لَهُ
كُفُّوا^(٣) النَّبِيَّ وَكُفُّوا أَعْلَى جَنَّةِ
وَعَلَى أَبِي السُّبْطَيْنِ^(٤) مَنْ سَبَقَ الْأَلَى
الطَّاهِرُ الصُّهْرُ^(٥) ابْنُ عَمِّ الْمُصْطَفَى
مُبْدِي الْقَضَايَا^(٦) مِنْ وَرَاءِ حِجَابِهَا
يَغْزُو الْعُدَاةَ بِغُلْظَةٍ فَيَهْدُهُمْ^(٧)
رَايَاثَهُ لَا شَيْءَ مِنْ عِقْبَانِهَا
وَعَلَى كَرَامِ سِتَّةِ عَشْرَتِ^(٨) بِهِمْ
مَا بَيْنَ أَرْوَغِ مَا جَدِ نِيرَانُهُ
وَأَخِي حُرُوبِ صَدَّةِ رَشْفِ^(٩) الْقَنَا
مَا عَرَّذَتْ شَجْوًا مُطَوِّقَةً وَمَا
وَعَلَى الْقَرَابَةِ وَالصُّحَابَةِ كُلِّهِمْ

وَعَلَى كَرَامِ^(١٠) جُذْرِهِ^(١١) بَعْنَاقِ
نُورٍ يَلُوحُ بِصَفْحَةِ الْمُنْهَرَاقِ
جِيَزَتْ لَهُ بِشَهَادَةٍ وَصَدَاقِ
سَبَقُوا إِلَى الْإِسْلَامِ أَيْ^(١٢) سَبَاقِ
شَرَفَ عَلَى التَّعْمِيمِ^(١٣) وَالْإِطْلَاقِ
وَمُقْتَحِ الْأَحْكَامِ عَنْ إِغْلَاقِ
بِصَوَارِمِ تَفْرِي الْفِقَارَ رِقَاقِ
بِمَطَارِ يَوْمٍ وَغَى وَلَا بِمُطَاقِ
عِنْدَ النِّظَامِ لِيَالِي^(١٤) التُّسَاقِ
جَنَحَ الظَّلَامِ تَشْبُ لِلطَّرَاقِ
عَمَّا قَدُودِ مِثْلِهِنَّ رِقَاقِ
شَقَّتْ كَمَامَ الرُّوضِ^(١٥) عَنْ أَطَوَاقِ
وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ لِيَوْمِ تَلَاقِ

ولما سئى الله في الروم الوقعة المُبيرة والوقعة الشهيرة التي أجلت عن قتل
ملكهم معركتها، وانتهت للفتح معركتها وحركتها، وعمت الإسلام بإتعاث فل الكفر
بركتها، قديم مع الوفود من أهل بلده، وهنأ أمير المسلمين^(١٤) بفتح ذلك، وطلوع

(١) في الأصل: «كرام جذره» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.
(٢) ذو النورين: هو أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، تزوج بنتين من بنات رسول
الله ﷺ على التعاقب، فلقب بذو النورين.

(٣) في الأصل:

«كُفُّوا لِنَبِيِّ وَكُفُّوا عَلَى جَنَّةِ خَيْرَتِ

والتصويب من النفع.

(٤) أبو السبطين: هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام.

(٥) في النفع: «يوم». (٦) في النفع: «الطهر».

(٧) في النفع: «التخصيص».

(٨) في الأصل: «القضا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٩) في الأصل: «فيعيدهم»، والتصويب من النفع.

(١٠) في النفع: «عشرت». (١١) في المصدر نفسه: «لآلى».

(١٢) في النفع: «رَشْفٌ».

(١٣) في الأصل: «روض» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(١٤) هو السلطان أبو الوليد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد، حكم غرناطة من

سنة ٧١٣ هـ إلى سنة ٧٢٥ هـ. راجع اللوحة البدرية (ص ٧٨).

ولده، فقال: [الكامل]

أملك أم بذر الدجى الوضاح
أعلى المسالك ما بئته يد الثقى
وأحق من يدعى خليفة ربه
كأمير أندلس وناصرها الذي
أسمى الملوك أبو الوليد المرتضى
هو ذو حة الملك العلي فروغها
وبمحو رسم عداته بلبانه^(١)
بذر الكمال لو أن^(٢) بذرًا مثله
بحر الثوال لو أن^(٣) بذرًا مثله
ولمثله قاد الجياد عدوه
أفواه شيطان الهوى في لجة
طمع الشقي أضله وأذله
فأبادهم وملوكتهم فتح بدا
وفواصل تبرى بهن مفاصل
لم تئن كلهم سيوف الهند بل
ما زال حي عداك يحسد ميتهم
فاقتل كبيرهم وأخى صغيرهم
تسبيح^(٥) ما حاط العداة وما حموا
يا أمة الكفران تفنيذا وهل
أتركتم بطرو^(٦) وحيدا مفردا
وجوان^(٧) يرتشف الندى فنديمه

وحسامه أم بارق لسماح؟
وعماذها الأعلام والأزماح
ملك خلافته هدى ونجاح
أفنى العداة حسامه السفاح
وأعز من شرفت به الأمداح
وبراحتيه ترزق الأذواح
نطق الكتاب وخطب الألواح
لم يبد خشية ثوره الإصباح
لارتاع خشية فيضه الملاح
فخبأ له قدح وخاب قداح
إن الهوى باليفه طمّاح
كل المطامع للقبى فصاح
وبسعد جدك ربنا فتاح
وصفائح^(٣) يفرى بهن صفاح
لسيوف جودك في النفوس جراح
ويحك قوتا عاجلا فيراح
واشب النساء^(٤) فما عليك جناح
وجماك يا منصور ليس يباح
لجفون أغمى ينجلي مصباح؟
يشدو عليه الطائر الصياح؟
غريائه ووساده الصفّاح^(٨)

(١) في الأصل: «بلبانه» وكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «أن» وكذا ينكسر الوزن، لذا جعلنا همزة القطع همزة وصل.

(٣) في الأصل: «وصفائح» وكذا ينكسر الوزن. (٤) في الأصل: «النساء» وكذا ينكسر الوزن.

(٥) في الأصل: «تسبيح» وكذا ينكسر الوزن.

(٦) هو بطره بن الهونش بن هرائد بن شانجه، صاحب قشتالة. راجع اللوحة البدرية (ص ١١٩).

(٧) هو الدون خوان Don Juan، الوصي على ملك قشتالة.

(٨) الصفّاح: حجارة عريضة رقيقة. محيط المحيط (صفح).

وكذلك المُطْرَانُ جاد رسومه
 أَرْوَسُ^(١) تَبَيَّضُ النِّعَامُ بِمَرْجِنَا
 مَا لِلْمَطَامِيرِ اشْتَكَتْ مِنْ ضَيْقِهَا
 جَارَتْ بِكُمْ أَبْطَالُنَا فَكَأَنَّكُمْ
 تَبَا لِرُومِي يَهِيْمُ بِرَاحَةٍ
 قُصِّتْ قَوَادِمُكُمْ فَمَا إِقْدَامُكُمْ
 هَذَا فَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِبِلَادِكُمْ
 قَدْ إِنْثَنَتْ^(٢) بِطَحَاؤُنَا بِحَطَامِكُمْ
 تَالله مَا كُنْتُمْ بِأَوَّلِ عَسْكَرِ
 الْقِسْ غَرْكُمُ لِيَهْلِكَ تَسْلُكُكُمْ
 كَمْ ذَا يَسْخَرُكُمْ وَيَسْخَرُ مِنْكُمْ
 مِنْهَا:

وفوارس نَشَاوَا لِتَهَبِ فِرَاسِ
 أَرْبُوا عَلَى الْأَسَدِ الْهَزْبَرِ بِسَالَةٍ
 خَاضُوا بِحَارِ الْحَرْبِ يَطْمُرُ بِحَرْهَا
 مَا هُمْ بِبَذَلِ نَفُوسِهِمْ وَنَفِيسِهِمْ
 وَإِذَا هُمْ ذُكِرُوا بِنَادٍ فَانْتَشِقُ
 فَعَدَا وَرَاحَ النَّصْرُ يُقَدِّمُ جَمْعَهُمْ
 سَنَّاكَ مَوْلَانَا بِسَفْدٍ مُقْبِلِ
 وَبِنَجْلِكَ الْبَذَرِ الَّذِي آفَأَهُ
 بَذَرِ الْبِدُورِ فَلَا بَدَارَ عَلَيْهِ

طلبوا انتِشاءً للذَّما لَا الرَّاحُ^(٤)
 مَعَ أَنَّهُمْ غَرُّ الْوَجُوهِ صَبَاحُ
 وَوَطِئُهَا حَامِي الصُّلَى لِفَاحُ
 وَعَنْ^(٥) النَّوَالِ أَوْ النَّزَالِ سِجَاحُ
 مَسَكًا تَضَوَّعَ عَرْقُهُ النَّفَاحُ
 وَبِحَقِّهِمْ حَيْثُ اعْتَدُوا أَوْ رَاحُوا^(٦)
 خَلَصَاءُ قَدْ عَمَّتْهُمْ الْأَفْرَاحُ^(٧)
 مُلْكٌ وَهَالَتُهُ هُدَى وَصَلَاحُ
 وَبِذَا أَنْارَتْ^(٨) أَرْبَعُ وَبِطَاحُ

(١) في الأصل: «أم تبيض» وكذا ينكسر الوزن، لذا حذفنا كلمة «أم».

(٢) في الأصل: «ولليل» وكذا ينكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «قد انثنت» وكذا ينكسر الوزن، لذا جعلنا همزة الوصل همزة قطع.

(٤) في الأصل: «انتشوا الذما للراح» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

(٥) في الأصل: «عن النوال والنزال...»، وكذا ينكسر الوزن.

(٦) في الأصل: «راح».

(٧) في الأصل: «له أفراح» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

(٨) في الأصل: «نارت» وكذا ينكسر الوزن. و«نارت ونارت»: كلاهما بمعنى وهو أضواء.

فلکم عدو ما^(١) أقل بزوغه
وهنا ونالك بالأمير تجدد
قد جاء بعد العشر يُسر شامل
فالحمد لله الذي قد خصنا
وعلى المقام المزلوي تحية
ما خط مذحك في الطروس مُحبر

خَسَفَتْ به الأوجال والأتراح
كلُّ بحبك نَفْسُه نرتاح
قد جاء بعد الشدة الإنجاح
ولنا بحمدك بعده إفصاح
كالزهر إذ تُهدي شذاه رياح
ومحا^(٢) دياجيز الأصيل صباح

وقال يرثي الخطيب ببلده، الشهير الفاضل، أبا الحسن بن شعيب، رحمه الله:
[الطويل]

بوادي لقد حملت ما ليس لقواه
بليت هذا التفريق فاضيز فربما
شجا كل نفس فقد أنفس جوهر
بكي كلنا حزنا عليه كما بكي
فله خطب جليل لقد رمى
فلولاكم يغلب تأسينا الأسى
فلم يبق إلا من جفا جفنه الكرى
وفاء^(٥) المرى وقى فوقى أجره
أبي الحسن العذل الرضا المحسن الذي
خطيب جلا فصل الخطاب بيانه
وجسم الهدى الرحب السبيل وروحه
مطيع رفيع خاضع متواضع
متى يمش^(٦) هوننا ليس إلا لمسجد
تكلمه عزف وذكر وحكمة

فراق ولا^(٣) من شرف الأرض تقواه
بلغت بحسن الصبر ما تتمناه^(٤)
تعد ولا تُخصى كرام سجاياه
لفرقتة مخرابه ومصلاه
أجل خطيب بالجلالة مضماه
ولم يشمل الشمل التفجع لولاه
ومن جائب وصل المضاجع جثياه
واصفى بإصفاء الإله وصافاه
أثته بأضعاف الزيادة حسناه
وأعدل قاض فاضل في قضياه
ولفظ العلى الفخر الأصيل ومعناه
كريم حليم طاهر القلب أواه
تمد^(٧) خجلا أرض بها حط تغلاه
تلذ بها الأسماع ما كان أخلاه

(١) كلمة «ما» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها لكي يستقيم الوزن.

(٢) في الأصل: «ومحي دجاجر» وكذا لا يستقيم لا المعنى ولا الوزن. والدياجيز: جمع ديجور وهو الظلام. محيط المحيط (دجا).

(٣) في الأصل: «ولى شرف» وكذا ينكسر الوزن.

(٤) في الأصل: «ما تمناه» وكذا ينكسر الوزن. (٥) في الأصل: «وفاة».

(٦) في الأصل: «يمشي» وكذا ينكسر الوزن.

(٧) في الأصل: «تميد» وكذا ينكسر الوزن. وهو فعل مجزوم لأنه جواب فعل الشرط.

كذا صَفَتْهُ خَوْفٌ وَفَكْرٌ وَخَشْيَةٌ
 يصوم وقد طال النهار مُهَجَّرًا
 فكم دارس أحياء من أربع الثَمَا
 فَيَا طَيِّبًا أَضَلًّا وَذَكْرًا وَتُرْبَةً
 وفي حرقه تحنو ومرأى وباطنا^(١)
 مُحَيًّا يُرَوِّي الناظرين تَهْلُلًا
 بِحُبِّكَ هَامَتْ كُلُّ نَفْسٍ مُنِيبَةً
 فما أَنْعَمَ الأرض التي بك قُدْسَتْ
 بِشِرَاكِ إِنَّا قَدْ شَغَلْنَا بِحُزْنِنَا
 عَزَا لَأَفْلِيهِ الْأَهْلَةُ أَنَّهُمْ
 نال شُعَيْبٌ فِي الزَّمَانِ بِدَوْرِهِ
 أُعْزِي أُولِي الْإِيمَانِ كَلًّا بِفَقْدِهِ
 سقى الله وَشَمِيَّ الْحَيَا ذَلِكَ الثَّرَى
 كما قد سقاه ليلة الدَّفْنِ رُبَّهُ
 تَرْضَوْا عَنِ الْقَاضِي الْإِمَامِ خُطْبَيْكُمْ
 وَصَلُّوا عَلَى هَادِي الْأَنَامِ نَبِيِّكُمْ
 عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مَا الرُّوضُ فَاحٍ إِنْ

وفاته: توفي، رحمه الله، في رمضان، تحقيقًا من سنة خمس^(٣) على شك
 وسبعمئة، أخبرني بذلك مَنْ يوثق به.

محمد بن عبد الله بن الحاج البضيعة

من أهل مالقة، وتردّد كثيرًا على الحضرة، مُسْتَرْفَدًا وَمُنْشَدًا، وفي غير ذلك من
 الأغراض، يكتنى أبا عبد الله.

حاله وشعره: من الإكليل: شاعر اتخذ النظم بضاعة، وما ترك السعي في
 مذاهبه ساعة، أجرى في الملا، لا في الخلا، وجعل ذكره دلوه من الدّلا، وركض

(١) في الأصل: «للتغمض» وكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «وفي حشقة تحن ومرتجًا وباطنًا» وكذا لا يستقيم لا المعنى ولا الوزن.

(٣) الصواب أنه توفي سنة خمسين وسبعمئة كما جاء في بغية الوعاة (ص ٦٠). وجاء في الدرر
 الكامنة (ج ٤ ص ١٠٣) أنه مات بالطاعون عام ٧٤٩ هـ.

في حَلْبَةِ النجبا النجائب، ورمى في الخواطي بسهم صائب، فخرج بَهْرَجُهُ وَتَفَقَّ،
وارتَفَدَ بسببه وارْتَفَقَ. وهو الآن قد سالمته السنون، وكأثما أَمِنَ المَثُون، من رجل
مَكْفُوف الأذى، حسن الحالة إِلَّا إذا، هذا قُلْتُ، ثبت هذا والمذكور حي، وقد مات،
رحمه الله.

ومن شعره: [الطويل]

رجائي ^(١) في المولى العظيم	غَنَيْتَ به حيث الغِناء مُدِيمُ
وحسبي الرجا فيمن عليه مَعُولِي	حديث حديث لم يزل وخديمُ
وما عَرَفْتُ نَفْسِي سوى بابِ فَضْلِهِ	على ثقةٍ أَنَّ الكَرِيمَ كَرِيمُ
فإن قيل عَنِّي مُذْنِبٌ قلت سِيْدُ	كفيل بغفران الذنوب رحيمُ
وما اغْتَصَمَ المملوك إِلَّا بحَبْلِهِ	فجائِبُهُ تُغَمِّي لنا وتُعِيمُ
رضاه سبيلٌ للنجاة وحبُّه	طريقٌ لجناتِ التَّعِيمِ قديمُ

وأنشد يوماً الأمير ثالث الأمراء من بني نصر^(٢) يهنيه بالملك ويُعزِّيه^(٣):

[الوافر]

على مَنْ تُنْشَرُ اليومَ البُنودُ؟ وتحت لواء مَنْ تُشْرِي الجنودُ؟
وقال^(٤): على هذا الكذا، الذي بين يديك، فخجل، وعظم استظراف
الحاضرين لذلك.

وفاته: توفي في كذا وسبعمائة.

محمد بن عبد الله بن قُطَيْس

يكنى أبا عبد الله، من أهل مالقة. وقال الأستاذ^(٥): من بيت قُطَيْس
الألبيريين.

(١) في الأصل: «رجاي» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) هو السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، الملقب بالمخلوع،
وقد حكم من سنة ٧٠١ هـ حتى سنة ٧٠٨ هـ. اللوحة البدرية (ص ٦٠).

(٣) الحكاية والبيت في اللوحة البدرية (ص ٦١).

(٤) في اللوحة البدرية أن ضمير «قال» يعود إلى السلطان أبي عبد الله المخلوع، وجاء هناك هذه
العبارة: «فقال له السلطان: على هذا الزيتلح الذي ترى قدامك - يعني نفسه - فاستطرفها الناس،
وخجل الشاعر».

(٥) الأستاذ: هو أبو جعفر بن الزبير، صاحب كتاب صلة الصلة.

حاله: قال: طبيبٌ ماهر، وأديب شاعر، كان في أيام بني حشون، يخفُّ عليهم، وله فيهم أمداح كثيرة. يُذكر أنه دخل يوماً على القاضي أبي مروان بن حشون، بعد انقطاع عن زيارته، فعَثَبه القاضي، فاعتذر، ثم أنشد: [مخلع البسيط]

يا حاملاً من غُلاه تاجاً ومن سَنا وجهه سراجاً
لو كان رُودي عديل وُدِّي لكنْتُ من بابك الرُتاجاً
إن لم يُعزَّج عليك شخصي نَفسي وروحي عليك عاجاً
وذكره ابن عسكِر في كتابه.

محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن
فتوح بن محمد بن أيوب بن محمد بن الحكيم اللخمي
ذو الوزارتين^(١)

يكنى^(٢) أبا عبد الله، رُنْدِي النشأة، إشبيلي الأصل، يرجع بيته، وبيت بني حجاج، وبيت بني عباد، إلى جُرْثومة واحدة. وانتقل سلفه إلى رُنْدَة في دولة بني عباد، ويحيى جدّ والده هو المعروف بالحكيم لطفه. وقدم ذو الوزارتين على حضرة غرناطة أيام السلطان أبي عبد الله محمد بن محمد بن نصر، إثر قُفوله من الحج في رحلته التي رافق فيها العلامة أبا عبد الله بن رُشيد الفهري، فألحقه السلطان بكتابه، وأقام يكتب له في ديوان الإنشاء، إلى أن توفي هذا السلطان، وتقلّد الملك بعده وليّ عهده أبو عبد الله المخلوع، فقلّده الوزارة والكتابة، وأشرك معه في الوزارة أبا سلطان عبد العزيز بن سلطان الدّاني، فلمّا توفي أبو سلطان أفرد السلطان بالوزارة، ولقّب به ذا الوزارتين، وصار صاحب أمره، إلى أن توفي بحضرة غرناطة قتيلاً، نفعه الله تعالى، غُدوة يوم الفِطْر، مستهل شوال سنة ثمان وسبعمائة، وذلك لتاريخ خلع سلطانه، وخلافة أخيه أمير المسلمين، أبي الجيوش، مكانه.

حاله: كان^(٣)، رحمه الله تعالى، علماً في الفضيلة والسراوة، ومكارم الأخلاق، كريم النفس، واسع الإيثار، متين الحُرمة، عالي الهمة، كاتباً بليغاً، أديباً،

(١) ترجمة أبي عبد الله ابن الحكيم في نفع الطيب (ج ٣ ص ٣٦٠) و(ج ٨ ص ٤٢) ضمن ترجمة ولده أبي بكر محمد بن أبي عبد الله بن الحكيم الرندي.

(٢) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٢ - ٤٣). (٣) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٣).

شاعراً، حسن الخط، يكتب خطوطاً على أنواع كلها جميلة الانطباع، خطيباً، فصيح القلم، زاكي الشيم، مؤثراً لأهل العلم والأدب، براً بأهل الفضل والحسب، نفقت بمدته للفضائل أسواق، وأشرقت بإمداده للفضائل آفاق^(١). ومن «عائد الصلة»: كان^(٢)، رحمه الله، فريد دهره سماحة، وبشاشة، ولؤذعية، وانطباعاً، رقيق الحاشية، نافذ العزيمة، مهتزاً للمديح، طلقاً للأمل، كنهفاً للغريب، بزمكي المائدة^(٣)، مهلبى الحلوى^(٤)، ريان من الأدب، مضطلعاً بالرواية، مستكثر من الفائدة. يقوم على المسائل الفقهية، ويتقدم الناس في باب التحسين والتقبيح، وزفع راية الحديث والتحديث، نفق بضاعة الطلب، وأخيا معالم الأدب، وأكرم العلم والعلماء، ولم تشغله السياسة عن النظر، ولا عاقه تدبير الملك عن المطالعة والسماع والإفراط^(٥) في اقتناء الكتب، حتى ضاقت قصوره عن خزائنها، وأثرت أندية من ذخائرها. قام له الدهر على رجل^(٦)، وأخدمه صدور البيوتات، وأعلام الرياسات، وخوطف من البلاد النازحة، وأمل من^(٧) الآفاق النائية.

رحلته ونباهته: رحل^(٨) إلى الحجاز الشريف من بلده، على فتاء سيئه، أول عام ثلاثة^(٩) وثمانين وستمائة، فحج وزار، وتجوّل في بلاد المشرق، مُتَجِّعاً عوالي الرواية في مظانها، ومُنْقَرّاً عنها عند مُسْنِي شيوخها، وقيد الأناشيد الغربية، والأبيات المُرْقِصة، وأقام بمكة شرفها الله، من شهر رمضان إلى انقضاء الموسم، فأخذ بها عن جماعة يأتي ذكرهم في مشيخته. وانصرف إلى المدينة المشرفة، ثم قفل مع الركب الشامي إلى دمشق، ثم كثر إلى المغرب، لا يمر بمجلس علم أو تعلم إلا روى أو روي. واحتل رُندة، حرسها الله، أواخر عام خمسة وثمانين وستمائة، وأقام^(١٠) بها عينا في قرابته، وعلماً في أهله، مُعْظَماً عندهم^(١١)، إلى أن أوقع السلطان بالوزراء من بني حبيب، الوقعة البرمكية^(١٢). وورد رُندة في أثر ذلك، في شهر جمادى الآخرة من عام ستة وثمانين وستمائة، فتعرض إليه، ومدحه^(١٣)، وهتاه بقصيدة طويلة

(١) هنا ينتهي النص في نفع الطيب. (٢) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٧ - ٤٨).

(٣) برمكي المائدة: نسبة إلى البرامكة الذين كانوا مضرب المثل في الكرم والضيافة.

(٤) مهلبى الحلوى: نسبة إلى بني المهلب بن أبي صفرة، وكانوا مضرب المثل في أكل الحلوى.

(٥) في النفع: «وأفراط».

(٦) قام له الدهر على رجل: كناية عن مطاوعة الدهر له.

(٧) في النفع: «في». (٨) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٨ - ٤٩).

(٩) في الأصل: «ثلاث»، وهو خطأ نحوي. (١٠) في النفع: «فأقام».

(١١) في النفع: «لديهم». (١٢) المراد وقعة هارون الرشيد بالبرامكة.

(١٣) كلمة «ومدحه» غير واردة في النفع.

من أوليات شعره، أولها^(١): [الرمل]

هل إلى رَدُ عَشِيَّاتِ الوصالِ سَبَبٌ أم ذاك مِنْ ضَرْبِ المُحالِ؟

فلما أنشدتها إياه، أعجب به، وبخُسن خطه ونصاعة ظرفه، فأثنى عليه، واستدعاه إلى الوفادة على حَضْرَتِهِ، فوفد^(٢) إليها في آخر العام المذكور، فأثبتته في خواص دولته، وأخطاه لديه، إلى أن رَقَّاه إلى كتابة الإنشاء ببابه. واستمرت حاله، مُعْظَمُ القَدْر، مَخْصُوصًا بالمزية، إلى أن توفي السلطان، ثاني الملوك من بني نصر، وتقلد الملك بعده، وليُّ عهده أبو عبد الله، فزاد في إحظائه وتقريبه، وجمع له بين الكتابة والوزارة، ولقبه بذي الوزارتين؛ وأعطاه العلامة، وقلده الأمر، فَبَعْدَ الصَّبْرِ، وطاب الذُكْرُ، إلى أن كان من الأمر^(٣) ما يأتي به الذكر قريبًا بإنشاء الله تعالى.

مشيخته: قرأ^(٤) بُرْنْدَةُ على الشيخ النحوي أبي الحسن علي بن يوسف العبْدَري السُّفَّاح، القرآن العظيم بالروايات السَّبع، والعربية وغير ذلك. وعلى الخطيب بها أبي القاسم بن الأيسر، وأخذ عن والده جميع مَرْوِيَّاتِهِ. واستجاز له في صغره أعلام ذلك الزمان، وأخذ في رحلته عن الجِلَّة من الجملة الذين يضيق عن أمثالهم الحصر.

فمنهم أبو اليمن جار الله ابن عساكر، لقيه بِالْحَرَمِ الشَّريف، وانتفع به، واستكثر من الرواية عنه. ومنهم الشيخ أبو العز عبد العزيز بن عبد المنعم الحرَّاني، المعروف بابن هَبَّة الله الحرَّاني. ومنهم الشيخ الشَّريف^(٥) أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمر بن معطي ابن الإمام الجزائري - جزائر المغرب - نزيل بغداد. ومنهم الشيخ أبو الصفا خليل بن أبي بكر بن محمد المرادي الحنبلي، لقيه بالقاهرة. ومنهم الشيخ رَضِي الدين القُسْطَمِينِي أبو بكر. ومنهم الشيخ شرف الدين الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدُمِيَّاطِي، إمام الديار المصرية، في الحديث ومؤرخها وحافظها. ومنهم عبد المنعم بن محمد بن يوسف بن أحمد الخيمي، شهاب الدين أبو عبد الله، نزيل مَشْهَدِ الحُسَيْن بن علي، قرأ عليه قصيدته البائية الفريدة التي أولها^(٦): [البسيط]

يا مَطْلَبًا ليس لي في غيره أَرْبُ إليك آلُ التَّقْصِي وانتهى الطَّلَبُ

(١) هو مطلع قصيدة طويلة سترد في هذه الترجمة بعد قليل.
(٢) في النسخ: «فوفد آخر عام ستة وثمانين». (٣) في النسخ: «من أمره ما كان». (٤) النص في النسخ (ج ٣ ص ٣٦١ - ٣٦٢). (٥) في النسخ: «الشرف». (٦) البيت في نسخ الطيب (ج ٣ ص ٣٦١) و(ج ٧ ص ٢٤٦) وجاء في الجزء السابع: «التقصي» بالضاد المعجمة.

ومنها البيت المشهور الذي وقع النزاع فيه^(١):

يا بارقاً بأعالي الرُقَمَتَيْنِ بَدا لقد حَكَيْتَ ولكن فَاثَكُ السَّبَبُ^(٢)

ومنهم عبد المولى يحيى بن حماد البَغْلَبَكِي؛ مولده سنة إحدى عشرة وستمئة. ومنهم محمد بن بكر بن خلف بن أبي القاسم الصُّفَار. ومنهم الشيخ أبو الفضل الأديب جمال الدين بن أبي الخير بن علي بن عبد الله بن رواحة. ومنهم محمد بن يحيى بن عبد الله القرشي جمال الدين أبو صادق، ومن تخريجه «الأربعون المروية بالأسانيد المصرية»، وسمع الحَلَبِيَّات من ابن عماد الحراني والشيخ أبي الفضل عبد الرحيم خطيب الجزيرة، ومولده سنة ثمان وتسعين وخمسمئة. ومنهم الشيخ محمد بن عباس الأشعري تقي الدين الحافظ أبو القاسم. ومنهم الشيخ محمد بن إسماعيل بن عبد الله بن عبد المجيد الأنماطي. ومنهم أبو البدر بن عبد الله بن أبي الزبير، الكاتب المصري. ومنهم الشيخ عبد الرحيم بن عبد المنعم بن خلف التُّدميري. ومن رؤساء شيوخه؛ الشيخ محيي الدين أبو الفضل. ومنهم زينب بنت الإمام أبي محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي، تُكْنَى أم الفضل، وسمعت من أبيها. ومنهم محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد الخُراساني، أبو عبد الله مَوْقُر الدين، وألبسه خِرْقَة التصوف. ومنهم الشيخ محمد بن يحيى بن هَيِّرة الشَّيبَانِي شرف الدين. ومنهم الشيخ شهاب الدين أحمد بن عيسى بن عيسى بن يوسف بن إبراهيم بن إسماعيل السُّلَفِي. ومنهم الشيخ علي بن عبد الكريم بن عبد الله الدَّمَشْقِي، أبو الحسن؛ ولد سنة سبع وتسعين وخمسمئة. ومنهم الشيخ غازي بن أبي الفضل بن عبد الوهاب الجلاوي. ومنهم الشيخ نور الدين علي بن محمد أبي البركات الأنصاري المقرئ بَحْرَم الخليل، سمع من أبي الحسن علي بن شجاع. ومنهم يوسف بن داود بن عيسى بن أيوب الحنفي.

ومنهم الملك الأوحَد يعقوب بن الملك الناصر صلاح الدين^(٣) داود بن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب. ومنهم عبد المنعم بن يحيى بن إبراهيم بن علي بن جعفر القرشي الزُّهْرِي خطيب القُدْس. ومنهم الشيخ عبد الحفيظ بن بَذْرَان، ويُدْعَى علي الدين من أهل بانياس، سمع من ابن صيصري. ومنهم الشيخ علي بن عبد الرحمن بن عبد المنعم المقدسي. ومنهم الشيخ محمد بن

(١) البيت في نفع الطيب (ج ٣ ص ٣٦١). (٢) في النفع: «السَّبَب».

(٣) في الأصل: «صلاح الدين وداود»، والتصويب من النفع.

محمد بن سالم بن يوسف بن أسلم القرشي، جمال الدين. ومنهم عبد الواسع بن عبد الكافي شمس الدين. ومنهم الشيخ أحمد بن أحمد الزجاجي البغدادي الإمام تقي الدين. ومنهم عبد الجميل بن أحمد بن الزجاج. ومنهم فاطمة بنت إبراهيم بن محمد بن محمود بن جوهر البعلبكي، الشيخة الكاتبة الخيرة أم الخير. ومنهم الشيخ يوسف ابن أبي ناصر السفاوي. ومنهم الشيخ عبد السلام بن محمد بن مزروع، أبو محمد عفيف الدين. ومنهم الشيخ أحمد بن عثمان بن محمد الشافعي البخاري شمس الدين. ومنهم الشيخ عبد الله بن خير بن أبي محمد بن خلف القرشي. ومنهم الشيخ محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الباقي بن علي الصواف شرف الدين. ومنهم الشيخ علي بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن زريق الكاتب، لقيه بتونس. ومنهم الشيخ سليمان بن علي بن عبد الله الكاتب التلمساني عفيف الدين الصوفي الأديب نزيل دمشق، ومولده بتلمسان. ومنهم الشيخ محمد بن علي بن أحمد بن علي بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أحمد الميموني البستي القسطلاني قطب الدين، الإمام المفتي شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة المعزية. ومنهم الشيخ عبد الكريم بن علي بن جعفر القرشي جمال الدين. ومنهم الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الظاهر جمال الدين. ومنهم محمد بن محمد بن إبراهيم النجاشي. ومنهم الشيخ عبد الله بن محمد بن محمد بن أبي بكر الطبري، إمام الروضة النبوية ثم الصخرة القدسية. ومنهم الشيخ فخر الدين عثمان بن أبي محمد بن إسماعيل بن جندرة. ومنهم الشيخ عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد العلي بن أنسكرت فخر الدين. ومنهم الشيخ ثابت بن علي بن عبد العزيز بن قاسم بن عبد الرازق، سمع على ابن المغيرة البغدادي. ومنهم الشيخ أمين الدين أبو الهامات جبريل بن إسماعيل بن سيد الأهل الغساني. ومنهم الشيخ محمد بن أحمد بن عبد الله الأندلسي الأصل شرف الدين، سمع من علم الدين الشيخوني وغيره. ومنهم الشيخ محمد بن محمد الشامي الشافعي الدمشقي، إمام مسجد أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، يدعى شمس الدين، سمع من الزبيدي. ومنهم الشيخ يحيى بن الخضر بن حاتم الأنصاري، يعرف بابن عز الدولة.

وأجاز له جماعة، منهم ابن عماد الحراني، ومنهم ابن يحيى بن محمد بن محمد الهمداني كمال الدين، وسمع من ابن الزجاج وابن رواح الحميري. ومنهم الشيخ عبد الملك أبو المعالي بن مفضل الواسطي، عرف بابن الجوزي، سمع على جماعة، منهم شعيب الزعفراني. ومنهم الشيخ محمد بن أحمد بن ياسر بن شاكر الحاكمي. ومنهم الإمام مفتي المسلمين، رضي الله عنه. ومنهم أبو عبد الله محمد بن

أبي بكر بن خليل العسقلاني المكي. ومنهم الخطيب أبو عبد الله محمد بن صالح بن أحمد بن محمد بن رُحيمة الكِناني، خطيب بجاية. ومنهم قاضي القضاة ببلاد إفريقية أبو العباس ابن العَمَّاز البَلَنسي، لقيه بتونس. ومنهم الفقيه العلامة الوزير أبو القاسم محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جُزي الكلبي. ومنهم الشيخ أبو محمد عبد الله بن يوسف الخلابي. ومنهم الشيخ المغربي أبو محمد الحجاج بن يوسف بن إبراهيم بن عتاب، لقيه بتونس. ومنهم الشيخ الفقيه أبو بكر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن يربوع السَّبتي. ومنهم الإمام قُدوة النحاة أبو الحسين عبيد^(١) الله بن أحمد بن عبيد الله بن أحمد بن عبد الله بن أبي الربيع القرشي. ومنهم الإمام أبو علي ناصر الدين منصور بن أحمد بن عبد الحق الزواوي المَشْدالي، من أهل بجاية. ومنهم الخطيب القاضي أبو عمرو إسحاق بن أبي إسحاق بن عبد الوهاب الرُندي، إلى طائفة كبيرة من أهل المشرق والمغرب.

محتته: أغرى به الأمير ولي العهد، بسبب أمور اختلف فيها، منها أبيات في هُجو الدولة النصرية، الله أعلم بصحة نسبتها إليه، فأوقع به، وناله بين يديه نكال كبير أفلت منه برفق، واختفى مدة في المآذن المُقفلة والأماكن الخفية، حتى أصحى له جرُّ سخطه، وقضى الله برذ أمره إليه، واستيلائه على ما وراء بابه.

من روى عنه: أخذ عنه الخطيب الصالح أبو إسحاق بن أبي العاصي، وتدبج معه رفيقه عبد الله بن رُشيد وغير واحد. وكان ممدوحًا، وممن مدحه الرئيس أبو محمد عبد المُهيمن الحَضرمي، والرئيس أبو الحسن بن الجِياب، وناهيك بهما. ومن بديع مدح ابن الجِياب له، قصيدة رائية رائقة، يهنئه فيها بعيد الفطر، منها في أولها^(٢): [البسيط]

يا قادمًا عُمّت الدنيا بشائره	أهلاً بِمَقْدِمِكَ الميمون طائره
ومَرَحَبًا بك من عِيدِ تَحَفٍّ به	من السعادة أجناد تُظَاهره ^(٣)
قَدِمْتَ فالخلق في نُغمى وفي جَدَلٍ	أبدى بك البشرَ باديهِ وحاضره ^(٤)
والأرض قد لَبَسَتْ أثوابَ سُتْدِهَا	والرَّوضُ قد بَسَمَتْ منه أزاهره
حاكث يَدُ الغيْثِ في ساحاته حُلَلًا	لَمَّا ساقها دِراكًا منك باكره
فلاح فيها من الأنوار باهرها	وفاح فيها من الثَّوار عاطره

(١) في النفع (ج ٣ ص ٣٦٢): «عبد الله».

(٢) القصيدة في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٣ - ٤٥) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٤٢ - ٣٤٤).

(٣) في المصدرين: «تظافره». (٤) أراد بحاضره سكان الحاضرة.

وقام فيها خطيب الطير مرتجلا
 مؤشئ ثوب طواه الدهر آونة
 فالغضن من نشوة يثني معاطفه
 ولكم انشقاق عن ازاهرها
 لله يومك ما اذكى فضائله
 فكم سريرة فضل فيك قد خبيث
 فافخر بحق على الايام قاطبة
 فانت في عصرنا كابن الحكيم اذا
 يلتاح منه بافق الملك نور هدى
 مجد صميم على عرش السماك سما
 وزارة الدين والعلم الذي رفعت
 وليس هذا ببذع من مكارمه
 يلقي الامور بصدر منه منشراح
 راعى امور الرعايا مغيلا نظرا
 والملك سير في تدبيره جكما
 سياسة الحكم^(١) لا بطش يكدرها
 لا يضدر الملك الا عن اشارته
 تجري الامور على اقصى ايراده
 وكم مقام له في كل مكرمة
 ففضلها طبق الافاق اجمعها
 فليس يخجده الا اخو حسد
 لا ملك اكبر من ملك يدبره
 يا عز امر به اشتدت مضاربه
 ثني البلاد واهلها بما عرفوا
 بشري لامله الموصول مامله
 فالعلم قد اشرق نورا مطالعه

والزهر قد رصعت منه منابره
 فها هو اليوم للابصار ناشره
 والطير من طرب تشدو مزاهره
 كما بدت لك من خل ضمائره
 قامت لدين الهوى^(٢) فيه شعائره
 وكم جمال بدا للناس ظاهره
 فما لفضلك من يد يظاهره^(٣)
 قيست بفخر اولي العليا مفاخره
 تضاء الشمس مهما لاح زاهره
 طالت مبانیه واستغلت مظاهره
 اعلامه والندى الفياض زاخره
 ساوت اوائله فيه اواخره
 بخر واراؤه العظمى جواهره
 كمثل علياه مغدوما نظائره
 تنال ما عجزت عنه عساكره
 فهو المهيب وما تخشى بواده
 فالرشد لا تتعداه مصائره
 كأنما دهره فيه يشاوره
 انسث موارد فيهما مصادره
 كأنه مثل قد سار سائره
 يرى الصباح فيغشى منه ناظره
 لا ملك اسعد من ملك يوازره
 يا حسن ملك به ازدانت محاضره
 ويشهد الدهر آتیه وعابره^(٤)
 تغسا لحاسده المقطوع دابره
 والجود قد اسبلت سحا مواطره

(١) في المصدرين: «الهدى».

(٣) في المصدرين: «الحلم».

(٢) في ازهار الرياض: «بناظره».

(٤) في المصدرين: «وغابره» بالعين المعجمة.

والناس في بَشَرٍ^(١) والمُلْك في ظَفِرِ
والأَرْضُ قد مُلِثَتْ أَمَّا جَوَانِبُهَا
والى^(٢) أياديهِ من مَثْنَى وواحدة^(٣)
فكلُّ يومٍ تَلَقَّانَا عِوَارُفَهُ
فمن يؤدِّي لِمَا أولاه من نِعَمٍ
يا أيها العَبْدُ^(٤) بادِرْ لَثَمَ رَاحَتِهِ
وافخرْ بأن قد^(٥) لَقِيتَ ابنَ الحَكِيمِ على
ولَّى الصِّيَامُ وقد عَظُمَتْ حُرْمَتُهُ
وأقبلَ العِيدُ فاستقبِلْ به جَذَلًا

عَالٍ على كُلِّ عَالِي القَدْرِ قَاهِرُهُ
بِئْمَنِ مَنْ خَلَصَتْ فِيهَا سِرَائِرُهُ
تُسَاجِلُ البَحْرَ إِنْ فَاضَتْ زَوَاحِرُهُ
كَسَاهُ أَمْوَالُهُ الطُّولَى دِفَاطِرُهُ
شُكْرًا وَلَوْ أَنَّ سَخْبَانًا يُظَاهِرُهُ
فَلَثَمُهَا خَيْرُ مَأْمُولٍ تُبَادِرُهُ
عَضْرٍ يُبَارِيكَ أَوْ دَهْرٍ تُفَاخِرُهُ
فَأَجْرُهُ لَكَ وَافِيهِ وَوَافِرُهُ
وَاهْتَأْ بِهِ قَادِمًا عَمْتُ بِشَائِرُهُ

ومن مدح الرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي له قوله: [الطويل]

ترأى سَحِيرًا والنسيم عليلُ
وللفجر نَهْرٌ خَاضَهُ الليلُ فاعتَلَتْ
بريقُ بأعلى الرُّقْمَتَيْنِ كأنه
فمزَّقٌ سَاجِي الليلِ منه شرارة
تبَسَّمُ تُغْرِ الرُّوضِ عند ابتسامه
ومالتُ غصونُ البانِ تُشَوِّى كأنها
وغتت على تلك الغصونِ حمائم
إذا سَجَعَتْ في لَحْنِهَا ثم قَرَقَرَتْ
سقى الله رَبْعًا لَا يَزَالُ يشوقني
وجاد رِيَاءُ^(٦) كُلَّمَا ذَرَّ شَارِقُ
وما لي أَسْتَسْقِي الغمامَ وَمَذْمَعِي
وعاذلة باتت تلوم على السُّرَى
تقول إلى كم ذا فراقٌ وغربةٌ

وللنَّجْم طَرْفٌ بالصباحِ كليلُ
شوى أذهم الظُّلُمَاءِ منه خجول
طلائع شُهَبٍ والسَّماءُ تجول
وخرَّقَ سِثْرَ الغيمِ منه نُصُولُ
وفاضت عيونُ للغمامِ همول
يُدار عليها من صباه شُمُولُ
لهنَّ حَفِيفٌ فوقها وهَدِيلُ
يطيح خَفِيفٌ دونها وثَقِيلُ
إليه رسومٌ دونها وطلول
من الوَدْقِ^(٧) هَتَانُ أَجَشُّ هَطُولُ
سفوحٌ على تلك العِراصِ هُمُولُ؟
وتُكْثِرُ من تَغْدَالِهَا وتُطِيلُ
ونأى على ما خِيلَتْ ورحيلُ

(١) في أزهار الرياض: «بُشْر».

(٢) في الأصل: «والى» والتصويب من المصدرين.

(٣) في المصدرين: «وَمَوْحِدَةً».

(٤) في المصدرين: «العبد».

(٥) كلمة «قد» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من المصدرين.

(٦) في الأصل: «رياء» وكذا ينكسر الوزن. (٧) الوَدْق: المطر. محيط المحيط (ردق).

دَرِينِي أَشْعَى لَلَّتِي تُكْسِبُ الْعَلَا
فَأَمَّا تَرِينِي مِنْ مُعَارَسَةِ الْهَوَى
وَفَوْقَ أَنْبَابِ الْيَرَاعَةِ صَفْوَةَ
وَلَوْلَا السُّرَى لَمْ يَخْتَلِ الْبَدْرُ كَامِلًا
وَلَوْلَا اغْتِرَابُ الْمَرْءِ فِي طَلَبِ الْعَلَا
وَلَوْلَا نَوَالُ ابْنِ الْحَكِيمِ مُحَمَّدٍ
وَزَيْرُ سَمَا فَوْقَ السَّمَاءِ جَلَالَةَ
مَنْ الْقَوْمِ أَمَّا فِي النَّدَى^(١) فَإِنَّهُمْ
حَوَّوْا شَرَفَ الْعُلِيَاءِ إِزْنًا وَمَكْسِبًا
وَمَا جَوْنَةُ هَطَالَةِ ذَاتِ هَيْدَبٍ
لَهَا زَجَلٌ مِنْ رَعْدِهَا وَلَوَامِعُ
كَمَا هَدَّرَتْ وَسْطَ الْقِلَاصِ وَأَرْسَلَتْ
بِأَجْوَدٍ مِنْ كَفِّ الْوَزِيرِ مُحَمَّدٍ
وَلَا رَوْضَةً بِالْحَسَنِ طَيْبَةَ الشُّدَا
وَقَدْ أَذْكَيتَ لِلزَّهْرِ فِيهَا مَجَامِرُ
وَفِي مُقَلِّ السُّوَارِ لِلطُّلِّ عَبْرَةٌ
بِأَطِيبٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ الْغُرُّ كُلَّمَا
حَوَيْتَ، أَبَا عَبْدِ الْإِلَهِ، مَنَاقِبًا
فَفَرْنَاطَةً بِمَضْرُ وَأَنْتَ خَصِيبُهَا
فَدَاكَ رَجَالٌ حَاوَلُوا دَرْكَ الْعَلَا
تَخَيَّرَكَ الْمَوْلَى وَزِيرًا وَنَاصِحًا
وَأَلْقَى مَقَالِيدَ الْأُمُورِ مُفَوَّضًا
وَقَامَ بِحِفْظِ الْمُلْكِ مِنْكَ مُؤَيَّدُ
وَسَاسِ الرِّعَايَا مِنْكَ أَشْوَسُ بِاسِلُ
وَأَبْلَجُ وَقَادِ السَّجَبِينَ كَأَنَّمَا
تَهَيَّمُ بِهِ الْعُلِيَاءُ حَتَّى كَانَهَا
لَهُ عَزَمَاتٌ لَوْ أُعِيرَ مَضَاوِهَا

سَنَاءً وَتُبْقِي الذِّكْرَ وَهُوَ جَمِيلُ
نَحِيلًا فَحَدُّ الْمَشْرِفِي نَحِيلُ
تَزِينُ وَفِي قَدِّ الْقِنَاةِ ذَبُولُ
وَلَا بَاتَ مِنْهُ لِلشُّعُودِ نَزِيلُ
لَمَّا كَانَ نَحْوَ الْمَجْدِ مِنْهُ وَصُولُ
لَأَصْبَحَ زَبْعُ الْمَجْدِ وَهُوَ مَحِيلُ
وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا نَجُومٌ قَبِيلُ
هَضَابٍ وَأَمَّا فِي النَّدَى فَسَيُولُ
وَطَابَتْ فُرُوعُ مِنْهُمْ وَأَصُولُ
مَرَّتْهَا شُمُولُ مُزْجَفٍ وَقَبُولُ
مَنْ الْبَرْقِ عَنْهَا لِلْعَيُونِ كُلولُ
شَقَاشِقِهَا عِنْدَ الْهِيَاجِ فَحُولُ
إِذَا مَا تَوَالَتْ لِلسَّنَنِ مُحُولُ
يَنْتَمِ عَلَيْهَا أَذْخَرُ وَجَلِيلُ
تُعْطَرُ مِنْهَا لِلنَّسِيمِ ذَيُولُ
تَرْدُدُهَا أَجْفَانُهَا وَتُحِيلُ
تَفَاقَمَ خَطْبُ لِلزَّمَانِ يَهُولُ
تَفُوتُ يَدَيَّ مَنْ رَامَهَا وَتَطُولُ
وَنَائِلُ يُغْنَاكَ الْكَرِيمَةَ نَيْلُ
بِبَخْلِ وَهَلْ نَالَ الْعَلَاءُ بِخَيْلُ؟
فَكَانَ لَهُ مِمَّا أَرَادَ حَصُولُ
إِلَيْكَ فَلَمْ يَغْدُلْ يَمِينُكَ سُورُ
تَهَوَّضُ بِمَا أَعْيَا سَوَاكَ كَفِيلُ
مَبِيدُ الْعِدَا لِلْمُغْتَفِينَ مُنِيلُ
عَلَى وَجَنَّتِيهِ لِلنُّضَارِ مَسِيلُ
بُثْنِيَّةٌ فِي الْحُبِّ وَهُوَ جَمِيلُ
خُسَامٌ لَمَّا نَالَتْ ظُبَاهُ فُلُولُ

(١) الندى: النادي للمجلس.

سرى ذكره في الخافقين فأصبحت
وأغدى قريضي جوده وثناؤه
إليك أيا فخر الوزارة أزقلت
فلئت إلى لقياك ناصية الفلا
تسدّذني سهمًا لكل ثنية
وقد لفظتني الأرض حتى رمت إلى
فقيذت أفراسي به وركائبي
وقد كنت ذا نفس عزوف وهمة
وتهوى العلا حظي وتغري بضده
وتسأبي لي الأيام إلا إدالة
فكل خضوع في جنابك عزة

إليه قلوب العالمين تميل
فأصبح في أقصى البلاد يجول
برخلي هوجاء الشجاء ذلول
بأيدي ركاب سينرهن ذميل
ضوامر أشباه القيسي نحول
ذراك برحلي هوجل وهجول
ولذ مقام لي به وحلول
عليها لأحداث الزمان دحول
لذاك اغترته رقة ونحول
فضونك لي أن الزمان مديل
وكل اعتزاز قد عداك خمول

شعره: وبضاعته في الشعر مزجاة، وإن كان أغلّم الناس بنقده، وأشدّهم تيقظا لمواقفه الحسنة وأضدادها. فمن ذلك قوله، ورفعته إلى السلطان ببلده رنّدة، وهو إذا ذاك فتى يملأ العين أبهة، ويستميل القلوب لباقة، وهي، ومن خطه نقلت^(١):
[الرمّل]

هل إلى ردّ عشيّات الوصال
حالة يسري بها الوهم إلى
ولبالي^(٢) ما تبقى بعدها
إذ مجالّ الوصل فيها مسرحي
ولحالات التراضى جولة
فيوادي الخيف خوفي مُسعد
لست أنسى الأتس فيها أبدا
وغزال قد بدا لي وجهه
ما أمال الشيء من أعطافه

سبب أم ذاك من ضرب المحال؟
أنها تُثبِت بُرءا باعتلال
غير أشواقني إلى تلك الليالي
وتعيمي أمر فيها ووال
مزجت^(٣) بين قبول واقتبال
وبأكناف مئى أسنى نوال^(٤)
لا ولا بالعذل في ذاك أبالي
فرايت البذر في حال الكمال
لم يكن إلا على فضل^(٥) اعتدال

(١) القصيدة في نفع الطيب (ج ٣ ص ٣٦٢ - ٣٦٣).

(٢) في الأصل: «ولبالي» وهكذا ينكسر الوزن، وهو خطأ نحوي، لذلك صوبناه من نفع الطيب.

(٣) في النفع: «مَرَحَتْ».

(٤) في النفع: «موال».

(٥) في النفع: «خصل».

خُصَّ بالحسن فما أنت ترى
مَنْ تَسَلَّى عن هواه فأنَا
فلئن أتعبني حُبِّي له
إذ لآلي^(١) جِيبِهِ مِنْ قِبَلِي
خَلَفَ النومُ لي الشَّهْدَ به
فَيُداوِي^(٢) بِلَمَاهِ ظَمْنِي
أو إشارات^(٣) بِنَاءِ الْمَلِكِ الـ
مَلِكُ إِنْ قَلْتُ فِيهِ مَلَكًا
أَيَّدَ الإسلامَ بِالْعَدَلِ فما
ذو أَيَادٍ شَمَلَتْ كُلَّ الْوَرَى
هِمَّةٌ هَامَتْ بِأَحْوَالِ التَّقَى
وَقَفَ النَّفْسَ عَلَى إِجْهَادِهَا
ومنها في ذكر القوم الموقع بهم^(٤) :
وفريق من عُتَاة عَانَدُوا
غَرَّهُمْ طَوْلُ التَّجَافِي عَنْهُمْ
فلقد كانت بهم رُنْدَةٌ أو
ولقد كان التُّفَاقُ مَذْهَبًا
ما يعود اليَوْمَ إِلَّا بِأَدْرُوا
طَوَّقُوا التُّعْمَى فَلَمَّا أَنْكَرُوا
ماطل الدهر بهم غريمه
ولقد كنت غريم الدهر إذ
ولكم نافرته مجتهدًا
أعقبوا جزاء ما قد أسلفوا

بعده للناس حظًا في الجمال
بسواؤه عن هواه غيرُ سال
فكم نِلْتُ به أَنْعَمَ حال
ووشاحاهُ يميني وشمالِي
وترامى الشَّخْصُ لا طيفُ الخيال
مَزَجَكَ الصُّهْبَاءُ بِالْمَاءِ الزُّلال
أَوْحَدِ الْأَسْمَى الْهُمَامِ الْمُتَعَالِي
لم تكن إِلَّا مُحَقَّقًا فِي الْمَقَال
أن ترى رَسْمًا لِأَصْحَابِ الضُّلال
ومعالٍ يَا لَهَا خَيْرُ مَعَالٍ
وصفاتٌ بِالْجَلَالِاتِ جِوَالٍ
بين صوم وصلاةٍ ونسوالٍ

أمره فاستوجبوا سوء نكالٍ
مَعَ شَيْطَانٍ لَهُمْ كَانَ مُوَالٍ
أهلها في سوء تدبير وحالٍ
فأشياء بين هاتيك التلال
برواة ونكيرات ثقال
طَوَّقُوا الْعَذْلَ بِذِي الْبَيْضِ الْعَوَالٍ
فهو الآن وفي بَغْدَ الْمَطَالِ
شَدَّنِي جَوْرُهُمْ شَدَّ عِقَالٍ
عندما ضاق بهم صَدْرُ احْتِمَالِي
في الدُّنَا وَيَعْقِبُوهُ فِي الْمَالِ

(١) في الأصل: «لآلي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٢) في النفع: «فتداوى».

(٣) في الأصل: «أو إشارات ثنا الملك...» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٤) من هنا حتى آخر البيت: (في المآل) غير وارد في نفع الطيب.

وهي طويلة ومنها:

أيها المولى الذي نعماءه
ها أنا أنشدكم مهنئاً
فأنا العبد الذي حُبُّكم
أورقت روضة آمالي لكم
واقتنيت الجاة من خدمتكم
ومنها:

يا أمير المسلمين هذه
هي بنت ساعة أو ليلة
ما عليها إذ أجادت مدحها
فهي في تادية الشكر لكم
وكتب، رحمه الله، يخاطب أهله من مدينة تونس^(١):

حيّ حيّ بالله يا ريح نجد
وإذا ما بثثت حالي فبلغ
ما تناسيتهم وهل في مغربي
بي شوق إليهم ليس يغزى
يا نسيم الصبا إذا جئت قوماً
فتلطف عند المرور عليهم
قل لهم قد غدوت من وجدهم في
وإن استفسروا حديثي فلاني
فله الحمد إذ حبانني بلطف
وتحمل عظيم شوقي ووجدتي
من سلامي لهم على قدر ودي
هم^(٢) نسوني على تطاول بغدي
لجميل^(٣) ولا لسكان نجد
ملئت أرضهم بشيع وزند
وحقروا لهم علي فأد
حال شوقي لكل رند وزند
باعتناء الإله بلغت قصدي
عنده قل كل شكر وحمد

(١) في النفع: «... بكم مذ تولأها الرباب المتوالي».

(٢) في النفع: «فهي».

(٣) القصيدة في نفع الطبيب (ج ٣ ص ٣٦٣ - ٣٦٤).

(٤) أراد جميل بن معمر، صاحب بشية.

(٥) في النفع: «قد».

قال شيخنا أبو بكر ولده: وجدت بخطه، رحمة الله عليه، رسالة خاطب بها أخاه أبا إسحاق إبراهيم افتتحها بقصيدة أولها^(١): [الكامل]

ذَكَرَ اللَّوَى شَوْقًا إِلَى أَقْمَارِهِ فَقَضَى أَسَى أَوْ كَادَ مِنْ تَذْكَارِهِ
وَعَلَا زَفِيرُ حَرِيقِ نَارِ ضُلُوعِهِ فَرَمَى عَلَى وَجَنَاتِهِ بِشَرَارِهِ
لَوْ كُنْتَ تُبْصِرُ خَطَّهُ فِي خَدِّهِ لَقَرَأْتَ سِرَّ الْوَجْدِ مِنْ أَسْطَارِهِ
يَا عَاذِلِيهِ أَقْصِرُوا فَلَرَبِّمَا^(٢) أَقْضَى عَتَابُكُمْ إِلَى إِضْرَارِهِ
إِنْ لَمْ تَعْمِنُوهُ عَلَى بُرَحَائِهِ^(٣) لَا تُشْكِرُوا بِاللَّهِ خَلَعَ عِذَارِهِ
مَا كَانَ أَكْثَمَهُ لِأَسْرَارِ الْهَرَى لَوْ أَنَّ جُنْدَ الصُّبْرِ مِنْ أَنْصَارِهِ
مَا ذَنْبُهُ وَالْبَيْنُ قَطَعَ قَلْبَهُ أَسْفَا وَأَذْكَى النَّارِ فِي أَغْشَارِهِ
بَخَلَ اللَّوَى بِالسَّاكِنِيهِ وَطِيفَهُمْ وَحَدِيثِهِ وَنَسِيمِهِ وَمَزَارِهِ
يَا بَرْقُ خُذْ دَمْعِي وَعَرِّجْ بِاللَّوَى فَاسْفَخْهُ فِي بَانَاتِهِ وَعَرَارِهِ
وَإِذَا لَقِيتَ بِهَا الَّذِي بِإِخَائِهِ أَلْقَى خُطُوبَ الدُّهْرِ أَوْ بِجَوَارِهِ
فَاقَرَّ السَّلَامَ عَلَيْهِ قَدَّرَ مَحَبَّتِي فِيهِ وَتَرْفِيعِي إِلَى مَقْدَارِهِ
وَأَلِّمُ^(٤) بِسَائِرِ إِخْوَتِي وَقَرَابَتِي مَنْ لَمْ أَكُنْ لَجَوَارِهِمْ بِالْكَارِهِ
مَا مِنْهُمْ إِلَّا أَخٌ أَوْ سَيِّدٌ أَبَدًا أَرَى دَابِيَّ عَلَى إِكْبَارِهِ
فَاقْبَلْتُ^(٥) لَذَاكَ الْحَيَّ أَنَّ أَخَاهُمْ فِي حِفْظِ عَهْدِهِمْ عَلَى اسْتِبْصَارِهِ
مَا مَنُوزَ اللَّذَاتِ فِي أَوْطَانِهِ كَلَّا وَلَا السُّلُوفَ مِنْ أَوْطَارِهِ^(٦)

وقال، رحمه الله، في غرض كلفه سلطانه القول فيه^(٧): [الوافر]

أَلَا وَأَصِلْ مُوَاصِلَةَ الْعُقَارِ وَدَعْ عَنْكَ التَّخَلُّقَ بِالْوَقَارِ
وَقُمْ وَاخْلَعْ عِذَارَكَ فِي غَزَالِ يَحِقُّ لِمِثْلِهِ خَلْعُ الْعِذَارِ
قَضِيبَ مَائِسٍ مِنْ فَوْقِ دِغْصِ تَعَمُّمٍ بِالْدُّجَى فَوْقَ النَّهَارِ
وَلَاخَ بِخَدِّهِ أَلْفٌ وَلَا مَ فَصَارَ مُعَرِّقًا بَيْنَ الدَّرَارِ

(١) القصيدة في نفع الطيب (ج ٣ ص ٣٦٤ - ٣٦٥) وورد البيتان الأول والثاني أيضًا في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٩).

(٢) في النفع: «فلشد ما».

(٣) في الأصل: «عليّ برجائه» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٤) في الأصل: «وَأَلِّمُ» وهكذا ينكسر الوزن. (٥) في النفع: «فأبثت».

(٦) هذا البيت لم يرد في النفع. (٧) الأبيات في نفع الطيب (ج ٣ ص ٣٦٥).

رمانى قاسم والسين صاّد
وقد قُسمت محاسن وجنتيه
فذاك الماء من دَمعي عليه
عَجِبْتُ له أقام برّبع قلبي
ألفُ الحب حتى صار طبعًا
فما لي عن مذهبِهِ ذهاب
بأشفار تنوب عن الشُّفار
على ضيّدين من ماء ونار
وتلك النار من فرط استيعاري^(١)
على ما شَبَّ فيه من الأوار
فما احتاج فيه إلى اذكار
وهذا فيه أشعاري شِعاري^(٢)

وقال العلامة ابنُ رُشيد في «ملء الغيبة»^(٣): لما قَدِمنا المدينة سنة ٦٨٤ هـ، كان معي رفيقي الوزير أبو عبد الله بن أبي القاسم الحكيم، وكان أزمَد^(٤)، فلما دخلنا ذا الحليفة أو نحوها، نزلنا عن الأكوار، وقوي الشوق لقرب المزار، فنزل وبادر إلى المشي على قدميه احتسابًا لتلك الآثار، وإعظامًا لمن حلَّ في^(٥) تلك الديار، فأحسن بالشفاء، فأنشد لنفسه في وصف الحال قوله: [الطويل]

ولمّا رأينا من ربوع حبيبنا
وبالتُرّب منها إذ كَحَلْنَا جفوننا
وحين تَبَدَّى للعيون جمالها
نزلنا من^(٦) الأكوار نمشي كرامة
نُسيحُ سِجَالَ الدَّمع في عَرَصاتِها
وإن بقائني دونه لخسارة
فيا عجبًا ممن يُحبُّ بِزَعْمه
وزَلَّاتٌ مثلي لا تُعدُّ كثيرة^(٧)
ومن شعره قوله^(٨): [السريع]

ما أَحْسَنَ العَقْلَ وأثَارَهُ
لو لازم الإنسانُ إيثارَهُ

(١) في الأصل: «استعار» والتصويب من النفع. (٢) في الأصل: «شعار» والتصويب من النفع.

(٣) النص مع الأبيات في نفع الطيب (ج ٣ ص ٣٦٥ - ٣٦٦).

(٤) الأرمَد: المصاب بمرض الرمد. لسان العرب (رمد).

(٥) كلمة «في» ساقطة في النفع. (٦) في النفع: «عن».

(٧) في النفع: «لا تُعدُّ كثرة».

(٨) الأبيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٦). كما وردت في المصدر نفسه (ج ٤ ص ٣١٠) منسوبة إلى صالح بن شريف.

يَصُونُ بالعقل الفتى نَفْسَهُ كما يَصُونُ الحُرُّ أَسْرَارَهُ
لا سيما إن كان في غُرْبَةٍ يحتاج أن يَعْرِفَ مِقْدَارَهُ
وقوله رحمه الله^(١): [البسيط]

إني لأَغِيرُ أحياءاً فيلحقني يُسِرُّ من الله إنَّ العُسْرَ قد زالا
يقولُ خيرُ الورى في سُنَّةٍ ثَبَتَتْ (أَنْفِقْ ولا تَخْشَ من ذي العرش إقلالا)
وهو من أحسن ما قاله رحمه الله .
ومن شعره قوله^(٢): [الطويل]

فَقَدْتُ حياتي بالفراق^(٣) وَمَنْ غدا بحالِ نوى عَمَّنْ يُحِبُّ فقد فَقَدَ
ومن أجل بُعْدِي من^(٤) ديارِ الْفَتْها جحيمِ فؤادي قد تَلْظَى وقد وَقَدَ
وحكي أن ذا الوزارتين المترجم، لما اجتمع مع الفقيه الكاتب ابن أبي مدين،
أنشده ابن أبي مدين^(٥): [الطويل]

عَشِيقَتُكُمْ بالسَّمعِ قبل لِقائِكُمْ وَسَمِعُ الفتى يَهْوَى لِعَمْرِي^(٦) كَطَرْفِهِ
وحببني ذكْرُ العجّيسِ إليكم فلَمَّا التَقِينَا كُنْتُمْ فَوْقَ وَضْفِهِ
فأنشده ذو الوزارتين ابن الحكيم قوله^(٧): [البسيط]

ما زِلْتُ أَسْمَعُ عن عَليّكَ كلَّ سَناءٍ أبهى من الشمس أو أجلى من القمرِ
حتى رأى بَصْرِي فوق الذي سَمِعْتُ أذني فوقَ بَيْنِ السَّمْعِ والبصرِ
ومن نظمه مما يكتب على قوس^(٨): [الكامل]

أنا عُدَّةٌ للدين في يَدِ مَنْ غدا لله مُنْتَصِراً على أعدائِهِ
أحكي الهلالَ وأَسْهُمي في رَجْمِها لمن اعتدى تحكي رجوم^(٩) سماءِهِ
قد جاء في القرآن أني عُدَّةٌ إذ نَصَّ خيرُ الخلق مُخَكِّمَ آيِهِ
وإذا العدوُ أصابه سهمي فقد سَبَقَ القضاءُ بهلكه وفنائِهِ

(١) البيتان في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٦).
(٢) في النفع: «بالعراق».
(٣) البيتان في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٧).
(٤) في النفع: «عن».
(٥) البيتان في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٧).
(٦) في الأصل: «لعمري»، والتصويب من النفع.
(٧) البيتان في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٧).
(٨) الآيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٩ - ٥٠).
(٩) في النفع: «نجوم».

ومن^(١) توقيعه ما نقلته من خط ولده أبي بكر في كتابه المسمى بـ «الموارد المستعذبة»، وكان^(٢) بمدينة وادي آش الفقيه الكذا أبو عبد الله محمد بن غالب الطريفي، فكتب^(٣) يومًا إلى الشيخ خاصة والذي^(٤) أبي جعفر بن داود، قصيدة طويلة على روي السنين، يشتكي^(٥) فيها من جَوْر^(٦) مشرف بلدهم إذ ذاك أبي القاسم بن حسان، منها: [البسيط]

فيا صَفِيَّ أبي العباس، كيف ترى وأنت كيُس^(٧) من فيها مِن أَكْيَاسٍ
ولَّوه إن كان مَمَّنْ ترتضون به فقد دنا الفتحُ للأشراف في فاسٍ
ومنها يستطر ذكر ذي الوزارتين، رحمه الله:

للشرق فضلٌ منه أشرقَتْ شُهْبُ من نورهم أَقْبَسُونَا كلَّ مِقْبَاسٍ
فوق عليها رحمة الله تعالى عليه ورضوانه^(٨): [البسيط]

إن أَفْرَطْتُ بَابَن حَسَّانِ غَوَائِلُهُ فالأمر يكسوه ثوبُ الذَّلِّ والياس^(٩)
وإن تَزِلْ به في جَوْرِهِ قَدَمٌ كان الجزاءُ له ضربًا على الرأسِ
فقد أقامني المولى بنعمته لبثُ أحكامه بالعدل في الناس

كتابته: وهي مرتفعة عن نمط شعره، فمن ذلك رسالة كتبها عن سلطانه في فتح مدينة قيجاطة^(١٠):

من الأمير فلان، أيده الله ونصره، ووفقه لما يحب حتى يكون ممن قام بفرض الجهاد ونشره. إلى ابننا الذي نمنحه الحُبَّ والرضى، ونسأل الله أن يهبه الخلال التي تُستحسن والشيم التي تُرتضى، الولد الأتجب، الأرضى، الأنجد، الأزشد، الأشعد، محمد، وإلى الله تعالى إسماعده، وتولى بالتوفيق والإرشاد سَدَّاده،

(١) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٥٠).

(٢) في النفع: «وكان بوادي آش الفقيه الطريفي».

(٣) في النفع: «فكتب إلى خاصة والذي أبي جعفر».

(٤) في الأصل: «والذي وخاصة أبي...»، والتصويب من النفع.

(٥) في النفع: «يشتكى».

(٦) كلمة «جور» غير واردة في النفع.

(٧) في النفع: «أكيس».

(٨) كلمة «ورضوانه» غير واردة في النفع.

(٩) في النفع: «ثوب الذكر والباس».

(١٠) قيجاطة، بالإسبانية Quesada: مدينة من أعمال ولاية جيان. الإحاطة (ج ٢ ص ٤٦٥)

وأطلع عليه من أنباء الفتوح المُبَشِّرة بالنصر الممنوح ما يكمل من بُغيته في نصر دين الإسلام ويُسني مراده.

أما بعد حمد الله، الذي جعل الجهاد في سبيله أفضل الأعمال، الذي يقربه إلى رضاه، وندب إليه بما وعد من الثواب عليه، فقال: يا أيها النبي، حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ، تَنْبِيْهَا عَلَى مَحَلِّ الثِّقَةِ، بِأَنَّ الْفِتْنَةَ الْقَلِيلَةَ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، تَغْلِبُ الْفِتْنَةَ الْكَثِيرَةَ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَتُدَارِكُ دِينَ الْإِسْلَامِ بِإِنْجَازِ وَعْدِهِ فِي قَوْلِهِ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، عَلَى رَغْمِ أَنْفٍ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ خَاذِلُهُ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ خِذْلَانِ جَنْدِهِ. وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ وَمُجْتَبَاهِ، لِهَدَايَةِ الْخَلْقِ لِسَبِيلِ الْحَقِّ، وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهِ. قَالَ تَعَالَى فِيمَا أَنْزَلَ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾^(١) تحريضاً على أن يمحوا ظلام ضلالهم بنور هداه ﷺ، وعلى آله الأبرار، وأصحابه الأشداء على الكفار، الذين جرّدوا في نُصْرَةِ دِينِهِ صَوَارِمَ الْعِزِّ وَأَمْضُوا ظُبَاهُ، وَفَتَحُوا مَا رَوَى لَهُ مِنْ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا حَتَّى عَمَّ الْإِسْلَامُ حَذَّ الْمَعْمُورِ وَمُنْتَهَاهُ. فَلَمَّا كَتَبْنَا لَكُمْ، كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ سَمَاعِ الْبَشَائِرِ مَا يَعُودُ بِتَحْوِيلِ الْأَحْوَالِ، وَأَطْلَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَتْوحِ مَا يُلَوِّحُ بِآفَاقِ الْأُمَمِ، مُبَشِّرًا بِالْيَمْنِ وَالْإِقْبَالِ. مِنْ قِيَجَاظَةٍ، وَبِرَكَاتِ ثِقَتِنَا بِاللَّهِ وَحْدِهِ، تُظْهِرُ لَنَا عَجَائِبَ مَكْنُونَاتِ لَطَافِهِ، وَتَجَنِّينَا ثَمَارَ النَّصْرِ فِي إِيَّانِ قِطَافِهِ، وَتُسَخِّرُ لَنَا وَزِدَ مَشْرِعِ الْفَتْحِ فَتْرَدَ عَذْبُ نِطَافِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لَأَنْ نَتَّقِلَ نَجَادَهَا، وَنَمْتَطِي جَوَادَهَا، وَنُسْتَوِرِي زَنَادَهَا، وَنُسْتَفْتِحَ بِهَا مَغَالِقَ الْمَآرِبِ، وَلَطَائِفَ الْمَطَالِبِ، حَتَّى دَخَلْتَ الْمَلَّةَ الْحَنِيفِيَّةَ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ أَغْوَارَهَا وَأَنْجَادَهَا. وَقَدْ^(٢) تَقَرَّرَ عِنْدَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ، مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَاشْتَهَرَ فِي جَمِيعِ^(٣) الْأَقْطَارِ اشْتِهَارُ الصَّبْحِ فِي سَوَادِ الظَّلَامِ، أَنَّا لَمْ نَزَلْ نَبْدُلْ جُهْدَنَا فِي أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَنُسَمِّحَ فِي ذَلِكَ بِالنَّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ رَجَاءَ ثَوَابِ اللَّهِ لَا لَغَرَضٍ^(٤) دُنْيَا. وَأَنَا مَا قَصَّرْنَا فِي الْاسْتَنْصَارِ وَالْاسْتِيفَارِ^(٥)، وَلَا قَصَّرْنَا^(٦) عَنِ الْاعْتِضَادِ لِكُلِّ مَنْ أَمَلْنَا مَعُونَتَهُ^(٧) وَالْاسْتَظْهَارِ، وَلَا اِكْتَفَيْنَا بِمُطَوَّلَاتِ الرِّسَالِ وَبِنَاتِ الْأَفْكَارِ، حَتَّى اقْتَحَمْنَا بِنَفُوسِنَا لُجَجَ الْبَحَارِ، وَسَمَخْنَا بِالطَّارِفِ مِنْ أَمْوَالِنَا وَالتَّلَادِ، وَأَعْطَيْنَا رَجَاءَ نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ مَوْفُورَ الْأَمْوَالِ وَالْبِلَادِ، وَاشْتَرَيْنَا بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْنَا مَا قَرَضَ اللَّهُ عَلَى كَافَّةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْجِهَادِ، فَلَمْ

(١) سورة التوبة ٩، الآية ١٢٣.

(٢) من هنا حتى قوله: «إلى بلوغ الأمانة والمأمول» وارد في نفع الطيب (ج ٣ ص ٣٦٦ - ٣٦٧).

(٣) في النفع: «آفاق». (٤) في النفع: «لا لغرض الدنيا».

(٥) في النفع: «في الاستنفار والاستنصار». (٦) في النفع: «ولا أقصرنا».

(٧) في النفع: «معاملته».

يكن بين تلبية المدعو وزهده، وبين قبوله وردّه، إلّا كما يخسّر الطائر ماء الثماد ويأبى الله أن يكل نصر^(١) هذه الجزيرة إلى سواء، وأن يجعل فيها سبباً إلّا لمن أخلص لوجهه الكريم علانيته ونجواه. ولما أسلم الإسلام بهذه الجزيرة الغربية إلى مثاويه^(٢)، وبقي المسلمون يتوقعون حادثاً ساءت ظنونهم لمباديه، ألقينا إلى الثقة بالله تعالى وحده يد الاستسلام، وشمرنا عن ساعد الجد والاجتهاد^(٣) في جهاد عبدة الأصنام، وأخذنا بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٤) أخذ الاعتزام، فأمدنا الله تعالى بتوالي البشائر، ونصرنا بالطفاف أغنى فيها خلوص الضمائر عن قواد^(٥) العساكر، ونقلنا^(٦) على أيدي قوادنا ورجالنا من السبايا والغنائم ما عدّ^(٧) ذكره في الآفاق كالمثل السائر ﴿وَلِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾^(٨)، وكيف يخصصها المحصي أو يخصرها الحاصر. وحين أبدت لنا العناية الربانية وجوه الفتوح^(٩) سافرة المحيّا، وانتشفتنا نسيم^(١٠) النصر الممنوح عبق الرّيا، استخرنا الله تعالى في الغزو بأنفسنا^(١١) ونعم المستخار، وكتبنا إلى من قرب من عمالنا^(١٢) بالحض على الجهاد والاستيفار. وحين وافى من خف للجهاد من الأجناد والمطوّعين، وعدّوا بحكم رغبتهم في الثواب على طاعة الله مجتمعين، خرجنا بهم ونصر الله تعالى أهدى دليل، وعناية الله بهذه الفئة المفردة من المسلمين، تقضي بتقريب البعيد من آمالنا، وتكثير القليل. ونحن نسأل الله تعالى أن يحملنا على جادة الرّضا والقبول، وأن يرشدنا إلى طريق يقضي^(١٣) إلى بلوغ الأمنية والمأمول^(١٤)، إلى أن خللنا عشية يوم الأحد ثاني يوم خروجنا بمقربة حصن اللّوة فأدزنا به التدبير، واستشرنا من أوليائنا من تحققنا نصحه فيما يشير، فافتضى الرأي المقترن بالرّشاد، المؤذن بالإسعاد، قصد قيجاطة لما رجي من تيسير فتحها، وأملا في إضاءة فجر الأمانى لديها، وبيان صُبْحها، فسرنا نحوها في جيش يجرّ على المَجْرَة ذيل النقع المثار، ويضيق عن كثرته واسع الأقطار، ويقرّ عين الإسلام بما اشتمل عليه من الحُماة والأنصار، تطير بهم نياتهم بأجنحة العزم إلى

(١) في النفع: «نصرة الإسلام بهذه الجزيرة إلى سواء، ولا يجعل فيها شيئاً إلّا...».

(٢) في النفع: «مثاويه».

(٣) كلمة «والاجتهاد» ساقطة في النفع.

(٤) سورة البقرة ٢، الآية ١٩٥.

(٥) في النفع: «قود».

(٦) في الأصل: «ونقلنا» والتصويب من النفع. ونقل القائد جُدّه: أعطاهم ما غنموه. لسان العرب (نقل).

(٧) في النفع: «ما غدا».

(٨) في النفع: «الفتح».

(٩) في النفع: «بنفسنا».

(١٠) في النفع: «نفسنا».

(١١) في النفع: «نفسنا».

(١٢) في النفع: «نفسنا».

(١٣) في النفع: «نفسنا».

(١٤) في النفع: «نفسنا».

(٨) سورة إبراهيم ١٤، الآية ٣٤.

(١٠) في النفع: «نائم».

(١٢) في النفع: «أعمالنا».

(١٤) لأنها ينتهي النص في النفع.

قبض أرواح الكفار. فلما وصلنا إلى وادي على مقربة منها نزلنا به نريح الجياد، ونكمل التأهب للقتال والاستعداد، وبات المسلمون ليلتهم يسألون الله تعالى بأن يمنحهم الإعانة بتأييده والإمداد. وحين فجر الفجر وأنار النهار، وقدحت به الأصباح زُند الأنوار، ركبنا إليها والعساكر قد انتظمت عقودها، والسيوف قد كادت تلفظها غمودها، وبصائر الأولياء المجاهدين قد لاح من نصر الله تعالى معهودها. فلما وصلناها وجدنا ناسنا قد سَبَقُوا إليها بالبُوس، وهَتَكُوا سِتْرَ عِصْمَتِهَا المحروس، وأُذِنَ لها بزوال النعم وذهاب النفوس، فعاجلها الأولياء بالقتال، وأهدوا إليها حُمر المنايا من رُزق النُصَال، ورَشَقُوا جنودها بالنِّبال، وجَدُّوا بنات الآجال، فلما رأوا ما لا طاقة لهم به لاذوا بالفرار من الأسوار، وولَّوا الأدبار، وودَّعوا الديار وما فيها من الآثار. وتَسَنَّم المسلمون ذِوَةَ البلد الأول فملكوه، وخَرَقُوا حِجَاب السُّتْرِ المسدول عليه وَهَتَكُوهُ، وتسرعوا إلى البلد الثاني وقد ملأ النصارى أسواره من حُماة رجالهم، وانتقوهم من مُتَخَيَّرِي أبطالهم، ممن وثقوا بإقدامه في حماية ضلالهم، فحمل عليهم المسلمون حَمْلَةَ عَرَفُوهم بها كيف يكون اللقاء، وصَرَفُوهم إلى ما تنصرف إليه أرواحهم من الشُّقاء، وأظهروا لهم من صدق العزائم ما علموا به أن لدين الإسلام أنصارًا لا يرغبون بأنفسهم عن الذُّبِّ عنه وحماية راياته، ولا يَصُدُّون إلا إلى طاعة الله ابتغاء مُرضاته. وبادر جماعة إلى إضرام باب المدينة بالنيران، وعقدوا تحت سماء العجاج منها سماء الدُّخان، ورموا النصارى من النِّبال بِشُهَب تتبع منهم كل شيطان. فهزم الله النصارى، وولوا أدبارهم، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فأخْلَوْا بروجهم وأسوارهم، وتَسَنَّمها المسلمون مُغلنين شعار الإسلام، رافعين من الرايات الحُمر كواكب في سماء السُّعادة تُبَشِّر بتيسير كل مرام. ودخلوا المدينة فآلفوا بها من القُوت والعتاد، والمتاع الفاخر الذي يربو على التُّعداد، ما ملأ كلَّ يمين وشمال، وظهروا عليها بعد بلوغ الأمانى على الكمال، وقتلوا بها من الحُماة أعداء أبدوا في حماية ضلالهم ماضي الفِنا والاعتزام، وأعملوا فيهم ماضي العوامل وشبا الإضرام. وارتفع النصارى إلى القُصبة لائذين بامتناعها، مُغتصمين بعلُوها وارتفاعها، مُتَخَيِّلِينَ لضلالهم، وعدم استبصارهم أن نور الهدى لا يحلُّ بديارهم. فرأينا أن نُرقي الرجال إلى أبراج البلد وأسواره، وأمرناهم أن يبيتوا طول ليلتهم مُضَيِّقِينَ على مَنْ اعتصم بالقُصبة في حصاره، وعَمَدنا بالعسكر المظفر إلى موضع استيطانه من المحلة المنصورة واستقراره. فلما بدا ضوء الصباح بنور الإشراق، ولاح وجه الغزالة طارحًا شعاعه على الآفاق، أمرنا بترتيب العساكر على القُصبة للحصار، وعيَّنَّا لكل جماعة منهم جهةً يبادرون إلى منازلها بالقتال أشدَّ البدار، فانتهى المسلمون من ذلك إلى غاية لم تَخْطُر

للكافرين ببال، وجزعوهم كؤوس المنايا، وأداروا بها بنات الحنايا، فأفضت السجبال وأظهر الكفار، مع وقوعهم في بحر الموت صبرًا وطمعوا أن يقيموا بذلك لصلبانهم عُذْرًا. فلما رأوا من عَزَمنا ما لم تتخيله ظنوثهم وأوهامهم، وصابروهم المسلمون عند النزال مصابرةً عَظُم فيها إقدامهم وثَبَّتْ أقدامهم، ألقوا بأيديهم إلى التهلكة إلقاءً من هاله لَمعان الأسيئة واهتزاز رُدِّيَّيات القنا، ولاذوا بطلب الأمان ليأذ الغريق بالساحل بعد ما أشرف على الفناء، وهبط زعيمهم مقتحمًا خطر تلك المسالك، متضرعًا تضرع من طمع في الحياة بعد ما أخذته أيدي المهالك، وشرط أن يُملَكنا القصبه، ويبقى خديمًا لنا بما بيده من البلاد الكثيرة والكثيية المنتخبة، فلم يظهر له عند ذلك قَبُولًا، ولم نجعل له إلى تكميل ما رغب فيه سبيلًا، فقاده البأس الشديد إلى الإذعان، ورغب أن يُكمل ما نريده على شرط الأمان. فاستعفنا رغبته على شروط، بَعَدَ عَهْدُ المسلمين بمثلها، وهَيَّئْتُ الأسباب بما نعتده من الثقة بالله وحده في أمورنا كلها، وذلك على كذا وكذا. وحين كَمُلْتُ الشروط حقَّ التكميل، وظهرت لنا منه أمارات الرِّفَاء الجميل، دخلنا القصبه حماها الله، وقد أغنى يوم النصر عن شَهْرِ السلاح، كما أغنى ضوء الصبح عن نور المصباح، ورَفَعْتُ على أبراجها حُمُر الأعلام، ناطقةً عن الإسلام، بالتعريف والإعلام. وفي الحين وجهنا من يَقْبِضُ تلك الحصون، ويُزِيل ما بها من جُزْم الكفر المأفون، أمناء رجالنا. فالحمد لله على هذه النعمة التي أحدثت للقلوب استبشارًا، وخَفَضَتْ عَلم التلثيت ورفعت للتوحيد منارًا، وأظهرت للملة الحنيفية على أعدائها اعتلاءً واستكبارًا. وهذا القدر من الفتح وإن كان سامي الفخر، باقي الذكر بقاء الدهر، فإننا لنترجو من فضل الله أن يُتْبِعَهُ بما هو أعلى منه منانةً، وأعظم في قلوب أهل الإيمان موقعًا وأعز مكانة، وأن يرغم بما يظهر على أيدينا من عز الإسلام، أنف من أظهر له عنادًا وخذلانًا. فاستبشروا بهذا الفتح العظيم وبشروا، واشكروا الله عليه، فواجب أن تشكروا. وقد كتبنا هذا، ونحن على عزمنا في غزو بلاد الكفار، والسعي الحميد إلى التنكيل بهم والإضرار، والمسلمون أعزهم الله في أرضهم يشنون المغار، ويمتلكون الأنجاد منها والأغوار، ويكثرون القتل والأسار، ويُحَكِّمون أينما نزلوا السيف والنار، والسلام.

ومن نثر آخر إجازة ما صورته^(١):

(١) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٥) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٤٦ - ٣٤٧)، وفي الأزهار يخاطب ابن الجياب الشيخ أبا علي عمر الجراوي.

وما أنا أجري منه^(١) على حُسنِ مُعْتَقْدِهِ، وأَكْلِهِ في هذا الغرض إلى ما رآه بمقتضى توّده، وأَجِيزُ له ولولديه، أقرّ الله بهما عَيْنَهُ، وجمع بينهما وبينه، رواية جميع ما نقلته وحملته^(٢)، وحُسنُ اطلاعه يُفَضِّلُ من ذلك ما أجمَلْتُهُ، فقد أَطْلَقْتُ لهم الإذن في جميعه، وأَبَحْتُ لهم الحَمْلَ عني ولهم الاختيار في تنويعه. والله سبحانه وتعالى^(٣) يُخَلِّصُ أعمالنا لذاته، ويجعلها في ابتغاء مَرْضَاتِهِ. قال هذا^(٤) محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم حامداً لله عزّ وجلّ، ومصلّياً ومسلماً.

وفاته: قُتِلَ، رحمه الله، صَبِيحَةَ عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمئة^(٥)، وذلك لتاريخ خلع سلطانه. واستولت^(٦) يد الغوغاء على منازله، شغلهم بها مَدَبُّرُ الفتنة خيفةً من أن يعاجلوه قبل تمام أمره، فضاع بها مال لا يُكْتَبُ، وعُروضُ لا يُعْلَمُ لها قيمة من الكُتُبِ، والدُّخيرة والفرش والآنية والسلاح والمتاع والخُرُثِي، وأُخْفِرَتْ ذِمَّتُهُ^(٧)، وَتُعَدِّي به عُدوة القتل إلى المَثَلَةِ^(٨)، وقانا الله مصارع السوء، قَطِيفَ بَشْلُوهِ، وانتَهَبَ فضاع ولم يُقْبِرْ، وجرت فيه شناعة كبيرة، رحمه الله تعالى.

مولده: بُرُنْدَةٌ ظهر يوم الاثنين الحادي والعشرين من ربيع الأول المبارك، من عام ستين وستمئة. وممّن رثاه شيخنا أبو بكر بن شُبْرِينَ رحمه الله تعالى بقوله^(٩):
[الطويل]

سَقَى الله أَشْلَاءَ كَرُمْنَ على البلى	وما غَضُّ من مقدارها حادثُ البَلا
ومِمَّا شَجَانِي أَنْ أَهِيَنَ مَكَائِهَا	وأَهْمَلُ قَدَرُ ما عهدناه مُهْمَلَا
ألا أَضْنَعُ بها يا ذَهْرُ ما أنت صانع	فما كنتَ إِلَّا عَبْدُهَا المُتَذَلِّلَا
سَفَكْتُ وما كان الرُّقُوءُ نَوَالَهُ	لقد جِئْتُهَا ^(١٠) شُعَاءَ فاضِحَةِ المَلَا

- (١) في المصدرين: «معه».
- (٢) في أزهار الرياض: «والله عزّ وجلّ يخلص...».
- (٣) في الأزهار: «قال هذا وكتبه محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمد اللخمي بن الحكيم، عفا الله عنه، حامداً لله عزّ وجلّ، ومصلّياً على رسوله المصطفى، ومسلماً عليه وعلى آله، في منتصف جمادى الآخرة عام ثلاثة وسبعمئة».
- (٤) كذا جاء في نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٦٧). (٦) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٥٠ - ٥١).
- (٧) أُخْفِرَتْ ذِمَّتُهُ: نقضت عهوده ولم تحفظ حرمة. لسان العرب (خفر).
- (٨) المَثَلَةُ: التمثيل بالقتل. لسان العرب (مثل).
- (٩) القصيدة في نفح الطيب (ج ٨ ص ٨٥ - ٨٧).
- (١٠) في النفع: «جئتها».

بَكْفِي سَبَبْتِي أَرْقِي الْعَيْنِ مُطْرِقٌ^(١)
لِنَعْمَ قَتِيلُ الْقَوْمِ فِي يَوْمِ عِيدِهِ
أَلَا إِنَّ يَوْمَ ابْنِ الْحَكِيمِ لَمْثُكِلٌ
فَقَدْنَاهُ فِي يَوْمٍ أَغْرَ مُحَجَّلٌ
سَمَتْ نَحْوَهُ الْأَيَّامُ وَهُوَ غَمِيدُهَا
تَعَاوَزَتِ الْأَسْيَافُ مِنْهُ مَمْدَحًا
وَحَاتَتْهُ رِجْلٌ فِي الطَّوَافِ بِهِ سَعَتْ
وَجَدَلَتْ لَمْ يَخْضُرْهُ فِي الْحَيِّ نَاصِرٌ
يَدُ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْأَدِيمِ مُمَزَّقًا^(٢)
وَمِنْ حَزَنِي أَنْ لَسْتُ أَعْرِفُ مَلَحْدًا
رَوَيْدَكَ يَا مَنْ قَدْ غَدَا شَامِتًا بِهِ
وَكُنَّا نُغَادِي أَوْ نُرَاوِحُ بِأَبِهِ
ذَكَرْنَاهُ يَوْمًا فَاسْتَهَلَّتْ جَفُونُنَا
وَمَارَجَ مِنْهُ الْحُزْنَ طَوْلَ اعْتِبَارِنَا
وَهَاجَ لَنَا شَجْوًا تَذَكُّرُ مَجْلِسِ
بِهِ كَانَتْ الدُّنْيَا تُؤَخِّرُ مُذْبِرًا
لِتَبْكِي عَيُونُ الْبَاكِيَاتِ عَلَى فَتَى
عَلَى خَادِمِ الْأَثَارِ تُثْلِي صَحَائِحَا
عَلَى عَضْدِ الْمُلْكِ الَّذِي قَدْ تَضَوَّعَتْ

عَدَا فَعْدَا فِي غَيْهِ مُتَوَغَّلَا
قَتِيلٌ تُبْكِيهِ الْمَكَارِمُ وَالْعُلَا
فَوَادِي، فَمَا يَنْفَكُ مَا عَشْتُ مُثْكَلَا
فَفِي الْحَشْرِ نَلْقَاهُ أَغْرَ مُحَجَّلَا
فَلَمْ تَشْكِرِ النُّعْمَى وَلَمْ تَحْفَظِ الْوَلَا
كَرِيمًا سَمَا فَوْقَ السَّمَائِينَ مَثْرَلَا^(٣)
فَنَاءً بِصَدْرِ الْعُلُومِ تَحْمَلَا
فَمَنْ مُبْلَغُ الْأَحْيَاءِ أَنْ مَهْلَهَلَا^(٤)
تُبَارِكُ مَا هَبَّتْ جَنُوبًا وَشَمَالَا
لَهُ فَارَى لِلشُّرْبِ مِنْهُ مَقْبَلَا
فَبِالْأَمْسِ مَا كَانَ الْعِمَادَ الْمُؤَمَّلَا
وَقَدْ ظَلَّ فِي أَوْجِ الْعُلَا مُتَوَقَّلَا^(٥)
بِدَمْعٍ إِذَا مَا أَمَحَلَّ الْعَامَ أَخْضَلَا
وَلَمْ تَذَرِ مَاذَا مِنْهُمَا كَانَ أَطْوَلَا
لَهُ كَانَ يُهْدِي الْحَيِّ وَالْمَلَأَ الْأَلَى
مَنْ النَّاسِ حَثْمًا أَوْ تُقَدِّمُ مُقْبَلَا
كَرِيمٍ إِذَا مَا أَسْبَغَ الْعُرْفَ أَجْزَلَا
عَلَى حَامِلِ الْقُرْآنِ يُثْلِي مَفْضَلَا
مَكَارِمُهُ فِي الْأَرْضِ مِسْكًا وَمَثْدَلَا

(١) السَّبَبْتِي: النمر. محيط المحيط (سبت). وصدر هذا البيت عجز بيت من قصيدة تنسب إلى جزء بن ضرار، أخي الشماخ، قاله في عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، والبيت هو: [الطويل]

وما كنت أخشى أن تكون وفاته
طبقات ابن سلام (ص ١١١).

(٢) في النسخ: «مزحلاً».

(٣) إشارة إلى قول الشاعر في مهلهل بن ربيعة: [الكامل]

من مبلغ الحيين أن مهلهلاً
أضحى قتيلاً في الفلاة مجندلاً
هذا من قول جزء بن ضرار: [الطويل]

عليك سلام من أمير وباركث
يد الله في ذاك الأديم الممزق
الشعر والشعراء (ص ٢٣٥).

(٥) متوقلاً في أوج العلا: صاعداً فيه. لسان العرب (وقل).

على قاسم الأموال فينا على الذي
وأنى لنا من بعده مُتَعَلِّلٌ
ألا يا قصيرَ العُمرِ يا كاملَ العُلا
يسوءُ المُصَلَّى أن هَلَكْتَ ولم تُقَمْ
وذاك لأنَّ الأمرَ فيه شهادةٌ
فيا أيها المَيِّتُ الكريمُ الذي قضى
لِتَهْنِكَ^(١) من ربِّ السماء شهادةٌ
رثيتك عن حبِّ ثوى في جوانحي
ويا ربَّ من أوليته منك نعمةٌ
تناساك حتى ما تَمُرُّ بباله
يرابضُ في مَشْواك كلَّ عَشِيَّةٍ
لَحَى الله من ينسى الأذمةَ رافضاً
حنائيك يا بذرَ الهدى فَلَسَدٌ ما
وكنْتَ لآمالي حياةً هنيئةً
فلا وأبيك الخيرِ ما أنا بالذي
فأنت الذي آوَيْتَنِي مُتَغَرِّباً
فإن لم أُنلْ منك الذي كنتُ آملاً
فأليكَ لا ينفكُ قلبي مُكَمِّداً

وضغنا لديه كلُّ إضرٍ على عَلا
وما كان في حاجاتنا مُتَعَلِّلا
يمينا لقد غادرتُ حُزناً مؤثلاً
عليك صلاةٌ فيه يشهدُها المَلا
وسُئْتُها محفوفةً لن تُبَدَّلا
سعيداً حميداً فاضلاً ومُفَضَّلاً
تُلاقِي بِبُشْرَى وَجْهِكَ المُتَهَلِّلاً
فما وَدَّعَ القلبُ العميدُ وما قَلا^(٢)
وكنْتَ له دُخْراً عتيذاً وموئلاً
ولم يَذْكُرْ^(٣) ذاك الندى والتَفَضُّلاً
صَفِيفَ شِواءٍ أو قديداً^(٤) مُعْجِلاً^(٥)
ويُذْهِلُ مهما أصبح الأمرُ مُشْكِلاً
تركتُ بُدُورَ الأفق بعدك^(٦) أَقْلاً
فغادرتُ مني اليوم قلباً مُقَتَّلاً
على البُعْدِ يَنسَى من ذِمَامِكَ ما خلا
وأنت الذي أكرمتني مُتَطَفِّلاً
فما كنتُ إلا المُحْسِنُ المُتَفَضِّلاً^(٧)
عليك ولا ينفكُ دمعي مُسْبِلاً

محمد بن عبد الرحمن العقيلي الجراوي

من أهل وادي آش، وسكن غرناطة.

- (١) في الأصل: «لِتَهْلَ» والتصويب من النسخ.
(٢) هذا من قول الله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَّ﴾ [الضحى: ٣].
(٣) يَذْكُر: يتذكر. محيط المحيط (ذكر). (٤) في النسخ: «قديراً».
(٥) أخذه من قول امرئ القيس في معلقته: [الطويل]
وظلَّ طُهاةَ اللحمِ من بَيْنِ مُنْصِجٍ
ديوان امرئ القيس (ص ٢٢).
(٦) في الأصل: «بعد» والتصويب من النسخ.
(٧) هذا البيت غير وارد في نفع الطيب.

حاله : فقيه أديب مُتَطَبِّب، متفنن في علوم جمّة، شاعر مطبوع، يكتنى أبا بكر.
مدح الأمير علي بن يوسف اللمتوني بقوله : [مجزوء الكامل]

رحلوا الركائب موهنا فأذاع عَرْفُهُمُ السَّنا
والخَلِي قد أغرى بهم لَمَّا تَرْتُمُ مُغْلنا
كم حفّ حول جماهم من كلّ خطّار القنا

قال أبو جعفر بن الزبير، ينفك منها قصائد : [الكامل]

رحلوا الركاب موهنا ليكتّموا ظَفَنَ الحُمُول وهل تُوارى الأتْجُم؟
فأذاع سرُّهُمُ السَّنا ورمى بهم فلّ الذمّيل شذاهمُ المُتَنَسِّمُ
كم حفّ حمل قبابهم وركابهم من ليث غاب في برائنه الدّم
من كل خطّار القناة ممّوه بين الرحيل نَصْبُهُ يستسلم

وهي طويلة، خاطب بها أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين. وقال في وصف القصيدة : [الطويل]

أيا ملكًا يسمو بسفد مُساعد وقَدِّر على علو الكواكب صاعد
نظمت قصيدًا في عُلاك مُضْمُنًا ثلاث قوافٍ في ثلاث قصائد
إذا فُصِّلَتْ أغنى عن البعض بعضها وإن وُصِّلَتْ كانت ككعبٍ وساعد

فأجازه بظهير كريم بتحرير ماله وتنويهه.

محمد بن عبد الرحمن المتأهل

من أهل وادي آش، يعرف بعمامتي.

حاله : من التاج : ناظم أبيات، وموضح عُرر وشيات، وصاحب توقيعات رفيعات، وإشارات ذوات شارات. وكان شاعرًا مكشّارًا، وجوادًا لا يخاف عثارًا. أدخل على أمير بلده المخلوع عن ملكه، بعد انتشار سُلْكه، وخروج الحضرة عن ملكه، واستقراره بوادي آش، مروع البال، معللًا بالآمال، وقد بلغه دخول طبرنش في طاعته، فأنشده من ساعته : [مجزوء الكامل]

خُذْها إليك طبرنشا شَفَّعُ بها وادي الأشا
والأمّ تتبع بنتها والله يفعل ما يشا

ومن نوادره العذبة يطلب خطة الحسبة : [الطويل]

أبْلَنْي يا خَيْرَ البريّة خُطّة تُرَفِّعُنِي قَدْرًا وتكسبني عزّا

فأعترز في أهلي كما اعترز بندق على سُفرة الشطرنج لما انثنى فرزا
فوقع الأمر بظهر رقعته ما ثبت في حرف النون عند ذكره، والاحتجاج
بفضله.

وفاته: كان حيًا بعد سنة سبع عشرة وسبعمئة. وفد على الحضرة مرات
كثيرة.

محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي^(١)

من أهل وادي آش، يكنى أبا بكر.

حاله: كان عالمًا، صَدْرًا، حَكِيمًا، فيلسوفًا، عارفًا بالمقالات والآراء، كلفًا
بالحكمة المشرقية، محققًا، متصوفًا، طبيبًا ماهرًا، فقيهاً، بارع الأدب، ناظمًا، ناثرًا،
مشاركًا في جملة من الفنون.

مشيخته: روى عن أبي محمد الرُّشَاطِي، وعبد الحق بن عطية وغيرهما.

حُظُوتُهُ ودخوله غرناطة:

اختصَّ بالرَّيس أبي جعفر، وأبي الحسن بن مَلْحَان. قال ابن الأبار في
تُحَفِّهِ^(٢): وكتب لوالي غرناطة وقتًا.

توالياً: رسالة حي بن يقظان، والأرجوزة الطبية المجهولة، وغير ذلك.

شعره: قال: وهو القائل من قصيدة في فتح قَفْصَةِ سنة ست وسبعين^(٣)،
وأُنْفِذَتْ إِلَى الْبِلَادِ^(٤): [الطويل]

ولما انقضى الفتح الذي كان يُرتجى	وأصبح حزب الله أغْلَبَ غَالِبِ
وأنجزنا وَغْدَ من الله صادق	كفيل بإبطال الظنون الكواذبِ
وساعدنا التوفيق حتى بيئت	مقاصدنا مشروحة بالعواقبِ
وأذعن من غلبا هلال بن عامر	أبي ولبي الأمر كل مجانبِ

(١) ترجمة ابن طفيل في المعجب (ص ٣١١) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٢٥) وعيون
الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٥٣٠) في ترجمة أبي الوليد بن رشد.

(٢) المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٢٥).

(٣) في الأصل: «وئسعين»، وقد صوّناه عن ابن عذاري؛ إذ روى أن الخليفة يوسف بن
عبد المؤمن الموحدى فتح قَفْصَةَ في شهر رمضان من عام ٥٧٦ هـ. البيان المغرب - قسم
الموحدين (ص ١٤١).

(٤) القصيدة في البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ١٤١ - ١٤٢).

وهبوا إذا^(١) هبّ النسيم كما^(٢) سرى
يُغصُّ بهم غرض الفلا وهو واسع^(٣)
كان بسيط الأرض خلقة خانم
ومد على حكم^(٤) الصغار لسلما
يُصرِّح بالرؤيا^(٥) وبين ضلوعه
وعى من لسان الحال أفصح خطبة
وأبصر مثن الأرض كفة حامل
أشرنا بأعناق الجياد إليكم
إلى بُقعة قد بين^(٨) الله فضلها
على الصفوة الأذنين منا تحية
وله أيضا^(١١): [الطويل]

ولم يتركوا بالشَّرق عُلقة آيب
وقد زاحموا الآفاق من كل جانب
بهم وجضم البحر بعض المذائب
يديه عظيم الروم في حال راغب
نفس مذعور ونفسرة راهب
وما^(٦) وضحت^(٧) عنه فصاح القواضب
عليه وإضراره في كف حالب
وعجبا عليكم من صدور الركائب
بمن حل فيها من ولي^(٩) وصاحب
توافيهم بين الصبا والجنايب

ألئت وقد نام الرقيب^(١١) وهوما
وراحت^(١٣) إلى نجد فرخت متجدا
وجرت على ثوب المخصب^(١٤) ذيلها
تناقله^(١٥) أيدي الثجار^(١٦) لطيمة
ولما رأت أن لا ظلام يجتثها
سرت^(١٨) عذبات الرئيط عن خر وجهها

وأسرت إلى وادي^(١٢) العقيق من الحمى
ومرت بثعمان فأضحى منغما
فما زال ذاك الشرب نهبا مقسما
ويحملة الداري^(١٧) إيان يما
وأن سراها فيه لن يتكتما
فأبدت شعاعا يرفع اليوم مظلما^(١٩)

(١) في البيان المغرب: «كما».

(٢) في البيان المغرب: «... عرض الفيافي وطولها».

(٣) في البيان المغرب: «رغم».

(٤) في الأصل: «ما» وهكذا ينكسر الوزن.

(٥) في البيان المغرب: «يمن».

(٦) القصيدة في المعجب (ص ٣١٢ - ٣١٣) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٢٥ - ١٢٦).

(٧) في المعجب: «المشيح».

(٨) في الأصل: «وأسرت الوادي...» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين السابقين.

(٩) في الأصل: «وراح»، والتصويب من المقتضب.

(١٠) في الأصل: «المخصب»، والتصويب من المصدرين.

(١١) في المعجب: «تناوله».

(١٢) في الأصل: «الدارين» والتصويب من المصدرين.

(١٣) في المعجب: «نصت».

(١٤) في المعجب: «فأبدت مَحْيَا يذهب المتوسما» وفي المقتضب: «... شعاعا يرجع الصبح».

(٢) في البيان المغرب: «إذا».

(٣) في البيان المغرب: «... عرض الفيافي وطولها».

(٤) في البيان المغرب: «رغم».

(٥) في الأصل: «ما» وهكذا ينكسر الوزن.

(٦) في البيان المغرب: «يمن».

(٧) في المعجب: «المشيح».

(٨) في الأصل: «وأسرت الوادي...» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين السابقين.

(٩) في الأصل: «وراح»، والتصويب من المقتضب.

(١٠) في الأصل: «المخصب»، والتصويب من المصدرين.

(١١) في المعجب: «تناوله».

(١٢) في الأصل: «الدارين» والتصويب من المصدرين.

(١٣) في المعجب: «نصت».

(١٤) في المعجب: «فأبدت مَحْيَا يذهب المتوسما» وفي المقتضب: «... شعاعا يرجع الصبح».

فَكَانَ تَجَلِّيَهَا حِجَابَ جَمَالِهَا
وَلَمَّا رَأَتْ زُفْرَ الْكَوَاكِبِ أَنَّهَا
بَكَتْ أَسْفًا أَنْ لَمْ تَفُزْ بِجَوَارِهَا
فَجَلَّتْ يَمُجُّ الْقَطَرِ رَيَّانٍ بُزْدَهَا
يَضُمُّ عَلَيْنَا الْمَاءَ فَضِلْ زَكَاتِهَا
وَيَفْتَقُ نَضِجَ الْغَيْثِ طِيبَ عَرْفِهَا
جَلَّتْ عَنْ ثَنَائِبَاهَا وَأَوْمَضَ بَرْقُهَا^(٢)
وَسَاعَدَنِي جَفْنُ الْغَمَامِ عَلَى الْبُكَاءِ
وَنَظَمَ سِمْطِي ثَغْرِهَا وَوَشَاحِهَا
تَقُولُ وَقَدْ أَلَمَمْتُ أَطْرَافَ كَمِّهَا
نَشْدُوكَ لَا يَذْهَبُ بِكَ الشُّوقُ مَذْهَبًا
فَأَقْصَرْتُ^(٤) لَا مُسْتَغْنِيًا عَنْ نَوَالِهَا

وقال^(٥): [الوافر]

أَتَذَكَّرُ إِذْ مَسَحْتُ بِفِيكَ عَيْنِي^(٦)
ذَكَرْتُ بِأَنْ رِيْقَكَ مَاءٌ وَرَدَّ
وقد حَلَّ الْبُكَاءُ فِيهَا عُقُودَةً
فَقَابَلْتُ الْحَرَارَةَ بِالْبُرُودَةِ

وقال: [الوافر]

سَأَلْتُ مِنَ الْمَلِيحَةِ بُرَّةً دَائِي
فَمَا زَالَتْ تُقْبِلُ فِي جَفُونِي
وَقَالَتْ إِنَّ طَرْفَكَ كَانَ^(٧) أَصْلًا
بَرَشَفٍ بَرُودِهَا الْعَذْبِ الْمَزَاجِ
وَتُبْهَرَنِي بِأَصْنَافِ الْجَجْجِاجِ
لِدَائِكَ فَلْيَقْدِّمْ فِي الْعِلَاجِ

وفاته: توفي بمراكش سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وحضر السلطان^(٨) جنازته.

= معلما.

(١) في الأصل: «كمل» وكذا يتكرر الوزن، ولا معنى له.

(٢) في المعجب: «بارق». (٣) في المعجب: «دمعا».

(٤) في المعجب: «فأمسكت».

(٥) البيان في المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٢٥).

(٦) في المقتضب: «ذمعي».

(٧) كلمة «كان» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم المعنى والوزن معًا.

(٨) السلطان هو المنصور أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي، وقد حكم المغرب والأندلس من سنة ٥٨٠ هـ إلى سنة ٥٩٥ هـ. ترجمته في البيان المغرب - قسم =

محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبيد الله
ابن عياش التُّجِيبِي البُرْشَانِي^(١)

من أهل حصن بُرْشَانَة المحسوب في هذه العِمالة، يكنى أبا عبد الله، كاتب الخلافة.

حاله: قال القاضي أبو عبد الله بن عبد الملك^(٢): كان كاتبًا بارعًا، فصيحًا، مُشرقًا على علوم اللسان، حافظًا للغات والآداب، جَزَلًا، سَرِيًّا الهمة، كبير المقدار، حسن الخلق، كريم الطباع^(٣)، نَفَاعًا بجاهه وماله، كثير الاعتناء^(٤) بطلبة العلم والسعي الجميل لهم، وإفاضة المعروف على قُصَّاده، مستعينًا على ذلك بما نال من الثروة والحُظوة والجاه عند الأمراء من بني عبد المؤمن، إذ كان صاحب القلم الأعلى^(٥) على عهد المنصور وابنه، رفيع المنزلة والمكانة لديهم، قاصدًا^(٦) الإعراب في كلامه، لا يخاطب أحدًا^(٧) في كلامه من الناس، على تفريق أحوالهم، إلا بكلام مُعَرَّب، وربما استعمله^(٨) في مخاطبة خُدُمته^(٩) وأمته، من حُوشِي الألفاظ، ما لا يكاد يستعمله^(١٠)، ولا يفهمه إلا حُفَظ اللغة من أهل العلم، عادة ألقاها واستمرت حاله عليها.

مُشِيخته: روى^(١١) عن أبي عبد الله بن حُميد، وابن أبي القاسم السُّهَيْلي، وابن حُبَيْش، وروى عنه بنوه أبو جعفر، وأبو القاسم^(١٢) عبد الرحمن، وأبو جعفر بن عثمان، وأبو القاسم البلوي.

= الموحدين (ص ١٧٠) والمعجب (ص ٣٣٦) والحلل الموشية (ص ١٢١).

(١) ترجمه ابن عياش في التكملة (ج ٢ ص ١١٦) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٣٨٤). والبرشاني: نسبة إلى بُرْشَانَة Purchena وهي عمل ألمرية، وهي حصن على مجتمع نهريْن، من أمنع الحصون. الروض المعطار (ص ٨٨) والتكملة (ج ٢ ص ١١٦).

(٢) الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٣٨٥). (٣) في الذيل والتكملة: «الطبع».

(٤) في المصدر نفسه: «الاعتبار».

(٥) في المصدر نفسه: «الأعلى عند المنصور منهم قابله الناصر، قابله المستنصر، رفيع...».

(٦) في المصدر نفسه: «عامدًا».

(٧) في المصدر نفسه: «أحدًا من أصناف الناس...».

(٨) في المصدر نفسه: «استعمل».

(٩) في الأصل: «قلمته» والتصويب من الذيل والتكملة.

(١٠) في الذيل والتكملة: «يستعمل».

(١١) النص في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٣٨٤ - ٣٨٥).

(١٢) في الأصل: «أبو القاسم، وعبد الرحمن» والتصويب من الذيل والتكملة.

تواليقه: له^(١) اختصار حسن في إصلاح المنطق، ورسائل مشهورة، تناقلها الناس، وشيخ يُحسِن في بعضه.

جاءه: حدث الشيخ أبو القاسم البلوي، قال^(٢): كنت أخف إليه^(٣)، وأشفع عنده في كبار المسائل، فيسرع في قضائها. ولقد عرّضت لبعض أصحابي من أهل بلاد الأندلس حاجةً مُهمّةً كبيرة، وجب عليّ السعي فيها، والتماس قضائها وفاء لربّها، ولم يكن لها إلا ما قدّرتُه من حسن نظره فيها، ورجوته من جميل أثره في تيسير أمرها، وكان قد أصابه حيثّذ التّياث لزم من أجله داره، ودخلت^(٤) عليه عائداً، فأطال السؤال عن حاله، وتبسّط معي في الكلام، مبالغة في تأنيسي، فأجلتُ ذكر الحاجة^(٥)، ورغبت منه في الشّفاة عند السلطان في شأنها، وكان مضطجعاً، فاستوى جالساً، وقال لي: جَهِلَ النَّاسُ قُدْرِي، وكُرِّرها ثلاثاً، في^(٦) مثل هذا أشفع إلى أمير المؤمنين؟ هات الدّواة والقرطاس، فناولته إياهما، فكتب برغبتي، ورفعني إلى السلطان، فصُرِفَ في الحين مُعلّماً، فاستدعاني، ودفعه إليّ، وقال: يا أبا القاسم، لا أرضى منك أن تُخجّم عني في التماس قضاء حاجة تعرّضت لك خاصة، وإن كانت لأحد من معارفك عامة، كُتِرَتْ أو صَغُرَتْ، فالتزم قضاءها، وعليّ الوفاء، فإن لكل مكسب^(٧) زكاة، وزكاة الجاه بذله.

وحدثني شيخني أبو الحسن بن الجيّاب، عمن حدّثه من أشياخه، قال: عرض أبو عبد الله بن عيَّاش والكاتب ابن القالمي على المنصور كتابين، وهو في بعض الغزوات، في كلب البرد، وبين يديه كاثون جَمْرٍ. وكان ابن عيَّاش بارع الخطّ، وابن القالمي ركيك، ويفضّله في البلاغة، أو بالعكس الشكّ مني. وقال المنصور: أي كُتِبَ لو كان بهذا الخطّ؟ وأي خطّ لو كان بهذا الكُتِبَ؟ فرضي ابن القالمي، وسَخِطَ ابن عيَّاش. فانتزع الكتاب من يد المنصور، وطرحه في النار وانصرف. قال: فتغيّر وجه المنصور، وابتدر أحد الأشياخ، فقال: يا أمير المؤمنين، طعّشتم له في الوسيلة التي عرّفته ببابكم، فعظمت غيْرَتُهُ لمعرفته بقدر السبب الموصل إليكم. فسُرِّي عن المنصور، وقال لأحد خدامه: اذهب إلى السّبي، فاختر أجمل نساء الأبقار؛ وأتِ بابن عيَّاش؛ فقلّ له: هذه تُطْفِئ من خُلُقِكَ. قال ابن عيَّاش يخاطب ولده، وقد حدّث الحديث: هي أمك، يا محمد، أو فلان.

(١) النص في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٣٨٥). (٢) النص في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٣٨٦).
 (٣) في الذيل والتكملة: «عليه». (٤) في الذيل والتكملة: «دخلت».
 (٥) في الذيل والتكملة: «ذكر تلك الحاجة». (٦) في الذيل والتكملة: «أني».
 (٧) في المصدر نفسه: «مكتسب».

بعض أخباره مع المنصور ومحاورته الدالة على جلالة قدره:

قال ابن خميس: حدثني خالي أبو عبد الله بن عسكر أن الكاتب أبا عبد الله بن عيَّاش، كتب يوماً كتاباً ليهودي، فكتب فيه، ويحمل على البرِّ والكرامة. فقال له المنصور: من أين لك أن تقول في كافر، ويحمل على البرِّ والكرامة؟ فقال: ففكرت ساعة، وقد علمت أن الاعتراض يلزمني، فقلت: قال رسول الله ﷺ: إذا أتاكم كريم قوم، فأكرموه، وهذا عام في الكافر، وغيره. فقال: نعم هذه الكرامة، فالمبرة أين أخذتها؟ قال: فسكت ولم أجد جواباً. قال: فقرأ المنصور: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(١) ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ أَنْ تَبْرُوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٢). قال: فشهدت بذلك، وشكرته.

شعره: من شعره^(٣): [الطويل]

بلنسية، بيني عن العليا^(٤) سلوة
وكيف يحب المرء داراً تقسمت
فإنك روض لا أجن لزهرتك
على صارمي^(٥) جوع^(٦) وفشة مشرك؟

وذكره الأديب أبو بحر صفوان بن إدريس في «زاد المسافر» عند اسم ابن عيَّاش، قال: اجتمعنا في ليلة بمراكش، فقال أبو عبد الله بن عيَّاش: [البسيط]

وليلة من ليالي الصّفح قد جمعت
كانوا على سنة الأيام قد بعثوا
إخوان صدق ووضّل للدهر مختلس^(٧)
فألقت بينهم لو ساعد الغلس

وقال من قصيدة: [الكامل]

أشفارها أم صارم الحجاج؟
فلماذا نظرت لأرضها وسمائها
وجفونها أم فشة الحلّاج؟
لم تلف غير أسنة وزجاج

-
- (١) سورة النحل ١٦، الآية ٩٨. وصواب الآية: ﴿فَأَسْتَوِذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.
(٢) سورة الممتحنة ٦٠، الآية ٨. وصواب الآية: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ أَنْ تَبْرُوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ إلى آخر الآية.
(٣) البيتان في الروض المعطار (ص ١٠١) ونفع الطيب (ج ١ ص ١٧٢) ومعجم البلدان (ج ١ ص ٤٩١) وفيه ينسبهما ياقوت إلى ابن حريق.
(٤) في الأصل: «العليا» وكذا ينكسر الوزن. وفي سائر المصادر: «عن القلب».
(٥) في معجم البلدان: «على ضاربي».
(٦) في الأصل: «جذع» والتصويب من المصادر الثلاثة.
(٧) في الأصل: «للدهر غير مختلس» وكذا لا يستقيم لا الوزن ولا المعنى، لذا حذفنا كلمة «غير».

وقال في المصحف الإمام، المنسوب إلى عثمان بن عفان، لما أمر المنصور بتخليته بنفيس الدر من قصيدة^(١):

وَنُقِلْتَهُ^(٢) مِنْ كُلِّ مَلِكٍ ذَخِيرَةٌ كَأَنَّهُمْ كَانُوا بِرَسْمٍ مَكَاسِبُهُ
فَإِنْ وَرِثَ الْأَمْلَاكُ شَرْقًا وَمَغْرِبًا فَكَمْ قَدْ أَخْلَوْا جَاهِلِينَ بِوَاجِبِهِ
وَالْبَسْتَهُ الْيَاقُوتَ وَالدرُ^(٣) جَلِيَّةً وَغَيْرُكَ قَدْ رَوَاهُ مِنْ دَمٍ صَاحِبِهِ

كتابه: قال ابن سعيد في المرقصات والمطربات^(٤): أبو عبد الله بن عياش، كاتب الناصر وغيره، من بني عبد المؤمن، وواسطة عقد تزييله، قوله في رسالة كتبها في نزول الناصر على المهديّة بحرًا وبرًا، واسترجاعها من أيدي المثلثين:

ولما حَلَلْنَا عُرَى السُّفَرِ، بَانَ حَلَلُنَا جَمَى المَهْدِيَّةِ، تَفَاءَلْنَا بِأَنْ تَكُونَ لِمَنْ حَلَّ بِسَاحَتِهَا هَدِيَّةً، فَأَخَذْنَا بِهَا إِحْدَاقَ الهُدْبِ بِالْعَيْنِ، وَأَطْرْنَا لِمَخْتَلَسٍ وَصَالِهَا غَرْبَانَ الْبَيْنِ، فَبَانَتْ بَلِيلَةٌ بِاسِيْنِيَّةٍ، وَصَابَحَ يَوْمًا صَافِحَتَهُ فِيهِ يَدُ المَنِيَّةِ. وَلَمَّا اجْتَلَيْنَا مِنْهَا عُرُوسًا قَدْ مَدَّ بَيْنَ يَدَيْهَا بِسَاطَ المَاءِ، وَتَوَجَّهَتْ بِالْهَلَالِ وَقَرَطَتْهُ بِالثُّرَيَّا وَوُشَّجَتْ بِنُجُومِ السَّمَاءِ، وَالسُّحُبُ تَسْحَبُ عَلَيْهَا أَزْدَانُهَا فَتَرْتَدِيهَا تَارَةً مُتَلَثِّمَةً، وَطُورًا سَافِرَةً، وَكَأَنَّمَا شُرُفَاتُهَا المُشْرِفَةُ أَنَامِلُ مُخَضَّبَةٍ بِالدِّيَاجِي، مَخْتَمَةٌ بِالكَوَاكِبِ الزَّاهِرَةِ، تُضْحِي عَنْ شَيْبٍ لَا تَزَالُ تُقْبِلُهُ أَفْوَاهُ المَجَانِيقِ، وَتُغْسِي بِأَسْمَةٍ عَنْ لَعَسٍ لَا تَبْرَحُ تَرْشِفُهُ شِفَاهُ سِيَّهَامِ الحَرِيقِ، خَطَبْنَاهَا فَأَرَادَتْ التَّثْبِيهَ عَلَى قَدْرِهَا، وَالتَّوْفِيرَ فِي إِعْلَاءِ مَهْرِهَا، وَمَنْ خَطَبَ الحَسَنَاءَ لَمْ يُغْلِهِ المَهْرُ فَتَمَنَّتْ تَمَنُّعَ المَقْصُورَاتِ فِي الخِيَامِ، وَأَطَالَتْ إِعْمَالُ الْعَامِلِ فِي خِدْمَتِهَا وَتَجَرِيدُ الحَسَامِ، إِلَى أَنْ تَحَقَّقَتْ عِظَمُ مَوْقِعِهَا فِي النَفُوسِ، وَرَأَتْ كَثْرَةَ مَا أَلْقَى لَهَا مِنْ نِثَارِ الرُّؤُوسِ، جَنَحَتْ إِلَى الإِخْصَانِ بَعْدَ النُّشُوزِ، وَرَأَتْ اللُّجَاجَ فِي الْإِمْتِنَاعِ مِنْ قَبُولِ الإِحْسَانِ لَا يَجُوزُ، فَأَمَكَّتْ زَمَامَهَا مِنْ يَدِ خَاطِبِهَا، بَعْدَ مَطَاوِلَةِ خَطَبِهَا وَخِطَابِهَا، وَأَمْتَعَتْهُ عَلَى رَغْمِ رُقِيَّتِهَا بِعِنَاقِهَا وَرَشْفِ رُضَائِهَا، فَبَانَتْ مُعْرُسًا حَيْثُ لَا حِجَالَ إِلَّا مِنَ البُنُودِ، وَلَا خُلُوقَ إِلَّا مِنْ دِمَاءِ أَبْطَالِ الجُنُودِ، فَأَصْبَحَ وَقَدْ تَلَالَتْ بِهَذِهِ البَشَائِرِ وَجُوهَ الأفْكَارِ؛ وَطَارَتْ بِمَسَارِهَا سَوَائِحُ الْبَرَارِيِّ وَسَوَانِحُ الْبَحَارِ. فَالْحَمْدُ

(١) الأبيات في التكملة (ج ٢ ص ١١٦) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٣٨٧).

(٢) في الأصل: «وَنُقِلْتُ» وكذا ينكسر الوزن. والتصويب من الذيل والتكملة. وفي التكملة: «وَنُقِلْتُ».

(٣) في الأصل: «الدر والياقوت». وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٤) لم يرد شيء من هذا في المرقصات والمطربات، وجاء فيه (ص ٩٢) بيتان من الشعر لأبي جعفر بن عياش، شاعر المائة السابعة، وليس لأبي عبد الله بن عياش.

لله الذي أقرَّ الحقَّ في نصابه، واسترَّجعه من أيدي غُصَّابه، حمداً يجمع شمل النعم، ويُلقِّحها كما تُلقِّح الرياح الدِّيم، فشَنَّفوا الأسماع بهذه البشائر، واملثوا الصُّدور بما يرويه لكم من أحاديثها كل وارد وصادر، فهو الفتحُ الذي تفتَّحت له أبواب السماء، وعمَّ الخير واليمن به بسِيطي الشَّرْقِ والماء؛ فشكر الله عليه، فرض، في كل قَطْرِ من أقطار الأرض.

دخل غرناطة، مُرتاداً، ومُتعلماً، ومُجتازاً.

مولده: يُرشانة بلده، عام خمسين وخمسمائة.

وفاته: توفي بمراكش في شهر رجب^(١) الفرد من عام ثمانية عشرة وستمائة، رحمه الله.

محمد بن علي بن محمد بن إبراهيم بن محمد الهمداني

من أهل وادي آش، يكنى أبا القاسم ويعرف بابن البراق^(٢).

حاله: قال ابن عبد الملك^(٣): كان محدثاً حافظاً، راويةً مكثراً، ثقةً ضابطاً^(٤)، شهر بحفظ كتب كثيرة من الحديث وغيره، ذا نظر صالح في الطب^(٥)، أدباً بارعاً، كاتباً بليغاً، مكثراً لجيده^(٦)، سريع البديهة في النظم والنثر، والأدب أغلب عليه. قال أبو القاسم ابن المواقيني: ما رأيت في عباد الله أسرع ارتجالاً منه.

مشيخته: روى^(٧) عن أبي بحر يوسف بن أحمد بن أبي عيشون، وأبي بكر بن رزقون، وابن قيد^(٨)، وابن إبراهيم بن المل، وابن النعمة وصنجه^(٩)، ولقيه بمراكش، ووليد بن موفق، وأبي عبد الله بن يوسف بن سماعة، ولأزمه أزيد من ست سنين وأكثر عنه، وابن العُمرسي، وأبي العباس بن إدريس، والمخروبي، وتلا عليه بالسَّبع،

(١) في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٢٨٧): «توفي بمراكش لخمس بقين من جمادى الآخرة...». وفي التكملة (ج ٢ ص ١١٦): «توفي بمراكش في العشر الأواخر من جمادى الآخرة...».

(٢) ترجمة ابن البراق في رايات المبرزين (ص ١٦٦) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٣٣) وزاد المسافر (ص ١٥١) والمطرب (ص ٢٤١) والتكملة (ج ٢ ص ٧٦) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٥٧) ويغية الملتبس (ص ١١٤) والمغرب (ج ٢ ص ١٤٩) وكنيته فيه: أبو عمرو، ونفع الطيب (ج ٥ ص ٥٣).

(٣) الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٦٧). (٤) في الذيل والتكملة: «ضابطاً ثقة».

(٥) في الأصل: «في الطلب» والتصويب من الذيل والتكملة.

(٦) في المصدر نفسه: «مكثراً مجيداً». (٧) قارن بالذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٥٨).

(٨) في الذيل والتكملة: «ابن قيد». (٩) في الذيل والتكملة: «ونجبة».

وأكثر عنه، وعَرَض عليه من حفظه كثيرًا، وابن مضاء، وأبي علي بن عرب^(١)، وأبي القاسم بن حُبَيْش، وابن عبد الجبار، وأبي محمد بن سهل الضرير، وعاشر وقاسم بن دَحْمَان، وأبي يوسف بن طلحة. وأجاز له أبو بكر بن العربي، وابن خير، وابن مَنْدَلَة^(٢)، وابن تَمَارَة^(٣)، وأبو الحسن شريح، وابن هُذَيْل، ويونس بن مَغِيث، وأبو الجليل^(٤) مفرج بن سلمة، وأبو عبد الله حفيد مكى، وأبو عبد الرحمن بن مساعد، وأبو عامر محمد بن أحمد السالمي، وأبو القاسم ابن بشكوال، وأبو محمد بن عبيد الله، وأبو مروان البيّاضي، وابن قُزْمَان، وأبو الوليد بن حجاج.

مَنْ روى عنه: روى^(٥) عنه ابنه أبو القاسم، وأبو الحسن بن محمد بن بقي الغساني، وأبو عبد الله محمد^(٦) بن يحيى الشكري، وأبو العباس الثباتي، وأبو عمرو بن عياد، وهو أَسْنُ منه، وأبو الكرم جودي.

توالمفه: صَنَّف^(٧) في الأدب^(٨) مصنفات منها «بهجة الأفكار، وفرجة^(٩) التذكار، في مختار الأشعار»، و«مباشرة ليلة السفح»^(١٠)، ومقالة في الإخوان، خَرَّجَهَا من شواهد الحكم، ومصنّف في أخبار معاوية، و«الدُر المنظم في الاختيار»^(١١) المعظم، و«مجموع في الألغاز»^(١٢)، و«روضة الحقائق، في تأليف الكلام الرائق»، مجموع نظمه ونثره، وملقى^(١٣) السبل في فضل رمضان، وقصيدته في ذكر النبي ﷺ، وخطرات الواجد في رثاء الواحد، ورجوع^(١٤) الإنذار بهجوم العذار، إلى غير ذلك.

محتته: غزبه الأمير ابن سعد^(١٥) من وطنه، وألزمه سكنى مُرْسِيّة، ثم بَلَنْسِيّة. ولما مات ابن سعد آخر يوم من رجب سبع وستين وخمسمائة، عاد إلى وطنه واستقرّ به يفيدة الدِّيّة، إلى آخر عمره.

-
- (١) في الذيل والتكملة: «عريب».
- (٢) في الذيل والتكملة: «ابن مندلة».
- (٣) في الذيل والتكملة: «ابن تمار».
- (٤) في الذيل والتكملة: «أبو الخليل».
- (٥) قارن بالذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٦٧).
- (٦) كلمة «محمد» ساقطة في الذيل والتكملة.
- (٧) قارن بالذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٦٨).
- (٨) في الذيل والتكملة: «في الآداب».
- (٩) في الأصل: «وفضة» والتصويب من الذيل والتكملة.
- (١٠) في الذيل والتكملة: «ومباشرة ليلة السفح، من خبر أبي الأصمغ عبد العزيز ابن أبي الفتح...».
- (١١) في الأصل: «الإحसार» والتصويب من الذيل والتكملة.
- (١٢) في الذيل والتكملة: «في ألغاز».
- (١٣) في الذيل والتكملة: «ملتقى السبل...».
- (١٤) في الأصل: «ورجوم» والتصويب من الذيل والتكملة.
- (١٥) هو الأمير محمد بن سعد بن مردنيش الجذامي، أمير بلنسية ومرسية، وقد تقدمت ترجمته في هذا الجزء.

شعره: وشعره كثير. فمن ذلك القصيدة الشهيرة في مدح رسول الله ﷺ، وذكر صحابته^(١): [الكامل]

بالهَضْبِ هَضْبٍ زُرودٍ أو تلعاتِها
مصدورةٌ تفتنُ في ترجيعِها^(٢)
إن راقِها^(٣) رأذ الضحى أو راعِها
هذا يُمتُّها وذاك يشوقها
ولو^(٤) الثَّعللُ بالكُرى ينتابُها
لكن بين جُفونها ومنامِها^(٥)
ولئن نطقَتْ لها به فتقولُ
مَطلولةُ الفرعين ثلحُها الربى
ويُسيفُها^(٦) ماءُ النُّخيلة جُرعةً
منها:

يا من تَبَلَّجَ نورُه عن صَادِعٍ
يا شارِعًا في أمةٍ جُعِلَتْ بهِ
بالواضحات الغُرُّ من آياتِها
وَسَطًا نالت^(٧) مستدامَ حياتِها

(١) هي مخمسة، وهي طويلة، وقد وردت كاملة في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٦٩ - ٤٨٢) ومطلعها:

يا مُنبلاً من عينه عبراتِها
أم شمتٌ بارقةٌ بعرَضِ فلاتِها
أشجَّتكَ هاتفةٌ على أثلاثِها
شانتك هاتفةٌ على نعماتِها

- (٢) في الأصل: «سافتك»، والتصويب من الذيل والتكملة.
(٣) في الأصل: «في جيعها»، والتصويب من الذيل والتكملة.
(٤) في الأصل: «إن راعها راد»، والتصويب من الذيل والتكملة.
(٥) في الذيل والتكملة: «فالموت».
(٦) في الأصل: «ولولا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الذيل والتكملة.
(٧) في الذيل والتكملة: «يزور».
(٨) في الأصل: «وهنامها»، والتصويب من الذيل والتكملة.
(٩) في الأصل: «خرزاً»، والتصويب من الذيل والتكملة.
(١٠) في الأصل: «من يلقي الرياح بملقى...» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الذيل والتكملة.
(١١) في الأصل: «كتفاً ويلثمها المنى...» والتصويب من الذيل والتكملة.
(١٢) في الأصل: «وتسفيها»، والتصويب من الذيل والتكملة.
(١٣) في الذيل والتكملة: «تعاضاها».
(١٤) في الأصل: «افغالت»، والتصويب من الذيل والتكملة.

في دارٍ خُلِدَ لا يَشِيبُ وليدُها حيث الشبابُ يَرفُ في جَنّاتها
وتَسْنَمُ^(١) الرّضوانُ في اكنافها وتنسَمُ^(٢) الرّيحانُ من جَنّباتها
يا مُضْطَفّاها يا^(٣) مُرفَع قَدْرُها يا كَهْفَها يا مُنْتَهى غاياتها^(٤)
يا مُنْتَقّاها من أرومةِ هاشم يا هاشِمَ الصُّلبانِ في نِزاوتها
يا خاضِداً للشُّركِ شوْكَةً حزبه يا يافعا^(٥) للمُزبِ في جَمَراتها

قلت: نقل الشيخ^(٦) أزيد من ذلك أو ضعفه أو نحوه. إلى أن قال: وهي طويلة، قلت: وثقيلة الروح. ولقد صدق في قوله.

ومن شعره: [السريع]

يا بَذَرَ تَمّ طالعا في الحشا برّج بي منك أوان المغيّب
حظّك من قلبي تعذيبه وحظّه منك الأسى والوجيب
فمن يكن يزهى بلبس المني فإن زهوي بلحاس النّحيب
في ساعة قصر أنيابها غيبته لي وحضور الرقيب
لعلّ من باعد ما بيننا يُفرّج الكُربة عما قريب

وقال: [الكامل]

رشوا^(٧) القبابَ بأدمع مَفْضُوزة ذوى لفراق وأكبِد تَتَصَرُّمُ
فللنفس في تلك الرُّبوع حبيبة والقلب في إثر الوداع مُقَسِّمُ
هل لي بهاتيك الظُّبا إلماعة؟ أم هل لذاك السُّرب شَمْلٌ يُنْظَمُ؟
حقاً فقدتُ الذات عند فراقهم فالشّخص يُوجد والحقيقة تُغْدمُ

وفاته: توفي ببلده لثلاث بقين من رمضان ست وتسعين وخمسمائة^(٨). قال أبو القاسم المواعيني: عثر في مشيه فسقط، فكان سبب مَيتته، ودخل غرناطة في غير ما وُجّه منها، راوياً عن أبي القاسم بن الفرس، ومع ذلك فهو من أحوازاها وبُنيّاتها.

(١) في الأصل: «وتَسْنَمُ» والتصويب من الذيل والتكملة.

(٢) في الأصل: «وشيم» والتصويب من الذيل والتكملة.

(٣) كلمة «يا» ماقطة في الأصل، وقد أضفناها من الذيل والتكملة.

(٤) في الأصل: «باكنفها... علياتها»، والتصويب من الذيل والتكملة.

(٥) في الذيل والتكملة: «يا نابغا». (٦) هو الشيخ أبو الحسن الرعيني.

(٧) في الأصل: «رثوا» بالثاء.

(٨) في بغية الملتبس: توفي في سنة ٥٩٥ هـ. وولادته في المصادر: سنة ٥٢٩ هـ.

محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد
ابن خاتمة الأنصاري^(١)

من أهل المرية، يكنى أبا عبد الله.

حاله: من كتاب الإكليل ما نصه^(٢): ممن ثكَلَتْهُ البراعة، وفَقَدَتْهُ البراعة، تأدب بأخيه^(٣)، وتهذب، وأراه في النظم المذهب، وكساه من التفهيم والتعليم البُزْد^(٤) المذهب، فاقتفى واقتدى، وراح في الحَلْبَة واغتدى، حتى نَبَلُ وشدا، ولو أمهله الدهر لبلغ المدى. وأما خطه فقيد الأبصار، وطُرْفَة من طُرْف الأمصار، واغْتَبَط^(٥) يانع الشببية، مُخَضَّر الكتبية.

شعره: [البسيط]

كُفُّوا الملام فلا أضغى إلى العَدَلِ عَقْلِي وَسَمْعِي عن العُدَالِ في شغلِ

يقول في هذه القصيدة:

هَزُلُ المحبَّة جدُّ والهوان هوى
مَنْ مُسْعِدِي وفؤادي لا يساعدي
اعْلَلْ النَّفْسَ بالآمالِ أَطْمِعْهَا
لئن كنت تجهل ما في الحبِّ من مَحَنِ
أنا الذي قد حَلَبْتُ الحبَّ أَشْطَرَهُ
لا أشرب الزَّاح كي أخلو براحتها
ولا أجول بطَرْفِي في الرياض سوى
أنا العَهْدُ مضى ما كان أغدُّهُ
كم قَدَيْتُكَ يا قلبي وأنت على
فاخترْ لنفسك إما أن تُصاحبَنِي
فقد تبعْتُكَ حتى سَرْتُ من شَغْفِي
والصَّبُّ يثلف بين الجدِّ والهزل
أو مَنْ شَفِيعِي وذُلِّي ليس يشفع لي
حتى وقَعْتُ من التَّعليلِ في عِللِ
أنا الخبير فغيري اليوم لا تُسَلِّ
فلم يُفِدْنِي لا حولي ولا حيلِ
لكن لأذقع ما بالنَّفْسِ من كسلِ
ذكري لأيامنا في ظلِّها الأولِ
لم يبق لي غير آياتٍ من الخَبَلِ
تلك الخِوَايَة لم تَبْرَحْ ولم تنزل
حُلُوا وإلا قَدْغَنِي منك وارْتَجِلِ
ولَوْعَتِي في الهوى أعجوبة المثلِ

(١) ترجمة ابن خاتمة الأنصاري في الدور الكامنة (ج ٤ ص ٢٠١) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٣٦٤).

(٢) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٦٤ - ٣٦٥).

(٣) هو أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد، ويعرف أيضًا بابن خاتمة، المتوفى سنة ٧٧٠ هـ، وترجمته تقدمت في الجزء الأول، وله ديوان شعر مطبوع، حققه الدكتور محمد رضوان الداية.

(٥) اعْتَبَط: مات شابًا. لسان العرب (عبط).

(٤) في النفع: «الرداء».

ومن شعره^(١): [الرمل]

وَمَضَى السَّبْرُ فَنَارَ الْقَلْقُ وَمَضَى النُّومُ وَحَلَ الْأَرْقُ
وَيَتَعَانِي مِنْ غَرَامِي قَدْ شَكَا ودموعي من ولوعي تَنطِقُ^(٢)
وَدَلِيلِي فِي غَلِيلِي زَفَرْتِي وعذابِي بَانْتِحَابِي أَضَدُّ
وَحُسُودِي مِنْ وَقُودِي رَقٌّ لِي^(٣) ضَمْنَا فِيهَا الْحُمَى وَالْأَبْرَقُ^(٤)
وَعَشِيَّاتٍ تَقْضُتْ بِاللَّوَى فِي مُحَيَّا^(٥) الدَّهْرِ مِنْهَا زَوْنُقُ
إِذْ شَبَابِي وَالتَّصَابِي جُمِعَا وَرِيَاضُ الْأَنْسِ غَضُّ مُوْنُقُ^(٦)
شَتَّ^(٧) يَوْمَ الْبَيْنِ شَمْلِي لَيْتَ مَا خُلِقَ الْبَيْنُ لِقَلْبٍ يَعْشَقُ
أَوْ مِنْ يَوْمٍ قَضَى لِي فُرْقَةً شَابَ مَنِّي يَوْمَ حَلَّتْ مَفْرَقُ
وَمِنْ ذَلِكَ: [الطويل]

أَيَا جِيرَةَ الْحَيِّ الْمَمْنَعِ جَارُهُ سَقَى رِيْقُكُمْ دَمْعِي إِذَا بَخَلَ الْوَبْلُ
مَتَى غِبْتُمْ عَنِّي فَأَنْتُمْ بِخَاطِرِي وَإِنْ تَقْصِدُوا ذَّلِّي فَقَدْ لَذْنِي الذَّلُّ
عَذَابُكُمْ قُرْبٌ وَيُخْلِكُكُمْ نَدَى وَإِذْ لَأَلَّكُمْ عَزٌّ وَهُجْرَانُكُمْ وَضَلُّ
وَأَنْتُمْ تُعِيْمِي لَا نَعِمْتُ بِغَيْرِكُمْ وَرَوْضِي لَا مَاءَ^(٨) أَرِيدُ وَلَا ظِلُّ
وَمِنْ ظَرِيفِ نَزْعَاتِهِ قَوْلُهُ^(٩): [البسيط]

الرَّفْعُ نَفْسُكُمْ لَا خَانَكُمْ^(١٠) أَمَلُ وَالْخَفْضُ شِيْمَةٌ شَانِي^(١١) وَالْهَوَى دَوْلُ
هَلْ مِنْكُمْ لِي عَطْفٌ بَعْدَ بَعْدِكُمْ؟ إِذْ لَيْسَ لِي مِنْكُمْ يَا سَادَتِي بَدَلُ

- (١) ورد منها ستة أبيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٦٥).
(٢) هذا البيت والذي يليه لم يردا في نفع الطيب.
(٣) رواية صدر البيت في النفع هي: مَذْ تَذْكُرْتُ لَأَيَّامٍ خَلَّتْ.
(٤) في الأصل: «والأيفق»، والتصويب من النفع. و«الأبرق»: غَلَطَ فِيهِ حَجَارَةٌ وَرَمَلٌ وَطِينٌ مُخْتَلَطَةٌ، وَالْجَمْعُ أَبَارِقُ. محيط المحيط (برق).
(٥) في الأصل: «مخيلى» وكذا ينكسر الوزن والتصويب من النفع.
(٦) في النفع: «مورق». (٧) شَتَّ: فَرَّقَ. لسان العرب (شتت).
(٨) في الأصل: «ماء» وكذا ينكسر الوزن.
(٩) البيتان في الدرر الكامنة (ج ٤ ص ٢٠١) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٣٦٥).
(١٠) في الأصل: «خابكم» والتصويب من النفع. (١١) في النفع: «مثلي».

وفاته: اعتُبط في الطاعون في أوائل ربيع الأول عام خمسين وسبعمائة. وَرَدَ إلى الحضرة غير ما مرة.

محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قُزْمان الزُّهري^(١)

من أهل قرطبة، يكنى أبا بكر.

حاله: نسيجٌ وَخِده أدبًا وظرفًا وَلَوْذِعيَّةٌ وشهرة. قال ابن عبد الملك: كان أدبًا بارعًا، محسنًا، شاعرًا حُلُو الكلام، مليح التَّنْدير، مبرِّزًا في نظم الطريقة الهزلية، بلسان عوام الأندلس، الملقب بالزُّجَل. قُلْتُ^(٢): وهذه الطريقة بديعةٌ يتحكَّم فيها ألقاب البديع، وتَنفِيسٌ لكثير مما يضيق سلوكه على الشاعر. ويبلغ فيها أبو بكر مَبْلَغًا حَجَرَهُ الله عن سواء؛ فهو آيُّها المعجزة، وحجَّتُها البالغة، وفارسها العَلَم، والمُبْتَدَى فيها والمُتَمِّم، رحمه الله. وقال الفَتْح فيه^(٣): «مبرزٌ في البيان، ومُحرِّزُ السُّبْق»^(٤) عند تسابق الأعيان، اشتمل عليه المتوكل^(٥) على الله اشتمالًا رَقَاهُ^(٦) إلى مجالس، وكساه ملابس، واقتطع^(٧) أسمى الرُّتَب وتبَوَّأها، ونال أسمى الخُطَط^(٨) وما تمالأها.

شعره: قال الفَتْح^(٩): وقد أثبت له ما يُعلم^(١٠) به رفيع قدره، ويُعرف كيف أساء الزمن^(١١) بغدره، قوله^(١٢): [الكامل]

رَكِبُوا السُّيُولَ مِنَ الْخِيُولِ وَرَكَّبُوا
فَوْقَ الْعَوَالِي السُّمُرِ زُرُقَ نِطَافٍ^(١٣)

(١) ترجمة ابن قُزْمان في المغرب (ج ١ ص ١٠٠) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٩٥) ورايات المبرزين (ص ١٢٦) والوافي بالوفيات (ج ١ ص ٥٤) ونفح الطيب (ج ٥ ص ١٧٢) (ج ٦ ص ٧٠) و(ج ٩ ص ٢٤١).

(٢) القول لابن الخطيب معلقًا على قول ابن عبد الملك المراكشي.

(٣) يخلط ابن الخطيب هنا بين المترجم له وبين عمه أبي بكر محمد بن عبد الملك بن عيسى بن قُزْمان القرطبي، المتوفى سنة ٥٠٨ هـ. وقول الفتح بن خاقان في قلاتد العقيان (ص ١٨٦).

(٤) في القلاتد: «المحصل».

(٥) هو المتوكل بن الأَفْطَس، صاحب بطليوس، في عصر ملوك الطوائف، وقد قتله المرابطون سنة ٤٨٨ هـ.

(٦) في القلاتد: «أرقاه».

(٧) في المصدر نفسه: «فاقتطع».

(٨) في القلاتد: «الحفظ».

(٩) قلاتد العقيان (ص ١٨٦).

(١٠) في القلاتد: «ما تعلم به حقيقة قدره، وتعرف...».

(١١) في المصدر نفسه: «الزمان».

(١٢) في المصدر نفسه: «فمن ذلك قوله» والبيتان في المغرب (ج ١ ص ١٠٠) منسويين إلى أبي بكر محمد بن عبد الملك بن عيسى بن قُزْمان، عم المترجم له.

(١٣) في الأصل: «نِطَاف» والتصويب من القلاتد والمغرب.

وتجَلَّلُوا الْغُذْرَانِ مِنْ مَادِيهِمْ مُرْتَجَّةً إِلَّا عَلَى الْأَكْتَفِ

وكتب إليه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن أبي الخصال^(١) يستدعيه إلى مجلس أنس: [البسيط]

إني أهزك هز الصَّارم الخَدم وبيننا كل ما تَذْريه من ذَمِّ
ذا شاك^(٢) من قَطْع أنس أنت واصله بما لديك من الآداب والحكم
وشكَّ شمل كرام أنت ناظمه ورَدَّ دعوة أهل المجد والكرم
ولو دُعيت إلى أمثالها لسعت إليك سغى مشوق هائم قديم
وإن نشطت لتصريفى صرفت له وجهي وكنْتُ من الأعوان والخَدم
وما أريد سوى عفو تجود به وفي حديثك ما يُشفى من الألم
أنت المُقَدَّم في فخر وفي أدب فاطلَع علينا طلوع السيّد العميم
فأجابه رحمه الله: [البسيط]

أتى من المجد أمر لا مرَدُّ له نمشي على الرأس فيه لا على القَدَم
لبيك لبيك أضعافاً مضاعفة إني أجبت ولكن داعي الكرم
لي همّة ولأهل العز مَطْمَحُها لا زلت في كل مَجْد مطمح الهمم
وإن حَقُّكَ معروف وملتزم وكيف يُوجد عندي غير ملتزم؟
زَفَن^(٣) ورقص وما أحييت من ملح عندي وأكثر ما تَذْريه من شيم
حتى يكون كلام الحاضرين بها عند الصُّباح وما بالعهد من قَدَم
يا ليلة السُفح هلاً عُدت ثانية سقى زمانك هطالاً من الدِّيم
وقال في غرض التَّسب^(٤): [السريع]

يا رَبُّ يوم زارني^(٥) فيه مَنْ أَطْلَعَ من غَرْبِهِ^(٦) كوكبا
ذو شَفَّةٍ لمياء معسولة يَنْشَعُ مِنْ خَذِيهِ ماء الصُّبا

(١) تقدمت ترجمة ابن أبي الخصال في هذا الجزء من الإحاطة.

(٢) في الأصل: «ذاك شاك» وكذا ينكسر الوزن.

(٣) الزَفَن: الرقص. لسان العرب (زفن).

(٤) الأبيات في المقتضب (ص ٩٥) ونفع الطيب (ج ٥ ص ١٧٢).

(٥) في الأصل: «زادني» والتصويب من المصدرين.

(٦) في الأصل: «غربه» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

قُلْتُ لَهُ هَبْ^(١) لِي بِهَا قُبْلَةً
فَذُقْتُ شَيْئًا لَمْ أَذُقْ مِثْلَهُ
أَسْعَدَنِي اللَّهُ بِإِسْعَادِهِ
وقال: [المنسرح]

جَلْتُ لِتَوْدِيعِهِ وَقَدْ ذَرَفْتُ
فِي مَوْكِبِ الْبَيْنِ بَاكِئِينَ^(٣) وَلَا
مَعَانِقًا جِيَدَهُ عَلَى حَذَرٍ
نَغْصَ تَوْدِيعِهِ لِعَاشِقِهِ
وقال يعتذر ارتجالاً وأحسن ما أراد^(٤): [البسيط]

يَا أَهْلَ ذَا الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ سِرَاوْتُهُ^(٥)
وإن^(٦) أَكُنْ مُظْفِفًا^(٧) مِصْبَاحَ بَيْتِكُمْ
وقال يهتئء بعرس: [الكامل]

صَرَفْتُ إِلَيْكَ وَجُوهَهَا الْأَفْرَاحُ
فَاقْضِ الْمَآرِبَ فِي زَمَانٍ صَالِحٍ
إِنْ كَانَ كَالشَّمْسِ الْمَنِيرَةِ حُسْنُهَا
لَا فَرْقَ بَيْنَكُمَا لِرَأْيٍ فَاسْتَوَى
هَلْ يُوقِدُ الْمِصْبَاحَ عِنْدَكُمَا مُهْجَا
أُخْرَزْتُ يَا عَبْدَ الْعَزِيزِ مُحَاسِنَا
يَا مَنْ لَهُ كَفٌّ تَجُودٍ وَأَضْلَعُ
وتكئفثك سعادة ونجاح
لَا سُدَّ عَنْكَ مِنَ الزَّمَانِ صِلَاحُ
فَالْبَذْرُ أَنْتَ وَمَا عَلَيْكَ جُنَاحُ
زِيَّ النِّسَاءِ قِلَادَةٌ وَوَشَاحُ
وَكَلَاكُمَا بِبَهَائِهِ مِصْبَاحُ؟
كَثُرَتْ فَلَمْ تَسْتَوْفِهَا الْأَمْدَاحُ
مَطْوِيٌّ عَلَى حِفْظِ الْوَدَادِ سِجَاحُ^(٩)

(١) في الأصل: «وهب» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٢) الشقوة: الشقاء. لسان العرب (شقا).

(٣) في الأصل: «باكين» بياء واحدة، وكذا ينكسر الوزن.

(٤) البيتان في المغرب (ج ١ ص ١٠٠) وجاء فيه أنه قالهما وقد رقص في مجلس شرب، فاطفا السراج بأكماله.

(٥) في المغرب: «سرارته». (٦) في المغرب: «فإن».

(٧) في الأصل: «مظففاً» والتصويب من المغرب.

(٨) في المغرب: «فكل من قد حواه البيت...».

(٩) في الأصل: «سجاح» بالشين المعجمة. والسجاح: الذي يحسن العفو. لسان العرب (سجح).

ما أَلَقْتُ الحاجات دوني قُفْلها
في كل ما تنحو إليه ملاحه
ومن حكمه قوله^(١): [الوافر]

كثيرُ المال تَبَذُّله فيبقى
ومن غَرَسَتْ يدها ثَمَارَ جُودٍ
وقال رحمه الله^(٢): [الوافر]

وعهدي بالشباب وحسن قُدي
فصرتُ اليوم مُتَحَنِّيًا كاني
وقال رحمه الله^(٣): [الرميل]

يُمسك الفارسُ رُفْعًا بيدٍ^(٤)
وكلانا^(٥) بطلٌ في حَرْبه
وأنا أُمسِكُ فيها قُصْبَه
إنَّ الأقلامَ رِمَاحُ الكُتُبَه

قال ابن عبد الملك: أنشدت على شيخنا أبي الحسن الرُّعيني، قال: أخبرنا الراوية أبو القاسم بن الطُّيْلَسَان، قال: سألتَه، يعني أبا القاسم أحمد بن أبي بكر هذا، أن ينشد شيئًا من شعر أبيه المُغْرِب، فأخرج لي قطعة بخط أبيه وأنشده. وقال: أنشدني أبي رحمه الله لنفسه: [المنسرح]

أَحْسَنُ ما نِيَطُ في الدُّعَاءِ^(٦) لِمَن
خَلَصَكَ اللهُ مِنْ عَوَائِقِهَا
مُقَرَّبًا مِنْكَ ما تُسَرُّ بِهِ
الكلُّ بالعدل منك مُغْتَبِطٌ
وليس يخليك من أنا لَكْها
رُتِبَ في خُطَّةٍ مِنَ الخُطَطِ
ودُمَّتْ في عِصْمَةٍ مِنَ الغِلَطِ
وكل مَكْرُوهَةٍ على شَحِطِ
وليس في الناس غيرُ مُغْتَبِطِ
من عملٍ بالنَّجاةِ مُرْتَبِطِ

(١) البيتان في المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٩٥) ونفع الطيب (ج ٦ ص ٧١).

(٢) في المقتضب: «وقد يبقى من الذكر القليل».

(٣) البيتان في المقتضب من كتاب تحفة النادم (ص ٩٥ - ٩٦) ونفع الطيب (ج ٥ ص ١٧٢).

(٤) هو أبو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقله، المتوفى سنة ٣٢٨ هـ، يضرب به المثل بحسن خطه. وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٣٥٤، ٣٥٧).

(٥) في المصدرين: «على شبايى». (٦) البيتان في المقتضب (ص ٩٦).

(٧) كلمة «يد» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من المقتضب.

(٨) في المقتضب: «فكلانا». (٩) في الأصل: «الدعا» وكذا ينكسر الوزن.

فَانْفِذْ بِعَوْنِ اللَّهِ^(١) مُجْتَهِدًا
 يَا صَاحِبَ الْأَمْرِ وَالَّذِي يَدُهُ
 رَفَعْتُمْ يَا بَنِي رَفَاعَةٍ مَا
 وَمُنِيرَ الْحَقِّ مِنْ سِوَاهُ بِكُمْ
 وَانْضَبَطَ الْأَمْرُ وَاسْتَقَامَ لَكُمْ
 أَتَيْتَ فِي كُلِّ مَا أَتَيْتَ بِهِ
 جَلَلْتُ عَنْ سِوَاكَ مَنْزِلَةً
 أَنْتَ مِنَ الْمَجْدِ وَالْعُلَا طَرَفُ
 بِقَلْبٍ صَافِي الضَّمِيرِ^(٢) مَرْتَبِطٍ
 نَائِلُهَا لِلْعَفَاةِ غَيْرِ بَاطِي^(٣)
 كَانَ مِنَ الْمَعْلُوباتِ فِي مَبْطِطٍ
 فَهِيَ هِيَ الْآنَ غَيْرُ مُسْتَخْلَطٍ
 وَلَمْ يَكُنْ^(٤) قَبْلَ ذَا بِمُنْضَبِطٍ
 فَالْغَيْثُ بَعْدَ الرَّجَاءِ^(٥) وَالْمَنْطِطِ
 فَلَسْتُ بِمَنْ سِوَاكَ فِي نَمَطٍ
 وَكُلُّهُمْ فِي الْعُلَا مِنَ الْوَسَطِ

كتابه: وقفت من ذلك على أفانين. منها في استهلال شهر رمضان قوله:

سلام على أنس المجتهدين، وراحة المُتَهَجِّدين، وقرّة أعين المهتدين، والذي
 زين الله به الدنيا وأعز به الدين. شرف الله به الإسلام، وجعل أيامه رُقومًا في عواتق
 الأيام، وشهوره عُزْرًا في جباه الأعلام، وحل به عن رقاب الأمة قلائد الآثام، ونزه
 فيه الأسماع عن المكاره وصان الأفواه من رَقَبِ الكلام. أشهد أن الله أثنى عليك،
 وأدخل مَنْ شاء الجنة على يديك، وخَصَّكَ من الفضائل بما يمشي فيه التفسير حتى
 يَكُلَّ، وَيَسَامُ ذلك اللسان ويملُّ، وأبادت ذنوب الأمة بمثل ما أبادت الشمس الظلَّ،
 ذلك الذي يتهلل للسماء هلاله، ويهتزُّ العرش لجلاله، وترتج الملائكة في حين
 إقباله، وتدخل الحُور العين في زينتها تكريمًا، وتلتزم إجلاله وتعظيمًا، ويهتدي فيه
 الناس إلى دينهم صراطًا مستقيمًا، وتُغْلَى الشياطين على ما خُيِّلَتْ، وتذوق وبال ما
 كادت به وتخيلت، ويشمرُّ التقيُّ لعبادة ربّه ذيلًا، وتهبط الملائكة إلى سماء الدنيا
 ليلاً، وينتظم المُتَّقُونَ في ديوانه انتظام السِّلَكِ، ويكون خُلُوفُ قَمِ الصائم عند الله
 أطيب من ريح المسك، وتفتح الجنة أبوابًا، ويُغفر لمن صامه إيمانًا واحتسابًا، جزاء
 من ربك عطاءً حسابًا، وبما فضلك الله على سائر الشهور، وقضى لك بالشرف
 والفضل المشهور. قَرَضَكَ في كتابه، ومدحك في خطابه، حيث قال: شهر رمضان
 الذي أنزل فيه القرآن، هُدَى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان، يعني تكبير الناس

(١) في الأصل: «الله» وكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «صفيّ بالضمير» وكذا ينكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «بط».

(٤) في الأصل: «ولم يكن من قبل...»، وكذا ينكسر الوزن، لذا حذفنا كلمة «من».

(٥) في الأصل: «الرجاء» وكذا ينكسر الوزن.

عليك، وتقلب أحداقهم بالنظر إليك، حين لُثمت بالسحاب، ونظرت من تحت ذلك النُّقاب، وقد يمتاز الشَّيب وإن استتر بالخضاب، حتى إذا وقف الأئمة منك على الصَّحيح، وصرَّحوا برؤيتك كلَّ التصريح، نُظرت كل جماعة في اجتماعها، وتأهبت القراء لإشفاعها، واندفعت الأصوات باختلاف أنواعها، وتضرعت الأبواب، وطلبت المواقف أواخر الأعشار والأحزاب، وابتدئت أَلَم ذلك الكتاب، عندما أوقدت قناديل كأنما قد بدت من الصباح، ورقصت رقص النواهد عند هبوب الرياح، والله نُور السموات والأرض مثلُ نوره كمشكاة فيها مصباح، فأملك المسلمون في سرٍّ وجهه، وحُطَّت أثقال السيئات عن كل ظُهر، والتمست الليلة التي هي خير من ألف شهر، فنشط الصالحون بك صومًا، وهجر المُتَهَجِّدون في ليلك نومًا، وأكملناك إن أذن الله ثلاثين يومًا. فيا أيها الذي رَحَلَ، رحل بعد مُقامه، وقام للسفر من مقامه، ورأى مَنْ قضى حقَّه ومَنْ قَصُر في صيامه، فمشى الناس إلى تشييعه، وبكوا لفراقه وتوديعه، وتَديم المُضَيِّع على ما كان من تضييعه، ولم يثق بدوام العيش إلى وقت رجوعه، فعَضُّ على كفه ندمًا، وبَكَت عينه ماءً وكَبِده دمًا. رويدًا حتى أمرح في ميدان فراقك، وأتضرَّع إلى حنانك وإشفاقك، وأتشفى من تَقْبيلك وعناقك، وأسألُ منك حاجةً إن أراد الله قضاءها، وشاء نفوذها وإمضاءها، إذا أنت وقفت لربِّ العالمين، فَقَبْلِكَ من قوم وردك في وجوه آخرين. إن تُثني جميلًا، فعسى يصفح لعهدك وإن أساء، فعَلِمَ الله أني نويت التوبة أولًا وآخرًا، وأملت الأداء باطنًا وظاهرًا، وكنت على ذلك لو هدى الله قادرًا، وإنما عُلِمَ من تقصير الإنسان ما عُلِمَ، وللمرء ما قُضي عليه به وحكم، وإن النفس لأمارَةٌ بالسوء إلا من رَحِمَ، فإن غَفَرَ فبطوله وإحسانه، وإن عاقب فيما قدَّمت يدُ العبد من عصيانه، فيا وَخْشَةً لهذه الفرقة، ويا أسفًا على بعد الشُّقة، ويا شِدًّا ما خَلَفْتَهُ لنا بفراقك من الجَهد والمشقة، ولطالما هَجَرَ الإنسان بك ذنبه، وراقب إعظامًا لكربه، وشَرَحْتَ إلى أعمال البرِّ قلبه. ومع هذا أتراك ترجع وترى، أم تُضَمُّ علينا دونك أطباق الثرى؟ فيا وَيْلَتَا إن حلَّ الأجل، ولم أقضِ دينك، ورجعت وقد حال الموت بيني وبينك، فأغرب، لا جعله الله آخر التوديع، وأيُّ قلب يستطيع.

وقال في استهلال شوال:

ولكل مقام مقال. الله أكبر هذا هلالُ شَوَّال قد طَلَعَ، وكرَّ في منازلِه وقَطَعَ، وغاب أحد عشر شهرًا ثم رَجَعَ. ما لي أراه رقيق الاستهلال، خفي الهلال، وروحًا تردَّد في مثل انملال؟ ما باله أمسى الله رُسْمَه، وصحَّح جسمه، ورفع في شهور العام اسمه؟ على وجهه صُفْرَةٌ بيَّنة، ونار إشراقه ليَّنة، وأرى السحاب تعتمده وتَقِفُ،

وتغشاه سُويعة وتنصرف، ما أراه إلا بطول ذلك المقام، وتوالي الأهوال العظام، أصابه مرض في فضل من فصول العام، فعادته كما يُعاد المريض، وبكته الأيام الغُر والليالي البيض، وقُلن: كلاك الله وكفاك، وحاطك وشفاك، وقُلن: كيف نجدك لا فض فاك، هذا على الظن لا على التحقيق، ومجاز لا يحكم التصديق. وليتعد مثل هذا المقدار، أن يُقدح فيه طول الغيب وتواتر الأسفار. اليس هو قد ألف مجالي الرياح، وصحب بَرْد الضباح، وشاهد الأهوية مع الغدو والزواح، وطواها بتجربته طي الوشاح؟ ما ذاك إلا أنه رأى الشمس في بعض الأيام ماشية، والحسن يأخذ منها وسطاً وحاشية، ودلائل شبابها ظاهرة فاشية، فوقع منها في نفسه ما وقع، وثبت على قلبه من النظر ما زرع، ووقع في شركها وحق له أن يقع. فرثت هي لحاله وأشفقت، ونهجت بوصالها وتأنقت، وقطعت من معدن ثيلها وأنفقت، ورأى أنها له شاكلة يبلغ أمَلها، وتبلغ مَأمله، ولذلك ما مدت لذيد السَماح، فتعرضت بالعشي وارتصدها في الصباح، مع ما أيقنا به من الانقطاع، ويمسنا من الاجتماع، كما نعد القدر، وصدر الخبر، وقال: تعلن لا الشمس ينبغي لها أن تُدرك القمر، فوجد لذلك وجداً شديداً، وأذاقه مع الساعات شوقاً جديداً، وأصبح بها دنقاً، وأمسى عميداً، حتى سلب ذلك بهاء، وأذهب سناه، وردّه النحول كما شاه، ولقي منها مثل ما لقي غيلان من ميتة، وجميل من بُشينة، وحن إليها حنين عروة إلى عُفراء، وموعدهما يوم وهب ناقته الصُفراء. على رسلك أني وهمت، وخسبت ذلك حقاً وتوهمت، والآن وقد فطنت، وأصبت الفص فيما ظننت، إنه لقي رمضان في إقباله، وضمه نقصان هلاله، وصامه فجأة ولم يك في باله، فأثر ذلك في وجهه الطلق، وأضعفه كما فعل بسائر الخلق، وما هو قد أقبل من سفره البعيد، فقل هو هلال القطر أو قل هو هلال العيد، فلقه صباح مشى الناس فيه مشي الحباب، ولبسوا أفضل الثياب، وبرزوا إلى مُصلاهم من كل باب، فارتفعت همّة الإسلام، وشرقت أمة محمد عليه السلام، وخطب بالناس ودعا للإمام، عندما طلعت الشمس بوجه كدور المرأة، ولون كصفا المهرأة، وخرج لا يُسيها ريم الفلاة. وقضوا السنة، وبذلوا الجهد في ذلك والمئة، وسألوا من الله أن يُدخلهم الجنة، ثم خطبوا حمداً لله وشكراً، وذكره كذكرهم آباءهم أو أشد ذكراً، ثم انصرفوا راشدين، وافترقوا حامدين، وشبك الشيخ بيديه، ونظر الشاب في كفيه، ورجعوا على غير الطريق الذي أتوا عليه، فلقد استشفى من الرؤية ذو عينين، وتذكر العاشق موقف البين، وشق المُتَنَزّه بين الصُفين، فنقل عينيه من الوشي إلى الديباج، ووجوه كضوء السراج، وعيون أقتل من سيف الحجاج، ونظرات لا يدفع داؤها بالعلاج، وقد زُينت العيون بالتكحيل، والشعور بالترجيل، وكُرر السواك على مواضع التقبيل، وطوّقت الأعناق بالعقود، وضرب الفكر في صفحات الخدود، ومُد بالغالية الإحاطة في أخبار غرناطة / ج ٢ / م ٢٣

على مواضع السجود، وأقبلت صنعاء بأوشيتها، وعنت بأرديتها، ودخلت العروس في جليتها، ورُقمت الكفوف بالحناء، وأثني على الحُسن وهو أحقُّ بالثناء، وطلّقت الثوب ثلثًا بعد البناء، وغصّ الذراع بالسوار، وتختّم في اليمين واليسار، وأمسكت الثياب بأيدي الأبيكار، ومشيت الإماء أمام الأحرار، وتقدمت الدّيات بالأطفال الصغار، وامتلات الدنيا سرورًا^(١)، وانقلب الكلُّ إلى أهله سرورًا. وبينما كانت الحال كما نَصَصْتُ، والحكاية كما قَصَصْتُ، إذ تَلَّالَت الدنيا بَرَقًا، وامتدَّ مع الأفقين غربًا وشرقًا، ورَدَّ لمعانه عيون الناظرين رُزْقًا، ولولا أنه جَرَّبَ حتى يذرى، لقليل قد طلعت مع الشمس شمسٌ أخرى، حتى أقبل من شَرُقت العربُ بنسبه، وفَخَّرَ الإسلامُ بسبيه، مَنْ انتَسَبَ إلى زَهْرَةِ وقُصَيٍّ، وازدانت به آلُ غالب وآلُ لُؤي، مَنْ إذا ذُكر المجد فهو مُنْسَكٌ بعده، أو الفضلُ فهو لابسٌ بُزْدَه، أو الفخرُ فهو واسِطَةُ عِقْدِه، أو الحُسنُ فهو نسيجٌ وحده، الذي رفع لواء العلياء، وعارضت مكارمه صوب الحياء، وحَكَّتْ محاسنه زهرة الحياة الدنيا. فأما وجهه فكما شَرُقت الشمسُ وأشرقت، وغَرُبَت كواكبُ سمائها وشَرُقت، وتفتّحت أطواق الليل عن غُرر مجده وتشققت. ولولا حيّا يغلب عليه، وخَفَرُ يصحبه إذا نظرت إليه، لاستحال النهار، وغارت لنوره كواكب الأسحار، ولكاد مَنَا بَرَقَه يذهب بالأبصار، لا يحفل بالصبح إذا انفلَق، ولا بالفجر إذا عمَّ آفاق الدُّجا وطبّق، ولو بدا للمسافر في ليله لطَرَق، وقد عجم الأبنوس على العاج، وأدار جَفَنًا كما عَطَفَ على أطفالها النّعاج، يَضْرِبُ بها ضرب السيف، ويَلَمُّ بالفؤاد إمام الطّيف، ويتلقّاها السّحر تلقّي الكريم للضيف. لو جرّدها على الرّئيم لوقف، أو على فِرْعَوْنَ ما صرف من سِخْرِهِ ما صرف، أو على سِسطام ابن قَيْسٍ لألقي سِلاحه وانصرف. وأما أدواته فكما انشَقَّت الأرض عن نباتها، وأخذت زُخْرُفَها في إنباتها، وتَفَحَّ عَرَفُ النّسيم في جَنَبَاتِها، يتفَنُّ أفانين الزهر، ويتقلب تقلّب الدهر، وتطلّع له نوادر كالنجوم الزهر، لو أبصره مُطَرِّف ما شهر بخطّه، ولا جرّ من العُجبِ ذيل مِرْطِه، ولا كان المخبر معه من شَرْطِه. وأما أنه لو قُرئ على سحبان كتابه، وانحدر على نهري عبابه، وملأت مسامعه أطنابه وأسبابه، ما قام في بيانه ولا قعد، ولنزل عن مقامه الذي إليه صعد، ولا خَلَفَ من بلاغته ما وعد. لَعَمْرُكَ ما كان بشر بن المعتمر يتفَنُّ للبلاغة فنونًا، ولا يتقبّلها بطونًا ومُتونًا، ولا أبو العتاهية ليُشرِطَها كلامًا موزونًا، ولا نَمَقُ الحَسَنُ بن سهل الألفاظ، ولا رَفَعَ قس بن ساعدة صوته بَعْكاظ، ولا أغاظ زيد بن علي هشامًا بما أغاظ، وأما مكارمه

(١) في الأصل: «سرورًا».

فكما انسكب الغيث عن ظلاله، وخرج الودق من غلاله، فتدارك النعمة عن فوتها، وأحيا الأرض بعد موتها، ذلك الشريف الأجل، الوزير الأفضل، أبو طالب ابن القرشي الزهري، أدام الله اعتزازه، كما رقم في حلال الفخر طرازه، فاجتمعت به السيادة بعد افتراقها، وأشرق وجه الأرض لإشراقها، والتفت الثياب بالثياب، وضمت الركاب بالركاب، ولا عهد كأيام الشباب، فوصل القريب البعيد، وهتوه كما جرت العادة بالعيد، فوقف مع ركابه وسلمت، وجرت كلاماً وبه تكلمت، فقلت: تقبل الله سعيك، وزكى عملك، وبلغك فيما توده أملك، ولا تأملت وجهاً من الشرور إلا تأملت، ونفعت بما أوليت، وأجزل حظك على ما ضمت وصليت، وواقفتك لعل وساعدتك لئت، وهنالك عيد الفطر وهنائه، وبدأك بالمسرات وبدأته، وتبرأ لك الدهر مما تحسد وبرأته. وهكذا بحول الله أعياد واعتياد، وعمر في دوام وعز في ازدياد، والسنة تفصح بفضلك إفصاح الخطباء من إيد، وأقرأ عليك سلام الله ما أشرق الضحى، ودام الفطر والأضحى.

دخوله غرناطة: دخل غرناطة، وتردد إليها غير ما مرة، وأقام بها، وامتدح ابن أضحى^(١) وابن هاني، وابن سعيد وغيرهم من أهلها. قال ابن سعيد في «طالعه»: وقد وصف وصول ابن قزمان إلى غرناطة، واجتماعه بجنته بقرية الزاوية من خارجها، بنزهون القليعية الأدبية، وما جرى بينهما، وأنها قالت له بعقب ارتجال بديع، وكان لبس غفارة صفراء: أحسنت يا بقرة بني إسرائيل، إلا أنك لا تسر الناظرين، فقال لها: إن لم أسر الناظرين، فأنا أسر السامعين، وإنما يطلب سرور الناظرين منك، يا فاعلة يا صانعة. وتمكن السكر من ابن قزمان، وآل الأمر إلى أن تدافعوا معه حتى رموه في البركة، فما خرج منها إلا وثيابه تقطر، وقد شرب كثيراً من الماء، فقال: اسمع يا وزير ثم أنشد^(٢): [السريع]

إيه أبا بكر ولا حول لي	بدفع أغيان وأنذال
وذا قرج ^(٣) واسع دافق	بالماء يحكي حال أذالي ^(٤)
غرقتني في الماء يا سيدي	كفره بالتغريق في المال

(١) هو الوزير أبو الحسن علي بن عمر بن أضحى، من بيت عظيم بغرناطة، ثار بها ودعا لنفسه بعد مقتل تاشفين بن يوسف بن تاشفين المرابطي سنة ٥٣٩ هـ. توفي سنة ٥٤٠ هـ. وقد تقدم التعريف به في الجزء الأول من الإحاطة في ترجمة أبي بكر المخزومي الأعمى. وسيترجم له ابن الخطيب في الجزء الرابع من الإحاطة.

(٢) الأبيات في نفع الطيب (ج ٦ ص ٧١). (٣) في الأصل: «جرح» والتصويب من النفع.

(٤) في الأصل: «أذيال» والتصويب من النفع.

فأمر بتجريده، وخلع عليه ما يليق به، ولم يمر لهم بعد عهدهم بمثله.
ولم ينتقل ابن قزمان من غرناطة، إلا بعد ما أجزل له من الإحسان، ومدحه بما
هو في ديوان أزجاله.

محبته: جرت عليه بابن حمدين^(١) محنة كبيرة عظم لها نكاله، بسبب شكاسة
أخلاق كان موصوفاً بها، وحدة شقي بسببها. وقد أتم الفتح في قلائده بذلك،
واختلت حاله بآخرة، واحتاج بعد انفصال أمر مخدمه الذي نوه به.

وفاته: توفي بقرطبة ليلة بقيت من رمضان سنة خمس وخمسين وخمسمائة،
والأمير ابن سعد يحاصر قرطبة رحمه الله.

محمد بن غالب الرصافي^(٢)

يكنى أبا عبد الله، بلنسي الأصل، سكن غرناطة مدة، ثم مالقة.

حاله: قال الأستاذ^(٣): كان فحلاً من فحول الشعراء، ورئيساً في الأدباء،
عفيفاً، ساكناً، وقوراً، ذا سمّت وعقل. وقال القاضي^(٤): كان شاعراً مجيداً، رقيق
الغزل، سلس الطبع، بارع التشبيهات، بديع الاستعارات، نبيل المقاصد والأغراض،
كاتباً بليغاً، ديناً، وقوراً، عفيفاً، متفقهاً، عالي الهمة، حسن الخلق والخلق والسمّت،
تام العقل، مقبلاً على ما يعنيه من التّعيش بصناعة الرّفي التي كان يعالجها بيده، لم
يبتذل نفسه في خدمة، ولا تعرض لانتجاع بقافية، خلا وقت سكناه بغرناطة، فإنه
امتدح واليها حينئذ، ثم نزع عن ذلك، راضياً بالخمول حالاً، والقناعة مالاً، على
شدّة الرغبة فيه، واغتنام ما يصدر عنه.

أخبار عقله وسكوته: قال الفقيه أبو الحسن شاعر بن الفخار المالقي، وكان
خبيراً بأحواله: ما رأيت عمري رجلاً أحسن سمّاً، وأطول صمّاً، من أبي عبد الله
الرصافي. وقال غيره من أصحابه: كان رقاء، فما سمع له أحد من جيرانه كلمة في
أحد. وقال أبو عمرو بن سالم: كان صاحباً لأبي، ولقيته غير ما مرة، وكان له

(١) هو أبو جعفر بن حمدين، قاضي قرطبة، الذي ثار بها في رمضان من العام ٥٣٩ هـ. وتم له
الامر إلى أن ثار عليه ابن غانية في شعبان من عام ٥٤٠ هـ. راجع الجزء الرابع من الإحاطة في
ترجمة يحيى بن علي بن غانية.

(٢) ترجمة ابن غالب الرصافي في مقدمة ديوانه بقلم محققه الدكتور إحسان عباس، وفيها ثبت
بأسماء المصادر التي ترجمت له.

(٣) المراد بالأستاذ أبا جعفر ابن الزبير صاحب كتاب: صلة الصلة.

(٤) المراد بالقاضي: ابن عبد الملك المراكشي صاحب كتاب: الذيل والتكملة.

موضع يخرج إليه في فصل العصور، فكنت اجتاز عليه مع أبي فألثم يده، فربما قبل رأسي، ودعا لي، وكان أبي يسأله الدعاء فيخجل، ويقول: أنا والله أصغر من ذلك. قال: وكان بإزائه أبو جعفر البلنسي، وكان متوقفاً الخاطر، فربما تكلم مع أحد التجار، فكان منه هقوة، فيقول له جلساؤه: شتان والله بينك وبين أبي عبيد الله في العقل والصمت، فربما طالبه بأشياء ليجاوبه عليها، فما يزيد على التبسم. فلما كان أحد الأيام، جاء البلنسي ليفتح دكانه، فتعمد إلقاء الغلق من يده، فوقع على رأس أبي عبد الله، وهو مقبل على شغله، فسال دمه، فما زاد على أن قام ومسح الدم، ثم ربط رأسه، وعاد إلى شغله. فلما رأى ذلك منه أبو جعفر تراسى عليه، وجعل يقبل يديه، ويقول: والله ما سمعت برجل أصبر منك، ولا أعقل.

شعره: وشعره لا نهاية فوقه رونقاً ومائية، وحلاوة وطلاوة، ورقة ديباجة، وتمكن الفاظ، وتأصل معنى. وكان، رحمه الله، قد خرج صغيراً من وطنه، فكان أبداً يكثر الحنين إليه، ويُقصر أكثر منظومه عليه. ومحاسنه كثيرة فيه، فمن ذلك قوله^(١): [الطويل]

خليلي، ما للبيد قد عبيت نشراً؟ وما لرؤوس الركب قد رنحت^(٢) سكرًا؟
هل المسك مفتوقاً^(٣) بمذرجة الصبا
خليلي، عوجا بي قليلاً^(٤) فإنه
قفا غير مأمورين ولتصديا^(٥)
بجسر معان والرصافة أنه
بلادتي التي رشت قويدمتي^(٨) بها
مبادي^(٩) أنيق^(١٠) العيش في ريق الصبا
وما لرؤوس الركب قد رنحت^(٢) سكرًا؟
أم القوم أجروا من بلنسية ذكرا؟
حديث كبر الماء في الكبد الحزى
على ثقة للمزن^(٦) فاستنقيا القطرا
على القطر أن ينقي الرصافة والجسرا^(٧)
فريحاً وأورثني قرارتها وكرا
أبي الله أن أنسى اغتراري بها غراً^(١١)

(١) القصيدة في ديوان الرصافي البلنسي (ص ٦٨ - ٧١).

(٢) في الأصل: «رجحت» والتصويب من الديوان.

(٣) في الأصل: «مفتوتاً» والتصويب من الديوان. (٤) في الديوان: «عليها».

(٥) في الديوان: «ولتصديا بها». (٦) في الديوان: «للغيث».

(٧) الرصافة: من أبداع منازة بلنسية تقع بين بلنسية والبحر. الروض المعطار (ص ٢٦٩)، والمغرب في حلى المغرب (ج ٢ ص ٢٩٨). وجسر معان: أغلب الظن أنه جسر نهر معان، وهو نهر بلنسية؛ يذكر الحميري أن بلنسية تقع على نهر جارٍ يتفج به، وتدخله السفن.

(٨) القويدمة: تصغير القادمة وهي إحدى القوادم أربع ريشات في مقدم الجناح. لسان العرب (قدم).

(٩) في الأصل: «مبادي» والتصويب من الديوان. (١٠) في الديوان: «الين».

(١١) في الديوان: «... أنسى لها أبداً ذكراً».

لبسنا بها ثوب الشباب لباسها
 آمنزلنا عصر الشبيبة ما الذي
 محل أغر العهد لم تبد ذكره
 أكل مكان كان^(٢) في الأرض مسقطاً
 ولا مثل مذخو من المسك ثرة
 نبات كأن الخد يخمل نورة
 وماء^(٥) كتر صيع المجره جلث
 أنيق كريان^(٨) الحياة التي خلث^(٩)
 وقالوا: هل الفردوس ما قد وصفته؟
 بلثية تلك الزمردة^(١٢) التي
 كأن عروساً أبدع الله حسنها
 تؤيد^(١٣) فيها شغشعانية الضحى^(١٤)
 تراجم^(١٦) أنفاس الرياح بزهرها
 وإن كان قد مدت يد البين بيننا
 ولكن غرينا من حلاه، ولم تغرا^(١)
 طوى دوننا تلك الشبيبة والعصرا؟
 على كبد إلا امتري أذمعا حمرأ
 لرأس الفتى يهواه ما عاش مضطراً^(٣)
 تملي الصبا فيه حقيبتها^(٤) عطرا
 تغال لجيناً في أعاليه أو تبرأ
 نواحيه^(٦) الأزهار واشتبتك^(٧) زهرا
 طليق كريعان^(١٠) الشباب الذي مرأ
 فقلت: وما الفردوس في الجنة الأخرى^(١١)
 تسيل عليها كل لؤلؤة نهرا
 فصير من شرخ الشباب لها عمرا
 مضاحكة الشمس البخيرة والبحرا^(١٥)
 نجوماً فلا شيطان يقربها^(١٧) ذغرا
 من الأرض ما يهوى المجد به شهرا^(١٨)

(١) هذا البيت والبيتان التاليان لم ترد في الديوان.

(٢) في الديوان: «راح».

(٣) مضطراً: أي أنه يهوى مسقط رأسه اضطراراً دون حاجة إلى إقناع.

(٤) في الأصل: «حقيقتها» والتصويب من الديوان.

(٥) في الأصل: «وما» والتصويب من الديوان.

(٦) في الأصل: «نواحيه» والتصويب من الديوان.

(٧) في الديوان: «فاشتبتك».

(٨) في الديوان: «كريعان».

(٩) في الديوان: «خلث» بالحاء المهملة.

(١٠) في الديوان: «كريعان».

(١١) في الديوان: «الزيرجدة».

(١٢) في الديوان: «الزيرجدة».

(١٣) في الأصل: «يؤيد منها» والتصويب من الديوان. وتؤيد فيها: تقيم فيها ولا تبرح.

(١٤) شعشعانية الضحى: أي أن أنوارها مشعشة كشمس الصباح.

(١٥) في الديوان: «إذا ضاحك الشمس...» والبحيرة: هي بحيرة بلنسية التي تزيد في ضياء بلنسية

(١٦) في الأصل: «تراجم» والتصويب من الديوان.

(١٧) في الأصل: «يغربها» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(١٨) هذا البيت لم يرد في الديوان.

هي الدرة البيضاء من حيث جثتها^(١)
 خليلي، أن أصدر لها فإنها^(٢)
 ولم أظو عنها الخطو هجرا لها إذا
 ولكن إجلالا لشربتها التي
 أكارم، عاث الدهر ما شاء فيهم
 هجوع ببطن وأرض قد ضرب الردى
 تقضوا فمن نجم سالك ساقط^(٦)
 ومن سابق هذا إذا شاء^(٧) غاية
 أناس إذا لاقيت من شئت منهم
 وقد درجت أعمارهم فتطلعوا
 ثلاثة أمجاد من الشقر الألى
 أكلتهم^(٩) ثكلا دمي العين والحشا
 كفى حزنا أني تباعدت عنهم
 وإلا^(١٠) متى أسلو^(١١) بهم كل راكب
 أباحته عن صالحات عهدتها
 محيا خليل غاض ماء حياته
 وأزهر كالإصباح قد كنت أجتلي
 فتى لم يكن خلو الصفات من الندى
 يصرف ما بين اليراعة والقنا
 طويل نجاد السيف لان كأنما
 سقته على ما فيك من أزيحية

أضاءت ومن للدر أن يشبه البذرا^(٢)
 هي الوطن المحبوب أوكله^(٤) الصدرا^(٥)
 فلا لثمت تغلي مساكنها الخضرا
 تضم فتاما التذب أو كهلها الحرى
 فبادت لياليهم فهل أشتكي الدهرا؟
 عليهم قبيبات فويق الثرى غبرا
 أبى الله أن يرعى السماك أو النشرا
 وغير محمود جياذ العلا خضرا^(٨)
 تلقوك لا غث الحديث ولا غمرا
 هلال ثلاث لو شفا رق أو بذرا
 زكوا خبرا بين الورى وزكوا خبرا
 فعجر ذا أما وسجر ذا جمرأ؟
 فلم ألق من سري منها ولا سزا
 ليظهر لي خيرا تأبط لي سزا
 هناك فيسبيني^(١٢) بما يقصم الظهرا
 وساكن قصر ضر^(١٣) مسكنه القبرا
 سناء كما يستقبل الأرق القجرا
 ولم يتناس الجود أضرم أم أثرا
 أنامله لا بل هواطله القسرا
 تخطى به في البرد خطية سمرأ
 خلائق هن الخمر أو تشبه الخمرا

(١) في الأصل: «جذتها» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(٢) في الأصل: «الدر» والتصويب من الديوان. (٣) صدر هذا البيت منكسر الوزن.

(٤) في الأصل: «أوكلته» وكذا ينكسر الوزن.

(٥) من هنا حتى آخر الأبيات غير وارد في الديوان.

(٦) صدر البيت مختل الوزن والمعنى.

(٨) عجز البيت مختل الوزن والمعنى.

(٩) في الأصل: «وإلى» وكذا ينكسر الوزن.

(١٠) في الأصل: «أسل» وكذا ينكسر الوزن.

(١١) في الأصل: «أضر» وكذا ينكسر الوزن.

(١٢) في الأصل: «فيسبيني» وكذا ينكسر الوزن.

وَنَشْرُ مُخَيًّا لِلْمَكَارِمِ لَوْ سَرَتْ
هَلِ السُّعْدُ إِلَّا حَيْثُ حَطَّ صَعِيدُهُ
طَوَيْنَ اللَّيَالِي طَيُّهِنَّ وَإِنَّمَا
فَلَا خُرِمَتْ سَقِيَاهُ أَدْمَعَ مُزْنُهُ
وَمَا دَعَوْتِي لِلْمُزْنِ عُذْرًا لِدَعَوْتِي
حُمِيَاهُ فِي وَجْهِ الْأَصِيلِ لَمَّا أَصْفَرَا
لَمَنْ بَلَّ فِي شَفْرِي ضَرِيحَ لَهُ شَفْرَا؟
أَطْوَيْنَ^(١) عُنِّي التَّجْلُدَ وَالصُّبْرَا
تَرَى مَبْسَمَ الثَّوَارِ عَنَبَرٌ مُغْتَرَا
إِذَا مَا جَعَلْتَ الْبُعْدَ عَنْ قُرْبِهِ عُذْرَا

وقال يرثي أبا محمد بن أبي العباس بمالقة^(٢): [الكامل]

أَبْنِي الْبَلَاغَةَ، فِيمَ خَفِلَ النَّادِي؟
أَمَّا الْبَيَانُ، فَقَدْ أَجَرَ لِسَانَهُ
عَرَشَتْ سَمَاءُ^(٣) عُلَاكُمُ^(٤) مَا أَنْتُمْ
خُطُّوا عَلَى عُمْدِ الطَّرِيقِ فَقَدْ خَبَا^(٥)
مَا قُلْ لَهْذَمُهُ^(٦) الصَّقِيلُ وَإِنَّمَا
إِيهِ عَمِيدَ الْحَيِّ غَيْرِ مُدَافِعِ
مَا عُذْرُ سِلْكِ كُنْتَ عَقْدَ نِظَامِهِ
حَسْبُ^(٨) الزَّمَانِ عَلَيْكَ تُكَلَّا أَنْ يُرَى
يَوْمِي بِأَنْجُمِهِ لِمَا قَلْدَتْهُ
كَثَفُ الْحِجَابِ فَمَا تَرَى مُتَفَضِّلَا
أَلِمَ بِرَبِّكَ غَيْرَ مَأْمُورٍ فَقَدْ
خَبِرَا يُبَلِّغُهُ إِلَيْكَ وَدُونَهُ
قَدْ طَاطَأَ الْجَبَلُ الْمَنِيفَ قَذَالَهُ
أَعِدِ التَّفَاتِكَ نَحُونَا وَأَظْنَهُ

هَبْنَهَا عُكَاطًا، فَأَيْنَ قُسْ إِيَادِي؟
فِيكُمْ بِفَتْكَتِهِ الْجِمَامِ الْعَادِي
مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ الشُّهَابِ الْهَادِي
لِأَلَاءِ^(٦) ذَاكَ الْكُوكَبِ الْوَقَّادِ
تُثِرَتْ كَعُوبُ قَنَاكُمُ الْمَنَادِ
إِيهِ فِدَى لَكَ غَابِرِ الْأَمْجَادِ
إِنْ لَمْ يَصِرْ بُرْدًا إِلَى الْآبَادِ؟
مِنْ طَوْلِ لَيْلٍ فِي قَمِيصٍ جَدَادِ
مِنْ دُرِّ الْفَاطِ وَبِيضِ إِيَادِ
فِي سَاعَةٍ تُصْغِي بِهِ وَتُنَادِي^(٩)
غُصَّ الْفَنَاءِ^(١٠) بِأَرْجُلِ الْقُصَادِ
أَمِنْ الْعُدَاةِ وَرَاحَةِ الْحُسَادِ
لِلْجَارِ بَعْدَكَ وَاقْشَعِرُّ الْوَادِي^(١١)
مِثْلَ الْحَدِيثِ لَدَيْكَ غَيْرُ مَعَادِ

(١) في الأصل: «طوين» وكذا ينكسر الوزن.

(٢) هو الفقيه الأديب عبد الله بن أبي العباس الجذامي المالقي، وله شعر في مدح يوسف بن عبد المؤمن الموحد. المغرب (ج ١ ص ٤٢٦). والبيت الأول في المغرب (ج ١ ص ٤٢٦) وبعض أبيات هذه القصيدة في ديوان الرصافي البلنسي (ص ٦٠ - ٦١).

(٣) في الأصل: «سما» وكذا ينكسر الوزن. (٤) في الأصل: «علايكم» وكذا ينكسر الوزن.

(٥) في الأصل: «خبت». (٦) في الأصل: «لألى» وكذا ينكسر الوزن.

(٧) في الأصل: «لهزمه» بالزاي. واللّهزم: اتحاذ القاطع من الأسته. محيط المحيط (لهزم).

(٨) في الأصل: «حيث» والتصويب من الديوان. (٩) في الأصل: «وتناد» بدون ياء.

(١٠) في الأصل: «الفناء» بدون همزة وكذا ينكسر الوزن.

(١١) في الأصل: «الواد» بدون ياء.

وامسح لنا عن مقلتيك من الكرى
 هذا الصباح ولا تهب إلى متى
 وكأنما قال الردى ثم وادعا
 أموسدا تلك الرخام بمرقد
 خصبت بقدرك حفرة فكانها
 وثر لجنبك من أثاث مخيم
 يا ظاعنا ركب السرى في ليلة
 أعزز علينا إن خططت بمنزل
 جار الأفراد هنالك جيرة^(٣)
 الساكنين إلى المعاد، قبائبهم
 من كل ملقية الجراب بمضرب
 بمعرس السفر الألى ركبوا السرى
 سيان فيهم ليلة ونهارها
 لحق البطون من اللعب على الطوى^(٤)
 لله هم فلشد ما نقضوا من أم
 يا ليت شعري والمنى لك جنة
 هل للعلا بك بغيرها من نهضة
 بأبي وقد ساروا بنغشك صارم
 دلت عواتق حامليك فلانهم
 نعم الذماء^(٥) البر ما قد غوروا
 علياء^(٦) خص بها الضريح وإنما

نومًا تكابد من بكا وسهاد
 طال الرقاد ولات حين رقاد
 سبقت إلى البشرى بخشن معاد
 أخشن به من مرقد ووساد
 من جوفها في مثل حرف الضاد
 تذب الندى^(٧) وصفائح أنضاد
 طار الدليل بها وحاد الحادي
 تبلى^(٨) عن الزوار والسفود
 سقيًا لتلك الجيرة الأفراد!
 منشورة الأطناب والأغماد
 ناب البلى فيه عن الأوتاد
 مجهولة الغايات والآماد
 ما أشبه التأريب بالإسناد
 وعلى الرواحل عنفوان الزاد
 شعة الحياة^(٩) حقائب الأجساد
 والسحال مؤذنة بطول بعداد
 أم لانقيضاء نواك من ميعاد؟
 كثرت حمائله على الأكتاد^(١٠)
 شاموك في غمد بغير إجاد
 جثمانه بالأبرق المنقاد
 نعم الغوير بأبؤس الأنجاد

(١) في الأصل: «ند» وكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «تبلى» وكذا لا يستقيم لا الوزن ولا المعنى.

(٣) صدر البيت منكسر الوزن.

(٤) صدر البيت غير مستقيم الوزن والمعنى. والطوى: الجوع. محيط المحيط (طوى).

(٥) في الأصل: «... الحياة في حقائب...» وكذا ينكسر الوزن، لذا حذفنا كلمة «في».

(٦) الأكتاد: جمع كتد وهو مجتمع الكتفين. لسان العرب (كتد).

(٧) أصل القول: «الذماء» بدون همزة، وكذا ينكسر الوزن.

(٨) أصل القول: «علياء» بدون همزة، وكذا ينكسر الوزن.

أبني العباس، أي حلا حل
هل كان إلا العين وافق سَهمها
أخلل بمجد لا يسد مكائه
ولكنم يرى بك من هضاب لم يكن
ما زلت تُنعشها بسنينك قابضا
حتى أراك أبا محمد الردي
يا حرها من جَمرة مشبوبة
كيف العزاء وإنها لرزية
صدع النعاة بها فقلت لمدمي
لك من دمي ما شئت غير مُتَهَنِّه
بقصير مجتهد وخسبك غاية
أما الدموع فهن^(١) أضعف ناصر
ثم السلام ولا أغب قراره
تسقيك ما سَفَحَتْ عليك يراعة

سَلَبَتْكُمْ الدُّنْيَا وَأَيَّ مَصَادٍ
قَدَرًا فَأَقْصَدَ أَيْمًا إقصاد؟
بالإخوة الشُّجْبَاءِ والأولاد
لولاك غيرُ ذَكَادِكِ ووهاد
منها على الأضباع والأعضاء
كيف انهداد بواذخ الأطواد
يلقى لها الأيدي على الأكتاد
خرج الأسى فيها عن المعتاد
كيف انسيكائبك يا أبا الجواد؟
صب كيف شئت مُعَصِفِر الأبراد
لو قد بَلَقْتَ بها كبير مُراد
لكنهن كَثِيرَةُ التُّعْدَادِ^(٢)
وأزتك صوب روائح وغواد
في خد قرطاس دموع مِدادٍ

ومن غرامياته وإخوانياته قوله من قصيدة^(٣): [البسيط]

عاد الحديث إلى ما جرَّ أطيبه
إيه عن الكذبة البيضاء إن لها
راوخ بها^(٤) السهل من أكنافها وأرخ
وانضخ نواجيها^(٥) من مقلتيك وسل
وقل لسرخته يا سرخة كرمث
يا عذبة الماء والظل أنعمي طفلا
ماذا على ظلك الألمي وقد قلصت

والشيء يبعث ذكر الشيء عن سبب
هوى بقلب^(٦) أخيك الواله الوصيب
ركابنا ليلنا^(٧) هذا من الثغب
عن^(٨) الكتيب الكريم العهد في الكتب^(٩)
على أبي عامر: عزي عن السحب
حييت مفسية ميادة القضب^(١٠)
أفياؤه لو ضفا شيئا لمغشرب

(١) في الأصل: «فهي» وكذا ينكسر الوزن. (٢) في الديوان: «الأعداد».

(٣) القصيدة في ديوان الرصافي البلنسي (ص ٣١ - ٣٤).

(٤) في الأصل: «يغلب» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(٥) في الديوان: «بنا». (٦) في الديوان: «ليلها».

(٧) في الديوان: «جوانبها». (٨) في الأصل: «من» والتصويب من الديوان.

(٩) في الديوان: «الكتب» بالكاء المثناة.

(١٠) في الأصل: «الغضب» والتصويب من الديوان.

أَمْ كَذَا تَنْقُضِي نَفْسِي لَدَيْكَ ظَمًا
لَوْلَاكِ يَا سَرَّحَ لَمْ يَبْقَ^(٢) الْفَلَا عَطْلًا
وَلَمْ تَبَيْتْ نَتَقَاضِي مِنْ مَدَامَعِنَا
إِنَّا^(٣) إِذَا مَا تَصَدَّى مِنْ هَوَى طَلَلِ
مُسْتَغْطِفِينَ سَخِيَّاتِ الشُّوْنِ لَهُ
سَلِي خَمِيلَتِكَ الرُّيَا بَايَةً^(٤) مَا
عَنْ فِثْيَةٍ نَزَلُوا عَلَيَا^(٥) سَرَارَتِهَا
مَحَافِظِينَ عَلَى الْعَلْيَا وَرُئْتُمَا
حَتَّى إِذَا مَا قَضَوْا مِنْ كَاسِهَا وَطَرَا
رَاحُوا رَوَاحًا وَقَدْ زِيدَتْ عَمَائِمُهُمْ
لَا يُظْهَرُ الشُّكْرُ^(١٠) حَالًا مِنْ^(١١) ذَوَائِبِهِمْ
الْمُنْزَلِينَ الْقَوَافِي مِنْ مَعَاقِلِهَا
وَمِنْ مَقْطُوعَاتِهِ قَوْلُهُ^(١٣): [الطويل]

دَعَاكَ خَلِيلَ وَالْأَصِيلَ كَأَنَّهُ
إِلَى شَطِّ مُنْسَابٍ كَأَنَّكَ مَآوُهُ
وَمَهْوَى جَنَاحٍ لِلصُّبَا يَمْسَحُ الرُّبَى
وَفَتَيَانِ صَدَقِ كَالنَّجُومِ تَأَلَّفُوا
عَلِيلٌ يُقْضِي مَدَّةَ الزَّمَنِ الْبَاقِي^(١٤)
صَفَاءَ ضَمِيرٍ أَوْ عَذُوبَةَ أَخْلَاقٍ^(١٥)
خَفِيَّ الْخَوَافِي وَالْقَوَادِمِ خَفَاقٍ
عَلَى النَّأْيِ مِنْ شَتَّى بَرُوجِ وَأَفَاقٍ

(١) الجار الجُنب: الذي يجاور واحدًا ونسبة في قوم آخرين، فهو في الأصل غريب.

(٢) في الديوان: «لم يُبق». (٣) في الديوان: «أخًا».

(٤) في الأصل: «يحاك» والتصويب من الديوان.

(٥) في الأصل: «مَمُوق»، وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(٦) في الديوان: «الآية».

(٧) في الأصل: «على» والتصويب من الديوان. والسرارة من الشيء: وسطه وأفضله.

(٨) في الأصل: «الدى جَدَّ» والتصويب من الديوان.

(٩) في الأصل: «أسفى من الشَّهْب» والتصويب من الديوان.

(١٠) في الأصل: «الشكر» والتصويب من الديوان.

(١١) في الأصل: «في» والتصويب من الديوان.

(١٢) في الأصل: «التفات» والتصويب من الديوان.

(١٣) ورد منها في الديوان (ص ١١٧) فقط البيت الثاني.

(١٤) في الأصل: «الباق» بدون ياء.

(١٥) في الأصل: «صفًا ضميرًا وعذوبة أخلاق» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

على حين راح البرق في الجو مُغمداً .
وجالت بعيني في الرياض التفاتة
على سطر خيرى ذكرتك فانشى
وقف وقف المحبوب منه فإنها
وصل زهرات منه صُفر كأنها

ظباء ودفع المزن في جفنه راق
حبست بها كاسي قليلاً عن الساقى^(١)
يميل بأعناقٍ ويرنو بأحداق
شمائل مشغوف بمراك مشتاق
وقد خضلت قطراً محاجر عشاق

وقال، وكلفها في حائك، وهو بديع^(٢): [البسيط]

قالوا وقد أكثروا في حبه عذلى^(٣)
فقلت لو أن أمرى في الصبابة لي
في كل قلب عزيزات مُدلة
علقت حبيبي^(٥) الشجر عاطرة
إذا تأملت أعطاك مُلتفتاً
هيهات أبغى به من غيره بدلاً
عزّل لم تزل في الغزل جائلة
جذلاً تلعّب بالمحراك^(٨) أنمله
ما إن يني تعب الأطراف مُشتغلاً
ضرباً^(١٠) بكفيه أو فخصاً بأخمصه

لو لم تهم بمُذال^(٤) القدر مُبتذل
لاخترت ذاك ولكن ليس ذلك لي
للحسن والحسن ملك حيث جلّ ولي
درى لون المَحْيَا أخور المَقْل^(٦)
ما شئت من لحظات الشادن الوجل^(٧)
أخرى الليالي وهل في الغير من بدل؟
بنانه جَوْلَان الفِكر في الغزل
على السدى لعب الأيام بالامل^(٩)
أفديه من تعب الأطراف مُشتغل
تخبط الظني في أشراك مُحتل

وقال^(١١): [الكامل]

ومَهْفَهف كالعُصن إلا أنه
سَلَب الثُّنْثي النوم عن أثنائه

(١) في الأصل: «الساق» بدون ياء.

(٢) الأبيات في ديوان الرصافي البلنسي (ص ١٢١ - ١٢٢). وجاء في المغرب (ج ٢ ص ٣٥٢): «وقوله في غلام حائك».

(٣) في الأصل: «عذل» والتصويب من الديوان.

(٤) في الأصل: «بمزال» بالزاي، والتصويب من الديوان. والمُذال: الممتهن، المبتذل.

(٥) في الأصل: «حبيبي». وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

(٦) في الديوان: «الْمى المُقْبِل أخوى ساجر المُقْل».

(٧) في الديوان «الغزل».

(٨) في الأصل: «بالمحراك»، والتصويب من الديوان.

(٩) في الديوان: «بالدول». (١٠) في الديوان: «جذباً».

(١١) البيتان في ديوان الرصافي البلنسي (ص ٢٨).

أضحى يَنَامُ وقد تَخَذَ (١) خَدَهُ عَرَقًا فَقَلْتُ الْوَزْدُ رُشَ بِمَائِهِ
وقال (٢): [الوافر]

أِدْرَهَا فالغمامة قد أجالَتْ وراق الروض طاورسًا بهيًّا
سيفَ البرق في لَمَم البطاح تهبُّ عليه أنفاس الرياح
تقول وقد ثنى قُزَح عليه ثياب الغيم مُغْلَمة النواح
خذوا للصُّخو أفتتكنم فإني أعزْتُ المزن قَادِمَتِي جَنَاح
وقال (٣): [الطويل]

أِدْرَهَا على أمر فما ثم من باس وإن جَدَّدَتْ آذَانَهَا ورق الآس
وما هي إلا ضاحكات غمامم لواعبُ من ومض البروق بمقياس
ووفد رياح رُغَزَع النهر مَدَّهُ كما وطئت دِرْعًا سَنَابِك أفراس
وقال في وصف مغنٍّ مُحسن (٤): [الكامل]

وَمُطَارِحٌ مِمَّا تَجَسُّ (٥) بَنَانُهُ صَوْتًا (٦) أَفَاضَ عَلَيْهِ ماءً وَقَارِهِ
يَثْنِي الحِمَامَ فلا يَرُوحُ لَوَثَرِهِ طَرَبًا وَرِزْقُ بَنِيهِ فِي مِثْقَارِهِ
وقال يصف جدول ماء عليه سَرَحَةٌ، ولها حكاية معروفة (٧): [الكامل]

وَمَهْدَلِ الشُّطُطَيْنِ تَحْسَبُ أَنَّهُ مَسَّيْلٌ مِنْ دُرَّةٍ لِصَفَائِهِ
فَاءَتْ عَلَيْهِ مع العَشِيَّةِ (٨) سَرَحَةٌ صَدِثَتْ لِقَيْثَتِهَا صَفِيحَةٌ مَائِهِ
فَتَرَاهُ أَزْرَقَ فِي غِلَالَةِ سُفْسَرَةٍ كَالذَّرَاعِ اسْتَسْلَقَى بِظِلِّ لَوَائِهِ
نثره: قال من مقامة يصف القلم (٩): [المقارب]

قَصِيرُ الْأَنَابِيِبِ (١٠) لَكِنَّهُ يَطُولُ مَضَاءً (١١) طَوَالِ الرُّمَاحِ

-
- (١) في الديوان: «تَجَبَّ». (٢) الأبيات لم ترد في ديوان الرصافي البلنسي.
(٣) هذه الأبيات لم ترد أيضًا في ديوان الرصافي البلنسي.
(٤) البيتان في ديوان الرصافي البلنسي (ص ١٠١).
(٥) في الأصل: «تَحَسُّ» بالحاء المهملة، والتصويب من الديوان.
(٦) في الديوان: «لَحْنًا».
(٧) الأبيات في ديوان الرصافي البلنسي (ص ٢٦ - ٢٧).
(٨) في الديوان: «الهِجِيرَةُ».
(٩) لم ترد هذه الأبيات في ديوان الرصافي البلنسي.
(١٠) في الأصل: «كَالْأَنَابِيِبِ» وكذا ينكسر الوزن. (١١) في الأصل: «مَضَاءً».

إذا عبّ للنفس في دأيسٍ ودبّ من الطُّرس فوق الصَّفاحِ
تجلّت به مُشكلاتُ الأمور ولان له الصَّغْبُ بعد الجِماحِ

فلولا هو^(١) لَغَدَت أغصان الاكتساب ذاوية، وبيوت الأموال خاوية، وأسرعت إليها البُوسى، وأصبحت كفؤاد أم موسى، فهو لا محالة تَجْرُها الأربع، وميزانها الأربع. به تَدُرُ ألبانها، وتثمر أفنانها، وتستمرّ أفضالها وإحسانها، وهو رأس مالها، وقُطْبُ عُمَالِها وأعمالها. وصاحب القلم قد حوى المملكة بأسرها، وتحكّم في طيّها ونشرها، وهو قُطْبُ مدارها، وجُهينة أخبارها، وسِرُّ اختيارها واختبارها، ومظهر مجدها وفخارها، يعقد الرّايات لكل والٍ، ويمنحهم من المبرة كل صافية المقيّل ضافية السُربال، يُطفي جَمرة الحرب العوان، ويكايد العدو بلا صارم ولا سينان، يقدُ المفاصل، ويتخلل الأباطح والمعازل، ويقمع الحواسد والعوذال.

وفاته: توفي بمالقة يوم الثلاثاء لإحدى عشرة بقية من رمضان سنة اثنتين^(٢) وسبعين وخمسمائة. وقبره مشهور بها.

محمد بن قاسم بن أبي بكر القرشي المالقي

من أهل مالقة، وسكن غرناطة وتردد إليها.

حاله: كان لبيباً لودعياً، جامعاً لخصال؛ من خطّ بارع، وكتابة، ونظم، وشطرنج، إلى نادر حار، وخاطر ذكي، وجُرأة. توجه إلى العُدوة، وارثم بها طبيباً؛ وتولّى النظر على المارستان بفاس في ربيع الثاني من عام أربعة وخمسين وسبعمئة.

شعره: أنشدني بمدينة فاس عام ستة وخمسين، في وُجهتي رسولاً إلى المغرب، قوله في رجل يقطع في الكاغد: [المجث]

أبا عليّ حَسِينا	أين الوفا منك أيناً؟
قد بيتن الدمع وَجدي	وأنت تزدد بَيْننا
بَلْتُ لحاظك قلبي	تالله ما قَلْتُ مينا
قطّ المقصّ لهذا	سبب الصَّب مينا
بقيت تفتّر حُسنا	ودمت تزدد زَيْننا

(١) أي: فلولا.

(٢) في الأصل: «اثنتين» وهو خطأ نحوي.

وقال أيضًا: [البسيط]

فَظُلُّ التَّجَارَاتِ بَادٍ فِي الصَّنَاعَاتِ لَوْلَا الَّذِي هُوَ فِيهَا هَاجِرٌ عَاتٍ
حَازَ الْجَمَالَ فَأَعْيَانِي وَأَعْجَزَنِي وَإِنْ دَعَيْتُ بِمَوْضَافٍ وَنَعَاتٍ

وكان شديد المغالطة، ذاهبًا أقصى مذاهب القحّة، يحرك مَنْ لا يتحرك، ويُغضب مَنْ لا يغضب. عَثَبَ يومًا جدّته على طعام طبخته له، ولم يستطِبه، وكان بين يديه القط يصدعه بصياح طلبه، فقال له: ضجّراء، خمسمائة سوط، فقالت له جدّته: لم تعط هذه السياط للقط، إنما عثيتني بها، وأعطيتها باسم القط، فقال لها: حاش لله يا مولاتي، وبهذا البخل تدريني أو الزحام عليها، بل ذلك للقط حلالًا طيبًا، ولك أنت ألف من طيبة قلب، فأرسلها مثلًا، وما زلنا نتفكّه بذلك، وكان في هذا الباب لا يُشَقُّ غباره.

مولده: بمالقة عام ثلاثة وسبعمئة.

وفاته: بعث إليّ الفقيه أبو عبد الله الشّديد، يعرفني أنه توفي في أواسط عام سبعة وخمسين وسبعمئة.

محمد بن سليمان بن القصيرة^(١)

أبو بكر، كاتب الدولة اللّمتونية، وعلمُ وقته.

حاله: قال ابن الصيرفي: الوزير الكاتب، الناظم، النّائر، القائم بعمود الكتابة، والحامل لواء^(٢) البلاغة، والسابق الذي لا يُشَقُّ غباره، ولا تخمد أبدًا أنواره. اجتمع له براعة الثّر، وجزالة النظم، رقيق النّسيج، خفيف المثن، رُقعتة ما شئت في العين واليد. قال ابن عبد الملك^(٣): وكان كاتبًا مجيدًا، بارع الخط، كتب عن يوسف بن تاشفين^(٤).

مشيخته: روى عن أبي الحجاج الأعلام، وأبي الحسن بن^(٥) شريح، وروى عنه أبو الوليد هشام بن يوسف بن الملجوم، لقيه بمراكش^(٦).

(١) ترجمة ابن القصيرة في الذخيرة (ق ٢ ص ٢٣٩) والمغرب (ج ١ ص ٣٥٠) والمطرب (ص ٧٦) والمعجب (ص ٢٢٧) والوافي بالوفيات (ج ٣ ص ١٢٨) والمحمدون من الشعراء (ص ٣٥٨) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٢٢٧) وقلائد العقيان (ص ١٠٣) والصلة (ص ٨٣٠) والبيان المغرب (ج ٤ ص ٦٠) ونفع الطيب (ج ٦ ص ١٣٠) و(ج ٩ ص ٢٥٧).

(٢) في الأصل: «اللواء». (٣) الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٢٢٧).

(٤) في الذيل والتكملة: «كتب عن أبي يعقوب يوسف بن تاشفين اللّمتوني».

(٥) في الذيل والتكملة: «أبي الحسن شريح».

(٦) في الذيل والتكملة: «لقية بمراكش سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة».

شعره: وهو عندي في نمط دون ما وُصف به. فمن ذلك قوله من قصيدة أنحى فيها على ابن ذي الثون، ومدح ابن عباد، عند خلع ابن جهور، أبي الوليد، وتضهير قرطبة إليه: [الطويل]

فَسَلَّ عَنْهُ أَحْشَاءُ ابْنِ ذِي الثَّوْنِ هَلْ سَرَى
وَهَلْ قَدَّرْتَ مَذْ أَوْحَشْتُهُ طَلَانْعُ الْـ
أَلَمْ يَجْنِ يَحْيَى مِنْ تَعَاطِيكَ ظَلَهُ
لَجَارَاكَ وَاسْتَوْفَيْتَ أَبْعَدَ غَايَةِ
فَأَحْرَزْتَ فَضْلَ السَّبْقِ عَفْوًا وَكُفَّهُ
وَيَا شَدَّ مَا أَغْرَثَهُ قَرْطَبَةُ وَقَدْ
وَمَنْسَهَا:

أَتَتْكَ وَقَدْ أَرَزَى بِبَهْجَةِ حُسْنِهَا
فَالْبَسْتَهَا مِنْ سَابِغِ الْعَدْلِ حَلَّةَ
وَجَاءَتْكَ مَتَفَالًا فَضَمَّخَ حَيْثُهَا
وَأَجَرَيْتَ مَاءَ الْجُودِ فِي غَرَصَاتِهَا
وَطَابَ هَوَاءٌ^(٤) أَفْقِيهَا فَكَانَهَا
وَمَا أَذْرَكْتَهُمْ فِي هَوَاكَ هَوَادَةً
وَمَا قَلَدُوكَ الْأَمْرَ^(٥) إِلَّا لَوَاجِبِ
وَبَوَّاهُمْ فِي ذُرْوَةِ الْمَجْدِ مَغْقِلًا
وَأَوْرَدَهُمْ مِنْ فَضْلِ سَيْبِكَ مَوْرَدًا
فَلَوْلَاكَ لَمْ تُفْصَلْ عُرَى الْإِضْرِ عَنْهُمْ
أَعْدَتْ نَهَارَ لَيْلِهِمْ وَلَطَالَمَا
وَلَا زِلْتَ تُؤْوِيهِمْ إِلَى ظِلِّ دَوْحَةٍ

وَلَا أَنَّهَا^(٢) مِنْ جَوْرِ مَالِكِهَا طَمْرُ
زَهَايَا بِهَا تِيَّةَ وَغَازِلَهَا كِبَرُ
وَأَزْدَانِهَا^(٣) مِنْ ذِكْرِكَ الْمُغْتَلِي عِطْرُ
فَرَوْضِ حَتَّى كَادَ أَنْ يُورِقَ الصُّخْرُ
تَهَبُّ نَسِيمًا فِيهِ أَخْلَاقُكَ الزُّهْرُ
وَمَا أَتَمَرُوا إِلَّا لِمَا أَمَرَ الْبَرُّ
وَمَا^(٦) جَنَّتْ فِيهِ الْمُجْرِبُ وَالْعَمْرُ
حَرَامٌ عَلَى الْأَيَّامِ إِلِمَامُهُ حَجَرُ
عَلَى كَثْرَةِ الْوَارِدِ مَشْرَعُهُ غَمْرُ
وَلَا انْفَكُّ مِنْ رَيْقِ الْأَذَى لَهُمْ أَسْرُ
أَرَاهُمْ نَجْوَمَ اللَّيْلِ فِي أَفْقِهِ الظَّهْرُ
مِنْ الْعَزِّ فِي أَرْحَابِهَا النَّعْمُ الْخَضْرُ

(١) في الأصل: «أن» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «ولا لأنها» وهكذا ينكسر الوزن.

(٣) همزة الوصل هنا جعلناها همزة قطع لكي لا ينكسر الوزن.

(٤) في الأصل: «هوا» وهكذا ينكسر الوزن. (٥) في الأصل: «الامر» وهكذا ينكسر الوزن.

(٦) كلمة «وما» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن والمعنى.

كتابته: وهي من قلة التصنع والإخشوشان، بحيث لا يخفى غرضها، ولكل زمان رجاله. وهي مع ذلك تُزينها السذاجة، وتشفع لها الغضاضة. كتب عن الأمير يوسف بن تاشفين ولاية عهده لولده:

«هذا كتاب تولية عظيم جسيم، وتوصية حميم كريم، مُهدت على الرضا قواعده، وأكّدت بيد التقوى مواعده ومعاقده، وسُدّدت إلى الحُسنى مقاصده، وأبعدت عن الهوادة والهوى مصادره ومواردّه. أنفذه أمير المسلمين، وناصر الدين، أبو يعقوب يوسف بن تاشفين، أدام الله أمره، وأعز نصره، وأطال فيما يرضيه منه، ويرضى به عنه عمره، غير مُحابٍ، ولا تارك في النصيحة لله ولرسوله والمسلمين مَوْضِعَ اَرْتِيَابٍ لمرتاب، للأمير الأجل أبي الحسن عليّ ابنه، المُتَقَبِّلُ هَمِّهِ وَشِيمِهِ، المتأثل جلمه وتحلمه، الناشئ في جُحْرِ تَقْوِيهِ وتأديبه، المتصرف بين يدي تخريجه وتذريبه، أدام الله عزّه وتوفيقه، ونهج إلى كل صالح من الأعمال طريقه، وقد تهَمُّ بمن تحت عصاه من المسلمين، وهدى في انتقاء مَنْ يخلفه هدى المتقين، ولم ير أن يتركهم بعد سُدى غير مدينين، واعتماد في الثَّصاب الرفيع واختار واستنصح أولي الرأي والدين، واستشار فلم يوقع بعد طول تأمل، وتراخي مدة، وتمثل اختياره، واختبار مَنْ فَاوضه في ذلك من أولي التقوى والحُكْمَة واستشارة الأغلبية، ولا صار بدونهم الارتياح والاجتهاد إلّا إليه، ولا التقى رُؤَادُ الرَّأْي والتشاور إلّا لديه. فولّاه عن استحكام بصيرة، وبعد طول مَشُورَة، عهده، وأفضى إليه الأمر والنهي، والقَبْضُ والبَسْطُ عنده بعده، وجعله خليفته السّاد في رعاياه مَسْدُه، وأوطأ عَقْبُه جماهير الرجال، وناط به مهمات الأمور والأعمال، وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع، ولا يعدل عن سَمْتِ العدل وحُكْمِ الكتاب والسُّنّة في أحد عصا أو أطاع، ولا ينام عن حماه الخيف والخوف بالاضطجاع، ولا يتلَيَّنْ دون معلن شكوى، ولا يتصام عن مُسْتَصْرَخٍ لذي بَلْوَى، وأن ينظم أقصى البلاد وأدناها في سِلْكِ تدييره، ولا يكون بين القريب والبعيد بَوْنٌ في إحصائه وتقديره. ثم دعا، أدام الله تأييده، لمبايعته، أدام الله عزّه ونصره، مَنْ حضر ودنا من المسلمين، فلبّوا مسرعين، وأتوا مُهْطِعِينَ، وأعطوا صفقة إيمانهم متبرعين متطوعين، وبأيعوه على السمع والطاعة، والتزام سَنَنِ الجماعة، وبذل النصيحة جهد الاستطاعة، ومناصفة مَنْ ناصفه، ومُحَارِبَة مَنْ حاربه، ومكايده مَنْ كايده، ومُعَانِدَة مَنْ عانده، لا يدْخِرُون في ذلك على حال المَنْشُطِ مقدرة، ولا يحتجون في حالتي الرضا والسخط إلى مَعْذَرَة. ثم أمر بمخاطبة سائر أهل البلاد لمبايعته، كل طائفة منهم في بلدها، وتعطيه كما أعطاه من حضر صفقة يدها، حتى ينتظم في التزام طاعته القريب والبعيد، ويجتمع على الاعتصام بحبل دعوته الغائب الإحاطة في أخبار غرناطة/ ج ٢/ م ٢٤

والشهيد، وتطمئن من أعلام الناس وخيارهم نفوس قلقة، وتنام عيون لم تزل مخافة إقذائها مُورقة، ويشمل الناس كافة السرور والاستبشار، وتتمكن لديهم الدعة ويتمهد القرار، وتنشأ لهم في الصلاح آمال، ويستقبلهم جَدُّ صالح وإقبال. والله يبارك لهم ببيعة رضوان، وصفقة رُجحان، ودعوة يُمن وأمان، إنه على ما يشاء قدير، لا إله إلا هو، نعم المولى ونعم النصير. شهد على إسهاد أمير المسلمين بكل ما ذكر عنه فوق هذا من بيعته، ولقيه حَمَلة عنه ممن التزم البيعة المنصوصة قبل، وأعطي صفقته طائعا متبرعا بها. وبالله التوفيق. وكتب بحضرة قرطبة في ذي الحجة سنة ست وتسعين وأربعمائة.

دخل غرناطة غير ما مرة، وخذه، وفي ركاب أميره.

وفاته: توفي في جمادى الآخرة من عام ثمانية وخمسمائة.

محمد بن يوسف بن عبد الله بن إبراهيم التميمي المازني

من أهل سَرْقُسطة، ودخل غرناطة، وروى عن أبي الحسن بن الباذش بها، يكنى أبا الطاهر. وله المقامات اللزوميات المعروفة.

حاله: كان كاتباً لغوياً شاعراً، مُعْتَمِداً في الأدب، فرداً، متقدماً في ذلك في وقته، وله المقامات المعروفة، وشعره كثير مُدَوَّن.

مشيخته: روى عن أبي علي الصُّدفي، وأبي محمد بن السيد، وأبي الحسن بن الأخضر، وأبي عبد الله بن سليمان، المعروف بابن أخت غانم، وأبي محمد بن عتاب، وأبي الحسن بن الباذش، وأبي محمد عبد الله بن محمد التُّجيبِي الدُّكَلِي، وأبي القاسم بن صوابه، وأبي عمران بن أبي تليد، وغيرهم. أخذ عنه القاضي أبو العباس بن مضاء، أخذ عنه الكامل للمُبَرَّد، قال: وعليه اعتمد في تقييده. وروى عنه المُقَرِّء المُنِين الخطيب أبو جعفر بن يحيى الكتامي، وذكره هو وابن مضاء.

وفاته: توفي بقرطبة ظهر يوم الثلاثاء، الحادي والعشرين من جمادى الأولى، سنة ثمانٍ وثلاثين وخمسمائة، بِزَمَانَةٍ^(١) لازمته نحواً من ثلاثة أعوام، نفعه الله.

شعره: [الوافر]

أيا قَمَرُ، أتطلع من وشاح على غض فاخر من كل راح؟

(١) الزمالة: العاهة. لسان العرب (زمن).

أدار السُّخْرَ مِنْ عَيْنِيهِ خَمْرًا
وَأَهْدَى إِذْ تَهَادَى كُلُّ طَيْبٍ
وَأَخِيَا حِينَ حَيَا نَفْسَ صَبٍّ
وَسَوْغٍ مِنْهُ عَثْبِي بَعْدَ عَثْبٍ
وَأَجْنَانِي الْأَمَانِي فِي أَمَانٍ
وقال أيضًا: [الكامل]

وَمُنَّعِمِ الْأَعْطَافِ مَعْسُولِ اللَّمَى
لَمَّا ظَفَرْتُ بِلَيْلَةٍ مِنْ وَصْلِهِ
أَنْضَخْتُ وَرْدَةً خَذَهُ بِنَفْسِي
وقال أيضًا: [الكامل]

حَكَّتِ السُّلَافُ صِفَاتِهِ بِحَبَابِهَا
وَتَوَرَّدَتْ فَحَكَّتْ شَقَائِقَ خَذِهِ
وَصَفَّتْ فَوْقَ أَدِيمِهَا فَكَانَهَا
لَعِبَتْ بِالْبَابِ الرِّجَالِ وَغَادَرَتْ
مِنْ ثَغْرِهِ وَمَذَاقِهَا مِنْ رَشْفِهِ
وَتَأَرَّجَتْ فَيُسَيِّمُهَا مِنْ عَرْفِهِ
مِنْ حُسْنِ رَوْنَقِ وَجَنَّتِيهِ وَلُطْفِهِ
أَجْسَامُهُمْ صَرَعَى كِفْعَلَةَ طَرْفِهِ

«ومن الغرباء في هذا الحرف» محمد بن حسن العمراني الشريفي^(١)

من أهل فاس.

حاله: كان جهويًا ساذجًا، خشن البزة، غير مُرْهَف التَّجَنُّد، ينظم الشعر، ويذكر كثيرًا من مسائل الفروع، ومعاناة الفرائض، يُجَفِّعُ بِهَا فِي مَجَالِسِ الدَّرُوسِ، فشقي به المدرسون، على وتيرة من صحة السُّجِّيَّة، وحسن العهد، وقلة التصنع.

وجرى ذكره في الإكليل^(٢): كريم الانتماء، مستظل^(٣) بأغصان الشجرة الشَّعَاء، من رجل سليم الضمير، ذي باطن أَصْفَى من الماء الثَّمِير، له في الشعر طبع يشهد بعروية أصوله، ومضاء نصوله.

(١) ترجمة الشريف العمراني في الدرر الكامنة (ج ٤ ص ٤٦) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٤).

(٢) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٤). (٣) في النفع: «متظل».

فمن ذلك قوله يخاطب السلطان أمير المسلمين، وقد أمر له بكسوة:

[الطويل]

مَنْحَتْ مُنَحَّتِ النَّصْرَ وَالْعِزَّ وَالرِّضَا وَلَا زَلَّتْ لِلْعَلْيَا جَنِّي وَمَكَارِمًا^(٢)
وَلَا زَالَتْ الْأَمْلَاكُ بِاسْمِكَ تُتَّقَى وَلَا زَلَّتْ مِيمُونَ النَّقِيبَةِ ظَافِرًا
تُقَرُّ بِهِ الدِّينَ الْحَنِيفَ وَأَهْلَهُ وَصَلَتْ شَرِيفَ الْبَيْتِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
وَجَذَتْ بِإِعْطَاءِ اللَّجِينِ وَكُسُورِهِ وَمَا زَالَتْ الْأَنْصَارُ تَفْعَلُ هَكَذَا
فَخُذْ ذَا أَبَا الْحِجَاكِجِ مِنْ خَيْرِ مَا دَحَ هُمْ نَصَرُوا الْهَادِي وَأَوَّوْا وَجَدَّلُوا
فَقَدْ كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ غَاضٍ قَرِيبُهُ فَخُذْ ذَا أَبَا الْحِجَاكِجِ مِنْ خَيْرِ مَا دَحَ
وَنَظْمُ الْفَتَى يَسْمُو عَلَى قَدَرِ مَا يَرَى فَقَدْ كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ غَاضٍ قَرِيبُهُ
وَمَنْ حَكَمَ الْقَوْلَ اللَّهُمَّ مَتَّحِ اللَّهُمَّ وَنَظْمُ الْفَتَى يَسْمُو عَلَى قَدَرِ مَا يَرَى
فَلَا زَالَ يَهْدِيكَ الشَّرِيفَ قَصَائِدًا وَمَنْ حَكَمَ الْقَوْلَ اللَّهُمَّ مَتَّحِ اللَّهُمَّ

وقال يخاطب من أخلفته بوارق الأمل فيه، وخابت لديه وسائل قوافيه:

[البسيط]

الشَّغَرُ أَسْنَى كَلَامٍ خُصَّ بِالْعَرَبِ وَالْجُودُ فِي كُلِّ صِئْفٍ خَيْرٌ مَكْتَسِبِ
وَأَفْضَلُ الشَّعْرِ أَبْيَاتُ يَقْدُمُهَا فِي صَدْرٍ حَاجَتُهُ مَنْ كَانَ ذَا أَدَبِ
فَمَا يُؤَفِّي كَرِيمٌ حَقَّ مَادِحِهِ لَوْ كَانَ أَوْلَاهُ مَا يَحْوِيهِ مِنْ نَشَبِ
الْمَالِ يَفْنَى إِذَا طَالَ الشَّوَاءُ بِهِ وَالْمَدْحُ يَبْقَى مَدَى الْأَزْمَانِ وَالْحَقَبِ
وَقَدْ مَدَحْتُ لَأَقْوَامِ ذَوِي^(٦) حَسَبِ فِيمَا ظَنَنْتُ وَلَيْسُوا مِنْ ذَوِي حَسَبِ

(١) في الأصل: «له»، وكذا ينكسر الوزن. (٢) في الأصل: «مكارمًا»، وكذا ينكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «الملك»، وكذا ينكسر الوزن.

(٤) كلمة «بها» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن.

(٥) في الأصل: «نال» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

(٦) في الأصل: «ذي» وكذا ينكسر الوزن.

مدحتهم بكلام لو مدحت به دهري أمنت من الإملاق والنصب
فعاد مدحي لهم هجواً بصدقه من لؤمهم عودتي عنهم بلا أرب
فكان ما قلت من مدحهم كذباً استغفر الله من زورٍ ومن كذب

وقال في غرض يظهر من الأبيات، يخاطب السلطان: [الكامل]

ما لي أرى تاج الملوكة وحوله عَبدانٍ لا حلم ولا آدابُ
فكانه البازي الضيود وحوله نُغْرٌ^(١) يقلب ريشه وغرابُ
يا أيها المَلِكُ الكرامُ جدوده أسنى المحافل غيرها أترابُ
أبدلها بالبيض^(٢) من صفئها إن العبيد محلها الأبوابُ

وفاته: توفي في حدود ثمانية وأربعين وسبعمائة أو بعد ذلك^(٣).

محمد بن محمد بن إبراهيم بن المرادي ابن العشاب^(٤)

قرطبي الأصل، تونسي الولادة والمنشأ، ابن نعمة وغذي جاه وحرمة.

حاله: كان حياً فاضلاً كريماً، سخياً. ورد على الأندلس، مُقلّتا من نكبة أبيه، وقد عرّكته عرّك الرّحى لثقالها، على سُنن من الوقار والديانة والجماء، يقوم على بعض الأعمال النبيهة.

وجرى ذكره في الإكليل بما نصّه^(٥): جواد لا يتعاطى طلقه، وصُبح فضل لا يُماثل قلقه. كانت لوالده^(٦)، رحمه الله تعالى^(٧)، من الدول الحفصية منزلة لطيفة المحل، ومفاوضة في العقد والحل، ولم يزل تسمو^(٨) به قدم الثجابه، من العمل إلى المحجابه. ونشأ ابنه هذا مقضي الديون، مُقْدَى بالأنفس والعيون. والدهر ذو ألوان،

(١) الثُّر: البلبل. محيط المحيط (نغر).

(٢) في الأصل: «من البيض» وكذا ينكسر الوزن، لذا حذفنا كلمة «من».

(٣) قال في النفع (ج ٨ ص ٣٧٤): «وذكر في الإحاطة أن الشريف المذكور توفي في حدود ثمانية وثلاثين وسبعمائة».

(٤) ترجمة ابن العشاب في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢٢٤) وجاء فيه: «أبو عبد الله العشاب». وله ترجمة أخرى في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٤) وجاء فيه: «محمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم المرادي العشاب».

(٥) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٤ - ٣٧٥).

(٦) في النفع: «أبيه».

(٧) كلمة «تعالى» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من النفع.

(٨) في الأصل: «يسمو» والتصويب من النفع.

ومارِقُ حربِ عَوان^(١)، والأيامُ كُرَاتُ تُتَلَقَّف، وأهوال^(٢) لا تتوقَّف، فألوى بهم الدهر وأنحى^(٣)، وأغام جوهم بعقب ما أضحى^(٤)، فشملهم الاعتقال، وتعاورتهم^(٥) الثوب الثقال، واستقرت بالمشرق ركابه، وحطت به أقتابه، فحجج واعتمر، واستوطن تلك المعاهد وعمر، وعكف على كتاب الله تعالى^(٦) فجود الحروف، وأحكم^(٧) الخلف المعروف، وقيد وأسند، وتكرّر إلى دور الحديث وتردد، وقدم على هذا الوطن قدوم النسيم البليل، على كبد العليل. ولما استقر به قراره، واشتمل على جفنه غراره، بادرت إلى مؤانسته، وثابرت على مجالسته، فاجتليت للسرو^(٨) شخصاً، وطالعت ديوان الرفاء مُستقصاً.

شعره: وشعره ليس بحايد عن الإحسان، ولا عُقل من النكت الحسان. فمن ذلك ما خاطبني به^(٩): [الطويل]

يُيْمَنُ أَبِي عَبْدِ الْإِلَهِ ^(١٠) مُحَمَّدٍ	تَيَمَّنَ هَذَا الْقَطْرُ وَأَسَجَمَ الْقَطْرُ
أَفَاضَ عَلَيْنَا مِنْ جَزِيلِ عَطَائِهِ	بَحُورًا تَدِيمُ ^(١١) الْمَدَّ لَيْسَ لَهَا جَزْرُ
وَأَنَسْنَا لَمَّا عَدِمْنَا مَغَانِيًا	إِذَا ذُكِرَتْ فِي الْقَلْبِ مِنْ ذِكْرِهَا عِبْرُ ^(١٢)
هَنِيئًا بَعِيدِ الْفَطْرِ يَا خَيْرَ مَا جَدِ	كَرِيمَ بِهِ تَسْمُو السِّيَادَةُ وَالْفَخْرُ
وَدُمْتَ مَدَى الْأَيَّامِ فِي ظِلِّ نَعْمَةٍ	تُطِيعُ لَكَ الدُّنْيَا وَيَعْنُو ^(١٣) لَكَ الدَّهْرُ

ومما خاطب به سلطانه في حال الاعتقال: [البسيط]

لعلَّ عَفْوِكَ بَعْدَ السُّخْطِ يَغْشَانِي يَوْمًا فَيُنْعِشَ قَلْبَ الْوَالِدِ الْعَانِي^(١٤)

(١) الحرب العوان: الشديدة التي قُوتل فيها مرة بعد مرة. لسان العرب (عون).

(٢) في النفع: «وأحوال».

(٣) ألوى بهم الدهر، وأنحى عليهم الدهر: أهلكهم. لسان العرب (لوى) و(نحا).

(٤) في الأصل: «ما أضحى» والتصويب من النفع.

(٥) تعاورتهم: تداولت عليهم. لسان العرب (عور).

(٦) كلمة «تعالى» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من النفع.

(٧) في النفع: «وقرأ المعروف».

(٨) في النفع: «السرو». والسر: الفضل. محيط المحيط (سرو).

(٩) الأبيات في نفع الطبيب (ج ٨ ص ٢٢٤).

(١٠) في الأصل: «عبد الله محمد يُيْمَنُ هَذَا الْقَطْرُ...» وهكذا ينكسر الوزن، ولا معنى له، والتصويب من النفع.

(١١) في الأصل: «بحور الدِّيم...» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(١٢) في النفع: «... القلب ليس لها دعر». (١٣) يعنو: يخضع. لسان العرب (عنا).

(١٤) في الأصل: «العان» بدون ياء.

مولاي، رحماك، إني قد عهدتُك ذا
فاصرفَ خَنانَكَ ثمَّ أَغِطِفْ^(١) عليَّ وَجْدَ
فقد تناهى الأسى عندي وعذبني
وَحَقُّ آلائِكَ الحُسْنَى وما لك من
إني ولو حَلَّتْ البلوى على كَيْدِي
لَوَائِقُ بِحَنانٍ مِنْكَ يَسْطُرُقُنِي
دامت سَعُودُكَ في الدنيا مضاعفة

حلم وعفو وإشفاق وتحنان
برحمة منك تُخَيِّي جِسْمِي القاني^(٢)
وشرّد النوم عن عيني وأعياني^(٣)
طَوَّلَ وَفَضَّلَ وإنعام وإحسان
وأشكبت فوق خدّ دمعِي القاني^(٤)
عَمَّا قَرِيبٍ وَعَفُو عَاجِلٍ دان
تذلّ مَنْ دانَ^(٥) طَوْعًا كُلُّ سلطان

محمد بن محمد بن عبد الملك بن محمد بن سعيد الأنصاري الأوسي^(٦)

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن عبد الملك، من أهل مراكش، وسكن غرناطة.
حاله: من عائد الصلة^(٧): كان، رحمه الله، غريب المنزغ، شديد الانقباض،
محجوب المحاسن، تنبو العين عنه جهامة، وغرابة شكل، ووخشة ظاهر^(٨)، في طي
ذلك أدب غصّ، ونفس حرّة، وحديث ممتع، وأبوة كريمة، أحد الصابرين على
الجهد، المتمسكين^(٩) بأسباب الحشمة، الراضين بالخصاصة. وأبوه قاضي القضاة،
نسيج وخده، الإمام العالم، التاريخي، المتبحر في الأدب^(١٠)، تقلبت به أيدي
الدهر^(١١) بعد وفاته لتبعية سلطت على نسبه^(١٢)، فاستقر بمالقة، متحارفاً مقدوراً
عليه، لا يهتدي لمكان فضله، إلا من عثر عليه جزافاً.

شعره: (١٣) [السريع]

من لم يَصُنْ في أَمَلٍ وَجْهَهُ عنك قَصُنْ وجهك عن رَدِّهِ

- (١) في الأصل: «واعطف» وكذا ينكسر الوزن. (٢) في الأصل: «القان» بدون ياء.
- (٣) في الأصل: «وأعيان» بدون ياء. (٤) في الأصل: «القان» بدون ياء.
- (٥) قوله: «من دان» ساقط في الأصل، وقد أضفناه ليستقيم المعنى والوزن معاً.
- (٦) ترجمة محمد بن محمد بن عبد الملك في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٢٤).
- (٧) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٢٥) بتصرف.
- (٨) في النفع: «ظاهرة».
- (٩) في النفع: «المستمسكين».
- (١٠) في النفع: «الأدب». وهنا يشير إلى والد محمد، القاضي ابن عبد الملك المراكشي، صاحب كتاب «الذيل والتكملة».
- (١١) في النفع: «الليالي».
- (١٢) في النفع: «نسبه».
- (١٣) البيتان في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٢٥).

واعرف له الفضل وعرف به^(١) حيث أحل النفس من قضده

ومما خاطبني به قوله^(٢): [الوافر]

وليت ولاية أحسننت فيها ليغلم أنها شرفت بقدرك

وكم وال أساء فليل فيه دني القدر ليس لها بمذكر

وأنشدني في ذلك أيضا رحمة الله عليه^(٣): [الوافر]

وليت فليل أحسن^(٤) خير وال ففاق^(٥) مدى مداركها بفضلة

وكم وال أساء فليل فيه^(٥) دنا فمحا محاسنها بفعلة

ومما خاطب به السلطان يستعديه على من مقله من العمال، وعذر عليه واجبه من الطعام والمال: [مخلع البسيط]

مولاي نصرا^(٦)، فكم يضام من ما له غيرك اعتصام

أمرت لي بالخلاص فامرر^(٧) لي عنده المال والطعام

فقال ما اعتاده جوابا وحسبي الله والإمام

هذا مقام ولا فعال بغير مولاي والسلام

وفاته: فقد في وقعة على المسلمين من جيش مالقة بأحواز إستبة^(٨) في ذي قعدة من عام ثلاثة وأربعين وسبعمئة.

محمد بن خميس بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد

ابن خميس الحنجري حنجر ذي رعين التلمساني

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن خميس^(٩).

(١) في النفع: «له».

(٢) في الأصل: «أحسن» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٣) في الأصل: «ففاق»، والتصويب من النفع.

(٤) كلمة «فيه» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفتها من النفع.

(٥) في الأصل: «نصيرا» وهكذا ينكسر الوزن. (٧) في الأصل: «فمر» وهكذا ينكسر الوزن.

(٨) إستبة: كورة تابعة لقرطبة، كما جاء في المغرب في حلى المغرب (ج ١ ص ٣٥). وأغلب

الظن أن المراد هنا: إشتبونة Estepona، الواقعة على البحر المتوسط على مقربة من مالقة.

(٩) ترجمة ابن خميس في بغية الوعاة (ص ٨٦) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٠١) ونفع الطيب (ج

٧ ص ٣٣٤).

حاله: من عائد الصلة^(١): كان، رحمه الله، نسيج وَخِده زهْدًا وانقباضًا، وأدبًا وهمة، حَسَنَ الشَّيْبة، جميل الهيئة، سليم الصدر، قليل التَّصْنُوع، بعيدًا عن الرِّياء والهوادة^(٢) عاملًا على السياحة والعزلة، عالمًا^(٣) بالمعارف القديمة، مضطلعًا بتفاريق النحل، قائمًا على صناعة^(٤) العربية والأصلين، طبقة الوقت في الشعر، وفحل الأوان في النظم^(٥) المَطْوَل، أقدر الناس على اجتلاب الغريب، ومزج^(٦) الجزالة بالسلاسة، ووضع الألفاظ البيانية مواضعها، شديد الانتقا والإرجاء، خامد نار الرؤية، منافسًا في الطريقة منافسة كبيرة. كتب بتلمسان عن ملوكها من بني زيان، ثم قرَّ عنهم، وقد أوجس منهم خيفة، لبعض ما يجري بأبواب الملوك. وبعد ذلك بمدة، قدم غرناطة، فاهتزَّ الوزير ابن الحكيم لتلقَّيه، ومثَّ إليه بالوسيلة العلمية، واجتذبه بخُطبة التلميذ، واستفَّزه بتأنيسه وبرِّه، وأقَّعه للإقراء بجواره. وكان يروم الرُّحلة، وينوي السفر، والقضاء يُثْبِطه. حدَّثني شيخنا الرئيس أبو الحسن بن الجياب، قال: بلغ الوزير أبا عبد الله^(٧) الحكيم أنه يروم السفر، فشقَّ ذلك عليه، وكلفنا^(٨) تحريك الحديث بحضرته. وجرى ذلك، فقال الشيخ: أنا كالدَّم بطبعي، أتحرَّك في كل ربيع.

شعره: وشعره بديع، فمن ذلك قوله يمدح أبا سعيد بن عامر، ويذكر الوحشة الواقعة بينه وبين أبي بكر بن خطاب^(٩): [الوافر]

مَشُوقٌ زَارَ رَبْعَكَ يَا إِمَامَا	مَحَا آثَارَ دِمْنَتِهَا التَّشَامَا ^(١٠)
تَتَّبَعَ رِيقَةَ الطَّلِّ ارْتِشَافَا	فَمَا ^(١١) نَفَعَتْ وَلَا نَقَعَتْ أَوَامَا
وَقَبَّلَ خَدَّ وَرَدَتِهَا جَهَارَا	وَمَا رَاعَى لَضُرَّتِهَا ذِمَامَا
وَمَا لَحَرِيمَ بَيْتِكَ أَنْ يَدَانِي	وَلَا لِعَلِّي ^(١٢) قَدْرَكَ أَنْ يُسَامَا

(١) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣٣٤) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٠١ - ٣٠٢).

(٢) هذه الكلمة غير واردة في النفح. وفي أزهار الرياض: «والهوى».

(٣) في النفح وأزهار الرياض: «عارفًا».

(٤) كلمة «صناعة» ساقطة من المصدرين السابقين.

(٥) كلمة «النظم» غير واردة في المصدرين السابقين.

(٦) من هنا حتى قوله: «أبو الحسن بن الجياب» غير وارد في المصدرين السابقين.

(٧) في المصدرين السابقين: «أبا عبد الله بن الحكيم».

(٨) في المصدرين السابقين: «وكلفه».

(٩) ورد فقط البيتان الأول والثاني في أزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٠٥).

(١٠) في أزهار الرياض: «الشَّامَا». (١١) في المصدر السابق: «فلا».

(١٢) في الأصل: «لعلّا» وهكذا ينكسر الوزن.

ولكن عاش في رسم لِمَغْنَى^(١)
 تَنفُسُ رَوْضَةِ الْمَطْلُولِ وَهَنَا
 تَلْقَى طَيْبَ بَدَنِهِ... تَه^(٢) حَدِيثًا
 فَيَا نَفْسَ الصُّبَا إِنْ جِئْتَ سَاحَا
 وَأَخْطَاكَ الطَّرِيقُ إِلَى جِمَاهَا
 فَلَا تُبْصِرْ بِسَرِّحَتِهَا قَضِيْبَا
 وَعَانِقُ قُرْبَانَتِهَا ارْتِبَاطًا
 وَنَافِعُ عَرْفِ زَهْرَتِهَا كِبَا
 وَيَا بَرْقًا أَضَاءَ عَلَى أَوَالِ
 أَثَغْرِ إِمَامَةٍ أَنْتِ ابْتِسَامَا
 خَفَقْتَ بِبَطْنِ وَادِيهَا لَوَا
 أَمْشِيهِ قَلْبِي الْمُضْنِي احْتِدَامَا
 وَلِمَ أَسْهَرْتَنِي وَطَرَدْتَ عَنِي
 وَأَبْلَغَ مِنْهُ تَأْرِيقًا لَجْفَنِي
 تَعْرِضْ لِي فَأَيَقُظْتَ الْقَوَافِي
 وَقِيلَ وَمَا أَرَى يَوْمِي كَأَمْسِي
 وَجَرَعْتَ الْعَدُوَّ سُمًْا زُعَافَا
 دَعَوْتَ زَعِيمَهُمْ ذَاكَ ابْتِيَا سَا
 نَزَعْتَ شَوَاهِ كِبَشَهُمْ نَطَاحَا
 أَضَامَ وَفِي يَدِي قَلْبِي لِمَاذَا
 بِهِ وَبِمَا أَذْلَقَ مِنْ لِسَانِي
 وَغَرَامَ الْوَزِيرِ أَبِي سَعِيدِ
 بِهِ وَبِنَجْلِهِ الْبَرِّ انْتِصَارِي
 أَعْثَمَنَ بَنَ عَامِرٍ لَا تَكِلْنِي
 وَرَدْتُ فَلَمْ أَرِدْ إِلَّا سَرَابَا

تَجَسَّمَهُ سَلَامًا وَاسْتِلَامًا
 فَحَنُّ وَشَمُّ^(٢) رِيَاهُ فَهَامَا
 رَوَتْ مُسْنَدًا عَنْهُ الشُّعَامَا
 وَلَمْ تَعْرِفْ لِسَاكِنَهَا مَقَامَا
 فَرَدَّتْكَ الْعِرَادَةُ وَالْخِزَامَا
 وَلَا تُذْعِرْ بِمَسْرَحِهَا سَوَامَا
 وَصَافِحَ كَفِّ سَوَسِنِهَا التَّزَامَا
 تَعَاطِكَ مَاءُ رِيْقَتِهَا مُدَامَا
 بِمَانِيًا مَتَى جِئْتَ الشَّامَا
 أَمْ الْبَذَرُ الْأَوَامِي انْتِظَامَا؟
 وَلُخْتُ عَلَى تُنْيَتِهَا حُسَامَا
 عَلَى مِ ذُذْتُ عَنْ عَيْنِي الْمَنَامَا؟
 خِيَالًا كَانَ يَأْتِينِي لِمَامَا؟
 كَلَامٌ أَتَخَنُ الْأَحْشَا كِلَامَا
 وَلَوْ تُرِكَ الْقَطَا يَوْمًا لَنَامَا
 جَدَعْتَ رَوَاطِبَا وَقَلْبَتِ هَامَا
 فَكَانَ لِحَسَدٍ مَرُوتًا زَوَامَا
 وَرُغْتَ خَمِيْسَهُمْ ذَاكَ اللَّمَامَا
 وَلَمْ أَتْرِكَ لَقَرْمِهِمْ سِنَامَا
 أَضَامَ أَبَا سَعِيدٍ أَوْ عِلَامَا؟
 أَفَلِ الصَّارِمِ الْعَضْبِ انْتِهَزَامَا
 أَصْرَفَهُ إِذَا شِئْتَ انْتِقَامَا
 لِمَا أَكَلُوهُ مِنْ لَحْمِي حَرَامَا
 لِدَهْرِ عِلْمِ الشَّخِ الْغَمَامَا
 وَشِمْتُ فَلَمْ أَشِمْ إِلَّا جِهَامَا

(١) في الأصل: «مغنى» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «وشم» وهكذا ينكسر الوزن، ولا يستقيم المعنى.

(٣) بياض في الأصل.

قَطَعْتُ الْأَرْضَ طَوْلًا ثُمَّ عَرْضًا
وَجَاجَانِي عَلَى كَرَمٍ نَدَاهُمْ
وَذَلَّتِ الْمَطَامِعُ مِنْ إِيَّائِي
وَمَنْ أَدْبَى نَصَبْتُ لَهُمْ حَبَالًا
فَلَمْ أَرْ مِثْلَ رَبْعِي دَارَ أَنْسٍ
وَلَا كَأَبِيهِ أَوْ كُنَى أَبِيهِ
كَفَانِي بَابُنْ عَامِرٍ خَفَضُ غَيْشٍ
وَإِنِّي مِنْ وَلَائِكَ فِي يَفَاعٍ

ومن شعره، رحمه الله، قوله^(١): [الطويل]

تُرَاجِعُ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَنْتَ تَارِكُ
تُؤْمَلُ بَعْدَ الثَّرِكِ رَجْعٌ وَدَادِهَا
حَلَا لَكَ مِنْهَا مَا خَلَا^(٢) لَكَ فِي الصَّبَا
تَظَاهَرُ بِالسُّلُوفِ عَنْهَا تَجْمُلًا
تَنَزَّهَتْ عَنْهَا نَخْوَةٌ لَا زَهَادَةٌ
لِيَالِي تُغْرِي بِي وَإِنْ هِيَ أَغْرَضَتْ
غُصُونُ قُدُودٍ فِي جِقَافِ رَوَادِفِ
تُطَاعِنُنِي مِنْهُنَّ فِي كُلِّ مَلْعَبٍ
وَكَمْ كِلَةٍ فِيهَا هَتَكْتُ وَدُونَهَا
وَلَا جِذْنٌ إِلَّا مَا أَعَدْتَ رَدِينَهُ
تُضِلُّ فُؤَادَ الْمَرْءِ عَنْ قَصْدِ رَشْدِهِ
وَفِي كُلِّ سِنٍّ لَابِنُ آدَمَ وَإِنْ تَطَّلَ
وَالَا فَمَا لِي بَعْدَ مَا شَابَ مَفْرِقِي

وتسألها^(٣) العُثْبَى وما هي فَارِكُ^(٤)
وَشَرُّ وَدَادٍ مَا تَوَدُّ الثَّرَائِكُ
فَأَنْتَ عَلَى حُلُوفِهِ مَتَهَالِكُ
فَقَلْبُكَ مَحْزُونٌ وَتُغْرِكَ ضَا حَكُ
وَشَفَرُ عِذَارِي أَسْوَدُ اللَّوْنِ حَالِكُ
زَنَائِبُ مِنْ ضَوَائِهَا وَعَوَاتِكُ
تَمَائِلُ مِنْ ثِقَلِ بَيْنِ الْأَرَائِكُ
تُذِي كَأَسْنَانِ الرِّمَاحِ فَوَاتِكُ
صُدُورُ الْعَوَالِي وَالسُّيُوفِ الْبَوَاتِكُ
لَطَالِبُهَا أَوْ مَا تَحْيِرُ هَالِكُ
فَوَاتِرُ الْحَافِظِ لِلظُّبَا الْفَوَاتِكُ
سَنُوهُ طِبَاعِ جُمَّةٍ وَعَوَاتِكُ
وَأَعْجَزُ رَأْيِي عَجْزُهُنَّ^(٥) الرُّكَارِكُ

(١) بعض أبيات هذه القصيدة في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣٣٧ - ٣٣٨) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٠٥ - ٣٠٦).

(٢) في الأصل: «وتسلها» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع وأزهار الرياض.

(٣) الفارك: المرأة التي تكره زوجها. العُثْبَى: الاسترخاء. لسان العرب (فرك) و(عنب).

(٤) في النفع وأزهار الرياض: «ما خلا».

(٥) في الأصل: «عَجَزَ مِنْ» وهكذا ينكسر الوزن، ويصبح في القافية عيب الإقواء.

أجوب إليها كلَّ بَنداء مُملقٍ
وأسترشد الشَّهب الشَّوابك جار
نُهازِر أمثال الجياد تَزودَة
ظَماء وما غير السُّماوة مُورد
ذواهلُ عن عُضِّ الرجال ظهورها
إذا ما ثَبَا عن سُنْبُك الأرض سُنْبُك
تَقْدُ بنا في كل قاع وقَدْقِد
فأمامها رِيٌّ كالسحاب مَوَالِج
قِلاصَ بأطواف الجُديل بَوالِج
ترامى بها نياقُها كل مُرْتَمى
وكم منزل خَلِيثُه لطلابها
يَمُرُّ به زُواره وغُفاته
وأثارتنا تقادم عهدهم
لوارب أفراس ونوى حِذاة
تمرُّ عليه نُسمة الفجر مثلما
وأزكَب كالشَّهد يَنفَح بُزْدَه
ويطلبها مِنِّي غريمٌ مُماحك
أحاول منها ما تَعذَّر في الصِّبا
يُسَلِّي الفتى منها وإن راق حُسْنُها
فمنها مَلالٌ دائم لا تَمْلَه
تُهاون بالِإفك الرجال جهالة
تزن طول تَسْهادي وقَدري تَمْلَملي
تَغير على الدهر منه جَحافل
فليت الذي سَوَدَتْ فيها مَعَوُضُ
ألا لا تُذَكِّرني بِلَمسان والهوى
فلإن أذكَّار ما مضى من زمانها

ترافقني فيها الرجال الحواتك^(١)
إذا اشْتَبَهَتْ فيها عليَّ المسالك
اغْوارِب أمثال الهضاب تَوايِمك
ويُنحى وما دون الصَّاة مَبارك
إذا ما اشْتَكْتَ عُضَّ السروج الموارك
هَلَعْن فلانْت تحتَهْن السُّنابك
بِوائِكُها والمُنْغيات الدِّراهِك
وأمامها رَكْنا كالرِّياح بِواشك
وجُرْدَ لأوساط الشُّكيم عِوالِك
فهنَّ نِواحٍ لِلرَّدى أو هِوالِك
تُعَفِّيه تَعدي السَّافيات السَّواهِك
وما إنَّ به إلا لَصِوقُ حَبائِك
وهنَّ عليه جاثياتُ بِوارِك
ثلاث أثافٍ كالخِمام سَواِدِك
تمرُّ على طيب العروس المداوِك
لمجهولٍ حَسِيٍّ ما له للذَّهر مُبانِك
ويَمْطُلني منها عديمٌ مُمَاعِك^(٢)
ومن دونه وَقَعُ الجِمام المُواشِك
حَسائِف لا تُحصى هنا ومَبارك
تزوِّر إِفكٍ عن رِضى الحق آفِك
وما أَهْلَك الأحياء إلا الأفايِك
طَوال الليالي والنجوم التَّوابِك
كانَ مُدَوِّم الرِّجَم فيها نِيازِك
بما بَيَّضت مِنِّي دُجاها الحِوالِك
وما ذَهَكَت مَثا الخطوب الدَّواهِك
لِجِسْمي ولِلصُّبر الجميل لِناهِك

(١) الحواتك: من حتك، أي أسرع في السير. لسان العرب (حتك).

(٢) المماعك: «المماطل». لسان العرب (معك).

ولا تَصِفَنَّ أمواها لي فإنها
ومَنْ حال عن عهدٍ أو أخْفَرَ ذِمَّةً
سَقَى منزلي فيها وإن مَحَّ رسمه
وجادت ثرى قبرٍ بمسجد صالح
ولا أَقْلَعْتَ عن دار يونس مُزْنَةً
إلى أن يَروِقَ النَّاظِرِينَ رِواؤُها
ويصبح من حول الحيا في عِراصِها
ولا برحت منه ملائكة الرُّضَى
وطوبى لمن روى منازلها الحيا
ألا ليت شعري هل تُقَضِّى لُبائتي
وهل مَكَّنَ الطَّيْفُ المَغِيبُ زيارة
وهل تَغْفِلُ الأيام عنها بقدر ما
ويا ليت شعري أي أرض تقلني
وأي غرار من ضفاها يحثني
إذا جَهِلَ الناس الزمان فلانني
تَثَبَّتْ إذا ما قَمَتَ تعمل خطوة
ولا تَبْذِلُنَّ^(٢) وجها لصاحب نعمة
تَجَشَّمُ إن^(٣) استطعت واحذر أذاهم
فكل على ما أنعم الله حاسد
ولا تَأْسَ^(٤) ريبة الزمان فإنه
تمننى مصاب بربر وأعاره
وبَذَرْتُ ليلَ الجُونِ حَوْضَ لجاجها^(٥)
فما أذَعَنْتُ إلا إلي عُشَّارُ
ولا قَصَدْتُ إلا قِنائِي وقودها
به شَرُفْتُ أذواؤها وملوكها

لنيران أشواقِي إليها مُحارِك
فلانني على تلك العهود لرامك
عِهاد العَوادي والدُمُوع السَّوافِك
رواعِدُها والمُذِخِمات الحواشِك
يرؤي صداه قَطْرُها المُتَدَارِك
ويُرضي الرُّعاوَى نَبْثُها المُتَلاحِك
زُرَّاق تحاكي بُسْطَها ودَرانك^(١)
تصلي على ذاك الصُّدى وتبارك
ويُشرى لمن صَلَّتْ عليه الملائك
إذا ما انقَضَتْ عَشْرٌ عليها دَكَادَك
فيرقب أو تُلقَى إليه الرُّوامِك
تؤدي إليها بالِعِتاب الحالِك
إذا كَلَّ عن رحلي الجلال اللكالك
إذا فَقَدْتَنِي مَسَّها والدَّكَادَك
بدونهم دون الأنام لحايتك
فإن بقاع الأرض طُرًّا شوائِك
فما مثْلُ بذل الوجه للستَر هاتِك
ولا تَلْقَهُمْ إلا وهَرُك شائِك
وكل إذا لم يَغْصم الله حاسك
بمَنْ فات مَنَّا لا محالة فاتك
وترضى ذكامي فارس والهنادك
وتعرف إقدامي عليها المهالك
ولا أَضْفَقْتُ إلا علي الشكاشك
ولن أملت إلا قَتامي الضرارَك
كما شَرُفْتُ بالتَّوْبِهار البرامِك

(١) الدرانك: ضرب من البسط.

(٢) في الأصل: «تبذل» وهكذا ينكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «ما» وهكذا ينكسر الوزن.

(٤) في الأصل: «تأس» وهكذا ينكسر الوزن.

(٥) في الأصل: «وبذرت الليالي الجون حوضي لجاجها» وهكذا ينكسر الوزن.

فلا تَدْعُونَ غَيْرِي لِدَفْعِ مُلِمَةٍ
فما إن لَذاكَ الصوتَ غَيْرِي سامِعٌ
بَغْضٍ وَيَسْجَى نَهْشَلٌ وَمُجَاشِعٌ
تفارقني رُوحِي^(٤) التي لَسْتُ غَيْرَهَا
وماذا عسى تَرجو لِدَاتِي وأَرتَجِي
يَعُودَ لَنَا شَرُخُ الشَّبَابِ الَّذِي مَضَى
ومن شعره أيضًا قوله: [الكامل]

وَتَصَرَّمْتُ سَقًّا عَلَيْكَ الْأَضْلُعُ
ولطالما جَادَتْ ثَرَى الْأَمَالِ مِنْ
لِلَّهِ أَيَّامٌ بِهَا قَضَيْتُهَا
فَلَقَدْ رَشَفْتُ بِهَا رُضَابَ مُدَامَةٍ
فِي رَوْضَةٍ يَرْضِيكَ مِنْهَا أَنِهَا
تَجْرِي بِهَا فَقَرٌّ سَكَنَتْ رَهَانَهَا
فَقَرٌّ كَرِيمَانَ الشَّبَابِ وَعَهْدُنَا
نَفَاقَةُ الْأَنْوَاءِ فِي عَقْدِ الثَّرَى
حَتَّى إِذَا حَاكَ الرَّبِيعُ بِرُودِهَا
بَدَأَتْ كَمَاثِمُ زَهْرِهَا تُبْدِي بِهَا
قَدْ صُمَّ مِنْهَا مَا تَجْمَعُ مُغْلَقُ
وَكِلَاهِمَا مَهْمَا أَرَدَتْ مُسَالِمُ
كُلُّ لَهْ شَرْعُ الْبَسِيانِ مُحَلَّلُ
حَيْثُ ازْدَهَتْ أَنْوَارُ كُلِّ حَدِيقَةٍ

وَتَصَرَّمْتُ سَقًّا عَلَيْكَ الْأَضْلُعُ
جَاوِي مُؤَمِّلِكَ الْغُيُوثُ الْهَمْعُ
قَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهَا لَا تَرْجِعُ
بِنَسِيمِ أَنْفَاسِ الْبَدِيعِ تُشْغِيغُ
مَرْعَى لِأَفْكَارِ النُّدَامِ وَمَشْرِعُ
أَجْدَى بِمِيدَانِ الْكَلَامِ وَأُسْرَعُ
بِجَنَابِهَا وَهُوَ الْجَنَابُ الْأَمْنَعُ
وَالْتُّفْتُ فِي عَقْدِ الثَّرَى لَا يَمْنَعُ
وَكَسَا رُبَاهَا وَشَيْهِ الْمُتَنَوُّعُ
بِدَعَا تَفَرُّقِ تَارَةٍ وَتُجْمَعُ
إِذْ بُتُّ مِنْهَا مَا تَفَرَّقَ مُضْغَعُ
وَمُحَارَبُ وَمُؤْمِنُ وَمُرَوِّعُ
وَمُنْكَرُ^(٩) فِي مِثْلِ هَذَا مُدْفَعُ
أَدْبًا يُنْظَمُ تَارَةً وَيُسَجَّعُ

(١) الداهك: الطاحن الكاسر. لسان العرب (دهك).

(٢) السامك: الرافع للقواعد المحلي للبناء. لسان العرب (سمك).

(٣) نهشل ومجاشع وحميز والسكاسك: قبائل عربية.

(٤) في النفع وأزهار الرياض: «الروح».

(٥) في الأصل: «ثناي» وهكذا يتكسر الوزن والتصويب من النفع وأزهار الرياض.

(٦) الصائلك: اللاحق. محيط المحيط (حوك). (٧) في النفع وأزهار الرياض: «لاني».

(٨) الأفانك: جمع إفيك وهو مجمع اللحين. لسان العرب (فك).

(٩) في الأصل: «المُنْكَر» وكذا يتكسر الوزن.

فَمَرْجُلٌ مِنْ رَقْمِهَا وَمُهْلَلٌ
أَبْدَى الْبَدِيعِ بِهَا بَدَائِعَ صُنْعِهِ
وَمَوْشَّخٌ وَمُرْشَّحٌ وَمُصَدَّرٌ
كُلُّ يَرُوقٍ بِهَا بِخُسْنِ زَوَائِهِ
وَلَقَدْ غَدَوْتُ بِهَا وَفِي وَكُنَاتِهَا
بِمُطَهَّمِ الْفِكْرِ الَّذِي مَا إِنَّ لَهُ
قَيْدَ الْمَطَالِبِ لَا نِزَالَ^(١) نَحْبُهُ
أَرْمَى بِهِ الْأَمَدَ الْبَعِيدَ وَإِنَّهُ
مِنْ بَعْدِ مَا عَقَّتِ السَّوَارِي سُبُلَهُ
لَكِنِّي جَذَذْتُ دَائِرَ رَسْمِهِ
أَوْضَحْتُ فَهَمَّ حَدُودِهِ وَضُرُوبِهِ
حَتَّى وَرَدْتُ مِنَ السَّمَاعِ مَوَارِدًا
مَعَ كُلِّ مَصْقُولِ الذِّكَاءِ فَحَذَّشُهُ
يَرْتَادُ مِنْ تَجْعِ الْعُنَاصِرِ نُجْعَةً
لَا شَيْءَ أَبْدَعَ مِنْ تَجَاوُرِهَا وَمَا
فَإِذَا تَشَعَّشَعَ مَرْجُحُهَا أَوْرَى بِهَا
فَمَكِينُ سِرِّ حَيَاتِهِ بِحَبَابِهَا
وَهَنَا تُفَاضُ عَلَيْهِ صَوْرَتُهُ الَّتِي
مِنْ وَاهِبِ الصُّورِ الَّتِي قَدْ خَصَّهَا
رَبُّ لَهْ فِي كُلِّ شَيْءٍ حِكْمَةً
وَحَلَلْتُ مِنْ أَرْضِ الرِّيَاضَةِ أَرْبَعًا
قَامَتْ زَوَايَاهَا فَمَا أَوْتَادَهَا
وَتَنَاسَبَ أَقْدَارُهَا نَسَبًا لَهَا
فَأَجَلٌ مَا قَدْ سُمِّتَ بِحُلُولِهَا
لَا شَكَّ أَنَّ وِرَاءَهُ مَطَرًا لَهُ
بَخَرٌ رَوِيٌّ مُثَرَّعٌ مُلَاحَظُهُ

وَمُسَمِّطٌ مِنْ نَظْمِهَا وَمُصَرَّعٌ
فَمُجَنِّسٌ وَمُبَدَّلٌ وَمُرْصُوعٌ
وَمُكَرَّرٌ وَمُفَرَّعٌ وَمُتَّبِعٌ
وَإِذَا تَزَيَّنَ بِهِ كَلَامُكَ تَبَرَّعٌ
طَيَّرَ لَهَا فَوْقَ الْغُصُونِ تَرْجِعُ
إِلَّا بِمُسْتَشْنِ الْأَدَلَّةِ مَرْتَعٌ
بَيْنَ الْجِيَادِ لِعَتَقِهِ أَوْ يَوْضِعُ
جَمَلٌ يَضِلُّ بِهِ الدَّلِيلُ الْأَصْمَعُ
وَمَحَتْ مَعَالِمَهُ الرِّيَّاحُ الْأَرِيعُ
فَطَرِيقُهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ مَهْيَعٌ
وَالْكُلُّ فِي كُلِّ الْمَسَالِكِ يَنْفَعُ
فِيهَا لَظْمَانُ الْمُبَاحِثِ مَكْرَعُ
لِذِكَا أَسْرَارِ الطَّبَائِعِ مَطْلَعُ
فِيهَا مَصِيفٌ لِلْعُقُولِ وَمَرْبَعُ
يُبْدَى^(٢) بِهَا ذَاكَ التَّجَاوُرِ أَبْدَعُ
نَارُ الْخُبَابِ مَرْجُحُهَا الْمُتَشَفِّعُ
مِنْ بَعْدِ قَذْحِ زَنَادِهَا مُسْتَوْدَعُ
لِبَهَائِهَا شَمُّ الطَّبَائِعِ تَخَضُّعُ
بِبَدِيعِ حِكْمَتِهِ الْحَكِيمِ الْمَبْدَعُ
يَقْضِي بِهَا الْبَدْعِيَّ وَالْمُتَشَرِّعُ
نَفْسِي الْفِدَاءَ لَهَا وَهَذِي الْأَرِيعُ
إِلَّا تَقْوَمُ مَا تَقِيمُ الْأَضْلَعُ
لَوْ كُنْتَ تُبْصِرُهَا فَرُوعُ فُرْعُ
مِنْ بَارِقِ لَجَنَابِ رُشْدِي يَلْمَعُ
فِي كُلِّ ضَرْبٍ مِنْ قِيَاسِي مَوْقِعُ
مِنْ فَيْضِهِ هَذَا الرُّوِّيُّ الْمُثَرَّعُ

(١) في الأصل: «لا يزال».

(٢) في الأصل: «يبتدى» وكذا ينكسر الوزن.

لَمْ لَا أَضِيعُ بِهَا عَهَادَ مَدَامَعِي
 جَلَى، لَوْ لَمْ تَسْعِدَانِي فِي الْبَكَاءِ
 أَرَأَيْتَ مَا نَفْسًا تَفَارِقُ جَسْمَهَا
 عَظُمَتْ رِزْيُتُهَا وَأَيُّ رِزْيَةٍ
 هَذِي حَمَامُكَ، يَا عَلِيُّ، سَوَاجِعُ
 إِنْ طَارَ خَتْنِي وَرِزْقُهَا فَبِأَضْلَعِي
 آهَ عَلَيَّ جَسْمِي الَّذِي فَارَقْتُهُ
 وَمِنْ الْعُجَابِ رَجُوعُ مَا أودَى بِهِ
 الْجَوْرُ مِنْهُ إِذَا اسْتَمَرَ طَبِيعَةً
 هَذِي عَقُوبَةُ زَلَّةٍ سَلَقْتُ بِهَا
 قَدْ كُنْتُ أَمْنَعُ رَسَخِ نَفْسِي قَبْلَهَا
 لَمْ لَا وَقَدْ أَصْبَحْتُ بَعْدَ مُحَلَّةٍ
 دَارِ يَدْرِ الرِّزْقِ مِنْ أَخْلَاقِهَا
 وَكَأَنَّ مَجْلِسَهَا الْبَهِيِّ بِصَدْرِهَا
 وَكَأَنَّ مَجْمَرَ عَنَبِرِ بَفَنَائِهَا
 وَكَأَنَّهَا الْمُتَوَكِّلِيَّةُ بِهَجَّةٍ
 فِي حَجَرٍ ضَبُّ خَافِضٍ بِجَوَارِهِ
 يَا نَفْثَةَ الْمَصْدُورِ كَمْ لَكَ قَبْلَهَا
 وَعَسَاكَ تَنْقَعُ غُلَّةٌ بِكَ إِنَّهَا
 اللَّهُ أَنْتَ مَذَاعَةٌ أَوْدَعْتُهَا
 بِدَوِيَّةٍ فِي لَفْظِهَا وَنِظَامِهَا
 لَمْ لَا تَشْفَعُ فِي الَّذِي أَشْكُو بِهَا
 كَمَلْتُ وَمَا افْتَرَعْتُ فَأَيُّ خَرِيدَةٍ
 بَارَتْ عَلَيَّ فَأَصْبَحْتُ لِحَيَاتِهَا

إِنِّي إِذَا لَعُوهَا^(١) لَمْضِيعُ
 لَقَطَعْتُ مِنْ حَبْلَيْكُمَا مَا يُقْطَعُ
 وَبِهِ تَنْعُمُهَا وَلَا تَتَوَجَّعُ؟
 ظَلْتُ لَهَا أَكْبَادُنَا تَنْصَدِّعُ
 وَأَخَالَهَا أَسْفًا عَلَيْهَا تُسْجِعُ
 شَوْقُ يَطَارِحُهُ أَذْكَارُ مُوجِعُ
 لَا كُنْتُ بِمَنْ جَسْمِهِ لَا يَرْجِعُ
 دَهْرٌ بِتَشْتِيتِ^(٢) الْأَجْبَةِ مَوْلَعُ
 وَالْعَذْلُ مِنْهُ إِذَا اسْتَقَامَ تَطْبَعُ
 مِنْ أَكْلِ طُعْمَتِهِ الَّتِي لَا تُشْبِعُ
 وَالْيَوْمَ أَوْجِبُ أَنَّهُ لَا يُمْنَحُ
 فِيهَا السَّحَابُ بِالرَّغَائِبِ تَهْمَعُ؟
 وَلَكُمْ دَعَا دَاعٍ بِهَا مِنْ يُوضَعُ
 مَلِكٌ بِأَعْلَى دَسْتِهِ مَتْرُبَعُ
 يُذَكِّي وَمَا^(٣) قَدْ سَيْفٌ مِنْهُ يَسْطَعُ
 وَعَلِيٌّ بْنُ الْجَهْمِ فِيهَا يُبْدَعُ
 مَنْ كَانَ قَبْلُ لَهُ الْعَوَامِلُ تُزْفَعُ
 مِنْ زَفَرَةٍ بَيْنَ الْجَوَانِحِ تُسْفَعُ
 بِجَحِيمٍ مَا أَشْبَلْتَهُ لَا تَنْقَعُ
 مِنْ كُلِّ مِرٍّ بِالضَّمَائِرِ يُودَعُ
 حَضْرِيَّةٌ فِيمَا بِهِ يُتَرْجَعُ
 وَمِثَالُهَا فِي مِثْلِهِ يُتَشَفَّعُ؟
 لَوْ كَانَ يَفْرَعُهَا هَمَامُ أَرُوعُ
 مِنْ بَضَافِي مِرْطِهَا تَتَلَفَّعُ

(١) فِي الْأَصْلِ: «لَعُوهَا» وَكَذَا لَا يَسْتَقِيمُ الْمَعْنَى وَلَا الْوِزْنُ.

(٢) فِي الْأَصْلِ: «بِشْتِيتِ»، وَكَذَا يَنْكسر الْوِزْنُ. (٣) فِي الْأَصْلِ: «مَا» وَكَذَا يَنْكسر الْوِزْنُ.

ومن شعره قوله يمدح ذا الوزارتين أبا عبد الله بن الحكيم، وهي من مشاهير أمداحه^(١): [الطويل]

سَلِ الرِّيحَ إِن لَّم تُسْعِدِ الشُّفْنَ أَنْوَاءَ
وَفِي خَفَقَانِ الْبَرْقِ مِنْهَا إِشَارَةٌ
تَمُرُّ اللَّيَالِي لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ
وَإِنِّي لَأَضْبُو لِلضُّبَا كُلَّمَا سَرَتْ
وَأَهْدِي إِلَيْهَا كُلَّ حِينٍ^(٥) تَحِيَّةً
وَأَسْتَجْلِبُ النَّوْمَ الْغِرَارَ وَمُضْجَعِي
لَعَلَّ خَيَالًا مِنْ لَدُنْهَا يَمُرُّ بِي
وَكَيْفَ خُلُوصُ الطَّيْفِ مِنْهَا وَحَوْلِهَا^(٧)
وَإِنِّي لَمُشْتَاقٌ إِلَيْهَا وَمُنْتَبِيَّةٌ
وَكَمْ قَائِلٍ تُفْنِي غَرَامًا بِحَبِّهَا
لِعَشْرَةِ أَعْوَامٍ عَلَيْهَا تَجَرَّمَتْ
يُطَنَّبُ فِيهَا عَائِثُونَ وَخُرَبٌ^(١٠)
كَأَنَّ رِمَاحَ الذَّاهِبِينَ^(١٢) لِمُلْكِهَا
فَلَا تَبْغِينَ فِيهَا مَنَاخًا لِرَاكِبٍ
وَمِنْ عَجَبِي^(١٤) أَنْ طَالَ سُقْمِي وَتَزَعُّهَا
وَكَمْ أَزَجَفُوا غِيظًا بِهَا ثُمَّ أَزْجَاوَا

فَعِنْدَ صَبَاها مِنْ يَلِيسَانَ أَنْبَاءَ
إِلَيْكَ بِمَا تُنْمِي إِلَيْهَا^(٢) وَإِيمَاءَ
وَلِلأَذْنِ إِصْفَاءَ وَلِلْعَيْنِ إِكْلَاءَ^(٣)
وَلِلنَّجْمِ مَهْمَا كَانَ لِلنَّجْمِ إَضْبَاءَ^(٤)
وَفِي رَدِّ إِهْدَاءِ التَّحِيَّةِ إِهْدَاءَ
قَتَادَ كَمَا شَاءَتْ نَوَاهَا وَسُلَاءَ^(٦)
فَفِي مُرِّهِ بِي مِنْ جَوَى الشُّوقِ إِبْرَاءَ
عَمِيونَ لَهَا فِي كُلِّ طَالَعَةٍ رَاءَ
بِبَعْضِ اشْتِيَاقِي لَوْ تَمَكَّنَ إِثْبَاءَ
وَقَدْ أَخْلَقْتَ مِنْهَا مِلَاءَ وَأَمْلَاءَ^(٨)
إِذَا مَضَى قِيظٌ بِهَا جَاءَ إِهْرَاءَ^(٩)
وَيَرْحَلُ عَنْهَا قَاطِنُونَ وَأَخْيَاءَ^(١١)
قِدَاحَ، وَأَمْوَالَ الْمَنَازِلِ أَبْدَاءَ^(١٣)
فَقَدْ قَلَصَتْ مِنْهَا ظِلَالُ وَأَفْيَاءَ
وَقُسَمَ إِضْنَاءَ عَلَيْنَا وَإِطْنَاءَ^(١٥)
فِيكَذِبُ إِرْجَافٍ وَيَصْدُقُ إِرْجَاءَ

(١) القصيدة في أزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٣٦ - ٣٤٠) ونفع الطيب (ج ٧ ص ٣٥١ - ٣٥٣).

(٢) في أزهار الرياض: «إليك».

(٣) الإكلاء: ترديد البصر. محيط المحيط (كلا).

(٤) في أزهار الرياض: «إسراء». (٥) في المصدرين: «كل يوم».

(٦) القتاد والسُّلَاء: شوك. لسان العرب (قتد) و(سلا).

(٧) في المصدرين: «ودونها».

(٨) أخلقت: بليت. الملاء: جمع ملاءة. الأملاء: جمع ملاء وهو الأرض الواسعة. لسان العرب (خلق) و(ملاء).

(٩) الإهراء: شدة البرد التي تهرأ الأجسام. لسان العرب (هرا).

(١٠) في الأصل: «عائثون وخُرَب»، والتصويب من المصدرين.

(١١) في أزهار الرياض: «وتناء». (١٢) في المصدرين: «الناهيين».

(١٣) الأبداء: جمع بَدء وهو النصيب من الجزور. محيط المحيط (بدأ).

(١٤) في المصدرين: «ومن عجب». (١٥) الإطناء: الداء. لسان العرب (طنا).

برددها غيائبها^(١) الدهر مثلما
 فيا منزلاً نال الردى منه ما انتهى
 وهل للظى الحرب التي فيك تلتظي
 وهل لي زمان أرتجي فيه عودة
 فواسيحي حالي^(٢) إن هلكك ولم أقل
 ولم أطرق الدبر^(٣) الذي كنت طارقاً
 أطيّف به حتى تهرّ كلابه
 ولا صاحب إلا حسام^(٤) ولهدم
 وأنحم قاري كسفرى حلكة
 فما لشرابي في سواك مرارة^(٥)
 ويا دارى الأولى بدرب حلاوة^(٦)
 أما آن أن يُخمي جمالك كعهده
 أما آن أن يغشو لنارك طارق
 يرجي نوالاً أو يؤمل دغوة
 أجن لها ما أطب الثيب حولها
 فما فاتها مني نزاع على النوى

يَرْدُدُ حرفُ الفاء في النطق فأفاء
 ترى وهل لِعُمُرِ الأنس بعدك إنساء^(٧)؟
 إذا ما انقضت أيام بُوسك إطفاء؟
 إليك ووجه البشر أزهى وضاء؟
 لصحبي بها الغر الكرام ألا هاؤا
 كعادى^(٨) ويذر الأفق أسلَعُ مشناء^(٩)
 وقد نام غساس وهوم سباء
 وطرف لخد الليل مذ كان وطاء
 تلالاً فيه من سنى الصبح أضواء
 ولا لطعامي دون بابك^(١٠) إمراء
 وقد جد عيث في بلاها وإزداء
 وتجتاز أحماش^(١١) عليك وأحماء؟
 جنيب له رَفَعَ إليك ودأء؟^(١٢)
 فما زال قار في ذراك وقراء
 وما عاقها عن مورد الماء أظماء^(١٣)
 ولا فاتني منها على القرب إجشاء^(١٤)

(١) في الأصل: «غيابها» والتصويب من المصدرين.

(٢) الإنساء: التأخير. لسان العرب (نساء).

(٣) في أزهار الرياض: «فيا هي ما لي». ومن هنا حتى البيت (يرجى نوالاً) غير وارد في نفع الطيب.

(٤) في أزهار الرياض: «الدرب». (٥) في المصدر نفسه: «لعايد».

(٦) في الأصل: «أسلَعُ مشناء». والتصويب من أزهار الرياض. والأسلَعُ: الذي به البرص. والمشناء: الذي ييغضه الناس.

(٧) في الأصل: «الأحسام» وهكذا ينكسر الوزن، ولا معنى له، والتصويب من الأزهار.

(٨) في أزهار الرياض: «مزاة». (٩) في أزهار الرياض: «مائك».

(١٠) في أزهار الرياض: «مخيلة». (١١) في أزهار الرياض: «ويجتال أحماس».

(١٢) الرفع: المبالغة في السير. والدأء: أشد العدو.

(١٣) أطت: صوتت. الثيب: الإبل، واحداً ناب. الأظماء: جمع ظم وهو المدة التي تنقطع فيها عن ورود الماء. لسان العرب (أطط) و(ناب) و(ظماً).

(١٤) الإجشاء: مصدر أجشأ؛ يقال: جشأت نفسه من حزن أو فزع: ثارت وجاشت. والإجشاء أيضاً: تحرك النفس بالشوق. لسان العرب (جشأ).

كذلك جَدِّي في صحابي وأُسرَتي
ولولا جِوارُ ابنِ الحكيمِ محمدٍ
حماني قَلَمٌ تَنَتَّبَ محلي نوائِبُ
وأَكْفَاءُ^(٤) بيتي في كَفَّالةِ جاهه
يؤمنون قصدي طاعةً ومحبةً
دعاني إلى المجدِ لذي كنتُ آملاً
وبِؤاني من هَضْبَةِ العِزِّ تَلَعَةً
يُشَيِّعُنِي منها^(٨) إذا سِرْتُ حافِظُ
ولا مثلُ نومي في كَفَّالةِ غيره
بَغِيضَةٍ ليث أن بمرقبٍ خالب
إذا كان لي من نائب المُلْكِ كافِلُ
وإخوانُ صدقي من صنایعِ جاهه
سِراعٌ لما يُزجى من الخيرِ عندهم
إليك أبا عبد الإلهِ صنْعُها
مُبَرَّاةٌ مما يعيبُ لزومَها
أَدْعَتْ بها السُّرَّ الذي كان قبلها
وإن لم يكن كلُّ الذي كنتُ آملاً
ومَن يتكَلَّفُ مُفَحِّمًا شُكْرَ مِثَّةٍ
إذا مُنْشِدٌ لم يَكُنْ عنك ومُنْشِئٌ

ومَن لي به من^(١) أهل وُدِّي إن فاؤوا^(٢)
لما فات نَفْسي من بني الدهرِ إقْماءً^(٣)
بسوءٍ ولم تَزْزَأْ فؤادي أَرْزاء
فصاروا عبيداً لي وهم لي أكْفاء
فما عَفَّتْهُ عاقُوا وما شِئْتُهُ شاءوا^(٥)
فلم يك لي عن دعوة المجدِ إبطاء
يُنَاجِي السُّها منه^(٦) صَعُودٌ وطَاطَاءُ^(٧)
وَيَكْلَأُني منها إذا نمتُ كَلَاءً^(٩)
وللذَّئِبِ إلمامٌ وللصُّلِّ إلماء
تَبِذُّ^(١٠) كُسا فيه وتُقطع أكساء
ففي حيثما هَوُفْتُ كُنْ وإذفاء
يُبادرنِي منهم قيامٌ وإيلاء
ومَن كلُّ ما يُخْشى من الشَّرِّ أبراء^(١١)
لزومِيَّةٌ فيها لَوَجْدِي إفشاء
إذا عاب إكْفاء سواها وإِبطاء^(١٢)
عليه لأخناء الجوانحِ إضناء
وأغورَ إكلَاءٍ فما عاز إكْماء^(١٣)
فما لي إلى ذاك التكلُّفِ إجماء
فلا كان إنشادٌ ولا كان إنشاء

(٢) في أزهار الرياض: «وَدِّي إرفاء».

(١) في النفع: «في».

(٣) الإقْماء: الإذلال. لسان العرب (قما).

(٤) في المصدرين: «وأَكْفَاءُ»؛ يقال: أكفا البيت إذا ستره. لسان العرب (أكفا).

(٥) في الأصل: «شاء». والتصويب من المصدرين.

(٦) في المصدرين: «منها».

(٧) الطَاطَاءُ: المنخفض من الأرض. لسان العرب (طاطا).

(٨) في الأصل: «يشاعني فيها» والتصويب من المصدرين.

(٩) الكَلَاءُ: الحافظ. لسان العرب (كلا). (١٠) في المصدرين: «تَبِذُّ».

(١١) الأبراء: جمع بريء وهو الذي لا ذنب له. لسان العرب (برأ).

(١٢) الإكْفاء والإِبطاء: عيان من عيوب القافية. راجع: كتاب القوافي للأخفش (ص ٤٣، ٥٥).

(١٣) الإكْماء: كثرة الكماء. لسان العرب (كما).

ومن شعره قوله : [المتقارب]

أطار فؤادي بَرَقُ الأحـ
 كأن تَأَلَّقَه في الدُّجى
 أضاء وللعين إغفاءة
 كمعنى خفي بدا بَغْضه
 كأن النجوم وقد عَرَبَتْ
 لواغب باتت تُجَدُّ السُّرى
 وقد لبس الليل أسـمـاله
 وأيقظ روض الرُّبـا زهره
 كأن النهار وقد غـالـها
 أتى يَسْتَفِيز دموعي امـتـياحـا
 فلم يَلَقْ دَجَنَ انتحابي شـحيـحـا
 ولولا توقد نار الحـشـا
 ومما يُشَرِّد عني الكرى
 ينوح عليّ وأبكى له
 أعينُ، أرنحي أطلت الأسى
 دعيني أرذ ماء دمعي فلم
 أحز إليك إذا سَفَتْ ريحا
 وأفنى التياحا إليك وكم
 ولولا سَخائِم قوم أبوا
 أباحوا جمائى وكم مرة
 ودافعت عنهم بشغري انتصارا
 أباعوا ودادي بَخْسًا قَسَلْ
 وأغروا بنفسي طلابها
 وآلوا بميتنا على أن ما
 فشاورت نفسي في ذا فما
 فبت أناغي نجوم الدُّجى

وقد ضَمَّ بعد لوكر جناحا
 حُسام جبانٍ يهاب الكفاحا
 تلذ إذا ما سنا الفجر لاحا
 وزيد بيانا فزاد اتضاحا
 نواهل ماء صَدَزْنَ قُمـاحـا
 فأدركها الصبح روي طلاحا
 فمَحَّت عليه بلا وانصياحا
 فحيّا نسيم صباه الصُّباحا
 مبيت مال حواه اجتياحا
 ويُلهب نار ضلوعي اقتداحا
 ولم يُلَفِّ زُنْدَ اشتياقي شـحـاحـا
 لأنفَذْتُ ماء جفوني امـتـياحـا
 هديل حمام إذا نمتُ صاحا
 فاقطع ليلى بكّا أو نياحا
 عليك وما زدت إلا انتزاحا
 أرذ بعد مائك ماء قُراحا
 وأبكى عليك إذا دُفَّت راحا
 أشخت بوجهي عنك اتشاحا
 إياي ركبْتُ إليك الرُّياحا
 خميتُ جمى عرضهم أن يُباحا
 فكان الجزاء جلائي المتاحا
 أكان سماخهم بي رباحا؟
 سرّارًا فجاءوا لقتلي صراحا
 توهمتُ لم يك إلا مزاحا
 رأت لي بغير الفلاة فلاحا
 نجاء فلم ألق إلا نجاحا

أجوب الديقير وحدي ولا
ولآ الشعالب تحتس في
أجوز الأفاحيص فيحًا قفارا
فأعيبى شوارد هذي عداء
وجرّاب بدو إذا استنبحو
يرون قتالي في الحجر جلا
قصذت هناهم فلم أخطهم
فسل كيف كان خلاصي من
ولا مثل بيت تيممته
عيابا ملاء ونيبا سمانا
ولآ أعاريب شمس الأنوف
ولآ يعافير سود العيون
يردذن فينا لحاظا مراضا
وتحت الوجاح طلا زيرب^(٥)
أراني محاسن منه فلم
محيًا وسيما وفرعا أثينا
وأبذى لعينني بدائع لم
إذا لم يرد غير سفك دمي
وما زلت سمنحا بنفسي كذا
ويابن رشيد تعودت من
وقد ضاق صدري عن كشمه

مؤانس إلآ القطا والسراحا^(١)
مبيتي فتملا سمعي ضباحا^(٢)
وأعرو الأداحي غبرا فساحا^(٣)
وأعلو لواعي تلك صياحا
أجابوا عواء وأموا النباحا
واذهب نفسي فيه مباحا
أعاجم شوس العيون قباحا
أمارهم أسرى أم سراحا؟
فلم ألف إلآ الغنا والسماحا
وغيدا خدالآ وعودا أقاحا^(٤)
كرام الجدود فصاحا صباحا
يرين فساد المحب صلاحا
يمرضن منا القلوب الصحا
لو أن^(٦) القيان رفغن الوجاحا
أطق عن جماء بقلبي براحا
وقدا قويمًا وردفا رداحا
يدغ لي عقلا بها حين راحا
فجل ويل^(٧) له ما استباحا
متى ما رأيت الوجوه الملاحا
هواه فقد زدك فيه افتضاحا
وأودغته جفن عيني فباحا

- (١) السراح: جمع سرحان وهو الذئب. محيط المحيط (سرح).
(٢) الضباح: صوت الثعلب. محيط المحيط (ضبح).
(٣) الأفاحيص: جمع أفحوص وهو الموضع الذي تبيض فيه القطا. الأداحي: جمع أدحي وهو مبيض النعام. محيط المحيط (فحص) و(دحا).
(٤) العياب: جمع عيبة وهي ما يجعل فيها الثياب. والنيب: جمع نيباء وهي الناقة المستة. والنيد الخدال: الغليظة الممتلئة. محيط المحيط (عيب) و(نيب) و(خدل).
(٥) الوجاح: الشتر. اليرب: القطيع من بقر الوحش. محيط المحيط (وجع) و(يرب).
(٦) في الأصل: «لو أن» وكذا ينكسر الوزن، لذا جعلنا الهمزة الأصلية همزة وصل.
(٧) جل ويل: حلال ومباح. محيط المحيط (حلل).

وبابن رُشيد تَعَوَّذْتُ من
 الخ الزمان بأحداثه
 أعاد شبابي مَشِيْبًا كما
 وفرق بيني وبين الأهيل
 أخي وسميّي، أصيخ مُسْعِدًا
 فقد جَبَّ ظهري على ضعفه
 وطوّح بي عن تِلْمِسَانٍ ما
 وأعجل سيرتي عنه ولم
 نأى بصديقك عن رُبْعِه
 وكان عزيزًا على قومه
 فها هو إن قال لم يُلتفت
 عجبْتُ لدهري هذا وما
 لقد هَدُّ مَنِّي ركنًا شديدًا
 وقبْتُ الرّدى من أخٍ مخلص
 وإنّي على فَنِيحٍ ما بيننا
 أحزنّ إليه حنين الفحول
 وأسأل عنه هبوب النسيم
 وإن شئت عرّفان حالي وما
 فقلبٌ يذوب إليك اشتياقا
 وغرْسٌ ودادٍ أصاب قضاة
 كراسخٍ مَجْدٍ تأثّلته
 وعلياء بُوْثَتِها لو بَغَى
 مكارمُ جُمُعتْ أفذاذها
 ودرسُ علومٍ تهيم بها

خُطوبٍ أَجَلْن على القِداحا
 فآلَقَيْتُ طَوْعًا إليه السُّلاحا
 سمعت وصير نسكي طَلاحا^(١)
 ولم يرَ ذا عليه جُنّاحا
 لشجورٍ حَزِينٍ إليك استراحا
 كُدَامًا وأذهى شواتي نطاحا^(٢)
 ظننتُ فراقِي لها أن يُتاحا
 يدغني أودّع تلك البِطاحا
 فكان له النّاي موتًا صراحا^(٣)
 إذا هاج خاضوا إليه الرُّمّاحا
 إليه امتهانًا له وأطراحا
 ألاقِي مساءً به وصباحا
 وذلل منّي حياءً لِقاحا
 لو أَسْطَعْتُ^(٤) طرْتُ إليه ارتياحا
 لاَتَبِعُ ذاك الشّذا حيث فاحا
 ونُوح الحمام إذا هو ناحا
 وخَفَقَ الوميض إذا ما ألّاحا
 يُعانيه جسمي ضنّى أو صّحاحا
 وصَدْرُ يَفاحٍ إليك انشراحا
 نَدِيًّا وصادف أرضًا بَراحا
 فلم تخش بَعْدُ عليه امتِصّاحا
 سُمُوا إليها السُّمّاك لَطاحا
 فكانت لعطف عُلاك وشاحا
 عَمَرْتُ العُدُوّ به والرّواحا

(١) الطّلاح: ضدّ الصّلاح. محيط المحيط (طلع).

(٢) جَبَّ: قطع. والكُدَام: أصل المرعى وهو نبات يتكسر على الأرض. محيط المحيط (جيب) و(كدم).

(٣) الصّراح: الخالص من كل شيء. محيط المحيط (صرح).

(٤) في الأصل: «استطعت»، وكذا ينكسر الوزن.

نشأت عن الخير واعتدته
وقُنت لها أيما رحلة
بهزت رجال الحديث اقتداءً
فما إن جليس إذا قلت قال
ولو لم تحج بها مكة
وأما أنا بعد نهي النهي
أدير كؤوس هواي اغتياقا
فبرّد جواي برّد جواب
وهن بُنَيَات فكري وقد
فلم تذر إلا الثقي والصلاحا
كسخت المعارف فيها اكتساحا
وقت رجال الكمال اقتراحا
أو أن^(١) الخطيب إذا لخت لاحا
لحج الملائك عنك ضراحا
فما زادني الطبع إلا جماحا
وأشرب ماء دموعي اضطباحا
توئخ فيه مشي الوقاحا
أثيتك فاخفض لهن الجناحا

ومن شعره، رحمه الله، وله يمدح ذا الوزارتين المتقدم ذكره، ويذكر غفارة وجهها له مع هدية: [الكامل]

كبت العدى، إنعامك البعث
يا من إلى جدوى أنامله
لولاك لم يوصل بناحية
لولاك لم يطلع بها نشر
خولتني ما لم تسغه يدي
شئى أباد كلما عظمث
يغيا لساني عن إذاعتها
وطأت لي الدنيا فلا عوج
أفكثتني منها فما ليدي
بالغت في برّي ولا تسب
فلي الهناء^(٢) وللعدى الكبت
يُزجي السفين وتزجر البخت^(٣)
وخذ ولم يقطع بها دشت^(٤)
منه ولم يهبط بها خبت
فاصابني من كثره غمت^(٥)
عندي تلكأ خاطري الهت^(٦)
ويضيق عن شكري لها الوقت
فيما أرى منها ولا أمت
رده ولا لمقالتني عث
أذلي إليك به ولا خسب

(١) في الأصل: «أو أن» وكذا يتكرر الوزن، لذا جعلنا الهمزة الأصلية همزة قطع.

(٢) في الأصل: «الهناء» وكذا يتكرر الوزن.

(٣) في الأصل: «السفين» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى. والسفين: جمع سفينة وهي المركب. والبخت، بضم الخاء: الإبل الخراسانية. محيط المحيط (سفن) و(بخت).

(٤) الدشت: الصحراء. محيط المحيط (دشت).

(٥) الغمت هنا بمعنى: التخمّة؛ يقال: غمته الطعام؛ ثقل على قلبه فصيره كالسكران. محيط المحيط (غمث).

(٦) الهت: المكسور؛ يقال: هت الشيء إذا كسره وقته. محيط المحيط (هت).

لكنَّ حَسْبِي إِنْ مَتَّتْ بِهِ
 بَوْرُكْتُ مِنْ رَجُلٍ بِرُؤْيَتِهِ
 لَوْ سَارَ فِي بِهِمَاءَ مُقْفِرَةٍ
 لَتَفَجَّرَ الْمَاءُ التَّمِيرَ بِهَا
 لَا تَحْسَبَنَّ الْبُخْتُ نِيلَ غِنَى
 أَلْتَ جَلَالُكَ وَحَقُّ لَهَا
 أَظْهَرْتُ دِينَ اللَّهِ فِي زَمَنِ
 شَيْدَتِهِ وَهَدَذَتْ مُنْتَعِضًا
 أُمْنَتْ أَرْضَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا
 وَحَفِظَتْهَا مِنْ كُلِّ نَائِبَةٍ
 وَنَهَجَتْ سُبُلَ^(٤) الْمَكْرُمَاتِ فَمَا
 لَمْ تُبْقِ عُقْلًا مِنْ مَتَالِعِهَا
 هَادِنٌ طُغَاةَ الْكُفْرِ مَا هَدَاثُ
 دَغَهَا تَوَدَّعَ فِي مَعَاقِلِهَا
 كَمْ دُذَّتْهَا عَنَّا وَقَدْ هَبَرَتْ
 بِوَقُوفٍ طَرْفِكَ عِنْدَ شِدَّتِهِ
 وَالشُّكْرُ^(١١) مَا أَظْهَرْتَ مِنْ كَرَمٍ
 لَكَ مِنْ مَمَالِكِهَا وَإِنْ رَغِمَتْ
 وَلِكُلِّ أَضْيَدٍ مِنْ بَطَارِقِهَا
 يَوْمًا إِلَيْكَ وَدَادِي الْبَخْتِ
 يُوسَى الضَّمْنَى وَيُعَالِجُ الْغَتَّ^(١)
 فِي حَيْثُ لَا مَاءَ وَلَا تُبْتُ
 وَلَا عَشْبَتْ أَرْجَاؤَهَا الْمَرْتُ
 نِيلُ الرِّضَا مِنْهُ هُوَ الْبَخْتُ
 أَنْ لَا يَحِيطُ بِكُثْرَتِهَا نَغْتُ
 مَا زَالِ يَغْلِبُ حَقُّهُ الْبَهْتُ
 لَضِياعِهِ مَا شَيْدَ الْجِبْتُ^(٢)
 ذَنْبٌ يُخَافُ بِهَا وَلَا لِيَصْتُ^(٣)
 تُخْشَى فَأَنْتَ حَفِيطُهَا الثَّبْتُ
 لِمُؤْتَلٍّ عَنْ غَايَةِ أَلْتِ^(٥)
 إِلَّا وَفِيهِ لِحَائِرُ بُرْتُ^(٦)
 حَتَّى يَجِيءَ نَهَارُهَا الْمَخْتُ^(٧)
 مَا لَمْ تَعُدْ جُفَاتِهَا الْعَفْتُ^(٨)
 لِهَرَاثِنَا أَشْدَاقُهَا الْهَرْتُ^(٩)
 يَبْنَى وَيَفْخَرُ مَلِكُهَا الرُّتُ^(١٠)
 فِي ذَاكَ تَفْصَحُ عُجْنَتُهَا الْمَرْتُ
 مَا جَالِ فِيهِ جَوَادِكُ الْحَتُّ^(١٢)
 فِي كَسَلٍ أَزِي لَهُ دَغْتُ^(١٣)

- (١) الْغَتُّ: الْغَمُّ وَالْحُزْنُ. لِسَانُ الْعَرَبِ (غَتَّ).
 (٢) الْجِبْتُ: الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ. مُحِيطُ الْمُحِيطِ (جَبْتُ).
 (٣) اللَّصْتُ: اللَّصْنُ. مُحِيطُ الْمُحِيطِ (لَصْتُ). (٤) فِي الْأَصْلِ: «سِيلٌ» وَكَذَا يَنْكَسِرُ الْوِزْنُ.
 (٥) الْأَلْتُ: مُصَدَّرُ أَلْتَهُ، أَيِ حَبْسِهِ وَصَرْفِهِ عَنْ وَجْهِهِ. مُحِيطُ الْمُحِيطِ (أَلْتُ).
 (٦) الْبُرْتُ: الدَّلِيلُ الْمَاهِرُ. مُحِيطُ الْمُحِيطِ (بُرْتُ).
 (٧) النَّهَارُ الْمَخْتُ: الْحَازِ. مُحِيطُ الْمُحِيطِ (مَخْتُ).
 (٨) الْعَفْتُ: مُصَدَّرُ عَفْتُ؛ يُقَالُ عَفَّتْ الشَّيْءُ إِذَا لَوَاهُ وَكَسَرَهُ. مُحِيطُ الْمُحِيطِ (عَفْتُ).
 (٩) الْأَشْدَاقُ الْهَرْتُ: الْوَاسِعَةُ. مُحِيطُ الْمُحِيطِ (هَرْتُ).
 (١٠) الرُّتُ: الرَّئِيسُ. مُحِيطُ الْمُحِيطِ (رَتْتُ). (١١) فِي الْأَصْلِ: «وَشُكْرٌ»، وَكَذَا يَنْكَسِرُ الْوِزْنُ.
 (١٢) الْحَتُّ: السَّاقِطُ. مُحِيطُ الْمُحِيطِ (حَتْتُ).
 (١٣) الدَّغْتُ: الدَّفْعُ الشَّدِيدُ. مُحِيطُ الْمُحِيطِ (دَعْتُ).

لولا لباك البيض ما أرقّت
عندي^(١) لِمَنْ يَشْتَابُهُ مَقَّةٌ
ولو أن^(٢) بِيضَكَ لم تَسَلْ لَمَّا
يا ابن الحكيم أَمِنْتَ صَرْفَ رَدَى
وبِئْمْنِهِ أَنْشَتْ مِنْ أَمَلِي
مَثْنَى الوزارة موثلي وله
وببأسه أَطْفِي شَرَارَةَ مَنْ
عَمَّ الورى جودًا وفضلَ غنى
وَهَمِي على عالٍ وَمُنْخَفَضِ
ظِلٍّ إِذَا نَصْطَافَ مَعْتَدَلٌ
يَتَضَاءَلُ الصَّباحُ المَنِيرُ إِذَا
حتى كَانَ شمس الضحى قَمَرٌ
وغريبة في لُطْفِ صَنَعَتِهَا
يَنْأى النَّدَى بها إِذَا لَبَسَتْ
زُنْجِيَّةً لَكِنْ لِمَحْتَدِهَا
مثلُ العروس على مِئْصَتِهَا
لأَكُونَ أَنَحْلَ ما أَكُونَ هُدًى
ويمثل شَيْبِي فوق حُلُكَّتِهَا
تُظْهِرُنِي^(١٢) بلباسها وبه

للقائها أفراسنا الكُمَتْ
ولمن يُنِيبُ لغيره مَفَتْ
ذُلْتُ أُنُوفُ طُغَاتِهَا السُّلْتُ
أَبْدًا له في أَثْلَتِي نَحْتُ^(٣)
ما لم يكن يومًا له عَزْتُ^(٤)
ما دَمْتُ أَمَلِكُ قُدْرَتِي أَقْتُ^(٥)
يَعْثُو وَأَقْدَحُ أَنْفَ مَنْ يَغْتُو^(٦)
حتى تساوى العَدُو والغُلْتُ^(٧)
لم يبق فوقَ لا ولا تَحْتُ
عَطِرُ الشُّدَا وَخِيَا إِذَا تَشْتُو^(٨)
لاقى سَنَاهُ جَبِينِكَ الصُّلْتُ
وَكأنَّ ضَوْءَ شِعَاعِهَا فَخْتُ^(٩)
يَمْضِي الزَّمانُ وما لها أُخْتُ
وَيَتِيهِ إِنْ طَوَيْتَ بها الشَّخْتُ
في الرُّومِ يعنو القسُ والشُّنْتُ^(١٠)
من شَأْنِهَا التَّزْيِينِ والزُّنْتُ^(١١)
فيها فَيَغْبُلُ جِسْمِي الشُّخْتُ
يَبْدُو الوقارُ ويحفظُ السُّنْتُ
عندي لها الإيثارُ ما عِشْتُ

- (١) في الأصل: «عنده»، وكذا ينكسر الوزن.
(٢) في الأصل: «ولو أن» وكذا ينكسر الوزن، لذا جعلنا الهمزة الأصلية همزة وصل.
(٣) الأثلة: الأصل؛ وقوله: له في أثلتي نحت: أي يطعن في حسي. محيط المحيط (أثل).
(٤) العزْتُ: الشدة والاضطراب. محيط المحيط (عرت).
(٥) الأقتُ: الوقت المعين. محيط المحيط (أقت).
(٦) في الأصل: «يعت» بدون واو. (٧) الغلْتُ: الغلط. محيط المحيط (غلّت).
(٨) في الأصل: «نشت» بدون واو.
(٩) الفمخْتُ: ضوء القمر أول ما يبدو. محيط المحيط (فخت).
(١٠) الشُّنْتُ: كلمة إسبانية Santo، وتعني القديس.
(١١) زَتْ العروس: تزينها. محيط المحيط (زنت).
(١٢) في الأصل: «تظهريني» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

لا زلت تُؤثرني بها أبداً ولا تف من يشقى بهذا السلت
وبقيت تدرك ما تريد وما تهوى بقاء ما له فت

ومن شعره أيضاً في المدح قوله، رحمه الله، من قصيدة ثبتت في ديوان مجموع
من أمداحه منها قوله: [الكامل]

طرقتك وَهْنَا أَخْتُ آلِ عِلَاجٍ والرُّكْبُ بَيْنَ ذَكَادِكَ وَجِرَاجٍ
فِي لَيْلَةٍ لَيْلَاءٍ لَمْ يَنْبِخْ بِهَا كَلْبٌ وَلَمْ يَصْرُخْ أَذِينُ دِجَاجٍ
أَتَى أَهْتَدَتْ لِمُضِلِّينَ تَوَقَّنُوا مِنْهَا لِهَيْثُكَ دِيَاغِرٍ وَدِيَاغٍ
مُتَسَرِّبِلِي بُرْدِ الظَّلَامِ كَأَنَّهُمْ فِيهِ قِدَاحٌ فِي رِمَايَةِ سَاجٍ
وَرِثَقُوا بِمَحْمُودِ السُّرَى وَتَسَلَّمُوا لِمَخَارِمِ مَجْهُولَةٍ وَفَجَاجٍ
وَمَنَازِلَ دُزَمِ الرُّسُومِ بِلَاقِعَ أَخْوِينَ مِنْ هَيْجٍ وَمِنْ هِجْهَاجٍ
مَحْتِ مَعَالِمُهُنَّ غَيْرَ مُثْلَمٍ كَسِوَارِ تَاجٍ أَوْ كَدِمَلَجٍ عَاجٍ
وَمَوَائِلَ مِثْلِ الْخَمَامِ جَوَائِمُ وَزُقْ وَأَسْمَجُ دَائِمِ التُّشْحَاجِ
وَمُشْجِجٌ مَا زَالَ مَنَهْلُ الْحَيَا يَبْكِي صَدَاهُ بِدَمْعِهِ التُّجْجَاجِ
حَتَّى أَعَادَ لِعُودِهِ أَوْرَاقَهُ خُضِرَ الظُّلَالِ ذَكِيَّةَ الْآرَاجِ
وَكَسَا عِرَاقَ عِرَاصِهِ مِنْ وَشِيهِ خُلَلًا تُبَوِّرُ صُنْعَةَ الدِّيْبَاجِ
لَا مِثْلَ لَيْلَاتِ مَضَيْنٍ سَرِيعَةٍ بَرَدَتْ حَرَارَةَ قَلْبِي الْمَهْتَاجِ
أَدْرَكْتُ مِنْهَا فِي صَبَإِي مَطَالِبِي وَقَضَيْتُ مِنْهَا فِي شَبَابِي حَاجِي^(١)
كَمْ لَيْلَةٍ مَرَّتْ وَلَمْ يَشْعُرْ بِهَا غَيْرِي وَغَيْرُ مَنْدَمِي وَسَرَاجِي^(٢)
بَشْنَا نُدِيرَ إِلَى انْبِلَاجِ صَبَاحِهَا كَأَسِ الْهَوَى صِرْقًا بِغَيْرِ مِزَاجِ
وَتُدِيرَ أَعْيُنُنَا حَدِيثَ غَرَامِنَا بِمَرَامِزٍ مِنْ فُضْهَاقِهَا وَأَحَاجِ
بِمَآرِجِ التُّفَّحَاتِ مِنْ دَارِينِ أَوْ بِمَدَارِجِ التُّسَمَاتِ مِنْ دَرَّاجِ
وَخُلُوصِ وَدٍّ فِي نَقَاءِ سَرِيرَةٍ كَسُلَافِ رَاحٍ فِي صَفَاءِ زُجَاجِ
أَمَحَضَّتْهُ حَظِّي مِنَ الزَّمَنِ الَّذِي أَغْيَا مَرَامِي أَهْلِهِ وَعِلَاجِي^(٣)
وَاخْتَرْتُ قَرَبَ جَوَارِهِ لِمُخْلُوصِهِ وَتَرَكْتُ كُلَّ مُمَازِقٍ^(٤) مَرَّاجِ
مَا فِي زَمَانِكَ غَيْرِهِ فَاخْلُصْ لَهُ غَيْبًا وَدَاهِنَ مَنْ أَرَدْتَ وَدَاجِ
لَا تَحْفَلَنَّ بِغَيْرِهِ وَاسْتَغْفِرِينَ بِوَقَارِهِ عَنْ كُلِّ غَمَرٍ مَاجِ

(١) في الأصل: «حاج» بدون ياء.

(٢) في الأصل: «وعلاج» بدون ياء.

(٣) في الأصل: «وسراج» بدون ياء.

(٤) مَازِق: غير مخلص. محيط المحيط (مذق).

اترك بني الدنيا وأعرض عنهم
 نزفت نفسي عنهم بنواله
 أصبخت من آلائه وولائه
 ولو أنني^(١) عجت الركاب ميمما
 طلق إذا احتلك الزمان أنار في
 طود الرصانة والرزانة والحججا
 وغمامه الهامي على أماله
 وهزبر آجام القنا الضاري إذا
 ضمن الإله له على أعدائه
 أبقى أبو عبد الإله محمداً
 وبنى أبو إسحق قبل وصنوه
 وجرى على آثار أسلاف لهم
 ما منهم إلا أعز مبارك
 بيت بنوه من سراوة جُمير
 كم كان في الماضين من أسلافهم
 أساس كل رئاسة ورؤوس كل
 أغيث نجوم الليل من سهر وما
 حتى أصارته لرحمة ربه
 وأقيم نجل أخيه بعد مقامه
 فردا يلف كتائب بكتائب
 حتى تجلى دجن كل عجاجة
 من مثل يوسف في قراع كتائب
 أو من يشق من الأنام غباره
 فمساك تطعم لذة الإثلاج
 وحفظتها من جاهه بسياج
 في عزه ضحيا وعز داج
 أحدا سواه ما حمذت معاجي^(٢)
 ظلمائه كالكوكب الوقاج
 بحر الندى المتلاطم الأمواج
 من غير إزعاد ولا إزعاج
 سقطت عواتمها على الأزجاج
 ما شاء من ظفر ومن إفلاج
 ما شاد والده أبو الحجاج^(٣)
 ركننا الضعيف ومغدنا المحتاج
 درجوا وكلهم على منهاج
 مصباح ليل أو صباح عجاج
 في الذروة العلواء من صنهاج
 من رب إكليل وصاحب تاج
 لسياسة وليوث كل هياج
 أعيى أبو موسى من الإدلاج
 يوم العقاب وقبعة الأغلاج
 فيهم يطاعن مثله ويواج
 ويكب أفواجا على أفواج
 عنهم وأمسك رعد كل ضجاج
 ولقاء أعداء وخوض لججاج
 في رد آراء ونقض حججاج

(١) في الأصل: «ولو أنني» وكذا ينكسر الوزن، لذا جعلنا الهمزة الأصلية همزة وصل.

(٢) في الأصل: «معاج» بدون ياء.

(٣) أبو عبد الإله محمد هو الغني بالله محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر، وقد تقدمت ترجمته في أول هذا الجزء من الإحاطة. ووالده أبو الحجاج هو يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر، وسيترجم له ابن الخطيب في الجزء الرابع من الإحاطة.

إن خاض يوماً في بيان حقيقة
وإذا تكلم في الغريب وضبطه
أنست قصائد جرول أشعاره
جمع الفصاحة والصباحة والتقى
تخشاه أشد الغاب في أجماتها
إننا بني قحطان لم نخلق لغير
تبري طلى الأعراب في الهيجا وفي الد
بسيوفنا البيض اليمانية التي
تأبى لنا الإحجام عن أعدائنا
أنصار خير العالمين وحزبه
وفداته بنفوسهم ونفيسهم
هم صفوة الخلق التي اختيرت له
إلا الألى سبقوا بباهر فضلهم
وكفى بحكمتنا إقامة حجة
ولنا مفاخر في القديم شهيرة
منا الثباينة الذين ببابهم
ولامرهم كانت تدين ممالك ال
من يفتدخ زئدا فلان زنادهم

أنهى عن الثوري والحلاج^(١)
لم يعبأ بالعنبي والزجاج^(٢)
وأرجز العجلي والعجاج^(٣)
والجود في وجد وفي إحراج
والرؤم في الأسوار والأبراج
برغيات ملهوف ومنعة لاج
أواء سوف ثماري الأعراجي^(٤)
طبعث لحر غلاصم ووداج
يوم اللقاء طهارة الأمشاج
وحمائه في الجحفل الرجراج
من غدر مغتال ومثبة هاج
وسواهم همج من الأهماج
من سائر الأصحاب والأزواج
وبركننا من كغبة الحجاج
كالصبح في وضح وفي إنلاج
كانت تنيخ جباء كل خراج
لدنيا بلا قهر ولا إحراج
في الجود وارية بلا إخراج

(١) الثوري: هو سفيان بن سعيد الثوري، إمام علم الحديث وغيره من العلوم. توفي سنة ١٦١ هـ. وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٣٢٢). والحلاج: هو الحسين بن منصور، الزاهد المشهور، والمتوفى سنة ٣٠٩ هـ. الفهرست (ص ٣٢٨).

(٢) العنبي: هو محمد بن عبيد الله بن عمرو، الذي اشتهر بالفصاحة. توفي سنة ٢٢٨ هـ. معجم الشعراء (ص ٤٢٠). والزجاج: هو إبراهيم بن محمد بن السري، النحوي، المتوفى سنة ٣١٠ هـ. بنية الوعاة (ص ١٧٩).

(٣) جرول: هو جرول بن أوس بن مالك، المعروف بالخطيئة. توفي نحو ٣٠ هـ. فوات الوفيات (ج ١ ص ٢٧٦). والعجلي: هو الأغلب بن عمرو بن عبيدة، شاعر راجز، توفي سنة ٢١ هـ. الأعلام (ج ١ ص ٣٣٥) وفيه ثبت بأسماء المصادر التي ترجمت له. والعجاج: هو عبد الله بن روبة، راجز مجيد، توفي نحو ٥٩٠ هـ. الأعلام (ج ٤ ص ٨٦) وفيه ثبت بأسماء المصادر التي ترجمت له.

(٤) في الأصل: «الأعراج» بدون ياء. والطللى: جمع طلية وهي العنق. واللاواء: الشدة والمحنة. ونماري: نجادل. محيط المحيط (لأى) و(مرى).

أبوابهم مفتوحة لضيوفهم أبدا بلا قفل ولا مزلاج

ومما اشتهر من شعره قوله^(١): [السريع]

أَرُقَّ عَيْنِي بَارِقٌ مِنْ أَثَالِ كَأَنَّهُ فِي جُنْحٍ لَيْلِي دُبَالِ
أَثَارِ شَوْقًا فِي^(٢) ضَمِيرِ الْحِشَا وَغَبَرْتِي فِي صَحْنِ خَدْيِ أَسَالِ
حَكَى فُرَادِي قَلَقًا وَاشْتِعَالَ وَجَفَنَ عَيْنِي أَرْقًا وَانْهَمَالَ
جَوَانِحَ تَلْفَحَ نِيرَانُهَا وَأَذْمَعُ تَنْهَلُ مِثْلَ الْعَزَالِ^(٣)
قُولُوا وَشَاءَ الْحُبِّ مَا شِئْتُمْ مَا لَذَّةَ الْحَبِّ سِوَى أَنْ يُقَالَ
عُذْرًا لِلْوَامِي^(٤) وَلَا عَذْرَ لِي فِزْلَةَ الْعَالِمِ مَا إِنْ تُقَالَ
قُمْ نَطْرِدِ الْهَمَّ بِمَشْمُولَةٍ تَقْصُرُ اللَّيْلَ إِذَا اللَّيْلُ طَالَ
وَعَاطِهَا صَفْرَاءَ ذَمِيَّةٍ تَمْنَعُهَا الذُّمَّةُ مِنْ أَنْ تُنَالَ
كَالْمِسْكِ رِيحًا وَاللَّمَى مَطْعَمًا وَالتَّبَرُّ لَوْنًا وَالْهَوَى فِي اعْتِدَالِ
غَثَّقَهَا فِي الدَّنِّ خَمَارُهَا وَالبِكْرُ لَا تَعْرِفُ غَيْرَ الْحِجَالِ
لَا تُثَقِّبِ الْمَصْبَاحَ^(٥) لَا وَاسْقِنِي عَلَى سَنَى الْبَرْقِ وَضَوْءِ الْهَلَالِ
فَالْعَيْشُ نَوْمٌ وَالرَّدَى يَفْظَةُ وَالْمَرْءُ مَا بَيْنَهُمَا كَالْخِيَالِ
خُذْهَا عَلَى تَنْغِيمِ مِسْطَارِهَا^(٦) بَيْنَ خَوَابِيهَا وَبَيْنَ الدُّوَالِ
فِي رَوْضَةٍ بَاكِرُ وَسْمِيَّتِهَا أَخْمَلَ دَارِيْنَ وَأَنْسَى أَوَالَ^(٧)
كَأَنَّ فَارَ الْمِسْكِ مَغْبُوقَةٌ^(٨) فِيهَا إِذَا هُبْتُ صَبَا أَوْ شَمَالَ
مِنْ كُلِّ^(٩) سَاجِي الطَّرْفِ الْحَاطِظِ مُفَوِّقَاتٍ أَبَدًا لِلنُّضَالِ
مَنْ عَازِرِي وَالْكُلُّ لِي عَازِلُ^(١٠) مِنْ حَسَنِ الْوَجْهِ قَبِيحِ الْفِعَالِ
مَنْ خُلِبِي الْوَعْدَ كَذَابِهِ لَيْتَانَ لَا يَعْرِفُ غَيْرَ الْمِطَالِ

(١) القصيدة في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣٣٨ - ٣٣٩) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٨).

(٢) في أزهار الرياض: «من صميم».

(٣) أراد العزالي وهي جمع عزلاء، والعزلاء هو مصب الماء من الراوية. محيط المحيط (عزل).

(٤) في أزهار الرياض: «أعذر لوامي».

(٥) أثقب المصباح: جعل ضوءه ساطعًا. لسان العرب (ثقب).

(٦) المِسْطَار، بضم الميم وكسرهما وسكون السين: الخمرة الصارعة لشاربها. محيط المحيط (سطر).

(٧) الوسمي: مطر الربيع الأول. وأوال: الاسم القديم للبحرين.

(٨) في المصدرين: «مفتوتة».

(٩) في المصدرين: «من كف».

(١٠) في المصدرين: «عاذر».

كانه الدهرُ وأي امرئ
أما تراني آخذًا ناقضًا
ولم أكن قط له عائبًا
يأبى ثراء المال علمي، وهل
وتأنف الأرضُ مقامي بها
لولا بنو زيانَ ما لذ لي الـ
هم خوفوا الدهرَ وهم خففوا
ورثت^(٤) من عامرهم سينًا
وكعبةً للجود منصوبةً
خُذها أبا زيانَ من شاعر
يلتفِظُ الألفاظَ لفظَ الثوى
مُجاريًا مهيار^(٧) في قوله
يبقى على حال^(١) إذا الدهرُ حال
عليه ما سوغني من محال؟
كمثل ما عابته قبلي رجال
يجتمع الضدان: علم ومال؟
حتى تهاداني ظهورُ الرجال^(٢)
عيش ولا هانت علي الليال
على بني الدهر^(٣) خطاه الثقال
عمر رداء الحمدِ عمر^(٥) الثوال
يسعى إليها الناسُ من كل حال^(٦)
مُستملحِ التزعة عذب المقال
وينظم الآلاءَ نظم السلال
(ما كنت لولا طمعي في الخيال)

ومما قال أيضًا، واشتمل ذلك على شيء من نظمه ونثره، وهذا الرجل مُغرِبُ
التزعة، في شغوف نظمه على نثره^(٨): [الكامل]

عجبًا لها أيدوق طعم وصالها
وأنا الفقيرُ إلى تَعِلَّةِ ساعةٍ
كم ذادَ عن^(١٠) عيني الكرى متأنف^(١١)
مَنْ ليس يطمع^(٩) أن يَمُرَّ ببالها؟
منها، وتمنعني زكاة جمالها
يبدو ويتخفى في خفي مطالها

(١) في المصدرين: «على الدهر».

(٢) في المصدرين: «الرجال».

(٣) في المصدرين: «الدنيا».

(٤) في النسخ: «لقيت»، وفي أزهار الرياض: «ألفيت».

(٥) في المصدرين: «جَم».

(٦) في المصدرين: «بال».

(٧) هو مهيار الديلمي، وعجز هذا البيت هو مطلع قصيدة [السريع]:

ما كنت لولا طمعي في الخيال أنشد ليلتي بين طول الليال
ديوان مهيار الديلمي (ج ٣ ص ١٦٦) ونفع الطيب (ج ٧ ص ٣٣٩) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٠٨).

(٨) القصيدة في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣٤٣ - ٣٤٤) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣١٩ - ٣٢٢).

(٩) في المصدرين: «يأمل».

(١٠) في الأصل: «كم ذا وعن»، والتصويب من المصدرين.

(١١) في المصدرين: «متألق».

يسمو لها بذر الدجى متضائلًا
وابن السبيل يجيء يقبس نارها
يعتادني في النوم طيف خيالها
كم ليلة جادت به فكأنما
أسرى قعطلها^(٤) وعطل شهبها
وسواد طرته كجئح ظلامها
دغني أشم بالوهم أدنى لمحة^(٥)
ما راذ طرقي في حديقة خذها
أنسيب شغري رق مثل نسيمها
وانقل أحاديث الهوى واشرخ غريد
وإذا مررت برامة فتوق من
وانصب لمغزلها جباله قانص
واسل جداولها بفيض دموعها
أنا من بقية معشر عركتهم
أكرم بها فئة أريق نجيعها
حلت مدامة وصلها وحلت لهم
بلغت بهزيم غاية ما نالها
وعدت على سقراط صورة^(٩) كأسها

كتضاؤل الحسناء في أسمالها^(١)
ليلاً فتمنحه عقيلة مالها^(٢)
فتصيبني الحاظها بنبالها
زقت علي ذكاء^(٣) وقت زوالها
بأبي شذا المغطار من مغطالها
وبياض غرته كضوء هلالها
من ثغرها وأشم منسكة خالها
إلا لفشنته بخسن دلالها
فشمول راحك مثل ريع شمالها
ب لغاتها وأذكر ثقات رجالها
أطلاتها^(٦) وتمش في أطلالها
ودع الكرى شركاً لصيد غزالها
وانضخ جوائنحها بفضل سجالها
هذي النوى عرك الرحي بثقالها^(٧)
بغيا فراق العين حسن جمالها^(٨)
فإن انتشروا فيحلوها وحلالها
أحد وناء بها لبعيد منالها
فهريق ما في الدن من جزبالها

(١) أخذه من قول أبي تمام [الكامل]:

كسيت سبائب لومي فتضائلت

ديوان أبي تمام (ص ١٣٤).

(٢) عقيلة المال: أكرمه. محيط المحيط (عقل). (٣) ذكاء: اسم الشمس. محيط المحيط (ذكو).

(٤) في الأصل: «أسرى قعطرها وعطل شهبها يابس...» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٥) في المصدرين: «لمحة».

(٦) الأطلاء: جمع طلا وهو ولد الظبية. لسان العرب (طلا).

(٧) في الأصل: «بثقالها» والتصويب من المصدرين. وهنا يعتمد الشاعر على قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

فتعرككم عرك الرحي بثقالها

وتلقح كشافاً ثم تلتج فتتم

المعلقات العشر (ص ١٢٢).

(٨) في المصدرين: «مالكها».

(٩) في المصدرين: «سورة».

وَسَرَتْ إِلَى فَارَابٍ مِنْهَا نَفْحَةٌ
 لِيَصْوَغَ مِنَ الْحَانَةِ فِي حَانِهَا
 وَتَعَلَّقَتْ^(٢) فِي سَهْرَوَزْدَ^(٣) فَأَشْهَرَتْ
 فَخْبَا شَهَابُ الدِّينِ لَمَّا أَشْرَقَتْ
 مَا جُنَّ مِثْلَ جُنُونِهِ أَحَدٌ وَلَا
 وَبَدَتْ عَلَى الشُّوْذِيِّ^(٥) مِنْهَا نَفْحَةٌ^(٦)
 بَطَلَتْ حَقِيقَتَهُ وَحَالَتْ حَالَهُ
 هَذَا صُبَابَتُهُمْ تَرِقُّ صَبَابَةً
 أَعْلَمُ أبا الفضل بن يحيى أننى
 فَإِذَا رَأَيْتَ مُوَلَّيَهَا^(٩) مِثْلِي فَخُذْ
 لَا تَغْجَبَنَّ لِمَا تَرَى مِنْ شَأْنِهَا
 فَصَلَاخُهَا بِفَسَادِهَا وَنَعِيمُهَا
 وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ أَقِيمَ بِبِلَدَةٍ
 شَغِلُوا بِدُنْيَاهُمْ أَمَا شَغَلَتْهُمْ
 حُجَبُوا بِجَهْلِهِمْ فَإِنْ لَاحَتْ لَهُمْ
 وَإِنْ انْتَسَبَتْ فَإِنْنِي مِنْ دَوْخَةٍ
 مِنْ جَمِيرٍ مِنْ ذِي رُعَيْنٍ مِنْ ذُرَى^(١٢)
 وَإِذَا رَجَعْتُ لَطِينَتِي مَعْنَى فَمَا
 قُدْسِيَّةٌ جَاءَتْ بِتُخْبَةِ آلِهَا^(١)
 مَا سَوَّغَ الْقَسِيسُ مِنْ أَرْمَالِهَا
 عَيْنًا يُورِّقُهَا طَرُوقُ خِيَالِهَا
 وَخْبَا^(٤) فَلَمْ يَثْبِثْ لِنُورِ جَلَالِهَا
 سَمَحَتْ يَدٌ بِيضًا بِمِثْلِ نَوَالِهَا
 مَا لَاحَ مِنْهَا غَيْرُ لَمْعَةِ آلِهَا
 فِيمَا يُعْبَرُ عَنْ حَقِيقَةٍ^(٧) حَالِهَا
 فَيَرُوقُ شَارِبُهَا صَفَاءُ زُلَالِهَا
 مِنْ بَعْدِهَا أَجْرِي عَلَى آسَالِهَا^(٨)
 فِي عَذْلِهِ إِنْ كُنْتُ مِنْ عُدَالِهَا
 فِي حَلِّهَا إِنْ كَانَ أَوْ تَرْحَالِهَا
 بِعَذَابِهَا وَرِشَادِهَا بِضَلَالِهَا
 يَوْمًا وَأَسْلَمَ مِنْ أَذَى جُهَاَلِهَا
 عَنِّي فَكَمْ ضَيِّغَتْ مِنْ أَشْغَالِهَا
 شَمْسُ الْهُدَى عَبَثُوا^(١٠) بِضَوْءِ دُبَالِهَا
 تَتَقَيَّلُ^(١١) الْأَقْيَالُ بِزَدِ ظِلَالِهَا
 حَجَرٍ مِنَ الْعِظْمَاءِ مِنْ أَقْيَالِهَا
 سَلَسَالَهُمْ^(١٣) بِأَرْقٍ مِنْ صَلْصَالِهَا

(١) إشارة إلى الفارابي الفيلسوف وقدرته في الموسيقى.

(٢) في المصدرين: «وتغلغلت».

(٣) هنا إشارة إلى السهروردى المتصوف.

(٤) في المصدرين: «وخوى».

(٥) الشوذى: هو الشيخ أبو عبد الله الحلوى، أحد فقهاء مرسية، والشوذية طريقة صوفية تشبه طريقة ابن عربي، إلا أنها أكثر إيجابية.

(٦) في المصدرين: «نشوة».

(٧) في الأصل: «حقيقته» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٨) من هنا حتى آخر القصيدة غير وارد في نفع الطيب. وفي أزهار الرياض: «أحرى على آمالها».

(٩) في أزهار الرياض: «مذلها».

(١٠) في الأصل: «عشوا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من أزهار الرياض.

(١١) في أزهار الرياض: «يتقيا الإنسان بزدا...» (١٢) في الأزهار: «ذرى».

(١٣) في الأزهار: «سلساله».

لله دُرُكٌ أَيُّ نَجْلِ كَرِيمَةٍ وَلَدَتْهُ فَاسٌ مِنْكَ بَعْدَ حِبَالِهَا^(١)
 وَلَأَنْتَ لَا عَدِمَتْكَ وَالِدُ فَخْرِهَا وَسِمَاكَ سُودُودِهَا وَيَذُرُ كِمَالِهَا
 اغْلُظْ عَلَى مَنْ عَاثَ مِنْ أُنْدَالِهَا وَاخْشَعْ لِمَنْ تَلْقَاهُ مِنْ أِبْدَالِهَا
 وَالْبِسْ بِمَا أَوْلَيْتَهَا مِنْ نَعْمَةٍ حُلِّلَ الثَّنَاءَ وَجُرَّ مِنْ أَذْيَالِهَا
 خُذْهَا أبا الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى تُخَفُّ جَاءَتْكَ لَمْ يُنْسَجْ عَلَى مِثْوَالِهَا
 مَا جَالَ فِي مِضْمَارِهَا شِعْرٌ وَلَا سَمَخَتْ قَرِيحَةً شَاعِرٍ بِمِثَالِهَا
 وَأَيْلَ أبا الْبَرَكَاتِ مِنْ بَرَكَاتِهَا وَادْفَعْ مَحَالَ شُكُوكِهِ بِمَحَالِهَا^(٢)

هذه، أَمْنَعُ الله ببقائك، وأسعد ببقائك، وأراها بما تؤمله من شريف اعتنائك،
 وترجوه من جميل احتفائك، ما تعرف به من احتذائك، وتعترف له ببركة اعتفائك،
 كريمة الأحياء، وعقيلة الأموات والأحياء، بنت الأذواء والأقبال، ومقصورة الأسيرة
 والحجال، بل أسيرة الأساوير والأخجال، على أنها حليفة آلام وأوصاب، وأليفة
 أشجان وأطراب، صباية أغراب من صيابة أعراب، جاورث سيف بن ذي يزن في
 رأس غمدان، وجاورث مسلمة بن مخلد يوم جابية الجولان، وذُلِّقَت لسان ابن أخته
 حسان، فتضاءلت لركة حذو جسوم بني عبد المدان، وقربه وما شيم من غمده قيد ابن
 الإطنابة بين يدي النعمان، قرئت ببني جفنة مزار جلق، وسعرت لبني تميم نار
 مخلوق، ومرّت على معتاد غالب فما أنست ناره، وطافت ببيت عبد الله بن دارم فلم
 ترض جواره، ولو حلت بفنائها، واستحلت ما أحل لها من مبدول جباه، لاغفر لها
 ما جنته ببطن أواره، ولحلت لها حبوتا مجاشع وزراره، مزقت على مزيقها خللاً،
 وأذهبت يوم حليلة مثلاً، وأركبت عنزاً شر يومها يجذع جمللاً، وناطت بأذن مارية
 قزطها، وجرت على أثر الكندي مزطها، وقفها بين الدخول فحومل فوقفت، وأنفها
 يوم دارة جلجل فأنفت منه وما ألقت، عقر ناقته وانتهس عبيطها، ودخل خدر عنيزة
 وأمال غبيطها. أغرت أبا قابوس بزياد، وأسرجت للزبيدي فرس أبي داود ونافرت
 بحاتم طي كعب إياد، وساورت للمساور، بمثل جوده السائر. ولئن بليت الجعفري
 ليبدأ، فلقد استعبدت الأسدي عبيداً، وقطعت به في أثر سليمان الأسدية بيذاً، أرتة
 المنية على حربة هندها المَلْحُوب، وما حال قريضه، دون جريضه، وأقفر من أهله
 مَلْحُوب، وما زالت تخبط في شعاب الأنساب فتزئد، وتُشيد ضالتها اليمانية، فتشدد:

[الكامل]

إن كنت من سيف بن ذي يزن فانزل بسيف البحر من عدن

(١) في الأزهار: «حبالها».

(٢) في الأزهار: «من ألبها».

وذِر الشَّامَ وما بناه به الرُّومِيُّ من قصر ومن قَدَنٍ

تعلف سَبِيلَ العِرمِ وتردغسان، وتمهد لها أهضام تباله فتقول: مَرْعَى ولا كالسَّغْدَان^(١)، تساجل عن سَمِيحة بابن خُرام، وتناضل بسمير يوم خزام، وتَنسَى قاتل ستة آلاف، وكاسي بيت الله الحرام ثلاثة الأفواف، فلو ساجَلَتْ بِنَبْعِها أبا كَرْب، وأرته ضراعة خذها الثُّرب، لساجَلَتْ به أخضر الجلدة في بيت العرب، ماجداً يملأ الدُّلر إلى عَقْدِ الكَرْب، بل لو حطت بفناء بيتها الحجري رَحْلَها، وساجلت بفناء جَدِّها ذي رُعين لاستَوَفَّت سجلها. كم عاذت بسيفها اليزني، فأدركت ذحلها، ولاذت بركنها اليمني، فأجزل محلها، ولو استسقت بأوديتها لأذهبت مَحْلَها. كافحت عن دينها الحنيفي، فما كُهم حُسامها، وناقَحَتْ عن نبيها الأُمِّي فأيَّدت بروح القدس سهامها. سَدَّت باب الدرب دون بني الأَصْفَر، وشَدَّت لموته ثوب موت أحمر، وما شَغَلها كَسْرُ تاج كِسْرَى عن قَرْع هامة قَنَصِر. ولقد حَلَّت من سنام نسبها اليعربي باسمك ذُرَّة، وتعلقت من ذمام نبيها العربي بأوثق عُزَّة. تفرَّد صاحب تيماء بأبْلَقه الفرد فعَزَّ، وتمرَّد ربُّ دُومة الجندل لما كان من مارد في حرز، فما ظنك، أعزك الله، بمن حلَّ من قُدسي عقله، بمَغْقَلِ قُدس، يُطار إليه فلا يُطار، وراد من فردوس أدبه في جنة لا يُضام رائدُها ولا يُضار. زها بمجاورة المُلْك، فازدهى رؤساء الممالك، وشَغِف بمجاورة الملك، فاشتغل عن مطالعة المسالك، أَيْشَقُ عُبارَه، وعلى جبين المرزم مَثارَه، أو يُنْتَهَك ذماره، وقلبُ الأسد بيته ودار أخيه أسامة زاره. ولما قَضَتْ من أنديتها العربية أوطارها، واستَوَفَّت على أشرف منازعها الأدبية أطوارها، وعَطَّرَتْ بنوافح أنفاسها الذُكِيَّة آثارها، وأُطلعت في ظُلَم أنفاسها الدُّجُوجية كواكبها النيرة وأقمارها، عطفت على مَغْقَلِها الشاذلية فحَلَّت عِقَالِها، وأمر لها فراق الوطن فلما استمرَّ لها حلالها، استودعت بطنان تباله آلهَا، وتركت أهضامها المُخَصَّصة وحلالها، أطلَّت على دارات العرب فحيت أطلالها، ودعت لزيارة أختها اليونانية أذواء جَمِير وأقبالها. أطمعتها بلمعية المَعِيَّتِها الأعجمية، ومثلها يُطمع، وجاء بها من قُدَماء الحُكَماء كلُّ أَوْحدي الأحودية، فبانت تخبُّ إليه وتوضع، باحثة عن مركز دارتهم الفيشاغورية، آخذة في إصلاح هيئتهم الإنكساغورية، مؤثرة لما تدلَّ عليه دقائق حقائق بقايا علوم مقاييسهم البرهانية، وتشير إليه رموز كنوز وصايا عُلماء نواميسهم الكلدانية، من ماثور تأثير لاهوتية قواهم

(١) «مَرْعَى ولا كالسَّغْدَان» مثل، والسَّغْدَان: نبت ذو شوك كأنه قلعة، ينبت في سهول الأرض، وهو من أطيب مراعي الإبل ما دام رطباً. مجمع الأمثال (ج ٢ ص ٢٧٥) ولسان العرب (سعد).

السيماوية، رغبةً فيما يُفاض على مادتها الجُثمانية، ويطراً على عاقلِيَّتها الهيولانية، من علويات آثار مواهبها الربانية، موافقةً لمثلهم المفارقة أفضل موافقة، موافقةً لما وافق من شوارد آرائهم المُوَفِّقة أحسن موافقة. وتحت هذه الأستار مُخَذَّرات أسرار أضُرُّ بها الأسرار، وطالما نكر معارفها الإنكار، ونُقلت من صدور أولئك الصدور إلى بطون هذه الأوراق، في ظهور فوق دفاتر فلسفِيَّات معاني علومهم الرُّفاق. وفي تلك المغاني، أبكار معاني، سكن الجوانح والصدور، بدل الأرائك والخدور، ولحن في دياجي، ظلم هذه الأحاجي، كأقمار في أطمار بَهْرَن وما ظَهْرَن، وسَطَّغن وما لَمغن، فَعَشِقْنَ وما رَمَقْنَ، واستَمَلَحْنَ وما لَمَحْنَ. أدْرَن خمور أجفانهن، على ماخوريات الحانهن، فهَيَّجت البلبل، نَغَم هذه البلبل، واستَفْرَغته الأكياس، مُثْرعات تلك الأكواس. ما سِخَرُ بابل، كَخَمَر بابل، ولا منتقى أغانيهن الأوائل، كحمانمكم الهَوَادِل، إن وصلت هَدِيلها بِخَفِيف، وصلن ثَقِيلهن بِخَفِيف. إيه أيها الشُمري المِشمعل، دعنا من حديثك المُضْمِجل، سِرْ بنا أيها الفارس النَّدس^(١)، من حظيرة النَّفس، إلى حضرة القُدس، صرِّح بإطلاق الجمال، وجُلْ من عالمِيَّتكَ المَلَكُوتية في أفصح مجال، تَمْشِ بين مقاصر قُصورها، ومعاصر خمورها، رُخِي البال، مرُخِي السربال، فما ينسج لك على منوال، نادِمَ عليها من شَغَف دَن سُقراط، إن استَحَسَّنتَ لها جِسانَ فما يَصْلُح لك صالح بن علاط، بت صريع مُحَيَّاها فقد أَوْصت بمعالجة عقير مُعاقرة عُقارها بُقراط، لا تخش صاحب شُرطتها فلا شَرَطَ له عليك ولا اشْتِراط، ما لك غير مبديك الأول، من قال امْتِثِل الأمر وما عليك من أمر وال. على رِسْلِكَ ما هذا العَجَل، لا خطأ تتوقعه ولا خَطَل، أمْكَرَه أنت في هذه الكريهة، أم بَطَل. لو عَلِم أنك ضبارية هذا الخميس، وخبيثة ذلك الخميس، لما عانى اليم رسيس، شوقاً إليك محمد بن خميس، على أن لا غالب اليوم لأنني غالب، ولا طالبٌ يَذْرك شأو هذا الطالب، فِقَّة بلا تفهق، وجَذَق في تَحَذُّق. أقسم أبا الفضل بما لك على أبي البركات من الفضل، ذلك العراقي الأرومة، لا هذا الفارسي الجرثومة، وإن يك ذلك، إسرائيلي الأصل، وهذا إسماعيلي الجنس، عَلَوي الفضل. فلتلك الذات، شرف تلك الأدوات. قدّم لي غالبنا المذكور، من بأسه الغُرُّ لأرفع وأسمى من مقعد رقوطيَّهم المشهور، من إغْرَناطة الحَمراء، ومن مُتَبَوِّأ أبي أميَّتهم المرحوم من جَنّات جزيرتهم الخضراء، فيما لنت أبا الفضل من هذه العريجة، وألوك، رأيت في عمرك مثل هذا الصعلوك؟ لا والله ما على ظهر هذه الغبرا، مَنْ يتظاهر بمثل هذه المعرفة في بني غُبرا. فأَي

(١) الفارس النَّدس: السريع في الطعن. لسان العرب (نلس).

شيء هذا المنزع؟ إيش، لا حال لنا معك ولا عيش، مَن يضحك على هذا الطيش. ما هذا الخبل، أخمار بك أم ثمل؟ ارجع إلى ما كنت بِصَدِّه وُقِيت الزلل، خُذْ في الجدِّ فما يليق بك الهزل، رِقْ عن ذلك فحكْ لنا منه أَرْقَ غَزَل، ماذا أقول؟ وأي عقل يطاوعني على هذا المعقول؟ أَفَحَمَّتَنِي، والله، عن مكالمتكم هذه المحن، ومنعتني من طلب مسالمتكم ما لكم عليّ في دنياكم هذه من الإحن. إن تكلمت كَلِمَت، وإذا استعجمت عُجِمَت. أما لهذه العلة آس، أم على هذه الفيلة مواس؟ ما حيلتي في طبع بلدكم الجاسي؟ أما يلين لضعفي، أما يرق قلبُ زمانكم القاسي؟ ما هذه الدُمن، يا بني خضراوات الدمن، أظهرتم المحن، فقلب لكم ظَهَرَ المِجَن^(١). إن مرَّ بكم الولي حَمَّقْتُمُوهُ، وإن زَجَرَكُم العالم فَجَرْتُم عليه فَسَقَّتُمُوهُ، وإذا نَجَم فيكم الحكيم غُصِصْتُم بِهِ، فكفَرْتُمُوهُ وزَنَدَقْتُمُوهُ. كونوا فوضى، فما لكم اليوم مَسْرَى سِوَاهُ واذهبوا من مراعيكم المستوبلة، حيث شئتم، فقد أهملكم الرعاة. ضيَعْتُم النص والشرائع، وأظهرتم في بدعكم العجائب والبِدائع. نَفَقْتُم النِّفاق، وأقمتُم سوق الفسوق على ساق. استَضَعَرْتُم الكبائر، وأبَحْتُم الصُّغائر، أين غَنِيَّتكم الشاكر، يتفقد فقيركم الصابر؟ أين عالمكم الماهر، يرشد مُتَعَلِّمَكُم الحائر. مات العلمُ بموت العلماء، وحكَمَ الجهل بقطع دابر الحكماء. جرَّد لنا شريعَتَكَ يا أفضل الشارعين، أَيْتَمَ فيها موعظتَكَ يا أفصح التابعين. لا، والله، ما يوقظكم من هذا الوَسَن، وَغَظَ الحَسَن، ولا يُنقذكم من قَتَن هذا الزمن، إِلَّا سَيْفُ مُعَلِّمِهِ أَبِي الحَسَن، والسلام.

قدم غرناطة في أواخر عام ثلاثة وسبعمائة. وتوفي في يوم مقتل صاحبه الوزير أبي عبد الله بن الحكيم؛ فرَّ من دهليز جاره فيمن كان بها من الأعلام، بعد أن نُهبت ثيابه، حسبما جرى على غيره من الحاضرين، وهو يقول: هكذا تقوم الساعة بغتة. ولقيه بعض قرابة السلطان، ممن كان الوزير قد وَثَرَهُ، فشرع الرُّمَحُ إليه، فتوسَّلَ إليه برسول الله، فلم يقبل منه، وطعنه، فقتله يوم عيد الفطر عام ثمانية وسبعمائة، وآخر العهد به، مطرَحًا بالعراء، خارج باب الفخارين، لا يُعلم قبره؛ لمكان الهرج في تلك الأيام، نَسَأَ اللهُ جميل ستره، وساء بأثر قتله إياه حال ذلك الرجل وفَسَدَ فكره، وشرَّدَ نومه وأصابته علة رديَّة، فكان يَثْبُبُ المرة بعد الأخرى، يقول: ابن خميس يقتلني، حتى مات لأيام من مقتل المذكور.

(١) أخذه من المثل: «قَلْبٌ لَهُ ظَهَرَ المِجَن»، وهو يضرب لمن كان لصاحبه على مودة ورعاية ثم حال عن العهد. مجمع الأمثال (ج ٢ ص ١٠١).

محمد بن عمر بن علي بن إبراهيم المليكشي^(١)

يكنى أبا عبد الله.

حاله: كان فاضلاً، متخلفاً، أديباً، شاعراً، صوفياً، جميل العشرة، حسن الخلق، كريم العهد، طيب النفس. كتب عن الأمراء بإفريقية، ونال حظوة، ثم شرق وحج، ولقي جلة، ووصل الأندلس عام ثمانية عشر وسبعمائة، فلقى بغرناطة حفاية، وأنسخت بها عليه جراية، ثم انصرف إلى وطنه، وناله به اعتقال، ثم تخلص من الثكبة، وأقام به، يُزجى وقته إلى آخر عمره.

وجرى ذكره في «الإكليل الزاهر»^(٢): كاتب الخلافة، ومُشفِيع الأدب المُرزي^(٣) بالسُلالة، كان، يرحمه الله، بطل مجال، ورب روية وارتجال، قدم على هذه البلاد وقد نبأ به وطنه، وضاق ببعض الحوادث عظمه، فتلوم بها تلوم النسيم بين الخمائل، وحل بها^(٤) محل الطيف من الوشاح الجائل، ولبت مدة إقامته تحت جراية واسعة، وميرة^(٥) يانعة. ثم أثر قطره، فولى وجهه شطره، واستقبله دهره بالإنابة، وقلده خطة الكتابة، فاستقامت^(٦) حاله، وحطت رحاله. وله شعر أنيق، وتصوف وتحقيق، ورحلته^(٧) إلى الحجاز سببها^(٨) في الخبر وثيق، ونسبتها^(٩) في الصالحات عريق.

شعره: نقلت من خط الوزير أبي بكر بن ذي الوزارتين، مما قيّد عنه، وكان خيراً بحاله^(١٠): [الطويل]

رضى نلت ما ترضين^(١١) من كل ما يهوى فلا توقيني^(١٢) موقف الذل والشكوى
وصفحاً عن الجاني المسيء لنفسه كفاه الذي يلقاه من شدة البلوى

(١) ترجمة محمد بن عمر المليكشي في نيل الابتهاج (ص ٢٣٧) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ٢٢٦) ورحلة البلوي (الورقة ٢٢) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٥).

(٢) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٥). (٣) في النفع: «الذي يزري».

(٤) في المصدر نفسه: «منها».

(٥) في الأصل: «وميرة» والتصويب من نفع الطيب.

(٦) في الأصل: «واستقامت» والتصويب من نفع الطيب.

(٧) في النفع: «ورحلة». (٨) في النفع: «سببها».

(٩) في النفع: «ونسبها». (١٠) القصيدة في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٥).

(١١) قوله: «ما ترضين» ساقط في الأصل، وقد أضفناه من نفع الطيب.

(١٢) في الأصل: «فلا توقني» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

بما بيننا من خلوة معنوية
 قفي أتشكى لوعة البين ساعة
 قفي ساعة في عرصة الدار وانظري
 وكم قد سألت الريح شوقاً إليكم
 فيا ريح، حتى أنتِ ممن يغارُ بي
 خلقتُ ولي قلبٌ جليدٌ على الثوى

وحدث^(٢) بعض من عني بأخباره، أيام مقامه بمالقة واستقراره، أنه لقي ليلة^(٣)
 بباب الملعب من^(٤) أبوابها ظبية من ظبيات الإنس، وفشنة من فتن^(٥) هذا الجنس،
 فخطب وصالها، وألقى بفؤاده نصالها، حتى همت بالانقياد، وانعطفت انعطاف الغصن
 المياد، فأبقى على نفسه وأمسك، وأنف من خلع العذار بعد ما تنسك، وقال^(٦):
 [الكامل]

لم أنس وقفتنا بباب الملعب
 وعدت فكنت مراقباً لحديثها
 وتذلل^(٧)ت فذللت بعد تعزُّز
 بدوية أبدى الجمال بوجهها
 تدنو وتبعد نفرة وتجنباً^(٩)
 ورثت بلحظ فاتر لك فاتن^(١١)
 وأرتك بابل سخرها بجفونها
 وتضاحكت فحككت بنير ثغرها
 بمنظم في عقد سمنطي جوهر

بين الرجا واليأس من متجنب
 يا ذل وقفة خائف مترقب
 يأتي الغرام بكل أمر معجب
 ما شئت من خد شريك^(٨) مذهب
 فتكاد تحسبها مهة الريرب^(١٠)
 أنضى وأمضى من حسام المضرب
 فسبت، وحق لمثلها أن تستبي^(١٢)
 لمعان^(١٣) نور ضياء برقي خلبي^(١٤)
 عن شبه نور الأبحوان الأشنب

- (١) في النفع: «علي».
 (٢) النص والقصيدة البائية في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٥ - ٣٧٦).
 (٣) كلمة «ليلة» ساقطة في النفع.
 (٤) في الأصل: «في» والتصويب من النفع.
 (٥) في النفع: «وقينة من قينات...».
 (٦) القصيدة في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٦).
 (٧) في الأصل: «وتذلللت» والتصويب من النفع. (٨) الشريك: المشرق. لسان العرب (شرق).
 (٩) في الأصل: «وتجنباً» والتصويب من النفع.
 (١٠) المهة: البقرة الوحشية. والريرب: القطيع من بقر الوحش. لسان العرب (مها) و(ريرب).
 (١١) في النفع: «بلحظ فاتن لك فاتر».
 (١٢) في الأصل: «تستب» بدون ياء.
 (١٣) في الأصل: «لمعات» والتصويب من النفع.
 (١٤) البرق الخلب: المطيع المخلف. محيط المحيط (خلب).

وتمايلت كالغصن أخضله الندى^(١) رَيَّانَ من ماء الشبيبة مُخْصِب
تثنيه أرياح^(٢) الصُّبابة والصُّبا فتراه بيسن مُشْرِقٍ ومُغْرِب
أبت الروادف أن تميل بميله فرست وجمال كأنه في لولب
مُتَوَجِّجا بهلالٍ وجيهٍ لاح في خلل السجوف^(٣) لحاجبٍ ومُحَجَّب
يا من رأى فيها مُحِبًّا مُغْرَمًا لم ينقلب إلا بقلبٍ قُلْب
ما زال مذ ولّى يحاولُ حيلةً تُذنيه من نيلِ المُنَى والمَطْلَبِ
فأجال نارَ الفكر حتى أوقدَتْ في القلب نارَ تَشْوِقٍ وتَلْهَبِ
فتلاقت الأرواح قبل جسومها وكذا البسيطُ يكونُ قبلَ مركَّب

ومن مقطوعاته البديعة، مما سمع منه بغرناطة، حرسها الله، أيام مقامه بها قوله^(٤): [الطويل]

أرى لك يا قلبي بقلبي محبةً بَعَثْتُ بها سِرِّي إليك رسولا
فقابله بالبشرى^(٥) وأقبل عشيّة فقد هبَّ مِنْكَ^(٦) للنسيم عيلا
ولا تعتذر بالقطر أو بلل الندى فأحسن ما يأتي النسيم بليلا

ونقلت من خط الفقيه القاضي أبي جعفر الرُّعيني، مما أملاه عليّ بمنزله بغرناطة، قال: وحضرت في عام ثلاثة عشر وسبعمائة، يوم إحرام الكعبة العلية، وذلك في شهر ذي القعدة على اصطلاحهم في ذلك، وصِفَتُهُ أن يتزيّن سدنة البيت من شيبة بأحسن زي، ويعمدوا إلى كرسي يصل فيه صاعده إلى ثلث الكسوة، ويقطعها من هنالك، ويبقى الثلثان إلى الموسم، وهو يوم مشهود عند سكان الحَرَم، يحتفل له، ويقوم المنشدون أدراج الكعبة ينشدون. فقلت في ذلك: [الطويل]

ألم ترها قد شَمَرَتْ تطلبُ الجدا وتخبرُ أن الأمرَ قد بَلَغَ الخِدا؟
فَجُدَّ كما جُدَّتْ إليها وشَمُرُ عن السَّاعِدِ الأقوى تَنَلُّ عندها سَعْدَا
طَوَتْ بُرْدَها طَيَّ السَّجَلِ كنايةً لأمرٍ خَفِيٍّ سِرُّهُ طَوَتْ البُرْدَا
واندَثَ مُحَيَّاها فَحَيَّي^(٧) جماله وقَبَّلَ على صوتِ المُقَى^(٨) ذلك الخِدا

(١) أخضله الندى: بلله. لسان العرب (خضل). (٢) في النفع: «أرواح».

(٣) في النفع: «السحاب».

(٤) الأبيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٦).

(٥) في الأصل: «بالبشرى» والتصويب من النفع. (٦) في الأصل: «مسكي» والتصويب من النفع.

(٧) في الأصل: «فحيّا».

(٨) في الأصل: «المقلة» وكذا لا يستقيم الوزن، والمُقَى: جمع مُقِيّة وهي المأق. لسان العرب=

فكم سَتَرَتْ سَوْدُ البُرودِ جمالها
وكم خال ذاك الخال عما مُقْصَر
لقد سَفَرَتْ عن وجهها الكعبة التي
وقالت ألا أين مُكَلَّلِي، قصدوا إلى^(١)
فلبث لها العشاق من كل جانب
فمن تَدِفِ أشفى على تلفٍ ومن
ومن ساهر على النجوم ولم يَذُقْ
يسائل عن بدرٍ وبدرٍ تجاهه
ومن مُسْتَهَامٍ لا يقرُّ قِرازه
يُقَلِّبُ قَلْبًا بين جنبيه موريا
إذا ما حدا حادي الرُّكَّاب ركابه
أحاد بها إن أنت جئت بها مِنِّي
ولا خوفَ هذا الخَيْفُ^(٢) والتربة التي
وفي عرفاتٍ فاعترف وانصرف إلى
وإن كنت من أوفى العبيد جرائما
لئن صدقت فيك الوعيد جرائم
وعُدْ مفضيا للبيت طَفَّ واستلم وقم
ورُدْ في الثنا والحمد والشكر واجتهد
وعج نحو فرض الحب وأقضى حقوقه

وغَطَّتْه لَكُنْ عن سننها الرُّمْدَا^(٣)
عن العلم بالأنساب لا يعرف الحدَا
لها الحَجَرُ^(٤) المَسْنِي في حُسْنِها المُبْدَا
جمالي فقد أبدى الحجاب الذي أبدا
يُؤْمُونُها يستقربون لها البُعْدَا
مُحِبٌّ على قربٍ يهيم بها وَجْدَا
بعينيه طعم النور أو يبلغ القصدَا
كذاك^(٥) اشتراك اللفظ قد ينغص الخدا
كأن به من حرٍّ أشواقه وَقْدَا
أوار الأسى فيه فتحسبه زُنْدَا
كأن قلوب الراكبين له نَجْدَا
ونلت المُنَى والأمنَ فانزل ورْدَا
سرت بهما^(٦) قد عَيَّن المصطفى عَدَا
مشاعر^(٧) فيها يرحمُ المالكُ العَبْدَا
فَحَسُنَ نبيل العقد من ربك العَقْدَا
فعفوا جميل^(٨) الصّبح يصدقك الوعدَا
بها للمقام الرحب واسجد وكُنْ عبدا
فمن عَرَفَ الإحسانَ زادته حمدا
وزر قَبْرَ مَنْ أُولَاك من هَذِيه رُشْدَا

قال: وكنت في زمن الحداثة، أفضل الأصيل على السُّخَر، وأقول فيه رقة
المودع ورقة المعتذر. فلما كان أوان الأسفار، واتصلت ليالي السير إلى أوقات

= (مقي).

- (١) عجز هذا البيت مختل الوزن والمعنى معًا.
- (٢) كلمة «الحجر» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم المعنى والوزن معًا.
- (٣) صدر هذا البيت مختل المعنى والوزن معًا. (٤) في الأصل: «كذلك» وكذا ينكسر الوزن.
- (٥) الخَيْف: غُرّة بيضاء في الجبل الأسود الذي هو خلف جبل أبي قُبَيْس، وبها سمي مسجد الخَيْف. محيط المحيط (خيف).
- (٦) كلمة «بهما» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم المعنى والوزن معًا.
- (٧) المشاعر: مناسك الحج، مفردا مَشْعَر. محيط المحيط (شعر).
- (٨) في الأصل: «الجميل» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

الأسحار، رأيت أفق الشرق أشرق، ووجدت القائل بفضل السحر أصدق، فابتدأت راكبًا، فلمّا جئت لذكر الجناح العليّ النبوي، أتممت ماشيًا، وأنا في رملة بين مصر وعقبة إيله، وقلت: [البسيط]

ما أحسن الأفقَ الشرقيَ إسفارا فكم هذا في دُجى الإدلاج أسفارا
إذا بدا سارت الأظعانُ هاديةً له وصارت به الظلماء أنوارا
يجلو غياهب ليل طالما سدلت على المحبين في الظلماء أستارا
ونمّ منه نسيم ثم ذا بعد على أحاديث كانت ثم أسرارا
سرت سحيرا فبرت سرّ ذي سحر أهدت له ريح من بهواه معطارا
سرت ببنات أكناف اللوى فعُدت كأنّ دارنن قد أصبحت دارا
طابت بطيبة أرواح معطرة بها فأصبح أفق الشوق عطّارا
كأنما قلّق الإصباح حين بدا خذ وبهجة^(١) حسن الشمس قد وارى
حقي بدت وتبدت حسن صورتها فعُمت^(٢) الأرض أنجادًا وأغوارا
كانه دعوة المختار حين بدت دانت لها الخلق إعلانًا وإصرارا
من نوره كل نور أنت تُبصره ونوره زاد للأبصار^(٣) إبصارا
هدا به الله أقوامًا به سَعْدًا^(٤) لولاه كانوا مع الكُفر كُفّارا
هو الشفيع الذي قالت شفاعته للمؤبّقين ألا لا تدخلوا النارا
هو العَفْوُ^(٥) عن الجاني وإن عَظُمَتْ من المسيء ذنوب كان غفّارا
هو الكريم الذي ما رُدّ سائِلُهُ يومًا ولو كرّر التّسأل تكرارا
هو الحبيب الذي ألقى محبته في كل قلب فقلبي نحوه طارا
أحبُّهُ كلُّ مخلوق وهام به حتى الجمادات أحجارًا وأشجارا
وانشقّ بدر الدجى من نور غُرته وانهلت الشّخب من كفيه أنهارا

ومن مقطوعاته، قال: ومما نظمته في ليل السرى، وتخيل طيف الكرى، مبدأ قصيد قصده، أي معنى أردته، أشغل عنه ما بي منه: [الخفيف]

منع الهجر من سُليمى هجوعا فانشنى طَبَعُها يريدُ الرُّجوعا

(١) في الأصل: «خدر بهجة» وكذا لا يستقيم الكلام ولا الوزن.

(٢) في الأصل: «فعُمت» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

(٣) في الأصل: «الأبصار» وكذا ينكر الوزن. (٤) في الأصل: «سعداء» وكذا ينكر الوزن.

(٥) العَفْوُ، بفتح العين وضمّ الفاء: العافي الكثير العَفْو. محيط المحيط (عفا).

بَعَثَتْهُ لَيْلًا يُعَلِّلُ قَلْبًا مُسْتَهَامًا بِهَا مُجِبًا وَلَوْعَا
 لَمْ يَجِدْ غَيْرَ طَرْفٍ جَفْنٍ قَرِيعٍ شَاخِصًا نَحْوَهَا يَذُرُّ الدُّمُوعَا
 وَكُتِبَ إِلَى صَدِيقِهِ شَيْخِنَا أَبِي بَكْرٍ بِنِ شَبْرِينَ مِنْ بَجَايَةِ، وَهُوَ مَعْتَقِلٌ بِقَصَبَتِهَا،
 وَقَدْ امْتَحَنَهُ بِذَلِكَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بِنِ سَيِّدِ النَّاسِ: [الخفيف]

شَرَحُ حَالِي لِمَنْ يَرِيدُ سُؤَالِي إِنِّي فِي اعْتِقَالٍ مَوْلَى الْمَوَالِي^(١)
 مُطْلَقُ الْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَهُوَ لِلْعُطْفِ وَالْجَمِيلِ مُوَالٍ
 لَا أَرَى لِلْوَلَاةِ فِيَّ احْتِكَامًا وَلِيَّ مَالٍ عَلَى كُلِّ وَالٍ
 أُرْتَجِي بِالصَّابِ تَكْفِيرَ ذَنْبِي حَسْبَمَا جَاءَ فِي الصُّحَاكِ الْعَوَالِي^(٢)
 لَا تَدُومُ الدُّنَا وَلَا الْخَيْرُ فِيهَا وَكَذَا الشَّرُّ ذَا وَذَا لِلزُّوَالِ
 فَاعْتَنَمُ سَاعَةَ الْوَصَالِ وَكَمْ مِنْ مُحَنَةٍ وَهِيَ مَنَحَةٌ مِنْ نَوَالٍ
 فَإِذَا غَبَتْ عَنْكَ فَاحْضِرْ تَجِدْهَا لِلْجَوَابِ الْمَفِيدِ عَنِ السُّؤَالِ^(٣)
 فَهِيَ نُورُ النَّهَارِ^(٤) وَالنُّورُ مِنْهَا وَهِيَ الْأَنْسُ فِي اللَّيَالِي الطُّوَالِ
 فَاسْتَدِمَّهَا تَدْمٌ وَلَا تَضْجُ مِنْهَا وَأَذْرِهَا عَلَى الْيَمِينِ وَوَالٍ

فَإِنَّ الْكَأْسَ مَجْرَاهَا عَلَى الْيَمِينِ، وَمَسْرَاهَا لَفِي الصَّبْحِ الْمُبِينِ، تَغْنِي عَنْ
 الْإِصْبَاحِ وَالْمُصْبَاحِ، وَتُذْنِي لَهُمْ مَعْنَى النُّورِ الْمَشْرِقِ فِي الْوُجُوهِ الصُّبَّاحِ، وَتَجْرِي فِي
 الْأَشْبَاحِ، فَتَسْرِي فِي الْأَرْوَاحِ. وَهَذِهِ الرِّسَالَةُ طَوِيلَةٌ، فِيهَا كُلُّ بَدِيعٍ مِنْ نَظْمٍ وَثَرٍ.

فَأَجَابَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [الخفيف]

أَرْغَمَنُ هَذِهِ الْقَيُودُ الثُّقَالُ رَبُّ وَدِّ مَصِيرُهُ لِلتُّغَالِي^(٥)
 طَالَ صَبْرِي عَلَى الْجَدِيدِينَ حَتَّى كَذَبْتُ مِمَّا لَقِيتُ أَنْ يُشْفَقَا لِي^(٦)
 إِنَّ بَعْضَ الرِّضَا لَدَيْهِ فَسِيحُ أَيُّ مَدِّ^(٧) بِهِ وَأَيُّ ابْتِقَالِ
 حَاشَ اللَّهُ أَنْ أَكُونَ لَشَيْءٍ شَادَهُ الصَّانِعُ الْقَدِيمُ بَغَالِ
 إِنْ عِنْدِي مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ لِأَمَانِي لَمْ يُمْلِهِنَّ الْقَالِي^(٨)
 يَا إِمَامِي الَّذِي بُوْدِي لَوْ أَمَّ كُنْ نُضْلِي^(٩) إِلَيْهِ أَوَّارِ قَالَ

(١) فِي الْأَصْلِ: «الْمَوَالِ» بِدُونِ يَاءٍ.

(٣) عَجَزَ الْبَيْتَ مَنَكَسَرَ الْوِزْنَ.

(٥) فِي الْأَصْلِ: «لِلتُّغَالِ» بِدُونِ يَاءٍ.

(٧) فِي الْأَصْلِ: «مَدَدٌ» وَكَذَا يَنكَسِرُ الْوِزْنَ.

(٩) فِي الْأَصْلِ: «نَصِيٌّ»، وَلَا مَعْنَى لَهُ.

(٢) فِي الْأَصْلِ: «الْعَوَالِ» بِدُونِ يَاءٍ.

(٤) فِي الْأَصْلِ: «لِلنَّهَارِ» وَكَذَا يَنكَسِرُ الْوِزْنَ.

(٦) فِي الْأَصْلِ: «الْ» بِدُونِ يَاءٍ.

(٨) فِي الْأَصْلِ: «الْقَالِ» بِدُونِ يَاءٍ.

ازجُ دنياك وازجُ مولاك واعلم
وابتغاء الثواب من ربك اعمل
واغننم غيبة الرقيب ففيها
وأجل في الوجود ففكر غني
وإذا الوقت ضاق وسغه بالضرب
ربما تكره النفوس من الأم
أن راجي سواه غير مقال
فهو يُجزى الأعمال بالمثقال
لقلوب الرجال أي صقال
عن ضروب الإنعام والأخقال
ير ولا تنس من شهير المقال
ر له فرحة كحل المقال

لا غرو أن وقع توان، أو تلوم دهر ذو ألوان، فالأمر بين الكاف والنون، ومن صبر لم يبوء بصفقة المغبون، وللسعداء تخصيص، ومع التقريب تمحيص، وما عن القضاء محيص، والمتصرف في ماله غير مغتوب، وقديم الحقيقة إلى الحيف ليس بمنسوب. وقد ورد خطاب عمادي أطاب الله محضره، وسدد إلى المرامي العلية نظره، ناطقًا بلسان التفويض، سارحًا من الرضا في القضاء العريض، لائذًا بالانقياد والتسليم، قائمًا على أسكفة^(١) باب الأدب لمثابة حكم الحكيم.

ومنها: والوقائع عافاكم الله وعَظا، ونحن هُجود وفي الحي أيقاظ، وما كل المعاني تؤديها الألفاظ. وهذا الفنا الذي نشأ عن الوقت، هو إن شاء الله عين البقيا. وإذا أحب الله عبدًا حماء الدنيا، وما هي إلا فنون، وجنون فنون، وحديث كله مجون. وقد يجمع الله الشيتيين، ولن يغلب عسر يُسرين ولا باس، ويا خطب لا مساس، وأبعد الله الياس، وإنما يوفي الأجر الصابرون، ولا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون. وهي طويلة بديعة.

أسمع بعضرة غرناطة لما قدم عليها وارتسم في جملة الكتاب بها، وحذث عن رضي الدين أبي أحمد إبراهيم الطهري، بسماعه من الشريف يونس بن يحيى الهاشمي، بسماعه من أبي الوقت طراد. وعن الإمام سراج الدين أبي حفص عمر بن طراد المعري القاضي بالحرم الشريف، وعن شرف الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الحميد الهمداني، وعن الإمام بهاء الدين الخميري عن أبي الطاهر السلفي، وعن جماعة غيرهم، وكان وروده على الأندلس في أوائل عام خمسة عشر وسبعمائة، وحضر بها غزوات، ولقي من كان بها من الأعلام. ثم انصرف عنها في أوائل عام ثمانية عشر، وأحل بسبته، فأكرم رئيسها أبو عمر يحيى بن أبي طالب العزفي قدومه، وأنزله بدار جليلة كان بها علو مطلق على البحر، لم يتمكن من مفتاحه، لأمر اقتضى

(١) أسكفة الباب: خشبه التي يوطأ عليها. محيط المحيط (سكف).

ذلك، فكتب إليه : [الكامل]

يا صاحبَ البلدِ المليحِ المشرقِ ما مثله في مَغربٍ أو مَشرقِ
منها:

وَحَفَظْتُ عِيشِي فِيهِ فَارْفَعْ مَنْزِلِي حَتَّى أَرَى الدُّنْيَا بِطَرْفِ مُطَرِّقِ
وتجول في البلاد، ولقي مَنْ بها، واتصل بالأمير أبي علي بسجلماسة، ومدحه
بقصيدة حُفظ له منها : [الطويل]

فيا يوسفِي الحُسْنِ والصَّفْحِ والرِّضَا تَصَدَّقْ عَلَى الدُّنْيَا بِسُلْطَانِكَ الْعَدْلِ
ثم اتصل بوطنه.

وفاته: نقلت من خط شيخنا أبي بكر المذكور: وفي عام أربعين وسبعمائة،
توفي بتونس صاحبنا الحاج الفاضل المتصوِّف، الكاتب أبو عبد الله محمد بن علي
المليكشي الشهير بابن عمر. صَدُرَ في الطلبة والكتاب، شهيرٌ ذو تواضع وإيثار،
وقبول حسن، رحمه الله.

محمد بن علي بن الحسن بن راجح الحسني^(١)

من أهل تونس، يكنى أبا عبد الله.

حاله: هذا^(٢) الرجل الفاضل، صاحب زُواء وأبهة، نظيفُ البزة، فارهُ المَرْكَبِ،
صدوف عن الملة، مقيم للرسم، مطفّف في مكياال الإطراء، جَمُوحٌ في إيجاب
الحقوق، مترامٍ إلى أقصى آماد التوغُّل، سخيُّ اللسان بالثناء ثنائه، فكة مطبوع،
حسن الخلق، عذب الفكاهة، مخصوصٌ حيث حلَّ من الملوك والأمراء بالآثرة،
ومُمنّ دونهم بالمُداخلة والصُّحبة، ينظم الشعر، ويحاضر بالأبيات، ويتقدّم في باب
التَّحسين والتَّقبيح، ويقوم على تاريخ بلده، ويثابر على لقاء أهل المعرفة والأخذ عن
أولي الرواية. قَدِمَ على الأندلس في إحدى جمادين، عام خمسين وسبعمائة، مُفْلَتًا
من الواقعة^(٣) بالسلطان أبي الحسن بالجهات الشرقية، بأيدي بني زِيَّان وأخلافهم،

(١) ترجمة ابن راجح في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢١٩).

(٢) راجع نفح الطيب (ج ٨ ص ٢١٩ - ٢٢٠).

(٣) هي الواقعة التي دارت بين أبي الحسن المريني، صاحب المغرب، وبين بني زيان، أصحاب
تلمسان، وقد هزم فيها أبو الحسن المذكور.

فمهّد له سلطانيّتها، رحمه الله، كنّف برّه، وأواه إلى سعة رَغِيهِ، وتأكّدت بيني وبينه صحبة.

شعره: كتبتُ إليه لأول قدومه بما نصّه: أحذو حذو أبيات، ذكّر أنّ شيخنا أبا محمد الحضرمي خاطبه بها^(١): [الطويل]

أَمِنْ جَانِبِ الْغَرْبِيِّ نَفْحَةٌ بَارِحٌ
قَدَحْتُ بِهَا زَنْدَ الْغَرَامِ وَإِنَّمَا
وَمَا هِيَ إِلَّا نَسْمَةٌ حَاجِرِيَّةٌ
رَجَحْنَا لَهَا مِنْ غَيْرِ شَكِّ كَانِهَا
فَتَى هَاشِمٍ سَبَقًا إِلَى كُلِّ عَلِيَّةٍ^(٢)
أَصِيلُ الْعَلَاءِ، جُمُ السِّيَادَةِ، ذَكَرَهُ
وَفَرَقَانُ مَجْدٍ يَصْدَعُ الشُّكَّ نُورُهُ
وَفَارِسُ مِيدَانِ الْبَيَانِ إِذَا انْتَضَى
رَقِيقٌ كَمَا رَاقَتْكَ نَغْمَةٌ سَاجِعٌ
إِذَا مَا احْتَبَى مُسْتَحْفَرًا^(٣) فِي بِلَاغَةٍ
وَقَدْ شُرِعَتْ فِي مَجْمَعِ الْحَفْلِ نَحْوَهُ
فَمَا ضَغَضَعَتْ مِنْهُ لَصُولَةُ صَادِحٍ^(٤)
تَذَكَّرْتُ قُسًا قَائِمًا فِي عُكَاظِهِ
لِيَهْنِكَ شَمْسُ الدِّينِ مَا حُزَّتْ مِنْ عِلَا
رَعَى اللَّهُ رُكْبًا أَطْلَعَ الصَّبْحَ مُسْفَرًا
ومنها:

أقول لقومي عندما حطّ كورُها وساعدها السُّغْدَانُ وَشَطَّ الْمَسَارِحِ^(٥)

(١) القصيدة في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٢٠ - ٢٢١).

(٢) في النفع: «الجوارح». (٣) في النفع: «غاية».

(٤) في الأصل: «مُعار الحبل» والتصويب من النفع.

(٥) الفادح: الخطب الذي يثقل حمله. يقول امرؤ القيس من معلقته: [الطويل]
فِيَا لَكَ مِنْ لَبَلٍ كَأَنَّ نَجْوَمَهُ بِكُلِّ مُنَارِ الْقَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ

ديوان امرئ القيس (ص ١٩).

(٧) في النفع: «وخوض».

(٩) في النفع: «خواتمه».

(١١) في النفع: «الأباطح».

(٦) في النفع: «مستحضرًا».

(٨) في النفع: «صادح».

(١٠) في الأصل: «والبطائح».

ذُرُّوها وأَرْضَ الله لا تَغْرِضُوا لها
إذا ما أَرَدْنَا القولَ فيها^(١) فَمَنْ لَنَا
بَقِيَتْ مُنَى نَفْسٍ وَتُحْفَةٌ رائِد^(٢)
ولا زِلْتَ تَلْقَى الرِّحْبَ^(٣) والْبَرَّ حيثما
فأجَابني بما نصه^(٤): [الطويل]

أَمِنْ مَطْلَعِ الأنوارِ لَمَحَّةٌ لَامِحِ
وهل بِالمُنَى من مَوْرِدِ الوضَلِ يَرْتَوِي
فيا قَيْضَ عَيْنِ الدَّمْعِ ما لك وَالْجَمِي
مَرَابِعُ أَرَامِي ومَوْرِدُ نَاقَتِي
سَقَى الله ذَاكَ الْحَيَّ وَذَقَا^(٥) فَإِنَّهُ
وَأَبْدَى لَنَا حُورَ الْخِيَامِ تُزَفُّ فِي
تَرَى حَيَّ تِلْكَ الْحُورِ لِلْحُورِ مَهَيَّجَ^(٦)
وَيَا دَوْحَةَ الرِّيحَانِ^(٧) هل لي عودَةٌ
وهل أَنْتِ إِلَّا طَلَّةٌ^(٨) حَاتِمِيَّةٌ
أَقَامَ بِهَا الْفَخْرَ الْخَطِيبُ^(٩) مَنَابِرًا
وَشَفَّعَ بِالْإِنْجِيلِ خَمْدَ مَدِيحِهِ
وَقَرَّقَ بِالْفُرْقَانِ كُلَّ فَرِيقَةٍ
وهل هُوَ إِلَّا لِلْبَرِيَّةِ مُرْشِدُ
فَبُشْرَى^(١٠) لِسَانِ الدِّينِ سَادَ بِكَ الْوَرَى

بِمَغْرِضٍ سَوِيٍّ فَهِيَ نَاقَةٌ صَالِحِ
بِطُوعِ الْقَوَافِي وَانْبِعَاطِ الْقَرَائِحِ
وَمَوْرِدَ ظِمَّانٍ وَكَعْبَةٍ مَادِحِ
أَرَحْتَ الشَّرَى مِنْ كُلِّ غَادٍ وَرَائِحِ

تُعَارِ لِمَفْقُودٍ^(١١) عَنْ الْحَيِّ نَازِحِ؟
غَلِيلُ عَلِيلٍ لِلتَّوَاصِلِ جَانِحِ؟
وَرُنْدُ الْحَمَى وَالشَّيْخُ شَيْخَ الْمَشَايِحِ^(١٢)
فَسَقِيَا لَهَا سُقِيَا لِنَاقَةٍ صَالِحِ
جَمِي لِمَحَاتِ الْعَيْنِ عَنْ لَمَحِ سَامِحِ^(١٣)
حُلَى الْحَسَنِ وَالْحُسْنَى وَحَلَى الْمَلَامِحِ
يَدْلُ، وَهَلْ خَسَمَ لِدَاءِ الثِّبَارِحِ؟
لَعَقَرِ عُقَارٍ^(١٤) الْأَنْسَ بَيْنَ الْأَبَاطِحِ؟
تُفْصُ نَوَادِيهَا بِغَادٍ وَرَائِحِ
لِتَرْتِيلِ آيَاتِ النُّدَى وَالْمَنَائِحِ
وَأَوْتَرِ بِالشُّورَةِ شَفَّعَ الْمَدَائِحِ
نَاطَ عَنْ رَشَادٍ فِيهِ مَعْنَى^(١٥) النَّصَائِحِ
لِكُلِّ هَدَى هَادٍ لِأَرْجَحِ رَاجِحِ
وَأَوْزَى الْهُدَى لِلرُّشْدِ أَوْضَحِ وَاضِحِ

(٢) في النفع: «قادم».

(١) في النفع: «فيه».

(٣) في النفع: «البرّ والرحب».

(٤) القصيدة في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢٢١ - ٢٢٣).

(٥) في النفع: «تُعَاد لِمَفْقُودٍ».

(٦) في النفع: «الأشايح».

(٧) الودق: المطر. لسان العرب (ودق).

(٨) في النفع: «لامح».

(٩) المهيج: الطريق الواضح. محيط المحيط (هيج).

(١٠) في الأصل: «الرؤيحان» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(١١) في النفع: «العفر عفار».

(١٢) في النفع: «حلة».

(١٣) في الأصل: «ابن الخطيب» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(١٤) في النفع: «محضر».

(١٥) في الأصل: «بشراك شمس الدين» والتصويب من النفع.

متى قلت لم تترك مقالاً لقائل
فمن حام بالحي الذي أنت أهله^(٣)
يحق له أن يشفع الحمد بالشنا
ويا فوز ملك دمت صدر صدوره
بأرائك النى تدل على الهدى
ملكك خصال السبق في كل غاية
مطامح آمال لأشرف همة
فدونكها يا مهدي المدح مدحة
تهنيك^(٨) بالعام الذي عم حمده^(٩)
فخذها سمي الفخر يا خير منبل
ودم خاطب العليا لها خير خاطب

فإن^(١) لم تقل لم يغني حمده^(٢) لمادح
وعام ببحر من عطائك^(٤) طافح
ويغدو بذاك البحر أسبح سابع
ويشري له قد راح أربح رابح
وتبدي لمن خصصت سبل^(٥) المناجع
وملكت من^(٦) ملكت يا ابن الجحاجع^(٧)
أقل مراميهما أجل المطامح
أحبب بها عن مدح أشرف مادح
مواهب هاتيك البحار الطوافح
على الخلق إغضاء^(١٠) سثور التسامح
وأتوق تواق وأطمح طامح

وتلقاني بمالقة عند قدومي من الرسالة إلى المغرب، في محرم عام ستة وخمسين وسبعمائة، ونظم لي هذه الأبيات، ولا حول ولا قوة إلا بالله: [الطويل]

قدومك ذا أبدى لذي الراية الحمرا
وأينع فجر الرشد من قلق الهدى
سرينا له كي يحمّد السير والسرى
ونصبح في أحياء للمن^(١١) نستلم
ونخطب ما، يا ابن الخطيب، تشاء^(١٢) من
فقابلت بالإقبال والبر والرضى
فأبناء قدس الحمد خضرة قدسنا

ثغور الرضى تغبر عن شئب البشر
وكونه نهرا وفجره فنجرا
ونرقب شمس الدين من فرعك الفجرا
مواطنكم شفعا وأثاركم وثرا
كرائم ذاك الحي إذ نهز الشغرى
وأقريت من يقرأ وأقرزت من قرأ
وأقدامنا تملأ وأمداحكم تقرأ

(١) في النسخ: «وإن».

(٢) في النسخ: «رئه».

(٣) في النسخ: «سبل».

(٤) في النسخ: «مدحه».

(٥) في الأصل: «أغضاء» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النسخ.

(٦) في الأصل: «في أحياء المن» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

(٧) في الأصل: «تشاء» وكذا ينكسر الوزن.

(٨) في النسخ: «مدح».

(٩) في النسخ: «عطائك».

(١٠) في النسخ: «ما».

(١١) الجحاجع: جمع جحجج وهو السيد السمع الكريم. لسان العرب (جحجج).

(١٢) في الأصل: «يُهنئك»، وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النسخ.

هنيئاً لنا نسلنا ونلنا ولم نزل
 رأينا وزير المَلَد والمُلْك واللوى
 سجدنا وكبرنا وقلنا: رسولنا
 ويهني الورى هذا الإياب فإن في
 أرانا سنا ذا اليوم أجمل منظر
 أما والذي أوليت من نعمة غدت
 لأنت لسان الدين للدين حجة
 بقيت لنا كثفاً منيعاً مشرقاً
 ودُفنا بكم في كل أمن ومئة
 ومن أمثل ما مدح به السلطان لأول
 قدومه بالنسبة إلى غير ذلك من شعره:
 [الطويل]

أما والعيون الشجل ترمق عن سخر
 وريحانه والراح والطل والطللى
 ونور جبين الشمس في رونق الضحى
 لقد قلدت آراء يوسف ملكه
 وقد أيد^(٢) الإسلام منه بناصر
 هم القوم أنصار النبي محمد
 وحسبك من قوم حموا سيد الورى
 سقى شريعة الإسلام وذوق سيوفهم
 فأصبح روض الرشد يعبق طيبه
 فبا سائلي عنه وعن سبطاته
 وجز^(٤) مع الإقدام جيشاً عرمرما
 ووزد رياض الخد والكأس والخمر
 وترجسه والزهر والنور والنهر
 وهالة بذر التم منتصف الشهر
 قلائد نصر لن تبید مع الدهر
 نصير وخير النصر نصر بني نصر
 به^(٣) غصبة الأعلام في اليسر والعسر
 وقاموا ينصر الحق في السر والجهر
 رحيق الأمانى طيب العرف والنشر
 ودوخ الهدى بالزهر أزهاره تزي
 إذا لاح محفوظاً براياته الحمر
 وشرد بالتأييد شردمة^(٥) الكفر

(١) في الأصل: «أو نصلي» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

(٢) في الأصل: «أيده» وكذا ينكسر الوزن ولا يستقيم المعنى.

(٣) في الأصل: «وحزبه وعصبة...» وكذا ينكسر الوزن.

(٤) في الأصل: «وجز» وكذا ينكسر الوزن، ولا معنى له.

(٥) الشردمة: الجماعة القليلة من الناس، محيط المحيط (شرذم).

لخليفة تنبيك عما وراءها
فيا فوز من أدناه بالغنم والغنى
يمينا بما اختارت يداك وأخرزت
لقد أضعدت مجدي مدائنك التي
وحق لمثلي يشفع الحمد بالثنا
فأجني ثمار الأنس من روضة المني
وأشرب ماء الفوز عذبا ختامه
ولا برحت أمداحكم تعجز النهى
ولا زالت الأقدار تخدم رأيكم

ولا غزو فالإفصاح يُعرف بالعجز
ويا ويل من أقصاه للفقير والفقر
من الملك والتأييد والتأيي والأمر
ومجدك والعليا مدحت بها شعري^(١)
ويتلو معانيه مع الشفع والوثر
واقطف زهر^(٢) الحمد من شجر الشكر
رحيق براح السمنح في أكؤس البشر
ولأ فكم تُنجني من العسر اليسر
وراياتكم ما دام نجم للسرا يسري

وكتب إلي في غرض يظهر منه نص المراجعة، وحسبنا الله^(٣): [الطويل]

أما والذي لي في حلاك من الحمد
لقد أشعرتني النفس أنك معرض
فإن زلة مني^(٤) بدت لك جهرة

وما لك ملاكي علي^(٥) من الرfid
عن المسرف اللاتي لفطرك يستجدي^(٦)
فصفحا فما والله إذ كنت عن عمد^(٧)

فراجعتة بقولي^(٨): [الطويل]

أجلك عن عتب يغض من الود
ولكنني أهدي إليك نصيحتي
إذا ميقول الإنسان جاوز خده
فأصبح منه الجد هزلا مذمما
فما استطعت^(٩) فيضا^(١٠) للعنان فإنه

وأكرم وجة العذر منك عن الرد
وإن كنت قد أهديتها ثم لم تجد
تحولت الأغراض منه إلى الضد
وأصبح منه الهزل في معرض الجد
أحق السجايا بالعلاء^(١١) والمجد

(١) في الأصل: «شعر» بدون ياء. (٢) في الأصل: «زهير» وكذا ينكسر الوزن.

(٣) الأبيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢١٩). (٤) في النفع: «الدي».

(٥) في الأصل: «يستجد» بدون ياء. وفي النفع: «الآتي لفضلك يستجدي».

(٦) كلمة «مني» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من النفع.

(٧) في النفع: «... والله أذنبت عن قصدي». (٨) الأبيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢١٩).

(٩) في الأصل: «استطعت» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(١٠) في النفع: «قبضا».

(١١) في الأصل: «بالعلاء» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

توفي يوم الخميس الثالث لشعبان عام خمسة وستين وسبعمائة، وقد ناهز السبعين سنة، ودفن بروضتنا بباب البيرة، وأغفي شارب الشعر من نابي^(١) مقصّه. وغير هذه الدعوى قرارها تجاوز القضية.

محمد بن علي بن عمر العبدري^(٢)

من أهل تونس، شاطبي الأصل، يكنى أبا عبد الله، صاحبنا.

حاله: كان فاضلاً من أبناء النعم، وأخلاف العافية، ولّي أبوه الحجابة بتونس عن سلطانها برهة، ثم عدا عليه الدهر، واضطر ولده هذا إلى اللحاق بالمشرق، فاتصل به سُكناه وحج، وآب إلى هذه البلاد ظريف النزعة، حلو الضريبة، كثير الانطباع، يكتب ويُشعر، ويكُلف بالأدب، ثم انصرف إلى وطنه. وخاطبني إلى هذا العهد، يُعرفني بتقلده حُطة العلامة، والحمد لله.

وجرى ذكره في كتاب «الإكليل» بما نصّه^(٣): غَذيي نعمة هامية، وقريع رتبة سامية، صُرِفْتُ إلى سلفه الوجوه، ولم يبق بإفريقية^(٤) إلّا مَنْ يَخافُه ويَرْجوه، وبلغ هو مدة ذلك الشرف، الغاية من الشرف. ثم قلب الدهر له ظهر المِجَنّ، واشتدّ به الخُمار^(٥) عند فراغ الدنّ، ولحق صاحبنا هذا بالمشرق بعد خطوب مبيرة^(٦) وشدة كبيرة، فامتزج بسكانه وقُطّانه، ونال من اللذات ما لم ينله في أوطانه؛ واكتسب الشمائل العذاب، وكان كابن الجَهَم^(٧) بُعِثَ إلى الرُصافة ليرقّ فذاب، ثم حوّم على وطنه تحويم الطائر، وألمّ بهذه المدينة^(٨) إمام الخيال الزائر، فاغتنت صَفْقَة وُدّه لحين وروده، وخَطَبْتُ موالاته على انقباضه وشروده، فحصلتُ منه على دُرّة تُقْتنى، وحديقة طيبة الجنى.

شعره: أنشدني في أصحاب له بمصر قاموا ببرّه^(٩): [الطويل]

لكلّ أناسٍ مَذْهَبٌ وَسَجِيَّةٌ وَمَذْهَبُ أولادِ النظامِ المكارمِ

(١) في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٢٣): «ثاني».

(٢) ترجمة محمد بن علي العبدري في الدرر الكامنة (ج ٤ ص ١٩٨) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٧).

(٣) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٧). (٤) في النفح: «من إفريقية».

(٥) الخُمار، بضم الخاء: الأكم في الرأس يصيب شارب الخمر. لسان العرب (خمر).

(٦) مُبيرة: مُهلكة. لسان العرب (بير).

(٧) هو علي بن الجهم، من شعراء المتوكل العباسي.

(٨) في النفح: «البلاد». (٩) الأبيات في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٧).

إذا كنتَ فيهم ثاورياً كنتَ سيِّداً وإنْ غَبِثَ عنهمْ لم تَنَلْكَ المظالمُ
أولئك صَحْبِي، لا عَدِمْتُ حَيَاتَهُمْ ولا عَدِمُوا السَّعْدَ الَّذِي هُوَ دَائِمُ!
أُعْنِي بذكرهم وطيب حديثهم كما غَرَّدَتْ فوق العُصُورِ الحمامُ

ومن شعره يتشوق إلى تلك الديار، ويتعلل بالتذكُّار، قوله^(١): [الوافر]

أَحْبَبْنَا بِمِصْرٍ لو رَأَيْتُمْ بكائي عند أطرافِ النهارِ
لكنتم تُشْفِقُونَ لفرطِ وَجْدِي وما أَلْقَاهُ من بُغْدِ المزارِ^(٢)

ومن شعره: [الطويل]

تَعْنَى حَمَامُ الْأَيْكِ يَوْمًا بِذِكْرِهِمْ فَاطْرَبَ حَتَّى كَذْتُ مِنْ ذِكْرِهِمْ أَفْنَى
فَقُلْتُ: حَمَامُ الْأَيْكِ لَا تُبْكِي جَبْرَةً نَأْوًا^(٣) وَانْقَضَتْ أَيَّامُ^(٤) وَضْلِهِمْ عَنَّا
فَقَالَ وَلَمْ يَزِدْ جَوَابًا لِسَائِلِ أَلَا لَيْتَنَّا كُنَّا جَمِيعًا بِذَا حِقْنًا^(٥)

ومن جيد شعره الذي أجهد فيه قريحته، قوله يمدح السلطان المعظم أبا الحسن في ميلاد عام سبعة وأربعين وسبعمئة: [الطويل]

تَقَرُّ مَلُوكُ الْأَرْضِ أَنَّكَ مَوْلَاهَا وَأَنَّ الدُّنَا وَقَفَّ عَلَيْكَ قَضَايَاهَا
وَمِنْهَا:

طَلَعْتَ بِأَفْقِ الْأَرْضِ شَمْسًا مَنِيرَةً أَنَارَ عَلَى كُلِّ الْبِلَادِ مُحَيَّاها
حَكَيْتَ لَنَا الْفَارُوقَ^(٦) حَتَّى كَانْنَا مَضِينًا^(٧) بَعِينَ لَا تُكَذِّبُ رُؤْيَاها
وَسِرْتَ عَلَى آثَارِهِ خَيْرَ سِيرَةٍ قَطَعْنَا بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّكَ يَرْضَاهَا
إِذَا ذُكِرَتْ سِيرُ الْمُلُوكِ بِمَحْفَلِ وَنَادَى بِهَا النَّادِي وَخَسَنَ دُثْيَاهَا
فَجُودُكَ رَزَاهَا وَمَلُوكُكَ زَانَهَا وَعَدْلُكَ زَانَهَا^(٨) وَذَكَرُكَ خَلَاهَا
وَأَنْتَ لَهَا كَهْفٌ حَصِينٌ وَمَعْقِلِ تَلُوذُ بِهَا أُولَى الْأُمُورِ وَأَخْرَاهَا

(١) البيتان في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٧). (٢) في النفع: «الديار».

(٣) في الأصل: «ناهوا» وكذا ينكسر الوزن ولا يستقيم المعنى.

(٤) كلمة «أيام» ساقطة في الأصل. (٥) في الأصل: «ألحقنا» وكذا ينكسر الوزن.

(٦) في الأصل: «لفاروق»، وكذا ينكسر الوزن. والفاروق هنا: هو لقب عمر بن الخطاب، سمي بذلك لأنه فرق بين الحق والباطل. محيط المحيط (فرق).

(٧) كلمة «مضينا» ساقطة في الأصل.

(٨) في الأصل: «زاهها» وكذا لا معنى له، وفي الوقت نفسه يختل الوزن.

ومنها بعد كثير :

ومنكم ذوو الثيجان والهمم التي	أناف على أغلى السماكين أذناها
إذا غاب منهم مالك قام مالك	فَجَدَدٌ ^(١) للبيت المقدس عليها
بناها على التقوى وأسس بيتها	أبو يوسف الزاكي وسيّر مبنائها
وأورثها عثمان خير خليفة	وأخلم من ساس الأنام وأندائها
وقام علي بعده خير مالك	وخير إمام في الورى راقب الله
علي بن عمر بن يعقوب ذو العلا	مذيق الأعادي حيشما سار بَلّواها
أدام الله وأعطى الخلافة وقتها	ونور أخلاك الخطوب وجَلّاهَا

ووصلني كتاب منه مؤرخ في التاسع عشر من شهر شعبان المكرم من عام أربعة وستين وسبعمائة، جدد عهدي من شعره بما نصه : [الطويل]

رَحَلْنَا فشرقنا وراحوا فغرّبوا	ففاضت لروعات الفراق عيون
فيا أدمعي مُنْهَلَةٌ إثر بينهم	كان جفوني بالدموع عيون
فيا مَعْهَدًا قد بَثَّ عنه مكلفا	بديلي منه أنة وحنين
سَقَتْكَ غواذي المُرْنِ كَرُّ عَشِيَّة	وداك محلول النطاق هُتُون
فإن تكن الأيام لم تُقْضِ بيننا	بوضل فما يُقْضَى فسوف يكون
يعزُّ علينا أن تُفارق رِنَعُكُمْ	وأنا على أيدي الخطوب نُهون
ولو بَلَّغْتَنِي العِيرُ عَنْكُمْ رسالة	وساعد دَهْرٌ باللقاء ضنين
لكنّا على ما تعلمون من الهوى	ولكن لأحداث الزمان قُسنون

(١) في الأصل : «مَجْدَد» وكذا ينكسر الوزن.

فهرس المحتويات

٣ الخزرجي	محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن فرج بن يوسف بن نصر
٥ شيخ الغزاة ورئيس الجند الغربي لأول أمره	
٩ الأحداث في أيامه	
١١ الحادثة التي جرت عليه	
١٤ ترتيب الدولة الثانية السعيدة الدور إلى بيعة الكور	
١٨ ظَرْفُ السلطان وخُسن توقيعه	
٢١ ومن ملوك النصاري	
٢٤ بعض مناقب الدولة لهذا العهد	
٤٣ الجهاد في شعبان من عام سبعة وستين وسبعمائة	
٤٥ الغزاة إلى حصن أشر	
٤٥ الغزاة المُعملة إلى أطرية	
٤٦ الغزاة إلى فتح جِيَان	
٤٦ الغزاة إلى مدينة أبدَة	
٥٠ مولده السعيد النَّشِيْة، الميمون الطلوع والجِيْة	
٥١ الأنصاري	محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي
٥٤ الملوك على عهده	
٥٧ الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري، المنصور بن أبي عامر	محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عامر بن محمد بن أبي
٥٨ غزواته وظهوره على أعدائه	
٦١ عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم، لخمى النسب	محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل ابن قريش بن
٦٦ توقيعه ونثره في البديهة	
٧٠ محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مَرْذَنِيْش الجُدَامِي	

٧١ ما نقم عليه ووصم به
٧٣ بعض الأحداث في أيامه، ونبد من أخباره
٧٤ محمد بن يوسف بن هود الجذامي
٧٥ بعض الأحداث في أيامه
	محمد بن أحمد بن زيد بن أحمد بن زيد بن الحسن بن أيوب بن حامد بن
٧٧ زيد بن منخل الغافقي
٧٧ حاله ونباهته ومحتته ووفاته
٧٨ خبر في وفاته ومقرجه
٧٩ محمد بن أحمد بن محمد الأشعري
٨٠ محمد بن فتح بن علي الأنصاري
٨٠ محمد بن أحمد بن علي بن حسن بن علي بن الزيات الكلاعي
٨١ محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج
٨٢ محمد بن رضوان بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أرقم الثميري
	محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن خلف بن
	محمد بن سليمان بن سوار بن أحمد بن حزب الله بن عامر بن سعد
٨٣ الخير بن عتاش
١٠١ محمد بن عبد الله بن منظور القيسي
١٠٣ محمد بن علي بن الخضر بن هارون الغساني
	محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن سعد
١٠٦ الأشعري المالقي
	محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن
	محمد بن علي بن موسى بن إبراهيم بن محمد ابن ناصر بن حيون بن
	القاسم بن الحسن بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله
١١٠ تعالى عنه
١١٤ محمد بن أحمد بن عبد الملك الفشتالي
	محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي
١١٦ بكر بن علي بن داود القرشي المقرئ
١٢٥ من فصل الإقبال
١٤٤ محمد بن عياض بن محمد بن عياض بن موسى اليحصبي
١٤٥ محمد بن عياض بن موسى بن عياض بن عمر بن موسى بن عياض اليحصبي
	محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن محمد بن سعيد بن جبير بن
١٤٦ محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام بن جبير الكِناني
	محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن
١٥٢ عبد الرحمن بن علي بن شبرين
١٥٩ محمد بن أحمد بن قطبة الدوسي

١٦١ محمد بن محمد بن أحمد بن قُطبة الدُّوسي
١٦٢ محمد بن محمد بن محمد بن قُطبة الدُّوسي
١٦٢ محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قُطبة الدُّوسي
١٦٣ محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قُطبة الدُّوسي
١٦٣ يوسف بن جُزَي الكَلبي
١٧٢ محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن الحكيم اللخمي
١٧٤ محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن علي بن محمد اللُّوشي
١٧٦ محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن الحكيم اللخمي
١٨١ محمد بن محمد بن علي بن العابد الأنصاري
١٨٢ محمد بن مالك المُرِّي الطُّغري
١٨٣ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن عبد الملك الأوسي
١٨٤ محمد بن علي بن عبد الله بن علي القيسي العرادي
١٨٥ محمد بن علي بن العابد الأنصاري
١٨٦ محمد بن هاني بن محمد بن سعدون الأزدي الإلبيري القرناطي
١٩٠ محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن علي بن إبراهيم بن علي الغساني البرجي القرناطي
١٩٦ محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف بن محمد الصُّريحي
٢٠٧ ومن السفر السابع المُفْتَح بقوله ومن الطَّارئين منهم في هذا الباب
٢٠٧ محمد بن أحمد بن محمد بن أبي خيثمة الجبائي
٢٠٧ محمد بن أحمد بن عبد الله بن أحمد الاستجبي الحميري
٢١٦ محمد بن أحمد بن علي الهواري
٢٢٠ محمد بن أحمد بن الحدَّاد الوادي آشي
٢٢٣ محمد بن إبراهيم بن خيرة
٢٢٤ محمد بن إبراهيم بن علي بن باق الأموي
٢٢٦ محمد بن إبراهيم بن سالم بن فضيلة المعافري
٢٢٨ محمد بن إدريس بن علي بن إبراهيم بن القاسم
٢٢٩ شعره ودخوله غرناطة
٢٣٣ محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري
٢٤٣ محمد بن محمد بن أحمد بن شلبطور الهاشمي
٢٤٦ محمد بن محمد بن جعفر بن مُشتمل الأسلمي
٢٤٩ محمد بن محمد بن حزب الله
٢٥٢ محمد بن إبراهيم بن عيسى بن داود الحميري

٢٦١	محمد بن محمد بن عبد الله بن مقاتل
٢٦٢	محمد بن أحمد بن أحمد بن صفوان القيسي
٢٦٢	محمد بن محمد بن عبد الواحد بن محمد البلوي
٢٦٧	محمد بن محمد بن الشَّدِيد
٢٦٩	محمد بن مسعود بن خالصة بن فرج بن مجاهد بن أبي الخصال الغافقي
٢٨٨	محمد بن مُفضل بن مُهيب اللخمي
٢٩٥	محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي
٢٩٩	محمد بن عبد الله بن محمد بن لب الأمي
٣٠٨	محمد بن عبد الله بن الحاج البضيعة
٣٠٩	محمد بن عبد الله بن فطيس
	محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن فتوح بن محمد بن
٣١٠	أيوب بن محمد بن الحكيم اللخمي ذو الوزارتين
٣٣٢	محمد بن عبد الرحمن العقيلي الجراوي
٣٣٣	محمد بن عبد الرحمن المتأهل
٣٣٤	محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طُفَيْل القيسي
٣٣٤	حُظُوتُهُ ودخوله غرناطة
٣٣٧	محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عيَّاش التَّجِيبِي البُرْشَانِي ..
٣٣٩	بعض أخباره مع المنصور ومحاورته الدَّالة على جلالته قدره
٣٤١	محمد بن علي بن محمد بن إبراهيم بن محمد الهَمْدَانِي
٣٤٥	محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري
٣٤٧	محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قُزْمان الزُّهْرِي
٣٥٦	محمد بن غالب الرُّصَافِي
٣٦٦	محمد بن قاسم بن أبي بكر القرشي المالقي
٣٦٧	محمد بن سليمان بن القصيرة
٣٧٠	محمد بن يوسف بن عبد الله بن إبراهيم التميمي المازني
٣٧١	«ومن الغرباء في هذا الحرف» محمد بن حسن العُمَرَانِي الشريف
٣٧٣	محمد بن محمد بن إبراهيم بن المرادي ابن العشاب
٣٧٥	محمد بن محمد بن عبد الملك بن محمد بن سعيد الأنصاري الأوسي
	محمد بن خميس بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن خميس الحَنْجَرِي
٣٧٦	حَنْجَرُ ذِي رُغَيْنِ التَّلَمْسَانِي
٤٠٥	محمد بن عمر بن علي بن إبراهيم المليكشي
٤١٢	محمد بن علي بن الحسن بن راجح الحسني
٤١٨	محمد بن علي بن عمر العبدري